



مؤسسة مؤلفات
فضيلة الشيخ

٦٩

الحِكْمَةُ مِنَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثاني

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

الحِكْمَةُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

٦

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

أحكام من القرآن الكريم ج ٢ / محمد بن صالح العثيمين - ط ٣ -

عنيزة، ١٤٤٣هـ

٧٦٨ ص : ٢٤×١٧ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين: ٦٩)

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٠٢-٣١-٦

١ - العنوان

١ - القرآن - أحكام.

١٤٤٣/٢٢١٩

ديوي ٢٢٦.٢

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٢٢١٩

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٠٢-٣١-٦

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ
إِذَا لَمْ يَأْرَدْ طَبْعَ الْكِتَابِ لِتَوْزِيْعِهِ خَيْرِيًّا بَعْدَ مَرَاجَعَةِ الْمُؤَسَّسَةِ

الطبعة الثالثة

١٤٤٣هـ

يُطْلَبُ الْكِتَابُ مِنْ:

مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩

هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - فاكس : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوال المبيعات : ٠٥٥٧٣٣٧٦٦

www.binothaimeen.net

info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الذرة الدولية للطباعة والتوزيع

١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .

هاتف وفاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤



الحِكْمَةُ مِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثاني

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



(٢) سورة البقرة

• • • • •

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ، فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ، حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦١﴾﴾

في هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى عباده أن يُتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ.

والحجُّ هو: قَصْدُ مَكَّةَ لأداءِ مَنَاسِكَ الْحَجِّ.

والعُمْرَةُ: قَصْدُ مَكَّةَ لإِرَادَةِ الْعُمْرَةِ.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ فيه الإِشَارَةُ إِلَى الإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي هَاتَيْنِ الْعِبَادَتَيْنِ.

﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾ أي: مُنِعْتُمْ عَنِ الْإِتِمَامِ ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فَعَلَيْكُمْ

مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾، يَعْنِي: إِذَا أَحْرَمْتُمْ بِالْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ

فَإِنَّ مِنْ إِتِمَامِهِمَا: أَلَّا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ.

وَبَلُوغُ الْهَدْيِ مَحَلَّهُ فِي الْعُمْرَةِ: أَنْ يَصِلَ إِلَى الْبَيْتِ. وَفِي الْحَجِّ: أَنْ يَكُونَ عِيدُ

الْأَضْحَى، وَهُوَ يَوْمُ النَّحْرِ.

﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ أي: في حال الإِحْرَامِ ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ وإن لم يكن مَرَضًا كَالْقَمَلِ الْكَثِيرِ وَنَحْوِهِ ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ أي: فعليه فِدْيَةٌ من صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ.

والمعنى: مَنْ كَانَ مَرِيضًا، أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ، فَحَلَقَ رَأْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الْهَدْيَ مُحَلَّه، فعليه هذه الفِدْيَةُ، عَلَى التَّخْيِيرِ: صِيَامٌ، أَوْ صَدَقَةٌ، أَوْ نُسُكٌ.

وقد بيَّن النَّبِيُّ ﷺ الْمُجْمَلَ مِنَ الصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ، فَبَيَّنَ أَنَّ الصِّيَامَ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَأَنَّ الصَّدَقَةَ إِطْعَامُ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ^(١)، وَأَمَّا النُّسُكُ فَهُوَ ذَبْحُ شَاةٍ أَوْ مَا يَقُومُ مَقَامَهَا مِنْ سُبُعٍ بَقَرَةٍ أَوْ بَدَنَةٍ.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي: زال عَنْكُمُ الْحَضَرُ، وَأَمِنْتُمْ مِنَ الْخَوْفِ ﴿فَمَنْ تَمَنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فَإِذَا أَمِنْتُمْ، وَأَتَيْتُمْ بِالْعُمْرَةِ وَالْحَجِّ، وَقَدَّمْتُمْ الْعُمْرَةَ؛ لِتَحِلُّوا مِنْهَا، وَتَتِمَّتْ بَهَا إِلَى الْحَجِّ ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فَعَلَيْكُمْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ.

﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: لَمْ يَجِدِ الْهَدْيَ وَلَا ثَمَنَهُ ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: فعليه صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ - أي: قَبْلَ فَرَاغِ الْحَجِّ - وَسَبْعَةِ أَيَّامٍ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أَهْلِكُمْ، أَوْ إِذَا رَجَعْتُمْ مِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ الْمَشَارُ إِلَيْهِ: مَا سَبَقَ مِنْ صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب المحصر، باب الإطعام في الفدية، رقم (١٨١٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، رقم (٨٤ / ١٢٠١) من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعَ الْحَاجُّ ﴿عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

وأكدّها بـ: ﴿كَامِلَةٌ﴾؛ لئلاَّ يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّهَا لَمَّا تَفَرَّقَتْ كَانَ لِكُلِّ مِنْهَا حُكْمٌ خَاصٌّ، فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهَا وَإِنْ تَفَرَّقَتْ فَإِنَّهَا تُعْتَبَرُ مُتَتَابِعَةً، فَهِيَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ.

قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: مَا لَزِمَ مِنَ الْهَدْيِ أَوْ بَدَلِهِ ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ، وَمَنْ كَانَ دَاخِلَ أُمِّيَالِ الْحَرَمِ.

وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ: هُوَ مَسْجِدُ الْكَعْبَةِ. وَحَاضِرُهُ: مَنْ كَانَ بِقُرْبِهِ، بِأَنْ يَكُونَ دَاخِلَ أُمِّيَالِ الْحَرَمِ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي: اتَّخِذُوا وَقَايَةً مِنْ عَذَابِهِ، بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لِمَنْ لَمْ يَتَّقِهِ، وَمَنْ تَقَوَاهُ: تَنْفِيزُ مَا أَمَرَ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١- وَجُوبُ إِتْمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ.

٢- وَجُوبُ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْعِبَادَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِلَّهِ﴾، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِنْسَانِ جُنَاحٌ أَنْ يَبْتَغِيَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِطَلْبِ الرِّزْقِ، وَإِنْ كَانَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، لَكِنْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَصْلُ النِّيَّةِ خَالِصًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: وَفِي ذِكْرِ الْأَمْرِ بِإِتْمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ بَعْدَ ذِكْرِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْاسْتِنْبَاطُ: أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ،

عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالٌ فِيهِ: الْحَجُّ، وَالْعُمْرَةُ^(١).

٣- أَنْ مَنْ عَجَزَ عَنْ إِمْتَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُ يَتَحَلَّلُ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هَلِ الْمَرَادُ: الْحَضَرُ بِالْعَدُوِّ، بِمَعْنَى: إِنْ مَنَعَكُمْ عَدُوٌّ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ، فَأَجِلُّوا، وَادْبَحُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْهَدْيِ. أَوِ الْمَرَادُ: الْحَضَرُ الْعَامُّ، أَي: إِنْ مُنِعْتُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ بِأَيِّ سَبَبٍ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ مَرَضًا لَا يُرْجَى أَنْ يُشْفَى مِنْهُ قَبْلَ فَوَاتِ الْحَجِّ، أَوْ ضِيَاعَ نَفَقَةٍ، أَوْ ضِيَاعًا عَنِ الرَّفْقَةِ، أَوْ مَا أَشَبَهُ ذَلِكَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

فَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ عَمَّمَ الْإِحْصَارَ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَطْلَقَ، فَقَالَ: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾، فَيَشْمَلُ كُلَّ مَا يَمْنَعُ إِمْتَامَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةَ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ غَيْرِهِ، كَمَرَضٍ، أَوْ ضِيَاعِ نَفَقَةٍ، أَوْ مُشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ لَا تُحْتَمَلُ، وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ خَاصٌّ بِحَضَرِ الْعَدُوِّ فَقَطْ؛ لِقَوْلِهِ فِي أَثْنَاءِ الْآيَةِ: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَنَ تَمْنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ إِلَى آخِرِهِ.

وَالَّذِي يَظْهَرُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهُوَ ظُهُورٌ لَيْسَ بِذَاكَ الْقَوِيِّ- أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي أَيِّ حَضَرٍ كَانَ، وَأَنَّ ذِكْرَ حُكْمٍ يَخْتَصُّ بِبَعْضِ أَفْرَادِ الْعَامِّ لَا يَقْتَضِي تَخْصِيصَ الْعَامِّ بِذَلِكَ.

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَه: كِتَابُ الْمَنَاسِكِ، بَابُ الْحَجِّ جِهَادِ النِّسَاءِ، رَقْمُ (٢٩٠١)، وَأَحْمَدُ (٦/ ١٦٥) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَأَصْلُهُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابُ جِهَادِ النِّسَاءِ، رَقْمُ (٢٨٧٥).

وَنَظِيرُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعَوِّلُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ فَإِنَّ أَوَّلَ آيَةِ عَامٍّ، يَشْمَلُ الْمُطَلَّقَاتِ عَلَى وَجْهِ الْبَيِّنَةِ، وَالْمُطَلَّقَاتِ عَلَى وَجْهِ الرَّجْعِيَّةِ، وَأَثْنَاءَهَا - وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَيُعَوِّلُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ - يَقْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُطَلَّقَاتِ: اللَّاتِي لَأَزْوَاجِهِنَّ الرَّجْعَةُ عَلَيْهِنَّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّا نَقُولُ: إِنَّ آيَةَ عَامَّةً فَيَمَنْ طُلِّقَتْ طَلَاقًا بَائِنًا، وَفِيْمَنْ طُلِّقَتْ طَلَاقًا رَجْعِيًّا، فَتَكُونُ هَذِهِ آيَةُ مِثْلَهَا، أَي: أَنَّ الْإِحْصَارَ عَامٌّ، سِوَاهُ كَانَ بَعْدُ، أَوْ بَغِيرَهُ.

٤- أَنَّ مَنْ أُحْصِرَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْهَدْيُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

٥- أَنَّ هَذَا الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ مَبْنِيٌّ عَلَى الْيُسْرِ فِي أَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ، فِيهِ الصَّلَاةُ يُصَلِّي الْإِنْسَانُ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ، وَالصَّلَاةُ مِنْ أَصُولِ هَذَا الدِّينِ؛ لِأَنَّهَا أَحَدُ أَرْكَانِهِ الْخَمْسَةِ، وَهَذَا مَسْأَلَةٌ خَاصَّةٌ جُزْئِيَّةٌ إِذَا حَصَلَ لِلإِنْسَانِ مُوجِبٌ يُوجِبُ عَلَيْهِ شَيْئًا فِي فَوَاتِهَا، فَإِنَّهُ لَا يُكَلِّفُ إِلَّا مَا اسْتَيْسَرَ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

وَقَدْ دَلَّتِ الشُّوَاهِدُ الْكَثِيرَةُ عَلَى أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ مَبْنِيٌّ عَلَى الْيُسْرِ، فَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَقَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَاقْنُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وَقَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وَقَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وَقَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ

عَزَّوَجَلَّ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَاتِمَا بُعِثْتُم مُّيسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»^(٢)، وهذا لا شكَّ أَنَّهُ من فضلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ على عباده، أَن جَعَلَ هذا الدِّينَ الإسلاميَّ العَظِيمَ مَبْنِيًّا على اليُسْرِ والسَّهُولَةِ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

٦- أَنَّ الْمُحَصَّرَ إِذَا لم يَجِدِ الْهَدْيَ فلا شَيْءَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لم يَذْكُرْ له بَدَلًا، وَذَكَرَ بعده هَدْيَ التَّمَتُّعِ، وَذَكَرَ له بَدَلًا، فَلَمَّا سَكَتَ عَنِ الْبَدَلِ فِي هَدْيِ الْمُحَصَّرِ، وَذَكَرَ الْبَدَلَ فِي هَدْيِ التَّمَتُّعِ، دَلَّ ذَلِكَ على أَنَّهُ لا بَدَلَ له، أعني: دَمَ الْمُحَصَّرِ.

وهذا نظيرُ قولِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كَفَّارَةِ الْقَتْلِ: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢]، ولم يَذْكُرِ اللَّهُ الإِطْعَامَ، وَفِي كَفَّارَةِ الظُّهَارِ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِتْقَ الرِّقَبَةِ، ثُمَّ صِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، ثُمَّ الإِطْعَامَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِطْعَامَ فِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يَذْكُرْهُ فيها، ولو كان واجِبًا لَذَكَرَهُ، كما ذَكَرَ ذَلِكَ في آيَةِ الظُّهَارِ، وهذا هو الْحَقُّ، أعني: أَنَّهُ ليس على الْمُحَصَّرِ صِيَامٌ ولا إِطْعَامٌ إِذَا لم يَجِدِ الْهَدْيَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد، باب في الأمر بالتيسير، رقم (١٧٣٢) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما أخرجه بنحوه البخاري: كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة، رقم (٦٩)، ومسلم في الموضع السابق، رقم (١٧٣٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم (٢٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولم يذكر الله سبحانه وتعالى أن على المحصر حلق الرأس أو تقصيره، ولكن السنة دلت على أنه لا بد من حلق الرأس أو تقصيره؛ لأن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أمر بذلك، وغضب حين تأخر الصحابة عنه، حتى خرج إلى الناس، ودعا بالحلّاق، فحلق رأسه، وحينئذ تتابع الناس على الحلق^(١).

٧- تحريم حلق الرأس حال الإحرام حتى يبلغ الهدى محله؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾، وإنما حرّم الحلق - والله أعلم - لما فيه من زوال الشعث، الذي هو من شعار الإحرام، ولأن شعر الرأس حلقه نسك في الحج والعمرة، فلو حلق في أثناء الإحرام لفات الحصول على هذا النسك.

٨- أنه إذا بلغ الهدى محله حل حلق الرأس، فهل يكون هذا الحلق إطلاقاً من محظور - أي: استباحة لمحظور بعد أن كان محظوراً - أو هو عبادة يتقرب بها الإنسان إلى ربه عز وجل؟ اختلف في هذا العلماء رحمه الله على قولين.

■ فمنهم من قال: إنه إطلاق من محظور، وإن الإنسان لو ترك الحلق أو التقصير في الحج أو العمرة فليس عليه فدية؛ لأنه إطلاق من محظور، وإذا حصل الإطلاق من المحظور في الإحرام بأي شيء فإنه يحصل به المقصود.

■ ومنهم من قال: إنه عبادة - أعني: الحلق أو التقصير - ونسك لا بد منه.

وهذا القول هو الصحيح، ودليله: أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - دعا للمحلّقين، فقال: «اللهم اغفر للمحلّقين» أو: «ارحم المحلّقين» قالها ثلاثاً، ثم قيل: يا رسول الله، والمقصرين؟ في كل مرة يدعو فيها للمحلّقين، فقال في الثالثة

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، (٢٧٣١).

أو الرَّابِعَةِ: «وَالْمُقَصِّرِينَ»^(١)، فدلَّ هذا على أَنَّهُ عِبَادَةٌ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، ولهذا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ لِفَاعِلِهَا بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ.

٩- جَوَازُ انْتِهَاكِ الْمَحْظُورِ لِلْعُدْرِ، يَعْنِي: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حُظِرَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَاجْتَنَابَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ لَهُ، وَيَرْتَفِعُ عَنْهُ الْحُظْرُ، لَكِنْ مِنَ الْمَحْظُورَاتِ مَا تُبَيِّحُهُ الْحَاجَةُ، وَمِنَ الْمَحْظُورَاتِ مَا لَا يُبَيِّحُهُ إِلَّا الصَّرُورَةُ.

وَحَلَقُ الرَّأْسِ الْمُحَرَّمُ فِي الْإِحْرَامِ مِمَّا تُبَيِّحُهُ الْحَاجَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾.

١٠- أَنَّ وُجُوبَ الْفِدْيَةِ لَا يَثْبُتُ إِلَّا أَنْ يُزِيلَ مِنْ شَعْرِ الرَّأْسِ مَا يَحْصُلُ بِهِ إِزَالَةُ الْأَذَى، وَأَمَّا مَا دُونَ ذَلِكَ فَلَيْسَ فِيهِ فِدْيَةٌ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا أَزَالَ مِنْ شَعْرِ رَأْسِهِ وَلَوْ شَعْرَةً وَاحِدَةً فَقَدْ ارْتَكَبَ الْمَحْظُورَ، لَكِنْ عَلَيْهِ فِي الشَّعْرَةِ الْوَاحِدَةِ إِطْعَامُ مَسْكِينٍ، وَفِي الشَّعْرَتَيْنِ إِطْعَامُ مَسْكِينَيْنِ، وَفِي الثَّلَاثِ فِدْيَةٌ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِذَا أَزَالَ رُبْعَ شَعْرِ الرَّأْسِ وَجَبَتْ الْفِدْيَةُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِذَا أَزَالَ مِنَ الرَّأْسِ مَا يَحْصُلُ بِهِ إِزَالَةُ الْأَذَى، وَهَذَا مَذْهَبُ الْإِمَامِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٢)، وَهُوَ أَقْرَبُ الْأَقْوَالِ إِلَى الصَّوَابِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ الْحَلْقِ وَالتَّقْصِيرِ عِنْدَ الْإِحْلَالِ، رَقْم (١٧٢٧) وَ (١٧٢٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ تَفْضِيلِ الْحَلْقِ عَلَى التَّقْصِيرِ، رَقْم (١٣٠١) وَ (١٣٠٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كَمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ، رَقْم (٣٢١ / ١٣٠٣) مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْحَصِينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) الشَّرْحُ الْكَبِيرُ مَعَ حَاشِيَةِ الدَّسُوقِيِّ (٦٥ / ٢).

وعلى هذا فالشَّعْرَةُ والشَّعْرَتَانُ والثَّلَاثُ والأربعُ والخمُسُ ليس فيها فِدْيَةٌ، لكنَّ الإنسانَ يكونُ قد ارْتَكَبَ النَّهْيَ، وارْتَكَبَ النَّهْيَ شَيْءٌ، والفِدْيَةُ الَّتِي عُلِّقَتْ على وَصْفٍ أو معنى شَيْءٍ آخَرُ.

ولهذا لَمَّا احتَاجَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- إلى الحِجَامَةِ وهو مُحَرِّمٌ احتَجَمَ في رَأْسِهِ ^(١)، والحِجَامَةُ مُتَحَاتِّجٌ إلى إِزَالَةِ الشَّعْرِ، ولم يُنْقَلْ عنه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ افْتَدَى، فَأُبَيِّحُ حَلْقَ مَوَاضِعِ الحِجَامَةِ للحَاجَةِ، ولا فِدْيَةَ فيه؛ لِأَنَّهُ لم يُزَلْ شَعْرَ الرَّأْسِ كُلَّهُ، ولم يُزَلْ منه ما يُزَالُ به الْأَذَى.

١١ - أَنَّ النُّصُوصَ تَأْتِي عَلَى وَجْهَيْنِ:

■ وَجْهٌ مُبَيَّنٌ مُفَصَّلٌ من حين وَرَدَ، وهذا كثيرٌ، بل هو الأكثرُ.

■ وَوَجْهٌ مُجْمَلٌ غيرُ مُبَيَّنٍ ولا مُفَصَّلٍ، ثُمَّ يُبَيَّنُ وَيُفَصَّلُ بعد ذلك، وهذا قليلٌ بالنِّسْبَةِ لِلأَوَّلِ، لكن له حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وهي أَنَّهُ إِذَا وَرَدَ مُجْمَلًا تَشَوَّفَتِ النُّفُوسُ إلى بَيَانِهِ وَتَفْصِيلِهِ، وَتَشَوَّقَتْ إلى ذلك؛ حَتَّى يَرِدَ التَّفْصِيلُ والْبَيَانُ، وَالْقُلُوبُ ظُمَأَى إلى وُرُودِ هذا الْبَيَانِ والتَّفْصِيلِ.

ومنه: هذه الآيةُ الكريمةُ، قال تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِّيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾، فلم يُبَيِّنِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الصِّيَامَ، ولا الصَّدَقَةَ، ولا النُّسْكَ، ولكنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَّه لَكَعْبِ ابنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حين حُمِلَ إلى النَّبِيِّ ﷺ في الْحَدِيثِيَّةِ، وَالْقَمَلُ يَتَنَازَرُ على رَأْسِهِ من

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب الحِجَامَةِ للمَحْرَمِ، رقم (١٨٣٥) (١٨٣٦)، ومسلم كتاب الحج، باب جواز الحِجَامَةِ للمَحْرَمِ، رقم (١٢٠٢) (١٢٠٣) من حديث ابن عباس وابن بَحِينَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

المرضى، فقال له النبي ﷺ: «مَا كُنْتُ أَرَى الْوَجَعَ بَلَغَ مِنْكَ مَا أَرَى»، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ يُطْعِمَ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ، أَوْ يَذْبَحَ شَاةً^(١).

١٢ - أَنَّ الْكَفَّارَاتِ عَنْ فِعْلِ الذُّنُوبِ فِدَى يَفْدِي بِهَا الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ مِنَ النَّارِ وَالْمُخَالَفَةِ، فَتَقَعُ مُكْفَّرَةً لِمَا مَضَى؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ﴾.

١٣ - الْحِكْمَةُ فِي الْبَدَاءِ بِالْأَيْسَرِ وَالْأَسْهَلِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ بَدَأَ هُنَا بِالصَّيَامِ، وَهُوَ أَيْسَرُ عَلَى غَالِبِ النَّاسِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالنُّسْكِ، ثُمَّ بِالصَّدَقَةِ، وَهِيَ أَيْسَرُ مِنَ النُّسْكِ غَالِبًا، ثُمَّ بِالنُّسْكِ.

وهكذا يكون الأمر غالباً في الكفارات المخيرة، ألا ترى إلى قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي آيَةِ كَفَّارَةِ الْيَمِينِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، فَبَدَأَ بِالْأَسْهَلِ فَالْأَسْهَلِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، لَكِنْ فِي الْكَفَّارَاتِ الْمُغْلَظَةِ الَّتِي عَلَى التَّرْتِيبِ يُبَدَأُ بِالْأَشَدِّ فَالْأَشَدُّ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢]، وَفِي آيَةِ الظَّهَارِ بَدَأَ بِالْعَتَقِ، ثُمَّ الصَّيَامِ، ثُمَّ الْإِطْعَامِ.

فَالْغَالِبُ أَنَّ الْكَفَّارَاتِ الْمُخَيَّرَ فِيهَا يُبَدَأُ فِيهَا بِالْأَسْهَلِ، وَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ الْمُرْتَبَةُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب الإطعام في الفدية، رقم (١٨١٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، رقم (٨٥ / ١٢٠١) من حديث كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَيُبْدَأُ بِالْأَعْلَظِ، وَلَعَلَّ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْأَوَّلِ -أي: في الكَفَّارَاتِ الْمُخَيَّرَةِ- أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا هُوَ أَسْهَلُ.

١٤ - أَنَّ الْمُتَمَتِّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ يَجِبُ عَلَيْهِ الْهَدْيُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِنْ تَمَنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

وَصِفَةُ التَّمَتُّعِ: أَنْ يُحْرِمَ الْإِنْسَانُ بِالْعُمْرَةِ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ -أي: بعدَ دُخُولِ شَهْرِ شَوَّالٍ- ثُمَّ يَحِلُّ مِنْهَا، وَيُحْجُّ مِنْ عَامِهِ. فَهَذَا لَوْلَا هَذِهِ الْعُمْرَةُ لَبَقِيَ مُحْرِمًا بِالْحَجِّ مِنْ شَوَّالٍ إِلَى أَنْ يَحِلَّ مِنْهُ يَوْمَ الْعِيدِ، لَكِنَّهُ إِذَا أَتَى بِالْعُمْرَةِ وَحَلَّ مِنْهَا تَمَتَّعَ بِمَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ مَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ الْحَجَّ، وَلِهَذَا جَاءَتْ ﴿إِلَى﴾ الدَّالَّةُ عَلَى الْغَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ تَمَنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ دَمَ التَّمَتُّعِ دَمُ شُكْرَانٍ، وَلَيْسَ دَمُ جُبْرَانٍ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِدْيَةً عَنْ مَحْظُورٍ، وَلَكِنَّهُ شُكْرٌ عَلَى مَشْكُورٍ، أي: عَلَى فِعْلِ يُشْكِرُ عَلَيْهِ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ الرُّخْصَةُ لِلْإِنْسَانِ بِالتَّمَتُّعِ بِمَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ مِنْ مَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ مِنْ انْتِهَائِهِ مِنَ الْعُمْرَةِ إِلَى ابْتِدَاءِ الْحَجِّ.

وَالْحَقُّ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ: الْقَارِنَ الَّذِي يُحْرِمُ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ جَمِيعًا، ثُمَّ لَا يَحِلُّ مِنْهَا إِلَّا يَوْمَ الْعِيدِ، وَقَالُوا: إِنَّ هَذَا نَوْعٌ تَمَتُّعٍ؛ لِأَنَّ الْقَارِنَ تَمَتَّعَ بِسُقُوطِ أَحَدِ السَّفَرَيْنِ؛ إِذْ لَوْلَا تَمَتُّعُهُ هَذَا لَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِعُمْرَةٍ فِي سَفَرٍ، وَبِالْحَجِّ فِي سَفَرٍ آخَرَ، أَوْ أَنْ يَأْتِيَ بِالْعُمْرَةِ مُسْتَقِلَّةً عَنِ الْحَجِّ، وَيَحِلَّ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ يُحْرِمَ بِالْحَجِّ.

وَلِهَذَا كَانَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى إِحْثَاقِ الْقَارِنِ بِالتَّمَتُّعِ فِي ذَلِكَ، أي: فِي وُجُوبِ

الهدْيِ.

وَأَمَّا الْمُرْدُ -وهو الذي أَحْرَمَ بالحجِّ مُفْرَدًا- فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ، أَي: ليس عليه هَدْيٌ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ النَّسْكِينِ.

١٥ - التَّيْسِيرُ عَلَى الْعِبَادِ، بَأَنَّ مَنْ لَمْ يَجِدِ الْهَدْيَ أَوْ ثَمَنَهُ فَإِنَّهُ يَصُومُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ.

وهذه الأيام الثلاثة يُجْوزُ صِيَامُهَا مِنْ حِينَ إِحْرَامِهِ بِالْعُمْرَةِ نَاقِضًا، إِلَى أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَلَا يُجْوزُ تَأْخِيرُهَا عَنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ؛ لَأَنَّهُ لَوْ أَخَّرَهَا عَنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ لَصَامَهَا فِي غَيْرِ الْحَجِّ.

وعلى هذا، فلو أَنَّ إِنْسَانًا قَدِمَ إِلَى مَكَّةَ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ مُتَمَتِّعًا، فَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ، فَلَهُ أَنْ يَصُومَ مِنْ عِشْرِينَ ذِي الْقَعْدَةِ، إِلَى الثَّلَاثِ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ.

وبناءً على ذلك، يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَصُومَ الْيَوْمَ الْحَادِيَ عَشَرَ، وَالثَّانِيَ عَشَرَ، وَالثَّلَاثَ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ عَنْ هَدْيٍ التَّمَتُّعِ؛ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ وَابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمْ يُرَخَّصْ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَنْ يُصَمْنَ إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَجِدِ الْهَدْيَ^(١).

أَمَّا السَّبْعَةُ الْبَاقِيَةُ فَتَكُونُ إِذَا رَجَعَ، وَلَهُ أَنْ يَصُومَهَا إِذَا فَرَغَ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ قَبْلَ الرُّجُوعِ إِلَى أَهْلِهِ، لَكِنْ الْأَفْضَلُ إِلَّا يَصُومَهَا إِلَّا إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ.

١٦ - أَنَّهُ يُجْوزُ أَنْ يَصُومَ الْيَوْمَ الثَّلَاثَةَ مُتَابِعَةً وَمُتَفَرِّقَةً، وَكَذَلِكَ السَّبْعَةُ، يُجْوزُ أَنْ يَصُومَهَا مُتَابِعَةً وَمُتَفَرِّقَةً؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَطْلَقَ الصِّيَامَ، وَلَمْ يَشْتَرِطِ التَّتَابُعَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب صيام أيام التشريق، رقم (١٩٩٧) (١٩٩٨).

وهكذا كُلُّ شَيْءٍ وَرَدَ مُطْلَقًا، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُضِيفَ إِلَيْهِ شَرْطَ تَقْيِيدٍ إِلَّا بِدَلِيلٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وهذه القاعدةُ تَنْفَعُكَ فِي هذا البابِ وغيره.

ولهذا لَمَّا أَرَادَ اللهُ التَّابِعَ فِي صِيَامِ الشَّهْرَيْنِ فِي الْقَتْلِ الْخَطَأِ، وَفِي الظَّهَارِ، ذَكَرَ اللهُ التَّابِعَ، وَقَيَّدَ الصِّيَامَ بِذَلِكَ.

وبناءً عَلَى هذه القاعدةِ الْعَظِيمَةِ نَقُولُ: السَّفَرُ الَّذِي يَتَرَخَّصُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بِرُخْصِ السَّفَرِ جَاءَ مُطْلَقًا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَالْجَوَارِبُ الَّتِي يُمَسَّحُ عَلَيْهَا وَالْحُقَّانِ جَاءَتْ مُطْلَقَةً فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمُقَيَّدَةً بِأَشْيَاءَ مُعَيَّنَةٍ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ نَزِيدَ فِي التَّقْيِيدِ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ فِي هَذَا؛ لِأَنَّا نَقُولُ: الْمُطْلَقُ يَبْقَى عَلَى إِطْلَاقِهِ إِلَّا بِتَقْيِيدٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْمُقَيَّدُ بِشَيْءٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُزَادَ عَلَيْهِ قِيودٌ أُخْرَى، مَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

١٧ - حِكْمَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيمَا شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ، بِذِكْرِ مَا تَطْمِئِنُّ بِهِ نُفُوسُهُمْ؛ حَيْثُ قَالَ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الصِّيَامَ فِي الْمَتْعَةِ - مُتْعَةِ الْحَجِّ - وَأَنَّهُ مُتَّفَرِّقٌ: ثَلَاثَةٌ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعَ. قَالَ: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾؛ لِيَهْدِيَ الْبَالُ، وَتَطْمِئِنَّ النَّفْسُ عَنْ كَوْنِ هَذَا الصِّيَامِ الْمُتَّفَرِّقِ فِي حُكْمِ الْمُتَّفَرِّقِ، فَبَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ فِي حُكْمِ الْمُتَوَاصِلِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

١٨ - أَنَّ الْهَدْيَ أَوْ بَدَلَهُ لَا يَجِبُ إِلَّا عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وعلى هذا، فيَقَالُ: هَلْ لِأَهْلِ مَكَّةَ مُتْعَةٌ، أَوْ لَا؟

وَالْجَوَابُ: أَنَّ لَهُمْ مُتْعَةً؛ لِأَنَّا لَوْ قَدَرْنَا أَنَّ أَحَدًا سَافَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ

مَكَّةَ، ثُمَّ عَادَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ نَاقِيًا حَجَّ ذَلِكَ الْعَامِ، وَوَصَلَ إِلَى مَكَّةَ، وَطَافَ وَسَعَى وَقَصَرَ، ثُمَّ حَجَّ مِنْ عَامِهِ، فَإِنَّهُ مُتَمَتِّعٌ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ بِلَا شَكٍّ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْهُ وَجُوبَ الْفِدْيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي يُؤَيِّدُهُ الْأَثَرُ وَالنَّظَرُ.

■ أَمَّا الْأَثَرُ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ذَلِكَ﴾ اسْمُ إِشَارَةٍ، وَاسْمُ الْإِشَارَةِ يَرْجِعُ حُكْمُهُ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، كَالضَّمِيرِ.

■ وَأَمَّا النَّظَرُ فَإِنَّ هَذَا الْمَكِّيَّ الَّذِي قَدِمَ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، لَوْ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ لَبَقِيَ مُلتَزِمًا بِمَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ مِنْ إِحْرَامِهِ إِلَى أَنْ يَحِلَّ يَوْمَ الْعِيدِ، فَإِذَا أَتَى بِالْعُمْرَةِ صَدَقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ.

١٩- أَنَّ هَذِي التَّمَتُّعَ عَلَى التَّرْتِيبِ، وَلَيْسَ عَلَى التَّخْيِيرِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَ لَمْ يَحِذْ فَصِيَامُ﴾، وَنَفْيُ الْوُجُودِ يَشْمَلُ:

■ نَفْيُ وَجُودِ الْهَدْيِ، مِثْلُ: أَنْ تَنْفَدَ بِهِمَةُ الْأَنْعَامِ، فَلَا يَكُونُ هُنَاكَ هَدْيٌ.

■ وَنَفْيُ وَجُودِ النَّفَقَةِ مَعَ الْمُتَمَتِّعِ، فَلَا يَبْقَى مَعَهُ مِنَ النَّفَقَةِ إِلَّا مَا يَحْتَاجُهُ فِي سَفَرِهِ، فَهُنَا يَسْقُطُ عَنْهُ الْهَدْيُ وَلَوْ كَانَ مَوْجُودًا فِي الْأَسْوَاقِ، حَتَّى لَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَسْتَسْلِفَ -أَي: يَقْتَرِضَ- مِنْ شَخْصٍ لِيُوفِيَهُ فِي بَلَدِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَصْدُقُ عَلَيْهِ نَفْيُ الْوُجُودِ.

٢٠- تَعْظِيمُ مَكَّةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ﴾، وَأَنَّ لِأَهْلِهَا أَحْكَامًا تَخْصُّهُمْ.

٢١- وَجُوبُ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وَالتَّقْوَى: فِعْلٌ أَوْامِرِ اللَّهِ، وَاجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ؛ تَعَبُّدًا لَهُ.

وقد قيلَ في تَفْسِيرِهَا أَقْوَالٌ، لَكِنَ مَا ذَكَرْنَاهُ أَجْمَعُ الْأَقْوَالِ، وَإِلَّا فَقِيلَ فِي تَفْسِيرِهَا: إِنَّ التَّقْوَى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنْ اللَّهِ، تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَأَنْ تَتْرَكَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى نُورٍ مِنْ اللَّهِ، تُخْشَى عِقَابَ اللَّهِ.

وقيلَ فيها:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقْوَى
وَاعْمَلْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْ ضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تُخْفِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجَبَالَ مِنَ الْحَصَى^(١)

٢٢- عِظْمُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا مِنْ أَحْكَامٍ وَشَرَائِعَ؛ لِأَنَّ أَمْرَهُ بِالتَّقْوَى بَعْدَ ذِكْرِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ، كَالنَّصِّ عَلَى وَجُوبِ اتِّقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْأَحْكَامِ.

٢٣- التَّحْذِيرُ مِنْ مُخَالَفَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعِصْيَانِهِ فِي تَرْكِ التَّقْوَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وَلَكِنَّهُ جَلَّ وَعَلَا شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ.

أَمَّا مِنْ حَيْثُ وَصَفَهُ جَلَّ وَعَلَا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤١) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩-٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

٢٤- تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الْمُخَالَفَةِ بِالْعَذَابِ، وَبِنَاءٍ عَلَيْهِ يَجُوزُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَدَعَ

(١) البيت لابن المعتز، كما في ديوانه (ص: ٣٣٣).

ما حَرَّمَ اللهُ عليه؛ خوفاً من عقابه؛ إذ لو لم يكن الأمر كذلك لكان ذِكْرُ الْعِقَابِ - على مَنْ خَالَفَ الأَمْرَ - لَعَوْا لَا فَايْدَةَ مِنْهُ.

ولهذا أَوْجَبَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِقَامَةَ الْحُدُودِ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنْ فَعَلَ مَعْصِيَةً فِيهَا حَدٌّ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقُومَ النَّاسُ بِشَرِيعَةِ اللهِ عَلَى مَا أَرَادَ اللهُ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُقِمْهُ الْوِازِعُ الدِّينِيُّ فَلْيُقِمْهُ الرَّاغِبُ السُّلْطَانِيُّ، وَالْحُدُودُ رَوَادِعُ سُلْطَانِيَّةٍ، جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ، يُقِيمُونَهَا عَلَى مَنْ أَوْجَبَ اللهُ إِقَامَتَهَا عَلَيْهِ.

هذا مَا تيسَّرَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَرُبَّمَا يَكُونُ فَاتِنًا شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامٍ كَثِيرَةٍ فِيهَا، وَبِمَكَانِ الْإِنْسَانِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى فَهْمًا أَنْ يَتَأَمَّلَ فِيهَا؛ لِيَسْتَنْبِطَ مِنْهَا أَكْثَرَ مِمَّا قَرَأَ.



ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللهُ وَتَكَرَّذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (١١٧)

قَوْلُهُ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الْحَجَّ لَيْسَ شَامِلًا لِجَمِيعِ الْعَامِ، وَلَكِنَّهُ فِي أَشْهُرٍ مَعْلُومَاتٍ، وَهِيَ:

١- شَوَّالُ الَّذِي بَعْدَ رَمَضَانَ.

٢- وَذُو الْقَعْدَةِ، الَّذِي يَلِيهِ.

٣- وَذُو الْحِجَّةِ، جَمِيعُ الشَّهْرِ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْجَمْعِ، أَنْ يَكُونَ ثَلَاثَةً.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهَا شَهْرَانِ وَعَشْرَةُ أَيَّامٍ. فَقَدْ قَالَ بِخِلَافِ ظَاهِرِ الْآيَةِ، ثُمَّ إِنَّ
فِيمَا قَالَهُ نَظْرًا مِنْ حَيْثُ إِنَّ أَفْعَالَ الْحَجِّ تَمْتَدُّ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ مِنْ أَيَّامِ الْحَجِّ
بِلا شَكٍّ، فِيهَا الرَّمْيُ، وَفِيهَا الْمَبِيتُ، وَرُبَّمَا يَكُونُ فِيهَا الطَّوَافُ وَالسَّعْيُ، أَوْ فِيهَا بَعْدَهَا،
وَهِيَ أَعْمَالٌ فِي الْحَجِّ خَارِجَةٌ عَنِ الْأَشْهُرِ الْمَعْلُومَاتِ، إِذَا قُلْنَا بِأَنَّهَا تَنْتَهِي فِي الْيَوْمِ
الْعَاشِرِ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ، فَالصَّوَابُ أَنَّ الْأَشْهُرَ الْمَعْلُومَاتِ هِيَ ثَلَاثَةٌ: شَوَّالٌ،
وَذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ.

وَلَكِنْ هَلْ هَذِهِ الْأَشْهُرُ كُلُّهَا يُفْعَلُ فِيهَا الْحَجُّ، أَوْ يُفْعَلُ فِي شَيْءٍ مُعَيَّنٍ مِنْهَا؟
الْجَوَابُ: الثَّانِي؛ لِأَنَّ أَفْعَالَ الْحَجِّ لَا تُفْعَلُ فِي كُلِّ الشُّهُورِ الثَّلَاثَةِ؛ فَإِنَّ مِنْهَا
مَا هُوَ مُقَيَّدٌ بِأَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْهُرِ الثَّلَاثَةِ، أَمَّا الْإِحْرَامُ بِالْحَجِّ فَنَعَمْ، يُمَكِّنُ
أَنْ يُحْرِمَ الْإِنْسَانُ بِالْحَجِّ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَوَّالٍ، وَالْإِحْرَامُ لَا شَكَّ أَنَّهُ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ
الْحَجِّ.

يَقُولُ عَزَّجَلَّ: ﴿أَشْهُرٌ مَعْلُومَتٌ﴾ أَي: مَعْلُومَاتٌ عِنْدَ النَّاسِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَمْ
يَزَالُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْهُرَ هِيَ أَشْهُرُ الْحَجِّ.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِكَ الْحَجَّ﴾ أَي: أَوْجَبَ الْحَجَّ، وَذَلِكَ بِالْإِحْرَامِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ
إِذَا أَحْرَمَ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةَ فَقَدْ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، وَلِهَذَا كَانَ إِنْتِمَاءُ
الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَاجِبًا عَلَى مَنْ شَرَعَ فِيهَا وَلَوْ كَانَا نَفْلًا، كَمَا سَبَقَ.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ ﴿لَا﴾ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ الثَّلَاثِ نَافِيَةٌ،
لَكِنَّهُ نَفْيٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ، أَي: فَلَا يَرْفُثُ، وَلَا يَفْسُقُ، وَلَا يُجَادِلُ.

وَالرَّفَثُ: الْجِمَاعُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ.

والفسوق: الخروج عن الطاعة، بترك واجب، أو فعل محرم.
والجدال: المرافعة. وخص منها الدليل ما كان جدالاً لإثبات الحق، وإبطال
الباطل، فإن ذلك لا يضُرُّ.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أي: أي خير تفعلوه فإن الله يعلمه، لا يخفى
عليه، وسوف يُثيبكم عليه، إذا فعلتموه تعبدًا له.

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ أي: افعلوا ما يكون لكم زادًا، والزادُ قد يكون زادًا في الدنيا،
وهو ما يتزودُّ به الإنسان لحفظ بدنه، كالأكل، والشرب، واللباس، والنفقة، وما أشبه
ذلك، وقد يكون الزاد ما يتزودُّ به للأخرة، وهو التقوى، وأيُّ الزادين خير؟

بين الله ذلك في قوله: ﴿فَاتَّخَذَ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، أي: تقوى الله عزَّ وجلَّ،
والتقوى قد تكون في الزاد الدنيوي؛ فإنَّ الإنسان إذا تنعم بنعم الله، شاكرًا لله
عزَّ وجلَّ، مُعترفًا له بالفضل، كان ذلك زاد تقوى.

وكذلك لو نوى بأكمله وشربه حفظ نفسه من الهلاك كان هذا زاد تقوى؛
لأنَّ الله قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وكذلك ما يُنفقه على نفسه من نفقات أخرى، إذا نوى بذلك امتثال أمر الله
كان ذلك من التقوى.

وكانَّ الله تعالى يُشيرُ إلى أنَّ الإنسان ينبغي له أن يستحضر أنَّ جميع ما يتزودُّ
به يستعين به على طاعة الله؛ حتى يكون من التقوى.

﴿وَاتَّقُوا يَتَأْذِي أَلْبَابَ﴾ أَمَرَ الله تعالى أن نتقيه، ثمَّ وَجَّه الخطاب لأولي
الألباب، أي: لأولي العقول؛ لأنَّهم هم الذين يقدرُونَ التقوى قدرها، ويعرفون

أَهْمِيَّتِهَا، أَمَّا أَهْلُ الْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ وَالسَّفَهِ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدُرُونَ لِلتَّقْوَى قَدْرَهَا، وَلِهَذَا وَجَّهَ الْخِطَابُ -أَي: خِطَابُ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى- إِلَى أُولَى الْأَلْبَابِ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أَنَّ الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ، وَيُفْهَمُ مِنْهُ: أَنَّ الْعُمْرَةَ لَيْسَتْ أَشْهُرًا مَعْلُومَاتٍ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْعُمْرَةُ تُجْزَى فِي كُلِّ وَقْتٍ، فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ أَشْهُرُ الْحَجِّ، وَفِي غَيْرِهَا، بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً»^(١).

وهذه المناسبة أودُّ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ كَوْنَ الْعُمْرَةِ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً أَجْرٌ عَظِيمٌ بِلَا شَكٍّ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ هُنَاكَ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَصَرَفُ الْأَمْوَالِ فِيهَا أَوْلَى وَأُخْرَى، كَمَا لَوْ احتَاجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَالِ لِمَجَاعَةٍ شَدِيدَةٍ، أَوْ لَأَمْرَاضٍ فَتَاكَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى عِلَاجٍ، أَوْ إِلَى قِتَالِ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ بَذْلَ الْأَمْوَالِ فِي ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الْعُمْرَةِ فِي رَمَضَانَ.

وكذلك إِذَا تَرَتَّبَ عَلَى هَذِهِ الْعُمْرَةِ إِضَاعَةُ الْأَهْلِ، وَعَدَمُ تَرْبِيَّتِهِمْ، مَعَ عِلْمِهِ أَوْ غَلْبَةِ ظَنِّهِ أَنََّّهُمْ سَوْفَ يَصِلُونَ إِذَا غَابَ عَنْهُمْ، فَإِنَّ الْعُمْرَةَ حِينَئِذٍ تَكُونُ مَرْجُوحَةً، وَبِقَاؤُهُ عِنْدَ أَهْلِهِ، وَتَرْبِيَّتِهِ إِيَّاهُمْ، وَتَوْجِيهِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ أَفْضَلُ.

وكذلك إِذَا كَانَ يَتَرَتَّبُ عَلَى هَذِهِ الْعُمْرَةِ أُمُورٌ سَيِّئَةٌ فِي مَكَّةَ، مِثْلُ: أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَبَابٌ أَوْ شَبَابَاتٌ، يَذْهَبُ بِهِمْ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ، ثُمَّ يَتَسَكَّعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب حج النساء، رقم (١٨٦٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل العمرة في رمضان، رقم (١٢٥٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ذَاهِبِينَ وَرَاجِعِينَ، وَيَحْصُلُ بِذَلِكَ مِنَ الْاِخْتِلَاطِ وَالْفِتْنَةِ وَالشَّرِّ مَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ، فَهَنَا بَقَاؤُهُ فِي بَلَدِهِ أَفْضَلُ وَأَحْسَنُ.

المهم: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْمُقَارَنَةُ بَيْنَ الْفَوَائِدِ وَالْمَضَارِّ، وَالْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ؛ فَإِنَّ الشَّيْءَ قَدْ يَكُونُ فَاضِلًا، وَيَكُونُ الْمَفْضُولُ خَيْرًا مِنْهُ؛ لِأُمُورٍ أُخْرَى وَأَسْبَابٍ أُخْرَى.

٢- أَنَّ الْإِحْرَامَ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ يَجْعَلُ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ فَرَضًا، وَيُلْزِمُ الْمُحْرِمَ الْإِتِمَامَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾.

٣- أَنَّ الْحَجَّ لَا يَصِحُّ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَشْهُرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾، فَلَمْ يَرْتَبْ أَحْكَامَ الْإِحْرَامِ إِلَّا عَلَى مَنْ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، أَنَّ مَنْ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ قَبْلَ دُخُولِ أَشْهُرِهِ فَإِنَّ إِحْرَامَهُ بِالْحَجِّ لَا يَصِحُّ^(١)، لَكِنْ هَلْ يَقَعُ بَاطِلًا، أَوْ يَتَحَوَّلُ إِلَى عُمْرَةٍ؟ يَحْتَمِلُ الْوُجْهَيْنِ.

٤- تَحْرِيمُ الرَّفَثِ وَالْفُسُوقِ وَالْجِدَالِ بَعْدَ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾، وَسَبَقَ مَعْنَى الرَّفَثِ، وَهُوَ الْجِمَاعُ وَمُقَدِّمَاتُهُ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ مَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ: الْجِمَاعُ.

وَالْجِمَاعُ فِي الْحَجِّ قَبْلَ التَّحَلُّلِ الْأَوَّلِ يَرْتَبُ عَلَيْهِ أُمُورٌ خَمْسَةٌ:

الأوَّلُ: الْإِثْمُ.

الثَّانِي: فَسَادُ النُّسْكِ.

الثَّالِثُ: وَجوبُ الْمُضِيِّ فِيهِ.

الرَّابِعُ: وَجوبُ قَضَائِهِ مِنَ الْعَامِ الْقَادِمِ.

الخَامِسُ: فِدْيَةٌ، وَهِيَ نَاقَةٌ تُذْبَحُ، وَتُوزَعُ عَلَى الْفُقَرَاءِ.

أَمَّا بَعْدَ التَّحْلِيلِ الْأَوَّلِ فَإِنَّ فِدْيَتَهُ فِدْيَةُ حَلْقِ الرَّأْسِ، أَيْ: أَنَّهُ يُخَيَّرُ بَيْنَ صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَإِطْعَامِ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، وَذَبْحِ شَاةٍ.

٥ - تَحْرِيمُ الْفُسُوقِ فِي الْحَجِّ، سَوَاءً كَانَ الْفُسُوقُ فِيهَا يَخْتَصُّ بِالْإِحْرَامِ، أَوْ فِيهَا يَكُونُ عَامًّا، فَلَا يَحِلُّ لِلْحَاجِّ أَنْ يَفْسُقَ بَانْتِهَاكِ مَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَنْتَهِكَ مَا كَانَ مُحَرَّمًا تَحْرِيمًا عَامًّا، كَالْغِيْبَةِ، وَالنَّمِيمَةِ، وَالنَّظَرِ الْمُحَرَّمِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ الْفُسُوقُ مُحَرَّمًا فِي كُلِّ حَالٍ، فِي الْحَجِّ وَغَيْرِهِ؟

قُلْنَا: بَلَى، لَكِنَّهُ فِي الْحَجِّ يَتَأَكَّدُ تَحْرِيمُهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُتَلَبِّسٌ بِعِبَادَةٍ.

وَهُنَا يَجِبُ التَّنَبُّهُ إِلَى أَنَّ شُرْبَ الدُّخَانِ وَمَا شَابَهَهُ مِنَ الْمَعَاصِي الْمُؤَثِّرَةِ فِي النُّسْكِ، وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى الْمُحَرِّمِ أَنْ يَتَجَنَّبَ شُرْبَ الدُّخَانِ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ هَذَا يَنْقُصُ ثَوَابَ نُسُكِهِ، وَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ صَبَرَ نَفْسَهُ فِي مُدَّةِ الْإِحْرَامِ لَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي أَنْ يَدَعَ شُرْبَ الدُّخَانِ، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ فَوَائِدِ النُّسْكِ.

٦ - تَرْكُ الْجِدَالِ لِلْمُحَرِّمِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِدَالَ يُوجِبُ انْشِغَالَ الْقَلْبِ، وَيُجَدِّثُ

الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، فَيَصُدُّ الْمَرْءَ عَمَّا هُوَ مُتَلَبِّسٌ بِهِ.

وَسَبَقَ أَنْ الْمَرَادَ بِالْجِدَالِ هُنَا: الْجِدَالُ الَّذِي هُوَ الْمَهَارَةُ، وَالَّذِي لَا يُقْصَدُ بِهِ الْوُصُولُ إِلَى الْحَقِّ، أَوْ إِبْطَالُ بَاطِلٍ، وَأَمَّا الْجِدَالُ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ فِي بَيَانِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ، فَإِنَّهُ لَا يُذَمُّ عَلَيْهِ الْمُحَرِّمُ، بَلْ هُوَ مِمَّا يُحْمَدُ عَلَيْهِ.

٧- عُمُومُ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ فَائِدَةٌ أُخْرَى مَسْلُكِيَّةٌ، وَهِيَ: أَنْ يُحْذَرِ الْإِنْسَانُ مِنْ فِعْلِ الشَّرِّ؛ لِأَنَّ فِعْلَ الشَّرِّ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ كَالْخَيْرِ.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا: قُوَّةُ رَجَاءِ الْإِنْسَانِ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ إِذَا عَمِلَ خَيْرًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ أَبَدًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضْعُ الْمُوزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْفَيْصَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

٨- أَمْرُ الْحَاجِّ بِالتَّزَوُّدِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ التَّزَوُّدُ نَوْعَانِ:

- تَزَوُّدٌ يَقُومُ بِهِ الْبَدَنُ، كَالطَّعَامِ، وَالشَّرَابِ، وَاللِّبَاسِ، وَغَيْرِهَا.
- وَتَزَوُّدٌ يَقُومُ بِهِ الدِّينُ، كَالتَّقْوَى.

وَزَادُ التَّقْوَى خَيْرٌ مِنْ زَادِ الْبَدَنِ، بَلْ قَدْ سَبَقَ لَنَا أَنْ زَادَ الْبَدَنِ قَدْ يَكُونُ مِنْ زَادِ التَّقْوَى، إِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ بِهِ امْتِثَالَ أَمْرِ اللَّهِ، وَحِفْظَ حَيَاتِهِ، وَسَرَّ عَوْرَتِهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

٩- وَجُوبُ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا﴾.

١٠- أَنْ تَقْوَى اللَّهَ تَعَالَى مِنْ أَكْثَرِ الْأَدَلَّةِ عَلَى عَقْلِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّهُ مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ.

١١- أَنْ أُولَى الْأَلْبَابِ هُمْ الْمُتَتَفِعُونَ بِخِطَابَاتِ الشَّرْعِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ وَجَّهَ الْخِطَابِ إِلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَتَقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

١٢- أَنْ مَنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ فَلَيْسَ مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ.

١٣- الْحُثُّ عَلَى التَّعَقُّلِ فِي الْأُمُورِ؛ حَتَّى يَصِلَ إِلَى دَرَجَةِ أَصْحَابِ هَذَا اللَّقْبِ: ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١١٨﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الْخِطَابُ لِلأُمَّةِ، وَالْجُنَاحُ: الْإِثْمُ ﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَي: فِي ابْتِغَائِكُمْ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ، أَي: رِزْقًا. وَالْفَضْلُ بِمَعْنَى: الرِّزْقِ، كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] أَي: مِنْ رِزْقِهِ بِالْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ وَغَيْرِهِمَا.

وَلِنَا نَفَى اللَّهُ الْجُنَاحَ عَمَّنْ ابْتَغَى فَضْلًا مِنْ اللَّهِ فِي الْحَجِّ؛ لِأَنَّهُمْ تَحَرَّجُوا مِنْ كَوْنِ الْإِنْسَانِ يَتَجَرُّ فِي الْحَجِّ، وَخَافُوا أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ نَقْصٌ فِي نُسُكِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ عَمِلُوا عَمَلًا دُنْيَوِيًّا، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَبِيعُ وَلَا يَشْتَرِي فِي الْمَسْجِدِ؛

لأنَّه مكانُ العبادة، فكذلك لا يبيِّع ولا يشتري في الحجِّ؛ لأنَّه مُتلبَّسٌ بالعبادة، فنَقَى اللهُ تعالى الإثمَ في ذلك، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ أي: دَفَعْتُمْ، وهو من الإفاضة، بمعنى: التَّوسُّعِ والامتدادِ، فُشِبَ الدَّافِعُ من عَرَفَةِ بذلك؛ لأنَّ النَّاسَ يَدْفَعُونَ من عَرَفَةٍ وكأَنَّهُمْ يتوسَّعون في السَّيرِ.

وعَرَفَاتُ: اسمٌ مُفْرَدٌ بصيغة الجمع، وليس بجمع؛ بدليل أنَّها تُسمَّى أيضًا: (عَرَفَةٌ) بالإنفراد.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ بطاعته؛ لأنَّ كُلَّ طاعةٍ فهي ذِكْرٌ لله عَزَّجَلَّ؛ إذ إنَّ الإنسانَ في طاعته يَشْعُرُ بالإخلاصِ لله عَزَّجَلَّ، والمتابعةِ لرسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وهذا ذِكْرٌ لله.

والمشعرُ الحرامُ: هو مُزْدَلِفَةٌ، وسُمِّيَ: مشعرًا حرامًا؛ لأنَّ عَرَفَةَ مشعرٌ حلالٌ، ومُزْدَلِفَةٌ مشعرٌ حرامٌ.

وَذِكْرُ اللهِ تَعَالَى عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ يشملُ صلاتي المَغْرِبِ والعِشاءِ، وصلاةَ الفَجْرِ، والذِّكْرَ الخاصَّ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا دَفَعَ من عَرَفَةِ صَلَّى في مُزْدَلِفَةِ المَغْرِبِ والعِشاءِ، وَلَمَّا صَلَّى الصُّبْحَ رَكِبَ نَاقَتَهُ، فَوَقَفَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ -وهو جَبَلٌ مَعْرُوفٌ بِمُزْدَلِفَةٍ، في آخِرِهَا- ودَعَا، وَوَحَّدَ اللهُ، وَكَبَّرَهُ، وَهَلَّلَهُ، حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا، ثُمَّ دَفَعَ إِلَى مِنًى^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وعلى هذا فذكرُ الله عند المشعرِ الحرامِ يشملُ كُلَّ عبادَةٍ، كالمبيتِ، والأذانِ فيها للمغربِ والعشاءِ، والإقامةِ لهما، وكذلك أذانُ الفجرِ، وصلاةُ الفجرِ، والذكرُ الخاصُّ، فذكرُ الله تعالى يشملُ كُلَّ تعبدٍ لله تعالى في هذا المشعرِ.

ووصفَ الله تعالى المشعرَ بـ: ﴿الْحَرَامِ﴾؛ لأنه داخلُ حُدُودِ الحرمِ، بخلافِ عرفةَ، فإنَّها خارجُ حُدُودِ الحرمِ.

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾ كرَّرَ الأمرَ بالذكرِ؛ لتأكيدِهِ.

وقوله: ﴿كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾ يحتملُ أن تكونَ الكافُ للتعليلِ، أي: اذكُرْوه لهدايتِكُمْ، ويحتملُ أن تكونَ للتشبيهِ، كهدايتِكُمْ، أي: بالذكرِ الَّذِي هَدَاكُمْ اللهُ لَهُ. وكلاهما صحيحٌ، والآيةُ إذا اشتمَلَت معنيينِ كلاهما صحيحٌ، ولا مرجَّحَ لأحدهما على الآخرِ، فهي شاملةٌ لهما؛ توسُّعاً في معاني القرآنِ الكريمِ.

وقوله: ﴿كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾ يشملُ الهدايتينِ: هدايةَ الإرشادِ والبيانِ، وهدايةَ التوفيقِ والالتزامِ.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ هذه الجملةُ جُمْلَةٌ خبريَّةٌ مُثَبِّتَةٌ؛ لأنَّ (إنَّ) هُنا مُحْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وأصلُها: (إنَّ) واسمُها محذوفٌ، وجُمْلَةٌ ﴿كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ خبرُها، والمعنى: أنَّ اللهَ هَدَاكُمْ، وكُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ قَوْمًا ضَالِّينَ، ولا شكَّ أنَّ الهدايةَ بعد الضلالِ هي الَّتِي يَتَبَيَّنُ بِهَا فَضْلُ الهدايةِ؛ لأنَّ مَنْ لا يَعْرِفُ الكُفْرَ لا يَعْرِفُ قَدْرَ الإسلامِ، ولهذا قالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ-: إِنَّمَا يَنْقُضُ الإسلامَ عُرْوَةٌ عُرْوَةٌ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي الكُفْرِ^(١). وأمَّا مَنْ كانَ داخِلاً فِي

(١) هذا اللفظ ذكره ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي مواضع، منها: مجموع الفتاوى (٣٠١/١٠) (٥٤/١٥)، وقد أخرجه بمعناه البيهقي في شعب الإيمان (٢٨/١٠).

الكُفْرِ، ثُمَّ نَجَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ يَعْرِفُ قَدَرَ الْإِسْلَامِ.

وقوله: ﴿لِمَنِ الصَّالِّينَ﴾ أي: ضَالِّينَ في عِلْمِكُمْ، لَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا،

ضَالِّينَ فِي عَمَلِكُمْ، لَا تَعْمَلُونَ بِشَرَائِعِ اللَّهِ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- تيسيرُ الدين الإسلامي، وسعةُ فضلِ الله عزَّ وجلَّ؛ حيثُ أذنَ لعباده أن

يَتَجَرَّوا في الحجِّ، مع أنَّهم مُتَلَبِّسونَ بِالْعِبَادَةِ.

٢- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَلَقَّى الرِّزْقَ وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٣- أَلَّا يَعْتَمِدَ الْإِنْسَانُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَلَّا يَجْعَلَ مَا كَسَبَهُ مِنْ جَرَاءِ

عَمَلِهِ وَشَطَارَتِهِ، بَلْ هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ النَّاصِحُونَ لِقَارُونَ:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا

أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] قَالَ

مُفْتَخِرًا بِنَفْسِهِ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، نَسَأُلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

واللهُ عَزَّ وَجَلَّ لو لم يَسْقِ الرِّزْقَ إِلَى عَبْدِهِ لم يَحْصُلْ لَهُ رِزْقٌ، مِمَّا بَلَغَ فِي النَّشَاطِ

وَالْحَذَقِ.

٤- أَنَّ مِنْ تَمَامِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لعباده: أَنَّهُ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ جَلَّ وَعَلَا بِالرِّزْقِ وَالْعَطَاءِ؛

لِقَوْلِهِ: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٥- أَنَّ الْإِفَاضَةَ مِنْ عَرَافَاتٍ بَعْدَ الْوُقُوفِ بِهَا أَمْرٌ مَّعْلُومٌ عِنْدَ النَّاسِ؛ لِقَوْلِهِ:

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾، وَكَانَ

ذلك مَعْرُوفًا عِنْدَ الْعَرَبِ عَامَّةً، إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْحَرَمِ -حَمِيَّتِهِمُ الْجَاهِلِيَّةَ- كَانُوا لَا يَقْفُونَ يَوْمَ عَرَفَةَ بَعْرَةَ، وَإِنَّمَا يَقْفُونَ فِي مُزْدَلِفَةَ، ويقولون: نحنُ أَهْلُ الْحَرَمِ، فلا نَقِفُ فِي الْحِلِّ. وهذا شُدُودٌ لَا دَلِيلَ لَهُ.

٦- تَأْكِيدُ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي مُزْدَلِفَةَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ قَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- حِينَ صَلَّى الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ، وَكَانَ قَدْ جَمَعَهُمَا جَمْعَ تَأْخِيرٍ، اضْطَجَعَ حَتَّى تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ^(١)؟ وَهَلِ النَّوْمُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ؟

فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ: نَعَمْ، النَّوْمُ الَّذِي يَسْتَعِينُ بِهِ الْإِنْسَانُ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ، وَيُعْطِي نَفْسَهُ حَظًّا مِنْ نَصِيحَتِهَا، هُوَ طَاعَةٌ، وَلِهَذَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، الَّذِي قَالَ: لَا قَوْمَ مِنَ اللَّيْلِ، وَلَا أَنَا. قَالَ لَهُ ﷺ: «قُمْ، وَنَمْ؛ فَإِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»^(٢)، وَعَلَى هَذَا فَلَا إِشْكَالَ فِي نَوْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْمُزْدَلِفَةِ إِلَى أَنْ أَصْبَحَ.

٧- أَنَّ مُزْدَلِفَةَ مَشْعَرٌ حَرَامٌ؛ لِدُخُولِهَا فِي حُدُودِ الْحَرَمِ، بِخِلَافِ عَرَفَةَ، فَإِنَّهَا مَشْعَرٌ حَلَالٌ؛ لِأَنَّهَا خَارِجٌ حُدُودِ الْحَرَمِ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ حُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (١٢١٨).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ حَقِّ الْجَسْمِ فِي الصَّوْمِ، رَقْمُ (١٩٧٥)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الصَّيَامِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ الدَّهْرِ، رَقْمُ (١١٥٩/١٦٨) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَلَمْ أَجِدْ فِي شَيْءٍ مِنْ رَوَايَتِهِ لَفْظَ: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا»، وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ مَنْ أَقْسَمَ عَلَى أَخِيهِ لِيُفْطِرَ، رَقْمُ (١٩٦٨) مِنْ قَوْلِ سُلَيْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَقْرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ.

وَيُنَبِّنِي عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ مُزْدَلِفَةَ يَثْبُتُ فِيهَا مِنَ التَّحْرِيمِ تَحْرِيمٌ مَا يَحْرُمُ فِي جَوْفِ مَكَّةَ مِنَ الصَّيْدِ وَقَطْعِ الشَّجَرِ؛ لِأَنَّهَا مِنَ الْحَرَمِ، وَأَمَّا عَرَفَةُ فَلَا، فَعَرَفَةُ يَجُوزُ فِيهَا الصَّيْدُ لغيرِ الْمُحْرَمِ، وَيَجُوزُ فِيهَا قَطْعُ الشَّجَرِ لِلْمُحْرَمِ وَغَيْرِهِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ حَرَمًا.

٨- أَنَّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ يَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ وَتَيْسِيرِهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ ذِكْرًا مُوَافِقًا لَشَرِيعَتِهِ.

وَهَذَا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْنَاكُمْ﴾ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْكَافَ هَلْ هِيَ لِلتَّعْلِيلِ، أَوْ لِلتَّشْبِيهِ؟ وَسَبَقَ أَنَّ الْآيَةَ تَشْمَلُ الْمَعْنَيْنِ؛ لِأَنَّهُ مَتَى كَانَ الْمَعْنَانِ مُحْتَمَلَيْنِ فِي الْآيَةِ بِدُونِ تَرْجِيحٍ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْأَوَّلَى حَمْلُهَا عَلَيْهِمَا جَمِيعًا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَوْسَعُ فِي مَعْنَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

٩- مِنْهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِالْهِدَايَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْنَاكُمْ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَكْبَرَ نِعْمَةٍ يُنْعِمُ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَهْدِيَهُ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٥٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿الْفَاتِحَةُ: ٥-٦﴾.

وَالْهِدَايَةُ نَوْعَانِ: هِدَايَةُ تَوْفِيقٍ وَالتَّزَامٍ، وَهِدَايَةُ بَيَانٍ وَإِرْشَادٍ.

■ فَأَمَّا الْأَوَّلَى فَهِيَ مُحْتَصَّةٌ بِاللَّهِ، لَا أَحَدٌ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُوَفِّقَ أَحَدًا، فَيَلْتَزِمَ، حَتَّى أَشْرَفَ الْبَشَرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَعْظَمُهُمْ جَاهًا - وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَتِمَّ كُنْ مِنْ هِدَايَةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، مَعَ حِرْصِهِ عَلَيْهَا، وَحُبِّتِهِ لَهَا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الْقَصَصُ: ٥٦].

■ وَأَمَّا الثَّانِيَّةُ -وهي هداية البيان والإرشاد- فهي تكون من الله، وتكون من الرسول ﷺ، وتكون من العلماء؛ لقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، لكن هؤلاء لا يملكون هداية التوفيق والالتزام؛ لأن ذلك بيد الله عز وجل.

فإذا من الله على العبد بعلم والتزام فهذا غاية ما يكون من النعم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

١٠ - تذكير الإنسان بحاله السابقة التي من الله عليه برفعها عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾.

وعلى هذا فلو أنك رأيت شخصاً التزم بعد أن كان عاصياً مخالفاً، فهل تُذكره بما كان عليه من قبل، فتقول له: الحمد لله الذي هداك من الضلالة، وقد كنت تفعل كذا وكذا، فاحمد الله. أو يقال: إن الأفضل ألا يُذكره؛ لأنه ربما إذا ذكره بذلك تحن نفسه إلى ما كان مألوفاً عنده من قبل؟

فيقال في هذا: يُنظر للمصلحة، إن كان من المصلحة أن يُذكر بذلك ذكراً، وإن كان ليس من المصلحة فلا يُذكر.

فإن قال قائل: إذا تردّد فهل الأولى أن يُذكر، أو ألا يُذكر؟

قلنا: السلامة أسلم، لا تُذكره، بل ذكره بنعمة الله عليه بالاستقامة والهداية، وفي هذا كفاية.

١١- أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا قَبْلَ بَعْثِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانُوا ضَالِّينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

نَسَأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَا إِخْوَانَنَا أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْهِدَايَتَيْنِ: الْهِدَايَةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالْهِدَايَةِ الْعَمَلِيَّةِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩)

كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ لَا يَقِفُونَ فِي عَرَفَةَ فِي الْحَجِّ، بَلْ يَقِفُونَ فِي مُزْدَلِفَةَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقِفَ إِلَّا بِالْحَرَمِ. فَيَقِفُونَ فِي مُزْدَلِفَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أَي: مِنْ الْمَكَانِ الَّذِي أَفَاضَ مِنْهُ النَّاسُ، وَهُوَ عَرَفَةُ، وَلِهَذَا قَالَ جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَصِفُ حَجَّ النَّبِيِّ ﷺ: أَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَا تُشَكُّ قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّهُ وَقِفٌ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَفْعَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ تَجَاوَزَهَا ﷺ، وَنَزَلَ بِنَمِرَةَ، ثُمَّ لَمَّا زَالَتِ الشَّمْسُ ذَهَبَ إِلَى عَرَفَةَ، وَوَقَفَ هُنَاكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ جَمِيعًا - وَمِنْهُمْ قُرَيْشٌ - أَنْ يُفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ يَعْنِي: اسْأَلُوا اللَّهَ الْمَغْفِرَةَ، وَالْمَغْفِرَةُ هِيَ: سِتْرُ الذَّنْبِ، وَالْعَفْوُ عَنْهُ، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ حُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (١٢١٨).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

وذلك أن الإنسان إذا فرغ من العبادة ربًّا يلحقه كسل أو ملل، فيغفل عن ذكر الله، فأمر الله تبارك وتعالى أن يذكر الإنسان ربّه إذا قضى نسكّه.

وهذا كما في قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾﴾

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الجمعة: ٩-١٠]، فأمر سبحانه وتعالى بذكره؛ لأن الإنسان مظنة الغفلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ثُمَّ قَسَمَ اللَّهُ سُبحانه وتعالى النَّاسَ إِلَى قِسْمَيْنِ، مِنْهُمْ مَن يَقُولُ: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي: ليس له همٌّ في الآخرة، ومنهم مَن يَقُولُ: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

ثُمَّ قَالَ عَنْ هَذَا الْقِسْمِ الثَّانِي: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٠٣)

قَوْلُهُ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ هذه الأيام هي أَيَّامُ التَّشْرِيقِ الثلاثة، وهي: الحَادِي عَشَرَ، والثَّانِي عَشَرَ، والثَّالِثَ عَشَرَ، من شهر ذِي الْحِجَّةِ.

وهناك أَيَّامٌ مَعْلُومَاتٌ، لكنها ليست هذه، بل هي عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ، فَعِيدُ النَّحْرِ مَحْفُوفٌ بِأَيَّامٍ بَعْضُهَا مَعْلُومَاتٌ، وَبَعْضُهَا مَعْدُودَاتٌ، فالمَعْلُومَاتُ هي: عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ، والمَعْدُودَاتُ هي: أَيَّامُ التَّشْرِيقِ الثلاثة: الحَادِي عَشَرَ، والثَّانِي عَشَرَ، والثَّالِثَ عَشَرَ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ أي: في إِنْهَاءِ نُسُكِهِ ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ وهما: الحَادِي عَشَرَ، والثَّانِي عَشَرَ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: في تَعَجُّلِهِ ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، لكن ذلك ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: اتَّقَى اللَّهَ عَزَّجَلَّ في عِبَادَتِهِ، فكان فيها مُوَافِقًا لِشَرِيعَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

والتَّقْوَى سَبَقَ الكلامُ عليها مرارًا.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَقْوَاهُ، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، فمَتَى اتَّقَى اللَّهَ، وَعَلِمَ أَنَّهُ يُحْشَرُ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يُحَقِّقُ التَّقْوَى تَمَامًا؛ لِأَنَّ مَالَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، كما قال تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلَمْلَمِيهِ﴾

وَالنَّاسُ يُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ - كما جاءت به السُّنَّةُ - حُفَاءً، عُرَاءً، غُرْلًا، بُهْمًا^(١)، فَالْحُفَاءُ: الَّذِينَ لَا نِعَالَ مَعَهُمْ. وَالْعُرَاءُ: الَّذِينَ لَا كِسْوَةَ مَعَهُمْ. وَالْغُرْلُ: الَّذِينَ عَادَتْ قِطْعَةُ الْجِلْدِ الَّتِي قُطِعَتْ فِي الْخِتَانِ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ غَيْرَ مَحْتَوِينَ، وَالْبُهْمُ: هُمُ الَّذِينَ لَيْسَ مَعَهُمْ مَالٌ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١ - أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، وَذِكْرُهُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يَتَنَاوَلُ التَّكْبِيرَ، وَالتَّهْلِيلَ، وَالتَّحْمِيدَ، فَيَقُولُ الْعَبْدُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ».

وَيَشْمَلُ -أَيْضًا- الْمَبِيتَ فِي مَنْى؛ لِأَنَّ الْمَبِيتَ فِي مَنْى امْتِثَالٌ لِأَمْرِ اللَّهِ، فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَشْمَلُ رَمَى الْجَمَرَاتِ الثَّلَاثِ، فَهِيَ تُرْمَى فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بَعْدَ الزَّوَالِ.

٢ - أَنَّ اللَّهَ يَسَّرَ عَلَى الْعِبَادِ فِي التَّعَجُّلِ وَالتَّأَخُّرِ، فَمَنْ شَاءَ تَعَجَّلَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي عَشَرَ، وَمَنْ شَاءَ تَأَخَّرَ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ عَشَرَ، وَلَيْسَ بَعْدَ الثَّالِثِ عَشَرَ بَقَاءٌ فِي مَنْى عَلَى وَجْهِ التَّعَبُّدِ.

٣ - أَنَّ مَنْ غَابَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ قَبْلَ أَنْ يَتَعَجَّلَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْبَقَاءُ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ عَشَرَ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، وَ(فِي) لِلظَّرْفِيَّةِ، وَلَا تَحَقُّقُ الظَّرْفِيَّةُ فِي الْيَوْمَيْنِ إِلَّا إِذَا تَعَجَّلَ قَبْلَ الْغُرُوبِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ الْحَشْرِ؟، رَقْمُ (٦٥٢٧) (٦٥٢٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَّةِ، بَابُ فَنَاءِ الدُّنْيَا، رَقْمُ (٢٨٥٩) (٢٨٦٠) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكن لو فرض أن الرجل تأهب للتعجل، وحمل متاعه على سيّارته، ومشى، ولكن للزحام غابت الشمس قبل أن يخرج من حدود منى، فهل يلزمه البقاء، أو يستمر في سيره؟

نقول: بل يستمر في سيره، حتى لو فرض أنه لم يحمل المتاع، ولكنه قوّض الخيام، وجمع المتاع، ولم يبق إلا أن يحمله على السيّارة، ثم يخرج، فلا حرج عليه أن يكمل ذلك، ويخرج حتى وإن غابت الشمس قبل أن يخرج من حدود منى؛ لأنه يصدق عليه أنه تعجل.

٤- الإشارة إلى أن التأخر أفضل؛ لقوله: ﴿لَمَنِ اتَّقَى﴾، وقد يقال: إن قوله تعالى: ﴿لَمَنِ اتَّقَى﴾ قيد لإباحة التعجل والتأخر، يعني: أن من حمله التعجل على فعلٍ إثم -مثل: أن يتعجل؛ لیسافر إلى بلدٍ يحرم السفر إليها، وما أشبه ذلك- فإن عليه الإثم، وهذا ليس ببعيد من أن قوله: ﴿لَمَنِ اتَّقَى﴾ عائد إلى التخيير بين التعجل والتأخر، وأن ذلك منوط بما إذا كان الحامل على التعجل أو التأخر هو التقوى.

٥- وجوب تقوى الله عزّ وجلّ؛ لقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٦- وجوب العلم الذي يترتب عليه الاعتقاد بأننا سنحشر إلى الله؛ لقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وإنما نحشر إلى الله تعالى؛ ليُجازينا على أعمالنا؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (٦) فأما من أوفى كُتبه، بِمِيقِنِهِ (٧) فسوف يحاسب حساباً يسيراً (٨) وينقلب إلى أهله مسروراً (٩) وأما من أوفى كُتبه وراء ظهره (١٠) فسوف يدعو ثبوراً (١١) ويصلى سعيراً (١٢) إنه كان في أهله مسروراً (١٣) إنه ظن أن لن يحور ﴿

٧- بيانُ قُدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكمالِ سُلْطانه؛ حيثُ تُحْشَرُ هذه الخلائقُ إلى اللهِ تعالى يومَ القيامةِ، وتُعَرَّضُ عليها الأعمالُ في كِتَابٍ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا.

وهذا الحِشْرُ ليس حِشْرًا صَغْبًا على اللهِ، قال اللهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ حِشْرُ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٤٤]، ويكونُ هذا الحِشْرُ بكلمةٍ واحدةٍ من ربِّنا عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣].

نَسألُ اللهَ تعالى أنْ يُحْشِرنا على أَكْمَلِ الوُجُوهِ، وهو راضٍ عَنَّا؛ إِنَّه على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْتَ إِسْمَ الْإِمْنَادِ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

في هذه الآياتِ قَسَمَ اللهُ تعالى النَّاسَ إلى قِسْمَيْنِ:

■ قِسْمٌ مُنَافِقٌ مُلْحِدٌ كَافِرٌ، يُعْجِبُ الْإِنْسَانَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدُّنْيَا.

■ وَقِسْمٌ آخَرُ، مُؤْمِنٌ يَبِيعُ نَفْسَهُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

فالأوّل يقول الله عَزَّجَلَّ عنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ (مِنْ) هنا بمعنى: بَعْضُ ﴿مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿أَي: تَسْتَحْسِنُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ لِفَصَاحَتِهِ، وَبَلَاغَتِهِ، وَيَأْتِي بِكَلَامٍ يَطْنُهُ الْإِنْسَانُ حَقًّا، وَهُوَ بَاطِلٌ، ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يعني: أَنَّهُ نَاصِحٌ، مُوَافِقٌ لَشَرِيعَةِ اللَّهِ، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أَي: أَعْظَمُهُمْ خُصُومَةً.

وهذا يَنْطَبِقُ تَمَامًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي وَصْفِهِمْ فِي سُورَةِ (الْمُنَافِقِينَ): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فَهُمْ مَحَلُّ عَجَبٍ فِي الْمَقَالِ وَالْهَيْئَةِ، تُعْجِبُ أَجْسَامُهُمْ رَأْيَيْهَا، وَيَسْحَرُ بَيَانُهُمْ سَامِعَهُ. قَالَ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أَي: إِذَا تَوَلَّى عَنْكَ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذِهِ الْفَصَاحَةِ ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: مَشَى مَشْيًا حَثِيثًا ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ أَي: يُفْسِدُ فِيهَا بِالْمَعَاصِي، وَالِدَّعْوَةِ إِلَيْهَا، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّهُ يُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، فَيُهْلِكُ الْحَرْثَ بِحُلُولِ الْجَدْبِ وَالْقَحْطِ مِنْ فِعْلِهِ؛ لِأَنَّ الْمَعَاصِيَ يَظْهَرُ بِهَا الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وَيُهْلِكُ النَّسْلَ أَيْضًا، وَذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّ الْمَعَاصِيَ سَبَبٌ لِلْأَوْبَةِ وَالْقَحْطِ وَالْجَدْبِ، وَبِهَذَا تَهْلِكُ الْأَمْوَالُ وَتَنْقَطِعُ السُّبُلُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾، وَإِذَا كَانَ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَأْذَنَ فِيهِ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ يعني: إذا أُمِرَ بالتَّقوى اشمأزَّ، ونَفَرَ، وانتَفَخَ، و﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، والعياذُ بالله! فأثِمَ في الرَّدِّ على مَنْ أَمَرَهُ بالمعروفِ، واستكَبَرَ، وعَبَسَ، وبَسَرَ، فلهذا يقولُ فيه اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾.

وهذا ماله إلى النَّارِ -والعياذُ بالله- ولهذا قال اللهُ تعالى عنه: ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: كافيه جَهَنَّمَ، فلا يَصِلُ إلى الجَنَّةِ ﴿وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: بِسِ الْمِهَادُ مِهَادُهُ؛ لأنَّه سوف يُفَرِّشُ من نارِ جَهَنَّمَ -والعياذُ بالله- ويُحِلِّدُ فيها.

أما القسمُ الثاني فقال اللهُ تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: يَبِيعُ نَفْسَهُ؛ طلباً لمرضاةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، سواء باعَ نَفْسَهُ تُجَاهَ أَعْدَاءِ اللهِ ورسوله من الكُفَّارِ، حيثُ يَخْرُجُ إليهم مُجَاهِداً في سَبِيلِ اللهِ، فيُقْتَلُ شهيداً، أو باعَ نَفْسَهُ بأنْ ضَحَّى بِرَاحَتِهِ، وأَتَعَبَ بَدَنَهُ في سَبِيلِ اللهِ، في طلبِ العِلْمِ، وفي تَعْلِيمِ الخَلْقِ، وفي الإِحْسَانِ إليهم، وما أَشَبَهَ ذلك.

و(يَشْرِي) بِمَعْنَى: يَبِيعُ، و(يَشْتَرِي) بِمَعْنَى: يَأْخُذُ. فالشَّارِي دافعٌ، والمُشْتَرِي آخِذٌ، وعندَ العامَّةِ: أن (يَشْرِي) و(يَشْتَرِي) بِمَعْنَى واحدٍ، وليس كذلك، بل بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، كما أن بينَ البَيْعِ والابْتِيعِ فَرْقاً، فالْبَائِعُ: الدَّافِعُ، والمُبْتَاعُ: الآخِذُ أو المُشْتَرِي. وهذا فَرْقٌ يَنْبَغِي أن يَنْفَطِنَ له الإنسانُ؛ لئلا يَقَعَ في خطأ، فلو قال لك قَائِلٌ، وأقرَّ عندك، وقال: إِنِّي شَرَيْتُ البهيمةَ. فبماذا تَحْكُمُ له؟ أهو دافعٌ، أم آخِذٌ؟ عندَ العامَّةِ أَنَّهُ آخِذٌ، ولكنها في اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: شَرَيْتُ البهيمةَ، أي: بَعْتُهَا.

وهذا قد تَرَتَّبَ عليه أَحْكَامٌ، فَيَنْبَغِي لِلإنسانِ أن يَعْرِفَ الفَرْقَ بينَ الكَلِمَاتِ بِمُقْتَضَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وقوله: ﴿ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ابْتَغَاءَ رِضْوَانِهِ، أي: طَلَبَهُ، وهذا يعني الإخلاصَ لله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: رَحِيمٌ بِهِمْ، قال العلماء: والرَّأْفَةُ هي أشدُّ الرَّحْمَةِ وَأَرْقُهَا.

والمراد بالعباد هنا: جميعُ الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، لكن رَأْفَتُهُ بالمؤمنين رَأْفَةٌ مُّسْتَمِرَّةٌ في الدنيا والآخرة، وأَمَّا رَأْفَتُهُ بغير المؤمنين فهي خاصَّةٌ في الدنيا، وليس لهم نَصِيبٌ منها في الآخرة. نسأل الله تعالى أن يكونَ رُؤُوفًا بنا في الدنيا والآخرة، وأن يُوفِّقنا لما يُحِبُّه ويرِضاهُ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٢٠٨)

قوله: ﴿السِّلْمِ﴾ هو الإسلام، وقوله: ﴿كَافَّةً﴾ بمعنى: جميعًا، وهو شاملٌ للأشخاص والأعمال، أي: ادخلوا كُلُّكم في السِّلْمِ كَافَّةً، وادخلوا -أيضًا- في جميع شرائع الإسلام كَافَّةً.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: ما يأمرُكم به؛ فإنَّ الشَّيْطَانَ يأمرُ بالفحشاءِ والمنكرِ.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بينُ العداوة، ظاهرُها.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد ما يلي:

١- توجيه الخطاب إلى المؤمنين يدل على العناية بها سيوجه إليهم، وأنه من مقتضى الإيمان، وأن التفريط فيه منافي لكمال الإيمان.

٢- وجوب الدخول في الإسلام على جميع الناس؛ كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٣- أنه يجب التزام جميع شعائر الإسلام وشرائعه؛ لقوله: ﴿كَافَّةً﴾.

٤- تحريم متابعة الشيطان في خطواته، وهذا يقتضي تحريم التشبه بأولياء الشيطان، وهم الكفار، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١).

٥- بلاغة القرآن الكريم، وحسن أسلوبه؛ حيث ذكر الحكمة بعد ذكر الحكم، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

٦- التحذير الشديد من متابعة الشيطان في خطواته؛ لأنه من المعلوم أن عدوك لن يدعوك ولن يذللك إلا على ما فيه ضرر عليك في الدنيا والآخرة.



(١) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)، وأحمد (٥٠/٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ أَي: عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَانْحَرَفْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، أَوْ تَجَاوَزْتُمْ، أَوْ تَقَاصَرْتُمْ، فَهُوَ يَشْمَلُ الْأُمُورَ الْأَرْبَعَةَ: الانْحِرَافَ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا، وَالْغُلُوبَ وَالتَّقَدُّمَ، وَالْقُصُورَ وَالتَّفْرِيطَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَي: الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ الَّتِي جَاءَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أَي: ذُو عِزَّةٍ كَامِلَةٍ، وَغَلْبَةٍ قَاهِرَةٍ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَي: ذُو حِكْمَةٍ وَحُكْمٍ وَسُلْطَانٍ.

وَحَتَمُ الْآيَةِ بِهَذَا فِيهِ التَّحْذِيرُ مِنَ الزَّلَلِ؛ لِأَنَّ حَتَمَ الْآيَةِ بِاسْمَيْنِ يُدْلَلُ عَلَى الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْحُكْمِ فِيهِمَا التَّحْذِيرُ مِمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ.

وَلَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ قِصَّةً يُنَاسِبُ ذِكْرُهَا هُنَا، وَهِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨]، فَقَالَ: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: أَعِدِ الْآيَةَ. فَأَعَادَهَا الْقَارِئُ كَمَا قَرَأَهَا أَوَّلًا، فَقَالَ: أَعِدِ الْآيَةَ. فَأَعَادَهَا، وَفِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ قَالَ الْقَارِئُ: ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: الْآنَ أَصَبْتَ! لِأَنَّهُ عَزَّ وَحَكَمَ فَقَطَعَ، وَلَوْ غَفَرَ وَرَحِمَ مَا قَطَعَ.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد ما يلي:

- ١- تحذير المؤمنين من الزلزال بعد أن قامت عليهم البيئة.
- ٢- أن من زل قبل أن تقوم عليه البيئة فإنه لا عقوبة عليه، ولا إثم عليه؛ لأن الله تعالى قيّد الوعيد بما كان من بعد ما جاءت البيئة.
- ٣- أن الله سبحانه وتعالى بين الحق بيانا تبين به المحجة، وتنقطع به الحجة؛ لقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾.
- ٤- إثبات هذين الاسمين لله عز وجل، وهما: العزيز، والحكيم. وإثبات ما دلا عليه من المعاني والصفات، فهو عزيز ذو عزّة غالية، وحكيم ذو حكمة بالغة، وذو حكم وسلطان قاهر.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٣١)

قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينظر هؤلاء، والنظر هنا بمعنى الانتظار، أي: ما ينتظر هؤلاء الذين يُخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ، وَيَزِيلُونَ عَنْهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ يَأْتِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَتَأْتِي الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلُ مِنَ السَّمَاوَاتِ، وَتُحِيطُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ، كُلِّ مَلَائِكَةٍ سَاءٍ مِنْ وَرَاءِ الْآخِرِ، وَحِينَئِذٍ يُقْضَى الْأَمْرُ، وَيُفْصَلُ بَيْنَ النَّاسِ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ.

﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: سُؤُونَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَحْكَامُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.
وهذه الآية تتضمن الوعيد بما يحصل لأهل الزل من القضاء الدائر بين العدل والفضل، وذلك يوم القيامة.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد ما يلي:

١- إثبات اليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، التي لا يتم الإيمان إلا بها؛ لأن جبريل عليه السلام سأل النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- عن الإيمان، فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

٢- إثبات الإتيان لله عز وجل؛ لقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾، وهو إتيان حقيقي، يليق بعظمته وجلاله، وليس مماثلاً لإتيان المخلوقين؛ لأن الله تعالى أجل وأعظم من أن يماثل خلقه في أفعاله، فيجب علينا أن نؤمن بأن الله تعالى إتياناً يليق به، وهكذا يجب علينا أن نؤمن بكل فعل أضافه الله إلى نفسه أنه مضاف إليه حقيقة.

ومن أمثلة ذلك ما يلي: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [إبراهيم: ١٩] أي: هو الخالق، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] أي: هو الجائي سبحانه وتعالى، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: هو القاضي.

وهكذا كل فعل أضافه الله إلى نفسه، فيجب علينا أن نضيفه إليه على وجه الحقيقة، إلا أنه يجب أن نتبرأ من طريقتين ضاليتين:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

أَحَدُهُمَا: التَّمثِيلُ.

وَالثَّانِي: التَّكْيِيفُ.

فَلَا نُمَثِّلُ إِيَّانَ اللَّهِ وَجِئْتَهُ بِإِيَّتَانِ الْخَلْقِ وَجِئْتُهُمْ، وَلَا نُكَيِّفُهُ، فَنُحَدِّثُ لَهُ كَيْفِيَّةً مُعَيَّنَةً؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

٥ - إِبْثَاتُ الْمَلَائِكَةِ، وَالْمَلَائِكَةُ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نُورٍ، وَجَعَلَ لَهُمْ وَظَائِفَ مُعَيَّنَةً، وَهُمْ مُمَثِّلُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ١٩ يُسَبِّحُونَ أَلَيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩-٢٠]، وَهُمْ أَقْوِيَاءُ عَلَى مَا كَلَّفَهُمُ اللَّهُ بِهِ، لَا يَفْتُرُونَ وَلَا يَمَلُّونَ.

٦ - الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ -أَي: حَالِ مَجِيءِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَالْمَلَائِكَةِ- يَنْتَهِي الْأَمْرُ، وَيُقْضَى الْأَمْرُ، وَيَرْجِعُ كُلُّ إِنْسَانٍ إِلَى مَاوَاهُ وَمَثْوَاهِ الْأَخِيرِ، أَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ.

٧ - أَنَّ جَمِيعَ الْأُمُورِ تَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، سِوَاءِ أُمُورِ الدِّينِ وَأُمُورِ الدُّنْيَا وَأُمُورِ الْآخِرَةِ، كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ أَي: الشُّؤُونُ كُلُّهَا.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيْنَهُ وَمَن يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣١﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿سَلِّ﴾ بمعنى: اسأَلْ، وَالْخِطَابُ إمَّا لِلرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَإِمَّا لِكُلِّ مَن يَصِحُّ تَوَجُّهُ الْخِطَابِ إِلَيْهِ مِنَ الْبَشَرِ.

وَبَنُو إِسْرَائِيلَ: هُمُ بَنُو يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَهُمُ أَبْنَاءُ الْعَمِّ لِلْعَرَبِ. وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ أَنْبِيَاءً، وَجَعَلَ فِيهِمْ مُلُوكًا، وَآتَاهُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَآتَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ -الَّتِي يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهَا الْبَشَرُ- مَا تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ﴾ وَ(كَمْ) هُنَا لِلتَّكْثِيرِ ﴿مِّنْ ءَايَةٍ بَيْنَةٍ﴾ مِنَ التَّوْرَةِ وَغَيْرِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيْنَاتٍ فَمَسَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وَقَوْلُهُ: ﴿بَيْنَةٍ﴾ أَي: ظَاهِرَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى مَا جُعِلَتْ لَهُ، فَهَلْ آمَنُوا أَوْ كَفَرُوا؟ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمْ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَقَدْ بَدَّلُوهَا حَقًّا؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيُبْعَثُ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ بَعْثِهِ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: يَسْتَنْصِرُونَ بِمُحَمَّدٍ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

وَقَدْ كَانُوا يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا ﷺ كَمَا كَانُوا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ تَمَامًا، وَقَدْ كَانُوا ﴿يَحِيدُونَهُ﴾ أَي: مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فهم عَرَفُوهُ حَقًّا.

وبشّر به آخِرُ أَنْبِيَائِهِمْ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقال: ﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ اِنِّی رَسُوْلُ اللّٰهِ اِلَیْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَیْنَ یَدَیْ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُوْلٍ یَّاْتِی مِنْ بَعْدِی اَسْمُهُ اَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴿١٥٨﴾ اَی: هَذَا الرَّسُوْلُ الَّذِی بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوْا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْمِنٌ﴾ [الصف: ٦].

وقد هدّد الله تعالى بني إسرائيل الذين بدّلوا نعمة الله كُفْرًا، بأنّه تعالى ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: شديد المعاقبة والمُؤاخِذَةِ على الذَّنْبِ، وهذا من أبلغ التحذير.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- تحذّر بني إسرائيل الذين كذّبوا رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم-، بل كذّبوا رُسُلَهُمْ أيضًا، فكانوا يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ، مِنَ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

٢- بيانُ عُتُوِّ بني إسرائيل، وَغِلْظَتِهِمْ، وَخِيَانَتِهِمْ، وَتَبْدِيلِهِمْ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا.

٣- أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي يَجْعَلُهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْأَنْبِيَاءِ آيَاتٌ بَيِّنَةٌ، لَا إِشْكَالَ فِيهَا؛ لِأَنَّ الْآيَاتِ الْبَيِّنَةَ هِيَ الَّتِي تَنْقَطِعُ بِهَا الْحُجَّةُ، وَتَبَيَّنُ بِهَا الْمَحَجَّةُ، فَآيَاتُ اللَّهِ تَعَالَى بَيِّنَةٌ ظَاهِرَةٌ وَاضِحَةٌ.

٤- أَنَّ الشَّرَائِعَ وَالذِّينَ مِنْ أَكْبَرِ النُّعَمِ؛ لَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾، وهو قال في أوّل الآية: ﴿كَمْ أَتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

ولا شكَّ أَنَّ الشَّرَائِعَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ لِعِبَادِهِ عَلَى أَيْدِي رُسُلِهِ مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ، بَلْ هِيَ أَكْبَرُ النِّعَمِ عَلَى الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ بِالْتَّمَسُّكِ بِهَا سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْفَلَاحَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

٥- الإشارةُ إِلَى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أُوتُوا مِنَ الْآيَاتِ مَا تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيْنَهُ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٦- تحذيرٌ مَنْ بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وَالْعِقَابُ يَعْنِي: الْمُواخَذَةُ، وَسُمِّيَتْ الْمُواخَذَةُ: عِقَابًا؛ لِأَنَّهَا تَعْقُبُ الْعَمَلَ وَتُكَافِئُهُ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١١٢)

قَوْلُهُ: ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أَي: حُسْنَتْ لَهُمْ، وَذَلِكَ بِمَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَا تَهَوَّاهُ نُفُوسُهُمْ، فَهُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهَا زِينَتْ لَهُمْ، فَلَا يَرَوْنَ غَيْرَهَا مِثْلَهَا، وَلَا خَيْرًا مِنْهَا.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يَعْنِي: يَتَّخِذُونَهُمْ سُخْرِيًّا، حَيْثُ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يُبَالُونَ بِالدُّنْيَا، وَلَا يَهْتَمُّونَ بِهَا، وَاتَّخَذُوهَا وَسِيلَةً لِلْآخِرَةِ، فَهَؤُلَاءِ يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، يَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ مُتَخَلِّفُونَ، هَؤُلَاءِ لَمْ يَذُوقُوا نَعِيمَ الدُّنْيَا، لَمْ يَصِلُوا إِلَى تَرْفِهَا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

ولكنَّ هذه السُّخْرِيَّةَ سَيَعْقُبُهَا سُفُولٌ وَخِذْلَانٌ وَذُلٌّ، ولهذا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ لَأَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا يَكُونُونَ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وهؤلاءِ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٢٥﴾ فَالْيَوْمَ ﴾ يعني: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٢٦﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٥].

وفرقُ بَيْنَ ضَحِكِ الْمُجْرِمِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا، وَضَحِكِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ؛ لَأَنَّ ضَحِكَ الْكُفَّارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا يَعْقِبُهُ الْحُزْنُ الدَّائِمُ وَالْكَابَةُ وَالْحُسْرَةُ، وَأَمَّا ضَحِكُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا يَعْقِبُهُ شَيْءٌ مِنَ الْكَدَرِ وَالْحُزَنِ، بَلْ هُمْ يَضْحَكُونَ مِنْهُمْ، كَمَا ضَحِكَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا جَزَاءً وَفَاقًا.

يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يُعْطِي الرِّزْقَ -وهو الْعَطَاءُ- مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، بَلْ يُعْطِيهِ جَلَّ وَعَلَا بِكَثْرَةٍ وَغَرَارَةٍ.

وقد بيَّنَ اللهُ تَعَالَى أَسْبَابَ الرِّزْقِ الْمَعْنَوِيَّةَ وَالْحِسِّيَّةَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وهذا سببٌ مَعْنَوِيٌّ، وهو تَقْوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وهذا سببٌ حِسِّيٌّ لِلرِّزْقِ، أَنْ يَعْمَلَ الْإِنْسَانُ

وَيَتَجَرَّ وَيَكْتَسِبَ، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، وهذا أيضًا سبب بالحرث والحشيش وغير ذلك مما يكتسبه الإنسان من الأرض.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ قَيْدَ رِزْقِهِ تعالى بالمشيئة؛ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَفْعَلُ أسبابَ الرِّزْقِ، وَلَكِنْ لَا يَرْزُقُ، بَلْ يَمْنَعُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ الرِّزْقَ؛ لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ بِالْغَةِ؛ فَإِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَن إِذَا رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَغْنَاهُ أَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَمِنْهُمْ مَن إِذَا قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ أَفْسَدَهُ الْفَقْرُ، فَاللَّهُ جَلَّوَعَلَا - لِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِالْمُؤْمِنِ - يَخْتَارُ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَكْمَلَ الْأَحْوَالِ، سَوَاءٌ كَانَ فِي كَثْرَةِ الْمَالِ، أَوْ فِي قِلَّةِ الْمَالِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا حَلَالًا طَيِّبًا مُبَارَكًا، يَنْفَعُنَا فِي دِينِنَا وَدُنْيَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - الحذر من الانغماس في الدنيا، وإن رأى الإنسان ذلك حسنًا؛ لأنَّ هذا طريق الكُفَّارِ، أَنْ يَنْغَمَسَ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا، وَيَنْسِيَ الْآخِرَةَ، وَدَلِيلُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

٢ - أَنَّ الْكَافِرِينَ يَسْخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكُلَّمَا قَوِيَ الْإِيمَانُ قَوِيَتِ السُّخْرِيَّةُ؛ لِأَنَّ لَدِينَا قَاعِدَةً مُهِمَّةً، وَهِيَ: أَنَّ الْحُكْمَ الْمُعْلَقَ عَلَى وَصْفٍ يَزْدَادُ بزيادة ذلك الوصف، وَيَنْقُصُ بِنقصه.

٣ - أَنَّ مَنْ سَخِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّ السُّخْرِيَّةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ هِيَ طَرِيقُ الْكَافِرِينَ، فَإِذَا سَخِرَ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَانَ مُشَابِهًا لِلْكَفَّارِ فِي سُخْرِيَّتِهِ.

ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: أَنَّهُ يَجِبُ الْحَذَرُ مِنَ الشُّخْرِيَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، سواء كان ذلك في أَخْلَاقِهِمْ، أو خِلَقَتِهِمْ، أو في غَيْرِ ذلك.

وأشدُّه وأعظمُه: أن تكون الشُّخْرِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ بِتَمَسُّكِهِ بِهَدْيِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، كَالَّذِي يَسْخَرُ مِمَّنْ أَعْفَى لِحَيْتِهِ، أو رَفَعَ ثَوْبَهُ عَنْ كَعْبِهِ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، فَإِنَّ هَذِهِ الشُّخْرِيَّةَ تَكُونُ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ.

٤- أَلَّا يَغْتَرَّ الْمُؤْمِنُ بِالْكَافِرِ؛ فَإِنَّ الْكَافِرَ رَبُّمَا يُعَامِلُهُ مُعَامَلَةً يَظُنُّهَا الْمُؤْمِنُ طَيِّبَةً مُلَائِمَةً لَهُ، لَكِنَّ الْكَافِرَ يَتَّخِذُهُ سُخْرِيًّا، فعليه الحَذَرُ مِنَ الْكُفَّارِ وَسُخْرِيَّاتِهِمْ.

٥- الْبَشَارَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا، ومعلومٌ أَنَّ تِلْكَ الْفَوْقِيَّةَ لَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا سُفْلٌ، وَأَمَّا فَوْقِيَّةُ الْكَافِرِ عَلَى الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا -إِنْ وَقَعَتْ- فَإِنَّهُ سَوْفَ يَعْقُبُهَا الدُّلُّ وَالْإِنْحِطَاطُ.

٦- فَضِيلَةُ التَّقْوَى، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِلْعُلُوِّ وَالرَّفْعَةِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

٧- إِبْنَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْإِيمَانُ بِهِ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَةِ، الَّتِي بَيْنَهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لِجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ قَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

٨- الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ التَّقْوَى سَبَبٌ لِلرِّزْقِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بعد أن قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

(١) تقدم تخريجه (ص: ٤٦).

ويؤيد ذلك - وهو واضح صريح - قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٩ - سعة فضل الله تعالى وعطائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١٠ - إثبات المشيئة لله، وأن الرزق بيده عز وجل، فكَم من إنسانٍ عمل الأسباب الكثيرة للرزق، ولم يحصل له! وكم من إنسانٍ حصل له الرزق بلا تعب! لكن لا يعني ذلك أن نُكَبِّل أيدي العاملين، وأن نقول: لا تبتغوا الرزق. بل نقول: ابتغوا عند الله الرزق، واعملوا الأسباب، لكن إن لم تصلوا إلى مُرادكم فاعلموا أن الأمر بيد الله، وأنه تعالى يرزق من يشاء بغير حساب.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٣)

قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ﴾ أي: فيما مضى منذ خلق آدم إلى أن اختلفوا، كانوا ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: على دين واحد، وعمل واحد، ليس بينهم اختلاف، ولا عداوة، ولا شحنة؛ لأنهم لم يكثرُوا بعد، ولم يفرقوا في الأرض، ولم تختلف أهواؤهم، ثم مع كثرتهم وتفرقتهم في الأرض اختلفوا، وحينئذ صاروا مضطرين إلى الرسالة،

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ﴾ أي: أَرْسَلَ ﴿النَّبِيِّينَ﴾، والمرادُ بالنَّبِيِّينَ هنا: الرُّسُلُ، وهكذا كُلُّهَا جاءتِ: (النَّبِيُّ) أو (النَّبِيُّونَ) أو ما أَشْبَهَ ذلكَ في القرآنِ الكريمِ فالمرادُ بها: نُبُوَّةُ الرِّسَالَةِ.

وقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مُبَشِّرِينَ مِّنْ أَطَاعَ بِالْحَيْرِ الْعَاجِلِ وَالْأَجَلِ، وَمُنذِرِينَ مِّنْ عَصَى بِالْعُقُوبَةِ الْعَاجِلَةِ وَالْأَجَلَةِ.

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: أَنْزَلَ مَعَ النَّبِيِّينَ الْكِتَابَ، والمرادُ به هنا: الْجِنْسُ؛ لِأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ خَاصٌّ بِهِ، مُنَاسِبٌ لِأَحْوَالِ أُمَّتِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَلَمْ يُبْعَثْ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

إِذَنْ، ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: الْكُتُبَ، كُلُّ رَسُولٍ لَهُ كِتَابُهُ.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بِشَرَائِعِ الْحَقِّ، وَضِدُّهُ: الْبَاطِلُ. وَأَعْظَمُ الْحَقُوقِ وَأَحَقُّ الْحَقُوقِ: عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَإِفْرَادُهُ بِالْأُلُوهِيَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ أي: اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ الْمُخْتَلِفِينَ ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، وَذَلِكَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّينَ مِنَ الْكِتَابِ الْمُتَضَمِّنِ لِلْحَقِّ.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ يعني: وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ بَعْدَ إِرسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنزَالِ الْكُتُبِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: أُوتُوا الْكِتَابَ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يُلَامُونَ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ أَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ.

قال الله تعالى: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: أنهم اختلفوا في ذلك، وبغى بعضهم على بعض، حتى سَلَطَ الكُفَّارُ على الْمُؤْمِنِينَ، فَقَاتَلُوهُمْ، بَلْ سَلَّطَ الْكُفَّارُ عَلَى الرُّسُلِ، فَقَتَلُوهُمْ.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿لَمَّا اُخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني: دلَّهم على ما اختلفَ النَّاسُ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، وَجَانَبُوا النَّاسَ، وَالتَّزَمُوا الشَّرِيعَةَ.

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: إِذْنُهُ الْقَدَرِيُّ، أي: قَدَّرَ اللَّهُ لَهُمْ هَذِهِ الْهَدَايَةَ، فَاهْتَدَوْا. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني: يَدُلُّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، أي: طريقٍ مُسْتَقِيمٍ، وَهُوَ طَرِيقُ الرُّسُلِ.

وهذه المشيئة مُطْلَقَةٌ هُنَا، لَكِنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَهْدِي بِذَلِكَ مَنْ أَتْبَعَ رِضْوَانَهُ، فَقَالَ: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى فِي ضِدِّ هَؤُلَاءِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

نَسَأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَهْدِيَنَا جَمِيعًا لِمَا اُخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - أَنَّ النَّاسَ كَانُوا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، هُوَ الَّذِي يَدِينُ بِهِ أَبُوهُمْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذْ ذَاكَ قَلَّةً، لَمْ تَتَفَرَّقْ بِهِمُ الْأَهْوَاءُ، وَلَمْ يَتَشَرَوْا فِي الْأَرْضِ، وَلَمْ يَخْتَلَفِ النَّاسُ، فَكَانُوا عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ.

٢- نِعْمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حَيْثُ اخْتَارَهُمْ أَنْ يَكُونُوا رُسُلًا لَهُ، وَنِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ؛ حَيْثُ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَنْ يُبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقَّ؛ لِيَتَّبِعُوهُ.

٣- شِدَّةُ حَاجَةِ النَّاسِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

٤- بَيَانُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِأَرْسَالِ الرُّسُلِ.

٥- أَنَّ وَظِيفَةَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هِيَ الْبَشَارَةُ وَالْإِنْذَارُ، بَعْدَ بَيَانِ مَا جَاءُوا بِهِ مِنْ الْأَحْكَامِ وَالْأَخْبَارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَالَ الْخَلْقِ إِلَى دَارَيْنِ، هُمَا: الْجَنَّةُ، وَالنَّارُ. فِيمَا مَوْمِنٌ يُبَشِّرُ بِالْجَنَّةِ، وَإِمَّا كَافِرٌ يُنْذَرُ بِالنَّارِ.

٦- أَنَّ أَحْكَامَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قِسْمَانِ:

■ قِسْمٌ يَصِلُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى غَايَةِ السَّعَادَةِ.

■ وَقِسْمٌ آخَرُ يَصِلُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى غَايَةِ الشَّقَاوَةِ إِذَا خَالَفَهُ.

ولذلك جاءتِ الشَّرَائِعُ أَوْامِرَ وَنَوَاهِي، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا أَفِي﴾ [الإسراء: ٢٣]، وما أَشَبَهُ ذَلِكَ.

٧- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ إِذَا عَرَضَ شَرِيعَةُ اللَّهِ أَلَّا يَعْرِضَهَا أَحْكَامًا غَيْرَ مَقْرُونَةٍ بِالْبَشَارَةِ وَالْإِنْذَارِ؛ لِأَنَّ الْبَشَارَةَ تُوجِبُ أَنْ يَقْبَلَ الْإِنْسَانُ وَيَقْوَى وَيَتَشَجَّعَ، وَالْإِنْذَارُ يُوجِبُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَحْذَرَ مُحَالَفَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٨- تَقْدِيمُ الْبُشْرَى عَلَى الْإِنْذَارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، وعلى هذا فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يُقَدِّمَ الْبَشَارَةَ عَلَى الْإِنْذَارِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَوْضُوعُ كَلَامِهِ التَّحْذِيرَ مِنْ مَآثِمٍ مُعَيَّنَةٍ، فَحِينَئِذٍ يَبْدَأُ بِالْإِنْذَارِ؛ لِأَنَّ الْحَالَ تَقْتَضِيهِ.

٩- أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَهُمْ كُتُبٌ مِنَ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾، وَأَنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ كِتَابًا، فِيهِ الشَّرَائِعُ الْمُنَاسِبَةُ لِقَوْمِهِ.

وَأَخْرَجُ هَذِهِ الْكُتُبَ، وَأَعْمَهَا، وَأَنْفَعُهَا: الْكِتَابُ الَّذِي نَزَّلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ.

١٠- أَنَّ كُلَّ كِتَابٍ مَعَ نَبِيٍّ فَإِنَّهُ نَازِلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَيْسَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

١١- أَنَّ الْكُتُبَ الْإِلَهِيَّةَ كُلَّهَا نَازِلَةٌ بِالْحَقِّ، أَخْبَارٌ صَادِقَةٌ، وَأَحْكَامٌ عَادِلَةٌ، وَمَصَالِحُ مَرْمُوقَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ، وَمَفَاسِدُ مَرْهُوبَةٌ مُحَوِّفٌ مِنْهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، وَهَذَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

١٢- أَنَّ الْكُتُبَ الْإِلَهِيَّةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى الرُّسُلِ حَقٌّ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ: الْإِيمَانُ بِكُتُبِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَلَكِنْ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ مَا مِنْ كِتَابٍ سَبَقَ الْقُرْآنَ إِلَّا وَحَصَلَ فِيهِ التَّبْدِيلُ، وَالتَّغْيِيرُ، وَالْإِخْفَاءُ، وَالْإِظْهَارُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

لَكِنَّ كِتَابَنَا الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - كَانَ مُحْفُوظًا بِحِفْظِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولهذا لم يَتَجَرَّأْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَقًّا أَنْ يَزِيدَ فِيهِ أَوْ يَنْقُصَ، وَلَمْ يَتَجَرَّأْ أَحَدٌ عَلَى تَحْرِيفِ مَعْنَاهُ وَتَأْوِيلِهِ عَلَى غَيْرِ مُرَادِهِ إِلَّا فَضَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَسَّرَ لَهُ مَنْ يَرُدُّ بَاطِلَهُ.

١٣ - أَطْمِئِنَّانُ الْعَبْدَ لِمَا جَاءَ فِي شَرَائِعِ اللَّهِ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ؛ حَيْثُ وَصَفَ اللَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ حَقٌّ، وَالْحَقُّ مَقْبُولٌ لِكُلِّ ذِي عَدَلٍ وَإِنصَافٍ.

وعلى هذا، فلا يُمكنُ قَبُولُ الِاعْتِرَاضِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّهَا كُلُّهَا حَقٌّ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ قَدْ يَخْفَى عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، فَتَخْفَى عَلَيْهِ الْحِكْمَةُ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا حَقًّا اسْتَسْلَمَ وَأَذْعَنَ، وَكَانَ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وَإِنْ كَانَ ضَعِيفَ الْإِيمَانِ فَقَدْ يَقَعُ فِي قَلْبِهِ شَكٌّ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَحِينَئِذٍ يَهْلِكُ وَيَضِيعُ.

١٤ - أَنَّهُ يَجِبُ الرُّجُوعُ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

١٥ - أَنَّ الْحُكْمَ بَيْنَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَيْسَ إِلَى الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ الْمُخَالَفَةِ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ، وَلَيْسَ إِلَى الْأَهْوَاءِ وَالْأَمَزِجَةِ وَالْأَذْوَاقِ، بَلْ هُوَ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

١٦ - الْإِشَارَةُ - وَلَوْ عَلَى بُعْدٍ - إِلَى أَنَّ إِجْمَاعَ هَذِهِ الْأُمَّةِ حَقٌّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، فَفِيهِ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ مَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ مِنَ الْحَقِّ فَهُوَ مَقْبُولٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

١٧- فضيلة العلم والعلماء؛ لأنهم هم المرجع للناس؛ ليحكموا بينهم بما أنزل الله عز وجل، وبهم يكون إرث النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-؛ فإن العلماء ورثة الأنبياء، يرثون الأنبياء في أممهم بالعلم، والعبادة، والدعوة.

١٨- أن الذين اختلفوا في الكتاب بعد إنزاله قد قامت عليهم الحجة؛ لقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾.

١٩- أن الذين اختلفوا في الكتاب بعد أن أوتوه إنما كان اختلافهم بغياً وعدواناً؛ لأنهم عرفوا الحق، فكان الواجب عليهم أن يتفقوا عليه، واختلافهم فيه عدوانٌ وبغى.

٢٠- التحذير من الاختلاف في الحق؛ حيث كان بغياً وعدواناً، وكل إنسان -لا شك- يكره البغي والعدوان، فيجب الحذر من الاختلاف في دين الله، ويجب الاتفاق عليه؛ كما أمر الله به في قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وبهذا نعرف خطأ من خالف الحق في هذه المسألة العظيمة، وجعل اختلاف الرأي -فيما فيه مساعٍ للاجتهاد- سبباً لاختلاف القلوب والتفرق، حتى صار يضل الآخرون في أمر لهم فيه سعة، ويقول عنهم: إنهم مبتدعة. وربما يتجاوز إلى أكثر من ذلك، فيقول: إنهم كفرة. والعياذ بالله، في أمر يسوغ فيه الاجتهاد، وليس أحد المختلفين بأولى من الآخر بالصواب إلا ما وافق النص، وليس عند أحدٍهم وحي يجب أتباعه، بل كلهم مجتهدون.

فالواجبُ: أن تتسع الصدور لمثل هذا الخلاف السائغ، وألا تختلف القلوب به؛ كما كان ذلك شأن الصحابة رضي الله عنهم، حيث يختلفون في الأمور التي يسوغ فيها الاجتهاد، ولكن قلوبهم واحدة لا تختلف.

٢١- أنه كلما كثرت الأمة كثر الاختلاف، وذلك أن الناس حين كانوا قلة كانوا على دين واحد، فلما كثروا اختلفوا وتنازعوا، واحتاجوا إلى الرسالة، وهذا أمرٌ مُشاهد؛ لأنه إذا كثرت الأمة كثرت الأهواء والأغراض الموافقة للشريعة والمخالفة لها.

٢٢- منة الله عز وجل على عباده المؤمنين؛ حيث هداهم لما اختلف فيه الناس، قال الله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾.

٢٣- أن الإيمان سبب للهداية، وكلما ازداد الإنسان إيماناً ازداد هدى؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾، فعلق الهدى على وصف الإيمان، والحكم المعلق على وصف يزداد بزيادة ذلك الوصف، وينقص بنقصه، ويُشير إلى هذا: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاهَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَوْهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وهذه من فوائد الإيمان.

٢٤- بيان منة الله عز وجل على المؤمنين بالهداية لما اختلف فيه من الحق.

٢٥- منة الله عز وجل على العبد إذا هداه، حيث إن هدايته لذلك بإذن الله عز وجل.

ويتفرع على هذا فائدة مهمة عظيمة، وهي: ألا يُعجب الإنسان بنفسه، ولا يفخر بنعمة الله على غيره؛ فإن هذا بإذن الله عز وجل، وفضله، وهدايته.

٢٦- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسبباتها، لكن بإذن الله؛ لقوله: ﴿فَهْدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾، فالإيمان سببٌ لهداية الله، لكنه ليس سبباً مستقلاً، بل هو بإذن الله عزَّوجلَّ.

٢٧- أن ما أنزل الله تعالى من الكتب فهو بينٌ واضحٌ، ولكنه يحتاج إلى شَيْئَيْنِ:

أحدهما: الإخلاص في طلب الحق.

والثاني: أن يكون رائد الإنسان الوصول إلى الحق، لا أن يتنصر على خصمه، أو يعلو قوله بحق أو بباطل.

فإذا كان مخلصاً لله تعالى في طلب الحق، واتبَعَ السُّبُلَ الَّتِي يَهْتَدِي بِهَا لِلْحَقِّ بعناية وعلم، فلا بُدَّ أن يوفق إليه؛ لأنَّ آياتِ الله تعالى بَيِّنَاتٌ ظَاهِرَةٌ.

٢٨- أن الله تعالى له الحكم المطلق في هداية من شاء وإضلاله؛ لقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ولكنَّ هذا المطلق محمولٌ على مَنْ عَلِمَ الله تعالى من نيته أَنَّهُ يُرِيدُ الْحَقَّ، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

٢٩- اللجوء إلى الله تعالى في طلب الهداية، وأنه لا هداية إلا بإذن الله عزَّوجلَّ

وبمشيئته؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، نسأل الله تعالى أن يهدينا صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

٣٠- إثبات تعلُّق مشيئة الله تعالى بأفعال الخلق، فيكون في هذا ردُّ على القدرية

الغلاة الذين يقولون: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا مَشِيئَةَ لَهُ فِي هِدَايَةِ الْخَلْقِ.

٣١- أَنْ دِينَ اللَّهِ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، وَلَا انْحِرَافَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، نَسْأَلُ اللَّهَ الْهِدَايَةَ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤)

يُخَاطَبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، يَقُولُ لَهُمْ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بِدُونِ أَنْ يَحْصُلَ لَكُمْ أَذِيَّةٌ، وَأَذَى، وَفِتْنَةٌ، وَبِلَاءٌ، وَالْمَعْنَى: أَنْ ذَلِكَ لَنْ يَكُونَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿[العنكبوت: ١-٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ﴿مَثَلُ﴾ بِمَعْنَى: شِبْهِ، أَيْ: لَمْ يَأْتِكُمْ مِثْلُ مَا أَتَى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ.

وَيَبَيِّنُ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ﴾ أَيْ: الْفَقْرُ وَالتَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ ﴿وَالضَّرَاءُ﴾ أَيْ: الضَّرَرُ فِي أَبْدَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أَيْ: مِنَ الْمَخَافِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُقْلِقُ الْإِنْسَانَ فِي حَيَاتِهِ ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ يَعْنِي: حَتَّى وَصَلَتْ بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾،

يَقُولُونَ ذَلِكَ اسْتِبْطَاءٌ لِلنَّصْرِ، وَتَرْقُبًا لَهُ، وَلَيْسَ إِنْكَارًا لِلنَّصْرِ؛ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ أَنْبِيَائِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۝٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿[غافر: ٥١-٥٢].

فَقُولُهُمْ: ﴿مَتَى نَصَرَ اللَّهُ﴾ يَعْنِي: يَقُولُونَ ذَلِكَ مُتَشَوِّقِينَ لَهُ، مُسْتَبْطِئِينَ لَهُ، مُنْتَظِرِينَ الْفَرَجَ بِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أَي: وَلَيْسَ بَعِيدٍ، وَالنَّصْرُ قَدْ يَكُونُ نَصْرًا لِلْقَوْلِ وَقَائِلِهِ، بَحِيثٌ يُشَاهِدُ الْقَائِلُ انْتِصَارَهُ فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ يَكُونُ نَصْرًا لِلْقَوْلِ فَقَطْ، بَحِيثٌ يَمُوتُ الْإِنْسَانُ الْقَائِلُ قَبْلَ أَنْ يُشَاهِدَ النَّصْرَ بَعِيْنَهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ مَا جَاءَ بِهِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١- تَسْلِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، بِأَنَّ مَا مَسَّهُمْ مِنَ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالزَّلْزَلَةِ - حِينَ كَانُوا فِي مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُمْ بِالْهَجْرَةِ - قَدْ مَسَّ مِثْلُهُ مَنْ خَلَا وَمَضَى، وَصَبَرُوا حَتَّى نُصِرُوا.

٢- أَنَّ مَنْ قَامَ بِالِدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَسَوْفَ يُمْتَحَنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيُتَبَلَى الصَّالِحُونَ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُمْتَحَنُ لِيُنْظَرَ: هَلْ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ، وَهُوَ جَادٌّ فِي دِينِهِ، مُتَمَسِّكٌ بِهِ تَمَامًا، أَوِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ؟ وَفِي هَذَا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أَي: عِبَادَةً عَلَى طَرَفٍ ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْفَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]،

نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الثَّباتَ.

٣- أَنْ اسْتِيطَاءَ النَّصْرِ وَانْتِظَارَ الْفَرَجِ لَا يُحِلُّ بِالتَّوْحِيدِ، وَلَا بِالتَّصَدِيقِ؛ لِأَنَّهُ يَقَعُ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ؟﴾.

ولكن الشَّأنُ كُلُّ الشَّأْنِ بِالصَّبْرِ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، هَلْ يَصْبِرُ الْإِنْسَانُ، وَيَنْتَظِرُ الْفَرَجَ -وَانْتِظَارُ الْفَرَجِ عِبَادَةٌ- أَوْ يَيْئَسُ وَيَسْتَحْسِرُ، وَيَقُولُ: لَا انْتِصَارَ، وَلَا نَصْرَ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؟

٤- أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا، وَأَنْ نَصْرَهُ لِأَوْلِيَائِهِ قَرِيبٌ، وَلَيْسَ بَبَعِيدٍ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِيقٌ مِنْ عَجَلٍ، وَكَانَ عَاجُولًا، فَأَصْلُهُ وَوَصْفُهُ الْعَجَلَةُ، يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ هُوَ الَّذِي يَصْبِرُ، وَيَنْتَظِرُ الْفَرَجَ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

••❦••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥)

يَكْثُرُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ فِي حَوَالِي ثَلَاثَةِ عَشَرَ مَوْضِعًا^(١) يَسْأَلُونَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ مَسَائِلَ فِي دِينِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ، لَا لِيُطْلِعُوا عَلَى حُكْمِهَا

(١) سورة البقرة الآيات: (١٨٩، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢) وسورة المائدة الآية: (٤)، والأعراف الآية: (١٨٧)، والأنفال الآية: (١)، والإسراء الآية: (٨٥)، والكهف الآية: (٨٣)، طه الآية: (١٠٥)، والنَّازعات الآية: (٤٢).

فقط، ولكن لِيَعْمَلُوا بها، بخلاف كثير من الناس اليوم، فإنهم يسألون عن الحكم للاطلاع فقط، وسيأتي -إن شاء الله- في الفوائد الكلام على هذا.

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ يعني: ما الذي يُنْفِقُونَهُ من أموالهم؟ فتوى الله تعالى الجواب عن هذا السؤال مباشرة، وأجاب عما هو أهم: أين يُنْفَقُ هذا؟ فهنا إنفاق، والإنفاق يتضمن مُنْفَقًا ومُنْفَقًا عليه، والأهم المُنْفَقُ عليه: هل يكون الإنفاق في محله، أو في غير محله؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، فبين الله تعالى مصرف هذا الإنفاق، وأما المُنْفَقُ فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: من فضل زائد عن حاجاتكم.

والخير يُطْلَقُ على الشيء الزائد والفاضل على غيره، ويُطْلَقُ على المال، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، أي: لحُبِّ المال.

فعلى هذا يكون في الآية جواب زائد عن السؤال؛ حيث بين الله المُنْفَقَ والمُنْفَقَ عليه، فالمُنْفَقُ في قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، والمُنْفَقُ عليه في قوله: ﴿فِلِلْوَالِدَيْنِ﴾، وهما الأم والأب، ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الأقرب فالأقرب، كالجدة، والجد، وجد الأب، وجد الأم، وما أشبه ذلك ﴿وَالْيَتَامَى﴾ جمع يتيم، وهو كُلُّ مَنْ مات أبوه وهو صغير لم يبلغ من ذكْرٍ أو أنثى.

وإنما أوصى الله بهم؛ لأنهم أهل للرحمة والشفقة، حيث لا عائل لهم، وحيث انكسرت قلوبهم، يُشَاهِدُونَ أمثالهم من الصبيان معهم آبائهم، ذاهبين وزاجعين، وهم ليس معهم أب، فتكسر قلوبهم، فأوصى الربُّ الرَّحِيمُ الذي هو أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ من الوالدة بولدها، أوصى بهم خيرًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ جَمْعُ مَسْكِينٍ، وَهُوَ الْفَقِيرُ، وَسُمِّيَ الْفَقِيرُ: مَسْكِينًا؛ لِأَنَّهُ أَسْكَنَهُ الْفَقْرُ وَأَذَلَّهُ، وَلِهَذَا تَجِدُ الْفُقَرَاءَ - فِي الْغَالِبِ - أَذِلَّةً أَمَامَ الْأَغْنِيَاءِ.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ يَعْنِي: الْمُسَافِرَ الَّذِي انْقَطَعَ بِهِ السَّفَرُ، فَالْمُسَافِرُ الَّذِي انْقَطَعَ بِهِ السَّفَرُ غَرِيبٌ، لَا يُعْرَفُ فَيُقَرِّضُ، وَلَا يَعْرِفُ فَيَسْتَقْرِضُ، فَهُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَعْطِفُ عَلَيْهِ، وَيُخَنُّو عَلَيْهِ، وَلِهَذَا أَوْصَى بِهِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَيْرًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ لَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ»، بَلْ قَالَ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ عَامًّا لِلْإِنْفَاقِ وَغَيْرِ الْإِنْفَاقِ، فَأَيُّ خَيْرٍ يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِهِ عَلِيمٌ، لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فَلَنْ يَفُوتَ اللَّهَ تَعَالَى شَيْءٌ، بَلْ هُوَ بِهِ عَلِيمٌ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ بِهِ عَلِيمًا فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُجَازِيَ عِبَادَهُ عَلَى حَسَبِ مَا وَعَدَهُمْ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِئَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَفَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى وَاسِعٌ.

نَسَأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١ - حِرْصُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُهُمْ مَبْنِيَّةً عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - عَنْ كُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾.

٢- الكَفُّ عن التَّنَطُّعِ في السُّؤَالِ عَمَّا لم يَرِدِ السُّؤَالُ عنه، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وذلك لِأَنَّ مَعْرِفَةَ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ هِيَ أَفْضَلُ أَنْوَاعِ الْمَعَارِفِ، وَأَشَدُّهَا ضَرُورَةً، فَإِذَا لم نَعْلَمْ أَنَّ الصَّحَابَةَ سَأَلُوا عَنْهَا -وَهُمْ يَسْأَلُونَ عَمَّا هُوَ دُونَهَا بِكَثِيرٍ- عَلِمْنَا أَنَّ السُّؤَالَ عَنْهَا بِدْعَةٌ.

ولهذا لَمَّا قَالَ رَجُلٌ لِلْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ -إِمَامِ الْمَدِينَةِ، وَأَحَدِ الْأَثَمَةِ الْأَرْبَعَةِ- لَمَّا سَأَلَهُ، قَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كَيْفَ اسْتَوَى؟ يَسْأَلُ عَنْ كَيْفِيَّةِ اسْتِوَاءِهِ، فَلِعُظْمِ السُّؤَالِ، وَنَكَارَتِهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، أَطْرَقَ مَالِكُ -رَحِمَهُ اللَّهُ، وَغَفَرَ لَهُ- بِرَأْسِهِ، وَجَعَلَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا؛ مِنْ شِدَّةِ وَقَعِ هَذَا السُّؤَالِ عَلَى قَلْبِهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ قَوْلَتَهُ الشَّهِيرَةَ الَّتِي جَعَلَهَا الْعُلَمَاءُ مِزَانًا لْجَمِيعِ الصِّفَاتِ، قَالَ لَهُ: يَا هَذَا! الْاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيْيَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أُرَاكَ -أَي: مَا أَظْنُكَ- إِلَّا مُبْتَدِعًا. ثُمَّ أَمَرَ، فَأُخْرِجَ مِنَ الْمَسْجِدِ^(١).

فَقَوْلُهُ: «الْاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ» لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فذ: «اسْتَوَى عَلَى كَذَا» عَلَا عَلَيْهِ عُلُوءًا خَاصًّا.

وقَوْلُهُ: «الْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» أَي: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْرَكَ بِالْعَقْلِ؛ لِأَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَا تُحِيطُ بِهَا إِطْلَاقًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ

(١) أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ (ص: ٥٦)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ (٦/ ٣٢٥)، وَالصَّابُونِيُّ فِي عَقِيدَةِ السَّلَفِ (ص: ١٨٠)، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ (٢/ ٣٠٥)، وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي التَّمْهِيدِ (٧/ ١٥١)، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّالِكَاثِيُّ فِي شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ (٢/ ٤٤١) بِرَقْمِ (٦٦٤).

بِهِ عِلْمًا ﴿[طه: ١١٠]، وإذا كان غيرَ مَعْقُولٍ ولا مَنقُولٍ أَيْضًا فَإِنَّ الْوَاجِبَ الْكَفُّ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَقْلِيَّةٌ، وَلَا دَلَالَةٌ نَقْلِيَّةٌ. إِذَنْ، يَجِبُ السُّكُوتُ.

وَقَوْلُهُ: «الْإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ» يَعْنِي: أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَاجِبٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ، يَتْلُوهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْذُ نَزَلَتْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، لَا يَشْكُونَ فِي مَعْنَاهَا، وَلَا يَرْتَابُونَ فِيهِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَزَلَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ كَلَامٍ فَهُوَ عَلَى الْمَذْلُولِ اللَّغْوِيِّ، مَا لَمْ يُوجَدْ صَارْفٌ شَرْعِيٌّ يَضُرُّهُ عَنْ مَذْلُولِهِ اللَّغْوِيِّ، فَالْإِيْمَانُ بِاسْتِواءِ اللَّهِ عَلَى عَرْشِهِ وَاجِبٌ.

لَكِنْ قَالَ: «وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»، وَهَذَا هُوَ الشَّأْنُ، وَهُوَ الَّذِي نُرِيدُ أَنْ نُؤَكِّدَ عَلَيْهِ، السُّؤَالُ عَنْ كَيْفِيَّةِ اسْتِواءِ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ بِدْعَةٌ؛ لَوْجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَا سَأَلُوا عَنْهُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَعَ أَنَّهُمْ إِذَا وَجَّهُوا السُّؤَالَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فَقَدْ وَجَّهُوهُ إِلَى مَنْ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُ، لَوْ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ يُوجَّهُ مِثْلُ هَذَا السُّؤَالِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَ النَّبِيِّ ﷺ بِآلَافِ الْمَرَّاتِ فِي الْعِلْمِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ؟!

إِذَنْ، فَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ -الَّذِينَ هُمْ أَحْرَصُ مِنَّا، بَلْ هُمْ أَحْرَصُ الْأُمَّةِ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ- لَمْ يَسْأَلُوا عَنْهُ مَنْ هُوَ أَقْدَرُ مِنَّا عَلَى الْإِجَابَةِ عَنْهُ، فَكَانَ السُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةً.

وَجْهٌ آخَرُ فِي قَوْلِهِ: «السُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»: أَنَّ السُّؤَالَ عَنْهُ مِنْ دَيْدِنِ أَهْلِ الْبِدْعِ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْبِدْعِ هُمُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ عَنْ كَيْفِيَّةِ صِفَاتِ اللَّهِ؛ لِإِحْرَاجِ الْمُتَّبِعِينَ لَهَا،

ولكنهم سبّوؤن بالفِسلِ والحَيِّية؛ لأنَّ المُثْبِتِينَ لها لم يَتَعَدَّوا حُدُودَ اللَّهِ بِالْتَّحْرِيفِ والتَّغْيِيرِ، بل أثبتوها على ما جاءت في كتاب الله، على مُرادِ الله ورَسُولِهِ.

إِذْنًا، نقول: كُلُّ ما لم يَسْأَلْ عنه الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيما يَتَعَلَّقُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، فَالسُّؤَالُ عنه بِدْعَةٌ.

ولهذا تَجِدُهُمْ يَسْأَلُونَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ أَشْيَاءَ فِي الصِّفَاتِ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى فَهْمِهَا وَالْعِلْمِ بِهَا، فَسُئِلَ ﷺ: كَيْفَ نَرَى رَبَّنَا فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَنَحْنُ جَمْعٌ كَثِيرٌ، وَهُوَ وَاحِدٌ؟ فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ لَذَلِكَ مَثَلًا بِالْقَمَرِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَرَى الْقَمَرَ؟»^(١) يَعْنِي: وَهُوَ فِي مَكَانِهِ، وَالْقَمَرُ آيَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، يَرَاهُ النَّاسُ كُلُّ فِي مَكَانِهِ، فَالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ فِي إِمْكَانِ رُؤْيِيهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ جَمِيعِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَهُوَ وَاحِدٌ، وَهُمْ جَمِيعٌ.

٣- أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَسْأَلُونَ عَنِ الشَّيْءِ؛ لِيَعْمَلُوا بِهِ؛ حَتَّى يَكُونَ عَمَلُهُمْ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَعَلَى بُرْهَانٍ.

ولكن هل النَّاسُ الْيَوْمَ فِي سُؤَالِهِمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْمَلُوا بِمَا أُجِيبُوا بِهِ؟ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ يَسْأَلُ؛ لِيَضْرِبَ أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَيَنْظُرُ مَا عِنْدَ هَذَا الْعَالِمِ، وَمَا عِنْدَ هَذَا الْعَالِمِ، وَمَا عِنْدَ هَذَا الْعَالِمِ.

وهذا وَإِنْ كَانَ -وَالْحَمْدُ لِلَّهِ- قَلِيلًا بِالنِّسْبَةِ لِعَامَّةِ النَّاسِ، لَكِنْ يُوجَدُ مَنْ تَجِدُهُ يَقِفُ عِنْدَ عَتَبَةِ بَابِ كُلِّ عَالِمٍ؛ لِيَنْظُرَ مَا عِنْدَهُ فَقَطْ، لَا لِيَعْمَلَ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ، وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في الرؤية، رقم (٤٧٣١)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٠)، وأحمد (١١/٤) من حديث أبي رزين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولذلك نَنْصَحُ إِخْوَانَنَا إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ، أَنْ يَخْتَارُوا مَنْ يَرَوْنَهُ أَقْرَبَ إِلَى الصَّوَابِ فِي عِلْمِهِ، وَأَمَانَتِهِ، فَيَسْأَلُوهُ، ثُمَّ يَقْتَصِرُوا عَلَى مَا قَالَ، وَلَا يَسْأَلُوا أَحَدًا غَيْرَهُ.

لكن لو فُرِضَ أَنَّهُمْ سَمِعُوا -بعد أن سألوا هذا العالم، وأفتاهم بما عنده، وهم مُقْتَنِعُونَ بِهِ- لو سَمِعُوا فيما بعدُ عالمًا آخَرَ، يَفَرُّزُ بِالْأَدِلَّةِ خِلَافَ مَا أَفْتَوْا بِهِ، فحينئذٍ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الرَّجُوعُ إِلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ.

لكن لا مَانِعَ مِنْ أَنْ يُنَاقِشُوا الْعَالِمَ الثَّانِي، الَّذِي خَالَفَ الْأَوَّلَ بِالْأَدِلَّةِ، فيَقُولُوا: قَالَ لَنَا بَعْضُ النَّاسِ -ولا يَقُولُوا: قَالَ فُلَانٌ- إِنَّ الْحُكْمَ كَذَا وَكَذَا، فَمَا الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِ؟ فَالْعَالِمُ بِالْأَدِلَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يُجِيبَ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ قَالَ: اعْرِضُوا مَا قُلْتُ بِالْأَدِلَّةِ عَلَى الَّذِي أَفْتَاكُمْ أَوَّلًا، وَاَنْظُرُوا مَاذَا يَكُونُ جَوَابُهُ.

وَالْإِنْسَانُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْتَاطَ لِدِينِهِ احتياطًا تامًّا؛ لِأَنَّ الْاِحْتِيَاظَ لِلدِّينِ أَشَدُّ مِنَ الْاِحْتِيَاظِ لِلدُّنْيَا، أَرَأَيْتَ الْإِنْسَانَ يُرِيدُ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى بَلَدٍ، أَلَيْسَ يَسْأَلُ عَنْ طَرِيقِهِ مِنْ أَيْنَ يَكُونُ؟ وَعَنْ طَرِيقِهِ هَلْ هُوَ آمِنٌ؟ وَعَنْ طَرِيقِهِ هَلْ هُوَ سَهْلٌ؟ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ، فَطَرِيقُ الْآخِرَةِ -وهو شَرَائِعُ اللَّهِ- يَجِبُ أَنْ يُحْتَاطَ لَهَا أَكْثَرَ مِمَّا يُحْتَاطُ لَطَرِيقِ الدُّنْيَا.

٤ - فضيلةُ الْإِنْفَاقِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْفَاقَ الَّذِي يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ خَيْرٌ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجَزْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُهُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ»^(١)،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيثار، باب ما جاء أن الأعمال بالنية، رقم (٥٦)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٨).

فَأَيُّ نَفَقَةٍ تُنْفِقُهَا تَبْتَغِي بِهَا وَجَهَ اللَّهِ تُؤْجَرُ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا يَكُونُ وَاجِبًا عَلَيْكَ مُعَاوَضَةً
عَنْ مَنْفَعَةٍ، كَالَّذِي تَجْعَلُهُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ، إِذَا ابْتَغَيْتَ بِهِ وَجَهَ اللَّهِ أُجِرْتَ عَلَيْهِ.

ولهذا أنصح إخواني بأن يكون على بالهم نيَّةُ ابْتِغَاءِ وَجْهِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عِنْدَ الْإِنْفَاقِ،
حَتَّى مَا تَأْتِي بِهِ مِنَ الْخُبْزِ لِأَهْلِكَ؛ لِيُفْطِرُوا بِهِ، أَوْ مَا تَأْتِي بِهِ مِنَ اللَّحْمِ؛ لِيَجْعَلُوهُ فِي
الْغَدَاءِ، أَوْ فِي الْعِشَاءِ، إِذَا ابْتَغَيْتَ بِهِ وَجَهَ اللَّهِ أُثِبْتَ عَلَيْهِ.

وما أكثر ما يضيع علينا في هذا الباب، وما أكثر ما تأتي بالنفقة إلى أهلينا لمجرد
التَّمَتُّعِ بها فقط، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوقِظَ الْقُلُوبَ لِمَا فِيهِ الْخَيْرُ.

٥- أَنَّ الْإِنْفَاقَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ يَأْتِي فِي الذُّرْوَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ
فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾، عَلَى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ يَفْهَمُونَ أَنَّ الْإِنْفَاقَ عَلَى غَيْرِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
أَفْضَلُ، وَهَذَا غَلَطٌ؛ فَإِنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْقَرِيبِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ، فَهِيَ أَفْضَلُ.

وَلَمَّا حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّدَقَةِ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَامْرَأَتِهِ
زَيْنَبَ: أَنَا وَوَلَدُكَ أَوْلَى مَنْ أَنْفَقْتَ عَلَيْهِ، وَأَحَقُّ مَنْ أَنْفَقْتَ عَلَيْهِ. فَأَشْكَلُ عَلَيْهَا الْأَمْرَ:
كَيْفَ تُنْفِقُ عَلَى زَوْجِهَا وَوَلَدِهَا، فَيَكُونُونَ أَحَقَّ النَّاسِ؟ فَذَهَبَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ
تَسْتَفْتِيهِ فِيهَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ ﷺ: «صَدَقَ عَبْدُ اللَّهِ، هُوَ وَوَلَدُهُ أَحَقُّ
مَنْ أَنْفَقْتَ عَلَيْهِ»^(١)، وَهُوَ زَوْجُهَا وَوَلَدُهَا.

٦- أَنَّهُ يَنْبَغِي مُرَاعَاةُ الْأَحَقِّ فَالْأَحَقُّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم (١٤٦٢) من حديث أبي سعيد
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- بيان رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي أَنَّهُ رَحِمَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الرَّحْمَةَ مِنَ الْيَتَامَى
وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ.

٨- بِلَاغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ حَيْثُ يَأْتِي الْجَوَابُ أَكْثَرَ مِنَ السُّؤَالِ عَلَى وَجْهِ مُخْتَصَرٍ
وَاضِحٍ بَيِّنٍ؛ لَأَنَّهُمْ سَأَلُوا: مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ فَأُجِيبُوا بِمَا يُنْفِقُونَ، وَمَنْ يُنْفِقُونَ عَلَيْهِ.

٩- الْحَثُّ عَلَى فِعْلِ الْحَيْرِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ
عَلِيمٌ﴾.

١٠- أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مَنْ خَيْرٌ
نَكِرَةً فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ، فَتَعْمُّ الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ بِهِ عَلِيمٌ، وَإِذَا
كَانَ اللَّهُ بِهِ عَلِيمًا فَلَنْ يُضَيِّعَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

نَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُعِينَنَا جَمِيعًا عَلَى ذِكْرِهِ، وَشُكْرِهِ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ؛ إِنَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١١٦)

قَوْلُهُ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أَي: فُرِضَ، وَالْمَرَادُ بِالْقِتَالِ هُنَا: قِتَالُ الْأَعْدَاءِ
﴿وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ﴾ أَي: مَكْرُوهٌ عِنْدَكُمْ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ، وَالتَّعَرُّضِ لِلْهَلَاكِ، وَغَيْرِ
ذَلِكَ مِمَّا تَكْرَهُهُ النُّفُوسُ.

لَكِنْ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وهذه للتوقع، يعني: رَبِّمَا تَكْرَهُونَ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ؛ لَأَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ النَّتِيجَةَ وَالْعَاقِبَةَ وَالْمُسْتَقْبَلَ ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ أَحَبَّ شَيْئًا، وَاسْتَعْجَلَهُ، وَلَكِنْ صَارَتِ الْعَاقِبَةُ وَخِيَمَةً!

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فَكَلُوا الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَارْضُوا بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ، وَقُومُوا بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- فَرَضِيَّةُ الْقِتَالِ؛ لِأَنَّ ﴿كُتِبَ﴾ بِمَعْنَى: فُرِضَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] أَيْ: فُرِضَ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] أَيْ: فَرَضًا ذَا وَقْتٍ. وَالْقِتَالُ - أَيْ: قِتَالُ الْأَعْدَاءِ - فَرَضُ كِفَايَةِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْقُطَ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ سُقُوطًا نِهَائِيًّا، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَسْقُطُ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْهُ إِلَى حِينَ الْقُدْرَةِ.

وَيَتَعَيَّنُ الْقِتَالُ - أَيْ: يَكُونُ فَرَضٌ عَيْنٍ - فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ:

الْمَوْضِعُ الْأَوَّلُ: إِذَا اسْتَنْفَرَهُ الْإِمَامُ، يَعْنِي: إِذَا اسْتَنْفَرَ الْإِمَامُ أَهْلَ الْقِتَالِ وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْإِجَابَةُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨) إِلَّا نَفَرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

المَوْضِعُ الثَّانِي: إِذَا حَضَرَ الصَّفَّ، وَالتَّقَى الْجُمُعَانِ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ الثَّبَاتُ وَالْقِتَالُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ أَلَدَبَارَ ۝١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَنَسَ الْمَصِيرُ ﴿[الأَنْفَال: ١٥-١٦]، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ التَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ مِنَ الْمَوْبِقَاتِ، أَي: الْمُهْلِكَاتِ ^(١).

المَوْضِعُ الثَّالِثُ: إِذَا حَصَرَهُ الْعَدُوُّ -أَي: أَحَاطَ بِهِ- وَجَبَ عَلَيْهِ الْقِتَالُ؛ دِفَاعًا عَنِ النَّفْسِ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُدَافِعَ الْكُفَّارَ عَنْ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ الْكُفَّارَ لَوْ قَتَلُوهُ فَقَدْ هَدَمُوا جَانِبًا مِنَ الْإِسْلَامِ بِقَتْلِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

المَوْضِعُ الرَّابِعُ: إِذَا احْتَجَّ إِلَيْهِ، بِأَنْ كَانَ عَالِيًا بَفَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْحَرْبِ لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ، فَحِينَئِذٍ يَتَعَيَّنُّ عَلَيْهِ هُوَ أَنْ يَقُومَ بِهَذَا الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ؛ لِأَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَا يَقُومُ غَيْرُهُ مَقَامَهُ، مِثْلُ: أَنْ يَكُونَ عَالِيًا بِتَشْغِيلِ بَعْضِ الْمُعَدَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَلَا يَعْرِفُهَا غَيْرُهُ، فَحِينَئِذٍ يَتَعَيَّنُّ عَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ بِهَذَا الْعَمَلِ.

هَذِهِ أَرْبَعَةُ مَوَاضِعَ، يَكُونُ الْجِهَادُ فِيهَا فَرَضَ عَيْنٍ.

٢- أَنَّ الْوَاقِعَ لَا يُغَيِّرُ الشَّرْعَ، فَكَرَاهَةُ الْإِنْسَانِ لِلْقِتَالِ لَا تُغَيِّرُ فَرَضِيَّةَ الْقِتَالِ، وَإِنْ كَانَ يَكْرَهُهُ.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّهُ يَتَعَيَّنُّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَقُومَ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَرِهَتْهُ نَفْسُهُ، فَلْيَحْمِلْهَا عَلَى الْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ، وَلْيَصْبِرْ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْوَصَايَا، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِنِمْ ظُلْمًا﴾، رَقْم (٢٧٦٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْكِبَائِرِ، رَقْم (٨٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائل: أيهما أفضل: أن يأتي الإنسان العِبادَةَ وهو راضٍ بها، مُطمئنٌ إليها، مُنشرحٍ بها صدره، أو أن يأتي بالعِبادَةِ مُتكرِّهاً لها، وهي شاقَّةٌ عليه؟ قلنا: الأوَّلُ أَفْضَلُ بكثيرٍ، وأعلى منزلةً، وأسدُّ حالاً، والثاني له أجران، لكنهما دون أجر الأوَّل:

الأجر الأوَّل: أجر العِبادَةِ.

والأجر الثاني: أجر المُعاناة عليها، ومَشَقَّةِ فِعْلِها عليه.

ودليل ذلك: قولُ النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»^(١)، لكنهما أجرانِ دون أجر الأوَّل؛ لأنَّ الأوَّلَ أَكْمَلُ حالاً وأسدُّ من الثاني.

٣- أن الإنسان قد يكره الشيء، وهو خيرٌ له، وهذا أمرٌ مُشاهدٌ، فأحياناً تَكْرَهُ عَمَلًا عَمَلَتَهُ، أو تَكْرَهُ أَمْرًا وَقَعَ عَلَيْكَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، أو تَكْرَهُ أَمْرًا وَقَعَ عَلَيْكَ مِنْ عِنْدِ النَّاسِ، كَأَن آذَوْكَ مَثَلًا، وإذا بَنَتِجَةَ هَذَا الْأَمْرِ خَيْرٌ عَظِيمٌ فِي مُسْتَقْبَلِكَ وَحَالِكَ. أقول: هذا شيءٌ مُشاهدٌ مُجَرَّبٌ، وَوَضِيفَةُ الْإِنْسَانِ فِي مِثْلِ هَذَا: الصَّبْرُ، وَالإِنْتِظَارُ، وَسَوْفَ يَجِدُ أَنَّ الْحَيَرَ كُلَّهُ فِيما اخْتَارَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

٤- أن الإنسان قد يُحِبُّ الشيءَ، وهو شرٌّ له، قد يُحِبُّ أَنْ يَتَبَطَّ عَنْ الْقِتَالِ، وَيَتَأَخَّرَ، فَيُؤَخِّرْ نَفْسَهُ، وَيَكُونَ ذَلِكَ شَرًّا لَهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب سورة عبس، رقم (٤٩٣٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن، (٧٩٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وكذلك في أمور الدنيا، قد يُحِبُّ الإنسانُ كثرةَ المالِ، وكثرةَ العيالِ، وكثرةَ الأهلِ (الأزواجِ)، وإذا بهذه الكثرة تكونُ شرًّا عليه.

ولهذا يجبُ على الإنسانِ سُلوُكُ الشريعةِ، والصَّبْرُ على ما يحصلُ، وفي هذا يقولُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ -يعني: في إيمانه وعَمَلِهِ- أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، اخْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا. فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١).

٥- أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَلْيَرْتَقِبِ الْخَيْرَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

٦- إِبْتِاثُ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، والمرادُ: لَا تَعْلَمُونَ الْعَاقِبَةَ، وَإِلَّا فَلَدَيْنَا عِلْمٌ بِالشَّيْءِ الْحَاضِرِ، وَالشَّيْءِ الْمَاضِي الَّذِي لَمْ نَنْسَهُ، وَأَمَّا الْمُسْتَقْبَلُ فَلَا عِلْمَ لَنَا بِهِ إِلَّا مَا عَلَّمَنَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فعلى الإنسانِ أَنْ يَكِلَ عِلْمَ الْمَغْيِبَاتِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَنْ يَقُومَ فِي حَاضِرِهِ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة، رقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَتِّلُونَكَ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أَي: الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ ﷺ ﴿عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾، و﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ ﴿الشَّهْرِ﴾، والمراد بالشَّهْرِ الْحَرَامِ الْجِنْسُ، أَي: الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ (أَل) لِلْعَهْدِ الذَّهْنِيِّ، وَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ شَهْرًا مُعَيَّنًا، وَهُوَ الَّذِي حَصَلَتْ فِيهِ الْقَضِيَّةُ.

وذلك أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَرْسَلَ سَرِيَّةً فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْهِجْرَةِ، فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَعْطَاهُ كِتَابًا، وَقَالَ لَهُ: «لَا تَفْتَحِ الْكِتَابَ إِلَّا بَعْدَ مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ»، فَذَهَبَ بِسَرِيَّتِهِ، وَهُمْ نَحْوُ سَبْعَةِ أَشْخَاصٍ، فَلَمَّا مَشَى يَوْمَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ، وَإِذَا فِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَسِيرُوا إِلَى نَخْلَةٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَأَنْ يَتَرَقَّبُوا أَخْبَارَ قُرَيْشٍ، فَصَادَفُوا عَيْرًا لِقُرَيْشٍ نَازِلَةً مِنَ الطَّائِفِ إِلَى مَكَّةَ، فَحَصَلَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ رَجُلًا، وَأَسْرُوا رَجُلَيْنِ، وَفَرَ الرَّابِعُ.

وكان قَتْلُهُمْ لِهَذَا الرَّجُلِ فِي الْأَوَّلِ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ فِي آخِرِ جُمَادَى الْآخِرَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ شَهْرَ رَجَبٍ شَهْرٌ مُحَرَّمٌ، فَاسْتَغْلَّ الْمُشْرِكُونَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ، وَقَالُوا: هَذَا مُحَمَّدٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُطِيعُ اللَّهَ، وَأَنَّهُ يُعْظَمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ، وَأَصْحَابُهُ قَتَلُوا الرَّجُلَ

في الأشهر الحُرِّم! فضاحتُ صُدُورُ أصحابِ السَّرِيَّةِ، وسألوا رسولَ اللهِ ﷺ عن الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيه، فأنزلَ اللهُ: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾^(١) يعني: من كبائرِ الذُّنُوبِ، وعَظائمِ الأُمُورِ؛ لأنَّه انتِهاكُ حُرْمَتِهَا.

ولكنَّ اللهُ سَلَّى الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ- وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ- مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾ يعني: لو وَقَعَتْ مِنْكُمْ هذه الكَبِيرَةُ فقد وَقَعَ مِنَ الَّذِينَ يُعَيِّرُونَكُمْ ما هو أَعْظَمُ جُرْماً، وهو ما ذَكَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ وهو الطَّرِيقُ الْمُوَصِّلُ إِلَى شَرْعِهِ. ﴿وَكُفْرٌ بِهِ-﴾ أي: بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وهو أَعْظَمُ ذَنْبٍ يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فِي إِغْرَابِهَا قَوْلَانِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهَا مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾، أي: وَصَدُّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهَا مَعْطُوفَةٌ عَلَى الضَّمِيرِ فِي ﴿بِهِ-﴾، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: كُفْرٌ بِهِ وَبِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. وَذَلِكَ ظَاهِرٌ مِنْ جَعْلِ الْأَصْنَامِ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ- مِنْهُ﴾ أي: إِخْرَاجُ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾ أي: أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: الشَّرْكُ أَعْظَمُ مِنَ الْقَتْلِ.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ أي: أَنَّ الْكُفْرَ حَرِيصُونَ عَلَى أَنْ يُخْرِجُونَا مِنْ دِينِنَا، وَجُمْلَةٌ ﴿إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ تُفِيدُ أَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا.

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٣/ ٦٥٠).

وهذا الحكمُ يَشمَلُ اليهودَ، والنَّصارى، والمُنافقين، فهو عامٌّ لأصنافِ الكُفَّارِ.
 وقولُه: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ اشترَطَ لحُبوبِ العَمَلِ المَوْتَ على الكُفْرِ، فلو ارتدَّ عن
 الإسلامِ، ثُمَّ أسْلَمَ بعدَ ذلك، لم يَحْبُطْ عَمَلُهُ السَّابِقُ، فلو أدَّى الحَجَّ قبلَ رَدِّه، ثُمَّ
 ارتدَّ، ثُمَّ عادَ إلى الإسلامِ، فَإِنَّه لَا يَلْزَمُهُ إِعادَةُ الحَجِّ.
 ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: المُلَازِمُونَ لها، الخَالِدُونَ
 فيها.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - حِرْصُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى التَّفَقُّهِ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وذلك بما يُوردونه
 على النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - من الأَسْئَلَةِ.
 ثُمَّ اعْلَمْنَا أَنَّ أَسْئَلَةَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَيْسَتْ كَأَسْئَلَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُعَاصِرِينَ الْيَوْمَ،
 كَثِيرٌ مِنَ الْمُعَاصِرِينَ الْيَوْمَ يَسْأَلُونَ عَنِ الْحُكْمِ؛ لِيَعْلَمُوا الْحُكْمَ فَقَطْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطَبِّقُ
 إِذَا كَانَ الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ مُنَاسِبًا لَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُطَبِّقُ، فَيَذْهَبُ إِلَى عَالِمٍ وَآخَرَ،
 لَعَلَّهُ يَجِدُ مِنَ الْفَتْوَى مَا يُنَاسِبُهُ.
 وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا - أَعْنِي: تَتَبُّعَ الرَّحْصِ - أَمْرٌ مُنْكَرٌ، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ قَالُوا:
 إِنَّ مَنْ تَتَبَعَ الرَّحْصَ فَقَدْ فَسَقَ، وَالوَاجِبُ عَلَى الْمَرْءِ: أَنْ يَخْتَارَ لِدِينِهِ مَنْ يَرَى أَنَّهُ أَوْثَقُ
 فِي عِلْمِهِ وَدِينِهِ، فَيَسْأَلَهُ، ثُمَّ لَا يَلْتَفِتْ إِلَى غَيْرِهِ.

٢ - تَهْوِينُ الشَّيْءِ عَلَى الْإِنْسَانِ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَذَلِكَ يَتَبَيَّنُ مِنْ مَعْرِفَةِ سَبَبِ
 نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً تَتَلَقَّى عِيرًا لِقُرَيْشٍ، فَحَصَلَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ

في آخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الثَّانِيَةِ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَذَا مُحَمَّدٌ يَنْتَهِكُ الْحُرْمَاتِ، وَيُقَاتِلُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ! وَجَعَلُوا آخِرَ يَوْمٍ مِنْ جُمَادَى الثَّانِيَةِ هُوَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ؛ تَشْنِيعًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَخَافَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ حَصَلَ مَعَهُمْ اشْتِبَاكٌ مَعَ هَذِهِ الْعِيرِ، خَافُوا أَنْ يَكُونُوا قَاتِلُوا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَسَأَلُوا النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عَنْ ذَلِكَ، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ.

٣- أَنَّ الشَّهْرَ الْحَرَامَ يَحْرُمُ فِيهِ الْقِتَالُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ هُوَ: رَجَبٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ.

٤- أَنَّ الْقِتَالَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾.

٥- أَنَّ مَا ذَكَرَ مِنَ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْكَفْرِ بِاللَّهِ، وَالصَّدِّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ، أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّ الْفِتْنَةَ -وَهِيَ الشَّرْكُ- أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ، فَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا: أَنَّ الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ.

مِثَالُهُ: أَنْ تَرَى شَخْصًا مُتَّجِهًا إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ، فَتَأْتِي، فَتَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَتَقُولُ لَهُ: هَذَا يُلْزِمُكَ بِأَشْيَاءَ، وَهَذَا يَحْبِسُ حُرِّيَّتَكَ. عَلَى مَا تَظُنُّهُ أَنْتَ أَنَّهُ حَبْسٌ لِلْحُرِّيَّةِ، وَإِنْ كَانَ حَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ التَّمَسُّكَ بِالْدِّينِ هُوَ الْحُرِّيَّةُ التَّامَّةُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَحَرَّرُ فِيهِ مِنْ رِقِّ الشَّيْطَانِ وَالْهَوَى، فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: أَنْ تَرَى شَخْصًا مُكِبًّا عَلَى الْعِلْمِ، يُرَاجِعُ، وَيُنَاقِشُ، فَتُشَبِّطُهُ، وَتَقُولُ لَهُ: لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ تُتَعَبَ نَفْسَكَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَالْمِهُمُّ: أَنَّ كُلَّ مَنْ صَدَّ النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وَأَعْظَمُهُ: أَنْ يَصُدَّ الْإِنْسَانُ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِيَتَّخِذَ سَبِيلَ الْكَافِرِينَ.

٦- أَنَّ الْكُفْرَ بِاللَّهِ أَعْظَمُ مِنَ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْكُفْرِ ذَنْبٌ.

٧- أَنَّ الصَّدَّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، كَمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ حِينَ صَدَّتِ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ إِمْتَامِ عُمْرَتِهِ فِي عَامِ الْحُدَيْبِيَّةِ.

٨- أَنَّ إِخْرَاجَ أَهْلِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَخْرَجُوا النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ وَأَصْحَابُهُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَقِيقَةً، أَخْرَجُوهُمْ مِنْ مَكَّةَ، وَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ.

٩- أَنَّ الْفِتْنَةَ -وَهِيَ الشَّرْكُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ- أَشَدُّ مِنَ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ.

١٠- أَنَّ الذُّنُوبَ تَتَفَاوَتْ، مِنْهَا الْكَبِيرُ، وَمِنْهَا الْأَكْبَرُ، وَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ تَتَفَاوَتْ، مِنْهَا الْفَاضِلُ، وَمِنْهَا الْأَفْضَلُ، وَمِنْهَا الْمُسْتَحَبُّ، وَمِنْهَا الْوَاجِبُ.

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ نَقُولُ: إِنَّ الْإِيمَانَ -أَيْضًا- يَتَفَاوَضُ، فَهُوَ فِي بَعْضِ النَّاسِ أَكْمَلُ مِنْ بَعْضٍ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

١١- بَيَانُ عِدَاوَةِ الْكُفَّارِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَتَمُّ لَا يَزَالُونَ يُجَارِبُونَ الْمُسْلِمِينَ، إِمَّا بِالْأَفْكَارِ السَّيِّئَةِ، وَالْعَقَائِدِ الْمُنْحَرِفَةِ، وَإِمَّا بِالسَّلَاحِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾.

١٢- بَيِّنْ حَرْصَ الْكُفَّارِ عَلَى ارْتِدَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ لَأَنَّهُمْ يَبْذُلُونَ رِقَابَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرْتَدَّ الْمُسْلِمُونَ عَنْ دِينِهِمْ، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾.

وَتَأْمَلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾، فَإِنَّهُ يُفِيدُ الاستمرارَ، أَي: أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، يُقَاتِلُونَ الْمُسْلِمِينَ؛ حَتَّى يَرُدُّوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ.

١٣- أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ مَهْمَا بَذَلُوا مِنَ الْحَرْصِ عَلَى ارْتِدَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنِ اسْتَطَعُوا﴾.

وهذه الجملة تعني: أَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمْعَسَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، فَهِيَ تُشَبِّهُ التَّحَدِّيَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَرُدُّوا الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ مَا دَامَ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَأْذَنْ بِهِ.

١٤- أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ يُفِيدُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَلْجَأَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنْ نَعْتَصِمَ بِهِ مِنْ شَرِّ أَوْلَئِكَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَصُدُّوَنَا، وَأَنْ يَرُدُّوَنَا عَنْ دِينِنَا.

١٥- أَنَّ الرَّدَّةَ عَنِ الْإِسْلَامِ تُحِبِّطُ الْعَمَلَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

١٦- أَنَّ الرَّدَّةَ لَا تُبْطِلُ الْعَمَلَ حَتَّى يَمُوتَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾، وَهَذَا الْقَيْدُ يُفِيدُ جَمِيعَ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ بِأَنَّ الرَّدَّةَ تُبْطِلُ الْأَعْمَالَ، فَيُقَالُ: إِنَّهَا لَا تُبْطِلُ الْعَمَلَ إِلَّا إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا.

١٧- قَبُولُ إِسْلَامِ الْمُرتَدِّ مَهْمَا كَانَتْ رِدَّتُهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾، فَإِنَّهَا تُفِيدُ أَنَّ الْمُرتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ إِذَا رَجَعَ إِلَيْهِ قَبْلَ الْمَوْتِ، فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ ذَلِكَ، وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ رِدَّةٍ مَهْمَا عَظُمَتْ.

وَيُذَلُّ لذلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بِدُونِ اسْتِثْنَاءٍ، فَكُلُّ مَنْ تَابَ مِنْ ذَنْبٍ تَوْبَةً نَصُوحًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ مِنْهُ، وَيَرْفَعُ عَنْهُ أَثَرَ الذَّنْبِ وَحُكْمَهُ، حَتَّى لو فُرِضَ أَنَّ الْمُرتَدَّ ارْتَدَّ بِسَبِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، أَوْ سَبِّ رَسُولِهِ ﷺ، أَوْ سَبِّ آيَاتِهِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَحَسُنَتْ حَالُهُ، فَإِنَّ تَوْبَتَهُ مَقْبُولَةٌ.

لَكِنَّ التَّحْقِيقَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ تَابَ، فَإِنَّ تَوْبَتَهُ تُقْبَلُ، وَيَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنْ يَجِبُ قَتْلُهُ؛ حِمَايَةً لِعَرْضِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

وَلَعَلَّ قَائِلًا يَقُولُ: كَيْفَ تَقُولُونَ: إِنَّهُ إِذَا تَابَ مَنْ سَبَّ اللَّهَ فَإِنَّهُ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ إِذَا حَسُنَتْ حَالُهُ، وَلَا يُقْتَلُ، وَتَقُولُونَ: إِنَّ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ تَابَ، وَحَسُنَتْ حَالُهُ، فَإِنَّ تَوْبَتَهُ مَقْبُولَةٌ، لَكِنْ يَجِبُ قَتْلُهُ، فَهَلْ سَبَّ الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَعْظَمُ مِنْ سَبِّ اللَّهِ؟

جَوَابُنَا عَنْ هَذَا: أَنَّ سَبَّ اللَّهِ أَعْظَمُ بِلَا شَكٍّ، لَكِنْ سَبُّ النَّبِيِّ ﷺ حَقٌّ لَادِمِيٍّ، لَا نَعْلَمُ أَنَّهُ تَجَاوَزَ عَنْهُ وَعَفَا عَنْهُ، أَمَّا سَبُّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَهُوَ حَقٌّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِذَا كَانَ حَقًّا لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَّ أَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

١٨- أَنَّ الْكَافِرَ - سواء كان مُرْتَدًّا، أَمْ كَافِرًا أَصْلِيًّا - جَمِيعُ أَعْمَالِهِ حَاطِبَةٌ، ليس له منها فائدة إطلاقًا، حَتَّى لو عَمِلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُهُ، فلو أَنَّ كَافِرًا مِنَ الْكُفَّارِ أو طَائِفَةً مِنَ الْكُفَّارِ أَصْلَحُوا طُرُقَ الْمُسْلِمِينَ - مثلاً - أو أزالوا الْمَشَقَّاتِ، أو نَفَعُوا الْمُسْلِمِينَ بِطَبِّ أو غَيْرِهِ - وإن كانوا يُرِيدُونَ الْإِحْسَانَ في هذا - فَإِنَّهُمْ لَا يَثَابُونَ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ولِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أي: عن الْكُفْرِ ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، فَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهم لو بَقُوا على مَا هُمْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا تُغْفَرُ لَهُمْ ذُنُوبُهُمْ، وهو كذلك.

١٩- إِبْتِاثُ الْآخِرَةِ، أَمَّا الدُّنْيَا فَلَا حَاجَةَ أَنْ نَقُولَ: فِيهَا إِثْبَاتُ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ، لَكِنَّ الْآخِرَةَ - الَّتِي يُنْكِرُهَا مَنْ يُنْكِرُهَا مِنْ بَنِي آدَمَ - قَدْ ثَبَتَتْ.

وَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَّةِ، الَّتِي بَيَّنَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ سَأَلَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ ﷺ: «الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

وَالْإِيمَانُ بِالْآخِرَةِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِوُقُوعِهَا، وَأَنَّهَا آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَيَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ مِمَّا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

٢٠- أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ كَانَ مُحْلَدًا فِي النَّارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، و﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ لَا تُطْلَقُ إِلَّا عَلَى مَنْ لَا زَمَّهَا، وَبَقِيَ فِيهَا أَبَدًا، فَهَؤُلَاءِ - أَعْنِي: أَهْلُ النَّارِ - مُحْلَدُونَ فِيهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا،

وهي باقيةٌ أبدَ الأبدِينَ، كما هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢١٨)

كَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَتِمَّةٌ لِمَا قَبْلَهَا؛ حَيْثُ تَشْمَلُ أُولَٰئِكَ الْقَوْمَ الَّذِينَ حَصَلَ مِنْهُمْ قِتَالُ الْكُفَّارِ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ، فَخَافُوا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ رَجَبٍ، وَخَافُوا أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُهُمْ، وَأَنْ يَكُونُوا أَتَوْا كَبِيرَةً مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يَعْنِي: آمَنُوا بِاللَّهِ، وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ، وَآمَنُوا بِكُلِّ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أَي: تَرَكُوا بِلَادَهُمْ مُهَاجِرِينَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَارْتَبَعَ بِدِينِهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: قَاتَلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَلَعَلَّ قَوْلَهُ: ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَشْمَلُ مَا هُوَ أَعْمُ مِنَ الْقِتَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ أَي: يَرْجُونَ أَنْ يَرْحَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِإِيمَانِهِمْ، وَهِجْرَتِهِمْ، وَجِهَادِهِمْ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَي: ذُو مَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١ - فَضِيلَةُ الْإِيمَانِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ هَذَا الْأَجْرِ الْعَظِيمِ.

٢ - الْإِشَارَةُ إِلَى الْإِخْلَاصِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ لِأَنَّ الْإِخْلَاصَ رُكْنٌ أَسَاسِيٌّ، وَشَرْطٌ لِقَبُولِ الْعِبَادَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿[الكهف: ١١٠]﴾، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ»^(١).

فإذا قال قائل: ما ميزان الجهاد في سبيل الله؟

قلنا: ميزانه ما أجاب به النبي ﷺ حين سُئِلَ عن الرَّجُلِ يُقَاتِلُ حِمَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ لِرَى مَكَانِهِ، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

٣- طَرَدُ الإِعْجَابِ بِالنَّفْسِ، أَي: أَنَّكَ إِذَا عَمِلْتَ عَمَلًا فَلَا تُعْجَبُ بِهِ، وتقول: الْآنَ نَجَوْتُ مِنَ النَّارِ، وَاسْتَحَقَقْتُ الْجَنَّةَ. لِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَيْكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ؟﴾، فَهُمْ يَعْمَلُونَ هَذِهِ الْأَعْمَالَ الْجَلِيلَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقُلُوبُهُمْ مَمْلُوءَةٌ بِالرَّجَاءِ، أَي: أَنَّهُمْ يَتَعَمَدُونَ عَلَى قُوَّةِ رَجَائِهِمْ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أَي: خَائِفَةٌ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، قالوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»^(٣).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب تحريم الرياء، رقم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (٢٨١٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمنى المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، وفي كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٧)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم (٢٨١٦) (٢٨١٨) من حديث أبي هريرة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٤- إثبات الرحمة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: يَرْجُونَ أَنْ يَرْحَمَهُمُ اللَّهُ.

٥- إثبات هذين الاسمين الكريمين - وهما: (الغفور) و(الرحيم) - لله عزَّ وجلَّ، وإثبات ما تضمنناه من صفة، وهي المغفرة في: ﴿عَفُورٌ﴾، والرحمة في: ﴿رَحِيمٌ﴾. والمغفرة تتعلق بالذنوب، يَغْفِرُهَا اللَّهُ عزَّ وجلَّ، والرحمة تتعلق بالطاعات، يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَيُوفِّقُهُ لِلطَّاعَاتِ، وَيُوفِّقُهُ لِقَبُولِهَا.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣١٩﴾﴾

قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ السَّائِلُ هُمُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ ﴿عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾، وَالْخَمْرُ: كُلُّ مُسْكِرٍ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ»^(١).

وَالْإِسْكَارُ هُوَ: تَغْطِيَةُ الْعَقْلِ عَلَى وَجْهِ اللَّذَّةِ وَالطَّرَبِ. وَإِنَّمَا قُلْنَا: «عَلَى وَجْهِ اللَّذَّةِ وَالطَّرَبِ» لِأَنَّ تَغْطِيَةَ الْعَقْلِ قَدْ تَكُونُ عَلَى وَجْهِ اللَّذَّةِ وَالطَّرَبِ، وَقَدْ تَكُونُ إِغْمَاءً، وَقَدْ تَكُونُ عَنْ بَنْجٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَالْإِسْكَارُ هُوَ أَنْ يَتَغَطَّى الْعَقْلُ عَلَى وَجْهِ اللَّذَّةِ وَالطَّرَبِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، رقم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولهذا تجِدُ السَّكَرَانَ - والعياذُ بالله - نَشْوَان، يَرى نَفْسَهُ أَنَّهُ مَلِكٌ عَظِيمٌ، وَأَنَّهُ
بِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ؛ كما قال الشَّاعِرُ:
وَنَشْرَبُهَا فَتَرْتُكُنَا مُلُوكًا^(١)

وَلَمَّا شَرِبَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - عُمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - الْحَمْرَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ،
وَمَرَّ بِهِ نَاضِحَانِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، غَتَّتَهُ الْجَارِيَةُ بِمَا يَقْضِي أَنْ يَقُومَ إِلَى
هَذَيْنِ النَّاضِحَيْنِ، فَقَامَ إِلَيْهِمَا، وَبَقَرَ بَطُونَهُمَا، فَذَهَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى
النَّبِيِّ ﷺ، فَشَكَا إِلَيْهِ الْحَالَ، فَاتَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - إِلَى حَمْزَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ قَدْ ثَمِلَ، وَلَمْ يَضْحُ بَعْدُ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ لَهُ حَمْزَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ أَنْتُمْ
إِلَّا عَبِيدُ أَبِي؟ فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ رَجَعَ^(٢).

الشَّاهِدُ: قَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ أَنْتُمْ إِلَّا عَبِيدُ أَبِي؟! فَإِنَّهُ يَشْعُرُ فِي تِلْكَ الْحَالِ أَنَّهُ
عَظِيمٌ، وَأَنَّهُ مَلِكٌ، وَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُكَلِّمَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.
فَالْحَمْرُ - إِذَنْ - كُلُّ مَا أُسْكِرَ، وَمَعْنَى (أُسْكِرَ) أَي: غَطَّى الْعَقْلَ عَلَى وَجْهِ اللَّذَّةِ
وَالطَّرَبِ.

أَمَّا الْمَيْسِرُ فَهُوَ كُلُّ مُعَامَلَةٍ فِيهَا مُغَامَرَةٌ وَمُقَامَرَةٌ، وَسُمِّيَتْ: مَيْسِرًا؛ لِتَيْسُرِ
الْحُصُولِ فِيهَا عَلَى الرِّبْحِ، وَلِهَذَا تَجِدُ الْمُقَامِرِينَ يَدْخُلُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَلَيْسَ عِنْدَهُ
قِرْشٌ، ثُمَّ يَخْرُجُ وَعِنْدَهُ آلَافُ الدَّرَاهِمِ؛ بِسَبَبِ هَذَا الْقِمَارِ.

(١) هذا صدر بيت لحسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في ديوان حسان (١/١٧)، وعجزه: «وَأُسْدًا مَا
يُنْهِنُهُنَّ الْقَفَاءُ».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، رقم (٣٠٩١)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب تحريم
الخمير، رقم (١٩٧٩) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهي -أعني: المعاملة بالميسر- مَضْبُوطَةٌ عند أهل العلم بضابط، وهو: «كُلُّ مُعَامَلَةٍ يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِيهَا إِمَّا غَارِمًا، وَإِمَّا غَانِيًا، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَيْسَرِ»، وسيأتي -إن شاء الله- في ذكرِ الفوائد ما يتعلق بذلك.

﴿قُلْ﴾ أي: في جوابِ السَّائِلِينَ ﴿فِيهِمَا﴾ أي: في الحَمْرِ والمَيْسَرِ ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، وذلك لأنَّ السَّكَرَ يُؤَدِّي إلى ما لا يُرْتَضَى من القولِ، وإلى ما لا يُرْتَضَى من الفعلِ، حتَّى إِنَّ السَّكَرَانَ رَبَّمَا قَتَلَ ابْنَهُ، أو أُمَّهُ، أو أَبَاهُ، أو زَوْجَتَهُ، أو أَحَدًا من أَقَارِبِهِ، وهو لَا يَشْعُرُ، وَرَبَّمَا أَحْرَقَ بِهَالِهِ وهو لَا يَشْعُرُ، وهذا -لا شك- إِثْمٌ كَبِيرٌ.

وفي المَيْسَرِ أيضًا عند المغالِبَةِ تَحْصُلُ الْمُنَازَعَاتُ وَالْمُخَاصَمَاتُ وَالْعَدَاوَاتُ وَالبَغْضَاءُ، وَرَبَّمَا يَقُومُ أَحَدُ الْمُتَقَامِرِينَ -إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ غَلِبَ كَثِيرًا- إلى هَذَا الْغَالِبِ، وَيَقْتُلُهُ، فَلِذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾.

وفيهما أيضًا مَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَ(مَنَافِعُ) جَمْعٌ، وَهِيَ عندَ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ صِبْغَةٌ مُتَّهِي الْجُمُوعِ، أي: مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ لِلنَّاسِ، مِنْهَا: الْإِتِّجَارُ بِالْحَمْرِ، وَمِنْهَا: الْحُصُولُ عَلَى الْغِنَى الطَّائِلِ فِي الْمَيْسَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ.

ولكن: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ يَعْنِي: مَا يَحْصُلُ فِيهِمَا مِنَ الْإِثْمِ أَكْبَرُ مِمَّا يَحْصُلُ فِيهِمَا مِنَ النَّفْعِ؛ لِأَنَّ الْآثَارَ الْمُتَرْتِبَةَ عَلَيْهِمَا آثَارٌ وَخِيَمَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَوَخِيَمَةٌ فِي الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ شُرْبَ الْحَمْرِ فِيهِ مَفَاسِدٌ عَظِيمَةٌ، مِنْهَا: ضَيَاعُ الْعَقْلِ، وَمِنْهَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَفْعَلُ أَفْعَالًا مُنْكَرَةً.

وُنُشِرَ فِي بَعْضِ الْجَرَائِدِ مِنْذُ سَنَوَاتٍ عَنْ شَخْصٍ شَابَّ سَكْرًا، ثُمَّ أَتَى إِلَى وَالِدَتِهِ بَعْدَ مُتَتَصِفِ اللَّيْلِ، وَلَمْ يَصُحْ بَعْدُ، فَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تُمَكِّنَهُ مِنْ نَفْسِهَا، أَي: أَنْ يَزِنِيَ بِهَا،

فَأَبْتُ، وَلَكِنَّهُ أَصَرَ عَلَى ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنْ لَمْ تَفْعَلِي فَسَوْفَ أَقْتُلُ نَفْسِي. ثُمَّ أَخَذَ السَّكِينِ؛ لِيَقْتُلَ نَفْسَهُ، فَأَدْرَكَتْهَا شَفَقَةُ الْأُمِّ، فَمَكَّتَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؛ وَفِي الصَّبَاحِ -وَحِينَ صَحَا- شَعَرَ بِمَا جَرَى، فَاتَى إِلَى أُمِّهِ يَسْتَشِيتُ مِنْهَا، فَأَخْبَرَتْهُ بِالْأَمْرِ، ثُمَّ دَخَلَ الْحَمَّامَ، وَأَخَذَ جَالُونًَا مِنَ الْجَارِ، وَصَبَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ أَحْرَقَ نَفْسَهُ، نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ، فَانْظُرْ مَاذَا جَرَى مِنَ السَّكْرِ مِنَ الْعَوَاقِبِ الْوَخِيمَةِ، وَلِهَذَا تُسَمَّى الْحَمْرُ: أُمُّ الْخَبَائِثِ، وَمِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ.

أَمَّا الْمَيْسِرُ فَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ انْتَحَرُوا حِينَ غَلَبُوا، أَوْ قَتَلُوا مَنْ غَلَبَهُمْ! وَهَذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ الَّذِينَ يَتَعَاطَوْنَ هَذِهِ الْمُعَامَلَةَ السَّيِّئَةَ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْمَيْسِرَ -الَّذِي بِهِ أَكُلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، وَالْمُغَالَبَةُ الْمُحَرَّمَةُ- ذَكَرَ حَالَ مَنْ يَبْذُلُونَ الْمَالَ، فَمَا الَّذِي يُنفِقُونَ مِنَ الْمَالِ؟ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ الْمَغْفُ﴾ يَعْنِي: أَنْفِقُوا الْعَفْوَ، وَالْمَرَادُ بِالْعَفْوِ: الزَّائِدُ عَلَى الْحَاجَةِ، يَعْنِي: أَنْفِقُوا مِمَّا يَزِيدُ عَلَى حَاجَتِكُمْ، أَمَّا مَا كُنْتُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِهِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أَي: مِثْلَ هَذَا الْبَيَانِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ، وَيُوضِّحُهَا تَوْضِيحًا كَامِلًا، يَخْصُلُ بِهِ تَمَامُ الْإِيمَانِ، وَالِاقْتِنَاعِ، وَالِاطْمَئِنَّانِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَنْفَكُونَ﴾ أَي: لِأَجْلِ أَنْ تَتَفَكَّرُوا.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١ - حِرْصُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ دِينِهِمْ، فَهُمْ يَسْأَلُونَ الرَّسُولَ ﷺ عَمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَهُوَ ﷺ يُجِيبُهُمْ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِ وَبَيَانٍ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ سَابِقَةٍ.

٢- أَنَّ الْحَمْرَ وَالْمَيْسِرَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾.

واختَصَّ الْحَمْرُ بِأَنَّ فِيهِ الْعُقُوبَةُ عَلَى مَنْ شَرِبَهُ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ مَفْسَدَةٍ مِنَ الْمَيْسِرِ مِنْ وَجْهِهِ، وَأَكْثَرُ شُيُوعًا فِي النَّاسِ، وَأَكْثَرُ النُّفُوسِ الدِّينِيَّةِ تَطْلُبُهُ، فَلِذَلِكَ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ رَادِعٍ يَرُدُّ عَنْ شُرْبِهِ، إِذَا نَقَصَ الْوَاظِعُ الدِّينِيَّ الْإِيمَانِيَّ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَشْرَبُ الْحَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١).

وَعُقُوبَةُ شَارِبِ الْحَمْرِ جَاءَتْ بِهَا السُّنَّةُ، فَقَدْ كَانَ الشَّارِبُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ يُضْرَبُ بِالْجَرِيدِ، وَالنَّعَالِ، وَأَطْرَافِ الثِّيَابِ، وَالْأَيْدِي، نَحْوَ أَرْبَعِينَ جَلْدَةً، وَجَلَدَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرْبَعِينَ جَلْدَةً، وَجَلَدَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَوَّلِ خِلَافَتِهِ أَرْبَعِينَ جَلْدَةً، لَكِنْ لَمَّا كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ، وَانْتَشَرُوا فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَكَثُرَتِ الْفُتُوحَاتُ، وَكَثُرَ الدَّاخِلُونَ فِي الْإِسْلَامِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَقِرَّ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، كَثُرَ شُرْبُ الْحَمْرِ، فَاسْتَشَارَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أَبَيُّ عَلَى الْعُقُوبَةِ الْأُولَى، أَمْ يَزِيدُ فِيهَا؟ فَاسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى الزِّيَادَةِ، وَأَنْ تَكُونَ عُقُوبَتُهَا ثَمَانِينَ جَلْدَةً، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْحَاضِرِينَ فِي الْمَشُورَةِ: أَخَفُّ الْحُدُودِ ثَمَانُونَ. يَعْنِي: وَأَرَى أَنْ تَرْفَعَ عُقُوبَةُ شَارِبِ الْحَمْرِ إِلَى ثَمَانِينَ جَلْدَةً^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأشربة، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنسِرُ﴾، رقم (٥٥٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، رقم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب إثم الزناة، رقم (٦٨٠٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. (٢) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب ما جاء في ضرب شارِبِ الخمر، رقم (٦٧٧٣)، ومسلم: كتاب الحدود، باب حد الخمر، رقم (١٧٠٦) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وانفرد مسلم بذكر استشارة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للصحابه.

وقد وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - قَتْلُ شَارِبِ الْخَمْرِ إِذَا جُلِدَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ ﷺ: «إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ الرَّابِعَةَ فَاقْتُلُوهُ»^(١)، فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَهوَ مُحْكَمٌ، أَمْ مَنْسُوخٌ؟ فَجُمُهورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ مَنْسُوخٌ، وَأَنَّهُ لَا قَتْلَ فِي عُقُوبَةِ الْخَمْرِ.

وَأَخَذَ أَهْلُ الظَّاهِرِ بِهِ، وَقَالُوا: إِنَّهُ يُقْتَلُ إِذَا شَرِبَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَكَانَ يُجْلَدُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَبْلَ الرَّابِعَةِ.

وَفَصَّلَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي ذَلِكَ، فَقَالُوا: إِنْ لَمْ يَتَّهِ النَّاسُ عَنْ شُرْبِهِ إِلَّا بِالْقَتْلِ فِي الرَّابِعَةِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ؛ لِأَنَّ مَنْ جُلِدَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلَمْ يُفَدَّ بِهِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، السَّاعِينَ فِيهَا بِالْفَسَادِ، فَيُقْتَلُ نَكَالًا لغيره، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فَقَالَ: إِذَا لَمْ يَتَّهِ النَّاسُ بِدُونِ الْقَتْلِ فِي الرَّابِعَةِ فَإِنَّهُ يَجِبُ تَنْفِيذُ الْقَتْلِ^(٢).

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب إذا تتابع في شرب الخمر، رقم (٤٤٨٢)، والترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء من شرب الخمر فاجلدوه، رقم (١٤٤٤)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من شرب الخمر مراراً، رقم (٢٥٧٣)، وأحمد (٩٥/٤) من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه أبو داود في الموضع السابق، رقم (٤٤٨٤)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب ذكر الروايات المغلطات في شرب الخمر، رقم (٥٦٦٥)، وابن ماجه في الموضع السابق، رقم (٢٥٧٢)، وأحمد (٢٨٠/٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه أبو داود في الموضع السابق، رقم (٤٤٨٣)، والنسائي في الموضع السابق، رقم (٥٦٦٤)، وأحمد (١٣٦/٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) الإنصاف مع المقتنع والشرح الكبير (٤٢٤/٢٦).

٣- أَنَّ الشَّيْءَ قَدْ يَجْتَمِعُ فِيهِ خَيْرٌ وَشَرٌّ، وَنَفْعٌ وَضَرٌّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾.

٤- أَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ الْمُوازَنَةَ بَيْنَ الضَّرَرِ وَالنَّفْعِ، وَبَيْنَ الْحَيْرِ وَالشَّرِّ، فَيُعْلَبُ أَقْوَاهُمَا وَأَعْلَاهُمَا، وَيَكُونُ الْحُكْمُ لَهُ، وَهُنَا قَارَنَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْإِثْمِ وَالْمَنَافِعِ، وَبَيْنَ أَنَّ الْإِثْمَ أَكْبَرُ مِنَ النَّفْعِ.

والحقيقة أَنَّ الْأَقْسَامَ فِي هَذِهِ الْحَالِ خَمْسَةٌ: إمَّا أَنْ يَكُونَ مَصْلَحَةٌ مُحْضَةٌ، أَوْ مَفْسَدَةٌ مُحْضَةٌ، أَوْ مَصْلَحَةٌ غَالِبَةٌ، أَوْ مَفْسَدَةٌ غَالِبَةٌ، أَوْ مُتَسَاوِي الْأَمْرَيْنِ (الْمَصْلَحَةُ وَالْمَفْسَدَةُ).

فَإِنْ كَانَ مَصْلَحَةٌ خَالِصَةٌ فَالْحُكْمُ وَاضِحٌ، أَنَّنَا نَأْخُذُ بِهِ، وَنَعْتَبِرُهُ. وَإِنْ كَانَ مَفْسَدَةٌ خَالِصَةٌ فَكَذَلِكَ الْحُكْمُ وَاضِحٌ، وَهُوَ أَنْ نَعْتَبِرَ بِالْمَفْسَدَةِ، وَنَتَجَنَّبَ مَا فِيهِ الْمَفْسَدَةُ.

وَإِذَا كَانَتِ الْمَصْلَحَةُ غَالِبَةً أَخَذَ بِهَا، وَأُلْغِيَ جَانِبُ الْمَفْسَدَةِ. وَإِذَا كَانَتِ الْمَفْسَدَةُ غَالِبَةً أَخَذَ بِهَا، وَأُلْغِيَ جَانِبَ الْمَصْلَحَةِ. وَإِذَا تَسَاوَى الْأَمْرَانِ فَإِنَّ الْمُعْتَبَرَ جَانِبُ الْمَفْسَدَةِ؛ احتياطاً، وَتَنَزُّهاً عَنِ الْوُقُوعِ فِيهَا.

٥- التَّعْرِيطُ فِي الْأُمُورِ قَبْلَ الْبَتِّ فِي حُكْمِهَا، وَذَلِكَ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ حِينَ يَنْزِلُ الْبَتُّ فِي الْحُكْمِ مُسْتَعِدًّا لِقَبُولِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ عَاقِلٍ إِذَا وَازَنَ بَيْنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ، وَالْمَضَارِّ وَالْمَنَافِعِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَأْخُذُ بِمَا هُوَ أَكْثَرُ، فَيَكُونُ نَزُولُ الْحُكْمِ الْبَاتِ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قَدْ أَتَى وَالنُّفُوسُ مُهَيَّئَةٌ لِقَبُولِهِ مَعَ شِدَّتِهِ عَلَيْهَا.

ولهذا كانت هذه الآية هي الآية الثانية في بيان حكم الخمر؛ فإن الله سبحانه وتعالى ذكر للخمر أربع مراتب:

المرتبة الأولى: التحليل.

والثانية: التعريض بالتحريم.

والثالثة: التحريم في وقت معين.

والرابعة: التحريم البات في كل وقت.

أما المرتبة الأولى ففي قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧].

وأما المرتبة الثانية فهي هذه الآية.

وأما المرتبة الثالثة فهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

وأما المرتبة الرابعة فهي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]، قال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: انْتَهَيْنَا، انْتَهَيْنَا^(١). وَأَرَأَقُوا الْخَمْرَ مِنْ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر، رقم (٣٦٧٠)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة المائدة، رقم (٣٠٤٩)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، رقم (٥٥٤٢)، وأحمد (٥٣/١) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَوَانِيهِ، وَبَعْضُهُمْ يُدَارُ عَلَيْهِمُ الْخَمْرُ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ مُنَادِيًا يُنَادِي: «أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ حُرِّمَتْ»، وَكَانَ يَسْقِي الْقَوْمَ الْخَمْرَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ، انْظُرْ مَا هَذَا الصَّوْتِ. فَخَرَجَ، فَقَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. فَأَخَذُوا الْآنِيَةَ وَالْكُؤُوسَ، وَأَرَأَقُوهَا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَمْ يَتَوَقَّفُوا فِي الْامْتِنَاعِ عَنْهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ^(١).

٦- أَنَّ الْمَائِمَ تَخْتَلِفُ كِبَرًا وَصِغَرًا، وَأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْأَكْبَرِ، لَا بِالْأَكْثَرِ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، وَفِي الْمَنَافِعِ قَالَ: ﴿وَمَنْفَعُ النَّاسِ﴾، فَهِيَ فِي الْكَمِّيَّةِ أَكْثَرُ؛ لِأَنَّ الْمَنَافِعَ مُتَعَدِّدَةً، لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْإِثْمُ كَبِيرًا صَارَ اعْتِبَارُهُ هُوَ الْأَوَّلَى، وَصَارَ إِثْمُهَا أَكْبَرَ مِنْ نَفْعِهَا.

٧- حِرْصُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونَ إِنْفَاقُهُمْ مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ فِي قَدْرِهِ وَنَوْعِهِ، وَذَلِكَ حِينَ قَالُوا: مَاذَا نُنْفِقُ؟ يَعْنِي: مَا الَّذِي نُنْفِقُهُ مِنْ أَمْوَالِنَا؟ أُنْفِقُ كَثِيرًا، أَمْ نُنْفِقُ قَلِيلًا؟

٨- أَنَّ الْإِنْفَاقَ الْمَأْمُورَ بِهِ هُوَ مَا زَادَ عَنِ الْحَاجَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ الْغَفْوُ﴾، فَأَمَّا مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ فَإِنَّ دَفْعَ الْحَاجَةِ أَهَمُّ مِنْ نَفْعِ الْغَيْرِ، اللَّهُمَّ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ.

وَعَلَى هَذَا، فَمَنْ عِنْدَهُ عِيَالٌ، وَدَخَلَهُ قَلِيلٌ بِقَدْرِ النَّفَقَةِ عَلَى عِيَالِهِ، فَإِنَّ إِنْفَاقَهُ عَلَى عِيَالِهِ أَوْلَى مِنَ الصَّدَقَةِ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْمَالِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب صب الخمر في الطريق، رقم (٢٤٦٤)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، رقم (١٩٨٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ أَتَى بِجَمِيعِ مَالِهِ، حِينَ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّدَقَةِ^(١)؟

قُلْنَا: بلى، لكن مَنْ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صِدْقِ الْإِيمَانِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؟!

٩- أَنْ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَإِنَّهُ لَا يَتَصَدَّقُ؛ لِأَنَّ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ لَيْسَ عِنْدَهُ عَفْوٌ، أَيْ: لَيْسَ عِنْدَهُ زَائِدٌ مِنَ الْمَالِ؛ إِذَا إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يُبَادِرَ بَوَفَاءِ الدَّيْنِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ»^(٢)، وَالْمَطْلُ هُوَ: تَأْخِيرُ الْوَفَاءِ، فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِئَةَ رِيَالٍ دَيْنًا، وَأَرَادَ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِخَمْسِينَ رِيَالًا، قُلْنَا لَهُ: لَا تَتَصَدَّقْ، أَقْضِ الدَّيْنَ أَوَّلًا، ثُمَّ تَصَدَّقْ؛ لِأَنَّ قَضَاءَ الدَّيْنِ وَاجِبٌ، وَالصَّدَقَةُ مِنْ بَابِ الْمُسْتَحَبَّاتِ.

وكَذَلِكَ يُقَالُ فَيَمَنْ ذَهَبَ لِلْعُمْرَةِ أَوْ لِلْحَجِّ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، فَإِنَّا نَقُولُ: لَا تَعْتَمِرْ وَلَا تَحُجَّ حَتَّى تَقْضِيَ دَيْنَكَ؛ لِأَنَّ قَضَاءَ الدَّيْنِ وَاجِبٌ، وَالْعُمْرَةُ وَالْحَجُّ مُسْتَحَبَّانِ، وَهَذَا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ قَدْ أَدَّى الْفَرِيضَةَ فِي عُمْرَتِهِ وَحَجَّهِ وَاضِحٌ، لَكِنْ نَقُولُ: حَتَّى مَنْ لَمْ يُؤَدِّ الْفَرِيضَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَانَ مَدِينًا فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ فَرِيضَةٌ؛ إِذَا إِنَّ فَرِيضَةَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ الْإِسْطِطَاعَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك، رقم (١٦٧٨)، والترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٦٧٥) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب الحوالة، رقم (٢٢٨٧)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني، رقم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن المؤسف أن كثيرا من الناس عليه الديون، يُماطل بها أصحابها، ويذهب للعمرة، ويذهب للحج، ويتصدق بالمال الكثير، ثم إذا قُلت له: لماذا؟ قال: لأنَّ صاحب الدين قد سمح لي. وهذا لا يكفي؛ لأنَّ صاحب الدين إذا سمح لك لم يسقط عنك شيء من الدين، وسيبقى في ذمتك، ولا تدري متى يفجؤك الموت، فيتعلق الدين بك حتى في مماتك.

ولهذا لما قدم رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ؛ ليصلي عليه، خطا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - خطوات، ثم قال: «هل عليه دين؟» قالوا: نعم. فتأخر، وقال: «صلوا على صاحبكم»، ولم يصل عليه؛ لأنَّ عليه دينًا، فقام أبو قتادة رضي الله عنه، وقال: يا رسول الله، الديناران عليَّ. فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «حقَّ الغريم، وبرئ منه الميت؟» قال: نعم. فتقدم، وصلى عليه، صلى الله عليه وسلم^(١).

فالدين أمره عظيم، نعم، لو فرض أن الدين مؤجل، وأنَّ الإنسان قد وثق من نفسه أنه عند حلول الأجل يقضي الدين، فحينئذ نقول: لا بأس أن تتصدق ما دام الدين لم يحل، أما إذا كان قد حل، أو كان الإنسان غير واثق من نفسه، فليقدم قضاء الدين.

١٠ - أن الله سبحانه وتعالى منَّ على عباده ببيان الآيات لهم؛ حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم، فقال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾.

(١) أخرجه بنحو هذا اللفظ الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٣٠) من حديث جابر رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري بمعناه: كتاب الحوالات، باب إن أحال دين الميت على رجل جاز، رقم (٢٢٨٩) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

١١ - أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ فِيهِ مَا يَخْفَى مَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ؛ إِذْ لَوْ كَانَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَا يَخْفَى مَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ لَمْ يَكُنْ بَيَانًا لِلنَّاسِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

١٢ - أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَسْعَى فِي تَفْهَمِ مَعَانِي آيَاتِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، سَوَاءَ كَانَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ حَتَّى تَبَيَّنَ لَهُ الْآيَاتُ؛ لِأَنَّ تَبَيَّنَ الْآيَاتِ لِلإِنْسَانِ يَزِيدُهُ إِيمَانًا بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَالْآيَاتُ نَوَعَانِ:

■ آيَاتُ كَوْنِيَّةٌ، كَاللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ، وَالشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالْجِبَالِ، وَالْأَنْهَارِ، وَغَيْرَهَا.

■ آيَاتُ شَرْعِيَّةٌ، وَهِيَ الْوَحْيُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَكُلُّ هَذَا قَدْ بَيَّنَّهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِلنَّاسِ بَيَانًا شَافِيًا.

١٣ - الْحُثُّ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ، وَالْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٤ - إِبْثَاتُ الْحِكْمَةِ فِيَمَا أَرَى اللَّهُ عِبَادَهُ مِنَ الْآيَاتِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾؛ لِأَنَّ (لَعَلَّ) هُنَا لِلتَّلْعِيلِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ الْحِكْمَةُ فِي آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَآيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: (الْحَكِيمُ)، أَيْ: ذَا الْحِكْمَةِ، وَهِيَ وَضْعُ الْأَشْيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا، نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُؤْتِنَا جَمِيعًا الْحِكْمَةَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُوتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

١٥- في قولِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أَنَّ التَّفَكُّرَ في آياتِ الله الكونيةِ أو الشرعيةِ من الأمورِ المطلوبةِ المحبوبةِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وبناءً على هذه الفائدة، ينبغي للإنسان أن يتفكر في آياتِ الله تعالى الشرعيةِ، أي: في القرآن والسنة، فيتدبر الآيات؛ ليتبين له من أحكامها ما شاء الله، ثم يتفكر مرةً أخرى في الحكم المترتبة على هذه الأحكام؛ لأنَّ الإنسان إذا فتح اللهُ عليه معرفةَ الحكم من الأحكام الشرعية ازدادَ إيماناً و يقيناً، وعرفَ بذلك سُمُوَّ الشريعة الإسلامية، وأنها لا تأمرُ إلا بالخير، ولا تنهى إلا عن الشرِّ.

كذلك أيضاً إذا تفكر في الآيات الكونية عرفَ بها عظمةَ الله عَزَّوَجَلَّ، ورحمته، وقدرته، وتَمَامَ سُلْطَانِهِ، فازدادَ بذلك إيماناً مع إيمانه.

هكذا بدا لنا من الآية الكريمة، وكلماتِ الله سبحانه وتعالى لا يُحِيطُ بها أحدٌ من المخلوقين، لكنْ حَسُبْنَا أن نَصِلَ إلى ما يُمكننا علمُه، وكلامُ الله تعالى فوقَ كُلِّ كلامٍ.

نَسْأَلُ الله تعالى أن يرزُقنا جميعاً الانتفاعَ بكتابه، وأن يجعلنا هداةً مهتدين، وقادةً مُصلِحين؛ إِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي قُلْتَ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ غَزِيرٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٠)

قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، أَيْ: تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَيْ: فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَخَوَالِهِمَا؛ حَتَّى تُرْجِحُوا مَا تَرَوْنَ أَنَّهُ أَحْظٌ لَكُمْ، وَأَنْفَعُ لَكُمْ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا فَكَّرَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَانَ ذَا عَقْلِ، فَسَوْفَ يُقَدِّمُ مَا كَانَ مِنْ مَصْلَحَةِ الْآخِرَةِ عَلَى مَصْلَحَةِ الدُّنْيَا، وَلِهَذَا أَنْبَأَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ أَثَّرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿[الأعلى: ١٦-١٧].

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى سُؤَالَ آخَرَ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي قُلْتَ﴾، وَالْيَتَامَى: جَمْعُ يَتِيمٍ، وَالْيَتِيمُ هُوَ: مَنْ مَاتَ أَبُوهُ، وَلَمْ يَبْلُغْ.

وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمَّا نَزَلَ الْوَعِيدُ فِيمَنْ يَأْكُلُ أَمْوَالَ الْيَتَامَى تَحَرَّجُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ مُخَالَطَةِ الْيَتَامَى؛ خَوْفًا أَنْ يَنَالَهُمُ الْوَعِيدُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، فَقَالُوا: إِنَّ خَالَطْنَاهُمْ أَثْمَنًا، وَإِنْ بَايَنَّاهُمْ صَارَ عَلَيْنَا الْحَرَجُ الشَّدِيدُ. فَسَأَلُوا النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَمَاذَا نَصْنَعُ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى جَوَابًا عَامًّا شَامِلًا: ﴿إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الْإِصْلَاحَ لِلْيَتَامَى

في أموالهم وأعمالهم وكل شيء خير^(١).

ولم يذكر الله عز وجل المفضل عليه، يعني: لم يقل: «خير من كذا»؛ ليكون ذلك أمراً عاماً شاملاً، فكل ما فيه إصلاح لليتامى فهو خير.

﴿وإن تخالطوهم فأخوانكم﴾ أي: إن تخالطوهم في المال فهم إخوانكم، فكما أن الإنسان يخالط أخاه بدون حرج، فكذلك يخالط اليتيم بدون حرج، لكن مع مراعاة الإصلاح.

﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فيعلم من نيته الإصلاح، ويسعى في الإصلاح، ويعلم من نيته الفساد، ويسعى في الفساد.

﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ أي: ولو شاء أن يعنتكم ويشق عليكم لأعنتكم، ولكنه عز وجل يريد بعباده اليسر، ولا يريد بهم العسر.

﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي: ذو عزة وحكم وحكمة، فلا يمنعه أحد مما أراد لو أراد عز وجل أن يعنت عباده، ولكنه سبحانه وتعالى لا يريد أن يعنت عباده، بل هو لم يجعل عليهم في الدين من حرج.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - الإرشاد إلى أن يتفكر الإنسان في أمر الدنيا والآخرة تفكيراً جدياً؛ ليقدّم ما يراه أرجح وأفضل.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام، رقم (٢٨٧١)، والنسائي: كتاب الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه، رقم (٣٦٩٩)، وأحمد (١/٣٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وَإِذَا فَكَّرْنَا فِي ذَلِكَ أَذْنَى تَفْكِيرٍ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَهِيَ خَيْرٌ فِي الْحَاضِرِ، وَأَبْقَى فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَالْدُّنْيَا صَفْوُهَا مَشُوبٌ بِالْكَدَرِ، وَصِحَّتُهَا مَشُوبَةٌ بِالْمَرَضِ، وَفَرَحُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَالْإِطْمِئْنَانُ فِيهَا مَشُوبٌ بِالْقَلَقِ، وَهَكَذَا كُلُّ أَمْرِهَا الَّذِي فِيهِ الْمَصْلَحَةُ مَشُوبٌ بِمَا فِيهِ الْمَفْسَدَةُ، وَالْإِنْسَانُ فِيهَا مُهَدَّدٌ، إِمَّا بِهِرَمٍ يُرَدُّ فِيهِ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَيَكُونُ الصَّبِيَانُ خَيْرًا مِنْهُ، وَإِمَّا بِمَوْتٍ يَفْقَدُ بِهِ الدُّنْيَا كُلَّهَا بِمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ وَأَمْوَالٍ وَأَوْلَادٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَفِي هَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنْغَصَّةً لَذَائِهِ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ^(١)

اِنَّتِ لِي بِأَحَدٍ يَبْقَى مَسْرُورَ الْقَلْبِ، سَلِيمَ الْبَدَنِ لِمُدَّةٍ شَهْرٍ وَاحِدٍ مِنْ مِئَةِ عَامٍ، لَا تَجِدُ هَذَا، لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَكْذَارِهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَنَالُهُ مِنْ صَفْوِهَا.

أَمَّا الْآخِرَةُ فَإِنَّهُ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا -وَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِخْوَانَنَا مِنْهُمْ- فَإِنَّ الْجَنَّةَ مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَصِحُّ فَلَا يُمْرَضُ، وَيَبْقَى فَلَا يَمُوتُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّهُ يُؤْتَى بِالْمَوْتِ عَلَى صُورَةِ كَبْشٍ، فَيُوضَعُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَسْرَبُونَ وَيَطْلَعُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: خُلُودٌ، وَلَا مَوْتَ. وَيُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ: خُلُودٌ، وَلَا مَوْتَ. فَيَزَادُ أَهْلَ الْجَنَّةِ سُرُورًا إِلَى سُرُورِهِمْ، وَيَزَادُ أَهْلَ النَّارِ بُؤْسًا إِلَى بُؤْسِهِمْ، وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

(١) البيت من البسيط، ولم يُنسَبْ إِلَى قَائِلٍ مُعَيَّنٍ، وَهُوَ مِنْ شَوَاهِدِ «شرح الأشموني» (١/٣٦٦)، وَأَوْضَحَ الْمَسَالِكُ (١/٢٤٢).

ففكّر يا أخي، تجد أنّ الآخرة خيرٌ من الدنيا، وأنّ أعمال الآخرة أيضًا خيرٌ من الدنيا، ولمّا قال رجلٌ: يا رسول الله، ذلّني على عملٍ يدخلني الجنة ويُباعدني من النار؟ قال ﷺ: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(١)، وهو كما قال النبي ﷺ عمَلٌ يسيرٌ، نسأل الله أن يُعيننا وإخواننا المسلمين على ذلك؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

٣- حِرْصُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَعَلَى مَا يُرَى ذِمَّتُهُمْ؛ حَيْثُ تَخَرَّجُوا مِنْ مُحَالِطَةِ الْيَتَامَى، فَسَأَلُوا النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عَنْ شَأْنِهِمْ.

وبناءً على ذلك، فإنّه ينبغي لنا أن يكونَ لنا فيهم أسوة؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّيْفُوتِ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فلنسأل عن كُلِّ ما يُشْكِلُ علينا في أمورِ ديننا ودُنيانا؛ حَتَّى نَأْتِيَ الأمرَ على بصيرةٍ، وقد كان بعضُ النَّاسِ يتساهلُ في السُّؤالِ عن أمرِ دينه، فتجده يقولُ: الأمرُ سهلٌ. أو رَبِّمَا يُفْتِي نَفْسَهُ بفتوى غلطٍ محضٍ، فيقولُ: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، وهذا من الغلطِ العظيم، لا من ناحية تفسير القرآن؛ لأنَّ الله تعالى لم يُردِّ هذا، ولا من ناحية السُّلوكِ والمنهج؛ لأنَّ الحازمَ هو الَّذي يَأْتِي الأمورَ على بصيرةٍ.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٣١/٥) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- عِنَايَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْيَتَامَى الَّذِينَ مَاتَ آبَاؤُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا؛ لِأَتَمِّهِمْ أَهْلًا لِلْعِنَايَةِ.

٥- الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ قَاصِرًا، وَكُلَّمَا كَانَ أَشَدَّ حَاجَةً إِلَى الرَّحْمَةِ، فَإِنَّ الْعِنَايَةَ بِهِ أَوْلَى وَأَجْدَرُ.

٦- أَنَّ الْإِصْلَاحَ لِلْيَتَامَى خَيْرٌ، فَاسْلُكْ مَا فِيهِ إِصْلَاحٌ لَهُمْ، فِي تَوْجِيهِهِمْ، وَتَرْبِيَّتِهِمْ، وَالْأُنْسَ مَعَهُمْ، وَالشُّهُولَةَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ، وَإِصْلَاحَ أَمْوَالِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿إِصْلَاحٌ لَهُمْ﴾ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿خَيْرٌ﴾، وَهَلْ يُلْحَقُ بِالْيَتَامَى غَيْرُهُمْ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، الْإِصْلَاحُ خَيْرٌ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ فِي أَيِّ مَكَانٍ، وَفِي أَيِّ زَمَانٍ، وَمَعَ أَيِّ إِنْسَانٍ، فَاحْرَضَ -أَخِي الْمُسْلِمَ- عَلَى الْإِصْلَاحِ مَا اسْتَطَعْتَ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ الْكَذِبَ حَلَالٌ فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ^(١). وَذَلِكَ أَنَّ الْإِصْلَاحَ تَرْبُو مَنْفَعَتُهُ وَمَصْلَحَتُهُ عَلَى مَفْسَدَةِ الْكَذِبِ.

٧- جَوَازُ مُحَالِطَةِ الْيَتَامَى فِيمَا لَا بُدَّ مِنَ الْاِخْتِلَاطِ فِيهِ، كَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْفِرَاشِ وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ يَتَامَى فِي بَيْتِهِ فَلَيْسَ مِنَ السَّهْلِ أَنْ يَجْعَلَ طَعَامَهُمْ فِي إِنَاءٍ خَاصٍّ، وَشَرَابَهُمْ فِي إِنَاءٍ خَاصٍّ، وَفُرْشَهُمْ فِي مَكَانٍ خَاصٍّ، هَذَا مِنَ الصَّعْبِ جِدًّا، وَلَكِنْ يُحَالِطُهُمْ بِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ.

فَمَثَلًا: إِذَا قُدِّرَ أَنَّ فِي الْبَيْتِ عَشْرَةَ أَنْفَارٍ، مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ يَتَامَى، وَأَنْفَقَ الْإِنْسَانُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّلَاحِ، بَابُ لَيْسَ الْكَاذِبُ الَّذِي يَصْلُحُ بَيْنَ النَّاسِ، رَقْمُ (٢٦٩٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْبِرِّ، بَابُ تَحْرِيمِ الْكَذِبِ، رَقْمُ (٢٦٠٥) مِنْ حَدِيثِ أُمِّ كَلْثُومَ بِنْتِ عَقْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا».

على هذا البيت مئة ريال، فيعني ذلك أن لكل واحد منهم عشرة، فيكون على اليتامى الأربعة أربعون ريالاً من الثقة، هذا إذا تساؤوا أو تقاربوا في حاجتهم إلى الأكل والشرب، أما إذا كان الأيتام صغاراً لا يحتاجون إلى مثل ذلك فبالقسط.

المهم: أن يعاملهم بالقسط والعدل، ولا حرج أن يكون إناء الطعام واحداً، وإناء الشراب واحداً، وفرش المكان واحداً؛ لمسقة التمييز والانفراد.

٨- إثبات الشراكة والمخالطة؛ لقوله تعالى: ﴿وإن تخالطوهم فاخونكم﴾.

والشراكة قال أهل العلم: إنها نوعان: شراكة أملاك، وشراكة عقود.

فشراكة الأملاك هي: أن يشترك اثنان في استحقاق شيء من الأشياء، كالورثة يشتركون في تركة الميت.

وشراكة العقود: أن يشترك اثنان فأكثر في التصرف، ومن ذلك: المضاربة، وهي: أن يُعطي شخصاً مالا يتجر به، والربح بينه وبينه على حسب ما اشترطاه. فيقول مثلاً: هذه عشرة آلاف ريال أنجز بها، والربح بيننا أنصافاً. أو: أثلاثاً، لك ثلثه ولي ثلثاه. أو: أرباعاً، لك ربعه، ولي ثلاثة أرباعه. أو ما أشبه ذلك.

المهم: أن الدين الإسلامي أثبت مبدأ الخلطة والشراكة.

٩- الإشارة إلى الحنو والعطف على اليتامى؛ لقوله: ﴿فاخونكم﴾، وهذه كلمة

تشعر الإنسان باللطف، واللين، والرحمة، وأتباع المصالح في حقوق اليتامى؛ لأنهم إخوانه.

١٠- سعة علم الله تعالى، وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿والله يعلم

المفسد من المصلح﴾.

١١ - التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِفْسَادِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَتَى عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ ذَلِكَ فَسَوْفَ يَحْذَرُ مِنْهُ غَايَةَ الْحَذَرِ؛ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ.

١٢ - الْحَثُّ عَلَى الْإِصْلَاحِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ إِصْلَاحَهُ فَسَوْفَ يَسْعَى بِالْإِصْلَاحِ؛ طَلَبًا لثَوَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

١٣ - انْتِفَاءُ الْعُسْرِ وَالْمَشَقَّةِ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ﴾، أَي: لَشَقَّ عَلَيْكُمْ، كَمَا سَبَقَ فِي التَّفْسِيرِ.

وَالْمِلَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ هِيَ الْمِلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ، وَالدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ هُوَ دِينُ الْيُسْرِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»^(١)، وَقَالَ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ: «يُسِّرُوا، وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلَا تُنْفِرُوا»^(٢)، وَقَالَ: «فَاتِمَا بُعِثْتُمْ مُيسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»^(٣).

وَالنُّصُوصُ فِي هَذَا بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قَدْ فَعَلْتُ»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قَدْ فَعَلْتُ»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِٓ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ اللَّهُ: «قَدْ فَعَلْتُ»^(٤)، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَنَا فِي هَذِهِ الْجُمْلِ الدُّعَائِيَّةِ، وَمِنْهَا:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ١٠).

(٣) تقدم تخريجه (ص: ١٠).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس، رقم (١٢٦) من

حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾؛ لَأَنَّ عَدَمَ المؤاخِذَةِ عَلَى النِّسْيَانِ وَالْخَطَأِ مِنْ التَّيسِيرِ.

١٤ - إثبات هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ لِلَّهِ: (الْعَزِيزِ)، و(الْحَكِيمِ)، فَبِالْعِزَّةِ يَكُونُ تَأْمُ السُّلْطَانِ، وَبِالْحِكْمَةِ يَكُونُ تَأْمُ الْفِعْلِ؛ لَأَنَّ أَفْعَالَ اللَّهِ تَعَالَى كُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْحِكْمَةِ.

١٥ - أَنَّ الْإِنْسَانَ مَتَى آمَنَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ فَسَوْفَ يَخْشَى عِقَابَهُ، وَيَرْجُو ثَوَابَهُ؛ لَأَنَّ مِنْ مَعْنَى الْعَزِيزِ: الْغَالِبَ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، الْقَاهِرَ الَّذِي لَا يُقْهَرُ، الْمُجِيرَ الَّذِي لَا يُجَارُ عَلَيْهِ.

١٦ - أَنَّ الْإِنْسَانَ يَطْمَئِنُّ لِمَا يَقَعُ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَطْمَئِنُّ لِمَا حَصَلَ مِنْ شَرِّعِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْحِكْمَةِ.

وَمَتَى عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْدَرُ شَيْئًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ اطمأننت إليه، وَرَضِيتَ بِهِ، وَاقْتَنَعْتَ بِهِ.

وَكَذَلِكَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَشْرَعُ شَيْئًا -أَي: لَا يُوجِبُ، وَلَا يُحَرِّمُ، وَلَا يُجَلِّلُ- إِلَّا مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ، فَإِنَّكَ تَطْمَئِنُّ إِلَى ذَلِكَ كَثِيرًا، وَلَا تُنَازِعُ اللَّهَ تَعَالَى لَا فِي قَدَرِهِ، وَلَا فِي شَرِّعِهِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا جَمِيعًا مِنَ الْمُطْمَئِنِّينَ بِشَرِيعَتِهِ، الرَّاضِينَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾، والخطاب هنا لعامة المؤمنين.

و﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ يَشْمَلُ: المُشْرِكَاتِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَالمُشْرِكَاتِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ، يَعْنِي: لَوْ أَنَّ امْرَأَةً لَا تُقَرُّ بِالْخَالِقِ عَزَّجَلَّ فَإِنَّهَا مُشْرِكَةٌ، بَلْ هَذِهِ مُلْحِدَةٌ، أَوْ تُؤْمِنُ بِالْخَالِقِ عَزَّجَلَّ، لَكِنْ تَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ شَرِيكًا فِي مُلْكِهِ، مُدَبِّرًا مَعَهُ، كَالَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُمْ يُدَبِّرُونَ الْكَوْنَ مَعَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَإِنَّ هَؤُلَاءَ مُشْرِكُونَ، لَيْسُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي شَيْءٍ.

أَوْ تَكُونُ مُشْرِكَةً فِي الْأُلُوهِيَّةِ -أَي: فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ- تَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ مَعَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، أَوْ تَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ مَعَ اللَّهِ، أَوْ تَعْبُدُ الْأَوْلِيَاءَ مَعَ اللَّهِ، أَوْ تَعْبُدُ شَجَرًا مَعَ اللَّهِ، أَوْ تَعْبُدُ صَنَمًا مَعَ اللَّهِ، فَهَذِهِ مُشْرِكَةٌ فِي الْأُلُوهِيَّةِ.

أَمَّا الْإِشْرَاكُ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ.

إِذْنًا، لَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ، لَا فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَلَا فِي الْأُلُوهِيَّةِ ﴿حَتَّى يُؤْمِنَ﴾، وَذَلِكَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ.

﴿وَلَا مَئْمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ﴾ الأَمَةُ الْمُؤْمِنَةُ هِيَ: الَّتِي وَحَدَّتِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِيهَا يَخْتَصُّ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْأُلُوهِيَّةِ، وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

﴿خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ﴾ أَي: خَيْرٌ مِنْ امْرَأَةٍ أَوْ أَمَةٍ مُّشْرِكَةٍ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أَي: وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ هَذِهِ الْمُشْرِكَةُ بِجَمَالِهَا، وَشَبَابِهَا، وَخِفَّتِهَا، وَعَمَلِهَا، وَعِلْمِهَا، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَةَ خَيْرٌ مِنْهَا، وَلَوْ كَانَتْ أُمِّيَّةً لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ.

﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ أَي: لَا تُزَوِّجُوهُمْ، وَنَقُولُ فِي الْمُشْرِكِينَ مَا قُلْنَا فِي الْمَشْرِكَاتِ ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ أَي: حَتَّى يُوحِّدُوا وَيُخْلِصُوا.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ أَي: لَرَجُلٌ مُّؤْمِنٌ ﴿خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ﴾ أَي: خَيْرٌ مِنْ رَجُلٍ مُّشْرِكٍ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أَي: ذَلِكَ الْمُشْرِكُ فِي شَبَابِهِ، وَجَمَالِهِ، وَمَالِهِ، وَعِلْمِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَالْمُؤْمِنُ خَيْرٌ مِنْهُ.

وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ سَبِيلًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، بَلْ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، وَمَعْنَى: (مَنْ أَضَلُّ) أَي: لَا أَحَدَ أَضَلُّ، لَا الْأَنْعَامَ، وَلَا غَيْرَ الْأَنْعَامِ، لَا أَحَدَ أَضَلُّ مِنَ الْمُشْرِكِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ يَعْنِي: أُولَئِكَ الْمُشْرِكُونَ وَالْمَشْرِكَاتُ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ؛ لِأَنَّ عَمَلَهُمْ هَذَا دُعَاءٌ بِالْفِعْلِ، فَقَدْ لَا يَكُونُ الْمُشْرِكُ يَقُولُ لِلنَّاسِ: أَشْرِكُوا. لَكِنْ كَوْنُهُ يَبْقَى عَلَى الْإِشْرَاكِ، وَيُجَادِلُ عَنْهُ، هَذَا نَوْعٌ مِنَ الدَّعْوَةِ.

والإشراك من أسباب دخول النار، ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ
وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ﴾ أي: إلى ما يوصل إلى الجنة من الأعمال الصالحة، وعلى رأسها:
الإخلاص، والتوحيد. فهذه الأشياء تُوصل إلى الجنة، فهو عَزَّجَلَّ يدعو إلى الجنة
بسلوك طُرُقها من الإخلاص، والتوحيد، والأعمال الصالحة.

وكذلك يدعو إلى المغفرة، أي: مغفرة الذنوب التي من أكبر أسبابها ألا يُشرك
بالله شيئاً، ولهذا جاء في الحديث: «يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ
لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»^(١).

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بإرادته عَزَّجَلَّ، فإنَّ كُلَّ شَيْءٍ يقع بإرادته، سواء سُلوكُ
طريق أهل النعيم، أو أهل الجحيم.

﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أي: يوضحها حتى تتبين لهم، ويكون فيها دليل على
الربِّ عَزَّجَلَّ. فَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ عُمُومًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لأجل أن يتذكروا
ويتعظوا.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - تحريم نكاح المشركات، ولو كنَّ من أجمل النساء، ومن أشبَّ النساء،
ومن أعلم النساء.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التوبة، رقم (٣٥٤٠) من حديث أنس
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما أخرجه مسلم بنحوه: كتاب الذكر، باب فضل الذكر، رقم (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- أن الإنسان لو تزوّج مُشْرِكَةً فَإِنَّ نِكَاحَهُ باطلٌ؛ لأنَّ ما نَهَى اللهُ عنه وَرَسُولُهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ صَحِيحًا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، فإذا كان الْعَمَلُ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُ اللهِ وَرَسُولِهِ مَرْدُودًا فما بِالْكَ بِالْعَمَلِ الَّذِي عَلَيْهِ نَهْيُ اللهِ وَرَسُولِهِ؟!

وعلى هذا فلو تزوّج امرأة مُشْرِكَةً، واستَبَاحَ منها ما يَسْتَبِيحُهُ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْأَةِ، لكان زَانِيًا، فَكُلُّ قُبْلَةٍ فَهِيَ زِنَا، وَكُلُّ جِمَاعٍ فَهُوَ زِنَا، وَكُلُّ نَظَرَةٍ لَشَهْوَةٍ فَهِيَ زِنَا؛ لِأَنَّ هَذَا النِّكَاحَ لَمْ يَصَحَّ، فَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ أَثَرُهُ.

وذهبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ حَتَّى فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَزَوَّجَ يَهُودِيَّةً أَوْ نَصْرَانِيَّةً إِذَا كَانَتْ تَعْتَقِدُ اللهُ شَرِيكًا، وَقَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ: الْمُحْصَنَاتُ اللَّاتِي لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا.

ولكنَّ الْجُمْهُورَ -وهو الصَّحِيحُ- عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْإِنْسَانُ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً، أَوْ نَصْرَانِيَّةً، وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً مُشْرِكَةً؛ لِأَنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ نَزَلَ فِيهَا: ﴿أَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، وَفِي نَفْسِ هَذِهِ السُّورَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وَقَالَ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨/١٨)، وأخرجه بمعناه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

فَأَبَاحَ نِكَاحَ نِسَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَعَ حُكْمِهِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ كُفَّارٌ؛ لِأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ.

٣- أَنَّ تَحْرِيمَ الْمُشْرِكَةِ لَيْسَ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا، كَتَحْرِيمِ الْأُمِّ، وَالْبِنْتِ، وَالْأُخْتِ، وَلَكِنَّهُ مُحَرَّمٌ إِلَى أَمَدٍ، وَهَذَا الْأَمَدُ هُوَ الْإِيمَانُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّى يُؤْمَنَّ﴾.

٤- فَضِيلَةُ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ الْوَاحِدَةَ تَكُونُ بِالْأَمْسِ حَرَامًا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا الْمُؤْمِنُ، وَتَكُونُ الْيَوْمَ حَلَالًا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا الْمُؤْمِنُ، كُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْإِيمَانِ، فَالْإِيمَانُ مُطَهِّرٌ، وَلَهُ أَحْكَامٌ تَتَعَلَّقُ بِهِ.

٥- أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ وَلَوْ كَانَتْ عَاصِيَةً فَاسِقَةً؛ لِأَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ نِكَاحِ الْمُشْرِكَاتِ، وَلَكِنْ هُنَاكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَعَاصِي لَا يَحِلُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الْمَرْأَةِ إِذَا كَانَتْ مُتَّصِفَةً بِهِ، وَهُوَ الزَّانَا، فَالزَّانِيَةُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا حَتَّى تَتُوبَ تَوْبَةً ظَاهِرَةً بَيِّنَةً؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

أَمَّا الْفِسْقُ بِمَا دُونَ ذَلِكَ فَلَا يَمْنَعُ النِّكَاحَ، وَلَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ أَقْوَى دِينًا فَهِيَ أَوْلَى؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «تُنْكِحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَدِينِهَا، فَظَفَرِ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ»^(١).

٦- أَنَّ الْأَمَّةَ -أَي: الْمَرْأَةَ- الْمُؤْمِنَةَ خَيْرٌ مِنَ الْمُشْرِكَةِ وَلَوْ أَعْجَبَتْكَ -أَي: الْمُشْرِكَةُ- وَهَذِهِ الْخَيْرِيَّةُ مُطْلَقَةٌ، لَمْ يَقُلْ: خَيْرٌ مِنْهَا فِي كَذَا أَوْ كَذَا. فَهِيَ خَيْرٌ مِنَ الْمُشْرِكَةِ عَلَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإِطْلَاقِ، وَالْإِيْمَانُ يَتَفَاوَتْ، وَإِذَا كَانَ الْحُكْمُ مُعْلَقًا بِوَصْفِ الْإِيْمَانِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ أَقْوَى إِيْمَانًا، وَأَكْثَرَ عَمَلًا لِلصَّالِحَاتِ، فَهِيَ أَوْلَى، فَيَكُونُ ذَلِكَ شَاهِدًا لِلْحَدِيثِ الَّذِي أَشْرَتْ إِلَيْهِ آتِفًا: «فَظْفَرُ بَذَاتِ الدِّينِ، تَرَبَّتْ يَدَاكَ».

٧- أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُشْرِكَةَ قَدْ تُعْجِبُ الْإِنْسَانَ، وَأَنَّ إِعْجَابَ الْإِنْسَانِ بِهَا عَلَيْهِ الْمُشْرِكُ فِي أَمْرِ تَقْتَضِيهِ الْفِطْرَةَ وَالطَّبِيعَةَ لَا بِأَسَ بِهِ، لَكِنْ بِشَرَطٍ: أَلَّا يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى مَحَبَّةِ هَذَا الْمُشْرِكِ أَوْ مَوَدَّةِهِ.

فَمَثَلًا: لَوْ أَعْجَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ رَجُلٍ مُشْرِكٍ عَثُورُهُ -أَي: هَذَا الْمُشْرِكِ- عَلَى دَوَاءٍ لَمَرَضٍ عُضَالٍ لَمْ يَتَوَصَّلِ النَّاسُ إِلَى دَوَائِهِ، فَإِنَّ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ يُعْجِبُ الْإِنْسَانَ، وَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا رَجُلٌ حَازِقٌ. وَلَكِنَّهُ لَا يَجُوزُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى مَحَبَّةِ الرَّجُلِ وَتَعْظِيمِهِ.

٨- أَنَّهُ لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ، أَيْ: أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تُزَوِّجُ نَفْسَهَا، وَأَنَّهُ لَا يُزَوِّجُهَا إِلَّا وَلِيِّهَا، وَأَنَّ النِّكَاحَ بِلَا وَلِيٍّ فَاسِدٌ، وَيُظْهَرُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، فَفِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، وَهَذَا خِطَابٌ لِلْأَزْوَاجِ، فَالزَّوْجُ هُوَ الَّذِي يُنْكِحُ نَفْسَهُ، وَأَمَّا فِي النِّسَاءِ فَقَالَ: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَمْلِكُ إِنْكَاحَ نَفْسِهَا مِنْ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يُنْكِحُهَا وَلِيُّهَا.

وَقَدْ جَاءَتِ السُّنَّةُ وَاضِحَةً فِي ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ»^(١)، وَقَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، رَقْمُ (١٠٨٤)، وَابْنُ مَاجَةٍ: كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ الْأَكْفَاءِ، رَقْمُ (١٩٦٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - : «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ»^(١)، وقال ﷺ: «لَا تُنْكَحُ الْبُكَرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ، وَلَا الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ»^(٢)، فدل ذلك على أَنَّ المرأة لَا تُزَوَّجُ نَفْسَهَا مَهْمَا بَلَغَتْ مِنَ الْعَقْلِ وَالذِّكَاةِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُزَوَّجَهَا وَلِيُّهَا.

ووليُّ المرأة في النِّكَاحِ هُمُ: الْعَصَبَاتُ. فَذَوُو الْفُرُوضِ لَيْسَ لَهُمْ وَلَايَةٌ، وَذَوُو الْأَرْحَامِ لَيْسَ لَهُمْ وَلَايَةٌ.

وعلى هذا، فالأخ من الأمِّ لَا يُزَوَّجُ أُخْتَهُ مِنْ أُمِّهِ، وَالْخَالَ لَا يُزَوَّجُ ابْنَةَ أُخْتِهِ، إِنَّمَا الْوَلَايَةُ فِي النِّكَاحِ لِلْعَصْبَةِ فَقَطْ.

فَلَوْ وَجَدْنَا ابْنَ عَمٍّ بَعِيدًا جِدًّا مِنَ الْمَرْأَةِ، وَوَجَدْنَا أَخَاهَا مِنْ أُمِّهَا، فَالَّذِي يُزَوَّجُهَا ابْنُ عَمِّهَا الْبَعِيدُ، وَلَا يُزَوَّجُهَا أَخُوها مِنْ أُمِّهَا، حَتَّى لَوْ لَمْ يُوجَدْ أَحَدٌ مِنَ الْعَصْبَةِ زَوْجَهَا الْقَاضِي، وَلَمْ يُزَوَّجْهَا أَخُوها مِنْ أُمِّهَا، إِلَّا أَنْ يُوَكَّلَهُ الْقَاضِي؛ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ لَدَيْنَا هِيَ أَنَّ وَلَايَةَ النِّكَاحِ إِنَّمَا هِيَ لِلْعَصْبَةِ فَقَطْ دُونَ أَصْحَابِ الْفُرُوضِ، وَذَوْنِ ذَوِي الْأَرْحَامِ.

وَإِذَا اجْتَمَعَ أَخَوَانِ، أَحَدُهُمَا شَقِيقٌ، وَالْآخَرُ مِنْ أَبٍ، فَالشَّقِيقُ هُوَ الْوَلِيُّ؛ لِأَنَّهُ أَقْوَى صِلَةً بِأُخْتِهِ، حَيْثُ إِنَّهُ شَقِيقُهَا مِنْ أَبِيهَا وَأُمِّهَا، وَالْأَخُ مِنَ الْأَبِ إِنَّمَا يَتَّصِلُ بِهَا بِالْأَبِ فَقَطْ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النِّكَاحِ، باب في الولي، رقم (٢٠٨٥)، والترمذي: كتاب النِّكَاحِ، باب ما جاء لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ، رقم (١١٠١)، وابن ماجه: كتاب النِّكَاحِ، باب لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ، رقم (١٨٨١)، وأحمد (٣٩٤/٤) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النِّكَاحِ، باب لَا يَنْكَحُ الْأَبُ وَغَيْرَهُ الْبُكَرَ وَالْثِيْبَ إِلَّا بِرِضَاهَا، رقم (٥١٣٦)، ومسلم: كتاب النِّكَاحِ، باب اسْتِئْذَانُ الثِيْبِ فِي النِّكَاحِ، رقم (١٤١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَإِذَا وُجِدَ عَمٌّ وَابْنُ عَمٍّ فَالْعَمُّ أَوْلَى، وَإِذَا وُجِدَ ابْنُ عَمٍّ بَعِيدٌ وَعَمُّ الْأَبِ فابْنُ الْعَمِّ الْبَعِيدُ أَوْلَى؛ لِأَنَّ ابْنَ الْعَمِّ الْبَعِيدَ يَتَّصِلُ بِالْمَرْأَةِ فِي الْجَدِّ، وَعَمُّ الْأَبِ يَتَّصِلُ فِي أَبِي الْجَدِّ، فَتَكُونُ قَرَابَةُ ابْنِ الْعَمِّ الْبَعِيدِ أَقْرَبَ مِنْ قَرَابَةِ عَمِّ الْأَبِ.

وَالترتيبُ معروفٌ عند أهل العلم، لكن المهمُّ الَّذي أُحِبُّ أَنْ يُفهمَ: أَنَّهُ لَا وِلَايَةَ لَذي فَرَضٍ، وَلَا لَذي رَحِمٍ، وَإِنَّمَا الْوِلَايَةُ لِلْعَصَبَاتِ فَقَطْ.

وَهنا نَقِفُ لِنُوجِّهَ نَصِيحَةً إِلَى الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلِيَاءَ عَلَى بَنَاتِهِمْ، أَوْ أَخَوَاتِهِمْ، أَوْ مَنْ لَهُمْ وِلَايَةٌ عَلَيْهَا: أَحذَرُ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْخِيَانَةِ فِي أَمَانَتِهِمْ؛ فَإِنَّ بَعْضَ الْأَوْلِيَاءِ يَتَحَكَّمُ فِي تَزْوِيجِ ابْنَتِهِ، أَوْ أُخْتِهِ، أَوْ مَنْ لَهُ وِلَايَةٌ عَلَيْهَا، حَتَّى لَا يُزَوِّجَهَا إِلَّا مَنْ أَعْطَاهُ أَكْثَرَ مِنَ الْمَالِ، وَلَا يَهْمُهُ أَنْ يَكُونَ صَالِحًا أَوْ غَيْرَ صَالِحٍ، وَلَا أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الْأَخْلَاقِ أَوْ سَيِّئَ الْأَخْلَاقِ، وَرُبَّمَا يَخْطُبُهَا مَنْ هُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي دِينِهِ، مُسْتَقِيمٌ فِي خُلُقِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُعْطِيهِ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ، فَيَمْنَعُ تَزْوِيجَهُ مَعَ رَغْبَةِ الْمَرْأَةِ فِيهِ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ.

وَفِي هَذِهِ الْحَالِ يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَطْلُبَ مِنَ الْوَلِيِّ الْآخِرِ الَّذِي يَلِيهِ أَنْ يُزَوِّجَهَا، فَمَثَلًا: إِذَا قَدَّرْنَا أَنَّ أَخَاهَا الشَّقِيقَ أَبِي أَنْ يُزَوِّجَهَا مَنْ خَطَبَهَا، وَهُوَ كُفٌّ مَرَضِيٌّ فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ، فَلْتَطْلُبْ مِنْ أَحِبِّهَا مَنْ أَبِيهَا أَنْ يُزَوِّجَهَا، فَإِنَّ أَبِي -كَمَا هِيَ عَادَةٌ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، تَأْخُذُهُمْ حِمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَا يَتَدَخَّلُونَ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ- فَإِنَّ لَهَا أَنْ تَتَّصِلَ بِالْحَاكِمِ -أَي: الْقَاضِي- وَتَطْلُبَ مِنْهُ ذَلِكَ، وَالْحَاكِمُ فِي هَذِهِ الْحَالِ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ فِي الْأَمْرِ، وَأَلَّا يُهَيِّمَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَدَاءَ الْأَمَانَةِ فِي هَذِهِ الْمَرْأَةِ.

وَمَا أَكْثَرَ النِّسَاءِ اللَّاتِي يَشْتَكِينَ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ، مِنْ عَضَلٍ أَوْ لِيَاثِنٍ أَنْ يُزَوِّجُوهُنَّ مَنْ يُرَضَى دِينُهُ وَخُلُقُهُ.

كما أَنَّ بعضَ الأولياءِ يَحُونُ الأمانةَ على العكسِ من ذلك، بِمَعْنَى: أَنَّهُ يُزَوِّجُ ابنتَهُ أو أُختَهُ أو مَنْ له ولايةٌ عليها، يُزَوِّجُهَا مَنْ لَا يُرْضَى دِينُهُ وَخُلُقُهُ؛ لِأَنَّهُ أَعْطَاهُ مَالًا أَكْثَرَ، وَلَا يُبَالِي بِالأمانةِ الَّتِي حُمِّلَهَا، وَهَذَا أَيْضًا لَا شَكَّ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

[الأنفال: ٢٧-٢٨].

فالحاصلُ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْوَلِيِّ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ فَيَمْنُ وَلَّاهُ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ، وَأَنْ يُزَوِّجَ الْخَاطِبَ إِذَا كَانَ كُفْرًا فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ، وَرَضِيَتْهُ الْمَرْأَةُ، وَأَلَّا يُزَوِّجَ الْخَاطِبَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَرْضِيًّا فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ.

ولكن إذا قال قائلٌ: لو أَنَّ الْمَرْأَةَ رَضِيَتْ بِذَلِكَ، أَي: بِمَنْ كَانَ غَيْرَ مَرْضِيٍّ فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ الْكُفْرِ، فَهَلْ يُزَوِّجُهَا؟

فَنَقُولُ: لَا يُزَوِّجُهَا حَتَّىٰ لَوْ رَضِيَتْ، حَتَّىٰ لَوْ أَلَحَّتْ فَلَا يُزَوِّجُهَا؛ لِأَنَّهُ وَإِنْ رَضِيَتْ الْآنَ، وَهُوَ سَيِّئُ الْخُلُقِ، وَسَيِّئُ الدِّينِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا تَحْصُلُ مَشَاكِلُ كَثِيرَةٌ تَتَعَبُ بِهَا هِيَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَيَتَعَبُ بِهَا أَيْضًا وَلِيُّهَا، وَرُبَّمَا لَا يَحْصُلُ الْفَكَاكُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ السَّيِّئِ الْخُلُقِ، أَوِ السَّيِّئِ الدِّينِ، إِلَّا بِبَذْلِ أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ تُرْهِقُهُمْ، وَيَذْهَبُونَ يَسْتَدِينُونَ مِنَ النَّاسِ.

فالمهمُّ: أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي وَلَّاهُ اللَّهُ عَلَى امْرَأَةٍ يَجِبُ أَنْ يُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ سَلْبًا وَإِيجَابًا، بِمَعْنَى: أَنْ يُزَوِّجَهَا مَنْ يُرْضَى دِينُهُ وَخُلُقُهُ، وَأَنْ يَمْنَعَهَا مِنَ التَّزْوِجِ بِمَنْ لَا يُرْضَى دِينُهُ وَلَا خُلُقُهُ، وَأَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ تَعَالَى فِي ذَلِكَ.

٩- أَنَّهُ لَوْ تَزَوَّجَتْ امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةً بِمُشْرِكٍ فَالنِّكَاحُ بَاطِلٌ؛ لَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾، وَإِنَّمَا كَانَ بَاطِلًا؛ لِأَنَّهُ وَقُوعٌ فِيهَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١).

فَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مُسْلِمَةً أُعْجِبَتْ بِرَجُلٍ كَافِرٍ، وَطَلَبَتْ التَّزْوِيجَ مِنْهُ، قُلْنَا: لَا نُزَوِّجُهَا مَعَهُمَا كَانَ الْأَمْرُ، حَتَّى لَوْ فُرِضَ أَنَّهَا هَدَدَتْ بِأَنْ تَقْتُلَ نَفْسَهَا، قُلْنَا: فَلْتَقْتُلْ نَفْسَهَا، وَمَوْعِدُهَا النَّارُ.

فَإِنْ قَالَتْ: إِنَّهَا سَتَكْفُرُ لِتَحِلَّ لِهَذَا الْمُشْرِكِ؟

قُلْنَا: إِذَا كَفَرَتْ فَقَدْ ارْتَدَّتْ، وَحِينَئِذٍ نَأْمُرُهَا أَنْ تَعُودَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ عَادَتْ وَإِلَّا قَتَلْنَاهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَهَلْ يَحُوزُ لِلْمَرْأَةِ الْمُؤْمِنَةِ أَنْ تَتَزَوَّجَ بِفَاسِقٍ؟

قُلْنَا: نَعَمْ، يَحُوزُ؛ لِأَنَّ الْفَاسِقَ مَعَهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ، إِلَّا فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ: إِذَا كَانَ فَسَقُهُ بِالزَّانَا، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ بِهِ حَتَّى يَتُوبَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

١٠- أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ خَيْرٌ مِنَ الْمُشْرِكِ وَلَوْ أَعْجَبَكَ، وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ نَقُولُ فِي مَسْأَلَةِ الْعَمَالَةِ: إِنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يَجْلِبَ لِلْعَمَلِ عِنْدَهُ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ مِنَ الْمُشْرِكِ وَلَوْ أَعْجَبَكَ الْمُشْرِكُ، نَعَمْ، لَوْ فُرِضَ أَنَّ رَجُلًا مُحْسِنًا يَقُولُ: أَنَا أَجْلِبُ عَامِلًا كَافِرًا لِلْخِدْمَةِ فِي الْبَيْتِ، أَوْ قِيَادَةَ السَّيَّارَةِ، وَأَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، لَعَلَّ اللَّهَ

يُهديه. فنقول: إذا عَلِمَ اللهُ تَعَالَى مِنْ نَبِيِّهِ أَنَّ هَذَا هُوَ الْغَرَضُ فَإِنَّهُ قَدْ يُعِينُهُ عَلَى ذَلِكَ، لَكِنْ إِذَا كَانَ لِمُجَرِّدِ الْعَمَلِ فنقول: اخْتَرِ الْمُسْلِمَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

١١ - أَنَّ الْكُفَّارَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ، سَوَاءَ كَانُوا يَدْعُونَ بِالْقَوْلِ، فَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْكُفْرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ دُعَاةُ النَّصَارَى الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ، أَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ الْفِعْلِ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا بَقِيَ عَلَى كُفْرِهِ فَقَدْ يَغْتَرُّ بِهِ السُّدُجُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ دِينِ الْكِتَابِيِّ، وَدِينِ الْمُسْلِمِينَ. وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ جِدًّا، فَمَنْ ادَّعَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ الْيَوْمَ عَلَى دِينٍ صَحِيحٍ مَرْضِيٍّ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وَلَا يَجُوزُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ نَعْتَقِدَ مُسَاوَاةَ الْمُسْلِمِ لِلْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ فِي الدِّينِ أَبَدًا، فَالْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ بَعْدَ أَنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ فَرْقٌ، إِلَّا فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ الَّتِي رَخَّصَ فِيهَا الشَّرْعُ، كَحِلِّ النِّسَاءِ، وَحِلِّ الْمُدْكِيِّ، وَأَخَذِ الْجِزْيَةِ، وَإِنْ كَانَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ أَنَّ أَخَذَ الْجِزْيَةِ جَائِزٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ.

فَعَلَى كُلِّ حَالٍ، أَهْمُ شَيْءٍ أَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّ الْأَدْيَانَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَّفَقَ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ دِينٌ كُفِرَ مَعَ دِينِ إِسْلَامٍ أَبَدًا، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، وَلَا شَكَّ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ الْحَقُّ، فَإِذَنْ مَا سِوَاهُ هُوَ الضَّلَالُ، وَلَا يَجُوزُ اعْتِقَادُ أَنَّهُ هُدًى بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

١٢ - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾

[يونس: ٢٥]، فاللهُ تعالى يَدْعُو العبادَ إلى ما فيه مَنفَعَتُهُم في الدُّنيا والآخرة، لا لِيَسْتَفِيعَ بهم هو؛ كما قال اللهُ تعالى في الحديثِ القُدسيِّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^(١).

فالطَّاعةُ -أعني: طاعةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ- هي مَصْلَحَةٌ للعبد، وَمَنفَعَةٌ له، وهي من نعمةِ اللهِ عليه، ولهذا قال: ﴿وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾.

١٣- إثباتُ الجَنَّةِ، وهي الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيائِهِ الْمُتَّقِينَ، وفيها من النِّعَمِ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، ولا يُمَكِّنُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَصَوَّرَ في الدُّنْيَا حَقِيقَةَ نعيمِ الآخرةِ أَبَدًا، وإن كان الإنسانُ يَعْرِفُ جَنَسَهُ، لكنَّهُ لا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْرِكَ حَقِيقَتَهُ، فقد قال اللهُ تَعَالَى: ﴿فِيهَا فَكَّهُةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، وهذا مَوْجُودٌ في الدُّنْيَا، لكنَّ حَقِيقَةَ ما في الآخرةِ لا تَتَّفِقُ مع حَقِيقَةِ ما في الدُّنْيَا أَبَدًا؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ولو كان ما في الآخرةِ حَقِيقَتُهُ كحَقِيقَةِ ما في الدُّنْيَا لَكُنَّا نَعْلَمُ ما أَخْفَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

١٤- أَلَّا يَعْتَمِدَ الإنسانُ على نَفْسِهِ في سُلُوكِ الطَّرِيقِ المُوَصِّلِ إلى الجَنَّةِ والمَغْفِرَةِ، بل يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللهِ، فيتَوَجَّهُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِسُؤَالِ الثَّبَاتِ والتَّوْفِيقِ لَطَّرِيقِ الجَنَّةِ والمَغْفِرَةِ.

١٥- أَنَّ اللهُ تَعَالَى يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ آيَاتِهِ، وَيُوضِّحُهَا؛ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُمُ التَّذَكُّرُ والِاتِّعَاطُ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

١٦- أَنَّهُ كُلَّمَا تَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ فِي آيَاتِ اللَّهِ -سواء أكانت شَرِيعَةً، أَمْ كَوْنِيَّةً قَدْرِيَّةً- فَإِنَّهُ يَزِدُّهُ تَذَكُّرًا وَاتِّعَازًا؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وَجُودًا وَعَدَمًا.

١٧- إِبْثَاتُ الْحِكْمَةِ فِي أَفْعَالِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فَإِنَّ «لَعَلَّ» هُنَا لِلتَّعْلِيلِ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٣٣﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾

هذا أيضًا من الأسئلة التي أوردتها الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وهو السُّؤال عن المَحِيضِ: ما شأنه؟ وما حكمه؟

والمراد به: الدَّم الخارج من الأنثى في أَيَّامِ مَعْلُومَةٍ، وهو من طَبِيعَةِ الْمَرْأَةِ وَجِبَلَتِهَا.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ يَعْنِي: هل يَمْنَعُ من مُحَاظَةِ الْمَرْأَةِ؟ هل يَمْنَعُ من جِمَاعِ الْمَرْأَةِ؟ هل يَمْنَعُ من الِاسْتِمْتَاعِ بِهَا؟ وما أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهَا، وَصَارَتْ مُنْفَرِدَةً وَخَدَهَا، لَا يَقْرَبُونَهَا، وَالنَّصَارَى -على ما قِيلَ- بِالْعَكْسِ، فَسَأَلَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْجَوَابِ: ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾، يَعْنِي: أَنَّ الدَّمَ أَذَى، أَذَى بِالنِّسْبَةِ

للزَّوْجِ، وبالنَّسْبَةِ لِلزَّوْجَةِ أَيضًا، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَرْأَةَ يَلْحَقُهَا عِنْدَ الْحَيْضِ مَا يَلْحَقُهَا مِنَ الْأَذَى، مِنَ الْأَوْجَاعِ وَالتَّنَنِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ لِلنِّسَاءِ.

﴿فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ: فِي الْحَيْضِ. وَأَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ: فِي مَكَانِ الْحَيْضِ. وَالآيَةُ إِذَا احْتَمَلَتْ مَعْنَيْنِ عَلَى السَّوَاءِ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا.

وعلى هذا فنقول: اعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي مَكَانِ الْحَيْضِ، فِي زَمَنِ الْحَيْضِ. وَسَيَأْتِي -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- بَيَانُ ذَلِكَ فِي الْفَوَائِدِ.

﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ يَعْنِي: لَا تَقْرَبُوا النِّسَاءَ، أَي: بِالْجَمَاعِ ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أَي: مِنَ الْحَيْضِ.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أَي: اغْتَسَلْنَ، وَتَأَمَّلِ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ، فِي الْأُولَى: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾، وَفِي الثَّانِيَةِ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، فَالْأُولَى وَصْفٌ، وَالثَّانِيَةُ فِعْلٌ، وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: «فَإِذَا طَهَّرْنَ»، بَلْ قَالَ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾.

وُفِّرَ التَّطَهُّرُ هُنَا بِأَنَّهُ الْغُسْلُ، وَهُوَ -حَقِيقَةً- الْغُسْلُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يَعْنِي: اتَّوَهُنَّ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَأْتُوهُنَّ فِيهِ؛ لِأَنَّ ﴿حَيْثُ﴾ ظَرْفُ مَكَانٍ، فَمَا هُوَ الْمَكَانُ؟ فُسِّرَ بِالْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أَي: الرَّجَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ إِلَى طَاعَتِهِ ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أَي: الْمُتَزَهِّينَ بِالطَّهْرِ مِنَ الْأَذَى وَالْأَحْدَاثِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَسَاؤُكُمْ﴾ يَعْنِي: زَوْجَاتِكُمْ ﴿حَرِّ لَكُمْ﴾ أَي: بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ الَّتِي تَحْرُثُونَهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَحْمِلَ الزُّرُوعَ وَالْأَشْجَارَ، وَتَنْتَفِعُوا بِحِمْلِهَا ﴿فَأَتُوا حَرِّكُمْ﴾ أَي: مَكَانَ الْحَرِّ، وَهُوَ الْفَرْجُ ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَتُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أَي: نَأْتِيهِنَّ مِنْ جِهَةِ الْحَرِّ، وَهُوَ الْفَرْجُ، أَي: الْقُبْلُ.

﴿وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أَي: قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ خَيْرًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

وَمِنْ ذَلِكَ -أَي: مِنَ التَّقْدِيمِ لِلنَّفْسِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ- أَنْ يَحْرِصَ الْإِنْسَانُ عَلَى الْجَمَاعِ بِإِنْزَالٍ؛ حَتَّى يُقَدِّمَ لِنَفْسِهِ الْوَلَدَ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي: الزَّمُوا تَقْوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَذَلِكَ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾ أَي: اْعْلَمُوا عِلْمَ يَقِينٍ وَثَبَاتٍ أَنَّكُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَوْفَ يُلَاقِي الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَعْتَرِفُ الْعَبْدُ بِذَلِكَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لَمَّا قَالَ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾ أَعْطَى الْمُؤْمِنَ بَشَارَةً، وَأَنَّهُ فِي هَذِهِ الْمُلَاقَاةِ سَوْفَ يَجِدُ مَا يُسِّرُهُ، جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ.

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١- حِرْصُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى السُّؤَالِ فِيمَا يَغْنِيهِمْ وَيُهِمُّهُمْ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسْأَلُونَا عَنْ الْمَحِيضِ﴾.

٢- أَنَّ الْحَيْضَ أَذَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾، وَهَلْ هُوَ أَذَى لِلزَّوْجِ، أَوِ لِلزَّوْجَةِ؟

نقول: هو أذى للزوجة أولاً، ثم للزوج إن جامع في حال الحيض ثانياً.

٣- وجوب اعتزال النساء في الحيض، أي: في مكان الحيض في زمن الحيض؛ لقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾.

٤- جواز استمتاع الرجل بزوجه الحائض على كل وجه، إلا الوطء في الفرج، ولهذا قال النبي ﷺ: «اضنعوا كل شيء إلا النكاح»^(١)، وكان يأمر عائشة رضي الله عنها أن تتزر، فيباشرها، وهي حائض^(٢).

وعلى هذا، فيجوز للرجل أن يستمتع بزوجه وهي حائض بالتقبيل، والضم، والجماع بين الفخذين، وغير ذلك مما أباح الله له، فإنه لا يحرم إلا الجماع.

٥- ألا يجمع حتى تطهر، فإذا طهرت بقي شيء آخر، وهو: الاغتسال.

أما كونه لا يجمعها حتى تطهر فهذا أمر واضح؛ لأن الدماء يسيل ويجري، فلا يمكن للإنسان أن يجمع في هذه الحال؛ لما يلحقه هو والمرأة من الأذى والضرر.

وأما بعد الطهر وقبل الطهارة فلأن آثار الدماء باقية، فلا بد أن يحصل تلوين، ولا بد أن يرى الإنسان ما تشمئز منه نفسه من آثار الدماء، وهذا قد يؤلّد في قلبه كراهية للمرأة، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يأمر أهله أن تتزر، حتى لا يرى منها ما يكره.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها، رقم (٣٠٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب مباشرة الحائض، رقم (٣٠٢)، ومسلم: كتاب الحيض، باب مباشرة الحائض فوق الإزار، رقم (٢٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

٦- أَنَّ الْمَرْأَةَ لَوْ اسْتَحِيضَتْ - وَالِاسْتِحَاضَةُ هِيَ: اسْتِمْرَارُ الدَّمِ مَعَهَا - فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَزَوْجِهَا أَنْ يُجَامِعَهَا وَلَوْ كَانَ مَعَهَا الدَّمُ، لَكِنْ فِي غَيْرِ مُدَّةِ الْحَيْضِ، أَمَّا فِي مُدَّةِ الْحَيْضِ فَإِنَّهُ لَا يُجَامِعُهَا، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْتَحَاضَةَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى عَادَتِهَا، ثُمَّ تَغْتَسِلَ، وَتُصَلِّيَ^(١).

٧- لُطِفَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعِبَادِهِ؛ حَيْثُ حَرَّمَ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يُجَامِعَ زَوْجَتَهُ فِي حَالِ الْحَيْضِ، وَأَبَاحَ لَهُ أَنْ يَأْتِيَهَا بَعْدَ التَّطَهُّرِ.

٨- إِبْثَاتُ مَحَبَّةِ اللَّهِ، أَي: أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ، وَمَحَبَّةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِئَتِهِ الثَّابِتَةِ لِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلْمَحَبَّةِ.

وَقَدْ وَرَدَتِ الْمَحَبَّةُ خَاصَّةً بِالشَّخْصِ بَعِيْنِهِ، وَعَامَّةً، فَمِنْ تَخْصِيصِهَا بِالشَّخْصِ بَعِيْنِهِ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا؛ كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(٢)، وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، فَأَعْطَاهَا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب غسل الدم، رقم (٢٢٨)، ومسلم: كتاب الحيض، باب المستحاضة، رقم (٣٣٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المسجد على القبور، رقم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل من أسلم على يديه رجل، رقم (٣٠٠٩)، وفي كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي، رقم (٣٧٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي، رقم (٢٤٠٦) (٢٤٠٧) من حديث سهل بن سعد وسلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أَمَّا الْمَحَبَّةُ الْعَامَّةُ فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، و﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، و﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وما أشبه ذلك.

وأهل السُّنَّةِ والجماعة يقولون: إِنَّ حُبَّ اللَّهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِإِرَادَتِهِ، حَيْثُ كَانَ الشَّخْصُ مِنْ أَحْبَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

٩- أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَطَأَ زَوْجَتَهُ فِي الدُّبْرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَمَرَنَا أَنْ نَأْتِيَ الْحَرْثَ، وَالدُّبْرُ لَيْسَ مَوْضِعًا لِلْحَرْثِ، وَوَطْءُ الْمَرْأَةِ فِي دُبْرِهَا قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّهُ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا عُرِفَ بِمُحَارَسَتِهِ ذَلِكَ، وَلَمْ يَتُبْ، وَجَبَ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ؛ لِأَنَّهُ فَعَلَ بِهَا مَا لَا يَجُوزُ.

وَلَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُمَكِّنَ زَوْجَهَا مِنْ وَطْئِهَا فِي دُبْرِهَا؛ لِأَنَّهَا إِنْ فَعَلَتْ ذَلِكَ فَقَدْ أَعَانَتْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالنَّفَقَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

١٠- حُبُّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لِلتَّوَّابِينَ، وَالتَّوْبَةُ هِيَ: الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ مِنْ مَعْصِيَتِهِ إِلَى طَاعَتِهِ، وَلَهَا شُرُوطٌ خَمْسَةٌ:

الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ خَالِصَةً لِلَّهِ تَعَالَى، بَالًا يُرِيدَ الْإِنْسَانُ بِتَوْبَتِهِ التَّرَلُّفَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ، أَوْ أَنْ يَنَالَ بِذَلِكَ رُتْبَةً أَوْ مَرْتَبَةً دُنْيَوِيَّةً؛ لِأَنَّ الْإِخْلَاصَ فَوَائِهِ يُبْطِلُ الْعَمَلَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١).

الشَّرْطُ الثَّانِي لِلتَّوْبَةِ: النَّدَمُ عَلَى مَا فَعَلَ، بَحِثْ يَتَأَثَّرُ الْإِنْسَانُ نَفْسِيًّا بِمَا جَرَى مِنْهُ مِنَ الذَّنْبِ.

الشَّرْطُ الثَّلَاثُ: الْإِقْلَاعُ عَنِ الذَّنْبِ فِي الْحَالِ، فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ بَتَرِكٍ وَاجِبٍ أَتَى بِالْوَاجِبِ، وَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ بِفِعْلِ مُحَرَّمٍ أَقْلَعَ عَنِ الْمُحَرَّمِ.

وَمِنَ الْإِقْلَاعِ: أَنَّهُ إِذَا كَانَ الذَّنْبُ مُتَعَلِّقًا بِالْمَخْلُوقِ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَحِلَّهُ، وَيَتَخَلَّصَ مِنْهُ، فَإِنْ كَانَ مَا لَا دَفْعَهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ عِرْضًا اسْتَسَمَحَهُ مِنْهُ، حَتَّى تَتَحَقَّقَ التَّوْبَةُ.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: الْعَزْمُ عَلَى أَلَّا يَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ تَابَ، وَمِنْ نِيَّتِهِ أَنْ يَعُودَ عِنْدَ وُجُودِ الْفُرْصَةِ، لَمْ يَكُنْ تَائِبًا حَقًّا.

الشَّرْطُ الْخَامِسُ: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ تُقْبَلُ فِيهِ التَّوْبَةُ، بَأَنْ يَكُونَ قَبْلَ حُضُورِ الْأَجَلِ، وَقَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا.

فَإِنْ كَانَ بَعْدَ حُضُورِ الْأَجَلِ فَإِنَّ التَّوْبَةَ لَا تُقْبَلُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ [النساء: ١٨]، وَلَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْبَلْ تَوْبَةَ فِرْعَوْنَ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ، فَقَالَ: ﴿ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ بُنَا إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فَقِيلَ لَهُ: ﴿ءَاْلَفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

وَأَمَّا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى

تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

ويؤيد ذلك: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فقد فسر النبي ﷺ ذلك بطلوع الشمس من مغربها^(٢).

وقوله: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ يعني: المتطهرين من الأخْبَاثِ، وهي: النجاساتُ، وكذلك المتطهرون من الأحداثِ، من حَدَثٍ أَصْغَرَ أو جَنَابَةٍ، فجمَعَ اللهُ تعالى هنا بين الطَّهَّارة من الذُّنُوبِ بالتَّوْبَةِ، والطَّهَّارة من الأَنْجَاسِ والأَحْدَاثِ بالتَّطَهُّرِ.

١١ - أن النساء حُرْتُ للرجال؛ لأنَّ إِيْدَاعَ النُّطْفَةِ فِي الرَّحِمِ كإِيْدَاعِ الحَبَّةِ فِي الأَرْضِ؛ لقوله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾.

١٢ - أن محلَّ الجماع هو الفَرْجُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ إِيْقَاءُ النُّطْفَةِ، حَتَّى تَنْشَأَ جَنِينًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

١٣ - أنه يجوز للإنسان أن يُجَامِعَ زَوْجَتَهُ فِي فَرْجِهَا مِنْ أَيِّ جِهَةٍ أَتَاهَا؛ لقوله: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

١٤ - أنه ينبغي للإنسان أن يَجْعَلَ مِنْ نِيَّتِهِ فِي جِمَاعِهِ أَنْ يُقَدِّمَ لِنَفْسِهِ نَسْلًا وَذُرِّيَّةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَوَّأَ لِنَفْسِكُمْ﴾.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟ رقم (٢٤٧٩)، وأحمد (٩٩/٤) من حديث معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا﴾، رقم (٤٦٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يُقْبَلُ فِيهِ الإِيْمَانُ، رقم (١٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

١٥- وَجُوبُ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وقد سَبَقَ الأمرُ بالتَّقْوَى في كتابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ مرارًا كثيرةً؛ لأنَّ التَّقْوَى هي: فِعْلُ ما يَقي من عذابِ اللَّهِ، بالقيام بطاعته، واجْتِنَابِ نواهيه.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنا وإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ، وَأَنْ يَحْفَظَنا في دِينِنا ودُنْيانا؛ إِنَّه على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤)

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ قِيلَ فِيهِ قَوْلَانِ:

الْأَوَّلُ: لَا تُكْثِرُوا الْإِيْمَانَ بِهِ؛ لِأَجْلِ أَنْ تُكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

وَالثَّانِي: لَا تَجْعَلُوا الْيَمِينَ حَاجِزًا يَمْنَعُ عَنِ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَالْإِصْلَاحِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ الْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ مِنَ الْبِرِّ، وَالتَّصْصِصُ عَلَيْهِ بَعْدَ التَّعْمِيمِ يُدُلُّ عَلَى الْإِهْتِمَامِ بِهِ، وَالْعِنَايَةِ بِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُهْمَّةِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ رَأْبِ الصَّدْعِ، وَلَمْ الشَّعْثِ، وَجَمْعِ الشَّمْلِ، وَهَذَا خِلَافُ مَنْ فَعَلَ مَا يُوجِبُ الْقَطِيعَةَ بَيْنَ النَّاسِ، مِثْلَ النَّمِيمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ

قَتَاتٌ^(١)، وهو النَّمَامُ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

- ١- النَّهْيُ عَنْ كَثْرَةِ الْإِيْمَانِ، وهذا على القولِ الأوَّلِ في تفسيرِ الآية.
- ٢- وَجُوبُ تَعْظِيمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ وهذا على القولِ الأوَّلِ في تفسيرِ الآية.
- ٣- أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، ورأى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَإِنَّهُ يَفْعَلُ الْخَيْرَ، وَيُكْفِرُ عَنِ الْيَمِينِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾.
- ٤- الْحَثُّ عَلَى الْبِرِّ.
- ٥- الْحَثُّ عَلَى التَّقْوَى، وعلى الإِصْلَاحِ.
- ٦- إِبْثَابُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وهُمَا: (السَّمِيعُ) و(الْعَلِيمُ)، وما تَضَمَّنَاهُ مِنْ صِفَةٍ، وما تَضَمَّنَاهُ مِنْ حِكْمٍ وَأَثَرٍ.
- ٧- تَحْذِيرُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمُخَالَفَةِ، وَوَجْهُهُ: أَنَّهُ إِذَا كَانَ سَمِيعًا عَلِيمًا فَإِيَّاكَ أَنْ تُخَالَفَ مَا أَمَرَكَ بِهِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، رقم (٦٠٥٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم النميمة، رقم (١٠٥) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ

حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿يُؤَاخِذُكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:

أحدهما: المؤاخضة بمعنى: العقوبة.

والثاني: المؤاخضة بمعنى: الإلزام بالكفارة. وكلاهما صحيح.

وقوله: ﴿بِاللَّغْوِ﴾ المراد به هنا: ما لم يقصده الإنسان في قلبه، والدليل على ذلك: آية المائدة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

ومثاله: قول الإنسان: «لا والله» «بلى والله» في عرض حديثه، فإذا لم يقصد الإنسان اليمين فلا كفارة عليه للآية الكريمة، ولقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(١).

وأما إذا حلف على نفسه لقصد إلزام نفسه، مثل: أن يقول: والله لأفعلن غداً كذا. ثم لا يفعل، فهنا عليه الكفارة إذا تمت الشروط.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ هذه قاعدة عامة، وليست في الأيمان فقط، فكل ما كسبت القلوب فإننا مؤاخذون به.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، رقم (١٩٠٧) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْكَسْبَ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ عَمَلٍ، فَلَيْسَ مُجَرَّدُ مَا يَقَعُ فِي الْقَلْبِ يَكُونُ مُؤَاخَذًا بِهِ حَتَّى يَكُونَ هُنَاكَ عَمَلٌ، وَحَرَكَةٌ لِلْقَلْبِ، وَمَيْلٌ، وَإِرَادَةٌ.

وَبِمَ يُؤَاخِذُنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

الْجَوَابُ: بِالْعُقُوبَةِ وَالْكَفَّارَةِ إِذَا كَانَتِ الْيَمِينُ تَقْتَضِي الْعُقُوبَةَ.

وَحَتَمَ اللَّهُ الْآيَةَ بِهَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ: «الْغَفُورُ» و«الْحَلِيمُ»؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لِمَغْفِرَتِهِ وَحِلْمِهِ لَمْ يُؤَاخِذْنَا بِاللَّغْوِ فِي الْإِيمَانِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَنَّا.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١ - نَفْيُ مُؤَاخَذَةِ الْإِنْسَانِ بِاللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ.

٢ - أَنَّ الْمَدَارَ عَلَى الْقُلُوبِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

٣ - أَنَّ الْحَلْفَ عَلَى مَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ غَيْرُ مُؤَاخَذٍ بِهِ، وَلَوْ تَبَيَّنَ خِلَافُهُ.

٤ - إِبْثَاتُ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَمَا تَضَمَّنَاهُ مِنْ وَصْفٍ، وَهُمَا: «الْغَفُورُ» و«الْحَلِيمُ».

٥ - أَنَّ لِلْقَلْبِ كَسْبًا وَعَمَلًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، وَالْقُلُوبُ لَهَا أَعْمَالٌ، وَلَهَا أَقْوَالٌ، فَأَقْوَالُ الْقَلْبِ: إِقْرَارُهُ، وَاعْتِرَافُهُ. وَأَفْعَالُ الْقَلْبِ: حَرَكَاتُهُ، مِنَ الْمَحَبَّةِ، وَالْإِرَادَةِ، وَالْخَوْفِ، وَالْحَشْيَةِ، وَمَا أَشَبَّهَهَا.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢٦)

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي: للأزواج الذين يؤلون من نِسَائِهِمْ، أي: يحلفون على ألا يجامعوا نِسَاءَهُمْ ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: انتظار أربعة أَشْهُرٍ ﴿إِنْ فَاءُوا﴾ ورجعوا إلى مُعَاشَرَةِ الزَّوْجَاتِ على الْوَجْهِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: يَغْفِرُ لَهُمْ تلك الْيَمِينَ الَّتِي آلَوْهَا أَلَّا يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - حِمَاةُ حُقُوقِ الزَّوْجَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِأَزْوَاجِهِمْ، وذلك أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يُعَاشِرَ زَوْجَتَهُ بِالْمَعْرُوفِ، كما أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمَرْأَةِ أَيْضًا أَنْ تُعَاشِرَ زَوْجَهَا بِالْمَعْرُوفِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

ولا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ وَلَا لِلْمَرْأَةِ أَنْ يُخِلَّ بِهَذَا الْوَاجِبِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ.

فمن حِمَاةِ حُقُوقِ الْمَرْأَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلزَّوْجِ: أَنَّ مِنَ الْأَزْوَاجِ مَنْ يَحْلِفُ أَلَّا يُجَامِعَ زَوْجَتَهُ لِمُدَّةِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، أَوْ أَكْثَرَ، أَوْ أَقَلَّ، فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَإِذَا آلَى الْإِنْسَانُ مِنْ زَوْجَتِهِ أَقَلَّ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَهَذَا أَمْرٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، لَكِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ سَبَبٌ شَرْعِيٌّ يُوجِبُ أَنْ يُؤْلِيَ بِالْأَلَّا يُجَامِعَهَا، مِثْلُ: أَنْ تُسَيِّءَ عِشْرَتُهُ، فَيُرِيدَ أَنْ يُؤَدِّبَهَا، فَيَحْلِفَ أَلَّا يُجَامِعَهَا لِمُدَّةِ شَهْرَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةِ، أَوْ أَذْنَى مِنْ أَرْبَعَةٍ.

وَأَمَّا مَا زَادَ عَنِ الْأَرْبَعَةِ فَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ الْأَرْبَعَةَ أَجَلًا لِاخْتِيَارِ الرَّجُلِ، فَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَإِمَّا أَنْ يُطَلِّقَ.

فِيُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّهُ لَا يُجْبَرُ الْمَرْءُ عَلَى جِمَاعِ زَوْجَتِهِ إِذَا آلَى
أَلَّا يُجَامِعَ، إِلَّا إِذَا مَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ.

٢- كَرَاهَةُ الْإِيْلَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلزَّوْجِ أَنْ يُؤْلِيَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ قَاءُوا
فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾، وَالْإِشَارَةُ بِذِكْرِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا فَعَلُوهُ فَهُوَ
مُسْتَحَقٌّ لِعُقُوبَةٍ فَاعِلِهِ، فِيهِ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْإِيْلَاءَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ مُحَرَّمٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ
اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يَجُوزُ لِلزَّوْجِ أَنْ يَدَعَ جِمَاعَ زَوْجَتِهِ لِمُدَّةٍ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ وَتِسْعَةٍ
وَعِشْرِينَ يَوْمًا مَثَلًا، أَيْ: لِأَقَلِّ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ؟

قُلْنَا: لَا يَحِلُّ لَهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]،
وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمَعْرُوفِ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ شَقِيقَةُ الرَّجُلِ فِي إِرَادَةِ النِّكَاحِ، فَإِذَا كَانَ هُوَ
لَا يَرْضَى أَنْ تَمْتَنِعَ عَنْهُ زَوْجَتُهُ لِهَذِهِ الْمُدَّةِ فَكَيْفَ يَرْضَى أَنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنْهَا لِهَذِهِ
الْمُدَّةِ؟! فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُعَاشِرَ بِالْمَعْرُوفِ.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ لَهُ أَنْ يَدَعَ الْجِمَاعَ لِأَقَلِّ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ. قَوْلٌ
ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا جَعَلَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ لِلرَّجُلِ الَّذِي آلَى وَحَلَفَ، وَأَمَّا رَجُلٌ
لَيْسَ عِنْدَهُ حَلْفٌ فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَاشِرَ بِالْمَعْرُوفِ.

٣- حِكْمَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ضَرْبِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ؛ لِأَنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ هِيَ ثُلُثُ الْعَامِ،
وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْثُلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ»^(١).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْوَصَايَا، بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالثُّلُثِ، رَقْمُ (٢٧٤٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ
الْوَصَايَا، بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالثُّلُثِ، رَقْمُ (١٦٢٨) مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤ - إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: «الغفور» و«الرحيم»، فالغفور يدلُّ على المغفرة، والرحيم يدلُّ على الرحمة، وذلك أنَّ الإنسان محتاجٌ إلى الأمرين جميعاً، أي: إلى المغفرة والرحمة، فبالمغفرة تزول عنه آثار الذنوب والمعاصي، وبالرحمة يحصل له المطلوب والثواب بفعل الطاعات.



ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ:

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٧)

قوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ أي: بعد مُضي أربعة أشهر، إن عزموا أن يطلقوا فلهم ذلك، لكن ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يدلُّ على كراهة الطلاق.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - كراهة الطلاق، ولهذا قال أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّ الطَّلَاقَ يَنْقَسِمُ إلى أقسام، والأصل فيه الكراهة.

أولاً: يُباح للحاجة إذا كان لا يُمكن أن يَبْقَى -أي: الزوجان- على حالٍ مَرَضِيَةٍ. ثانياً: يُستحبُّ إذا طَلَبَتِ المرأةُ ذلك؛ لَسَبَبٍ شرعيٍّ، كَأَلَّا تَسْتَطِيعَ مُعَاشَرَةَ الزَّوْجِ، فَتَطْلُبَ الطَّلَاقَ، فَيُستحبُّ له أن يُجِيبَهَا.

ثالثاً: يحرمُ الطَّلَاقُ في حالِ الحيض، وفي حالِ الطُّهْرِ الَّذِي وَطَّئَهَا فِيهِ.

رابعاً: يجبُ الطَّلَاقُ في الإيلاء، إذا مَضَتْ أربعة أشهرٍ وَعَشْرَةُ أَيَّامٍ فَإِنَّهُ يُجْبَرُ على أحدِ أمرين: إمَّا أن يَعُودَ إلى أَهْلِهِ، ويُجَامِعَ، وَيُعَاشَرَ بالمعروف، وإمَّا أن يُطَلَّقَ.

وإِنِّي - بهذه المناسبة - أودُّ أن أُحذِّرَ إِخْوَانِي الْقُرَّاءَ مِنَ التَّسْرِعِ فِي الطَّلَاقِ، فَإِنَّ بَعْضَهُمْ - هَدَانَا اللَّهُ وَإِيَّاهُمْ - يُطَلِّقُ عَلَى أَدْنَى سَبَبٍ، رُبَّمَا لَوْ يَأْتِي إِلَى الْبَيْتِ، وَقَدْ قَالَ لِأَهْلِهِ: اطْبُخُوا لِي غَدَائِي. أَوْ: أَصْلِحُوا الشَّيْءَ. فَيَرْجِعُ، وَيَجِدُهُ لَمْ يَتَمَّ بَعْدُ، يُطَلِّقُ فِي الْحَالِ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ السَّفَهَةِ، وَمِنْ مُجَانِبَةِ الْحِكْمَةِ.

وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَنْدَمُونَ إِذَا طَلَّقُوا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ إِلَى كُلِّ عَالِمٍ، يَقْرَعُونَ عَلَيْهِ بَابَهُ، لَعَلَّهُ يَجِدُ لَهُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، فَالطَّلَاقُ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْهَيِّنِ، وَالْحَصُولُ عَلَى امْرَأَةٍ فِي زَمَانِنَا هَذَا لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْهَيِّنِ، فَكَيْفَ تَهُونُ الْمَرْأَةُ عِنْدَ زَوْجِهَا إِلَى هَذَا الْحَدِّ؟! فَلْيَحْذَرِ هَؤُلَاءِ مِنَ التَّسْرِعِ فِي الطَّلَاقِ.

٢- إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: (السَّمِيعُ) و(الْعَلِيمُ)، والعليمُ أعمُّ؛ لأنَّ الْعِلْمَ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالسَّمْعَ يَتَعَلَّقُ بِالْأَشْيَاءِ الْمَسْمُوعَةِ.

٣- التحذير من مخالفة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بالقول، أو بالفعل، أو بهما جميعاً، بل وبالنية أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

واعلم أن السَّمْعَ المضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

القِسْمُ الْأَوَّلُ: بِمَعْنَى الاسْتِجَابَةِ، مِثْلُ: قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وَقَوْلِ الْمُصَلِّي: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، أَيْ: اسْتِجَابَ.

الثَّانِي: بِمَعْنَى إِدْرَاكِ الْمَسْمُوعِ، مِثْلُ: قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

وَكِلَاهُمَا حَقٌّ ثَابِتٌ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَرْبِضُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣٨﴾﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ﴾ لَفْظٌ عَامٌّ، يَشْمَلُ أَيَّ مُطَلَّقةٍ ﴿يَرْبِضُ﴾ أي: يَنْتَظِرُنَ ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي: ثَلَاثَ حَيْضٍ، يَعْنِي: إِذَا طُلِّقَتِ الْمَرْأَةُ فَإِنَّهَا تَنْتَظِرُ، وَتَحْبِسُ نَفْسَهَا عَنِ النِّكَاحِ حَتَّى تَحِيضَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِذَا حَاضَتْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ انْقَضَتِ الْعِدَّةُ.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يَعْنِي: أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ، إِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ حَامِلًا، وَلَمْ يَتَبَيَّنْ حَمْلُهَا، فَإِنَّهَا قَدْ تُخْفِي مَا فِي رَحِمِهَا لَغَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَذَّرَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ فَإِنَّ مَنْ آمَنَتْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَكْتُمَ مَا فِي رَحِمِهَا لِأَيِّ غَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبُعُولَهُنَّ﴾ أي: أَزْوَاجُهُنَّ ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أي: إِلَى النِّكَاحِ، أي: أَنَّ الزَّوْجَ أَحَقُّ بِرَجْعَتِهَا مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: إِنْ أَرَادَ الْأَزْوَاجُ إِصْلَاحًا، وَذَلِكَ بِالتَّيَامِ النِّكَاحِ، وَرُجُوعِهَا إِلَى حَظِيرَةِ الزَّوْجِيَّةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: لِلنِّسَاءِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ، وَذَلِكَ بِالْمُعَاشَرَةِ الْحَسَنَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْأُلْفَةِ، وَالْمَحَبَّةِ،

والاجْتِنَاعَ، ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ»^(١)، والودود: التي تتحبُّ إلى زوجها، فيحبُّها.

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما يتعارفه النَّاسُ بينهم، وهذا يختلف باختلاف الأزمان والأماكن.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: للرجال عليهنَّ فضلٌ، وذلك لأنَّ الرَّجُلَ هو القائمُ على المرأة؛ كما قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو عِزَّةٍ وَحِكْمَةٍ بالغِةٍ.

في هذه الآيةِ الكريمةِ من الفوائدِ والأحكامِ ما يلي:

١ - أنَّ الْمُطَلَّقةَ يَحِبُّ عليها أن تعتدَّ بثلاثِ حِيضٍ كاملةٍ بعدَ الطَّلَاقِ، وليس العِبرةُ بالأشهرِ، كما يظنُّه كثيرٌ من العامة؛ لأنَّ المرأةَ قد تحيضُ في شهرينِ مرةً واحدةً، فتستغرقُ ستَّةَ أشهرٍ، وقد تحيضُ في الشهرِ والنِّصفِ مرَّتينِ، فلا تُتِمُّ ثلاثةَ أشهرٍ، فالعِبرةُ بالحِيضِ، إذا حاضتْ بعدَ الطَّلَاقِ ثلاثَ مرَّاتٍ انتهتِ العِدَّةُ.

ويُسْتَشْنَى من ذلك: المرأةُ الْمُطَلَّقةُ قبلَ الدُّخُولِ والحُلُوةِ، فإنَّه ليس عليها عِدَّةٌ؛ لقولِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، رقم (٢٠٥٠)، والنسائي: كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، رقم (٣٢٢٩) من حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الإمام أحمد (١٥٨/٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَنْ تَمْسُوهُمْ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾
[الأحزاب: ٤٩].

وَيُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ: الْمُطَلَّقةُ طَلَاقًا بَائِنًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهَا إِلَّا حَيْضَةٌ وَاحِدَةٌ، قَالَ ذَلِكَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مُسْتَدِلًّا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، فَإِنَّ الْمُطَلَّقةَ ثَلَاثًا لَا يُمَكِّنُ لِبُعْلِهَا أَنْ يُرَاجِعَهَا، وَلَكِنْ جُمُهورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا طُلِّقَتْ فَعَلَيْهَا أَنْ تَعْتَدَّ ثَلَاثَ حِيضٍ، سِوَا مَا كَانَتْ مُطَلَّقةً طَلَاقًا بَائِنًا، أَوْ طَلَاقًا رَجْعِيًّا.

٢- تحذيرُ المرأةِ الَّتِي وَجَبَتْ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ مِنْ أَنْ تَكْتُمَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي رَحِمِهَا، أَيْ: أَنْ تَكْتُمَ خَبَرَ الْجَنِينِ الَّذِي فِي بَطْنِهَا؛ لِأَنَّهَا رُبَّمَا تَكْتُمُهُ إِمَّا لِتَطْوِيلِ الْعِدَّةِ، أَوْ لِتَقْصِيرِهَا، فَإِنْ كَانَ الْبَاقِي مِنْ حَمْلِهَا أَكْثَرَ مِنْ مُدَّةِ الْحَيْضِ الثَّلَاثِ فَإِنَّهَا رُبَّمَا تَكْتُمُهُ مِنْ أَجْلِ الْإِسْرَاعِ فِي انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ، أَوْ لِسَبَبٍ آخَرَ.

٣- أَنَّ الْمَرْأَةَ يُرْجَعُ إِلَيْهَا فِي عِدَّتِهَا، فَإِذَا ادَّعَتْ أَنَّهَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فِي زَمَنِ يُمَكِّنُ أَنْ تَنْقُضِيَ فِيهِ فَإِنَّ الْقَوْلَ قَوْلُهَا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾، لَكِنْ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ مُمَكِّنٍ، فَإِنْ كَانَ فِي زَمَنِ لَا يُمَكِّنُ فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ قَوْلُهَا.

٤- إِبْطَاتُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَجِنَّةِ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾.

٥- إِبْطَاتُ الْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وَالْيَوْمُ الْآخِرُ هُوَ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَسُمِّيَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّهُ آخِرُ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ

أربعُ مراحل:

المرحلة الأولى: في بطن أمه.

والمرحلة الثانية: في الدنيا بعد خروجه.

والمرحلة الثالثة: في القبر.

والمرحلة الرابعة والأخيرة: في يوم القيامة.

٦- تحذير المرأة التحذير البالغ من كتم ما خلق الله في رَحِمِها، وأن كتمها فيه إخلالٌ بالإيمان بالله واليوم الآخر.

٧- أن الزوج أحقُّ بزواجه في إرجاعها في العدة إلا البائن، كما سبق.

٨- أن الزوج المطلق هو زوج ما دامت امرأته في العدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، ولهذا قال أهل العلم: إن الرجعية في حكم الزوجات، إلا فيما يتعلق بالمعاشرة على الفراش.

ولهذا يجوز للمرأة المطلقة طلاقاً رجعياً أن تبيت عند زوجها وحدها، ويجوز لها أن تكشف وجهها، ويجوز أن تتزين، وتطيب، وتعمل كل ما تفعله النساء اللاتي لم يطلقن.

٩- الإشارة إلى أنه يجب على الزوج أن يكون مُريداً للإصلاح حين مُراجعتها زوجته المطلقة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾.

فأما إن أراد الإضرار فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِّعَعْدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١].

ولكن إذا أراد الزوج الإضرار بمراجعة الزوجة في عدتها فهل تصح هذه الرجعة، أو لا تصح؟

الجواب: ظاهر هذه الآية الكريمة أنه ليس له الحق فيما بينه وبين الله؛ لأنه اشترط في كونه أحق من غيره أن يريد الإصلاح، فإن أراد الإضرار فإنه وإن راجع، وحكمنا له بصحة المراجعة ظاهراً، فإن هذه المراجعة - عند الله تعالى - لا تفيده شيئاً؛ لأن الله اشترط لهذا الحكم أن يكون الزوج مُريداً للإصلاح.

وما أكثر الذين يُطلقون ويُراجعون بقصد الإضرار بالزوجات، وهذا حرامٌ عليهم، بل الواجب أن يريدوا الإصلاح، وألا يريدوا الضرر.

١٠ - أن المرأة المطلقة طلاقاً رجعيّاً لا يحل لها أن تتزوج في أثناء العدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، فإن فعلت فإن النكاح باطل بإجماع العلماء؛ لأنها - أي: المطلقة طلاقاً رجعيّاً - في حكم الزوجة.

١١ - أن النساء لهنّ مثل الذي عليهنّ، فكما أن الزوج يريد أن تأتي زوجته بكل ما له من حقوق، فالواجب عليه أن يؤدي إلى زوجته كلّ ما لها من حقوق.

١٢ - إقامة العدل في هذه الشريعة الإسلامية؛ لقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

١٣ - الرجوع إلى العرف فيما نحتاج فيه إلى العرف، والعرف: هو العادة المطردة بين الناس، وهو يختلف باختلاف الأماكن والأزمان، فيرجع في حقوق الزوجين - عند التحاكم - إلى ما يتعارفه الناس.

وهنا إشكال، وهو: أن الله تعالى أحال - في هذه المسألة - إلى العرف، فهل يكون في هذا شاهد لهؤلاء القوم الذين إذا تكلموا عن الأمور المشروعة ومخالفاتها قالوا: هذا خلاف تقاليدنا وعاداتنا؟

فنقول: ليس في هذا شاهد لما يدعيه هؤلاء في الأمور الشرعية: أنها أمور تقليدية، كمسألة الحجاب مثلاً، نجد بعض الذين يتكلمون عن الحجاب من الذين يكتبون في الصحف، إذا تكلموا عنه تكلموا عنه وكأنه أمر تقليدي، أي: يقلد الناس فيه بعضهم بعضاً، دون أن يرجعوا فيه إلى حكم الله عز وجل، ولا شك أن هذا إما جهل بالشرعية الإسلامية، وإما تجاهل بها.

والواقع أن مثل هذه ليست من باب التقاليد، ولكنها من باب التعبّد الذي نتعبّد لله تبارك وتعالى باتّباعه وامتناله.

وكذلك الاختلاط بين الرجال والنساء في حقّ التعليم ونحوه، يقول بعض الناس: إن منع الاختلاط من باب التقاليد. وهذا غلط عظيم، بل هو من باب الأمور المشروعة؛ لأن القاعدة الشرعية: أن كل شيء يؤدي إلى الفتن بين الرجال والنساء فإنه ممنوع، وقد حذر النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلّم - منه، حيث قال: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةٌ أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(١)، وقال - صلى الله عليه وعلى آله وسلّم -: «إِنَّمَا كَانَتْ أَوَّلُ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي النِّسَاءِ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا،

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم (٥٠٩٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، رقم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كما أخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٢٧٤١) من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَاتَّقُوا النِّسَاءَ»^(١).

١٤ - أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يُؤَدِّيَ حَقَّ الْمَرْأَةِ، وَعَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تُؤَدِّيَ حَقَّ الرَّجُلِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَعْنِي أَنَّهُمَا مُتَسَاوِيَانِ، بَلِ الرَّجَالُ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ وَأَعْلَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

ولقد ضلَّ قومٌ يريدون أن يُساووا بين النساءِ والرجالِ في الأمور التي فرَّقَ اللهُ بينهما فيها، وظنُّوا أنَّ ذلك هو المدنيَّة والحضارة، ولكنَّه في الحقيقة الجاهليَّة المحضَّة؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فرَّقَ بين الرجالِ والنساءِ خلقاً وشرعاً، فطبيعةُ الرجلِ في خلقته وخلقه ليست كطبيعةِ المرأةِ.

وكذلك الأحكامُ الشرعيَّة فرَّقَ اللهُ تعالى بينهما -أي: بين الرجالِ والنساءِ- فيما اقتضتِ الحكمةُ التفريقَ بينهما فيه.

ولا يُمكنُ أن يكونَ الرجلُ الذي يختلفُ عن المرأةِ في طبيعتهِ وأخلاقهِ وتحملهِ وصبرهِ، لا يُمكنُ أن يكونَ هذا الرجلُ مثلاً المرأةِ، أو المرأةُ مثله في كلِّ شيءٍ، بل لا بدَّ أن يكونَ بينهما تمييزٌ -حتى في الأحكامِ الشرعيَّة- فيما يليقُ بكلِّ واحدٍ منهما.

١٥ - إثباتُ اسمينِ من أسماءِ الله، وهما: «العزیزُ»، و«الحكيمُ».

أمَّا العزیزُ فهو ذو العِزَّةِ التَّامَّةِ، والعِزَّةُ لها معانٍ، منها: الغلبةُ، مثلُ: قولِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن المنافقينَ: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضَ مِنْهَا أَلَا ذَلَّ﴾،

(١) أخرجه بمعناه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، رقم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي لَهُ الْغَلْبَةُ، وفي ذلك يقول الشاعر الجاهليُّ:

أَيَّنَ الْمَفْرُ وَالْإِلَهَ الطَّالِبُ وَالْأَشْرُمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ؟^(١)

وأما الحكيم فهو مُشْتَقٌّ مِنَ الْحُكْمِ، ومن الْحِكْمَةِ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَخَدَهُ لَهُ الْحُكْمُ، لا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وهو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذُو الْحِكْمَةِ، أي: ذُو الْإِتْقَانِ فِي كُلِّ مَا خَلَقَ، وَكُلِّ مَا شَرَعَ، قال الله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ أَلَدَى أَلْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ الْحِكْمَةُ فِي كُلِّ مَا قَدَرَهُ كَوْنًا، وله الْحِكْمَةُ فِي كُلِّ مَا شَرَعَهُ تَعْبُدًا، يَعْبُدُهُ عِبَادُهُ بِهِ، فإذا جَرَتِ الْأُمُورُ الْكَوْنِيَّةُ عَلَى وَجْهِ يَظُنُّ الْإِنْسَانُ أَنَّ فِي ذَلِكَ ضَرَرًا، فَإِنَّ هَذَا الظَّنَّ الَّذِي ظَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ سُوءِ فَهْمِهِ، فالأُمُورُ وَإِنْ حَصَلَ فِيهَا مَا حَصَلَ مِنَ الْمَضَارِّ، فَعَاقِبَتُهَا عَاقِبَةٌ حَمِيدَةٌ.

وانظر إلى قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، حيث قال مُبَيِّنًا سَبَبَ هَذَا الْفَسَادِ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾، ثُمَّ بَيَّنَّ الْغَايَةَ مِنْ هَذَا الْفَسَادِ، فقال: ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا حَصَلَتِ النَّكَبَاتُ الْعَظِيمَةُ مِنْ فَيَضَانَاتٍ وَزُلْزَالٍ وَغَيْرِهَا، ظَنُّوا أَنَّ هَذَا جَوْرٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هَذَا مِنَ الطَّبِيعَةِ. وما أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَكُلُّ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ لَا يَخْرُجُ بِهِ الْإِنْسَانُ

(١) البيت من الرجز، وهو لنفيل بن حبيب، كما في شرح التسهيل (٣/٣٤٦)، والهمع (٢/١٣٨)، والدرر (٦/١٤٦).

من الإسلام، لكن يَجِبُ على الإنسان أن يَعْتَقِدَ بأنَّ كُلَّ ما جَرى في السَّماءِ والأَرْضِ فَإِنَّهُ من عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلِحُكْمَةِ بِالْغَةِ، قد نَفَهْمُهَا الآنَ، وقد نَفَهْمُهَا في المُسْتَقْبَلِ، وقد لا نَفَهْمُهَا أَبَدًا؛ لأنَّ عَقولَنَا مَهْمَا كانت فهي قاصِرةٌ.

فعليك - يا أخي المُسْلِمَ - أن تَسْتَسْلِمَ لقضاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وأن تَعْلَمَ أنَّ ذلكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا، وكذلك لقضاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمِهِ الشَّرْعِيِّ، عليك أن تَقُومَ بما أَوْجَبَ اللَّهُ، وتترك ما نَهَى اللَّهُ عنه؛ فَإِنَّ ذلكَ خَيْرٌ لك في الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ. أسألُ اللَّهَ أن يرزُقنا جميعًا الاستقامةَ على دينِهِ، وأن يجعلَنا من الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عليهم من النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ يعني: أنَّ الطَّلَاقَ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَرْجَعَ فِيهِ الْإِنْسَانُ إِلَى زَوْجَتِهِ - وهو المُسْتَفَادُ من قَوْلِهِ في الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرِدْهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ - هو الطَّلَاقُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، والطَّلَاقُ ثَانِي مَرَّةٍ.

أَمَّا إِذَا طَلَّقَهَا الثَّالِثَةَ فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ - كما سَيَأْتِي في الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا - حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ.

فإذا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَلَهُ الْمُرَاجَعَةُ، وَثَانِي مَرَّةٍ فَلَهُ الْمُرَاجَعَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾، يعني: فعلى الزوج إمساكًا بِمَعْرُوفٍ إن أَحَبَّ أَنْ يُرَاجَعَ، أَوْ تَسْرِيحٍ -أي: إطلاق- لِلْمَرْأَةِ بِإِحْسَانٍ بَدُونِ أَذِيَّةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ الْخِطَابُ لِلزَّوْجِ ﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أي: مِمَّا أُعْطِيتُمُوهُنَّ مِنْ مَهْرٍ أَوْ غَيْرِهِ ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

فإن خَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ، بَأَنْ خَافَتِ الزَّوْجَةُ أَنْ تُقْصَرَ فِي حَقِّ زَوْجِهَا، أَوْ خَافَ الزَّوْجُ أَنْ يُقْصَرَ فِي حَقِّ زَوْجَتِهِ، فَحِينَئِذٍ يَجُوزُ الْفِدَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: عَلَى الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ ﴿فِيمَا أَفْذَنْتَ بِهِ﴾ أي: فِيمَا دَفَعْتَهُ فِدْيَةً عَنْ نَفْسِهَا؛ لِيُطْلَقَهَا زَوْجُهَا.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: هَذِهِ الْأَحْكَامُ الَّتِي ذَكَرَهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حُدُودُهُ الَّتِي حَدَّهَا لِعِبَادِهِ، وَبَيْنَهَا لَهُمْ ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: فَلَا تَخْرُجُوا عَنْهَا مُحَالِفِينَ لَهَا.

﴿وَمَنْ يَعْذَ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: الظَّالِمُونَ لَأَنْفُسِهِمْ، الْمُعْتَدُونَ عَلَيْهَا، فَمَنْ أَحْسَنَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١ - أَنَّ الطَّلَاقَ الَّذِي تَحْصُلُ فِيهِ الْمُرَاجَعَةُ هُوَ الطَّلَاقُ الْأَوَّلُ، وَالطَّلَاقُ الثَّانِي؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾، وَهَلْ يُشْتَرَطُ أَنْ تَنْفَصِلَ الطَّلُوقَةُ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا، بَحَيْثُ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الَّتِي قَبْلَهَا مُرَاجَعَةٌ فِي الْعِدَّةِ، أَوْ نِكَاحٌ جَدِيدٌ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ، أَوْ تَقَعُ الطَّلُوقَةُ الثَّانِيَةُ وَلَوْ كَانَتْ فِي الْعِدَّةِ مِنَ الطَّلُوقَةِ الْأُولَى؟

مثال ذلك: رَجُلٌ قَالَ لِزَوْجَتِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ. وفي أَثْنَاءِ الْعِدَّةِ قَالَ لَهَا: أَنْتِ طَالِقٌ. فهل هذه الطَّلَاقُ تكونُ هي المَرَّةُ الثَّانِيَّةُ، أو نقولُ: إِنَّهُ لَا تَكُونُ طَلَقًا إِلَّا بَعْدَ رَجْعَةٍ؛ لِأَنَّ الطَّلَاقَ هِيَ إِطْلَاقٌ مِنْ إِمْسَاكِ، وَإِذَا لَمْ يُرَاجِعِ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ فَإِنَّهُ لَمْ يُمَسِّكْهَا، وَلَمْ يَرُدَّهَا إِلَى حَظِيرَةِ الزَّوْجِيَّةِ؟

الجوابُ: فِي هَذَا خِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ يَقَعُ إِذَا رَدِفَ طَلَاقًا سَابِقًا، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الرَّجُلُ الَّذِي طَلَّقَ زَوْجَتَهُ مَرَّةً أُخْرَى فِي أَثْنَاءِ الْعِدَّةِ لِلطَّلَاقِ الْأَوَّلِيِّ يَكُونُ مُطْلَقًا مَرَّتَيْنِ، هَذَا هُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّ الطَّلَاقَ الثَّانِيَّ تُعْتَبَرُ وَاقِعَةً، مِثْلُ: أَنْ يَقُولَ لِزَوْجَتِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ، أَنْتِ طَالِقٌ. وَلَمْ يُرَدِّ بِذَلِكَ التَّوَكِيدَ، فَإِنَّهُ يَقَعُ الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ.

وَذَهَبَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَصِحُّ إِزْدَاؤُهُ بِطَلَاقٍ آخَرَ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَ زَوْجَتَهُ مَرَّةً، ثُمَّ طَلَّقَهَا أُخْرَى، وَلَمْ يُرَاجِعْهَا مِنَ الطَّلَاقِ الْأَوَّلِيِّ، فَإِنَّ الطَّلَاقَ الثَّانِيَّ لَا يَقَعُ، فَإِذَا قَالَ لِزَوْجَتِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ. ثُمَّ قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ. وَأَرَادَ بِهِ الطَّلَاقَ، فَإِنَّهُ لَا يَقَعُ الطَّلَاقُ الثَّانِي؛ نَظَرًا إِلَى أَنَّهَا مَا زَالَتْ فِي عِدَّةِ الطَّلَاقِ الْأَوَّلِ.

لَكِنْ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى وَقُوعِ الطَّلَاقِ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ تَرْجِعُ إِلَى الْفَتْوَى، حَسَبَ مَا يُفْتَى بِهِ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ بِحَسَبِهِ.

٢- بَطْلَانُ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يُطَلِّقُ زَوْجَتَهُ، إِذَا شَارَفَتْ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ رَاجِعَهَا، ثُمَّ طَلَّقَهَا، فَاسْتَأْنَفَتْ عِدَّةً جَدِيدَةً، إِذَا شَارَفَتْ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ مِنَ الطَّلَاقِ الثَّانِي رَاجِعَهَا، ثُمَّ طَلَّقَهَا،

فاستأنفت عِدَّةً ثالثةً للطلقة الثالثة، وهلمَّ جرًّا، يفعلُ بها ذلك حتى تصبح المسكينة ليست مُطلقةً، ولا مُزوجةً، ولا شكَّ أنَّ هذا ظلمٌ عظيمٌ على النساءِ، ولكنَّ الإسلام -والله الحمد- جعل ذلك مُقيَّدًا بثلاث، أي: أنَّ له أن يُراجعَ في طَلقتين فقط، أمَّا في الثالثة فلا.

٣- أنَّ الواجبَ على المطلق أحدَ أمرين: إمَّا ردُّ المرأة بالمعروف، ويُعاشرها بالمعروف، وإمَّا أن يُسرَّحها بإحسانٍ.

ففيه إشارةٌ إلى أنه ينبغي له إذا لم يُراجع أن يُحسنَ إليها بما يجبرُ قلبها من هديةٍ أو مالٍ أو ما أشبه ذلك.

٤- أنه يحرمُ على الزوج أن يأخذَ شيئاً ممَّا أعطها إذا طلقها، أو أن يرغمها على بذلِ شيءٍ ممَّا أعطها؛ ليطلقها.

فهاتان مسألتان:

المسألة الأولى: إذا طلقها فإنه لا يحلُّ له أن يأخذَ منها شيئاً ممَّا أعطها من مهرٍ أو غيره.

المسألة الثانية: ألاَّ يلجئها إلى طلبِ الطلاقِ والفداء، كما يفعله بعضُ الناسِ، حيثُ إنه إذا كرهَ المرأةَ أساءَ عشرتها؛ من أجل أن يلجئها ويضطرَّها إلى أن تبذلَ شيئاً من مالها؛ لتفتدي به نفسها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

٥- جوازُ الخلع إذا خيفَ عدمُ القيامِ بالواجبِ من الزوج أو الزوجة؛ لقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، فإذا ساءتِ العشرةُ بينَ الزوجين، وتعدَّرَ الجمعُ

بَيْنَهُمَا إِلَّا عَلَى مَضْضٍ وَتَعَبٍ وَشَقَاءٍ، فحِينَئِذٍ تَبْذُلُ الْمَرْأَةُ مِمَّا أَعْطَاهَا مَا تَفْتَدِي بِهِ نَفْسَهَا؛ كَمَا فَعَلَتْ امْرَأَةُ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، حَيْثُ أَتَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ لَا أَعِيبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ. فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «اقْبَلِ الْحَدِيثَ، وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»^(١).

وَهُنَا مَسْأَلَةٌ: لَوْ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَرِهَتْ الْبَقَاءَ مَعَ زَوْجِهَا؛ لِحُلُلٍ فِي دِينِهِ؛ لَكُونِهِ لَا يُحَافِظُ عَلَى الصَّلَوَاتِ، أَوْ لَكُونِهِ يَشْرَبُ الْخَمْرَ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي يُحِلُّ بِهَا، فَهَلْ لَهَا أَنْ تَطْلُبَ الطَّلَاقَ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، لَهَا أَنْ تَطْلُبَ الطَّلَاقَ؛ لِحَدِيثِ امْرَأَةِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، حَيْثُ قَالَتْ: لَا أَعِيبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ. فَإِذَا كَرِهَتْ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا؛ لِحُلُلٍ فِي دِينِهِ، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا أَنْ تَطْلُبَ الطَّلَاقَ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ فِدَاءٍ يَتَّفِقَانِ عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ أَيْضًا إِذَا عَابَتْهُ فِي خُلُقِهِ، بَأَنَّ أَسَاءَ خُلُقِهِ مَعَهَا، فَلَهَا أَنْ تَطْلُبَ الطَّلَاقَ، لَكِنْ بِفِدَاءٍ تَفْتَدِي بِهِ نَفْسَهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كَانَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَفْتَدِيَ نَفْسَهَا.

قُلْنَا: إِذَا كَانَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَفْتَدِيَ نَفْسَهَا فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا بِدُونِ الْعَوَضِ الَّذِي أَعْطَاهَا، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَامْرَأَةِ ثَابِتٍ: «أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ؟» فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُعَاوَضَ الرَّجُلُ عَنْ زَوْجَتِهِ الَّتِي طَلَبَتْ الْفِرَاقَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الطَّلَاقِ، بَابُ الْخُلْعِ، رَقْمُ (٥٢٧٣).

٦- أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِلْمَرَأَةِ أَنْ تَطْلُبَ الطَّلَاقَ مِنْ زَوْجِهَا بِدُونِ سَبَبٍ، حَتَّى وَإِنْ بَذَلَتْ لَهُ مَا تَبْذُلُهُ مِنَ الْمَالِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، فَإِذَا كَانَتِ الْعِشْرَةُ قَائِمَةً، وَلَكِنَّ الْمَرَأَةَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ غَضِبَتْ عَلَى زَوْجِهَا، ثُمَّ طَلَبَتِ الطَّلَاقَ، فَإِنْ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لَهَا، نَعَمْ، لَوْ أَنَّهَا كَرِهَتْ الزَّوْجَ، وَعَجَزَتْ عَنْ تَحْمِيلِ كَرَاهِيَّتِهِ، فَهَذَا عُذْرٌ بِلَا شَكٍّ، فَلَهَا أَنْ تَطْلُبَ الطَّلَاقَ.

وما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»^(١) يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ يَخْتَاجُ فِيهِ إِلَى الطَّلَاقِ وَالْفِرَاقِ، فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ تَسْأَلَ الطَّلَاقَ.

٧- أَنَّهُ يَجُوزُ لِلزَّوْجِ إِذَا طَلَبَتِ الْمَرَأَةُ الطَّلَاقَ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهَا فِدْيَةً أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَاهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

فمثلاً: إِذَا كَانَ قَدْ أَعْطَاهَا عَشْرَةَ آلَافٍ مَهْرًا، وَهَدَايَا بِمِقْدَارِ خَمْسَةِ آلَافٍ، فَالْجَمِيعُ خَمْسَةُ عَشَرَ أَلْفًا، فَإِذَا قَالَ: أَنَا لَا أُطَلِّقُ إِلَّا بِعِشْرِينَ أَلْفًا. فَظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ جَوَازُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ «مَا» اسْمٌ مَوْصُولٌ، تَعُمُّ الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ.

وَلَكِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ: لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ فِدْيَةً أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَاهَا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أَيُّ: مِمَّا أَعْطَاهَا؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أَيُّ: مِمَّا أَعْطَاهَا.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطلاق، باب في الخلع، رقم (٢٢٢٦)، والترمذي: كتاب الطلاق، باب ما جاء في المختلعات، رقم (١١٨٧)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب كراهية الخلع للمرأة، رقم (٢٠٥٥)، وأحمد (٢٧٧/٥) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والقول الوسط في هذا: أَنَّهُ يُكْرَهُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَطْلُبَ فِدْيَةً مِنَ الْمَرْأَةِ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَاهَا؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ نَوَعِ الظُّلْمِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَمْتَعَ بِهَا، وَاسْتَحْلَلَ فَرْجَهَا، وَتَمَتَّعَ بِهَا مُدَّةً مِنَ الدَّهْرِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَضِيعَ هَذَا الْاسْتِمْتَاعُ بِدُونِ عَوَضٍ، فَكَيْفَ يَطْلُبُ شَيْئًا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَاهَا؟! هَذَا فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الظُّلْمِ.

وَالْخُلَاصَةُ: أَنَّهُ إِذَا سَاءَتِ الْعِشْرَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَلَا يُمَكِّنُ الْإِتِّفَاقُ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّهُ لَا حَرَجَ أَنْ يَأْخُذَ مِمَّا آتَاهَا، وَحِينَئِذٍ إِمَّا أَنْ يَطْلُبَ دُونَ مَا أَعْطَاهَا، وَهَذَا لَا شَكَّ فِي جَوَازِهِ، أَوْ يَطْلُبَ بِقَدْرِ مَا أَعْطَاهَا، وَهَذَا أَيْضًا جَائِزٌ، أَوْ أَنْ يَطْلُبَ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَاهَا، وَهَذَا فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ.

٨- أَنْ الْمَرْأَةَ إِذَا بَدَلَتْ شَيْئًا لِيُطْلَقَهَا زَوْجُهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَلَيْهَا رَجْعَةٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَمَّى ذَلِكَ: فِدَاءً. وَإِذَا كَانَ فِدَاءً فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْفِدْيَةِ وَمَا اقْتَدَى بِهَا عَنْهُ.

وَعَلَى هَذَا، فَإِذَا طَلَّقَ الْإِنْسَانُ زَوْجَتَهُ عَلَى عَوَضٍ - وَلَوْ عَشْرَةَ رِيَالَاتٍ - فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرَاجِعَهَا إِلَّا بِعَقْدٍ جَدِيدٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى ذَلِكَ: فِدْيَةً. وَإِذَا كَانَ فِدْيَةً فَإِنَّهَا تَمْلِكُ نَفْسَهَا بِهَذِهِ الْفِدْيَةِ، وَلَا يَمْلِكُ الزَّوْجُ أَنْ يُرَاجِعَهَا.

٩- أَنْ مَا ذُكِرَ مِنَ الْأَحْكَامِ حُدُودُ حَدِّهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَقِفَ عِنْدَهَا، وَلَا نَتَعَدَّاهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا﴾ أَي: مَا ذُكِرَ مِنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ الْعَظِيمَةِ حُدُودٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَتَعَدَّاهَا.

١٠- عِنَايَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْعِبَادِ فِي الْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ؛ حَيْثُ جَاءَ فِيهَا هَذَا التَّفْصِيلُ الْبَالِغُ، وَالْإِجْمَالُ فِيمَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ؛ لِأَنَّهُ يَتَّبَعُ الْمَصْلَحَةَ.

ففي هذه الحدود ما يُرجع فيه إلى العُرف؛ لأنَّ المصالح تختلف باختلاف الأعراف، وفيما حدده الله لا يمكن أن يتجاوزَ، فلو أراد إنسان أن يجعل العدة -بدلاً من ثلاثة قروء- أربعة قروء، أو يجعلها اثنين، فإنه لا يملك ذلك؛ لأنَّ هذا أمرٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

أَمَّا ﴿وَعَايِشُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ و﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وما أشبه ذلك، ممَّا جعله الله تعالى عائداً إلى العُرف، فهذا هو الذي يخضع للعادات وأحوال الناس.

١١ - أن المتعدِّي حدود الله ظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، لكنه ظالم لمن؟ ظالم لنفسه في الواقع؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

والظلم هو: نقص الحق، كما قال تعالى: ﴿كَلْنَا الْجَنَيْنَ ءَانَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص منه شيئاً.

١٢ - تحريم تعدِّي حدود الله؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، والظلم محرم؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»^(١).

أعاذنا الله جميعاً من الظلم، وجعلنا من أهل العدل والإحسان؛ إنه على كلِّ شيء قدير.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾
 يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي: طَلَّقَ الزَّوْجَةُ بَعْدَ الطَّلَاقَيْنِ السَّابِقَيْنِ؛
 لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ إِلَى آخِرِهِ عُطِفَ عَلَيْهِ ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي: الْمَرَّةَ الثَّلَاثَةَ.
 قَالَ: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ﴾ أي: لِمُطَلِّقِهَا ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ أي: مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الطَّلَاقِ ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أي: حَتَّى يَطَّأَهَا زَوْجٌ غَيْرُهُ.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي: الزَّوْجُ الثَّانِي ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: عَلَى الزَّوْجِ الْأَوَّلِ
 وَالزَّوْجَةِ ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ أي: أَنْ يَرْجِعَ بَعْضُهُمَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَكِنْ بَشَرًا: ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ
 يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ يَعْنِي: إِنْ ظَنَّا أَنَّهَا إِذَا عَادَا إِلَى النِّكَاحِ -بَعْدَ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ،
 وَتَزَوَّجَهَا بِرَجُلٍ آخَرَ- أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ بَيْنَهُمَا، فَتَقُومَ هِيَ بِمَا يَجِبُ لِلزَّوْجِ، وَيَقُومُ
 هُوَ بِمَا يَجِبُ لِلزَّوْجَةِ، فَحِينَئِذٍ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمَا.

أَمَّا إِذَا ظَنَّا أَنَّ الْحَالَ لَنْ تَتَحَسَّنَ، وَأَنَّهَا سَتَرْجِعُ إِلَى مَا سَبَقَ، فَإِنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ
 الْكَرِيمَةِ أَنَّ عَلَيْهِمَا الْجُنَاحَ.

قَالَ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: تِلْكَ شَرَائِعُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُبَيِّنُهَا
 لَذَوِي الْعِلْمِ، حَتَّى يَفْهَمُوهَا، وَيَعْمَلُوا بِهَا.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١- أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا طَلَّقَ زَوْجَتَهُ الطَّلَاقَ الثَّلَاثَةَ فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ
 زَوْجًا غَيْرَهُ، فَإِذَا طَلَّقَ مَرَّةً، ثُمَّ رَاجَعَ، ثُمَّ طَلَّقَ أُخْرَى، ثُمَّ رَاجَعَ، ثُمَّ طَلَّقَ،

فهذه هي الثالثة، ولا تحلُّ له بعد هذا حتى تنكح زوجاً غيره.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا﴾ أي: حتى يطأها زوج، واسم النكاح لا يُطلق على الوطء إلا في هذه الآية الكريمة، وإنما أُطلق على الوطء؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا﴾، فالنكاح سابق على هذا الوطء.

إذن، من فوائدها: أنَّ الرَّجُلَ إذا طَلَّقَ المرأةَ الطَّلَاقَ الثالثةَ فإنَّها لا تحلُّ له حتى يتزوجها زوج آخر، ثم يطأها، ويُطلقها.

فإن قال قائل: إذا طَلَّقَهَا ثلاثًا بكلمة واحدة، أو بكلمات متعاقبات في مجلس، أو بكلمات متعاقبات في مجالس، فما الحكم؟

مثال الصورة الأولى: إذا طَلَّقَهَا بِفَمٍ واحدٍ، فقال: أنتِ طالق ثلاثًا.

ومثال الصورة الثانية: إذا قال: أنتِ طالق. وفي نفس المجلس، قال: أنتِ طالق، أنتِ طالق.

ومثال الصورة الثالثة: إذا قال: أنتِ طالق. ثم تركها أسبوعاً، أو أسبوعين، ثم قال: أنتِ طالق. قبل أن يُراجع.

فهل تُعتبرُ الثانيةُ طَلَقَةً جديدةً، أو لا؟

فالجواب: في هذا خلاف بين العلماء، منهم من قال: إنَّ هذه الصورَ كُلَّها تُعتبرُ ثلاثَ طَلَقَاتٍ، وتبينُ بها المرأةُ، فلا تحلُّ له -أي: للزوج المطلق على هذا الوجه- حتى تنكح زوجاً غيره، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم.

ومن العلماء من قال: إنَّ طَلَّقَهَا ثلاثًا بفمٍ واحدٍ فهي طَلَقَةٌ واحدةٌ، وإن تفرقت الكلمات فهي بحسب الطَّلَاقَاتِ.

ومنهم مَنْ قال: إذا طَلَّقَهَا ثلاثًا بَدُونِ أَنْ تَحْصَلَ مُرَاجَعَةٌ، أَوْ عَقْدُ نِكَاحٍ جَدِيدٍ، فَإِنَّهَا تُعْتَبَرُ وَاحِدَةً عَلَى كُلِّ حَالٍ، وهذا الأخيرُ هو اختيارُ شَيْخِ الإسلامِ ابنِ تيمية رَحِمَهُ اللهُ^(١).

وهذه الْمَسْأَلَةُ - كما ذَكَرْنَا سابقًا - تَرْجِعُ إِلَى مَا يُفْتَى بِهِ الْعُلَمَاءُ، وَحَسَبَ الْبُلْدَانِ، وَحَسَبَ الْأَزْمَانِ.

٢- أَنَّ الْمُطَلَّقةَ ثَلَاثًا لَا تَحِلُّ لِلزَّوْجِ الْأَوَّلِ حَتَّى تَتَزَوَّجَ آخَرَ بِعَقْدٍ صَحِيحٍ وَيُجَامِعَهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أَي: حَتَّى يَطَّأَهَا زَوْجٌ غَيْرُهُ، وَدَلِيلُ اشْتِرَاطِ أَنْ يَكُونَ الْعَقْدُ صَحِيحًا: قَوْلُهُ: ﴿زَوْجًا﴾؛ لِأَنَّهُ لَا يَصْدُقُ عَلَى الْعَاقِدِ أَنْ يَكُونَ زَوْجًا إِلَّا إِذَا كَانَ الْعَقْدُ صَحِيحًا.

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ، لَوْ تَزَوَّجَهَا الزَّوْجُ الثَّانِي بِنَيَّْةِ التَّحْلِيلِ لِلأَوَّلِ، وَلَيْسَ نِكَاحَ رَغْبَةٍ، فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِلأَوَّلِ، وَلَا تَحِلُّ لِلثَّانِي أَيْضًا؛ لِأَنَّ نِكَاحَ التَّحْلِيلِ نِكَاحٌ بَاطِلٌ؛ إِذْ إِنَّ الزَّوْجَ الثَّانِي لَمْ يُرَدَّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ زَوْجًا لَهُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ تَكُونَ زَوْجَةً لِلأَوَّلِ؛ لِيُجَامِعَهَا، وَيُطَلِّقَهَا، وَالنِّكَاحُ يُرَادُ لِلْبَقَاءِ وَالِدَّوامِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وَقَدْ جَاءَتْ امْرَأَةٌ رِفَاعَةَ الْقُرْظِيِّ -الَّذِي طَلَّقَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- فَتَزَوَّجَتْ بَعْدَهُ بِرَجُلٍ، هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الزَّيْبِرِ -بَفَتْحِ الزَّاي، وَكَسْرِ الْبَاءِ- وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ قُوَّةٌ عَلَى الْجَمَاعِ، فَأَتَتْ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَقَوْلُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ،

إِنَّ رِفَاعَةَ الْقُرْظِيِّ طَلَّقَنِي، فَبَتَّ طَلَاقِي، وَإِنِّي تَزَوَّجْتُ بَعْدَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الزَّيْرِ،
وليس معه -يا رسول الله- إِلَّا مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ. وَأَخَذَتْ بَطْرَفِ ثَوْبِهَا تُشِيرُ بِهِ،
تَعْنِي: أَنَّهُ لَيْسَ بِهِ قُدْرَةٌ عَلَى الْجَمَاعِ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-:
«أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ لَهَا: «لَا، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ،
وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكَ»^(١).

فالمهم: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَطَّأَهَا الزَّوْجُ الثَّانِي، وَأَنْ يَكُونَ عَقْدُ النِّكَاحِ صَحِيحًا،
وَالْحُكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ: أَنْ تَمَامَ الرَّغْبَةِ فِي الْمَرْأَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْجَمَاعِ.
فَإِنْ طَلَّقَهَا قَبْلَ الْجَمَاعِ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ تَزَوَّجَهَا؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْلِلَهَا لِلأَوَّلِ،
لَا لِرَغْبَةٍ فِيهَا.

وَمِنْ ثَمَّ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ الْغَرِيبِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِنِيَّةِ
الطَّلَاقِ؛ لِأَنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَقْصُودِ الشَّرْعِيِّ فِي النِّكَاحِ؛ إِذْ إِنَّ الْمَقْصُودَ الشَّرْعِيَّ فِي
النِّكَاحِ أَنْ تَكُونَ الزَّوْجَةُ سَكَنًا لَزَوْجِهَا، وَأَنْ يَكُونَ النِّكَاحُ مُسْتَدِيمًا؛ كَمَا أَنَّ الرَّجُلَ
لَوْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً، وَحَدَّدَ النِّكَاحَ بِمُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ النِّكَاحُ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى
بِنِكَاحِ الْمُتْعَةِ، وَهَذَا -أَعْنِي: نِكَاحَ الْمُتْعَةِ- مُحَرَّمٌ بِالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ
ﷺ بَيَّنَّ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ -حَدِيثِ سَبْرَةَ بْنِ مَعْبِدٍ الْجُهَنِيِّ- أَنَّ الْمُتْعَةَ حَرَامٌ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب شهادة المختبئ، رقم (٢٦٣٩)، ومسلم: كتاب النكاح،
باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح غيره ويطأها، رقم (١٤٣٣) من حديث عائشة
رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب نكاح المتعة، رقم (٢١ / ١٤٠٦).

ونُشِيرُ إِلَى قَوْلِنَا: «مَنْ تَزَوَّجَ بِنْتَهُ الطَّلَاقِ»، وهذا فيما إذا تَزَوَّجَ الْغَرِيبُ امْرَأَةً لِيُحَصِّنَ فَرْجَهُ، وهو قد اغْتَرَبَ عَنْ وَطَنِهِ؛ لِعَرَضٍ صَاحِبٍ، إمَّا تِجَارَةً، وإمَّا عِلْمًا، وإمَّا غير ذلك، وخافَ من عَنَتِ الْعُزُوبَةِ، فتَزَوَّجَ امْرَأَةً، وَنِيَّتُهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا إِذَا غَادَرَ هَذَا الْبَلَدَ، فهذا اخْتَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

لكن اسْتَحْدَمَهُ بَعْضُ السُّفَهَاءِ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ خَوْفٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا إِشْبَاعُ رَغَبَاتِهِمْ فِي بُطُونِهِمْ وَفُرُوجِهِمْ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ يَذْهَبُ إِلَى بِلَادٍ أُخْرَى؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِنْتَهُ الطَّلَاقِ، لَيْسَ لَهُ غَرَضٌ إِطْلَاقًا، وَلَا يُرِيدُ تِجَارَةً، وَلَا طَلَبَ عِلْمٍ، لَكِنْ يَذْهَبُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ.

وَقَدْ حَدَّثَنَا بَعْضُ النَّاسِ عَنْ هَذَا أَحَادِيثَ مُزَعَّجَةً مُرَعِبَةً، حَتَّى إِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ رُبَّمَا يَتَزَوَّجُ عِدَّةَ نِسَاءٍ فِي سَفَرَةٍ وَاحِدَةٍ، يَتَزَوَّجُ امْرَأَةً، ثُمَّ إِذَا أَخَذَ مَعَهَا أُسْبُوعًا طَلَّقَهَا، ثُمَّ إِنْ كَانَتْ هِيَ الرَّابِعَةُ انْتَهَرَ حَتَّى تَنْتَهِيَ عِدَّتُهَا، ثُمَّ تَزَوَّجَ أُخْرَى، وَإِنْ كَانَتْ هِيَ الثَّانِيَّةُ أَوِ الْأُولَى تَزَوَّجَ فِي الْحَالِ، وَصَارُوا يَتَلَاعَبُونَ فِي النِّكَاحِ، فَصَارَ كَأَنَّهُ زِنَا، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَنَحْنُ نَقُولُ لَهُؤُلَاءِ: إِنَّ عَمَلَكُمْ هَذَا لَا يَنْطَبِقُ عَلَى الْخِلَافِ الْمَعْرُوفِ؛ لِأَنَّ الْخِلَافَ الْمَعْرُوفَ إِنَّمَا هُوَ فِي رَجُلٍ ذَهَبَ إِلَى خَارِجِ بَلَدِهِ لِعَرَضٍ صَاحِبٍ شَرْعِيٍّ، ثُمَّ خَافَ عَنَتَ الْعُزُوبَةِ، فَتَزَوَّجَ بِنْتَهُ الطَّلَاقِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ فَقَدْ ذَهَبْتُمْ إِلَى النِّكَاحِ بِنْتِ الطَّلَاقِ، وَهَذَا لَيْسَ مَوْضِعَ الْخِلَافِ، بَلْ أَظُنُّهُ مَوْضِعَ إِجْمَاعِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ.

فَلْيَحْذَرُ هَؤُلَاءِ مِنْ تَعَدِّي حُدُودِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْمِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، وَتَلَا ﷻ حِينَ تَكَلَّمَ بِهَذَا قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ

إِذَا أَخَذَ الْفَرِى وَهَى ظَلَمَةً إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ [هود: ١٠٢].^(١)

نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الْإِسْتِقَامَةَ وَالثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٣- قَطْعُ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي تَكَرُّارِ الطَّلَاقِ عَلَى الْمَرْأَةِ دُونَ تَحْدِيدٍ، فَيُطَلَّقُهَا، فَإِذَا قَارَبَتْ انْتِهَاءَ الْعِدَّةِ رَاجَعَهَا، ثُمَّ طَلَّقَهَا، فَإِذَا اعْتَدَّتْ وَقَارَبَتْ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ رَاجَعَهَا، ثُمَّ طَلَّقَهَا، وَهَلَمَّ جَرًّا، أَبَدَ الْآبِدِينَ، فَحَدَّدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ بِثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ.

٤- أَنَّ الْخُلْعَ لَيْسَ بِطَلَاقٍ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ طَلَاقًا لَكَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ هِيَ الطَّلَاقُ الرَّابِعَةُ.

وَالْخُلْعُ: هُوَ فِرَاقُ الرَّجُلِ زَوْجَتَهُ بِعَوَضٍ تَبَدَّلَهُ هِيَ أَوْ غَيْرُهَا لَهُ، يَعْنِي: أَنَّ يُفَارِقُهَا عَلَى عَوَضٍ.

فَإِنْ كَانَ بَلْفَظِ الْخُلْعِ، أَوْ لَفْظِ الْفِدَاءِ، أَوْ مَا أَشَبَّهُهُمَا، فَإِنَّهُ فَسَخٌ لَا يَنْقُصُ بِهِ عَدَدُ الطَّلَاقِ، وَإِنْ كَانَ بَلْفَظِ الطَّلَاقِ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هَلْ يُعْتَبَرُ طَلَاقًا يُحْسَبُ عَلَيْهِ، أَوْ يُعْتَبَرُ فَسَخًا لَا يُحْسَبُ عَلَيْهِ؟

مِثَالُ ذَلِكَ: امْرَأَةٌ كَرِهَتْ الْبَقَاءَ مَعَ زَوْجِهَا؛ لِعُذْرِ شَرْعِيٍّ، وَطَلَبَتْ الْفِرَاقَ، فَاتَّفَقَ مَعَهَا عَلَى أَنْ تَبْدَلَ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ، وَيُطَلَّقَهَا، فَبَدَّلَتْهُمَا إِمَّا أَنْ يَقُولَ: خَالَعْتُ زَوْجَتِي بِعَوَضٍ قَدَرُهُ كَذَا وَكَذَا. أَوْ: فَسَخْتُ زَوْجَتِي بِعَوَضٍ قَدَرُهُ كَذَا وَكَذَا. أَوْ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرِى وَهَى ظَلَمَةً﴾، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَادَيْتُهَا بِعَوْضٍ قَدْرُهُ كَذَا وَكَذَا. فَهَذَا لَا يُحْسَبُ مِنَ الطَّلَاقِ.

وَأَمَّا أَنْ يَقُولَ: طَلَّقْتُ زَوْجَتِي بِعَوْضٍ قَدْرُهُ كَذَا وَكَذَا. فَهَذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّهُ فَسْخٌ لَا يَنْقُصُ بِهِ عَدُّ الطَّلَاقِ، وَلَوْ وَقَعَ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ. وَهَذَا اخْتِيَارُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١)، وَهُوَ أَيْضًا مَذْهَبُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٢).

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّهُ لَمَّا وَقَعَ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ صَارَ مِنَ الطَّلَاقِ، فَيُحْسَبُ عَلَيْهِ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا آخِرَ مَرَّةٍ، بَأَنْ يَكُونَ طَلَّقَهَا قَبْلَ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ طَلَّقَهَا هَذِهِ الثَّالِثَةَ الَّتِي فِيهَا الْفِدْيَةُ، فَإِنْ قُلْنَا بِأَنَّهُ طَلَّاقٌ حَرُمَتْ عَلَيْهِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ لَيْسَ بِطَلَّاقٍ. فَإِنَّهَا لَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ هَذَا فَسْخٌ، هَذَا إِذَا وَقَعَ بِلَفْظِ: طَلَّقْتُ امْرَأَتِي عَلَى عَوْضٍ قَدْرُهُ كَذَا وَكَذَا.

وَلِذَلِكَ نَقُولُ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ يَكْتُبُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ: إِنَّهُ إِذَا أَتَاهُمْ زَوْجَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يَتَفَارَقَا عَلَى عَوْضٍ، فَإِنَّ الَّذِي يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ بَيْنَهُمَا أَنْ يُلَاحِظَ هَذَا، بَأَنْ يَقُولَ: حَضَرَ عِنْدِي فُلَانٌ وَفُلَانَةٌ، فَفَارَقَهَا عَلَى عَوْضٍ قَدْرُهُ كَذَا وَكَذَا. أَوْ: فَخَالَعَهَا عَلَى عَوْضٍ قَدْرُهُ كَذَا وَكَذَا. أَوْ: فَادَاهَا عَلَى عَوْضٍ قَدْرُهُ كَذَا وَكَذَا. وَلَا يَكْتَبُ: طَلَّقَهَا. وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَلَّا يُحْسَبَ عَلَيْهِ مِنَ الطَّلَاقِ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ لَا يَتَّبِعُهَا إِلَّا مَنْ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ.

وَمِنْ ثَمَّ أَقُولُ: يَنْبَغِي لِجَمِيعِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ وَثَائِقَ النَّاسِ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ فِيمَا يَكْتُبُونَ، مِنْ ذَلِكَ: هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨٩/٣٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦/٤٨٥) برقم (١١٧٦٥).

ومن ذلك: أن بعض الناس عندما يكتب الوصية لشخص أوصى ببيته أن يكون في أعمال البر مثلاً، بعض الكتاب يكون عنده شيء من الجهل، فيكتب: إني وكلت فلاناً بعد موتي بكذا وكذا، أو على كذا وكذا. وهذا غلط؛ لأن الأمر بالتصرف بعد الموت لا يسمى: وكالة. وإنما يسمى: وصية. فيقول الكاتب: أوصيت إلى فلان بعد موتي بكذا وكذا، يصرفه في أعمال البر، في المساجد، في أي عمل خيري يريده.

فالمهم: أنه يجب أن يعرف الكاتب الفرق بين الوصية والوكالة، فالوكالة قال العلماء: إنها تنسخ إذا مات الموكّل، والوصية لا تكون إلا بعد موت الموصي، فينبهما فرق عظيم.

٥- إطلاق اسم الرجعة على العقد الجديد؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فلا جناح على الزوج الأول، والزوجة المطلقة من الزوج الثاني ﴿أَنْ يَرْجَعَا﴾ أي: الزوج الأول والزوجة، فيه إطلاق الرجعة على العقد الجديد.

ولكن هذا في اصطلاح الفقهاء لا يسمى: رجعة. فالفقهاء يرون أن الرجعة هي: رد المرأة الرجعية - وهي: المطلقة على غير عوض، دون الثلاث - إلى النكاح. لكن لا شك أن القرآن حاكم لا محكوم عليه.

ننتقل من هذا إلى حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، حين طلق زوجته وهي حائض، فقال النبي ﷺ لأبيه عمر رضي الله عنه: «مُرْ عَبْدَ اللَّهِ، فَلْيُرَاجِعْهَا»^(١)، فمن العلماء من قال: إن قوله: «فَلْيُرَاجِعْهَا» يعني: بعد الطلاق، ويقع طلاق الحائض.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾، رقم (٥٢٥١)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض، رقم (١٤٧١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ومنهم مَنْ قال: «فَلْيُرَاجِعْهَا» أي: فليُرُدّها إلى النِّكَاحِ الأوَّلِ، وليس المرادُ: الرَّجْعَةُ من طلاقٍ، وعلى هذا فالطَّلَاقُ في الحيضِ لا يَقَعُ.

وهذه مَسْأَلَةٌ فيها خِلافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هل يَقَعُ طَلَاقُ الْحَائِضِ، أو لا يَقَعُ؟ فالأئِمَّةُ الأربعةُ ومُجْمُوعُ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ يَرَوْنَ أَنَّ الطَّلَاقَ في الحيضِ وَاقِعٌ، وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ طَلَاقِ الْحَائِضِ وَالطَّاهِرِ^(١)، ومنهم مَنْ يَرى أَنَّهُ لَا يَقَعُ.

ولكنْ هُنَا مَسْأَلَةٌ، وهي: أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا طَلَّقَ زَوْجَتَهُ آخِرَ طَلْقَةٍ جَاءَ يَسْتَفْتِي، ويقولُ: طَلَّقْتُهَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى - قَبْلَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ - وهي حَائِضٌ؟ يُرِيدُ أَنْ يُبْطَلَ الطَّلَاقُ الْأَوَّلُ؛ لَكِي يَتِمَّ كَنْ مِنَ الْمُرَاجَعَةِ، فنقولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! لَكَ عَشْرُ سَنَوَاتٍ، وَقَدْ طَلَّقْتُهَا وهي حَائِضٌ، وتَأْتِي الْيَوْمَ تقولُ: إِنَّكَ طَلَّقْتُهَا، وهي حَائِضٌ! أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّهَا تَزَوَّجَتْ بَعْدَ أَنْ تَمَّتْ عِدَّتُهَا مِنْ طَلْقِكَ الْأَوَّلِ، أَتَقُولُ لِلزَّوْجِ الثَّانِي: إِنَّهَا زَوْجَتِي؟! هو لا يقولُ هذا، لا شَكَّ.

لكن لَمَّا ضَاقَتْ بِهِ الْحِيلُ جَاءَ يَقُولُ: إِنِّي طَلَّقْتُهَا الطَّلَاقَ الْأَوَّلَ وهي حَائِضٌ. وَرُبَّمَا يَقُولُ: وَطَلَّقْتُهَا الطَّلَاقَ الثَّانِيَّ فِي طَهْرِ جَامِعَتُهَا فِيهِ. وَرُبَّمَا يَقُولُ: وَطَلَّقْتُهَا الثَّلَاثَةَ فِي شِدَّةِ غَضَبٍ. ثُمَّ يَبْقَى لَمْ يُطَلِّقْ حَتَّى الْآنَ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنْ بَابِ التَّلَاغُبِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

فَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ، وَأَلَّا يَتَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ، وَأَلَّا يَتَطَلَّبَ مَا يَكُونُ فِيهِ الرُّخْصُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ شَرْعِيٍّ.

(١) حاشية ابن عابدين (٢/٤١٩)، الشرح الصغير (٢/٥٣٨)، نهاية المحتاج (٦/١٠٩)، منتهى الإرادات (٢/١٤١).

٦- أنه لا بُدَّ من ملاحظة هذا الأمر في النكاح، وهو أن يظنَّ كُلُّ من الزوجين أن يُقيما حدودَ الله، يعني: إذا طَلَّقَ الإنسانُ زوجته ثلاثَ مرَّاتٍ، ثم تزوّجها زوج آخرَ بنكاحِ رغبةٍ، ثم طابت نفسه منها، فطلّقها بعدَ الجماعِ، فإنّها تعتدُّ له، ثم إذا اعتدّت له جاز لزوجها الأول أن يُراجعها، لكن يجب أن يلاحظَ هذا الشرطَ الذي اشترطه الله، وهو: ﴿إِنْ ظَنَّ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

فإن ظنّا ألا يُقيما حدودَ الله فلا يتزوّجها، يعني: إن ظنَّ أن الحال الأولى التي حصلَ بها الفراق ستعودُ، فلا يتزوّجها؛ لأنَّ في ذلك مفسدةٌ، وضياعاً للوقتِ، وإتلافاً للمالِ.

■ أمّا المفسدةُ فهي ما يكونُ بينَ الزوجين بعدَ الرجوعِ من التنافُرِ والتباغضِ والتّعادي، وكذلك بينَ أهليهما.

■ وأمّا ضياعُ الوقتِ فهو واضحٌ.

■ وأمّا ضياعُ المالِ فهو أيضًا سوف يُنفقُ عليها مهرًا، ونفقاتٍ أخرى بدونِ أيِّ فائدةٍ. فإذا ظنَّ أنه إذا تزوّجها بعدَ الزوجِ الثاني فإنَّ الحالَ الأولى ستعودُ، فإننا نقول: لا تتزوّجها، واطلُبِ امرأةً غيرها، ولعلَّ الله أن يأتي بالخيرِ.

٧- أنه يجبُ على المرءِ وعلى المرأة أن يخرِصا غايةَ الحرصِ على إقامةِ حدودِ الله تعالى، وهي أحكامُ الزوجيةِ التي جعلها بينَ الزوجين، أن يُقيما كُلَّ واحدٍ منهما؛ لقوله: ﴿إِنْ ظَنَّ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

٨- أنه إذا رجعتُ إلى زوجها الأول -بعدَ تزوّجها بنكاحٍ صحيحٍ، ووطءٍ زوجها الثاني لها- فإنَّ الواجبَ عليهما أن يُقيما حدودَ الله ما دامَا قد ظنّا -حينَ

العقد - أُنْهَى يُقَيِّمَانِ حُدُودَ اللَّهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا رَجَعْتَ إِلَى زَوْجِهَا الْأَوَّلِ بَعْدَ الطَّلَاقِ، فَهَلْ تَعُودُ إِلَيْهِ بَعْدَ جَدِيدٍ مِنْ عِدَّةِ الطَّلَاقِ، أَوْ بَطْلَقَةٍ وَاحِدَةٍ؟ بِمَعْنَى: أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَهَا بَعْدَ أَنْ تَزَوَّجَهَا عَقِبَ الزَّوْجِ الثَّانِي، فَهَلْ لَهُ الرَّجْعَةُ فِي الطَّلَاقِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَكَأَنَّهُ ابْتَدَأَهَا زَوْجَةً مِنْ جَدِيدٍ، أَوْ نَقُولُ: لَيْسَ لَهُ إِلَّا طَلْقَةٌ وَاحِدَةٌ؟

الصَّوَابُ: أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَيْهَا عَلَى ثَلَاثِ طَلَاقَاتٍ، بِمَعْنَى: أَنَّ لَهُ أَنْ يُطْلَقَ وَيُرَاجَعَ، وَيُطْلَقَ وَيُرَاجَعَ، فَإِنْ طَلَّقَ الثَّالِثَةَ بَانَتْ مِنْهُ؛ كَمَا بَانَتْ فِي الْأَوَّلِ، بِخِلَافِ الرَّجُلِ إِذَا طَلَّقَ امْرَأَتَهُ الطَّلَقَةَ الْأُولَى، ثُمَّ انْتَهَتْ عِدَّتُهَا، وَتَزَوَّجَتْ آخَرَ، ثُمَّ طَلَّقَهَا، وَانْتَهَتْ عِدَّتُهَا، وَرَجَعَتْ إِلَى الزَّوْجِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهَا تَرْجِعُ عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ طَلَاقِهَا.

مِثَالُ ذَلِكَ: رَجُلٌ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ تَزَوَّجَتْ رَجُلًا آخَرَ، وَبَعْدَ دُخُولِهِ بِهَا وَجَمَاعِهِ إِيَّاهَا طَلَّقَهَا، وَبَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا رَجَعَتْ لِلزَّوْجِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهُ يَنْبِي عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِدَّةِ الطَّلَاقِ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَوْ طَلَّقَهَا مَرَّةً وَاحِدَةً بَانَتْ مِنْهُ.

وهذه مَسْأَلَةٌ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَقَّنَ لَهَا، وَهِيَ: أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا عَادَتْ لَزَوْجِهَا الْأَوَّلِ، وَقَدْ بَقِيَ مِنْ طَلَاقِهَا شَيْءٌ، فَإِنَّهَا تَرْجِعُ عَلَى مَا بَقِيَ مِنَ الطَّلَاقِ، وَأَمَّا إِذَا رَجَعَتْ إِلَى زَوْجِهَا الْأَوَّلِ بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ عِدَّةَ الطَّلَاقِ، وَتَزَوَّجَتْ بِآخَرَ بَيْنَكَاحٍ صَحِيحٍ، وَجَامَعَهَا، ثُمَّ طَلَّقَهَا، وَرَجَعَتْ إِلَى الْأَوَّلِ، فَإِنَّهَا تَرْجِعُ بِالْعِدَّةِ الْكَامِلِ مِنَ الطَّلَاقِ، فَلَهُ أَنْ يُطْلَقَ وَيُرَاجَعَ، وَيُطْلَقَ وَيُرَاجَعَ، فَإِذَا طَلَّقَ الثَّالِثَةَ بَانَتْ مِنْهُ.

٩- أَنْ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحُقُوقِ الزَّوْجِيَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ هِيَ حُدُودُ اللَّهِ

عَزَّجَلَّ، وَأَحْكَامُهُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَقُومَ بِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَتَمِّ.

١٠ - أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يتركْ شيئاً نحتاجُ بيانهُ إِلَّا أبانهُ لنا، ولهذا قال: ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وهذا هو المتقررُ عندَ المُسلمينَ، أَنَّهُ ما من شيءٍ في الدنيا يحتاجُهُ النَّاسُ إِلَّا وفي القرآنِ بيانهُ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، فكلُّ شيءٍ يحتاجُهُ النَّاسُ في أمورِ دينهم أو دُنياهم فَإِنَّ القرآنَ قد بيَّنه -والحمدُ لله- على وَجِهٍ تحصيلُ به الفائدةُ.

١١ - أَنَّهُ لا يَنْتَفِعُ بالقرآنِ في مَعْرِفَةِ مَعْنَاهُ إِلَّا أَهْلُ الْعِلْمِ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، فَأَمَّا مَنْ ليس من أَهْلِ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ قد يَقْرَأُ الآيَةَ وَالْآيَاتِ وَالثَّلَاثَ، وَالصَّفْحَةَ وَالصَّفْحَتَيْنِ، وَلَمْ يَعْرِفْ مَعْنَى واحداً منها، لَكِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ لا شكَّ أَنَّهُمْ يَفْهَمُونَ من آياتِ اللهِ تعالى ما لا يفهمُهُ غيرُهُم، ولهذا كُلُّما كان الإنسانُ أَعْلَمَ كان بِمَعْرِفَةِ القرآنِ أَقْوَى.

ومن ثَمَّ أوصي إِخْوانِي بتفهُمِ معاني القرآنِ الكريمِ؛ لِأَنَّهُ قد بَيَّنَّ فيه كُلَّ شيءٍ، ولأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ كانوا يَقْرَءُونَ القرآنَ لا يَتَجَاوِزُونَ عَشَرَ آياتٍ حَتَّى يَتَعَلَّمُوهَا وما فيها من الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ^(١)، بِمَعْنَى: أَنَّهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يَقْرَءُونَ عَشَرَ آياتٍ، ثُمَّ يَتَفَهَمُونَ مَعْنَاهَا، ثُمَّ يَعْمَلُونَ بها، عَكْسَ كثيرٍ من النَّاسِ اليَوْمِ، الَّذِينَ ليس لهم هَمٌّ إِلَّا حِفْظُ الآيَةِ لَفْظاً فَقَطْ، دونَ أَنْ يَرِجِعُوا إلى مَعْنَاهَا أو الْعَمَلِ بها، والواجِبُ: حِفْظُ اللَّفْظِ ولو عن طريقِ القِراءةِ في المصحفِ، ثُمَّ التَّدَبُّرُ، ثُمَّ الْعَمَلُ؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّدَّبَرُواْ ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِّنْ يَّتَدَبَّرُونَ كلامَ اللهِ، وَيَعْمَلُونَ به، ولا يَتَعَدَّدُونَ حُدُودَهُ؛ إِنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّعَعْدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ الأجل سبق ذكره في قول الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فإذا بلغت القُرُوء الثلاثة، وحاضت ثلاث مراتٍ، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني: بعد الطَّهْر من الحيضِ الثالثة، إن شاء الإنسان استمرَّ في فراقها، وإن شاء ردَّها، كما أنَّه لو فعل ذلك قبل الطَّهْر من الحيضِ الثالثة نفعه، فكذلك إذا فعله بعد الحيضِ الثالثة - ولكنه قبل أن تغتسل - فله أن يُراجع.

هذا إذا قلنا: إنَّ معنى قوله تعالى: ﴿بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انتهت عِدَّتُهُنَّ.

ومن العلماء من قال: إنَّ معنى ﴿بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن بُلُوغَ الأجل، أي: بُلُوغَ العِدَّة، وأنها إذا انتهت العِدَّة بثلاثة قُرُوءٍ فإنه لا رجعة، وسيأتي - إن شاء الله - بيان ذلك في الفوائد.

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ردُّوهنَّ إلى حظيرة الزوجية ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: أطلقوهنَّ وأتركوهنَّ، وهذا معنى قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢].

قال: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّعَعْدُوا﴾ يعني: إذا أمسكنموهنَّ ورددنموهنَّ إلى

حَظِيرَةِ النِّكَاحِ فَلَا تَفْعَلُوا ذَلِكَ ﴿ضَرَارًا﴾ أَي: مُضَارَّةً بِالْمَرَأَةِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَبُعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقوله: ﴿لَتَعْنَدُوا﴾ أَي: لَتَكُونَ عَاقِبَتُكُمُ الْعُدْوَانُ، وَلَيْسَتْ اللَّامُ هُنَا لِلتَّعْلِيلِ؛ لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَجْلِ الْعُدْوَانِ، وَلَكِنَّ الْمَالَ هُوَ الْعُدْوَانُ، فَتَكُونُ اللَّامُ لِلْعَاقِبَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَالنَّقْطَةُءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، فَهُمْ لَمْ يَلْتَقِطُوهُ لِهَذَا الْغَرَضِ، لَكِنْ التَّقْطُوهُ، فَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ أَنَّ كَانَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يَعْنِي: مَنْ يُمَسِّكُهُنَّ ضَرَارًا ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ وَذَلِكَ لِعُدْوَانِهِ عَلَى الْمَرَأَةِ، وَالظُّلْمُ فِي الْأَصْلِ هُوَ: النِّقْصُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا﴾ [الكهف: ٣٣] أَي: لَمْ تَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا.

وقوله: ﴿وَلَا تَنَحِّدُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا﴾ أَي: لَا تَجْعَلُوهَا هُزُؤًا بِالتَّلَاعُبِ بِهَا، وَعَدَمِ الْإِتِّزَامِ بِهَا.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ؛ فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ لَا تُحْصَى، وَالْإِنْسَانُ إِذَا ذَكَرَ نِعَمَ اللَّهِ لَزِمَ مِنْ تَذْكُرِهِ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، فَيَمْتَثِلُ أَمْرَهُ، وَيَجْتَنِبُ نَهْيَهُ.

قال: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ يَعْنِي: وَادْكُرُوا أَيْضًا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَالْكِتَابُ هُوَ: الْقُرْآنُ، وَالْحِكْمَةُ هِيَ: السُّنَّةُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾

وَرُبَّمَا يُرَادُ بِالْحِكْمَةِ أَسْرَارُ الشَّرِيعَةِ، وَحِكْمُهَا الَّتِي لَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ،
فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالْحِكْمَةِ هُنَا: السُّنَّةُ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ أَحْكَامُ الْقُرْآنِ مِنَ الْحِكْمِ وَالْأَسْرَارِ.
وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْظُمُ بِهِ﴾ أَي: يُخَوِّفُكُمْ بِهِ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي: الزَّمُوا تَقْوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَذَلِكَ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ
نَوَاهِيهِ.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَي: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَإِذَا
لَمْ تَتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى فِي حَالِ غَيْبَتِكُمْ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ عَالِمُ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْحِكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١- أَنَّهُ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ إِذَا انْتَهَتْ الْعِدَّةُ -بأن حَاضَتْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- يَجُوزُ لَهُ
بَعْدَ هَذَا أَنْ يُمَسِكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ يُسَرِّحَ بِمَعْرُوفٍ.

وَالْحَدُّ الْفَاصِلُ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ هُوَ: الْاِغْتِسَالُ، فَمَا دَامَتْ لَمْ تَغْتَسِلْ
فَلَهُ أَنْ يُرَاجِعَهَا، وَلَكِنْ إِلَى مَتَى؟ فَرُبَّمَا تَبْقَى الْمَرْأَةُ لَا تَغْتَسِلُ؛ رَجَاءً أَنْ يُرَاجِعَهَا
زَوْجُهَا؟

فَيُقَالُ: إِذَا أَتَى عَلَيْهَا صَلَاةٌ وَاحِدَةٌ بَعْدَ الطُّهْرِ، وَلَمْ تَغْتَسِلْ لَهَا، وَلَمْ تُصَلِّ،
فَإِنَّهَا فِي هَذِهِ الْحَالِ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُرَاجِعَهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا مَأْمُورَةٌ شَرْعًا أَنْ تَغْتَسِلَ مِنْ
الْحَيْضِ إِذَا أَرَادَتِ الصَّلَاةَ، فَإِذَا فَرَّطَتْ فِي ذَلِكَ؛ رَجَاءً أَنْ يُرَاجِعَهَا زَوْجُهَا، فَإِنَّا
نَقُولُ لَهَا: أَنْتِ لَمْ تَتَّقِي اللَّهَ، فَلَمْ يَجْعَلْ لَكَ مَخْرَجًا. وَحِينَئِذٍ لَا يَحِلُّ لِلزَّوْجِ أَنْ يُرَاجِعَهَا
إِذَا مَضَى وَقْتُ صَلَاةٍ، وَلَمْ تَغْتَسِلْ لَهَا.

ومن العلماء مَنْ قال: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَنْ أَجْلَهُنَّ﴾ ❖ أي: قَارِبُنْ بُلُوغَ أَجْلِهِنَّ، أي: قَارِبْتُ أَنْ تَطْهَرُ مِنَ الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ. وعلى هذا القول إذا طَهَرْتُ مِنَ الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ امْتَنَعْتُ مُرَاجَعَتَهَا، سواء اغْتَسَلْتُ أم لم تَغْتَسِلْ.

٢- عِنَايَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْمُعَاشَرَةِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَأَنْ تَكُونَ بِالْمَعْرُوفِ؛ لِأَنَّهُ حَتَّى فِي الْفِرَاقِ قَالَ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ ❖.

٣- أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلزَّوْجِ بَعْدَ الْمَفَارَقَةِ، وَلَا لِلزَّوْجَةِ أَيْضًا، أَنْ يُحْدِثَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمَا جَرَى بَيْنَهُمَا مِنْ أَسْبَابِ الطَّلَاقِ وَغَيْرِهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِبَيَانِ الْعُدْرِ إِذَا لَيْمَ عَلَى هَذَا الشَّيْءِ، وَقِيلَ لَهُ: لِمَاذَا تُطَلِّقُ زَوْجَتَكَ؟ فَأَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ السَّبَبَ؛ حَتَّى يَعْذَرَهُ النَّاسُ.

وهذا إِنَّمَا يَكُونُ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْتَذَرَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، كَالْأَبِ، وَالْأَخِ، وَالْقَرِيبِ، أَمَّا عَامَّةُ النَّاسِ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْدِثَهُمْ بِمَا حَصَلَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ خِلَافُ الْمَعْرُوفِ.

٤- أَنْ مَنْ رَاجَعَ مِنْ أَجْلِ الْمَضَارَّةِ -وَلَوْ فِي حُدُودِ الطَّلَاقَيْنِ- فَإِنَّهُ مُعْتَدٍ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا﴾ ❖، وَلَكِنْ إِذَا رَاجَعَ فِي هَذِهِ الْحَالِ فَهَلْ تَصِحُّ الرَّجْعَةُ؟

نَقُولُ: إِنَّهَا لَا تَصِحُّ الرَّجْعَةُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا جَعَلَ لِلزَّوْجِ الْحَقَّ إِذَا أَرَادَ الْإِصْلَاحَ، وَنَهَى أَنْ يُرَاجِعَهَا؛ لِيُضَرَّ بِهَا، فَتَكُونَ مُرَاجَعَتُهُ هَذِهِ أَمْرًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَمْرُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)،

وعلى هذا فلا تصح الرجعة إذا قصد بها الإضرار.

٥- أن من أمسك امرأته -أي: راجعها في العدة- للإضرار بها فإنه قد ظلم نفسه، وظلم النفس محرم؛ لقول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»^(١).

٦- أن الرجل إذا أعاد زوجته بالرجعة؛ للإضرار بها، فإنه يظن أنه قد انتصر وكسب، فرد الله ذلك، وبين أنه ظالم لنفسه.

٧- أن الإنسان قد يسعى لنفسه في الشر من حيث لا يشعر؛ لأن المراجع لزوجته يظن أنه يتشفى منها بإعادة الإضرار، ولكنه في الحقيقة قد ظلم نفسه من حيث لا يشعر.

٨- تحريم اتخاذ آيات الله هزواً؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزْوَاً﴾. فإن قال قائل: هل كل ظلم يظلمه الإنسان نفسه يكون من اتخاذ آيات الله هزواً؟

فالجواب: لا شك أنه إن أراد الاستهزاء بآيات الله فإنه هزواً وكفراً بالله عز وجل؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

أما إذا لم يرد الاستهزاء فإنه لا يكفر، لكنه بمنزلة من اتخذ آيات الله هزواً، حيث لم يقم بما أوجب الله عليه، ولم يترك ما حرم الله عليه.

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٥٢).

٩- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَذْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَنِعَمَ اللَّهِ لَا تُحْصَى: نِعَمٌ بَدَنِيَّةٌ، مَالِيَّةٌ، أَهْلِيَّةٌ، عِلْمِيَّةٌ، أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى.

انْظُرْ إِلَى النَّفْسِ الَّذِي يَصْعَدُ وَيَنْزِلُ لَا تُحْسِبْ بِهِ، مَعَ أَنَّهُ دَائِمٌ، وَمَعَ أَنَّ الْحَيَاةَ تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ، فَهَلْ مِنْ أَحَدٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحْصِيَ أَنْفَاسَهُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؟! لَا يُمَكِّنُ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ لَا تُحْصَى، هَذَا فِي النَّفْسِ فَقَطْ، فَكَيْفَ بِحُصُولِ الشُّرْبِ، وَالْأَكْلِ، وَاسْتِسَاغَتِهَا، وَتَصْرِيفِهَا فِي الْبَطْنِ وَالْأَمْعَاءِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصَى؟! لَذَلِكَ نَقُولُ: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَذْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وَالْفَائِدَةُ مِنْ ذِكْرِ النِّعْمَةِ: شُكْرُ الْمُنْعِمِ عَزَّوَجَلَّ، وَشُكْرُ الْمُنْعِمِ هُوَ طَاعَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، دَلِيلُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الرُّسُلِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]»^(١)، فَالرُّسُلُ أُمِرُوا بِالْأَكْلِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْمُؤْمِنُونَ أُمِرُوا بِالشُّكْرِ: ﴿كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

وَعَلَى هَذَا، فَالْإِنْسَانُ إِذَا تَذَكَّرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَزْدَادَ طَاعَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقِيَامًا بِأَمْرِهِ، وَاجْتِنَابًا لِنَهْيِهِ.

١٠- أَنَّ أَكْبَرَ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْنَا: مَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّهَا بِالذِّكْرِ، مَعَ أَنَّهَا مِنَ النِّعَمِ، وَتُخَصِّصُهَا بِالذِّكْرِ يَدُلُّ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

على أنها أشرف هذه الأنواع، ودليل ذلك: قوله تعالى في ليلة القدر: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، فإنَّ الرُّوحَ هو جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجبريلُ من الملائكةِ بلا شكٍّ، لكنَّه نصَّ عليه؛ لأنَّه أشرفُ الملائكةِ.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، والصَّلَاةُ الْوُسْطَى من الصَّلَوَاتِ، وهي صلاةُ العَصْرِ، لكنَّه ذكَّرها بعدَ التَّعْمِيمِ؛ لأنها أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ.

فنقولُ إذن: ما أنزلَ علينا من الكتابِ والحِكْمَةِ هو أَفْضَلُ النِّعَمِ، ولا شكَّ في هذا؛ فإنَّ الإنسانَ إذا وُقِّقَ لشُكْرِ هذه النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ -وهي إنزالُ القرآنِ والحِكْمَةِ- حازَ على خَيْرٍ كَثِيرٍ.

١١- أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾، وهذا الَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، دَلِيلُ هَذَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أي: حَتَّى يَسْمَعَ الْقُرْآنَ.

١٢- عَلُوُّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ﴾، فإذا كان الْقُرْآنُ كَلَامَهُ، وكان نازلاً، دَلَّ على أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهِ كانَ عَالِيًا.

وهذا -أعني: عَلُوُّ اللَّهِ تَعَالَى بِذَاتِهِ- هو الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ، وَالْعَقْلُ، وَالْفِطْرَةُ؛ كما أَنَّ عَلُوَّهُ الْمَعْنَوِيَّ قد دَلَّ عَلَيْهِ أَيْضًا: الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ، وَالْعَقْلُ، وَالْفِطْرَةُ.

فَيَجِبُ على الإنسانِ عَقِيدَةً: أَنَّ يُؤْمِنَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَفْسَهُ فوقَ كُلِّ شَيْءٍ،

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، وأنه جلَّ وعَلَا استَوَى على العرشِ.

والعرش هو سَقْفُ المَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، وهو أَعْظَمُهَا، وَأَوْسَعُهَا، وَأَكْبَرُهَا، واللهُ تَعَالَى قد اسْتَوَى عليه، أي: عَلَا عليه عُلُوًّا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وليس كاستِواءِ الإنسانِ على الفُلْكِ، وعلى بَهيمَةِ الأنعام؛ لأنَّه لا مُمَاثِلَةَ بَيْنَ الخَالِقِ والمَخْلُوقِ؛ كما قال اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تَعَالَى: ﴿فَلَا تَصْرِيحُوا لِلَّهِ بِالْمَثَالِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

١٣ - إطلاق اسم الكتابِ على القرآن؛ لأنَّ القرآنَ مَكْتُوبٌ، فهو مَكْتُوبٌ بَيْنَ أَيْدِينَا، وكذلك أيضًا مَكْتُوبٌ في الصُّحُفِ الَّتِي فِي أَيْدِي المَلَائِكَةِ؛ كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا نَذِيرَةٌ ﴿١١﴾ مَن شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٥]، وهو كذلك أيضًا مَكْتُوبٌ في اللُّوحِ المَحْفُوظِ، كما قال اللهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

١٤ - اشتِمَالُ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ عَلَى الحِكْمَةِ، وأنه ليس فيها شَيْءٌ إِلَّا مَقْرُونٌ بِالْحِكْمَةِ، فَكُلُّ مَا شَرَعَهُ اللهُ عَزَّجَلَّ فِي كِتَابِهِ فَإِنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى حِكْمَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾.

١٥ - أَنَّ المَوْعِظَةَ حَقِيقَةٌ إِنَّهَا هِيَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يُعِظُكُمْ بِهِ﴾، وَلَا وَاعِظٌ أَشَدُّ مِنْ وَاعِظِ الْقُرْآنِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وَلَا وَاعِظٌ أَوْقَعُ فِي النُّفُوسِ مِنَ الْقُرْآنِ.

١٦ - وَجُوبُ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وَالتَّقْوَى هِيَ: اتِّخَاذُ وَقَايَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

١٧ - أَنَّهُ يَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وَعِلْمُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِّنْ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَهُ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاصُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)

لَمَّا كَانَ بَعْضُ الْأَوْلِيَاءِ إِذَا طَلَّقَتْ مَوْلِيَّتَهُ، ثُمَّ انْتَهَتْ الْعِدَّةُ، مَنَعَهَا أَنْ تَعُودَ إِلَى زَوْجِهَا الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ فِي تَطْلِيقِهَا إِيَّاهَا، وَتَرْكِهَا إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ الْعِدَّةُ، إِذْ لَا لَهَا

ولأهلها، فَيَمْنَعُ مَنْ أَنْ تَعُودَ إِلَى زَوْجِهَا، ولهذا نَهَى اللهُ تعالى عن ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أنه إذا أراد الزوج المطلق أن يعود إلى زوجته بعد انتهاء العدة، فإنه لا يحل لأوليائها أن يمنعوها من الرجوع إليه، إذا وافقت؛ لقوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

٢- أنه لا يمكن أن ترجع إلى زوجها الأول بعد انتهاء العدة إلا بعقد؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾، والنكاح هو العقد.

وقد سبق أنه لا يراد بالنكاح الجماع إلا في قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وبيننا السبب في أنه أريد بالنكاح الجماع؛ لأنه قال: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا﴾، ولا زوج إلا بعقد، أما إذا جاء لفظ النكاح في القرآن فإنما يراد به عقد.

إذن، لا بد أن ترجع المرأة إلى زوجها الأول بعد العدة بعقد.

٣- أنه إذا راجعها الزوج الأول قبل بلوغ الأجل فإنه يرجع بلا عقد؛ لقوله: ﴿فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ﴾، فقال: ﴿فَلَنْ أَجْلَهُنَّ﴾، فإذا أراد الزوج المطلق الرجوع إليها قبل أن تنتهي العدة فإنه يرجع إليها بلا عقد.

٤- الإشارة إلى اعتبار الولي في النكاح؛ لقوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ

أَزْوَجَهُنَّ ﴿١﴾، وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ اشْتِرَاؤُ الْوَلِيِّ لَكَانَ مَنْعُهُ وَعَدَمُهُ سَوَاءً؛ إِذْ يُمَكِّنُهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ بِدُونِهِ.

ولكن ليس هذا بشيءٍ صريحٍ، ولهذا قلنا: «الإشارة»، ولم نَجْزِمُ بِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ رَبِّمَا يَعْضُلُهَا، فيقول: لا تَتَزَوَّجِي فُلَانًا. ثُمَّ يُكْرِهُهَا عَلَى أَلَّا تَتَزَوَّجَ، وَلَيْسَ يَعْنِي ذَلِكَ: أَنَّهَا لَوْ تَزَوَّجَتْ بِدُونِهِ لَمْ يَصَحَّ.

وعلى كُلِّ حَالٍ، فَالْوَلِيُّ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي عَقْدِ النِّكَاحِ، دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ نُصُوصٌ أُخْرَى، إِذَا لَمْ نُسَلِّمْ دَلَالَةَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى ذَلِكَ.

٥- أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الرِّضَا فِي عَقْدِ النِّكَاحِ: رِضَا الزَّوْجِ، وَالزَّوْجَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ﴾.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي الْبِكْرِ إِذَا زَوَّجَهَا أَبُوهَا، هَلْ يُشْتَرَطُ رِضَاهَا، أَوْ لَا؟ وَالصَّوَابُ: أَنَّهُ يُشْتَرَطُ رِضَاهَا، وَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُزَوَّجَ امْرَأَةٌ بِدُونِ رِضَاهَا أَبَدًا، سَوَاءَ كَانَتْ بَكْرًا أَمْ ثَيِّبًا، وَسَوَاءَ كَانَ الْمَزْوَجُ أَبَاهَا أَمْ غَيْرَهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ، وَلَا تُنْكَحُ الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ»^(١)، وَفِي لَفْظٍ: «الْبِكْرُ يَسْتَأْذِنُهَا أَبُوهَا»^(٢)، فَنَصَّ عَلَى الْبِكْرِ، وَنَصَّ عَلَى الْأَبِ، وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُزَوَّجَ ابْنَتَهُ إِلَّا بِرِضَاهَا، سَوَاءَ كَانَتْ ثَيِّبًا أَمْ بَكْرًا، فَإِنْ زَوَّجَهَا بِدُونِ رِضَاهَا، ثُمَّ رَضِيَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْعَقْدَ يَصِحُّ، وَإِنْ لَمْ تَرْضَ فَإِنَّهُ يُفْسَخُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ نِكَاحٌ إِلَّا بِرِضَا الزَّوْجَيْنِ.

(١) تقدم تخرجه (ص: ١١٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح، رقم (٦٨/١٤٢١) من حديث

ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٦- أَنَّ الْمَهْرُ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى الزَّوْجَيْنِ، لَا إِلَى غَيْرِهِمَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا تَرَضَوُا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وعلى هذا، فلا يحلُّ للأب، ولا لغير الأب من الأولياء، أن يتحكَّم في المهر، فيقول للخاطب: لا أزوجه إلا بكذا وكذا. بل إذا رضيَت المرأة أن تتزوج به بأدنى ما يكون من المهر، فليس لأحد حق الاعتراض عليها، فلو أن المرأة رضيَت أن تتزوج هذا الرَّجُل الخاطب بمئة ريال، ومهرٌ مثلها عشرة آلاف ريال، فإنه ليس لأحد أن يعترض عليها؛ لأنَّ الحقَّ لها، قال الله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ﴾ أي: مهرهنَّ ﴿نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، فأضاف المهور إليهنَّ، لا إلى غيرهنَّ.

وما يفعله بعض الأولياء من التحكُّم خطأ، خطأً على المرأة، وخطأً على الرَّجُل؛ لأنَّ الله تعالى جعل الأمر إلى الزوجين، فقال: ﴿إِذَا تَرَضَوُا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٧- الإشارة إلى وجوب الوفاء بالشروط التي تقع بين الزوجين؛ لقوله: ﴿إِذَا تَرَضَوُا بَيْنَهُمْ﴾، فمتى اشترطت المرأة حقاً لنفسها - وهو غير مُحَرَّم - وجب على الزوج أن يفي به، وإذا شرط الزوج على امرأته شيئاً - وهو غير مُحَرَّم - وجب عليها أن تفي به.

وقولنا: «وهو غير مُحَرَّم» أردنا به الاحتراز من الشرط المحرَّم، كما لو اشترطت المرأة على الزوج أن يطلق زوجته التي معه، فإنَّ هذا الشرط باطلٌ وحرامٌ؛ لقول النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَسْأَلِ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا؛ لِتَكْفَأَ مَا فِي صَحْفَتِهَا»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب لا يبيع على بيع أخيه، رقم (٢١٤٠)، ومسلم: كتاب النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن أو يترك، رقم (١٤١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٨- أَنَّ الشُّرُوطَ تَكُونُ بِالْمَعْرُوفِ، أَي: بِمَا عَرَفَهُ الشَّرْعُ وَأَقَرَّهُ، فَإِنْ كَانَتْ مِمَّا يُخَالِفُ الشَّرْعَ فَإِنَّهَا مَرْفُوضَةٌ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ كَانَ مِثْلَ شَرْطٍ»^(١).

٩- أَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ -سواء كانت أوامِر، أم نواهي- مَوْعِظَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، يَعِظُ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَذَكَّرُ وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ إِنَّمَا أَمَرَهُ بِذَلِكَ؛ لِيَنْجُوَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا نَهَاَهُ عَمَّا نَهَاَهُ عَنْهُ؛ لِيَنْجُوَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَفِعْلُ الْأَوَامِرِ سَبَبٌ لِلنَّجَاةِ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ عَذَابِهِ، وَوَيْلَاتِهِ، وَمُخَالَفَةُ تِلْكَ الْأَوَامِرِ سَبَبٌ لِلْعُقُوبَةِ وَالشَّرِّ وَالْبَلَاءِ.

ولهذا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ كُلَّمَا دَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى تَرْكِ وَاجِبٍ أَنْ يَتَذَكَّرَ الْيَوْمَ الْآخِرَ، ذَلِكَ الْمَوْقِفَ الْعَظِيمَ الَّذِي يَفِرُّ فِيهِ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ، وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ، وَبَنِيهِ، يَتَذَكَّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي طَوَّلَهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، يَتَذَكَّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي تَدُنُو فِيهِ الشَّمْسُ مِنَ الْخَلَائِقِ قَدَرٍ مِيلٍ، يَتَذَكَّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي يَعْرِقُ فِيهِ النَّاسُ، فَيُلْغُ الْعَرَقُ مِنْهُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، إِلَى الرُّكْبَتَيْنِ، إِلَى الْحَقْوَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْجَمَاءُ، يَتَذَكَّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ، يَتَذَكَّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي تَسِيرُ فِيهِ الْجِبَالُ سَيْرًا، وَتَكُونُ هَبَاءً مَنْثُورًا.

فَعَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِالْمُخَالَفَةِ أَنْ يَتَذَكَّرَ هَذَا الْيَوْمَ، وَمَا ذَلِكَ الْيَوْمَ بَعِيدٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَهُ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ، فَإِذَا مَاتَ انْتَقَلَ إِلَى عَالَمِ الْجَزَاءِ، انْتَقَلَ إِلَى الْآخِرَةِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِهِ، وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اشترط شروطاً في البيع لا تحل، رقم (٢١٦٨)، ومسلم: كتاب العتق، باب بيان أن الولاء لمن أعتق، رقم (١٥٠٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

من المَوَاعِظِ الَّتِي يَتَعَطَّ بِهَا الْإِنْسَانُ، فَيَسْتَقِيمُ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُتَعَطِّينَ بآيَاتِهِ، الْمُتَمَسِّكِينَ لِأَمْرِهِ، الْمُجْتَنِبِينَ لِنَهْيِهِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١٠ - أَهَمِّيَّةُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الِاتِّعَاضُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ لِأَنَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ حَقًّا خَافَ مِنْهُ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ كَانَ مِنْهُ أَخَوْفَ.

ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ مَخَافَةً لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَتَّى إِنَّهُ إِذَا رَأَى سَحَابًا أَوْ رِيحًا صَارَ يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيُقَالُ لَهُ فِي ذَلِكَ، يَعْنِي: أَنَّ هَذَا الشَّيْءَ مُعْتَادٌ، أَوْ مَا أَشَبَّهُ هَذَا، فَيَقُولُ: «وَمَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟! قَدْ عَذَّبَ قَوْمٌ بِالرَّيْحِ»^(١)، يُشِيرُ إِلَى قَوْمٍ عَادِ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا﴾، وَكَانُوا قَدْ أَصَابَهُمُ الْقَحْطُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَاسْتَبَشَرُوا حِينَ رَأَوْا هَذِهِ الرِّيحَ الْعَظِيمَةَ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا قَطْعُ السَّحَابِ الْمُظْلِمِ، قَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ أي: مِنَ الْعَذَابِ، حِينَ اسْتَكْبَرْتُمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢٤) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴿[الأحقاف: ٢٤-٢٥]، فَدَمَّرَتْ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى كَانَتْ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ إِلَى فَوْقِ، ثُمَّ تُعِيدُهُ إِلَى الْأَرْضِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- فَأَصْبَحُوا كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، وَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قول الله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾، رقم (٤٨٢٩)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح، رقم (٨٩٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وإنني بهذه المناسبة أودُّ أن أُحذِّر إخواننا المسلمين الذين يؤمنون بالله، ممَّا يدورُ على الألسنة أحياناً فيما إذا أُصيبَ النَّاسُ بِزُلْزَالٍ، أو بِعَوَاصِفٍ، أو بِفَيْضَانَاتٍ، قالوا: هذا أمرٌ طَبِيعِيٌّ، وهذا أمرٌ لَا يُهِمُّ. فَإِنَّ هَذَا - لَا شَكَّ - دَلِيلٌ عَلَى قَسْوَةِ الْقَلْبِ، وَعَدَمِ اتِّعَاطِهِ بِهَذِهِ النَّوَازِلِ الْعَظِيمَةِ؛ فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّ هَذَا لَيْسَ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ، بَلْ هَذَا مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، يَتَّبِلِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ؛ لِيَتَّعِظَ النَّاسُ، وَيَخَافُوا مِنَ اللَّهِ.

لكن لَمَّا قَسَتِ الْقُلُوبُ صَارَ النَّاسُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أَي: إِنْ يَرَوْا عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]. فالوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَّعِظَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ، وَأَنْ نَخْشَى، وَأَنْ نَحْذَرَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

١١ - أَهْمِيَّةُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ - فِي الْأَصْلِ - هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، الَّذِي يَقُومُ فِيهِ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ، هُوَ النِّهَايَةُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ.

وَمَنْ تَدَبَّرَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الْأَهْوَالِ فِي هَذَا الْيَوْمِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ يَوْمٌ عَظِيمٌ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعِدَّ لَهُ أَتَمَّ اسْتِعْدَادٍ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمِنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ ^(١).

وعلى هذا، فالإيمان بفتنة القبر من الإيمان باليوم الآخر، وفتنة القبر: أن الإنسان إذا مات، وتولّى عنه أصحابه، أتاه ملكان يسألانه عن ثلاثة أشياء: عن ربه، ودينه، ونبىّه. فيقولان له: من ربك؟ فيقول المؤمن: ربّي الله. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان: من نبىك؟ فيقول: نبىي محمد.

أمّا المنافق أو المرتاب -أعاذنا الله وإياكم من ذلك- فإنّه يقول: هاه، هاه، لا أدري، سمعتُ الناس يقولون شيئاً، فقلته. لأنّه ليس عنده إلا ما نطق به لسانه فقط، وقلبه خالٍ من الإيمان -نسأل الله العافية- فيضرب بمِرْزَبَةٍ من حديد، فيصيح صيحةً يسمّعها كلُّ شيءٍ إلا الثقلين.

وهذا من الإيمان باليوم الآخر، لكنّ اليوم الآخر الحقّ هو يوم القيامة. وإنّني -بهذه المناسبة- أُنَبِّه على كلمةٍ يقولها كثيرٌ من الناس إذا مات الميت، قال: ثمّ نُقِلْ إلى مثواه الأخير. أو: وارَوْهُ في مثواه الأخير. وهذه الكلمة خطيرةٌ جداً، فلو أنّ الإنسان اعتقد مقتضاها لكان كافراً؛ لأنّه إذا اعتقد أنّ المثلوى الأخير هو دفنه فهذا يستلزم ألا يكون هناك بعث؛ لأنّ البعث بعد الدفن، فهي كلمة خطيرةٌ جداً.

لكنّ الناس يتناقضونها من غير أن يفكروا في معناها، وما أكثر الكلمات التي يتناقضها الناس، واحداً بعد آخر، من غير أن يتأملوا في معناها.

ولهذا أنصح إخواني إذا اتهموا الكلمات التي ليست في الكتاب، ولا في السنة، ولا في كلام الصحابة (رضي الله عنهم)، ولا في كلام السلف الصالح، أن يحذروا منها، وأن يتأملوا معناها أولاً، هل هو صحيح، أو غير صحيح؟ فإن كان صحيحاً أخذوا به، وإن كان غير صحيح رَفَضُوهُ، مهما كان المتكلم بها.

١٢ - أَنَّهُ إِذَا اتَّعَظَ الْإِنْسَانُ بِمَوْعِظَةِ اللَّهِ كَانَ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُ وَأَطْهَرَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

١٣ - أَنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِي الزَّكَاةِ وَالطَّهَارَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَزْكَى﴾ ﴿وَأَطْهَرُ﴾؛ لِأَنَّهَا اسْمُ تَفْضِيلٍ، وَاسْمُ التَّفْضِيلِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مُفَضَّلًا عَلَيْهِ، وَمُفَضَّلًا عَلَى غَيْرِهِ.

لذلك نقول: إِنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِي الزَّكَاةِ وَالطَّهَارَةِ، وَهَذَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ أَنَّهُمْ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْإِيمَانِ، وَيَتَفَاضَلُونَ فِي الثَّوَابِ، وَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْوَاقِعُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّ النَّاسَ لَا يَتَفَاضَلُونَ فِي الْإِيمَانِ. فَإِنَّ قَوْلَهُ غَيْرُ صَحِيحٍ، بَلِ النَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي الْإِيمَانِ زِيَادَةً، وَنَقْصًا، وَقُوَّةً، وَضَعْفًا.

١٤ - نَقُصُّ عَلِمْنَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فَهَذَا نَفَى عَنَّا الْعِلْمَ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَيْسَ نَفْيًا مُطْلَقًا، بِمَعْنَى: أَنَّنَا لَا نَعْلَمُ شَيْئًا، بَلِ إِنَّنَا نَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَكِنْ يَفُوتُنَا أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ.

فَعَلَيْنَا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الْأَصْلَ فِيْنَا الْجَهْلُ وَعَدَمُ الْعِلْمِ، لَكِنْ مَا عَلِمْنَاهُ -مِمَّا عَلَّمَنَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ، أَوْ بِالْوَحْيِ الَّذِي نَزَلَ- فَإِنَّهُ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَعْلُومَاتِ.

ولهذا لَمَّا سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الرُّوحِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ: هَلْ مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا عِلْمُ الرُّوحِ حَتَّى

تَسْأَلُوا عَنْهَا، وَتُلْحِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ فِيهَا؟! إِنَّهُ قَدْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ كَثِيرٌ، ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا وَإِيَّاكُمْ عِلْمًا نَافِعًا، وَعَمَلًا صَالِحًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا وَاسِعًا، يُغْنِينَا بِهِ عَن خَلْقِهِ، وَلَا يُغْنِينَا بِهِ عَنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ اللَّهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ هذا خبرٌ من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولكنه بمعنى الأمر: أَنْ الْوَالِدَاتِ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ.

وَالْأَوْلَادُ تُشْمَلُ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ كَلِمَةَ (أَوْلَادٍ) تَعْنِي: الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ، مِنَ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ الْمُرَادُ بِالْحَوْلَيْنِ: حَوْلَانِ هِلَالِيَّانِ؛ لِأَنَّ التَّوْقِيتَ الشَّرْعِيَّ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْأَهْلَةِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾

أي: هِلَالِيْن، وهكذا كُلُّ ما جاء في التَّوْقِيْتِ شَرْعًا فالمرادُ بذلك: الأشهُرُ الهِلَالِيَّةُ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢]، فالمرادُ بالشَّهْرَيْنِ: الأشهُرُ الهِلَالِيَّةُ، وكما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]، فالمرادُ الأشهُرُ: الهِلَالِيَّةُ.

وقَوْلُهُ: ﴿كَاْمِلَيْنِ﴾ أي: غَيْرِ نَاقِصَيْنِ، والكَمَالُ هنا يَكُونُ في العَدَدِ، وَيَكُونُ في الصِّفَةِ.

أَمَّا في العَدَدِ فهو إكْمَالُ الحَوْلَيْنِ، وَأَمَّا في الصِّفَةِ فَاْلْمَعْنَى: أَلَّا تُقْصَرَ الوَالِدَةُ في الإِرْضَاعِ في هذه المُدَّةِ، بل تُرَضِعُ وَلَدَهَا كُلَّمَا احتَاجَ إلى الإِرْضَاعِ.

وقَوْلُهُ: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ يَعْنِي: ذَلِكَ الْحُكْمُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ، أَمَّا مَا زَادَ عَنِ الحَوْلَيْنِ فَالْغَالِبُ أَنَّ الوَلَدَ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ الْفِطَامُ.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الْمَوْلُودُ لَهُ: هُوَ الزَّوْجُ، أَوِ السَّيِّدُ. عَلَيْهِ رِزْقُهُنَّ مِنْ طَعَامٍ، وَشَرَابٍ، وَعَلَيْهِ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ.

وَسَكَتَ عَنِ السُّكْنَى؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ تَكُونُ مَعَ زَوْجِهَا فِي سُكْنَاهُ، سِوَاءَ كَانَتْ زَوْجَةً، أَمْ أَمَةً.

وقَوْلُهُ: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بِمَا عَرَفَهُ النَّاسُ وَاعْتَادُوهُ، فَلَا تُطَالِبُ بِأَكْثَرٍ مِنَ الْإِنْفَاقِ الْمُعْتَادِ، وَلَا تُنْقِصُ عَنِ الْمُعْتَادِ فِي الْإِنْفَاقِ.

﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُلْزِمُ أَحَدًا شَيْءً إِلَّا بِقَدْرِ طَاقَتِهِ، وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمَوْلُودُ لَهُ فَقِيرًا فَإِنَّهُ لَا يُلْزَمُ إِلَّا بِنَفَقَةٍ فَقِيرٍ.

وقوله: ﴿لَا تُضَاكِرْ وَلَدَهُ يَوْلَدَهَا﴾ ﴿تُضَاكِرْ﴾ صيغة فعل مضارع، يصح أن يكون مبنياً للفاعل، ويصح أن يكون مبنياً لها لم يسم فاعله.

فإن كان مبنياً للفاعل فكك الإدغام فيه: «لا تُضَارِرْ والدته»، وإن كان مبنياً لها لم يسم فاعله فكك الإدغام فيه: «لا تُضَارِرْ والدته».

والمعنى: أنه لا يجوز للمرأة أن تضار بولدها، فتمتنع من إرضاعه التام؛ للضغط على الأب، ولا يضارها الأب بالشح في الإنفاق عليها أو ما أشبه ذلك، ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يَوْلَدُوه﴾ يعني: ولا يضار المولود له - وهو الزوج أو السيد - بولده، بل على الجميع أن يعامل صاحبه بالحسنى بدون مضارة.

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي: على من يرث الولد - إذا لم يكن له أب - مثل ذلك، أي: مثل ما على الأب من الإنفاق بالمعروف، وعدم الإضرار.

ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّ النِّفْقَةَ واجبة على كل قريب يرث قريبه، إذا كان الوارث غنياً، وكان الموروث فقيراً؛ لقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي: أراد الأبوان الأم والأب ﴿فَصَالَا﴾ أي: فصل الولد عن الرضاع ﴿عَنْ تَرَضٍ مِنْهُمَا﴾ يعني: أراداً فصلاً صَادِراً عن تراضٍ منهما، أي: أن الأب رضي بفطم الطفل، والأم رَضِيَتْ بذلك ﴿وَتَشَاوَرَا﴾ أي: مُرَاجَعَةٍ فيما بينهما، فلا يكفي التراضي؛ لأنهما قد يتراضيان على ما فيه ضرر الرضيع، فلا بُدَّ من تشاور، ولا بُدَّ من تراضٍ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فلا جناح على الوالد ولا على الوالدة في فصل المولود عن الرضاعة.

﴿وَلِنْ أَرَدْتُمْ﴾ الخطاب هنا: للأزواج أو الأسياد ﴿أَنْ تَسْرَضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي:

تَطْلُبُوا مَنْ يُرْضِعُهُمْ مِنْ غَيْرِ أُمَّهَاتِهِمْ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فلا حَرَجَ ولا إِثْمَ.

وهذا فيما إذا امْتَنَعَ الإرضاعُ من الأُمِّ؛ إمَّا لِقِلَّةِ اللَّبَنِ، وإمَّا لَمَرَضِ أَصَابِهَا، أو لَسَبَبٍ من الأسبابِ، إمَّا إذا كانتِ الأُمُّ على استِعْدَادٍ لإرضاعِهِ فَإِنَّهُ لَا يُعَدَّلُ إِلَى غَيْرِهَا بَدَلًا عَنْهَا.

وقوله: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني: أنكم إذا اسْتَرْضَعْتُمْ امْرَأَةً أُخْرَى فلا بُدَّ أَنْ تُسَلِّمُوا مَا أُعْطِيتُمُوهُنَّ من الأَجْرَةِ على وَجْهِ الْمَعْرُوفِ، من غَيْرِ مُطَاطَلَةٍ ولا مُنَاكَرَةٍ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتَّخِذُوا وَقَايَةً من عَذَابِهِ، وذلك بفعلِ أوَامِرِهِ، واجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فاحْذَرُوا ذلك؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَصِيرٌ بِكُلِّ مَا نَعْمَلُ، من خَيْرٍ وَشَرٍّ، ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ، وهذا يَسْتَلْزِمُ أَنْ نَخْشَى اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالِمٌ بِنَا.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- أَنَّ الرِّضَاعَ الأكْمَلَ ما اسْتَوْعَبَ الحَوْلَيْنِ الكَامِلَيْنِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾.

٢- أَنَّ الأُمَّ يَجِبُ عَلَيْهَا إرضاعُ وَلَدِهَا فِي هَذَيْنِ الحَوْلَيْنِ الكَامِلَيْنِ، ما دَامَ مُتَحَاجًّا إِلَى الإرضاعِ.

٣- الْحِكْمَةُ فِي كَوْنِ الأُمِّ هِيَ الَّتِي تُرْضِعُ الْوَلَدَ؛ لِأَنَّ فِي لَبَنِهَا من الْمَنْفَعَةِ ما ليس فِي لَبَنِ غَيْرِهَا من النِّسَاءِ، ولأنَّ إرضاعَهَا إِيَّاهُ يَدْعُو إِلَى قُوَّةِ الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ، وَمَحَبَّتِهِ،

وَرَحْمَتِهِ؛ لِأَنَّهُ يَبْقَى فِي حِضْنِهَا، وَيَلْتَقِمُ ثَدْيَهَا، وَيَرْضَعُهَا، وَيَحْصُلُ لَهَا بِذَلِكَ مُتْعَةٌ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ الْأُمَّ هِيَ الَّتِي تَتَوَلَّى إِرْضَاعَ وَلَدِهَا.

٤- أَنَّهُ كَمَا كَانَتِ الْأُمُّ تُعْطِي وَلَدَهَا مَا تَقُومُ بِهِ حَيَاتُهُ مِنَ اللَّبَنِ، فَعَلَى الْأَبِ أَنْ يُعْطِيَ الْأُمَّ مَا تَقُومُ بِهِ حَيَاتُهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أَي: بِمَا جَرَى بِهِ الْعُرْفُ وَالْعَادَةُ، فَيَجِبُ عَلَى الْأَبِ أَنْ يُعْطِيَ الْأُمَّ نَفَقَتَهَا وَكِسْوَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَهَلْ هَذَا ثَابِتٌ لِلأُمِّ، سَوَاءَ كَانَتْ فِي عِصْمَةِ الزَّوْجِ، أَوْ بَعْدَ فِرَاقِهِ، أَوْ هُوَ فِيهَا إِذَا فَارَقَهَا؟

الصَّوَابُ: أَنَّهُ فِي حَالِ كَوْنِهَا فِي عِصْمَتِهِ، وَبَعْدَ فِرَاقِهِ، لَكِنْ إِذَا كَانَتْ فِي عِصْمَتِهِ اكْتَفِيَ بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا بِاسْمِ الزَّوْجِيَّةِ عَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا عَوَضًا عَنِ الرِّضَاعِ، وَإِذَا كَانَتْ خَارِجَ عِصْمَتِهِ فَلَهَا الْإِنْفَاقُ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ مِنْ أَجْلِ الْإِرْضَاعِ.

٥- أَنَّ الْعُرْفَ مَرْجِعٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي الْأَحْكَامِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾. وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَا أَتَى فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُطْلَقًا بِدُونِ قَيْدٍ شَرْعِيٍّ، فَإِنَّهُ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى الْعُرْفِ، وَعَلَى هَذَا يَقُولُ النَّازِمُ:

وَكُلُّ مَا أَتَى وَلَمْ يُحَدِّدْ بِالشَّرْعِ كَالْحِرْزِ فَبِالْعُرْفِ احْدُدْ^(١)

الْحِرْزُ: يَعْنِي: حِرْزُ الْأَمْوَالِ، وَهَذَا يَحْتَاجُ الْإِنْسَانَ إِلَيْهِ فِي بَابِ الْحُدُودِ، وَفِي بَابِ الْإِجَارَةِ، وَفِي بَابِ الْعَارِيَّةِ، وَفِي بَابِ الْوَدِيعَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، يَعْنِي: أَنَّ حِرْزَ الْأَمْوَالِ هُوَ مَا تُحْفَظُ بِهِ الْأَمْوَالُ فِي الْعَادَةِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَرِدْ بِتَحْدِيدِهِ،

(١) منظومة أصول الفقه وقواعده للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، (ص: ٢٥١).

فلم يَقُلْ: حِرْزُ الغَنَمِ كذا، وحِرْزُ الإِبِلِ كذا، وحِرْزُ الذَّهَبِ كذا، وحِرْزُ الفِضَّةِ كذا، وحِرْزُ اللُّؤْلُؤِ كذا، وحِرْزُ الأَوَانِي كذا. فِيرْجَعُ في ذلك إلى العُرفِ.

كذلك هنا الرِّزْقُ يَعْنِي: الطَّعَامَ، والشَّرَابَ، والكِسْوَةَ بالمَعْرُوفِ، لم يُحَدِّثْهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فِيرْجَعُ في ذلك إلى العُرفِ، وَيَخْتَلِفُ هذا باختِلَافِ الأَحْوَالِ العامَّةِ والخاصَّةِ، مِثْلُ: أَنْ يَكُونَ الْبَلَدُ ضَعِيفَ الْاِقْتِصَادِيَّاتِ، مِنَ الْبِلَادِ الْفَقِيرَةِ، فَيَكُونُ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ مِنْ رِزْقِ الْمَرْضِعَةِ وَكِسْوَتِهَا مَا يَلِيقُ بِأَحْوَالِ الْبَلَدِ.

وقد يَكُونُ هذا مُخْتَلِفًا باختِلَافِ الْحَالِ الخاصَّةِ، بِأَنْ يَكُونَ الْبَلَدُ بَلَدَ غِنَى، لَكِنْ هَذَا الرَّجُلُ الْمُعَيَّنُ فَقِيرٌ، فَيُعْتَبَرُ بِحَالِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الرِّزْقَ الَّذِي يَحِبُّ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ يَكُونُ بِحَسَبِ حَالِهِ.

٦- كَمَا لَمْ يَكُنْ رَحْمَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ حَيْثُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا طَاقَتَهَا، وَهَذَا شَامِلٌ فِي أُمُورِ الْعِبَادَةِ، وَأُمُورِ الْمُعَامَلَةِ، وَغَيْرِهَا، أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُكَلِّفُ إِلَّا مَا يُطِيقُ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: «قَدْ فَعَلْتُ»^(١).

فَكُلُّ مَا لَا يُطِيقُهُ الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ سَاقِطٌ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ فِي حَقِّ اللهِ فَالْأَمْرُ وَاضِحٌ، وَإِنْ كَانَ فِي حَقِّ الْآدَمِيِّينَ، فَإِذَا سَقَطَ عَنْهُ فَلصاحبِ الْحَقِّ أَنْ يَأْخُذَ بِحَقِّهِ عَلَى حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الشَّرِيعَةُ.

٧- تَحْرِيمُ الْمُضَارَّةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾،

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٠٧).

وقد قال النبي ﷺ: «لَا ضَرَرَ، وَلَا ضِرَارَ»^(١).

فإن قال قائل: ما الفرق بين الضرر والضرار؟

قلنا: الضرر: ما حصل عن غير قصد. والضار: ما حصل بقصد. وكلاهما مُمتنع، لكن الضرر أشد؛ لأنه يحصل بقصد، والضرر بغير قصد، لكن لا يجوز الإبقاء على الضرر، بل الضرر منفي شرعاً.

٨- أنه قد يحصل من الوالدة أو الوالد مضارة، وهذا خارج عن طبيعة الإنسان، ومقتضى الفطرة، لكنه واقع، فإن من الناس من يضار ولده، ومن النساء من تضار ولدها.

ولكننا نقول: مضارة القريب لقريبه أشد من مضارة البعيد للبعيد؛ لأن مضارة القريب لقريبه يحصل بها مفسدتان: المفسدة الأولى: مفسدة المضارة. والمفسدة الثانية: قطيعة الرحم.

٩- عناية الله سبحانه وتعالى بالضعفاء، ومن لا يستطيعون أن يأخذوا الحق بأنفسهم؛ حيث إنه تبارك وتعالى لم يرخص في فطام الرضيع إلا إذا وقع عن تراض بين الوالدين وتشاور؛ لقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، وهذا يدل على عناية الله تعالى بالضعفاء، والأمثلة على هذا كثيرة.

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، رقم (٢٣٤٠) من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٠ - جَوَازُ اسْتِرْضَاعِ امْرَأَةٍ أُخْرَى لِلْمَوْلُودِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، وَلَكِنْ هَذَا مَا لَمْ تَطْلُبِ الْأُمَّ إِرْضَاعَهُ، فَإِنْ طَلَبْتَ إِرْضَاعَهُ فَلَا يَحِلُّ لِلْمَوْلُودِ لَهُ أَنْ يَمْنَعَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَيَسْتَرْضِعَ امْرَأَةً أُخْرَى.

١١ - جَوَازُ أَخْذِ الْأَجْرَةِ عَلَى الْإِرْضَاعِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وَقَدْ نَصَّ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ نَصًّا صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

وَالْأَجْرَةُ هُنَا لَا شَكَّ أَنَّهَا عَلَى الْإِرْضَاعِ الَّذِي مَقْصُودُهُ الْأَوَّلُ وَالْأَخِيرُ اللَّبَنُ، فَيَكُونُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَأْجِيرِ الْأَعْيَانِ إِذَا كَانَتْ تُؤْخَذُ شَيْئًا فَشَيْئًا، كَتَأْجِيرِ الشَّاةِ لِأَخْذِ لَبَنِهَا مُدَّةَ شَهْرٍ، أَوْ أُسْبُوعٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَعْيَانَ الَّتِي يَخْلُفُ بَعْضُهَا بَعْضًا بِمَنْزِلَةِ الْمَنَافِعِ، وَالْإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ عَلَى جَوَازِ الْاسْتِئْجَارِ لِاسْتِيفَاءِ الْمَنَافِعِ الْمُبَاحَةِ.

١٢ - أَنَّ الْاسْتِئْجَارَ عَلَى الْإِرْضَاعِ يَكُونُ بِالْمَعْرُوفِ، بِمَعْنَى: أَلَّا يُمَاطِلَ الْمَوْلُودُ لَهُ بِالْأَجْرَةِ، وَلَا يَجْحَدَ شَيْئًا مِنْهَا، بَلْ يُسَلِّمُهَا تَامَةً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

١٣ - وَجُوبُ تَقْوَى اللَّهِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ مُخَالَفَتِهِ.

١٤ - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ مَا نَعْمَلُ، عَالِمٌ بِهِ، وَهَذَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ فَائِدَةٌ، وَهِيَ: الْحَذَرُ مِنْ مُخَالَفَتِهِ؛ لِأَنَّا مَهْمَا كَتَمْنَا فَاللَّهُ يَعْلَمُهُ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْذَرَ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٣٤)

يقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ وأبهم المتوفي، ولكنه سبحانه وتعالى بيّن في القرآن الكريم في عدة آيات من المتوفي، فمرة قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، ومرة قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، ومرة قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فأضاف التوفي إلى نفسه، وإلى رُسُلِهِ، وإلى مَلِكِ الْمَوْتِ.

والجمع بين هذا الاختلاف: أن الله مُتَوَفٍّ لِلْأَنْفُسِ حِينَ مَوْتِهَا؛ لَأَنَّ وفاتها بَأَمْرِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذا كما يُقَالُ: «بَنَى الْأَمِيرُ قَصْرَهُ» وهو قد أَمَرَ بِنَائِهِ، ولم يُبَاشِرْهُ بِيَدِهِ. وأضاف الله تعالى الوفاة إلى الرُّسُلِ؛ لِأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرُّوحَ بَعْدَ أَنْ يَقْبِضَهَا مَلَكُ الْمَوْتِ، فَيُكَفِّنُونَهَا بِالْكَفَنِ الَّذِي جَآؤُوا بِهِ، وَيُحْنِطُونَهَا بِالْحَنَوطِ الَّذِي جَآؤُوا بِهِ. وأضاف الوفاة إلى مَلِكِ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَقْبِضُ الرُّوحَ مِنَ الْجَسَدِ، قَبَضَ اللَّهُ أَرْوَاحَنَا وَأَرْوَاحَكُمْ عَلَى خَيْرِ مَا يَكُونُ.

وقوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ أي: يَدَعُونَ أَزْوَاجًا بَعْدَ مَوْتِهِمْ، و﴿أَزْوَاجًا﴾ بمعنى: زَوَاجَاتٍ.

وقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ هذا خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾، وهو خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أي: تَتَرَبَّصُ الْأَزْوَاجُ بِأَنْفُسِهِنَّ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْرُجْنَ إِلَى الْأَسْوَاقِ،

أو إلى بُيُوتٍ أُخْرَى، بَلْ تَنْطَوِي عَلَى نَفْسِهَا ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ هِلَالِيَّةٍ؛ لِأَنَّ الْأَشْهُرَ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ هِيَ الْهِلَالِيَّةُ، الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَشْرًا﴾ أَي: عَشْرَ لَيَالٍ، وَعَبَّرَ بِالْعَشْرِ عَنِ الْيَّامِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَتَوَسَّعُ فِي هَذَا، فَتَعَبَّرُ بِاللَّيَالِي عَنِ الْيَّامِ، وَبِالْيَّامِ عَنِ اللَّيَالِي، وَالْمَرَادُ: عَشْرَةُ أَيَّامٍ بَلِيَالِيهَا. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ﴾ أَي: انْتَهَتْ عِدَّتُهُنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَي: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي أَنْ تَخْرُجَ الْمَرْأَةُ مِنَ الْبَيْتِ، وَتَتَجَمَّلَ بِمَا شَاءَتْ، لَكِنْ بِالْمَعْرُوفِ، أَي: فِي حُدُودِ الشَّرْعِ، وَنِطَاقِ الشَّرْعِ. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَي: ذُو عِلْمٍ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ وَظَوَاهِرِهَا.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

- ١- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمَرْأَةِ -إِذَا تَوَفَّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا- أَنْ تَرْبِصَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ مِنْ حِينَ وَفَاتِهِ، لَا مِنْ حِينَ عِلْمِهَا؛ لِأَنَّ عِلْمَهَا قَدْ يَتَأَخَّرُ عَنِ الْوَفَاةِ، وَلِهَذَا لَوْ قُدِّرَ أَنَّ إِنْسَانًا تَوَفَّيَ عَنْ زَوْجَتِهِ، وَلَمْ تَعْلَمْ بِوَفَاتِهِ إِلَّا بَعْدَ شَهْرَيْنِ مِنْ وَفَاتِهِ، اعْتَدَّتْ مَا بَقِيَ مِنَ الْعِدَّةِ، وَهِيَ شَهْرَانِ وَعَشْرَةُ أَيَّامٍ فِي هَذَا الْمِثَالِ.
- ٢- أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُتَوَفَّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا تَجِبُ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا؛ لِأَنَّهَا تَكُونُ زَوْجَةً مِنْ حِينَ الْعَقْدِ الصَّحِيحِ، فَلَوْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً، وَقَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا تَوَفَّيَ عَنْهَا، وَجَبَتْ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ؛ لِأَنَّهَا صَارَتْ -بِالْعَقْدِ- زَوْجَةً.
- ٣- أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عِدَّةُ زَوَاجَاتٍ، فَتَوَفَّيَ عَنْهُنَّ، وَجَبَ عَلَى كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ أَنْ تَعْتَدَّ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرٍ.

وَيُسْتَتْنَى مِنْ هَذَا: الْحَامِلُ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ الْحَامِلَ تَنْتَهِي عِدَّتُهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ، طَالَتْ الْمُدَّةُ أَمْ قَصُرَتْ.

وعلى هذا، فإذا تُوِّفِيَ الرَّجُلُ عَنْ امْرَأَةٍ حَامِلٍ، وَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِسَاعَاتٍ، فَإِنَّهَا تَنْقُضِي عِدَّتَهَا.

ولو تأخرت عِدَّتُهَا إِلَى سِتَّةِ أَشْهُرٍ، أَوْ عَشْرَةِ أَشْهُرٍ، بَقِيَتْ فِي الْعِدَّةِ وَلَوْ انْقَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ؛ لِعُمُومِ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، وَلِأَنَّ سُبُعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ وَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِهَا بِلْيَالٍ، فَأَذِنَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنْ تَتَزَوَّجَ^(١).

٤ - أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا تُوِّفِيَ عَنْهَا زَوْجُهَا فَإِنَّهَا تَبْقَى فِي الْبَيْتِ، لَا تَخْرُجُ مِنْهُ، إِلَّا إِذَا دَعَتْ الْحَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهَا تَخْرُجُ فِي النَّهَارِ.

ومن الحاجات: أَنْ تَحْتَاجَ إِلَى طَعَامٍ، وَلَيْسَ عِنْدَهَا مَنْ يَأْتِي لَهَا بِالْخُبْزِ مِثْلًا، فَلَهَا أَنْ تَخْرُجَ، وَتَشْتَرِيَ الْخُبْزَ لِنَفْسِهَا، وَلِأَوْلَادِهَا الصَّغَارِ الَّذِينَ لَا يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَذْهَبُوا، فَيَشْتَرُوا الْخُبْزَ.

ومن ذلك: أَنْ يَكُونَ لَهَا غَنَمٌ، تَحْتَاجُ إِلَى رِعَايَتِهَا فِي النَّهَارِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ، فَلَا حَرَجَ أَنْ تَخْرُجَ، وَلَكِنَّهَا تَرْجِعُ فِي اللَّيْلِ.

ومن ذلك: أَنْ يَكُونَ لَهَا عَمَلٌ (تَدْرِيسٌ، أَوْ دِرَاسَةٌ)، فَتَحْتَاجُ إِلَى الْخُرُوجِ، فَتَخْرُجُ فِي النَّهَارِ دُونَ اللَّيْلِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، رقم (٥٣١٨)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل، رقم (١٤٨٤) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ومن ذلك: أن يكون لها بُسْتَانٌ، يَخْتَجُّ إلى عَمَلٍ، فَتَخْرُجُ إليه في النَّهَارِ، ولكنها تَرْجِعُ في اللَّيْلِ.

المهم: أنَّها لا تَخْرُجُ في النَّهَارِ إِلَّا لحاجةٍ، والحاجاتُ تَخْتَلِفُ.

وَمَا يَتَعَلَّقُ بِأَحْكَامِ الْمَرْأَةِ الْمُتَوَقِّعِ عنها زَوْجُها:

■ أَنَّها لا تَتَجَمَّلُ، فلا تَلْبَسُ ثِيَابًا يُقَالُ: إِنَّها مُتَزَيِّنةٌ، مُتَجَمِّلَةٌ. وتَلْبَسُ ما عدا ذلك مِمَّا شَاءَتْ، من أَخْضَرٍ، أو أَصْفَرٍ، أو بَنِيٍّ، أو غَيْرِ ذلك.

■ أَنَّها لا تَحُلِّيَ بِالذَّهَبِ، لا بِالْحَوَاتِمِ، ولا بِالْأَسُورَةِ، ولا بِالْقِلَادَةِ، ولا بِالْأَزَرَّةِ، ولا بغيرِ ذلك.

■ أَنَّها لا تَتَطَيَّبُ، لا بِبَخُورٍ، ولا بِدُهْنٍ، إِلَّا إِذَا طَهَّرَتْ من الْحَيْضِ، فلها أَنْ تَتَطَيَّبَ بِالْبَخُورِ.

وَأَمَّا كَلَامُها مع النَّاسِ في الْهَاتِفِ، أو عِنْدَ مُحَاطَبَةٍ مَنْ اسْتَأْذَنَ عِنْدَ الْبَابِ، أو مُحَاطَبَةٍ مَعَارِفِها الَّذِينَ يَدْخُلُونَ إِلَيْها، فهذا لا بَأْسَ به، مُخَاطَبُ مَنْ شَاءَتْ على الْعَادَةِ، بِشَرْطٍ: أَلَّا تَخْضَعَ بِالْقَوْلِ، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ.

وَأَمَّا خُرُوجُها إلى سَاحَةِ الْبَيْتِ - كَالْحَوْشِ - أو إلى سَطْحِ الْبَيْتِ، فلا بَأْسَ به.

وَأَمَّا اغْتِسَالُها كُلَّ أُسْبُوعٍ فلا أَصْلَ له، بل تَغْتَسِلُ كَالْعَادَةِ.

وَأَمَّا تَسْرِيعُ شَعْرِها فلا بَأْسَ به أَيَّ وَقْتٍ كان.

٥- تَخْفِيفُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي عِدَّةِ الْوَفَاةِ؛ لَأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِذَا مَاتَ زَوْجُ الْمَرْأَةِ بَقِيَتْ لِمُدَّةِ سَنَةٍ فِي حِفْشٍ فِي بَيْتِها - خِيْمَةٍ صَغِيرَةٍ ضَيِّقَةٍ - ولا تَمَسُّ ماءً، ولا تَقْرُبُ طَيْبًا، ويكونُ لها من الرِّوَائِحِ الْمُتَنَتِّةِ - من دَمِ الْحَيْضِ وَغَيْرِهِ - ما لا يُطَاقُ،

فإذا خَرَجَتْ بعدَ السَّنةِ أَخَذَتْ بَعْرَةً، وَرَمَتْ بها؛ إشارةً إلى أَنَّ كُلَّ ما مَضَى أَهْوَنُ عليها من رَمِي هذه البَعْرَةِ، فجاءَ الدِّينُ الإسلاميُّ -وَللهِ الحَمْدُ- بهذه العِدَّةِ اليسيرة السَّهلة.

٦- العِنايةُ بِحُقوقِ الزَّوجِ، حتَّى إِنَّ المرأةَ مُنِعَتْ من أَنْ تَتَزَوَّجَ بعده إِلَّا بعدَ مُضَيِّ أربعةِ أَشْهُرٍ (الَّتِي هِيَ ثُلُثُ الحَوْلِ) وَعَشْرٍ (الَّتِي هِيَ ثُلُثُ الشَّهِرِ).

٧- أَنَّ المرأةَ الْمُتَوَقَّعَ عنها زَوْجُها إذا أَتَمَّتِ العِدَّةَ عادتْ إلى ما كانت عليه قَبْلَ وَفاةِ زَوْجِها، من التَّجَمُّلِ، والخُرُوجِ، والتَّحَلِّيِّ، وغيرِ ذلك، لكنْ بِالْمَعْرُوفِ.

٨- أَنَّ المرأةَ الْمُتَوَقَّعَ عنها زَوْجُها لا تَحْتَاجُ -إذا أَتَمَّتِ العِدَّةَ- إلى أَنْ تَتَصَدَّقَ بشيءٍ، كما يَظُنُّه بعضُ العوامِّ، يقولون: إِنَّها إذا تَمَّتْ عِدَّتُها فَإِنَّها تَخْرُجُ، وأوَّلُ إنسانٍ يَمُرُّ بها تُهْدِي إليه هَدِيَّةً، أو تَتَصَدَّقُ عليه، فَإِنَّ هذا بِدْعَةٌ لا أَصْلَ له.

ولكن إذا انْقَضَتِ العِدَّةُ فَقَدْ انْقَضَى الحَجَرُ عليها، بِمَعْنَى: أَنَّهُ أُبِيحَ لها ما كانت مَمْنُوعَةً منه في وَقْتِ العِدَّةِ، ولا تَحْتَاجُ إلى الخُرُوجِ.

٩- أَنَّ عَلَيْنَا مَسْئُولِيَّةً بالنِّسْبَةِ للنِّسَاءِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾، مع أَنَّ السِّيَاقَ في خِطَابِ النِّسَاءِ، حيثُ قال: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾، وهذا إشارةٌ إلى أَنَّ على الرِّجالِ رِعايَةَ النِّسَاءِ، وَيُصَدَّقُ هذا قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «الرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم (٨٩٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، رقم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

١٠ - أَلَا يَخْرُجُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يَفْعَلُ عَنِ الْمَعْرُوفِ شَرًّا وَعُرْفًا؛ لَأَنَّهُ إِذَا خَرَجَ عَنِ الْمَعْرُوفِ شَرًّا فَقَدْ وَقَعَ فِي الْمُنْكَرِ شَرًّا، وَإِذَا خَرَجَ عَنِ الْمَعْرُوفِ عَادَةً وَعُرْفًا فَقَدْ خَرَجَ عَمَّا تَقْتَضِيهِ الْمُرُوءَةُ، وَهِيَ مُوَافَقَةُ النَّاسِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ. ولهذا نُهِيَ عَنْ ثَوْبِ الشُّهْرَةِ، الَّذِي يَشْتَهَرُ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَيُشارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ، وَيُقَالُ: فَلَانُ لِبَاسُهُ كَذَا وَكَذَا.

١١ - عُمُومُ عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِكُلِّ مَا نَعْمَلُ، وَأَنَّ عِلْمَهُ جَلَّ وَعَلَا شَامِلٌ لِمَا ظَهَرَ وَبَانَ، وَلِمَا خَفِيَ عَنِ الْإِنْسَانِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا: حُسْنُ سُلُوكِ الْمَرْءِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، بَحِيثٌ لَا يَفْعَلُ فِعْلًا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَتْرُكُ أَمْرًا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ لَأَنَّهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَغِبْ عَنِ عِلْمِ اللَّهِ بِهِ، وَخَبَرْتِهِ بِهِ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَالَفَةَ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٣٥)

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَتَى تَجُوزُ خِطْبَةُ النِّسَاءِ الْمُعْتَدَاتِ، وَمَتَى لَا تَجُوزُ، فَقَالَ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ يَعْنِي: مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ الْمُعْتَدَاتِ مِنَ الْوَفَاةِ.

والتَّعْرِضُ: أَنْ يَقُولَ: إِنِّي أَرْغَبُ الزَّوَاجَ بِمِثْلِكَ. أَوْ يَقُولَ: إِذَا انْقَضَتِ الْعِدَّةُ فَأَعْلِمْنِي. أَوْ يَقُولَ: إِنِّي أَبْحَثُ عَنْ امْرَأَةٍ صِفْتُهَا كَذَا وَكَذَا. أَوْ مَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ.
وَصِدَّةُ: التَّصْرِيحُ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: أَخْطُبُكَ إِلَى نَفْسِي.

فالتَّعْرِضُ أَبَاحَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي خِطْبَةِ الْمُعْتَدَّةِ مِنَ الْوَفَاةِ، وَإِذَا أَكَنَّ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يُعَرِّضْ، فَلَا بَأْسَ أَيْضًا، بِمَعْنَى: أَنَّهُ أَخْفَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يُرِيدُهَا، وَلَمْ يُعَرِّضْ لَهَا فِي الْخِطْبَةِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أَي: أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَدَّاتِ فِيمَا بَيْنَكُمْ، أَوْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ فِي نُفُوسِكُمْ، وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا، فَكَثِيرًا مَا يُقَالُ: فَلَانَةُ خَلَفَهَا زَوْجُهَا، وَهِيَ امْرَأَةٌ فِيهَا كَذَا وَكَذَا مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، الَّتِي تُرْغَبُ مِنْ أَجْلِهَا.

وَلَكِنَّهُ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أَي: لَا تُوَاعِدُوهُنَّ بِالنِّكَاحِ سِرًّا فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُنَّ، وَذَلِكَ بِمُشَافَهَةِ الْمَرَأَةِ بِالْخِطْبَةِ ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، وَالْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ: هُوَ التَّعْرِضُ.

﴿وَلَا تَعَزِّمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أَي: لَا تَعْقِدُوا النِّكَاحَ ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أَي: حَتَّى تَتِمَّ الْعِدَّةُ.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أَي: مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴿فَأَحْذَرُوهُ﴾ يَعْنِي: احْذَرُوا أَنْ تُضْمِرُوا فِي نُفُوسِكُمْ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفْوٌ حَلِيمٌ﴾ أَي: ذُو مَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ، وَالْمَغْفِرَةُ تَتَعَلَّقُ بِالذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَالرَّحْمَةُ تَتَعَلَّقُ بِالتَّوْفِيقِ لِلْإِسْتِقَامَةِ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - جواز التعريض بخطبة المتوفى عنها زوجها، وينبغي على ذلك: تحريم التصريح.

والحكمة من هذا: حماية حق المتوفى؛ حتى لا يعتدي أحد على حقه في العدة؛ لأنه إذا جاز التصريح فربما يقدم على العقد.

وهل يلحق بالمعتدة لوفاء المعتدة من طلاق أو فسخ؟

الجواب على هذا أن نقول: أمّا المطلقة الرجعية -التي يملك زوجها أن يراجعها بلا عقد- فهذه لا يجوز التعريض ولا التصريح في خطبتها؛ لأنها في حكم الزوجة، فكما أن الإنسان لا يجوز أن يأتي لزوجة إنسان، ويقول: أخطبك إلى نفسي. ف كذلك المعتدة الرجعية.

وأمّا إن كانت بائنا -بمعنى: أمّا لا تحل لزوجها إلا بعقد جديد- فهذه يجوز التعريض في خطبتها، ولا يجوز التصريح.

هذا إن كان الخاطب غير الزوج، أمّا إذا كان الخاطب الزوج فيجوز أن يصرح ويعرّض، وأن يعقد.

مثال ذلك: امرأة طلقها زوجها على عوض، بأن قال: إن أعطيتني ألفاً فأنت طالق. فأعطته ألفاً، فإنّها تطلق، ولا يملك الرجعة عليها إلا بعقد، فإذا أحب أن يرجع إليها فله أن يخطبها تعريضاً وتصريحاً، وأن يعقد النكاح عليها؛ لأنها زوجته، وأمّا غيره فلا يحل له أن يخطبها تصريحاً، ولكن له أن يخطبها تعريضاً.

وَأَمَّا الْبَائِنُ بِالطَّلَاقِ الثَّلَاثِ فَلَا يَجُوزُ لَزَوْجِهَا أَنْ يَخْطُبَهَا، لَا تَضْرِيحًا، وَلَا تَعْرِضًا؛ لِأَنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ إِلَّا بَعْدَ زَوْجٍ آخَرَ، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَيَجُوزُ أَنْ يَخْطُبَهَا تَعْرِضًا، لَا تَضْرِيحًا.

فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ:

■ أَنَّ الْمُطَلَّقةَ إِذَا كَانَتْ رَجْعِيَّةً فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لغيرِ الزَّوْجِ أَنْ يَخْطُبَهَا، لَا تَضْرِيحًا، وَلَا تَعْرِضًا.

■ وَإِنْ كَانَتْ بَائِنًا بغيرِ الثَّلَاثِ جازَ لَزَوْجِهَا أَنْ يَخْطُبَهَا تَضْرِيحًا وَتَعْرِضًا، وَجازَ لغيرِهِ أَنْ يَخْطُبَهَا تَعْرِضًا، لَا تَضْرِيحًا.

■ وَإِنْ كَانَتْ بَائِنَةً بِالثَّلَاثِ جازَ لغيرِ زَوْجِهَا أَنْ يَخْطُبَهَا تَعْرِضًا، لَا تَضْرِيحًا، وَلَا يَجُوزُ لَزَوْجِهَا أَنْ يَخْطُبَهَا تَعْرِضًا وَلَا تَضْرِيحًا؛ لِأَنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ إِلَّا بَعْدَ زَوْجٍ.

٢- تيسيرُ الأمورِ الشرعيَّةِ؛ حيثُ رَخَّصَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي خِطْبَةِ الْمَرْأَةِ تَعْرِضًا إِذَا كَانَتْ بَائِنَةً مِنْ زَوْجِهَا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ، فَقَدْ تَكُونُ امْرَأَةٌ ذَاتَ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ وَعِلْمٍ، فَيَخْشَى أَنْ يَسْبِقَهُ أَحَدٌ إِلَيْهَا، فَيُعَرِّضُ لَهَا، حَتَّى تَكُونَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ يُرِيدُهَا، لَكِنْ لَا يُصَرِّحُ.

٣- أَنَّ مَا أَكَنَّهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ فَإِنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ أَكَنَّاكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ^(١)، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَالْفَضْلُ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق، رقم (٥٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس، رقم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ، هُوَ كَمَا أَتْنَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ.

٤- جَوَّازُ خِطْبَةِ الْمَرْأَةِ الْمُعْتَدَّةِ سِرًّا إِذَا قَالَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا، أَي: إِذَا خَطَبَهَا عَلَى وَجْهِ مُبَاحٍ وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ النَّاسَ بِذَلِكَ، وَهَلْ يَجُوزُ عَقْدُ النِّكَاحِ عَلَى مَنْ يَجُوزُ عَقْدُ النِّكَاحِ عَلَيْهَا سِرًّا؟

الجواب: هذا على قِسْمَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يَتَوَاصَى الزَّوْجُ وَالْمَرْأَةُ وَلِيَّيْهَا بِكِتْمَانِ النِّكَاحِ، فَيُعْقَدَ النِّكَاحُ بِالشُّهُودِ، وَبِتَمَامِ الشُّرُوطِ، وَيُوصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَلَّا يُخْبِرُوا بِهِ، فَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى بُطْلَانِ النِّكَاحِ إِذَا تَوَاصَوْا بِكِتْمَانِهِ.

والمشهور من مذهب الإمام أحمد: أَنَّهُ لَا يَبْطُلُ بِالتَّوَاصِي بِكِتْمَانِهِ^(١).

القِسْمُ الثَّانِي: أَنْ يَكْتُمُوهُ بِلَا تَوَاصِي، فَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَشْرُوعِ؛ إِذِ الْمَشْرُوعُ إِعْلَانُ النِّكَاحِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِإِعْلَانِ النِّكَاحِ^(٢)؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَشْجِيعِ النَّاسِ عَلَى النِّكَاحِ، وَإِظْهَارِ هَذِهِ الْخِصْلَةِ الْفَاضِلَةِ، وَلَا جُلَّ أَنْ يَتَيَّنَ إِنْ كَانَ هُنَاكَ رِضَاعٌ مُحَرَّمٌ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُعْلَمْ بِهِ فَرُبَّمَا يَكُونُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ رِضَاعٌ مُحَرَّمٌ، وَلَا يُطْلَعُ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ سَنَةٍ أَوْ سَتَيْنِ، وَرُبَّمَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ قَدْ وَلَدَتْ مِنَ الرَّجُلِ، وَحِينَئِذٍ تَبْقَى الْمَسْأَلَةُ مُشْكِلَةً.

٥- أَنَّهُ يَحْرُمُ الْعَقْدُ عَلَى الْمُعْتَدَّةِ حَتَّى تَتِمَّ الْعِدَّةُ، وَيُسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ: الزَّوْجُ إِذَا أَبَانَ زَوْجَتَهُ بغيرِ الثَّلَاثِ، فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ يَعْقِدَ النِّكَاحَ عَلَيْهَا.

(١) منتهى الإرادات بشرح البهوتي (١٥٠/٥).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في إعلان النكاح، رقم (١٠٨٩)، وابن ماجه:

كتاب النكاح، باب إعلان النكاح، رقم (١٨٩٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

مثال ذلك: رَجُلٌ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ مَشَاكِلُ، فَافْتَدَتْ نَفْسَهَا مِنْهُ، وَخَالَعَتْهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ، وَفِي أَثْنَاءِ الْعِدَّةِ طَلَبَ مِنْهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، فَوَافَقَتْ، فَيَجُوزُ الْعَقْدُ حِينَئِذٍ؛ لِأَنَّ الْعِدَّةَ لِلزَّوْجِ.

٦- الإشارةُ إلى أَنَّ الطَّلَاقَ يَنْبَغِي أَنْ يُكْتَبَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾، وذلك لِأَنَّ فِي كِتَابَتِهِ ضَبْطًا لِلْعِدَّةِ، وَيُحَقِّقُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]؛ فَإِنْ إِنْخِصَّاءُهَا ضَبْطُهَا، فَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي كِتَابَةُ الْعِدَّةِ ابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: بَيَانُ عِنَايَةِ الشَّرْعِ بِأَحْكَامِ النِّكَاحِ؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ، وَحَتَّى لَا تَخْتَلِطَ الْأَنْسَابُ وَتَشْتَبَهَ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

٧- عُمُومُ عِلْمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالظَّاهِرِ وَالْحَقِيِّ، حَتَّى مَا يُكِنُّهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾.

وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا فِي عِدَّةِ آيَاتٍ، مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١١﴾ إِذْ يَنْلَقَى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٧]، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ مِنْ جَمِيعِ الْخَوَاطِرِ، لَكِنْ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ: أَنَّهُ تَجَاوَزَ عَنْ هَذِهِ الْأَمَّةِ مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمَ.

٨- تَحْذِيرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِيَّانَا أَنْ نُضْمِرَ فِي أَنْفُسِنَا مَا لَا يَرْضَاهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونَهُ﴾.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يُوسِسُ لِلإِنْسَانِ بِمَا لَا يَرْضَى اللَّهُ عَزَّجَلَّ،
فَمَا الْحِيلَةُ؟

فالجواب: أَنَّ الْحِيلَةَ إِزَالَةُ مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي هَذَا، ولهذا لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وهو مُعْتَكِفٌ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصْحَبَ زَوْجَتَهُ صَفِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مَرَّ بِهِ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَسْرَعَا حَيَاءً مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَرِيَاهُ وَمَعَهُ أَهْلُهُ فِي اللَّيْلِ، كَمَا يُحْجَلُ سَائِرُ النَّاسِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا -يعني: تَمَهَّلَا لَا تُسْرِعَا- إِنَّهَا صَفِيَّةٌ» فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ! يَعْنِي: تَنْزِيهًا لِلَّهِ عَزَّجَلَّ أَنْ يُظَنَّ بِرَسُولِهِ مَا لَا يَلِيقُ، فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خِفْتُ أَنْ يُلْقِيَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا» أَوْ قَالَ: «شَيْئًا»^(١)، فِهَذَا مِمَّا يُزِيلُ الْوَسَاوِسَ.

كَذَلِكَ أَيْضًا مِمَّا يُزِيلُ الْوَسَاوِسَ: مَا أَرَشَدَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَصْحَابُهُ، حِينَ ذَكَرُوا لَهُ أَنَّهُمْ يَجِدُونَ فِي نَفْسِهِمْ مَا يُحِبُّونَ أَنْ يَكُونُوا حُمَمَةً -أي: فَحْمَةً مُحْتَرَقَةً- وَلَا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ، فَأَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَعِذُوا بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الشَّيْطَانِ، وَأَنْ يَنْتَهُوا^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها، رقم (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليًا بامرأة وكانت زوجته...، رقم (٢١٧٥) من حديث صَفِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كما أخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٢١٧٤) من حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، رقم (٥١١٢)، وأحمد (٢٣٥ / ١) من حديث حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَأَمَّا الْأَمْرُ بِالْإِسْتِعَاذَةِ وَالْإِنْتِهَاءِ فَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٤) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا الأمر الواقع من الصَّحَابَةِ واقعٌ في عَصْرِنَا الْيَوْمَ، فما أَكْثَرَ الَّذِينَ يَسْتَقِيمُونَ، ثُمَّ يَأْتِيَهُمُ الشَّيْطَانُ بَوَسَاوِسَ عَظِيمَةٍ، لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا؛ لِيُفْسِدَ عَلَيْهِمْ اسْتِقَامَتَهُمْ، وهذه الْوَسَاوِسُ كانت لَا تَأْتِيهِمْ حِينَ كَانُوا عَلَى غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ، لَكِنْ لَمَّا اسْتَقَامُوا أَرَادَ الشَّيْطَانُ أَنْ يُفْسِدَ أَمْرَهُمْ، فَجَعَلَ يُلْقِي فِي نُفُوسِهِمْ هَذِهِ الْوَسَاوِسَ، وَلَكِنْ نُبَشِّرُهُمْ بِأَنْ ذَلِكَ لَا يَضُرُّهُمْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وقد قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ أَوْ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّ الْيَهُودَ يَقُولُونَ: نَحْنُ لَا نُوسِسُ فِي صَلَاتِنَا. يَعْنِي: لَا نُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ. فَقَالَ: صَدَقُوا، وَمَا يَفْعَلُ الشَّيْطَانُ بِقَلْبِ خَرَابٍ؟^(١) يَعْنِي: أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَأْتِي الْقَلْبَ الْخَارِبَ لِيُخَرِّبَهُ، فَهُوَ خَارِبٌ، لَكِنْ يَأْتِي الْقَلْبَ الْعَامِرَ لِيُخَرِّبَهُ.

فَلْيُبَشِّرْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَفَّقَهُمُ اللَّهُ لِلْاسْتِقَامَةِ أَنَّهُمْ عَلَى خَيْرٍ، وَلْيُدَافِعُوا مَا يَقَعُ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ بِالْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ، وَهُمَا: الْاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَالْكَفُّ عَنْ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْهَا، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُمْ شَيْئًا بِإِذْنِ اللَّهِ.

٩- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ؛ حَتَّى يَتَعَبَّدَ لِلَّهِ بِمَا تَقْتَضِيهِ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، فَأَمَرْنَا أَنْ نَعْلَمَ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ؛ لِنَتَعَبَّدَ لِلَّهِ تَعَالَى بِهَا، فَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ غَفُورٌ تَعَرَّضْنَا لِمَغْفِرَتِهِ، وَفَعَلْنَا الْأَسْبَابَ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْمَغْفِرَةُ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ، وَفَعَلْنَا الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةَ الَّتِي تُغْفَرُ بِهَا الذُّنُوبُ، وَمَا أَشْبَهَهَا.

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص: ٣١٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٤٥) عن العلاء بن زياد بنحوه.

وَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ حَلِيمٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِنَّا نُوْمِلُ مِنْهُ الْحَقِيرَ، وَلَا نِيَأْسُ، وَنَسْتَعْتِبُ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَعْذِرَنَا، وَأَنْ يَعْفُو عَنَّا، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِسَعَةِ حِلْمِهِ لَا يُعَاقِبُ النَّاسَ عُقُوبَةً عَاجِلَةً، بَلْ يُمَهِّلُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣١﴾

يقول الله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ يعني: ليس عليكم جناح إذا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ الْمَسِّ - يعني: قَبْلَ الْجِمَاعِ - وَقَبْلَ أَنْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً.

مثلاً: أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً، وَيَعْقِدَ عَلَيْهَا دُونَ أَنْ يُسَمِّيَ لَهَا مَهْرًا، ثُمَّ يَبْدُو لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا قَبْلَ أَنْ يُجَامِعَهَا، فَلَيْسَ عَلَيْهِ إِثْمٌ فِي أَنَّهُ طَلَّقَ قَبْلَ الدُّخُولِ، وَقَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ الصَّدَاقُ. وَلَكِنْ فِي هَذِهِ الْحَالِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ يعني: أَعْطُوهُنَّ مَتَاعًا: نُقُودًا، أَوْ حُلِيًِّا، أَوْ ثِيَابًا، أَوْ سِيَّارَاتٍ، أَوْ بُيُوتًا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْصُلُ بِهِ الْمُتَعَةُ ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ أي: عَلَى الْغَنِيِّ قَدَرُهُ، وَعَلَى الْفَقِيرِ قَدَرُهُ، بِحَسَبِ حَالِ الزَّوْجِ، فَالْغَنِيُّ تَكُونُ مُتَعَتُهُ كَثِيرَةً، وَالْفَقِيرُ تَكُونُ مُتَعَتُهُ يَسِيرَةً عَلَى حَسَبِ حَالِهِ، وَالْمُعْتَبَرُ حَالُ الزَّوْجِ.

قال: ﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني: حال كَوْنِ هذا التَّمَتُّعِ مَتَّاعًا بِالْمَعْرُوفِ، لا وَكَسَ ولا شَطَطَ ﴿حَقًّا﴾ أي: واجِبًا ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: على ذَوِي الإِحْسَانِ.

ومعنى الآية: إذا طَلَّقَ الإنسانُ الزَّوْجَةَ الَّتِي عَقَدَ عَلَيْهَا، ولم يُسَمِّ لها صَدَاقًا، فلا حَرَجَ عليه، لكنْ يَجِبُ عليه أَنْ يُمَتِّعَهَا بِحَسَبِ حَالِهِ، إِنْ كَانَ غَنِيًّا فَمُتَّعَةً تَلِيْقُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا فَمُتَّعَةً تَلِيْقُ بِهِ.

في هذه الآيةِ الكريمةِ من الحِكمِ والفوائدِ ما يلي:

١- جَوَازُ تَطْلِيقِ الْمَرَأَةِ قَبْلَ الدُّخُولِ عَلَيْهَا، وَقَبْلَ تَسْمِيَةِ الصَّدَاقِ لَهَا، فَإِنْ طَلَّقَهَا بَعْدَ أَنْ خَلَا بِهَا، لَكِنَّهُ لَمْ يُجَامِعْهَا، فَإِنَّهُ يَثْبُتُ لَهَا الْمَهْرُ كَامِلًا؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَعَلُوا الْخُلُوةَ بِالْمَرَأَةِ بِمَنْزِلَةِ الْجَمَاعِ^(١)؛ لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ يَعْسُرُ الْإِطْلَاعُ عَلَيْهِ، فَعَلَّقَ الْحُكْمَ بِمَظَنَّتِهِ.

٢- أَنَّ الْمَهْرَ فَرِيضَةٌ، لَا بُدَّ أَنْ يَفْرِضَهَا الزَّوْجُ، وَلَكِنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَهَا بِدُونِ تَقْدِيرِ مَهْرٍ فَلَا بَأْسَ؛ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ.

٣- أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَ قَبْلَ الدُّخُولِ، وَقَبْلَ فَرَضِ الْمَهْرِ، وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْمُتَّعَةُ، أَي: أَنْ يُمَتِّعَهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

٤- أَنَّ هَذِهِ الْمُتَّعَةَ تَكُونُ بِحَسَبِ حَالِ الزَّوْجِ، إِنْ كَانَ غَنِيًّا فَكَثِيرَةً، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا فَقَلِيلَةً بِحَسَبِ حَالِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا لَا تَكُونُ بِحَسَبِ حَالِ الزَّوْجَةِ؟

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٨٨/٦) برقم (١٠٨٧٥).

فالجواب: أنهم لما رَضُوا بهذا الزَّوجِ رَضُوا به فقيرًا، فلا يَلْزَمُهُ أَكْثَرُ مِمَّا يَلْزَمُ
الْفُقَرَاءَ، ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

٥ - حِكْمَةُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي إِجْبَابِ الْفَرَائِضِ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِحَسَبِهِ، وَهَذَا
مُطَرِّدٌ حَتَّى فِي الْعِبَادَاتِ، فالمرِيضُ يُصَلِّي قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَعَلَى جَنْبٍ.

٦ - الرَّجُوعُ إِلَى الْعُرْفِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَتَعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾، وَيَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ
بِحَسَبِهِ، فالْمَعْرُوفُ هُنَا أَلَّا يَكُونَ وَكُسٌ وَلَا شَطَطٌ، وَأَلَّا يَحْصَلَ مُمَاطَلَةٌ مِنَ الزَّوْجِ
بِهَذِهِ الْمُتْعَةِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ.

٧ - الْعِنَايَةُ التَّامَّةُ بِعَقْدِ النِّكَاحِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَالْعُقُودِ، فَلَهُ شُرُوطٌ عِنْدَ الدُّخُولِ
فِيهِ، وَشُرُوطٌ عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنْهُ، وَلَهُ آثَارٌ عَظِيمَةٌ بِالْغَةِ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْعِنَايَةُ بِهِ فِي
كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ الْعُقُودِ.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ
إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا
الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٣٧)

هذه هي الحال الثانية من الطَّلَاقِ قَبْلَ الدُّخُولِ، فالحال الأولى في الآية السابقة:
أَنْ يُطَلِّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا، وَقَبْلَ أَنْ يَفْرِضَ لَهَا صَدَاقًا، فَتَجِبُ الْمُتْعَةُ.

والحال الثانية: أن يُطْلَقَهَا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا، وقد فَرَضَ لها فَرِيضَةً، فَيَجِبُ عليه نِصْفُ ما فَرَضَ.

مثال ذلك: رَجُلٌ تَزَوَّجَ امْرَأَةً بِصَدَاقٍ قَدَرُهُ أَلْفُ رِيَالٍ، ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا، فَالطَّلَاقُ وَاقِعٌ، وَلَكِنْ عليه نِصْفُ المَهْرِ؛ لِأَنَّهُ فَرَضَهُ وَسَمَّاهُ، فَيَجِبُ عليه النِّصْفُ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ﴾ أي: الزَّوْجَاتُ، فَإِذَا عَفَوْنَ عَمَّا يَجِبُ لَهُنَّ مِنَ الصَّدَاقِ -وَهُنَّ مِنْ ذَوَاتِ الرُّشْدِ- فَلَا بَأْسَ، وَيَسْقُطُ عَنِ الزَّوْجِ النِّصْفُ.

﴿وَأَوْعَفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ يعني: الزَّوْجَ، فَإِذَا عَفَا الزَّوْجُ عَنْ نِصْفِهِ وَجَبَ لِلزَّوْجَةِ كُلِّ المَهْرِ الَّذِي أَعْطَاهَا، فَالَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ: هُوَ الزَّوْجُ.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ يعني: عَفْوُكُمْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَالخِطَابُ هُنَا: لِلزَّوْجَاتِ، وَلِلزَّوْجِ ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الإِحْسَانِ، وَبِرَاءَةِ الدِّمَةِ.

﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لَا تَتْرُكُوا الْفَضْلَ وَالْإِحْسَانَ فِي التَّعَامُلِ بَيْنَكُمْ، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

- ١- أَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُطْلِقَ زَوْجَتَهُ قَبْلَ الدُّخُولِ وَالْحُلُوءِ.
- ٢- أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَهَا وَقَدْ فَرَضَ لها فَرِيضَةً -أي: سَمَّى لها صَدَاقًا- وَطَلَّقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ، فَإِنَّ لها نِصْفَ المَهْرِ، وَنِصْفُهُ لِلزَّوْجِ؛ لِأَنَّ الْفُرْقَةَ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الزَّوْجِ، فَيَجِبُ عليه النِّصْفُ.

وَسَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْخُلُوةَ بِهَا كَالْجَمَاعِ؛ كَمَا قَضَى بِهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(١).

٣- أَنَّ الْمَهْرَ حَقٌّ لِلزَّوْجَةِ، فَلَيْسَ حَقًّا لِأَيِّهَا، وَلَا لِأَخِيهَا، وَلَا لَعَمَّهَا، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَائِهَا، بَلِ الْمَهْرُ حَقٌّ لَهَا.

وَيُدَلُّ لِهَذَا أَيْضًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

وما يحصل من بعض الناس من التَّحَكُّمِ فِي مَهْرِ الْمَرْأَةِ، بِحَيْثُ يَشْرِطُ عَلَى الزَّوْجِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْهُ كَذَا وَكَذَا، فَهُوَ بَاطِلٌ، وَلَيْسَ لَهُ حَقٌّ فِي هَذَا الْاِشْتِرَاطِ؛ لِأَنَّ الْمَهْرَ لِلزَّوْجَةِ، فَهُوَ لَهَا بِمَا اسْتَحَلَّ الرَّجُلُ مِنْ فَرْجِهَا.

٤- أَنَّ لِلزَّوْجَةِ أَنْ تَعْفُوَ عَنْ نَصِيحِهَا مِنَ الْمَهْرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾، لَكِنَّ هَذَا الْإِطْلَاقَ مُقَيَّدٌ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ مِنْ اِشْتِرَاطِ أَنْ تَكُونَ الزَّوْجَةُ مِمَّنْ يَصَحُّ تَبَرُّعُهُ، بِحَيْثُ تَكُونُ رَشِيدَةً -أَي: بِالْغَةِ عَاقِلَةً- تُحْسِنُ التَّصَرُّفَ فِي مَالِهَا.

٥- أَنَّهُ إِذَا عَفَا الزَّوْجُ عَنِ النِّصْفِ الَّذِي آلَ إِلَيْهِ بِالطَّلَاقِ، وَجَعَلَ الْمَهْرَ كُلَّهُ لِلْمَرْأَةِ، فَلَا بَأْسَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾.

٦- أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ هُوَ الزَّوْجُ؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابِلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾، وَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ: وَلِيَّ الْمَرْأَةِ. فَقَوْلُهُ بَعِيدٌ:

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٢٣٥).

أَوَّلًا: لَأنَّه إِذَا كَانَ وَلِيَّ الْمَرْأَةِ صَارَ الْعَفْوُ هُنَا مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ جَانِبُ الزَّوْجَةِ وَوَلِيِّهَا، وَإِذَا كَانَ الْمَرَادُ بِهِ الزَّوْجَ صَارَ الْعَفْوُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ.

ثَانِيًا: أَنَّ وَلِيَّ الْمَرْأَةِ لَيْسَ لَهُ الْحَقُّ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ مَهْرِهَا.

فَالصَّوَابُ: أَنَّ الْمَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ الزَّوْجُ.

٧- أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَةَ الْمَرْءِ مِنْهُ حَتَّى وَلَوْ كَانَ الْأَبُ، فَالْأَبُ لَا يَمْلِكُ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَةَ ابْنِهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا كَانَ الْابْنُ نَاقِصَ عَقْلِ، وَرَأَى أَبُوهُ أَنَّ مِنْ مَصْلَحَتِهِ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَتَهُ، فَهُنَا نَقُولُ: إِنَّهُ يَمْلِكُ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَةَ ابْنِهِ غَيْرَ الْعَاقِلِ لِمَصْلَحَةِ الْابْنِ؛ لِأَنَّ الْأَبَ فِي هَذِهِ الْحَالِ قَدْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ قَدْ أَسَاءَتْ إِلَى زَوْجِهَا، وَابْتَزَّتْ مَالَهُ، وَلَعِبَتْ بِهِ، فَيَرَى مِنَ الْمَصْلَحَةِ أَنْ يُطَلِّقَهَا، فَفِي هَذِهِ الْحَالِ لَا بَأْسَ أَنْ يُطَلِّقَهَا أَبُوهُ، فَإِنْ كَانَ الْأَبُ غَيْرَ مَوْجُودٍ فَإِنَّ وَلِيَّهَ يَرْفَعُ الْأَمْرَ إِلَى الْمَحْكَمَةِ، وَتَتَوَلَّى فَسَخَ النِّكَاحِ.

٨- أَنَّ النِّكَاحَ مِنْ جُمْلَةِ الْعُقُودِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾، وَإِذَا كَانَ مِنْ جُمْلَةِ الْعُقُودِ فَإِنَّهُ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ، وَبِالشَّرْطِ الْمُبَاحَةِ الَّتِي اشْتَرَطَتْ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ أَحَقَّ الشَّرْطِ أَنْ تُوفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ»^(١)، فَيَكُونُ الْوَفَاءُ بِشَرْطِ النِّكَاحِ دَاخِلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

٩- أَنَّ الْعَفْوَ بِالتَّنَازُلِ عَنِ الْحَقِّ أَوْ بَعْضِهِ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَلَكِنْ هَلِ الْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَأَفْضَلُ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في المهر، رقم (٢٧٢١)، ومسلم كتاب النكاح، باب الوفاء بالشروط في النكاح، رقم (١٤١٨) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجواب: لا، العفو أفضل وأقرب للتقوى إذا كان في ذلك مصلحة، أما إذا لم يكن هناك مصلحة فالأخذ بالحق أولى.

مثال ذلك: رجلٌ وجبت عليه دية، وجاء أولياء القتل يسألون: هل الأفضل أن نعفو عنه، أو أن نأخذ بالحق؟

الجواب: ننظر، إذا كان هذا الرجل الذي وجبت عليه الدية من أهل الصلاح، وأن القتل الذي حصل خطأ لا يقع من مثله؛ لأنه رجلٌ متميزٌ وعاقِلٌ، فهنا قد نقول: إن العفو أفضل.

أما إذا كان الذي وقع منه القتل خطأً معروفًا بالتهور، والشر، والفساد، وعدم المبالاة، فالعفو هنا لا ينبغي، بل الأخذ بالحق أولى، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فقيّد العفو بالإصلاح، فإذا كان العفو إفساداً فإنه لا ينبغي.

١٠ - حث المتصاحبين والصدّيقين على ألا ينسيا الفضل بينهما، وأن يتساعا في الأمور، وأن يتبادلا الهدايا بينهما؛ لقوله: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

ومن ذلك: الزوج إذا عقد على امرأة، وطلقها قبل الدخول، فلا يقُل: هذه امرأة طلقته، ولا علاقة لي بها. ولا ينس الفضل بينه وبينها، بل يذكر أن هؤلاء القوم أجابوه، وقدروه، وزوجوه، فلا ينس مثل هذا الفضل.

١١ - عموم علم الله تعالى بكل ما نعمل، لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ويترتب على هذا: أن من آمن بذلك فسوف يُراقب الله تعالى، بحيث لا يفقده الله حيث أمره، ولا يجده حيث نهاه.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨)

قَوْلُهُ: ﴿حَافِظُوا﴾ من المحافظة، وهي العناية بالشَّيْءِ ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ عُمُومًا
﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ خُصُوصًا، وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى هي: صَلَاةُ الْعَصْرِ؛ كَمَا ثَبَتَ
ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-^(١).

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أَي: فِي الصَّلَاةِ ﴿قَانِتِينَ﴾ أَي: خَاشِعِينَ، صَامِتِينَ، لَا تَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا بِمَا كَانَ مِنْ أَقْوَالِ الصَّلَاةِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ سُؤَالٌ، وَهُوَ أَنَّ مَوْضُوعَ الْآيَةِ خَارِجٌ عَنِ مَوْضُوعِ الْآيَاتِ الَّتِي
سَبَقَتْ قَبْلَهَا، وَالَّتِي بَعْدَهَا، وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْتِيبَ الْآيَاتِ تَوْقِيفِيٌّ، لَيْسَ
لِلْعَقْلِ فِيهِ مَجَالٌ، وَكَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- إِذَا نَزَلَتْ الْآيَةُ قَالَ:
«اكْتُبُوا هَذِهِ فِي مَكَانٍ كَذَا، مِنْ سُورَةِ كَذَا»^(٢).

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١ - الْأَمْرُ بِالْمَحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ عُمُومًا، وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الَّذِينَ
يُحَافِظُونَ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ

(١) أَخْرَجَهُ بِالنِّصِّ عَلَى ذَلِكَ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ الدَّلِيلِ لِمَنْ قَالَ: الصَّلَاةُ الْوُسْطَى هِيَ صَلَاةُ
الْعَصْرِ، رَقْم (٦٢٧/٢٠٥) (٦٢٨) (٦٢٩) (٦٣٠) مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَائِشَةَ
وَالْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَنْ جَهَرَ بِالْبَسْمَلَةِ، رَقْم (٧٨٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ
الْقُرْآنِ، بَابُ سُورَةِ التَّوْبَةِ، رَقْم (٣٠٨٦)، وَالنَّسَائِيُّ فِي السَّنَنِ الْكُبْرَى (٧/٢٥٣)، وَأَحْمَدُ (١/٥٧)
مِنْ حَدِيثِ عُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خَشِعُونَ ﴿١٩﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٣٤].

٢- عِظْمُ شَأْنِ الصَّلَاةِ؛ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، وَأَثْنَى عَلَى الْمُحَافِظِينَ عَلَيْهَا، وَلَا أَحَدَ يَشْكُ فِي أَهْمِيَّةِ الصَّلَوَاتِ؛ فَإِنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ بِدُونِ وَاسِطَةٍ، بَلْ كَلَّمَهُ بِهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كِفَاحًا، وَفَرَضَهَا أَوَّلَ مَا فَرَضَهَا خَمْسِينَ صَلَاةً، فَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، وَرَضِيَ بِهِ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَفَّفَ عَنِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهَا خَمْسًا، لَكِنَّهَا بِخَمْسِينَ^(١)، أَي: أَنَا -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- إِذَا صَلَّيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فَكَأَنَّا صَلَّيْنَا خَمْسِينَ صَلَاةً.

والتَّصَوُّصُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَثِيرَةٌ فِي بَيَانِ فَضْلِهَا وَأَهْمِيَّتِهَا.

٣- فَضِيلَةُ صَلَاةِ الْعَصْرِ؛ حَيْثُ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ بَعْدَ التَّعْمِيمِ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئًا خَاصًّا بَعْدَ الْعَامِّ، وَهُوَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي أَفْرَادِ الْعَامِّ، فَهَلْ يَكُونُ ذِكْرُ مَرَّتَيْنِ، أَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَيَكُونُ اللَّفْظُ الْعَامُّ الَّذِي قَبْلَهُ قَدْ اسْتُثْنِيَ مِنْهُ مَا نُصِّصَ عَلَيْهِ بَعْدُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ.

ولكن على كُلِّ حَالٍ، سِوَا قُلْنَا: إِنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي الْعُمُومِ، فَتَكُونُ ذِكْرُ مَرَّتَيْنِ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسرائ؟ رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسرائ برسول الله ﷺ، رقم (١٦٣) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَرَّةً عَنْ طَرِيقِ الْعُمُومِ، وَمَرَّةً عَنْ طَرِيقِ الْخُصُوصِ، أَوْ إِنَّمَا مُسْتَثْنَاةٌ مِنَ الْعُمُومِ، وَذِكْرَتْ وَحْدَهَا، فَإِنَّ تَخْصِيصَهَا بِالذِّكْرِ يَدُلُّ عَلَى مِيزَتِهَا وَفَضْلِهَا.

وَلَا شَكَّ أَنَّ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ، حَتَّى إِنْ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، يَعْنِي: كَأَنَّمَا فَقَدَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ.

وَالْمُحَافَظَةُ عَلَى الْعَصْرِ مَعَ الْفَجْرِ مِنْ أَسْبَابِ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَدُخُولِ الْجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)، وَالْبَرْدَانِ: هُمَا الْفَجْرُ؛ لِأَنَّهُ يَقَعُ فِي غَايَةِ بَرَادِ اللَّيْلِ، وَالْعَصْرُ؛ لِأَنَّهُ يَقَعُ فِي بَرَادِ النَّهَارِ، فَمَنْ صَلَّاهُمَا دَخَلَ الْجَنَّةَ.

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»^(٢)، وَالصَّلَاةُ الَّتِي قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ هِيَ: الْفَجْرُ، وَالَّتِي قَبْلَ غُرُوبِهَا هِيَ: الْعَصْرُ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، وَقَدْ صَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، قَالَ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ»، وَدَعَا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، رَقْمُ (٥٧٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاتِي الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ، رَقْمُ (٦٣٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الْعَصْرِ، رَقْمُ (٥٥٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاتِي الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ، رَقْمُ (٦٣٣) مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابُ الدُّعَاءِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، رَقْمُ (٢٩٣١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ الدَّلِيلِ لِمَنْ قَالَ: الصَّلَاةُ الْوُسْطَى هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ، رَقْمُ (٦٢٧) مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. كَمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ، بِرَقْمِ (٦٢٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- وَجُوبُ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُومُوا﴾، وَهُوَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ، لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ إِلَّا بِهِ، لَكِنَّهُ رُكْنٌ فِي صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ فَقَطْ، أَمَّا النَّافِلَةُ فَلِلْإِنْسَانِ أَنْ يُصَلِّيَ قَائِمًا وَقَاعِدًا، لَكِنَّهُ إِذَا صَلَّى قَاعِدًا بِلَا عُذْرٍ فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ صَلَاةِ الْقَائِمِ.

أَمَّا الْفَرِيضَةُ فَإِنَّهُ إِذَا صَلَّى قَاعِدًا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْقِيَامِ لَمْ تَصَحَّ صَلَاتُهُ، إِلَّا إِذَا صَلَّى وَرَاءَ إِمَامٍ يُصَلِّي قَاعِدًا، فَإِنَّهُ يُصَلِّي قَاعِدًا وَلَوْ كَانَ قَادِرًا عَلَى الْقِيَامِ.

دَلِيلُ ذَلِكَ فِي وَجُوبِ الصَّلَاةِ قَائِمًا فِي الْفَرِيضَةِ عِنْدَ الْقُدْرَةِ: قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»^(١).

وَدَلِيلُ كَوْنِ الْقَادِرِ عَلَى الْقِيَامِ يُصَلِّي قَاعِدًا خَلْفَ الْإِمَامِ الَّذِي يُصَلِّي قَاعِدًا: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- صَلَّى بِأَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ قَاعِدًا، فَصَلُّوا خَلْفَهُ قِيَامًا، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنْ اجْلِسُوا، ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا صَلَّى قَاعِدًا فَإِنَّهُمْ يُصَلُّونَ قُعُودًا^(٢).

٥- وَجُوبُ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ فِي الصَّلَاةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ﴾،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التقصير، باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب، رقم (١١١٧) من حديث عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به، رقم (٦٨٩) (٦٨٨)، وفي باب إقامة الصف من تمام الصلاة، رقم (٧٢٢)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، رقم (٤١١) (٤١٢) (٤١٤) من حديث أنس وعائشة وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. كما أخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٤١٣) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا شكَّ أنَّ الإخلاصَ من أعظم ما يُشترطُ في العبادة؛ لأنَّ مَنْ لم يُخلصْ في عبادته لم تُقبلْ منه؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١).

٦- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُصَلِّي أَنْ يَشْعُرَ وَهُوَ قَائِمٌ أَنَّهُ قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ؛ لقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾، كَأَنَّمَا قُتِمَتْ تَعْظِيمًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا شَكَّ فِي هَذَا، وَلِهَذَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَامَ فَإِنَّمَا يَقُومُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يُنَاجِي رَبَّهُ^(٢)، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُرْبِ الْمُصَلِّي مِنَ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الرَّبِّ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٣).

٧- وَجُوبُ الْقُنُوتِ، وَهُوَ السُّكُوتُ عَنْ كَلَامِ النَّاسِ فِي حَالِ الصَّلَاةِ؛ لقوله: ﴿قَنِيتَيْنِ﴾، فَإِنَّ ﴿قَنِيتَيْنِ﴾ حَالٌ مِنَ الْوَاوِ فِي: ﴿وَقُومُوا﴾، أَي: حَالٌ كَوْنِكُمْ قَانِتَيْنِ.

ولهذا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَمَرَ الصَّحَابَةُ بِالسُّكُوتِ -يعني: عَنْ كَلَامِ النَّاسِ- وَنُهِوا عَنِ الْكَلَامِ، أَي: كَلَامِ النَّاسِ^(٤).

(١) تقدم تخريجه (ص: ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب المصلي يناجي ربه عَزَّوَجَلَّ، رقم (٥٣١)، ومسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد، رقم (٥٥١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب العمل في الصلاة، باب ما يُنْهَى مِنَ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ، رقم (١٢٠٠)، ومسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٩) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ تَكَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي نَاسِيًا أَوْ جَاهِلًا فَصَلَاتُهُ صَاحِيحَةٌ، وَيَسْتَمِرُّ فِيهَا، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا نَوَاعِنُ: عَامٌّ، وَخَاصٌّ.

■ أَمَّا الْعَامُّ فَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قَدْ فَعَلْتُ»^(١)، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مُحَرَّمٍ يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ عَنْ جَهْلٍ أَوْ نِسْيَانٍ، فَإِنَّهُ لَا يُؤْثَرُ، فَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ إِثْمٌ، وَلَا بُطْلَانٌ، وَلَا فِدْيَةٌ، وَلَا كَفَّارَةٌ.

■ وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْخَاصُّ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ الْحَكَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي صَلَاتِهِ، فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْجَمَاعَةِ، فَحَمِدَ اللَّهُ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: يَرَحِمُكَ اللَّهُ. فَرَمَاهُ النَّاسُ بِأَبْصَارِهِمْ، أَيْ: جَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ مُنْكَرِينَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: وَاتَّكَلْ أُمِّيَاهُ! فَجَعَلَ الصَّحَابَةُ يَضْرِبُونَ عَلَى أَفْخَادِهِمْ يُسَكِّتُونَهُ، فَسَكَتَ، فَلَمَّا انْتَهَى مِنَ الصَّلَاةِ دَعَاهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، قَالَ مُعَاوِيَةُ: فَبَابِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، وَاللَّهُ مَا كَهَرَنِي، وَلَا تَهَرَنِي، وَإِنَّمَا قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا هِيَ التَّكْبِيرُ وَالتَّسْبِيحُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ^(٢)، وَلَمْ يَأْمُرْهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بِالْإِعَادَةِ، وَلَوْ كَانَ الْكَلَامُ مِنَ الْجَاهِلِ مُبْطِلًا لِلصَّلَاةِ لِأَمْرِهِ بِالْإِعَادَةِ؛ كَمَا أَمَرَ الَّذِي جَعَلَ يُصَلِّي وَلَا يَطْمِئِنُّ، وَهُوَ جَاهِلٌ، أَمْرَهُ أَنْ يُعِيدَ الصَّلَاةَ، فَقَدْ دَخَلَ

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٠٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَجُلٌ وَالنَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فِي أَصْحَابِهِ فِي الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى صَلَاةً لَا يَطْمِئُنُّ فِيهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، فَرَدَّ السَّلَامَ، وَقَالَ: «ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فَرَجَعَ الرَّجُلُ، فَصَلَّى كَصَلَاتِهِ الْأُولَى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالَ لَهُ: «ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فِي الثَّلَاثَةِ قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَحْسِنُ غَيْرَ هَذَا، فَعَلَّمَنِي. فَعَلَّمَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ لِلصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئَنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْزُقْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئَنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْزُقْ حَتَّى تَطْمِئَنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئَنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»^(١)، وَفِي لَفْظٍ فِي غَيْرِ الصَّحِيحِينَ بَعْدَ الرُّكُوعِ قَالَ: «ثُمَّ ارْزُقْ حَتَّى تَطْمِئَنَّ قَائِمًا»^(٢)، فَأَمَرَهُ أَنْ يُعِيدَ الصَّلَاةَ، وَهُوَ لَا يُحْسِنُ وَلَا يَذَرِي، لَكِنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ الْحَكَمِ لَمْ يَأْمُرْهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُعِيدَ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُخَلِّ بِمَأْمُورٍ، وَلَكِنَّهُ فَعَلَ مَخْظُورًا، وَكُلُّ مَنْ فَعَلَ مَخْظُورًا نَاسِيًا أَوْ جَاهِلًا فَلَيْسَ عَلَيْهِ إِثْمٌ، وَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ حُكْمٌ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، رقم (٦٢٥١)، ومسلم:

كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب إقامة الصلوات، باب إتمام الصلاة، رقم (١٠٦٠).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ

تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

قَوْلُهُ: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ يَعْنِي: كُنْتُمْ فِي خَوْفٍ مِنْ عَدُوٍّ، أَوْ سَبْعٍ، أَوْ حَرِيقٍ، أَوْ غَرَقٍ ﴿ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ أَي: فَصَلُّوا الصَّلَاةَ رِجَالًا، أَوْ سَاعِينَ عَلَى أَرْجُلِكُمْ، أَوْ رُكْبَانًا، أَوْ رَاكِبِينَ عَلَى رَوَاحِلِكُمْ.

﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ﴾ وَزَالَ الْخَوْفُ ﴿ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أَي: اذْكُرُوا اللَّهَ، وَمِنْ ذِكْرِهِ: الصَّلَاةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي عَلَّمَنَا إِيَّاهُ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١- تيسيرُ الشريعة الإسلامية، وأنها في هذه العبادة العظيمة إذا خيف من بعض واجباتها أن يقع فيه حرجٌ، فإنه يُعْفَى عنه.

٢- جوازُ الصَّلَاةِ حَالَ الْهُرُوبِ مِنَ الْعَدُوِّ وَلَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ رَاجِلًا، مَعَ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ سَيَحْصُلُ لَهُ حَرَكَةٌ كَثِيرَةٌ.

٣- سُقُوطُ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ فِي حَالِ الْخَوْفِ، فَيَتَجَهُّ حَيْثُ كَانَتْ مَنْجَاتُهُ، سِوَاءَ كَانَتِ الْقِبْلَةُ أَمَامَهُ، أَوْ عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ خَلْفَ ظَهْرِهِ.

٤- أَنَّ أَهَمَّ الشُّرُوطِ مُحَافَظَةً عَلَيْهِ هُوَ الْوَقْتُ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُصَلِّيَ الْإِنْسَانُ فِي الْوَقْتِ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ، وَإِلَّا لَكُنَّا نَقُولُ: إِنْ خِفْتَ فَأَجِّلِ الصَّلَاةَ إِلَى الْأَمْنِ. فَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَاةَ عَلَى حَسَبِ الْحَالِ فِي وَقْتِهَا عَلِمَ أَنَّ الْوَقْتَ أَهَمُّ شُرُوطِ الصَّلَاةِ مُحَافَظَةً عَلَيْهِ.

٥- جَوَازُ الصَّلَاةِ عَلَى الرَّاحِلَةِ عِنْدَ الْخَوْفِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾، فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ خَوْفٌ فَإِنَّ الْفَرِيضَةَ لَا تُصَحُّ عَلَى الرَّاحِلَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتِمَّكُنُ مِنَ الْقِيَامِ، وَلَا مِنَ السُّجُودِ، وَلَا مِنَ الرُّكُوعِ، إِلَّا بِالْإِيْمَاءِ.

لَكِنْ يُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ: الْخَائِفُ، كَمَا هُنَا.

وَيُسْتَشْنَى أَيْضًا: النَّقْلُ فِي السَّفَرِ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رَاحِلَتِهِ صَلَاةَ النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ، وَيَتَّجِهَ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى السَّيَّارَةِ فِي السَّفَرِ صَلَاةَ النَّافِلَةِ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، يَجُوزُ، لَكِنَّا لَا نُفَضِّلُ أَنْ يُصَلِّيَ قَائِدُ السَّيَّارَةِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا صَلَّى وَهُوَ يَقُودُ السَّيَّارَةَ فَإِمَّا أَنْ يَنْشَغَلَ قَلْبُهُ بِالْقِيَادَةِ، وَحِينَئِذٍ يَقَعُ فِي النَّهْيِ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ، وَلَا وَهُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ»^(١)، وَإِمَّا أَنْ يَشْتَغَلَ بِالصَّلَاةِ عَنِ الْقِيَادَةِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ عَلَى خَطَرٍ، فَلَا نُحِبُّ لِقَائِدِ السَّيَّارَةِ أَنْ يَتَنَفَّلَ وَهُوَ يَقُودُ السَّيَّارَةَ.

أَمَّا غَيْرُهُ فَلَا بَأْسَ، وَيَكُونُ اتِّجَاهُهُ قِبَلَ وَجْهِهِ، حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ فِي السَّفَرِ، وَيَوْمئِذٍ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّيَ عَلَى رَاحِلَتِهِ صَلَاةَ النَّافِلَةِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ^(٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام، رقم (٥٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوتر، باب الوتر في السفر، رقم (١٠٠٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب جواز صلاة النافلة على الدابة، رقم (٧٠٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٦- أَنَّ الْحُكْمَ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وَجُودًا وَعَدَمًا، فَمَا دَامَ سَبَبُ الْحُكْمِ بَاقِيًا فَالْحُكْمُ بَاقٍ، وَإِذَا زَالَ السَّبَبُ زَالَ الْحُكْمُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، وَهَذَا أَصْلُ مُتَّفَقٍ عَلَيْهِ: أَنَّ الْحُكْمَ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وَجُودًا وَعَدَمًا.

٧- أَنَّ الصَّلَاةَ ذِكْرٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾، وَلِهَذَا يُنْهَى الْعَبْدُ أَنْ يُصَلِّيَ وَقَلْبُهُ مَشْغُولٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا صَلَّى وَقَلْبُهُ مَشْغُولٌ صَارَ ذِكْرُهُ لِرَبِّهِ ذِكْرًا ظَاهِرِيًّا فَقَطْ بِالْجَوَارِحِ دُونَ الْقَلْبِ، وَالذِّكْرُ النَّافِعُ لِلْعَبْدِ هُوَ ذِكْرُ الْقَلْبِ، مَعَ مَا يُشْتَرِطُ لَهُ مِنْ مُتَابَعَةِ الْجَوَارِحِ لِلْقَلْبِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وَلَمْ يَقُلْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ أَمْسَكْنَا لِسَانَهُ أَوْ جَوَارِحَهُ عَن ذِكْرِنَا. بَلْ قَالَ: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا﴾، فَتَمَامُ الذِّكْرِ -بِلا شَكٍّ- يَكُونُ بِذِكْرِ الْقَلْبِ، وَإِذَا خَلَا عَن ذِكْرِ الْقَلْبِ كَانَ نَاقِصًا جِدًّا.

٨- الْإِشَارَةُ إِلَى تَذَكُّرِ الْعَبْدِ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، فَلِذَلِكَ نَقُولُ: إِذَا تَوَضَّأْتَ فَاحْمَدِ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ هَذَاكَ لِلْوُضُوءِ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ الْوُضُوءَ فِي كِتَابِهِ، وَفِي سُنَّةِ رَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، مَا فَهِمْتَهُ، وَلَا عِلِمْتَهُ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ: أَنْ تَذْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ حَيْثُ هَذَاكَ لَهَا، فَكُم مِّنْ أَنَاسٍ ضَلُّوا عَنْهَا!

٩- بَيَانُ تَفَضُّلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، بِأَنَّ عِلْمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ، فَالْأَصْلُ فِي الْإِنْسَانِ الْجَهْلُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

١٠- حُثُّ الْإِنْسَانِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَأَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْمُعَلِّمُ، فَلَا يَعْتَمِدُ عَلَى حَوْلِهِ، وَقُوَّتِهِ، وَذَكَائِهِ، وَفِطْنَتِهِ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ ذَكِيٍّ فَطِنَ حُرْمَ الْوُصُولِ إِلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ! وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ دُونَهُ وَفَّقَ لِلْوُصُولِ إِلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ!

فعليك -يا أخي المسلم- باللجوء إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بطلب العلم، قل: اللَّهُمَّ يا مُعَلِّمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَّمْنِي، ويا مُفَهِّمَ سُلَيْمَانَ فَهِّمْنِي.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٤)

سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾^(١).

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ أي: يَتْرُكُونَ أَزْوَاجًا، وَهَذَا يَصْدُقُ بِالزَّوْجَةِ الْوَاحِدَةِ، وَالزَّوْجَاتِ الْمُتَعَدِّدَاتِ.

وقوله: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ يعني: عَلَيْهِمْ أَنْ يُوصُوا لِأَزْوَاجِهِمْ وَصِيَّةً بِالْمَتَاعِ إِلَى الْحَوْلِ، أي: يَبْقَيْنَ فِي بُيُوتِ الْأَزْوَاجِ إِلَى سَنَةٍ كَامِلَةٍ، يُمَتَّعْنَ بِالنَّفَقَةِ وَالْكِسْوَةِ حَتَّى يَتِمَّ الْحَوْلُ.

(١) انظر: (ص: ١٩٠).

لكن هذه الآية نُسِختْ بالآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَىٰ بَعْضُ أَنْفُسِهِمْ آَرْبَعَةً أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فهذه وَجَّهَتْ للأزواجِ قبل أن يُلزِمَ الله النساءَ بأربعة أشهرٍ وعشرٍ، أنَّ الزَّوجَ يُوصِي لِزَوْجَتِهِ بهذا، لكنَّها نُسِختْ بهذه، ورُبَّما يُقالُ أيضًا: ونُسِختْ بآية المَوارِثِ، أنَّ الزَّوْجَةَ لها نَصيبُها المَفْرُوضُ.

وقوله: ﴿فَإِنْ خَرَجَنْ﴾ يعني: إِنْ خَرَجَنْ باختيارِهِنَّ قَبْلَ انْتِهَاءِ الحَوْلِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ أي: فَلَسْتُمْ آثِمِينَ إِنْ تَرَكْتُمْ لَهُنَّ الخِيَارَ؛ لِأَنَّهُنَّ أَعْلَمْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ، قد ترى من المَصْلَحَةِ أن تَخْرُجَ عَنِ بَيْتِ زَوْجِهَا، وَلَا تَبْقَى فِيهِ كُلَّ الحَوْلِ، فَلَا تُنْعَ.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو عِزَّةٍ وَحِكْمَةٍ وَحُكْمٍ، فله العِزَّةُ، وَلرَّسُولِهِ، وَللْمُؤْمِنِينَ، وله الحُكْمُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، وله الحِكْمَةُ فِيهَا شَرَعٌ وَصَنَعٌ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- وَجُوبُ تَوْصِيَةِ الزَّوْجِ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يُمَكِّنُوا الزَّوْجَةَ مِنَ السُّكْنَى فِي الْبَيْتِ، وَالتَّفَقُّعِ عَلَيْهَا لِمُدَّةِ حَوْلٍ، لَكِنَّ هَذَا نُسِخَ بِالْآيَةِ السَّابِقَةِ^(١).

٢- إِبْطَاتُ النَّسْخِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، أَي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْكُمُ بِحُكْمٍ، ثُمَّ يَنْسَخُ هَذَا الْحُكْمَ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ثُبُوتِ النَّسْخِ الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَإِجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا نَفَرًا قَلِيلًا خَالَفُوا فِي التَّسْمِيَةِ فَقَطْ.

(١) يعني بذلك الآية ذات الرقم (٢٣٤) من هذه السُّورة، وتقدمت (ص: ١٩٠).

ودليل ذلك: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وفي السُّنَّةِ قال النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا»^(١).

وما زال المسلمون يُثَبِّتُونَ النَّسْخَ، لكن غَالَى بعضُ الْعُلَمَاءِ فِي النَّسْخِ، فصارَ كُلُّهَا تَعَذُّرٌ عَلَيْهِ فَهُمُ آيَةٍ، أَوْ تَنَاسُبُهَا مَعَ آيَةٍ أُخْرَى، قَالَ: هَذِهِ مَنَسُوخَةٌ. وَالنَّسْخُ لَا تَجُوزُ الصَّيْرُورَةُ إِلَيْهِ إِلَّا بِشَرَطَيْنِ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: تَعَذُّرُ الْجَمْعِ وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ.

وَالشَّرْطُ الثَّانِي: الْعِلْمُ بِتَأْخِرِ النَّاسِخِ.

٣- أَنَّ مَنْ لَهُ الْحَقُّ فَهُوَ بِالْخِيَارِ بَيْنَ الْأَخْذِ بِهِ وَبَيْنَ تَرْكِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خَرَجْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾.

لَكِنْ فِي آيَةِ الطَّلَاقِ قَالَ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١]، فَهِيَ عَنْ إِخْرَاجِهِنَّ -أَي: الْمُطَلَّقاتِ طَلَاقًا رَجْعِيًّا- وَعَنْ خُرُوجِهِنَّ، أَمَّا هُنَا فَلَمْ يَنْهَ عَنْ خُرُوجِهِنَّ، قَالَ: ﴿فَإِنْ خَرَجْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٧) من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- أَنْ عَلَى الْمَرْأَةِ أَلَّا تَخْرُجَ عَنِ الْمَعْرُوفِ فِيمَا تَفْعَلُ بِنَفْسِهَا، مِنْ لِبَاسٍ، أَوْ كَلَامٍ، أَوْ خُرُوجٍ، أَوْ تَطْيِيبٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

٥- إِبْثَاتُ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَهُمَا: (الْعَزِيزُ) وَ(الْحَكِيمُ)، فَالْعَزِيزُ: مَنْ لَهُ الْعِزَّةُ وَالْغَلْبَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا غَالِبَ لَهُ، بَلْ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَلَمَّا قَالَ الْمُنَافِقُونَ: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] يَعْنِي: وَلَا عِزَّةَ لِلْمُنَافِقِينَ.

وَأَمَّا الْحَكِيمُ فَهُوَ ذُو الْإِحْكَامِ، وَالْحُكْمِ، فَالْحُكْمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْأُمُورِ الْقَدَرِيَّةِ.

وَالْحِكْمَةُ فِيمَا شَرَعَ اللَّهُ أَوْ قَدَرَهُ ثَابِتَةٌ، حِكْمَةٌ بِالْغَةِ عَظِيمَةٌ، لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا عَبَثًا، وَلَمْ يُشَرِّعْ شَيْئًا عَبَثًا، وَإِنَّمَا كَانَ شَرْعُهُ وَفِعْلُهُ لِحِكْمَةٍ وَغَايَةٍ مَحْمُودَةٍ، فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوءًا كَبِيرًا.

فَجَمِيعُ أَفْعَالِ اللَّهِ حِكْمَةٌ، وَجَمِيعُ شَرْعِ اللَّهِ حِكْمَةٌ، وَإِذَا آمَنَ الْإِنْسَانُ بِهَذَا فَإِنَّ مِنْ فَوَائِدِهِ: أَنْ يَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِشَرْعِ اللَّهِ، وَأَلَّا يَبْغِيَ بِالشَّرْعِ بَدِيلًا.

فَمَثَلًا: إِذَا قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْخَلْقِ عَوَاصِفَ زَلَزِلٍ وَقَوَاصِفَ، فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَدَّرَ ذَلِكَ لِحِكْمَةٍ، وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وَإِذَا حَكَمَ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ لِحِكْمَةٍ، حَتَّى وَإِنْ كُنَّا لَا نُنْذِرُكَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ، فَمَثَلًا: أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْحَائِضِ أَنْ تَقْضِيَ الصَّوْمَ، وَلَا تَقْضِيَ الصَّلَاةَ، فَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: الصَّلَاةُ أَوْ كَدُّ مِنَ الصَّوْمِ، فَلِمَاذَا لَا تُقْضَى، وَالصَّوْمُ يُقْضَى؟

فَجَوَابُنَا الْمُسَدَّدُ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ النَّزَاعَ فِيهِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ، وَبِهَذَا أَجَابَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حِينَ سُئِلَتْ: مَا بِالْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ، وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟! فَقَالَتْ: كَانَ يُصَيِّنَا ذَلِكَ - يَعْنِي: فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ - فَنُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا نُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ^(١).

كَذَلِكَ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا كَانَتِ الصَّلَوَاتُ خَمْسًا، وَلَمْ تَكُنْ عَشْرًا - مَثَلًا - أَوْ سِتًّا، أَوْ ثَلَاثًا؟

فَنَقُولُ: هَذَا أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، لَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ، لَا تُدْرِكُهَا عُقُولُنَا.

وَأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ مِنْ هَذَا النَّوعِ، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْأَحْكَامِ يُسَمِّيهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: «تَعَبُّدِيًّا»، أَي: أَنَّ مَوْقِفَنَا مِنْهُ مَوْقِفُ الْمُتَعَبِّدِ الَّذِي لَا يَهْمُهُ أَنْ يَعْلَمَ الْحِكْمَةَ أَوْ لَا يَعْلَمَ.

٦- أَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَأَيُّ حُكْمٍ يُعَارِضُ حُكْمَ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ.

وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ الْقَوَانِينَ الْوَضْعِيَّةَ الَّتِي وَضَعَهَا الْبَشَرُ، إِنْ وَافَقَتْ حُكْمَ اللَّهِ فَهِيَ مَقْبُولَةٌ؛ لِأَنَّهَا حُكْمُ اللَّهِ، لَا لِأَنَّهَا وَضَعُ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَإِنْ لَمْ تُوَافِقْ حُكْمَ اللَّهِ فَهِيَ مَرْفُوضَةٌ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض، رقم (٣٣٥).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتْعُ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا طَلَّقْتَ﴾ أَي: مَنْ طُلِّقَ، وهذا يشمل مَنْ طُلِّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ، وَمَنْ طُلِّقَتْ بَعْدَ الدُّخُولِ؛ وذلك لَأَنَّ مَنْ طُلِّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا، بِأَنَّهَا تُمْتَعُ إِذَا لَمْ يُسَمَّ لَهَا مَهْرٌ، وَأَنَّ لَهَا نِصْفَ الْمَهْرِ إِذَا سُمِّيَ لَهَا مَهْرٌ.

أَمَّا هَذِهِ فَالْآيَةُ عَامَّةٌ تَشْمَلُ أَيَّ مُطَلِّقَةٍ، لَكِنْ يُقَالُ: أَمَّا مَنْ طُلِّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ فَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ الْوَاجِبِ لَهَا، وَهَذِهِ فِيمَنْ طُلِّقَتْ بَعْدَ الدُّخُولِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَتْعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَي: مَا تَمَتَّعَ بِهِ مِنْ كِسْفَةٍ، أَوْ أَكَلٍ، أَوْ سُكْنَى، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ﴿حَقًّا﴾ أَي: أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أَي: عَلَى مَنْ يَتَّقُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿كَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلَ هَذَا الْبَيَانِ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ﴾ أَي: يُظْهِرُهَا؛ حَتَّى تَعْرِفُوهَا، وَتَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ كَمَالِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَي: لَعَلَّكُمْ تَكُونُونَ مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ، وَالْمُرَادُ بِالْعَقْلِ هُنَا: عَقْلُ الرُّشْدِ، لَا عَقْلُ الْإِذْرَاكِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَقْلَ نَوْعَانِ: عَقْلُ إِذْرَاكِ، وَهُوَ الَّذِي تَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْأَحْكَامُ، وَهُوَ الَّذِي يَذْكُرُهُ الْفُقَهَاءُ فِي قَوْلِهِمْ مَثَلًا: «يُشْتَرَطُ لَوْجُوبِ الصَّلَاةِ: الْعَقْلُ»، أَي: عَقْلُ الْإِذْرَاكِ.

وَأَمَّا عَقْلُ الرُّشْدِ فَهُوَ إِحْسَانُ التَّصَرُّفِ، بَأَن يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي تَصَرُّفِهِ رَشِيدًا، لَا يَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَ السُّفَهَاءِ، وَلِهَذَا لَوْ سُئِلْنَا: مَا تَقُولُونَ فِي أَذْكَيَاءِ الْكُفَّارِ، أَهُمْ عُقَلَاءُ،

أم لا؟ فجوابنا أن نقول: أمّا عقل الإذراك فهم عقلاء لا شك، وأمّا عقل الرشد فليسوا عقلاء؛ لأنهم لو كانوا عقلاء حقيقة -أي: عقلاء رُشد- لكانوا مسلمين، فكل كافر ليس بعاقِل -يعني: عقل رُشد- لكنه عاقل عقل إذرak، يُدرك به الأشياء.

في هاتين الآيتين من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- وجوب المتاع للمطلقات، وقد ذكر كثير من العلماء: أن هذا المتاع الذي أوجبه الله هنا منسوخ بالآية السابقة، وأنه إن كانت المرأة قد دخل بها الزوج فلها المهر: إمّا المسمى إن سُمي، أو مهر المثل، وأمّا المتعة فليست بواجبة.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية محكمة، وأنه يجب على من طلق زوجته أن يعطيها ما يجبر قلبها؛ لأن الطلاق كسر للمرأة، فتعطى ما يطيب به قلبها، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(١)، وهو الأرجح عندي، أن كل من طلق زوجته فإنه يجب عليه أن يمتعها بشيء يطيب به قلبها.

٢- التصريح البيّن بوجوب ذلك؛ حيث قال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

٣- أن الله سبحانه وتعالى بيّن لنا آياته الدالة على ما تدل عليه من كماله عز وجل.

٤- رأفة الله تعالى ورحمته بعباده؛ حيث بيّن لهم سبحانه وتعالى ما يهتدون به.

٥- أن من كان أعرف بآيات الله فهو أعقل؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٦- إثبات العِلل والحكم؛ لأن (لعل) هنا للتعليل، أي: لأجل أن تعقلوا،

وهذا - أعني: إثبات العِلَلِ والحِكَمِ في أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى الكَوْنِيَّةِ والشرعية - أَمْرٌ لا إِشْكَالَ فيه؛ لأنَّه هو مُقْتَضَى كَوْنِهِ حَكِيمًا، فَسُبْحَانَ الْعَلِيِّ الْحَكِيمِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الْخِطَابُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مَنْ يَتَأَتَّى خِطَابُهُ، وَيَصِحُّ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْخِطَابُ.

وهؤلاء الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ، خَرَجُوا خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ، وَفِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ، فَأَرَاهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ لَا مَفَرَّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿مُوتُوا﴾ أَي: أَمَرَهُمْ أَمْرًا كَوْنِيًّا أَنْ يَمُوتُوا ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ بَعْدَ مَوْتِهِمْ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَا مَفَرَّ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثُمَّ بَيَّنَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، أَي: ذُو إِحْسَانٍ إِلَيْهِمْ فِي جَلْبِ النِّعَمِ، وَدَفْعِ النِّقَمِ، وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُرِيهِمْ عَزَّوَجَلَّ آيَاتِهِ فِي الْآفَاقِ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أَي: أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، وَشُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْقِيَامُ بِطَاعَتِهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ»، وتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]^(١)، فدلَّ هذا على أَنَّ الشُّكْرَ هو الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

- ١- تَعْجِيبُ الْعَبْدِ فِي بَيَانِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ يعني: أَلَمْ تَعْجَبْ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ.
- ٢- أَنَّهُ لَا مَفَرَّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، لَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَمَرَ إِذَا سَمِعْنَا الطَّاعُونَ بِأَرْضِ قَوْمٍ أَلَّا نَقْدَمَ عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ وَنَحْنُ فِي الْأَرْضِ أَلَّا نَخْرُجَ مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ^(٢)؛ لَأَنَّا وَإِنْ فَرَرْنَا فَاللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَرَائِنَا مُحِيطٌ.
- ٣- بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ قَالَ لَهُمْ: ﴿مُوتُوا﴾ فَمَاتُوا، بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ جَلَّوَعَلَا؛ لِأَنَّ أَمْرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: «كُنْ»، فَيَكُونُ.
- ٤- أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾.

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٧٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب ما يُذَكَّرُ فِي الطَّاعُونَ، رقم (٥٧٢٨) (٥٧٢٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب الطَّاعُونَ وَالطَّيْرَةَ، رقم (٢٢١٨) (٢٢١٩) من حديث أسامة بن زيد وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥- أَنَّهُ يُنْبِغِي لِلْعَبْدِ أَلَّا يُعَلِّقَ قَلْبَهُ بِأَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فِي الصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الَّذِي يُنْجِي مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الَّذِي يُهْلِكُ مَنْ يَشَاءُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ أَمْلَكِ تُؤْتِي أَمْلَكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ أَمْلَكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

٦- الاستدلال بهذه القصة وأمثالها على إمكانية البعث الذي كان يُنكره المشركون المكذبون؛ لِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى إِحْيَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَائِهِمْ فِي الْآخِرَةِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ يُصَاحُّ بِهِمْ ﴿١٥﴾ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، كُلُّ الْعَالَمِ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ يُحْضَرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

٧- بَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾.

٨- أَنَّ بَيَانَ آيَاتِ الْكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ لِلخَلْقِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا أَمْرٌ لَا شَكَّ فِيهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا فَتَحَ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ آيَاتِهِ مَا يَزِدُّهُ بِهِ إِيمَانَهُ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَفْضَلِ النِّعَمِ عَلَيْهِ.

٩- أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ تَعَالَى عَامٌّ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ، غَنِيَّهُمْ وَفَقِيرِهِمْ، كَافِرِهِمْ وَمُؤْمِنِهِمْ، ذَكَرَهُمْ وَأُنْثَاهُمْ، صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، فَالكَافِرُ يَتَمَتَّعُ فِي الدُّنْيَا بِالنِّعْمَةِ وَالتَّرَفِّهِ بِالْأَمْنِ، وَبِالْعَقْلِ الْإِدْرَاكِيِّ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ إِرْشَادِيٌّ، لَكِنْ لَهُ عَقْلٌ الْإِدْرَاكِ.

وَالصَّبِيُّ يَتَمَتَّعُ بِنِعْمِ اللَّهِ: بِالصَّحَّةِ، وَالنُّمُوِّ، وَتَيْسِيرِ الْكَافِلِ لَهُ مِنْ أُمٍّ وَأَبٍ وَقَرِيبٍ.

فَكُلُّ النَّاسِ يَتَمَتَّعُونَ بِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

١٠ - أَنَّهُ مَعَ عُمُومِ الْفَضْلِ لَا يُعْمُ الشُّكْرُ، فَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، فَاحْذَرُ يَا أَخِي، وَفَتِّشْ فِي نَفْسِكَ: هَلْ أَنْتَ مِنَ الْأَكْثَرِ، أَوْ مِنَ الْأَقَلِّ؟

١١ - الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ بَنِي آدَمَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يَشْكُرُ النِّعْمَةَ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ، فَفِي (الصَّحِيحِينَ) عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «يَا آدَمُ»، فَيَقُولُ: «لَبَّيْكَ، وَسَعْدَيْكَ»، فَيَقُولُ: «أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»، قَالَ: «يَا رَبِّ، وَمَا بَعَثُ النَّارِ؟» قَالَ: «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ»، أَي: وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالباقِي فِي النَّارِ، فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَيْنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: «أَبْشِرُوا؛ فَإِنَّكُمْ فِي أُمْتَيْنِ، مَا كَانَتْ فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَرَتْ: يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ! مِنْهُمْ أَلْفٌ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ»، أَي: وَاحِدٌ فِي الْأَلْفِ، فَكَبَّرَ الصَّحَابَةُ، وَفَرِحُوا، فَقَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَكَبَّرُوا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَكَبَّرُوا^(١).

وقد جاء في السُّنَنِ: أَنَّ الْجَنَّةَ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ صَفًّا، مِنْهَا ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الحشر، رقم (٦٥٢٨)، وفي كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾، رقم (٤٧٤١)، ومسلم: كتاب الإيثار، باب بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، رقم (٢٢١)، وفي باب قوله: «يَقُولُ اللَّهُ لِآدَمَ»، رقم (٢٢٢) من حديث عبد الله ابن مسعود وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْأُمَّة^(١)، جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ.

أخيراً، أَحْتِ إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ، وَتَفْهَمِ مَعَانِيهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ إِذْرَاكِ الْمَعْنَى فَهُوَ مِنْهُمْ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلْيَسْأَلِ الْعُلَمَاءَ، فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَزَادَنَا مَعْرِفَةً بِآيَاتِهِ، وَاتَّبَاعًا لِمَرْضَاتِهِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

••❦••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٤)

قَوْلُهُ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: قَاتِلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: فِي الطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ بِأَنْ تُقَاتِلُوا لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَدْ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ حِمَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يُنَبِّهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى أَنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، سَمِيعٌ لِكُلِّ مَا يَقُولُونَ مِمَّا يَنْطِقُونَ بِهِ، سَوَاءَ كَانَ جَهْرًا أَوْ سِرًّا، عَلِيمٌ بِمَا فِي الْقُلُوبِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في كم صف أهل الجنة؟ رقم (٢٥٤٦)، وابن

ماجه: كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ، رقم (٤٢٨٩)، وأحمد (٣٤٧/٥) من حديث

بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٨٧).

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي :

١ - الأمر بالقتال في سبيل الله، ومراتب الدعوة - أعني: دعوة الكفار -: أن ندعوهم أولاً إلى الإسلام، فإن أبوا دعوناهم إلى الجزية، يعني: أن يبقوا على دينهم، ويُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا قاتلناهم؛ لأنهم صاروا محاربين.

والأمر بالقتال كغيره من الأوامر، مُقيّد بالقُدرة والاستِطاعة، ولذلك لم يُوجب الله تبارك وتعالى الجهاد على المسلمين حين كانوا في مكة، وليس لهم دولة قائمة، يَحْتَمون بها، ويصدرون عن رأيها.

وهذا نعرف أنه لا ينبغي لنا أن نخوض غمار الحرب حتى يكون لدينا ما نتمكن به من هزيمة أعدائنا.

٢ - الإشارة إلى الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهو أن يُقاتل الإنسان لا ليغلب عدوه، ولكن لتكون كلمة الله هي العليا، فمن قاتل حمية، أو عصبية - كالقتال لأجل العروبة، أو الوطنية، أو ما أشبه ذلك - فليس في سبيل الله، فالذي يُقاتل في سبيل الله هو الذي يُقاتل لشيء واحد: أن تكون كلمة الله هي العليا.

٣ - التنبيه المُشرب بالتَّحذير على سَمع الله وعِلْمِهِ، فإذا عَلِمْتَ أن الله سَمِيعٌ لأقوالك - سراً أو جهراً - فإنك تحذر من أن تُسمع الله ما لا يرضاه منك.

والتنبيه الأعم هو بعلم الله عز وجل، أن الله تعالى يعلم كل شيء، كل شيء يُقال، وكل شيء يُفعل، وكل شيء يُضمر.

وَالصَّادِرُ مِنَ الْإِنْسَانِ: إِمَّا قَوْلٌ بِاللِّسَانِ يَكُونُ مَسْمُوعًا، وَإِمَّا فِعْلٌ بِالْأَرْكَانِ يَكُونُ مَرْتَبًا، وَإِمَّا اعْتِقَادٌ فِي الْجَنَانِ (فِي الْقَلْبِ) يَكُونُ خَفِيًّا عَلَى النَّاسِ، لَكِنَّهُ غَيْرُ خَفِيٍّ عَلَى اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ١٧ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ق: ١٦-١٨﴾، مَلَكَانِ كَرِيمَانِ عَنِ يَمِينِ الْإِنْسَانِ وَعَنِ شِمَالِهِ، يَكْتَبَانِ كُلَّ مَا يَقُولُ، وَكُلُّ مَا يَفْعَلُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ يَعْنِي: أَيُّ قَوْلٍ يَلْفِظُ بِهِ فَلَدَيْهِ رَقِيبٌ مُرَاقِبٌ، عَتِيدٌ حَاضِرٌ لَا يَتَعَدَّاهُ.

وَذَكَرَ أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ أَحَدُ أَصْحَابِهِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَوَجَدَهُ يَتَنُّ مِنْ شِدَّةِ الْمَرَضِ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، إِنَّ طَاوُسًا - وَهُوَ أَحَدُ كِبَارِ التَّابِعِينَ - يَقُولُ: إِنَّ الْمَلَكَ يَكْتُبُ حَتَّى أَتَيْنَ الْمَرِيضَ. فَسَكَتَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْإِنِّ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ ^(١).

وَلَا شَكَّ أَنَّ أَتَيْنَ الْمَرِيضَ - الَّذِي يُنْبِئُ عَنِ السَّخَطِ، وَعَدَمِ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ - يُكْتَبُ عَلَى الْإِنْسَانِ، أَمَّا الْإِنِّ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الطَّبِيعَةُ، وَيَأْتِي عَفْوًا، فَإِنَّهُ لَا يُكْتَبُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِاخْتِيَارٍ مِنْهُ.

٤- الْحَذَرُ مِنْ إِضْهَارِ الْمَرءِ شَيْئًا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الرِّيَاءِ، أَوِ الشَّكِّ، أَوِ الْبَغْضَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ، أَوِ الْحَسَدِ لَهُمْ، أَوِ كَرَاهَةِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَحْذُورَةِ، فَإِيَّاكَ - يَا أَخِي الْمُسْلِمَ - أَنْ تُضْمِرَ فِي قَلْبِكَ مَا لَا يَرْضَى رَبُّكَ!

وإنَّ العَاقِلَ هو الَّذي يَلاحِظُ صَدَأَ القَلْبِ قَبْلَ صَدَأِ الجَوَارِحِ؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ يَستطيعُ أن يَصلِحَ ظاهِرُهُ، حتَّى المُنَافِقُونَ يَصلِحُونَ ظاهِرَهُمْ، لَكِنَّ الباطنَ إِصلاحُهُ صَعْبٌ، ولَهذا قال بعضُ السَّلفِ: ما جَاهدتُ نَفْسي على شَيءٍ مُجَاهَدَتِها على الإِخلاصِ^(١).

وفي صَحيحِ البُخاري: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان في غَزاةٍ -أي: في غَزوةٍ- وكان مَعَهُم رَجُلٌ شُجاعٌ مُقدِّمٌ، لا يَدْعُ لِلعدُوِّ شاذَّةً ولا فاذَّةً إِلَّا قَضَى عليها، وقد أُعْجِبَ الصَّحابةُ بِهِ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «هَذا مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، أَجارنا اللهُ مِنْها، فَعَظُمَ ذلك على الصَّحابةِ، وقالوا: كيف يَكُونُ هَذا الرَّجُلُ الشُّجاعُ الَّذي لا يَدْعُ لِلعدُوِّ شاذَّةً ولا فاذَّةً، كيف يَكُونُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟! فقال أَحَدُ الصَّحابةِ: وَاللهِ لَأَظُنُّهُ. يعني: أَلَا زِمُهُ لَأَرايَ النُّهايةَ، فَلازِمُهُ، فَأُصِيبَ هَذا الرَّجُلُ بِسَهْمٍ، والشُّجاعُ يَجْزَعُ إِذا أُصِيبَ، فَكان مِنْ جَزَعِهِ أَنَّ سَلَّ سَيْفَهُ، وَوَضَعَهُ على صَدْرِهِ، ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَيْهِ حتَّى خَرَجَ مِنْ ظَهِرِهِ، فَمَاتَ، فَجاءَ الرَّجُلُ إلى النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وقال: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسولُ اللهِ. قال: «بِمِ؟» قال: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذي قُلْتَ لَنَا: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» فَعَلَّ كَيْتَ وَكَيْتَ. فقال النَّبِيُّ ﷺ كَلِمَةً خُفِيفَةً، تُخِيفُ كُلَّ مُؤْمِنٍ، قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَما يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»^(٢)، أَجارنا اللهُ وَإِياكُمْ مِنْ ذلك، فالأَمْرُ شَدِيدٌ.

(١) أخرجه الخطيب في الجامع (٣١٧/١) برقم (٦٩٢)، من قول سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب لا يقول: فلان شهيد، رقم (٢٨٩٨)، ومسلم: كتاب

الإيمان، باب بيان غلط تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢) من حديث سهل بن سعد

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فاخْرِصْ - يا أخي المُسْلِم - على تَطْهِيرِ الْقَلْبِ، وداوِ قَلْبَكَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ كُلِّ مَرَضٍ، وَطَهِّرْ قَلْبَكَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ كُلِّ صَدَأٍ، واذْكُرْ قَوْلَ رَبِّكَ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿[الطارق: ٨-٩]، أَي: تُخْتَبَرُ السَّرَائِرُ.

واذْكُرْ قَوْلَ رَبِّكَ عَزَّجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴿[العاديات: ٩-١١].

وَلَا يَفُوتُنِي أَنْ أَحْتَّ إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى تَدَبُّرِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَتَفْهَمِ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلِ بِهِ؛ فَإِنَّهُ النُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ لِمَا فِي الصُّدُورِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿[يونس: ٥٧-٥٨].



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥)

قَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ الاستِفْهَامُ هُنَا لِلتَّشْوِيقِ، يَعْنِي: أَيُّ إِنْسَانٍ يُقْرِضُ اللَّهَ؟، وَالْمُرَادُ بِإِقْرَاضِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِبَذْلِ الْمَالِ، وَالْبَدَنِ، وَالْجَاهِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

فَبَذْلُ الْمَالِ: أَنْ يَتَصَدَّقَ الْإِنْسَانُ بِالْمَالِ، وَبَذْلُ الْبَدَنِ: أَنْ يُعِينَ ضَعِيفًا، وَبَذْلُ الْجَاهِ: أَنْ يَشْفَعَ لِمُحْتَاجٍ، كُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ أَظْهَرَهَا، وَهُوَ بَذْلُ الْمَالِ.

وَشَبَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْبَذْلُ مِنْ أَجْلِهِ بِالْقَرْضِ؛ لِأَنَّ الْمُقْرِضَ يَسْتَوْفِي قَرْضَهُ بِكُلِّ حَالٍ، فَكَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ هَذِهِ الْأَعْمَالَ قَرْضًا عَلَيْهِ، أَي: التَّزَمَ جَلَّ وَعَلَا بِوَفَائِهَا، وَإِلَّا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى قَرْضٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ الْحَسَنُ: مَا جَمَعَ شَيْئَيْنِ: الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ، وَالْمُتَابَعَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، بِأَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ، طَيِّبًا، مُؤَدَّى عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ.

فَمَنْ نَوَى بِبَذْلِهِ الْمَالَ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الرِّيَاءُ وَالسُّمْعَةُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ»^(١)، وَمَنْ أَخْلَصَ النِّيَّةَ، لَكِنْ مِنْ كَسْبٍ حَرَامٍ، لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ.

وَمَنْ أَخْلَصَ النِّيَّةَ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، لَكِنْ صَرَفَهُ فِيمَا لَا يُرْضِي اللَّهُ - يَعْنِي: صَرَفَهُ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ وَأَهْلِهِ - لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ.

وَإِذَا أَقْرَضَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»^(٢)، وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِبِمِينِهِ، فَيَرْبِّيَهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ - الْفُلُؤُ: هُوَ الْحِصَانُ الصَّغِيرُ - حَتَّى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة، رقم (٦٤٩٩)، ومسلم: كتاب الزهد، باب تحريم الرياء، رقم (٢٩٨٧) من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما أخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٢٩٨٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَكُونُ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(١)، فَأَصْلُهَا تَمَرَةٌ، لَكِنْ تَكُونُ كَالْجَبَلِ، ضَوْعِفَتْ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿فَيُضَاعَفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْضِطُ﴾ يَعْنِي: لَا تَبْخُلْ عَلَى نَفْسِكَ، وَتَقُولُ: إِنْ تَصَدَّقْتُ نَقَصَ مَالِي. فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ جَلَّ وَعَلَا، إِنْ شَاءَ قَبَضَ وَقَتَرَ عَلَى هَذَا رِزْقَهُ، وَإِنْ شَاءَ بَسَطَ، وَوَسَّعَ لَهُ فِي الرِّزْقِ، وَالصَّدَقَةُ لَا تَنْقُصُ الْمَالَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»^(٢)، يَعْنِي: أَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْقُصُ الْمَالَ، وَإِنْ نَقَصَتْهُ عَدَدًا فَإِنَّهَا تَزِيدُهُ بَرَكََةً وَحِمَايَةً.

﴿وَأِيَّتِهِ﴾ لَا إِلَى غَيْرِهِ ﴿تَرْجِعُونَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُحَاسِبُكُمْ عَزَّجَلَّ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ رَحْمَتُهُ، وَيَقْتَضِيهِ عَدْلُهُ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١- بَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ، حَيْثُ يُرَغِّبُهُمْ وَيُشَوِّقُهُمْ إِلَى الْبَذْلِ فِي سَبِيلِهِ، وَأَنْهُمْ سَيُجَازَوْنَ عَلَى ذَلِكَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً.

٢- بَيَانُ كَرَمِ اللَّهِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ: أَنَّ مَا أَنْفَقَهُ الْعَبْدُ لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ التَزَّمَ بِهِ -أَي: بِثَوَابِهِ- كَمَا يَلْتَزِمُ الْمُقْتَرِضُ بَوَفَاءِ قَرْضِهِ.

٣- أَنَّ الْقَرْضَ لَا يُقْبَلُ إِلَّا إِذَا كَانَ حَسَنًا، وَهُوَ مَا جَمَعَ الْإِخْلَاصَ وَالْمُتَابَعَةَ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَكَوْنُهُ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ دَاخِلٌ فِي الْمُتَابَعَةِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ الصَّدَقَةِ مِنْ كَسْبِ طَيِّبٍ، رَقْمُ (١٤١٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ

الزَّكَاةِ، بَابُ قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ، رَقْمُ (١٠١٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْبَرِّ وَالصَّلَاةِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ الْعَفْوِ وَالتَّوَاضُعِ، رَقْمُ (٢٥٨٨) مِنْ حَدِيثِ

أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- أَنْ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ قَرْضًا لَيْسَ بِحَسَنٍ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا: قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»^(١).

٥- أَنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ لِلْمُقْرِضِ قَرْضَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَقَدْ أَخَذَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ لَا رَبًّا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَمَّى هَذَا الْعَمَلَ: قَرْضًا. وَأَخْبَرَ جَلَّ وَعَلَا أَنَّهُ يُضَاعِفُهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً.

وَأَخَذَ بَعْضُهُمْ: أَنَّهُ لَا رَبًّا بَيْنَ الْعَبْدِ وَسَيِّدِهِ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ لَهُ مَالٌ، يَبِيعُ وَيَشْتَرِي فِيهِ، وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَيِّدِهِ رَبًّا، فَلَيْسَ بِرَبًّا؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ وَمَا مَلَكَ لِلسَّيِّدِ، كَذَلِكَ نَحْنُ وَمَا مَلَكَنَا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ صَادِقَةٌ: لَا رَبًّا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ.

٦- بَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَإِحْسَانِهِ؛ لِأَنَّ الَّذِي وَفَّقَكَ لِلْقَرْضِ -أَي: لِقَرْضِ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا- هُوَ الَّذِي يُضَاعِفُهُ لَكَ، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَكَ مَا أَنْفَقْتَ، وَلَا أُعْطِيتَ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ رَزَقَكَ مَا أَنْفَقْتَ وَلَا أُعْطِيتَ، فَهُوَ الَّذِي رَزَقَكَ، وَأَعَانَكَ عَلَى الْبَذْلِ، وَأَثَابَكَ عَلَى ذَلِكَ هَذِهِ الْمُضَاعَفَةُ الْكَثِيرَةُ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةً اللَّهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ^(٢)

يَعْنِي: إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ نِعْمَةً، وَشَكَرْتَهُ، فَإِنَّ شُكْرَكَ إِيَّاهُ نِعْمَةٌ، يَحْتَاجُ إِلَى شُكْرٍ، فَإِذَا شَكَرْتَهُ عَلَى هَذَا الشُّكْرِ فَهَذَا الشُّكْرُ يَحْتَاجُ إِلَى شُكْرٍ، وَهَكَذَا دَوَّالْيَكَ، وَلِهَذَا نَقُولُ: سُبْحَانَكَ، لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ.

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) البيتان لمحمود الوراق كما في موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا (٣/ ٣٦) برقم (٨٢).

٧- أن جميع الأمور بيد الله عَزَّجَلَّ، هو الذي يَقْبِضُ، وهو الذي يَبْسُطُ، وما أَكْثَرَ ما نَرى فَقِيرًا اغْتَنَى، وَغَنِيًّا افْتَقَرَ! فالله هو القابِضُ والباسِطُ.

٨- أن الرجوع إلى الله وَحْدَهُ؛ لقول الله تعالى: ﴿وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وكما ذَكَّرْنَا في تفسيرها: أننا نَرْجِعُ إلى الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ولكن لو قيل بأنَّ المعنى أعمُّ، وهو أننا نَرْجِعُ إلى الله تعالى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بعدَ الْبَعْثِ، فَيُحَاسِبُنَا، وكذلك نَرْجِعُ إليه في أمور دِيننا ودُنْيانا، فلا نَحْكُمُ إِلَّا بِشَرِيعَتِهِ، ولا نَتَعَبَّدُ لَهُ إِلَّا بِشَرِيعَتِهِ.

ويُستفادُ من هذه الفائدة: أن جميع البدعِ مَرْدُودَةٌ، وأنَّ كُلَّ حُكْمٍ مُحَالِفٍ لحُكْمِ الله فهو باطلٌ؛ لأنَّ المَرْجِعَ لنا في العِبَادَاتِ والأحكامِ هو الله عَزَّجَلَّ. والآية لا تَأْبى هذا المعنى، والقاعدةُ العامةُ في تفسيرِ القرآنِ الكريمِ: أن الآيةَ كُلَّما كانت أَشْمَلَ وأعمَّ كان تفسيرُها بذلك أَوْلَى، وإذا احْتَمَلَتِ الآيةُ مَعْنَيْنِ على السَّوَاءِ، ولا يُنَافِي أَحَدُهُما الآخرَ، وَجَبَ حَمْلُها على المَعْنَيْنِ جميعًا؛ لأنَّ كَلَامَ الله تَبَارَكَ وتعالى واسعٌ.

وإذا شئتَ أن تَعْلَمَ هذا فانظُرْ إلى التَّفاسيرِ، تَجِدُ مُجَلَّدَاتٍ في تَفْسِيرِ الآياتِ، ولم يَصِلُوا إلى غَايَتِها، ففيها من أَلْطَافِ المعاني والحُكَمِ والأسرارِ ما لا يُحْصى. لكن دَلالةَ القرآنِ تكونُ بالتَّصريحِ، وبالتَّلويحِ، وبالمفهومِ الأوليِّ، وبالمفهومِ المُخالفِ، وبالإشارة.

ويُذَكِّرُ أن رجلاً من النصارى أراد أن يَمْتَحِنَ عالِمًا من علماء المسلمين، وكان في مَطْعَمٍ في البلادِ الأوروپيَّةِ، فجاء النُّصْرانيُّ إلى هذا العالمِ، وقال له: يا فلان، إنَّ كِتَابَكُم -يعني: القرآن- تَبَيَّنَ لَكُلِّ شَيْءٍ -وهذا حقُّ، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

الْكِتَابَ بَيِّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴿ [النحل: ٨٩] - فَأَيْنَ مَعْرِفَةُ كَيْفِ تَضْعُ هذه؟ وَيُشِيرُ إِلَى
نَوْعٍ مِنَ الطَّعَامِ، فَقَالَ لَهُ الْعَالِمُ الْمُسْلِمُ: هذه في القرآن. ثُمَّ دَعَا الْعَالِمُ الْمُسْلِمُ صَاحِبَ
الْمَطْعَمِ، وَقَالَ: أَخْبِرْنَا كَيْفَ تَضْعُ هَذَا الطَّعَامُ؟ فَقَالَ: أَضْنَعُهُ كَذَا وَكَذَا، وَفَصَّلَ
لَهُ، فَقَالَ الْعَالِمُ: هَكَذَا قَالَ الْقُرْآنُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فَاللَّهُ تَعَالَى أَرْشَدَنَا إِلَى أَنَّ الَّذِي لَا نَعْلَمُهُ نَسْأَلُ عَنْهُ أَهْلَهُ،
﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

نَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الْاِعْتِبَارَ بِآيَاتِهِ، وَأَنْ يُجْزِلَ لَنَا هِبَاتِهِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا
مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا
تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا
كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢١٦﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الْخِطَابُ إِمَّا لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَوْ لِكُلِّ مَنْ
يَصِحُّ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْخِطَابُ، يَعْنِي: أَلَمْ تَرَ أَيُّهَا السَّامِعُ، أَوْ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ.

﴿إِلَى آلِ الْمَلِكِ﴾ أَي: إِلَى الْقَوْمِ، وَالْمَلَأُ - فِي الْأَصْلِ - لِأَشْرَافِ الْقَوْمِ ﴿مِنْ بَنِي
إِسْرَءِيلَ﴾ إِسْرَائِيلُ هُوَ: يَعْقُوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ. وَلُقِّبَ بـ:
(إِسْرَائِيلَ) لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهِ؛ لِأَنَّ مَعْنَى (إِسْرَائِيلَ): عَبْدُ اللَّهِ، وَاسْمُهُ الْعَلَمُ: يَعْقُوبُ.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَشْرَفُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وهو وهارون أَخَوَانِ مِنْ أُمِّ وَأَبٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ هَارُونَ يُحَاطَبُ مُوسَى: ﴿يَبْنُومَ لَا تَأْخُذْ بِلِحَاقِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤] فلا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَخُوهُ مِنْ أُمِّهِ، لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الرَّأْفَةُ وَالْحَنَانُ فِي الْأُمِّ أَكْثَرَ مِنَ الْأَبِ خَاطَبَهُ، فَقَالَ: ﴿يَبْنُومَ﴾.

﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهْمُ﴾ هَذَا مَحَلُّ الْعَجَبِ وَالتَّعْجِيبِ ﴿أَبَعَثَ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي: اعْهَدْ إِلَى مَلِكٍ يَحْكُمُنَا، حَتَّى تُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَي: حَتَّى تُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ لَهُمْ: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ يَخْشَى عَلَيْهِمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ أَلَّا يُقَاتِلُوا.

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي: أَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُنَا مِنَ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَقَدْ أَخْرَجْنَا﴾ يَعْنِي: لِمَا مَعَنَا مِنَ الدِّينِ وَالْإِيمَانِ ﴿مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾، فَلَا بُدَّ أَنْ تُقَاتِلَ؛ لِنُخْرِجَ الَّذِينَ أَخْرَجُونَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا؛ كَمَا قَاتَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُ، وَأَخْرَجُوا مَنْ مَعَهُ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ يَعْنِي: فَرِضَ، وَأَتَاهُمُ الْمَلِكُ ﴿تَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا عَنِ الْقِتَالِ، وَلَمْ يُقَاتِلُوا ﴿أَلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾، فَتَوَلَّى أَكْثَرُهُمْ، وَهُمْ الَّذِينَ طَلَبُوا الْقِتَالَ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أَي: عَلِيمٌ بِهِمْ، وَهُمْ ظَلَمَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ طَلَبُوا، فَالْزَمُوا أَنْفُسَهُمْ مَا لَمْ يَلْزَمُهَا، وَمَعَ ذَلِكَ تَوَلَّوْا.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - الاعتبارُ بقصص مَنْ مَضَى؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

٢ - أَنَّ الإنسانَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِاتِّزَامِ مَا لَمْ يُلِزْهُ اللهُ بِهِ، ولهذا نَهَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - عَنِ النَّذْرِ، وقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»^(١)، وقال: «إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا»^(٢).

ولهذا حَرَّمَ النَّذَرَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وقالوا: يَحْرُمُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْذُرَ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ مَرِيضًا، وَنَذَرَ إِنْ عَافَاهُ اللهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ.

وَقَوْلٌ هُوَ لِأَيٍّ قَوِيٌّ جِدًّا، أَعْنِي: تَحْرِيمَ النَّذْرِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْهُ، وَعَلَّلَ النَّهْيَ، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ فِيهِ خَيْرٌ، وَنَفَى أَنْ يَرُدَّ الْقَضَاءُ، فَمَا أَرَادَهُ اللهُ عَزَّجَلَّ فَيَسْقَعُ، سِوَا نَذَرَتِ أُمٍّ لَمْ تَنْذُرْ.

ولهذا قُلَّ مَنْ نَذَرَ إِلَّا نَدِمَ، وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ، وَيُلِحُّونَ فِي السُّؤَالِ، تَحْدِثُهُمْ نَذَرُوا، وَيُحِبُّونَ أَنْ يَتَخَلَّصُوا، وَلَمْ يَتِمَّكَّنُوا، مِنْهُمْ مَنْ يَنْذُرُ أَنْ يَصُومَ شَهْرَيْنِ، أَوْ أَنْ يَصُومَ سَنَةً، أَوْ أَنْ يَصُومَ الدَّهْرَ كُلَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْذُرُ أَنْ يَذْبَحَ بَعِيرًا، أَوْ بَعِيرَيْنِ، أَوْ مَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْدُمُونَ أَنْ نَذَرُوهَا، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب النذر، باب النهي عن النذر، رقم (٤ / ١٦٣٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، رقم (٦٦٠٨)، ومسلم كتاب النذر، باب النهي عن النذر، رقم (١ / ١٦٣٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - : «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ»^(١).

وَلِيَحْذَرَ الْإِنْسَانُ إِذَا نَذَرَ لِلَّهِ تَعَالَى طَاعَةً فِي مُقَابَلَةِ نِعْمَةٍ، لِيَحْذَرَ مِنَ الْإِخْلَافِ، وَلِيَتَذَكَّرَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَبِئْسَ أَتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّهُ وَلَنَكُونَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بِحُلُومِهِ يَدُهُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧]، فَاَلْمَسْأَلَةُ خَطِيرَةٌ، وَإِنِّي أَحْذَرُ إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ مِنَ النَّذْرِ، وَأَقُولُ: إِذَا كُنْتُمْ مَرْضَى فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِالشِّفَاءِ، وَإِذَا كُنْتُمْ فَقَرَاءَ فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُغْنِيَكُمْ. أَمَّا أَنْ تَنْذَرُوا لِلَّهِ، وَكَأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُعْطِيكُمْ إِلَّا إِذَا شَرَطْتُمْ لَهُ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ!

وَمَا أَصْدَقَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَرُدُّ قَضَاءً»، فَأَنْتَ - أَيُّهَا الْمَرِيضُ - إِنْ كَانَ اللَّهُ أَرَادَ لَكَ شِفَاءً شُفِيتَ، نَذَرْتَ أَمْ لَمْ تَنْذَرْ، وَإِنْ لَمْ يَقْدَرْ لَكَ الشِّفَاءُ فَلَنْ تُشْفَى، سَوَاءٌ نَذَرْتَ أَمْ لَمْ تَنْذَرْ.

وَانْظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ، لَمَّا طَلَبُوا مَلِكًا؛ لِيُقَاتِلُوا مَعَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ حَصَلَ ذَلِكَ، وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ، تَوَلَّوْا.

نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا امْتِثَالَ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابَ نَوَاهِيهِ، مِنْ غَيْرِ نَذْرِ، وَلَا إِقْسَامٍ.

٣- أَنْ الْجِهَادَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ قِيَادَةٍ؛ لِقَوْلِهِمْ: ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾، وَلَمْ يَقُولُوا:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب النذر في الطاعة، رقم (٦٦٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

اِذَّنْ لَنَا نُقَاتِلْ. لَأَنَّا قِتَالًا بِلَا قَائِدٍ عَامٍّ يُوجِّهُ، وَيَحْلُلُ، وَيَرْبِطُ، وَيُعَاهِدُ، لَا يَكُونُ إِلَّا قِتَالَ عِصَابَاتٍ، قَدْ يَنْجَحُ، وَقَدْ لَا يَنْجَحُ، فَلَا بُدَّ مِنْ قَائِدٍ عَامٍّ.

٤- أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَخْبَرَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ مِنْ إِخْلَاصٍ فَإِنَّهُ لَا يُعَدُّ مُرَائِيًّا، فَإِذَا قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: سَأُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ: سَأَطْلُبُ الْعِلْمَ لِنَفْعِ عِبَادِ اللَّهِ، أَوْ مَا أَشَبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقْصُودَاتِ شَرْعًا، لَا يُرِيدُ بِهَذَا أَنْ يَمْدَحَهُ النَّاسُ عَلَيْهِ، لَكِنْ يُرِيدُ أَنْ يُخَبِّرَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا إِذَا قَصَدَ أَنْ يَتَأَسَّى بِهِ غَيْرُهُ.

٥- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ اسْتُشِيرَ فِي شَيْءٍ يُخْشَى مِنَ الْفَشْلِ فِي آخِرِهِ، أَنْ يُبَيِّنَ لِلْمُسْتَشِيرِ النَّتِيجَةَ وَالْعَاقِبَةَ؛ حَتَّى يَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَأَلْهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ مِنْ فَوَائِدِ التَّحْذِيرِ مِنَ الْعَاقِبَةِ: أَنَّ الْمُسْتَشِيرَ يَدْخُلُ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَإِمَّا أَنْ يُقَدِّمَ، وَإِمَّا أَنْ يُخْجِمَ.

٦- النَّظَرُ إِلَى الْمَفَاسِدِ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَى مَا فِيهِ مَصَالِحُ وَمَفَاسِدُ، فَيُقَدِّمُ أَنْفَعَهَا وَأَقْوَمَهَا، وَلِهَذَا لَا نَقُولُ: إِنَّ دَرَاءَ الْمَفَاسِدِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ الْمَصَالِحِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ. بَلْ نَقُولُ: إِذَا تَكَافَأَتِ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ قُدِّمَ دَرَاءُ الْمَفَاسِدِ عَلَى جَلْبِ الْمَصَالِحِ، أَمَّا إِذَا انْغَمَرَتِ الْمَفَاسِدُ فِي جَانِبِ الْمَصَالِحِ فَلْتَوَتْ الْمَصَالِحُ.

٧- أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَغْتَرَّ بِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءَ لَمَّا اغْتَرَّوْا بِأَنْفُسِهِمْ، وَقَالُوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَيْنَا﴾، حَصَلَتْ لَهُمْ رَدَّةُ الْفِعْلِ، كَمَا يَقُولُونَ.

٨- أَنَّهُ قَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمَّا كَانَ قِتَالُهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ، فَيَكُونُ كَأَنَّهُ انْتِقَامٌ، وَلَيْسَ لِإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ، ابْتُلُوا بِالتَّوَلَّى، إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ. هَذَا إِنْ لَمْ نُعَوِّلْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي التَّفْسِيرِ: أَنَّهُمْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ؛ لَكُونِهِمْ مُتَمَسِّكِينَ بِالدِّينِ، فَيَكُونُ قِتَالُهُمْ لِإِنْقَازِ دِيَارِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ؛ مِنْ أَجْلِ رُجُوعِ الدِّيَارِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَإِنْقَازِ الْأَبْنَاءِ مِنَ الْكُفْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالنِّيَّاتِ.

٩- أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ، فَيَتَعَرَّضَ لِمَا لَا يُمَكِّنُهُ الْقِيَامُ بِهِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ تَعَرَّضُوا لِأَمْرِ تَوَلَّوْا عَنْهُ، وَلَمْ يَقُومُوا بِهِ، فَالْإِنْسَانُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَدِّمَ إِلَّا عَلَى شَيْءٍ يَعْرِفُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَقُومُ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ.

وَانْظُرْ إِلَى قِصَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حِينَ قَالَ: لِأَصُومَنَّ وَلَا أَفْطِرُ، وَلَا أَقُومَنَّ وَلَا أُنَامُ. فَبَيَّنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ عِدَّةُ أُمُورٍ، انْتَهَتْ إِلَى أَنْ يَصُومَ يَوْمًا وَيُفْطِرَ يَوْمًا، كَصِيَامِ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمَّا كَبُرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُحْصَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَصَارَ يَعْجُزُ أَنْ يَصُومَ يَوْمًا، وَيُفْطِرَ يَوْمًا، فَكَانَ يَصُومُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا مُتَتَابِعَةً، وَيُفْطِرُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا مُتَتَابِعَةً^(١).

١٠- إِبْثَابُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

١١- أَنْ مَنْ نَذَرَ شَيْئًا، ثُمَّ تَوَلَّى وَلَمْ يَفِ بِهِ، فَهُوَ ظَالِمٌ.

١٢- أَنَّ الظَّلْمَ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: إِمَّا تَفْرِيطٌ فِي وَاجِبٍ، وَإِمَّا انْتِهَاكُ مُحَرَّمٍ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن؟ رقم (٥٠٥٢)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر، رقم (١١٥٩).

وهذا النوع هنا: تَفْرِيطٌ في واجِبٍ، فَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مع الجماعة - حَالٌ وَجُوبُهَا عليه - فهو ظالمٌ، وظلمُهُ من بابِ تَرَكَ المأمورِ، وَمَنْ شَرِبَ الخمرَ فهو ظالمٌ، وظلمُهُ من بابِ فَعَلَ المحذورِ.



ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ انظر إلى حُسْنِ الأدبِ مع الله، لم يَقُلْ: «إِنِّي بَعَثْتُ»، بل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾، وكأنَّ الله أَوْحَى إلى هذا النَّبِيِّ أَنْ اجْعَلَ فَلَانًا مَلِكًا لَهُمْ.

وقَوْلُهُ: ﴿طَالُوتَ﴾ عَلِمَ على شَخْصٍ، في لُغَةِ بني إِسْرَائِيلَ.

وقَوْلُهُ: ﴿مَلِكًا﴾ الْمَلِكُ هو: الَّذِي لَهُ التَّدْبِيرُ الَّذِي لَا يُنَارَعُ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْوِلَايَةُ الشَّرْعِيَّةُ أَوِ الْعُرْفِيَّةُ.

﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ ﴿أَنَّى﴾ بِمَعْنَى: كَيْفَ، فَهِيَ لِلإِسْتِفْهَامِ، وَهُمْ قَالُوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾، وَلَمْ يَقُولُوا: أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ لَنَا؟ فَجَعَلُوا الْمَسْأَلَةَ مِنْ بَابِ السُّلْطَةِ فَقَطْ، لَا مِنْ بَابِ رِعَايَةِ الْمَصْلُحَةِ.

ثُمَّ قَالُوا مُعْزِّزِينَ لَا اسْتِبْعَادَ لَهُمْ هَذَا الشَّيْءُ: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾، كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْمُلْكَ لَا يَكُونُ إِلَّا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، وَأَنَّ هَذَا لَمْ يَسْبِقْ لِأَحَدٍ مِنْ آبَائِهِ أَنْ تَوَلَّى الْمُلْكَ، بِخِلَافِنَا نَحْنُ، فَإِنَّ الْمُلُوكَ كَانُوا مِنَّا، فَكَيْفَ جَاءَهُ الْمُلْكُ؟!

وَأَيْضًا عَزَّزُوا اسْتِبْعَادَهُمْ هَذَا الشَّيْءَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾، فَهُوَ فَقِيرٌ، أَوْ لَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ وَاسِعٌ نَنْتَفِعُ مِنْهُ. فَذَكَرُوا عِلَّتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: مِنْ حَيْثُ التَّوَسُّطُ بِمُجْتَمَعِهِ.

وَالثَّانِيَةُ: مِنْ حَيْثُ الْمَالُ.

فَأَجَابَهُمْ نَبِيُّهُمْ، قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَي: فَضَّلَهُ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ مُفَضَّلٌ عَلَيْهِمْ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ ﴿بَسْطَةً﴾ مَعْنَاهَا: السَّعَةُ، وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ: عِلْمُ تَدْبِيرِ الْمُلْكِ، فَعِنْدَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالرَّأْيِ مَا جَعَلَهُ مُحْتَارًا عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَيْضًا الْجِسْمُ، فَزَادَهُ اللَّهُ بَسْطَةً فِي الْجِسْمِ مَعَ الْعِلْمِ، فَاجْتَمَعَ فِي حَقِّهِ الْقَوَّتَانِ: الْمَعْنَوِيَّةُ، وَالْحِسِّيَّةُ.

وَالسَّبَبُ الثَّالِثُ: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي: يُعْطِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ؛ لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْمُلْكِ.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَطْلَقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ وَاسِعٌ، وَلَمْ يَقُلْ: وَاسِعٌ فِي عِلْمِهِ أَوْ فَضْلِهِ أَوْ كَرَمِهِ، فَيَشْمَلُ كُلَّ صِفَاتِهِ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- أَنْ نَبِيَّهِمْ اسْتَجَابَ لَهُمْ حَيْثُ طَلَبُوا مَلِكًا، وكانت استجابته بسؤال الله سُبحانه وتعالى ذلك، وإجابة الله له.

٢- أَنَّ الْمَلِكَ لَا يُنَالُ بِالْوَرَاثَةِ، وَإِنَّمَا بِالْأَحْقَاقِ وَالْأَفْصَلِيَّةِ.

٣- أَنَّ الْمَلِكَ تَتَوَطَّدُ أَزْكَائِهِ إِذَا كَانَ لِلْمَلِكِ مَرْيَّةٌ فِي حَسَبِهِ، أَوْ نَسَبِهِ، أَوْ عِلْمِهِ، أَوْ قُوَّتِهِ.

٤- بَيَانُ أَنَّ أَفْعَالَ اللَّهِ فَوْقَ كُلِّ تَصَوُّرٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾.

٥- أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الْوَلِيُّ ذَا بَسْطَةٍ فِي الْعِلْمِ، وَتَذْيِيرِ الْأُمُورِ، وَالْجِسْمِ، وَقُوَّتِهِ، كَانَ أَقْوَمَ لِمُلْكِهِ، وَأَتَمَّ لِأَمْرِهِ.

٦- أَنَّ مُلْكَ بَنِي آدَمَ مُلْكُ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٧- إِبْثَابُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ.

٨- إِبْثَابُ أَفْعَالِ اللَّهِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ﴾؛ فَإِنَّ إِبْثَانَ الْمُلْكِ لِلْإِنْسَانِ يَتَجَدَّدُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٩- إِبْثَابُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَهُمَا: ﴿وَسِعٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾، فَالْوَاسِعُ: الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْوَاسِعُ الَّذِي صِفَاتُهُ لَا نِهَايَةَ لَهَا فِي الْكَمَالِ، الْوَاسِعُ الَّذِي غِنَاهُ

لَا حَدَّ لَهُ، وَهَكَذَا كُلُّ مَا تَشْمَلُهُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ مَعْنَى فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهَا، وَلِهَذَا يُعْتَبَرُ هَذَا الْأِسْمُ وَهَذِهِ الصِّفَةُ شَامِلَيْنِ لَجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

﴿عَلِيمٌ﴾ أَي: مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَلِهَذَا تَقَرَّرُنْ كَلِمَةُ (وَاسِعٍ) بِكَلِمَةِ (عَلِيمٍ)؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا فِيهِ الشُّمُولُ وَالْإِحَاطَةُ.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَعَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٤٨)

يُظْهَرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ اعْتَرَضُوا عَلَى نَبِيِّهِمْ، حِينَ قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ آيَةً، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ أَي: عَلَامَةً مُلْكِهِ، أَي: عَلَامَةً كَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى جَعَلَهُ مَلِكًا عَلَيْكُمْ ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾، وَكَانَ هَذَا التَّابُوتُ قَدْ أَخَذَهُ الْعَدُوُّ، وَعَجَزَ هَؤُلَاءِ عَنْ اسْتِنْقَازِهِ مِنْهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَ هَذَا التَّابُوتُ الَّذِي فَقَدْتُمُوهُ ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَي: طُمَأْنِينَةٌ، إِذَا حَمَلَهُ الْمُجَاهِدُونَ مَعَهُمُ ارْزَادُوا سَكِينَةً وَطُمَأْنِينَةً ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَعَالُ هَارُونَ﴾ أَي: مِنْ مِيرَاثِ النَّبَوَّةِ، فِيهِ السَّكِينَةُ، وَفِيهِ الْعِلْمُ وَالتَّوَجُّعُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لِأَنَّ الْبَشَرَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْ عَدُوِّ أَكْثَرِ مِنْهُمْ عَدَدًا، وَأَقْوَى مِنْهُمْ عُدَدًا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ﴾ أي: لَعَلَّامَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى كَوْنِ طَالُوتَ مَلِكًا
﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

- ١- أَنَّ كُلَّ دَعْوَى لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ بَيِّنَةٍ تُظْهِرُ الْحَقَّ وَتُبَيِّنُهُ.
- ٢- أَنَّ الْبَيِّنَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُقْنَعَةً، يَقْتَنِعُ بِهَا الْحَصَمُ وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَكٌّ.
- ٣- أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا جَعَلَ الْآيَاتِ لِمَلِكٍ لِإِثْبَاتِ مُلْكِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْعَلُ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ لِلرَّسُولِ؛ لِإِثْبَاتِ رِسَالَتِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ^(١).
- ٤- أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنَ التَّبَلُّدِ؛ حَيْثُ لَا يُقْنِعُهُمْ إِلَّا الْأَمْرُ الْمَحْسُوسُ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي كَوْنِهِ جَعَلَ الْآيَةَ إِثْبَاتَ التَّابُوتِ.
- ٥- إِثْبَاتُ الْمَلَائِكَةِ، وَبَيَانُ قُوَّتِهِمْ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ صِفَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

والملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نُورٍ، وَأَعْطَاهُمْ قُوَّةً وَعَزِيمَةً، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ① يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩-٢٠]، وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَسْطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، رقم (٤٩٨١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا، رقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ^(١)، فَسُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ.

٦- أَنَّ الْإِيْمَانَ يَحْمِلُ الْعَبْدَ عَلَى التَّصْدِيقِ بِالْآيَاتِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَا ذَنِي اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)

قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ طَالُوتُ هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِم، فَصَلَ بَهَا، أَي: انفصلَ مِنْ مَكَانِ قَرَارِهِ، وَاتَّجَهَ إِلَى الْعَدُوِّ، ﴿قَالَ﴾ لِلْجُنُودِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ أَي: مُخْتَبِرُكُمْ بِهِ، وَكَانُوا عَطَاشًا، فَأَرَادَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُبْتَلِيَهُمْ بِهَذَا النَّهْرِ، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، فَهَذَا يُسَامَحُ عَنْهُ، وَهَذَا الْإِبْتِلَاءُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُعْلَمَ الصَّابِرُ مِنْهُمْ غَيْرِ الصَّابِرِ؛ لِأَنَّ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَصْبِرْ، فَلَا يَكُونُ أَهْلًا لِلْجِهَادِ، وَلَا لِاتِّبَاعِ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ»، رقم (٢٣١٢)،

وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، رقم (٤١٩٠)، وأحمد (١٧٣/٥) من حديث أبي

ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا المَلِكُ الصَّالِحُ ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعني: وسيكونُ عَصْدًا لي، ونَصِيرًا. إِلَّا أَنَّهُ اسْتَنَى، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَعْرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ غُرْفَةً وَاحِدَةً بِيَدِهِ، وَشَرِبَ، فَبَلَّ رِيقَهُ، وَأَطْفَأَ حَرَارَةَ مَعِدَتِهِ، فَمَا الَّذِي حَصَلَ؟

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، فَصَارَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَصْلُحُ لِلْجِهَادِ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُمْ شَرَبُوا إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُ جَازَ بِهِمْ هَذَا النَّهْرَ.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَشْرَبُوا، أَوْ شَرَبُوا غُرْفَةً بِالْيَدِ ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِيمَنْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ: هَلْ هُمْ الَّذِينَ جَاوَزُوا النَّهْرَ، وَلَمْ يَشْرَبُوا، أَوْ شَرَبُوا غُرْفَةً بِالْيَدِ، أَوْ هُمُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ امْتِثَالِ الْأَمْرِ، وَشَرَبُوا؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يُبَيِّنْ: هَلْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ شَرَبُوا جَاوَزُوا، وَنَكَلُوا عَنِ الْجِهَادِ فِيمَا بَعْدُ، أَوْ لَمْ يُجَاوِزُوا؟ فَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ: هَلْ هُمْ جَاوَزُوا، أَوْ لَا؟

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمْ جَاوَزُوا، وَجَعَلَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمْ لَمْ يُجَاوِزُوا، وَإِنَّمَا الَّذِينَ جَاوَزُوا هُمُ الَّذِينَ لَمْ يَشْرَبُوا مِنَ النَّهْرِ، أَوْ شَرَبُوا مِنْهُ غُرْفَةً بِالْيَدِ، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الصَّابِرِينَ عَلَى الْعَطَشِ لَمَّا جَاوَزُوا النَّهْرَ، وَرَأَوْا الْعَدُوَّ، اسْتَكْثَرُوهُ، وَاسْتَقْلُّوا أَنْفُسَهُمْ، وَقَالُوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، وَانْقَسَمُوا إِلَى قِسْمَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ هَذَا الْكَلَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فَأَدْخَلُوا عَلَيْهِمُ الْعَزِيمَةَ وَالنَّشَاطَ، وَقَالُوا: إِنَّ الْكَثْرَةَ لَا يَلْزَمُ مِنْهَا الْغَلْبَةُ، فَقَدْ يَغْلِبُ الْقَلِيلُ الْكَثِيرَ، فَشَجَّعُوهُمْ عَلَى الصَّبْرِ، ثُمَّ خَاصُّوا الْمَعْرَكَةَ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَبْتَلِي الْعِبَادَ بِمَا شَاءَ؛ لِيَعْلَمَ الصَّابِرَ مِنْ غَيْرِ الصَّابِرِ؛
كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾
[محمد: ٣١].

٢ - أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُلَاحِظَ هَذَا الْإِبْتِلَاءَ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْتَلِيهِ بِالشَّيْءِ؛
لِيَنْظُرَ مَاذَا تَكُونُ الْعَاقِبَةُ؟ فَلْيَصْبِرْ، وَلْيَعِزِّمْ عَلَى الرَّشْدِ.

٣ - أَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى تَنَاوُلِ الشَّهْوَةِ الَّتِي تَشْتَهِيهَا؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا
يَقُولُونَ: ﴿أَبَعَثَ لَنَا مَلَكًا يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نَكَصَ أَكْثَرُهُمْ؛ لَنَيْلِ الشَّهْوَةِ،
وهي أَشْتِهَاءُ الْمَاءِ.

٤ - أَنَّ الصَّابِرَ قَلِيلٌ، كَمَا أَنَّ الشَّاكِرَ قَلِيلٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ
الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

٥ - أَنَّ الضَّرُورَةَ تُبِيحُ الْمَحْظُورَ، وَلَكِنْ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمَهُ
فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، وَلِهَذَا لَوْ اضْطَرَّ الْإِنْسَانُ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ، بَحِثْ
لَمْ يَجِدْ غَيْرَهَا، فَإِنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهَا، وَلَكِنْ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ، وَهَلْ لَهُ أَنْ يَشْبَعَ؟
■ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: لَيْسَ لَهُ أَنْ يَشْبَعَ، بَلْ يَأْكُلُ مَا يَسُدُّ رَمَقَهُ.

■ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ يَشْبَعُ.

وَالصَّوَابُ: أَنَّ فِي ذَلِكَ تَفْصِيلًا، فَإِنْ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ مِنْهَا شَيْئًا فَإِنَّهُ
لَا يَشْبَعُ، وَيَحْمِلُ مَعَهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَهُ فَلَهُ أَنْ يَشْبَعَ.

٦- أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنَ الْخَوَاطِرِ مَا يَشُكُّ مَعَهُ فِي النَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، هَذَا إِنْ قُلْنَا: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا﴾ يَعُودُ عَلَى الَّذِينَ جَاوَزُوا النَّهْرَ بِدُونِ شَرِبٍ، أَوْ مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ.

٧- أَنَّ الْإِيمَانَ بِلِقَاءِ اللَّهِ يُوجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْعَزَمَ وَالتَّصْمِيمَ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُلَاقٍ رَبَّهُ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَوْفَ يُجَازِيهِ.

٨- إِطْلَاقُ الظَّنِّ عَلَى الْيَقِينِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾، فَمَعْنَى الظَّنِّ هُنَا: الْيَقِينُ؛ إِذْ لَا يَكْفِي فِي الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الظَّنُّ.

٩- إِثْبَاتُ مُلَاقَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَيِّنَتْ ذَلِكَ السُّنَّةُ، أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحْلُو بَعْبِدَهُ الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ: فَعَلْتَ كَذَا، فَعَلْتَ كَذَا، فَعَلْتَ كَذَا. ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(١)، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ.

١٠- أَنَّهُ لَا عِبْرَةَ بِالْكَثْرَةِ، وَأَنَّ الْعِبْرَةَ بِنَصْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَقَدْ يَكُونُ الْعَدَدُ كَثِيرًا، وَلَا يَكُونُ النَّصْرُ، لِأَسْبَابٍ إِذَا أُعْجِبَ الْإِنْسَانُ بِكَثْرَتِهِ، كَمَا جَرَى ذَلِكَ لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ، حِينَ قَالُوا: لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ! فَأَرَاهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ الْكَثْرَةَ لَا تُغْنِي شَيْئًا، وَلَا قُوَا الْعَدُوِّ، فَفَرَّ الْمُسْلِمُونَ، مَعَ أَنَّ عَدُوَّهُمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَمْسَ مِائَةٍ، وَهُمْ كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، حَتَّى إِذَا عَرَفُوا أَنفُسَهُمْ أَعَادَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهِم بِالنَّصْرِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَظَالِمِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رَقْمُ (٢٤٤١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ التَّوْبَةِ، بَابُ قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ، رَقْمُ (٢٧٦٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١١ - أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالْعِزَّةَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

١٢ - فَضِيلَةُ الصَّبْرِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكُونُ مَعَ الصَّابِرِ، فَيَنْصُرُهُ، وَيُؤَيِّدُهُ، وَيُثَبِّتُهُ.

١٣ - إِبْثَابُ مَعِيَّةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَقَدْ قَسَمَ الْعُلَمَاءُ مَعِيَّةَ اللَّهِ إِلَى: عَامَّةٍ، وَخَاصَّةٍ.

فَالْعَامَّةُ: كَالَّتِي فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وهذه المَعِيَّةُ تَقْتَضِي الإِحَاطَةَ وَالْعِلْمَ، وَأَنَّهُ عَزَّجَلَّ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَتُوجِبُ لِلْعَبْدِ مَخَافَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَلَّا يَفْقِدَهُ حَيْثُ أَمَرَهُ، وَلَا يَجِدَهُ حَيْثُ نَهَاَهُ.

وَأَمَّا الْخَاصَّةُ فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿إِلَّا نَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وَمِنْ مُقْتَضِيَاتِ هَذِهِ الْمَعِيَّةِ: النَّصْرُ، وَالتَّأْيِيدُ، وَالتَّثْبِيثُ.

وقد تكونُ هذه المَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ مُقَيَّدَةً بِأَوْصَافٍ، مِثْلُ: قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَتَعُمُّ كُلَّ صَابِرٍ.

وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، فتعُمُّ كُلُّ مُتَّقٍ، وكُلُّ مُحْسِنٍ.

وهذه المعية لا تُتَافَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَ الْعَرْشِ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ، وَطَرِيقُ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ: أَنْ يُمَرِّوْهَا كَمَا جَاءَتْ، فَيُثَبِّتُونَ لَهَا الْمَعَانِيَ اللَّائِقَةَ بِاللَّهِ دُونَ تَكْيِيفٍ، وَلَا تَمْثِيلٍ. نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنا جَمِيعًا مِنْ أَتْبَاعِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَأَنْ يُدْخِلَنَا بَرَحْمَتِهِ فِي عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ يَذَلِّبِ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١)

قَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي: ظَهَرُوا، وَالتَّقَى الْجُمُعَانِ، لَجَّوْا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْدُّعَاءِ، فَبَدَّوْا أَوَّلًا بِالصَّبْرِ، أَنْ يُفْرِغَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الصَّبْرَ، وَالْإِفْرَاقُ فِي الْأَصْلِ: صَبُّ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وَالْمَعْنَى: أَنْ يُعْمَهُمُ بِالصَّبْرِ عُمُومًا كَامِلًا. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَثْبِيتُ الْأَقْدَامِ، يَعْنِي: الْوُقُوفَ أَمَامَ الْعَدُوِّ، بِحَزْمٍ، وَنَشَاطٍ، وَقُوَّةٍ، فَلَا فِرَارَ، وَلَا انْصِرَافَ.

الثَّالِثُ: ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، وهذا هو الغاية: أَنْ يَنْصُرَهُمُ اللهُ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، وذلك بالاستيلاء عليهم، والظهور عليهم؛ حَتَّى يُخْذَلَ الْأَعْدَاءُ.

وَلَمَّا جَازُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَسَلَّوَهُ هَذِهِ الْمَطَالِبَ الثَّلَاثَةَ، اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُمْ، ﴿فَهَزَمُوهُمْ﴾ يعني: أَصْحَابَ طَالُوتَ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ، أَي: بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾، وَكَانَ جَالُوتُ زَعِيمَ الْعَدُوِّ، فَقَتَلَهُ، وَإِذَا قَتَلَ زَعِيمُ الْقَوْمِ حَصَلَ الْفَسْلُ، وَالْإِنْهَارُ، وَوَلَّوْا الْأَذْيَارَ.

﴿وَعَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يَعْنِي: آتَى اللَّهُ دَاوُدَ -الَّذِي قَتَلَ جَالُوتَ- الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ، فَكَانَ مَلِكًا نَبِيًّا، مَلِكًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَعَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾، وَنَبِيًّا بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.

وَمِمَّا عَلَّمَهُ: مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ يعني: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ هَؤُلَاءِ بِهَؤُلَاءِ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، وَاسْتَوَلَى الْأَشْرَارُ عَلَى الْأَخْيَارِ، وَلَمْ يَبْقَ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ طَاعَةٌ، لَكِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَبْتَلِي هَؤُلَاءِ بِهَؤُلَاءِ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ الْحَقُّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [حمد: ٤]، وَهَذَا أَمْرٌ مُشَاهَدٌ، يَعْنِي: لَوْ كَانَتِ السَّيْطَرَةُ عَلَى الْعَالَمِ لِدَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، وَاسْتَرْقَّ هَؤُلَاءِ الْأَقْوِيَاءُ رِقَابَ الضُّعَفَاءِ، وَحَصَلَتِ الْإِهَانَةُ وَالْفَوْضَى، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَدْفَعُ هَؤُلَاءِ بِهَؤُلَاءِ.

وقد بينَ اللهُ تعالى نوعاً من هذا الفسادِ في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

ولكنَّ اللهَ بحكمته يَنْفُضُ على الجميع، فهو ذو فَضْلٍ على العالمين، يَدْفَعُ بعضهم ببعضٍ؛ حَتَّى تَسْتَقِيمَ الْأُمَّةُ، وَتَقُومَ الْمِلَّةُ.

في هاتين الآيتين من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - أَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى الْقَادِرِ عَلَى تَفْرِيجِهَا عَزَّجَلَّ، وهو اللهُ؛ لقوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ إلى آخره.

٢ - أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الصَّبْرِ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ، قد يكون الإنسانُ أَشْجَعَ إنسانٍ، وَأَقْوَى إنسانٍ، وَأَحْسَنَ إنسانٍ، فإذا أَصِيبَ بِمُصِيبَةٍ خَارَتْ قُوَاهُ، وَعَجَزَ عَنْ تَحْمُلِهَا إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

٣ - أَنَّ يَدْعُو الْإِنْسَانُ بِهَذَا الدُّعَاءِ عِنْدَ مُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

٤ - أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، لَيْسَ بِقُوَّةِ السَّلَاحِ، وَلَا بِقُوَّةِ الْعَزِيمَةِ، وَلَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلِهَذَا طَلَبُوا، قَالُوا: ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

٥ - أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَجَأَ إِلَى رَبِّهِ، وَعَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَأَجَابَ دُعَاءَهُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٦ - اسْتِجَابَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلدُّعَاءِ.

وهذه يَتَرَتَّبُ عليها فائدةٌ أخرى، وهي عِلْمُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِحَالِ الدَّاعِي.
وفائدةٌ أخرى، وهي سَمْعُ اللهِ لِدُعَائِهِ.

وفائدةٌ ثالثة، وهي قُدْرَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى على الإجابة، وأنه على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.
ولهذا كان من طُرُقِ إِبْثَاتِ وجودِ الباري عَزَّوَجَلَّ: اسْتِجَابَةُ دُعَاءِ مَنْ دَعَاهُ؛
كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ
الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢].

ولقد جَرَتْ قِصَّةٌ في عَهْدِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- تَدُلُّ على
هذا المعنى، فقد دَخَلَ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فقال: يا رسولَ اللهِ،
هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يَغْنِثُنَا؛ فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْهِ إِلَى
السَّمَاءِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَغْنِنَا» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَأَنْشَأَ اللهُ سَحَابَةً، فَتَوَسَّعَتْ، وَانْتَشَرَتْ
فِي السَّمَاءِ، وَرَعَدَتْ، وَبَرَقَتْ، وَلَمْ يَنْزِلِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-
مِنَ الْمِنْبَرِ إِلَّا وَالْمَطَرُ يَتَحَادَرُ عَلَى لَحِيَّتِهِ، وَبَقِيَ الْمَطَرُ أُسْبُوعًا كَامِلًا.

ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ آخَرٌ -أَوِ الرَّجُلُ الْأَوَّلُ- فِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ، وَقَالَ: يا رسولَ اللهِ،
غَرِقَ الْمَالُ، وَتَهَدَّمَ الْبِنَاءُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا،
وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْأَكَامِ، وَالظَّرَابِ، وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ، وَمَنَايِبِ الشَّجَرِ»، فَرَأَى
الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ السَّحَابَ يَتِمَّازُ فِي الْحَالِ، فَمَا يُشِيرُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى نَاحِيَةٍ إِلَّا انْفَرَجَتْ،
وَخَرَجَ النَّاسُ يَمْشُونَ فِي الشَّمْسِ^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة، رقم (٩٣٣)، ومسلم:
كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على إجابة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى دُعَاءَ الْمُضْطَرِّ، وَأَنَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٧- إِبَاحَةُ قَتْلِ الْعَدُوِّ الْكَافِرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾، وهذا في مَقَامِ الْمَدْحِ وَالثَنَاءِ.

٨- أَنَّهُ يَنْبَغِي الْحِرْصُ عَلَى قَتْلِ قَائِدِ الْعَدُوِّ؛ لَأَنَّهُ إِذَا قُتِلَ الْقَائِدُ تَبَعَثَرِ الْقَوْمُ، وَتَلَجَلَجَلُوا، وَعَجَزُوا عَنِ الْإِقْدَامِ.

٩- أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَتَمَّ النِّعْمَةِ عَلَى دَاوُدَ الَّذِي قَتَلَ جَالُوتَ؛ حَيْثُ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، وَالْمُلْكَ، وَالْعِلْمَ.

١٠- أَنَّ عِلْمَ الْبَشَرِ مُحْدُوذٌ، وَلَيْسَ شَامِلًا، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ شَامِلًا؛ لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُنَا: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾، و«مِنْ» هُنَا لِلتَّبَعِيضِ.

وَيَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ عِلْمَ الْإِنْسَانِ قَاصِرٌ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَمْ يَبْقَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا عِلْمُ الرُّوحِ! فَانْتُمْ لَمْ تَعْلَمُوا إِلَّا قَلِيلًا.

١١- إِبْثَابُ الْمَشِئَةِ لِلَّهِ، وَهِيَ لَا شَكَّ فِيهَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَفْعَالِ اللَّهِ، وَلَا أَظُنُّ أَحَدًا يُخَالِفُ فِيهَا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، لَكِنْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ الْعَبْدِ: هَلِ اللَّهُ مَشِئَةٌ فِي فِعْلِ الْعَبْدِ؟ اخْتَلَفَتْ أَقَاوِيلُ أَهْلِ الْقِبْلَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقَاوِيلَ:

مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَا مَشِئَةَ لِلَّهِ فِي فِعْلِ الْعَبْدِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ، وَلَا إِرَادَةَ لِلَّهِ فِيهِ، وَلَا مَشِئَةَ؛ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُعْتَزِلَةُ، الَّذِينَ سُمُّوا: مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ

جَعَلُوا لِلْحَوَادِثِ خَالِقِينَ، فَالْحَوَادِثُ الَّتِي مِنَ الْإِنْسَانِ يَخْلُقُهَا الْإِنْسَانُ، وَالْحَوَادِثُ الَّتِي هِيَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ يَخْلُقُهَا اللَّهُ، وَلِذَلِكَ سُمُّوا: مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

طَائِفَةٌ أُخْرَى قَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَشِئَةً فِي فِعْلِ الْعَبْدِ، وَلَكِنَّ الْعَبْدَ لَا مَشِئَةَ لَهُ إِطْلَاقًا، وَإِنَّهُ مُجْبَرٌ عَلَى عَمَلِهِ، وَإِنَّ عَمَلَهُ الْإِرَادِيَّ الْاِخْتِيَارِيَّ كَعَمَلِهِ الْاضْطِرَارِيِّ الْإِكْرَاهِيِّ. وَهَؤُلَاءِ الْجَبَرِيَّةُ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَقَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَقِيمَ قَوْلٌ عَلَى هَذَا أَبَدًا؛ لِأَنَّا لَوْ قُلْنَا: إِنَّ الْإِنْسَانَ مُجْبَرٌ. لَفَعَلَ الْإِنْسَانُ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْعُدْوَانِ عَلَى الْخَلْقِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مُجْبَرٌ عَلَى هَذَا.

وَيُذَكِّرُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدَّمَ إِلَيْهِ سَارِقٌ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدِهِ، فَقَالَ السَّارِقُ: مَهْلًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهِ مَا سَرَقْتُ هَذَا إِلَّا بِقَدَرِ اللَّهِ؛ فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَنَحْنُ لَا نَقْطَعُكَ إِلَّا بِقَدَرِ اللَّهِ^(١).

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، أَهْلِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ، قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ مَشِئَةٌ فِي فِعْلِ الْعَبْدِ، وَلِلْعَبْدِ مَشِئَةٌ، لَكِنْ إِذَا شَاءَ الْعَبْدُ شَيْئًا، وَفَعَلَهُ، عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ شَاءَهُ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ.

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿التكوير: ٢٨-٢٩﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿[الإنسان: ٢٩-٣٠]﴾.

(١) ذكره ابن تيمية في منهاج السنة (٣/ ٢٣٤).

١٢ - بَيَانُ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي تَسْلِيْطِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَأَنَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، فَلَوْ قَدَّرْنَا أَنَّ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ سَيَّطَرَتْ عَلَى الْأَرْضِ كُلِّهَا لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، وَلَكَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَتَحَكَّمُ فِي عِبَادِ اللَّهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ - بِحِكْمَتِهِ - جَعَلَ النَّاسَ يَدْفَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

١٣ - أَنَّ فَسَادَ الْأَرْضِ يَكُونُ بِالْعُدْوَانِ، وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِغَيْرِ حَقٍّ.

١٤ - أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ الْفَضْلُ النَّامُ عَلَى الْعَالَمِينَ جَمِيعًا، أَمَّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ فَضْلٌ دُنْيَوِيٌّ وَأُخْرَوِيٌّ، وَأَمَّا عَلَى الْكَافِرِينَ فَهُوَ فَضْلٌ دُنْيَوِيٌّ، وَأَمَّا الْأُخْرَوِيُّ فَالرَّبُّ جَلَّوَعَلَا يُعَامِلُهُم بِالْعَدْلِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٥٢﴾

قَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ﴾ الْمَشَارُ إِلَيْهِ: مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى أَلْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إِلَى آخِرِهِ.

وقَوْلُهُ: ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ يَعْنِي: الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى عِلْمِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَقُدْرَتِهِ، وَسُلْطَانِهِ ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أَي: نَقْرُؤُهَا عَلَيْكَ، لَكِنْ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغَ قُرْآنَهُ، ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧-١٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والعدل، فلا كَذَبَ في هذه الآيات، ولا جَوْرَ.
 ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الجملة مؤكدة بـ: (إِنَّ)، واللام. أي: إِنَّكَ يا مُحَمَّدُ
 لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

وآية رسالته ﷺ: هذا الوحي الذي أُوحيَ إليه، وهو قَبْلَ ذلك كما وَصَفَهُ
 الله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ
 بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩].

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

- ١- أن هذا الوحي الذي نَزَلَ على النَّبِيِّ ﷺ من آياتِ الله.
- ٢- إضافة التلاوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ على مُحَمَّدٍ ﷺ، مع أن المراد غَيْرُهُ؛ لأنَّ المراد: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن لما كان يَتْلُوها بأمرِ الله صَحَّتْ إضافة التلاوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.
- ٣- أن ما جاء به الرَّسُولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- حقٌّ، وأنَّ الوحيَ إليه حقٌّ، وأنَّ رسالته حقٌّ.
- ٤- إثبات رسالة النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-؛ لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.
- ٥- أن النَّبِيَّ ﷺ ليس وَحْدَهُ هو الرَّسُولُ، بل هو من المرسلين، والرُّسُلُ غَيْرُهُ كثيرون، وقد بيَّنَّ الله تعالى أنَّ منهم مَنْ قَصَّه اللهُ علينا، ومنهم مَنْ لم يَقْصُصْهُ علينا.

ولكن علينا أن نُؤمنَ بجميعِ الرُّسلِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

أَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا جَمِيعًا الْإِيْمَانَ بِهِ، وَمَلَائِكَتَهُ، وَكُتُبَهُ، وَرُسُلَهُ، وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَالْقَدَرَ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ.



ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَعِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ حين قال لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بَيِّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ الْكَرَامَ قَدْ فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَضَّلَهُ بِالْقُرْبِ مِنْهُ عَزَّجَلَّ، وَبكَثْرَةِ الْأَتْبَاعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جِهَاتِ التَّفْضِيلِ.

ومن هذا التَّفْضِيلِ: أَنَّ اللهَ خَصَّ خَمْسَةً مِنْهُمْ بـ: (أُولِي الْعِزِّمِ)، وَهُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وَفِي سُورَةِ الشُّورَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣]، هَؤُلَاءِ هُمْ أُولُو الْعِزِّمِ، أَفْضَلُهُمْ: مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَبَعْضُهُمْ فَضَّلَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَعْضُهُمْ تَوَقَّفَ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي: مِنْ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْكَلَامِ، مِثْلُ: مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤-١٦٥)، وَكَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى أَيْضًا مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - حِينَ عَرَّجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَكَلَّمَهُ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ لَفْظُ الْجَلَالَةِ بِالرَّفْعِ؛ لِأَنَّهُ فَاعِلٌ ﴿كَلَّمَ﴾، وَأَمَّا الْمَفْعُولُ فَمَحْذُوفٌ يَعُودُ عَلَى ﴿مَنْ﴾، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ بَدُونِ حَذْفٍ: مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَهُ اللَّهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ أي: اللَّهُ عَزَّجَلَّ رَفَعَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَضَلَّنَا﴾، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ ﴿فَضَلَّنَا﴾ جَاءَ الْفَاعِلُ فِيهَا بِاسْمٍ مُّضْمَرٍ مُّتَّصِلٍ، وَهَذَا جَاءَ بِاسْمٍ مُّضْمَرٍ مُّسْتَرٍ غَيْرِ ظَاهِرٍ، وَهَذَا أُسْلُوبٌ عَرَبِيٌّ فَصِيحٌ بِلَا شَكٍّ، وَالْفَائِدَةُ مِنْهُ: انْتِبَاهُ الْمُخَاطَبِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ إِذَا جَاءَ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ فَقَدْ يَغْفُلُ الْمُخَاطَبُ، وَإِذَا تَغَيَّرَ الْأُسْلُوبُ انْتَبَهَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أَعْطَيْنَاهُ الْبَيِّنَاتِ، أي: الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، آيَاتٍ شَرْعِيَّةً كَالْأَحْكَامِ وَالْأَخْبَارِ الَّتِي تَضَمَّنُهَا الْإِنْجِيلُ، وَآيَاتٍ كَوْنِيَّةً

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ كَيْفِ فَرَضَتِ الصَّلَاةُ فِي الْإِسْرَاءِ، رَقْمُ (٣٤٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَقْمُ (١٦٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ف: ﴿أَلْبَيِّنْتَ﴾ هنا صفة لموصوفٍ محذوفٍ، والتقدير: الآيات البينات.

وقوله: ﴿وَأَيَّدَنَّهُ﴾ أي: قوَّيْنَاهُ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، وهو جبريل عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، فروح القدس هو جبريل عليه السلام، أيد عيسى عليه السلام بأمر الله عزَّجَلَّ في مواضع الضنك والضيق. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيِّنَاتُ﴾ يعني: لو شاء الله لجعل الذين من بعدهم على ملَّةٍ واحدةٍ، وعلى دينٍ واحدٍ، فلم يختلفوا في الدين، وحينئذ لا يقتتلون.

﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾؛ كما في قول الله تعالى في سورة الصف: ﴿فَتَأْمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا﴾ يعني: لو شاء الله تعالى ألا يقتلوا ما اختلفوا في الدين، فلم يقتلوا، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وفعله ما يريد مبنًى على الحكمة؛ فإنه جلَّ وعلا يفعل ما يريد، لكن لا بدَّ أن يكون لهذا الفعل حكمة بالغة اقتضت هذا الفعل.

في هذه الآية من الفوائد ما يلي:

١ - بيان أن الرُّسُلَ على طبقاتٍ، منهم من فضَّله الله على بعضٍ في الدنيا، ورفعَهُ دَرَجاتٍ في الآخرة.

٢ - أن الفضل بيد الله عزَّجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

٣- إثباتُ كلامِ الله عَزَّجَلَّ، وأَنَّهُ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مَسْمُوعٍ، يَسْمَعُهُ الْمُخَاطَبُ به، ولا يُمكنُ سَماعُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِصَوْتٍ، ولا يُمكنُ فَهْمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِحَرْفٍ، واذْكُرْ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، فنَادَيْنَاهُ عَلَى بُعْدٍ، وَنَاجَيْنَاهُ عَلَى قُرْبٍ، قال أَهْلُ الْعِلْمِ: الْمُنَادَاةُ لِلْبَعِيدِ، وَالْمُنَاجَاةُ لِلْقَرِيبِ.

٤- الرَّدُّ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مُبْتَدِعَتَيْنِ:

الطَّائِفَةُ الْأُولَى: الْمُعْتَرِضَةُ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَكَلَّمُ، وَإِنَّ كَلَامَهُ مَخْلُوقٌ مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِنَّ إِضَافَتَهُ إِلَى اللَّهِ إِضَافَةٌ تَشْرِيفٍ، كإِضَافَةِ الْمَسَاجِدِ إِلَى اللَّهِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤]، وَإِضَافَةِ النَّاقَةِ إِلَى اللَّهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وَإِضَافَةِ الْبَيْتِ (الْكَعْبَةِ) إِلَى اللَّهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦].

الطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ الْمُبْتَدِعَةُ قَالَتْ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، لَكِنْ مَا يَسْمَعُهُ الْمُخَاطَبُ مَخْلُوقٌ، أَمَّا الْكَلَامُ فَهُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِنَفْسِ الرَّبِّ عَزَّجَلَّ، وَمَا يُسْمَعُ فِيهِ أَصْوَاتُ مَخْلُوقَةٍ، خَلَقَهَا اللَّهُ؛ لِتُعَبَّرَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ.

وَكِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ ضَالَّةٌ فِي هَذَا، فَالْكَلَامُ إِنَّمَا يُضَافُ إِلَى مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَالْكَلَامُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْمُوعًا، وَإِذَا أُريدَ الْكَلَامُ النَّفْسِيُّ فَإِنَّهُ يُقَيَّدُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

المهم: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُؤْمِنَ وَيَعْتَقِدَ بِأَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مَسْمُوعٍ.

٥- أَنَّ الرُّسُلَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لَيْسُوا فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ.

٦- إثبات نبوة عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه نبي، وليس بإله، وأن الله أعطاه من الآيات ما تبين بها رسالته.

٧- الرد على النصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة.

٨- أن جبريل عليه السلام يؤيد من شاء الله أن يؤيده من عباده؛ لقوله: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

٩- إثبات مشيئة الله في أفعال العباد؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ إلى آخر الآية.

١٠- الرد على الجبرية؛ حيث أضاف الفعل إلى العبد، فقال: ﴿مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، والجبرية لا يرون إضافة الفعل إلى العبد؛ لأن العبد ليس له اختيار، ويرون أن إضافة الأفعال إلى العباد على وجه المجاز، ولكن قولهم باطل بالكتاب، والسنة، وإجماع السلف، والنظر الصحيح.

١١- إثبات أن أفعال العبد تحت مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ﴾، خلافاً للقدريّة المعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان مُستقل بعمله، ولا علاقة لمشيئة الله في عمل العبد إطلاقاً، ولا شك في قولهم أنه باطل؛ فإن الله يقول: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، والمشيئة وصف قائم بالعبد، والعبد مخلوق لله، فتكون أوصافه مخلوقة لله عز وجل.

وفي قوله: ﴿مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ رد على الجبرية الذين ينكرون أن يكون للعبد فعل اختياري، ويرون أن جميع أفعال العباد أفعال إجبارية، وهذا أيضاً باطل، ولا يمكن أبداً أن تستقيم به أمة أو تقوم به ملة؛ لأننا لو قلنا: إن الإنسان

مَجْبُورٌ عَلَى عَمَلِهِ؛ أَمْكَنَ لِكُلِّ فَاسِقٍ أَنْ يَفْسُقَ، وَلِكُلِّ ظَالِمٍ أَنْ يَظْلِمَ، وَلِكُلِّ كَافِرٍ أَنْ يَكْفُرَ، وَيَقُولَ: هَذَا لَيْسَ مِنِّي، هَذَا وَقَعَ مِنِّي إِجْبَارًا. بَلْ أَمْكَنَ كُلَّ وَاحِدٍ أَنْ يَقْتُلَ الْبَرِيءَ، وَيُزِنِي بِالْعَفِيفَةِ، وَيَقُولَ: هَذَا لَيْسَ مِنِّي. فَيَكُونُ الْفَسَادُ الظَّاهِرُ.

١٢ - أَنْ وَقُوعَ الْقِتَالِ بَعْدَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ أَشَدُّ مَلَامَةً؛ لِأَنَّهُ يَقَعُ دُونَ أَنْ يَكُونَ لِلْإِنْسَانِ عُدْرٌ، لِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾.

١٣ - أَنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ حَتَّى فِيمَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَا بَيِّنَةَ أَوْضَحَ وَلَا أَقْوَمَ وَلَا أَبْيَنَ مِنْ بَيِّنَةِ الدِّينِ الَّتِي قَامَتِ الْأَدِلَّةُ عَلَى ثُبُوتِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ يَنْقَسِمُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ.

١٤ - أَنَّ الْاِخْتِلَافَ فِي الدِّينِ يُؤَدِّي إِلَى الْمَقَاتِلَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنٌ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنٌ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَوْا﴾.

١٥ - تَأْكِيدُ أَنَّ اقْتِتَالَهُمْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَوْا﴾، يَعْنِي: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا كَفَرُوا وَمَا اقْتَتَلُوا، وَذَلِكَ بِأَنْ يَجْعَلَهُمُ اللَّهُ أُمَّةً وَاحِدَةً، لَا عَدَاوَةَ بَيْنَهَا وَلَا اخْتِلَافَ.

١٦ - أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا إِذَا رَأَيْنَا اخْتِلَافَ الْأُمَّةِ أَنْ نَفْرَعَ إِلَى اللَّهِ، وَنُلْجَأَ إِلَيْهِ بِأَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَيُزِيلَ مَا بَيْنَهُمْ مِنْ اخْتِلَافٍ؛ لِأَنَّنَا عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا الْاِخْتِلَافَ كَانَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَمَا كَانَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ فَلَنْ يَرْفَعَهُ إِلَّا مَشِيئَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

١٧ - أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ خَلْقَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ بِأَمْرَيْنِ: الْقُدْرَةِ، وَالْإِرَادَةِ. فَمَنْ قَدَرَ وَلَمْ يُرِدْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَمَنْ أَرَادَ وَلَمْ يَقْدِرْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ شَيْءٌ.

وإذا سألنا سائل: القدرة والإرادة من خلقها في العبد؟

فالجواب: أن الذي خلقها هو الله، وعلى هذا فيكون فعله مخلوقاً لله عز وجل، مفعولاً له؛ لأن خالق السبب التام خالق للمسبب، لكنه ليس هو فعل الله الذي هو فعله المباشِر، فالإنسان إذا صام لا نقول: إن الصائم هو الله. وإذا أكل لا نقول: إن الأكل هو الله. وإذا أنفق لا نقول: المنفق هو الله. لكن نقول: هذا الصوم، وهذا الأكل، وهذا الإنفاق حصل بإرادة العبد وقدرته، وخالق إرادته وقدرته هو الله عز وجل، ولو شاء الله ما فعل.

ولذلك نجد الإنسان أحياناً يعزم على الشيء، وينتهي له تهيؤاً كاملاً، وإذا به يصرف عنه، إمّا باختيار شيء آخر، وإمّا بعدم الاختيار، وإمّا أن يصرف عنه قهراً عليه؛ لأن الله لم يشأه.

١٨ - إثبات الإرادة لله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، والإرادة هنا بمعنى المشيئة، وإرادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين: إرادة بمعنى المشيئة، وإرادة بمعنى المحبة. فإن كان المراد محبوباً لله فهي إرادة محبة، وإن كان غير محبوب إلى الله فهي إرادة مشيئة.

مثال إرادة المحبة: قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، فهذه إرادة محبة، لكن قد تقع، وقد لا تقع، قد يتوب الله على الإنسان، فيسّر له التوبة، وقد لا يكون كذلك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ﴾ هنا إرادة محبة، فالله تعالى لا يحب لعباده العسر، وإنما يحب لهم اليسر.

وُسَمِيَ الْإِرَادَةُ الَّتِي بِمَعْنَى الْمَحَبَّةِ: إِرَادَةً شَرِيعَةً. وَالْإِرَادَةُ الَّتِي بِمَعْنَى الْمَشِئَةِ: إِرَادَةً كَوْنِيَّةً.

ومنها: قَوْلُهُ هُنَا: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أَي: مَا يَشَاءُ.
وَيُذَلُّ عَلَى أَنَّ الْإِرَادَةَ هُنَا بِمَعْنَى الْمَشِئَةِ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٢٧].

• • •

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

يُخَاطَبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِوَصْفِهِمْ مُؤْمِنِينَ؛ لِيَأْمُرَهُمْ بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمْ، أَي: مِمَّا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْمَالِ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: وَمَنِ الْعِلْمُ أَيْضًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْزُقُ الْمَالَ، وَيَرْزُقُ الْعِلْمَ، وَالْمُرَادُ بِالرِّزْقِ هُنَا: الْعَطَاءُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ انْتَقَلَ إِلَى الْيَوْمِ الْآخِرِ، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ بَيْعٌ، فَيَشْتَرِي الْإِنْسَانُ مَا يَفْدِي بِهِ نَفْسَهُ ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ أَي: صَدَاقَةٌ، فَيَطْلُبُ مِنْ صَدِيقِهِ أَنْ يُسَاعِدَهُ ﴿وَلَا شَفْعَةٌ﴾ أَي: وَسَاطَةٌ، فَيَطْلُبُ أَنْ يَتَوَسَّطَ لَهُ أَحَدٌ؛ يَنْجُوْ بِذَلِكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، كُلُّ الْوَسَائِلِ الَّتِي تَكُونُ سَبَبًا لِلْإِنْقَازِ مُتَنَفِيَّةٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ الْمُسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ هُمْ أَظْلَمُ النَّاسِ.

وكما ترى -أيها الأخ الكريم- الآية فيها ضميرُ الفصل: ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وضميرُ الفصل الذي يَقَعُ بَيْنَ المَبْتَدَأِ والخَبَرِ يُفِيدُ ثلاثةَ أشياء: التوكيد، والحصر، والتَّمييزَ بَيْنَ كَوْنِ ما بَعْدَهُ خَبَرًا أو وَصْفًا.

فإذا قُلْتَ: «زَيْدٌ هُوَ القَائِمُ» استَفَدْنَا من هذه العبارة تأكيدَ قِيَامِ زَيْدٍ، وتأكيدَ أَنَّهُ هُوَ القَائِمُ لا غَيْرُهُ، والتَّمييزَ بَيْنَ كَوْنِ (القَائِمِ) صِفَةً لـ: (زَيْدٍ) أو خَبَرًا؛ لأنَّ ما بَعْدَ ضميرِ الفصل يَقَعُ خَبَرًا، أمَّا نفسُ الضميرِ فلا مَحَلَّ لَهُ من الإِغْرَابِ، لأنَّكَ لو قُلْتَ: «زَيْدٌ القَائِمُ» فقد لا يَفْهَمُ المُخَاطَبُ أَنَّ (القَائِمِ) خَبَرٌ لـ: (زَيْدٍ)، فَيَتَوَقَّعُ مَجِيءَ الخَبَرِ، وَأَنَّ الخَبَرَ مَحْذُوفٌ، فإذا قُلْتَ: «هُوَ القَائِمُ» تَعَيَّنَ أَن يَكُونَ (القَائِمُ) هُوَ الخَبَرُ.

ففي هذه الآية ضميرُ فصلٍ، فائدَتُهُ ما ذَكَرْنَا: التوكيد، والحصر، والتَّمييزَ بَيْنَ الخَبَرِ والوصفِ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

- ١- إكْرَامُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ؛ حَيْثُ يُوجَّهُ لَهُمُ الْخِطَابُ بِوَصْفِ الْإِيْمَانِ.
- ٢- أَنَّهُ إِذَا صُدِّرَ الْخِطَابُ بِمِثْلِ هَذَا: ﴿يَتَّيِبُهَا لَازِينَ ءَامَنُوا﴾ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ مَا بَعْدَهُ مِنْ تَمَامِ الْإِيْمَانِ، وَمُقْتَضِيَاتِ الْإِيْمَانِ، سَوَاءَ كَانَ خَبَرًا فَيُصَدَّقُ، أَوْ طَلَبًا فَيُمْتَثَلُ.
- ٣- أَنَّ الْمُخَالَفَةَ نَقْصٌ فِي الْإِيْمَانِ، كَأَنَّهُ يُقَالُ: إِنْ لَمْ تَأْتِ بِهَذَا أَوْ إِنْ لَمْ تُصَدِّقْ بِهَذَا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُوصَفَ بِالْإِيْمَانِ.
- ٤- الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَنَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا الْأَمْرُ قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا، كَالزَّكَاةِ، وَتَعْلِيمِ الْعِلْمِ الْوَاجِبِ تَعْلِيمُهُ، وَالْإِنْفَاقِ فِي الْحَجِّ، وَالْإِنْفَاقِ فِي الْجِهَادِ الْوَاجِبِ،

والإنفاق في النفقات الواجبة.

وما عدا الواجب فهو تطوع؛ لأنَّ القول الرَّاجح من أقوال الأصوليين: أنَّه يجوز استعمال الاسم المشترك في معنیه.

٥- أنَّ المطلوب أن تُنفقَ من مالِكَ، لا أن تُنفقَ كُلَّ مالِكَ؛ لقوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَكُمْ﴾؛ لأنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ قد لا يصبرُ إذا أنفقَ جميعَ ماله، فيُحوِّجُه ذلك إلى تكفُّفِ النَّاسِ وسؤالِ النَّاسِ، ولهذا لما نذرَ بعضُ الصَّحابة أن يُنفقَ ماله أمره النَّبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أن يُنفقَ ثُلثَ المالِ^(١).

٦- بيانُ أنَّ الله تعالى أمركَ بأمرٍ هو الَّذي مَنَّ به عليك: ﴿مِمَّا رَزَقْنَكُمْ﴾، ليس شيئاً كَسَبْتُمُوهُ بأيديكم بدونِ الله، بل هو الَّذي رَزَقَكَ وأعطاك، ثمَّ أمركَ أن تُنفقَ لِصَلْحَةِ نَفْسِكَ.

٧- أنَّ الرِّزْقَ من عندِ الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان من عنده كان الواجبُ على العبدِ أن يَعْتَمِدَ على رَبِّهِ في رِزْقِهِ، لا على فلانٍ وفُلانٍ.

وإذا صَدَقَ اعْتِمَادُهُ على الله صارت هذه الأشياءُ وسائلَ، فالوظيفةُ وسيلةٌ، وَفَتْحُ الْمُتَجَرِّ وَسيلةٌ، والاشتغالُ بالسَّيَّارَةِ في الطُّرُقَاتِ وسيلةٌ، والأصلُ الأوَّلُ والأخيرُ هو الله عَزَّوَجَلَّ؛ لَأنَّه هو الَّذي رَزَقَكَ، وهو الَّذي أعطاك.

٨- أن لا مَنَّةَ للعبدِ على رَبِّهِ إذا أنفقَ ما أمرَ اللهُ بِإِنْفَاقِهِ؛ لأنَّ الله هو الَّذي رَزَقَهُ، وهو الَّذي أعطاهُ عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأيمان، باب من نذر أن يتصدق بهاله، رقم (٣٣١٩) من حديث كعب ابن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٩- أن الإنفاق يُنجي من أهوال يوم القيامة؛ لقوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِي يَوْمُ﴾، ولهذا جاء في الحديث: «كُلُّ أَمْرٍ فِي ظِلِّ صِدْقَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وقال النبي ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»، وذكر منهم رجلاً تصدَّق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شأله ما تُنفق يمينه^(٢).

١٠- أن ذلك اليوم -وهو يوم القيامة- ليس فيه بيع، فيفتدي الإنسان بما يشتري، وليس فيه صداقة تنفع، وليس فيه شفاعة تنفع.

أما الأول: ﴿لَا بَيْعُ فِيهِ﴾ فظاهر، وأما الثاني فكذلك ظاهر، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقان: ٣٣]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿ [عبس: ٣٤-٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

كذلك الصداقة لا تنفع، فليس فيه حلة نافعة، بل ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وذلك اليوم ليس فيه شفاعة، والمراد: ليس فيه شفاعة للكافر، أما عصاة المؤمنين فلهم شفاعة؛ كما تواترت به الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

(١) أخرجه بمعناه الإمام أحمد في المسند (١٤٧/٤) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٦٠)، ومسلم:

كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنَّ الشَّفَاعَةَ نَوْعَانِ:

■ عَامَّةٌ لِكُلِّ النَّاسِ.

■ وَخَاصَّةٌ فِيمَنْ اقْتَرَفَ إِثْمًا، وَدَخَلَ فِي النَّارِ، فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِلشَّافِعِ، فَيَشْفَعُ.

أَمَّا الْعَامَّةُ فَهِيَ الَّتِي بَيْنَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، لَا مَاءَ، وَلَا طَعَامَ، وَلَا ظِلَّ إِلَّا مَنْ أَظَلَّهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، فَالنَّاسُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، فيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اظْلُبُوا شَافِعًا يَشْفَعُ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ، يُرِيحُنَا مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ، فَيَأْتُونَ إِلَى آدَمَ، ثُمَّ إِلَى نُوحٍ، ثُمَّ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ إِلَى مُوسَى، ثُمَّ إِلَى عِيسَى، ثُمَّ إِلَى مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَأْذَنُ اللَّهُ لَهُ، وَيَقْضِي بَيْنَ الْعِبَادِ ^(١).

أَمَّا الْخَاصَّةُ فَهِيَ الْخَاصَّةُ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اقْتَرَفُوا السَّيِّئَاتِ؛ لِيَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ، وَهَذِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصُّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

وهذه الشَّفَاعَةُ الْخَاصَّةُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُؤْذَنَ بِهَا لِلْكَافِرِينَ أَبَدًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضِيهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، إِلَّا وَاحِدًا فَقَطْ، وَهُوَ أَبُو طَالِبٍ عَمُّ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَخْبَرَ أَنَّهُ شَفَعَ لَهُ، حَتَّى كَانَ فِي صَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، رقم (٤٤٧٦)،

وفي باب قول الله: ﴿ذُرِّيَّةً مَن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، رقم (٤٧١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب

أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣) (١٩٤) من حديث أنس وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وعليه نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاعُهُ^(١)، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

١١ - أَنَّ الظَّالِمَ حَقِيقَةٌ هُوَ الْكَافِرُ، ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، ظَالِمٌ فِي حَقِّ رَبِّهِ، أَمَّا ظُلْمُهُ لِنَفْسِهِ فَوَاضِحٌ؛ لِأَنَّهُ عَرَّضَهَا لِعُقُوبَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَمَّا ظُلْمُهُ فِي حَقِّ رَبِّهِ فَلَأَنَّهُ جَعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَهُ، وَهَذَا أَعْظَمُ الظُّلْمِ.

قال بعضُ أهلِ العِلْمِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَقُلْ: «وَالظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ»؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ هَذَا لَكَانَ كُلُّ ظَالِمٍ كَافِرًا، لَكِنْ قَالَ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يُوجَدُ ظَالِمٌ غَيْرُ كَافِرٍ؟

قُلْنَا: بَلَى، لَكِنَّ الظُّلْمَ الْأَكْبَرَ الْفَطْيُحُ الْقَبِيحُ هُوَ ظُلْمُ الْكُفْرِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَالظُّلْمُ دَرَكَاتٌ، كَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ دَرَكَاتٌ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ دَرَكَاتٌ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

هذه آيَةٌ عَظِيمَةٌ، هِيَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَبِي بَنٍ كَعْبٍ: «أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آيَةُ الْكُرْسِيِّ، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣) (٣٨٨٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩) (٢١٠) من حديث العباس وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أَلْحَى الْقَيُّومُ ﴿١﴾، فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»^(١)،
وَلِنَّهَا ضَرَبَ عَلَى صَدْرِهِ؛ لِأَنَّ الصَّدْرَ مَحَلُّ الْقَلْبِ، وَالْقَلْبُ مَحَلُّ الْوَعْيِ.

وهذه الآية لها خصائص، منها:

١ - أَنَّهَا أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ.

٢ - أَنَّ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ: الْحَيُّ، الْقَيُّومُ.

٣ - أَنَّهَا اشْتَمَلَتْ عَلَى جُمْلٍ عَظِيمَةٍ، كُلُّ جُمْلَةٍ تَحْمِلُ أَسْفَارًا.

٤ - أَنَّ مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ، جَاءَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَحَفَّظَهُ عَلَى زَكَاةِ الْفِطْرِ، فَجَاءَ شَخْصٌ بِصُورَةِ إِنْسَانٍ فَقِيرٍ، فَأَخَذَ مِنَ الطَّعَامِ، فَأَمْسَكَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَادَّعَى هَذَا الشَّخْصُ أَنَّهُ فَقِيرٌ وَذُو عَائِلَةٍ، فَرَّقَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَتَرَكَه.

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟» لِأَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَمْسَكَهُ -أَي: أَسْرَهُ- قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادَّعَى أَنَّهُ فَقِيرٌ وَذُو عِيَالٍ، فَأَطْلَقْتُهُ. قَالَ: «إِنَّهُ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ»، يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَعَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «سَيَعُودُ»، فَعَادَ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، وَصَارَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ كَالأُولَى، وَلَمْ يَأْتِ بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا أَخْبَرَهُ أَنَّهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم (٨١٠) من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سِعُودٌ لَمْ يَقُلْ لَهُ: إِنَّ عَادَ فَأَتَيْتَ بِهِ. فَعَلِمَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ الْأَمْرَ وَاسِعٌ، فَأُطْلِقَهُ اللَّيْلَةَ الثَّانِيَةَ.

وفي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ -والعادةُ أَنَّ الثَّلَاثَ يَنْبُتُ بِهَا الْأَمْرُ- أَمْسَكَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: لَا بُدَّ أَنْ أَرْفَعَكَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ. قَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى آيَةٍ تَقْرُوهَا، فَلَا يَزَالُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَا جَرَى، فَقَالَ لَهُ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»^(١)، أَي: أَخْبَرَكَ بِالصِّدْقِ، وَلَيْسَ مِنْ عَادَتِهِ الصِّدْقُ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْطَقَهُ بِهِ، وَهُوَ كَذُوبٌ.

فَفِي هَذَا: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُهُ شَيْطَانٌ.

وَلَيْتَ النَّاسَ انْتَبَهَوْا لِهَذَا، وَاسْتَمَرُّوا فِي قِرَائَتِهَا؛ حَتَّى يَكُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَهُمُ الشَّيْطَانُ حَتَّى يُصْبِحُوا.

نَعُودُ إِلَى تَفْسِيرِ كَلِمَاتِهَا:

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا هُوَ، فَكُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدُ مَا يَدْعُونَ

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٣٥٠/٩)، وعلقه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً، فترك الوكيل شيئاً، فأجازهُ الموكَّل، فهو جائز، رقم (٢٣١١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴿[الحج: ٦٢]، فَمَنْ عَبْدَ حَجَرًا أَوْ شَجَرًا أَوْ شَمْسًا أَوْ قَمَرًا
أَوْ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَهُ فَقَدْ عَبْدَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ﴾ لَمْ يَقُلْ: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ حَيٌّ»، لَكِنْ قَالَ:
﴿الْحَيُّ﴾، وَ(أَل) تَفِيدُ الْكَمَالَ وَالْعُمُومَ، يَعْنِي: الْكَامِلَ الْحَيَاةَ، فَهُوَ جَلَّ وَعَلَا حَيٌّ
لَا يَمُوتُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْوَحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وَهُوَ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْزُلِي، أَي: لَمْ يَزَلْ حَيًّا.

حَيَاتُهُ أَيْضًا كَامِلَةٌ مِنْ حَيْثُ الصِّفَاتُ، فَهُوَ كَامِلٌ فِي سَمْعِهِ، فِي بَصَرِهِ، فِي
عِلْمِهِ، فِي قُدْرَتِهِ، فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ.

إِذَنْ، فَحَيَاتُهُ كَامِلَةٌ مِنْ جِهَةِ الْإِبْتِدَاءِ، وَالْإِنْتِهَاءِ، وَالصِّفَاتِ، فَفِي الْإِبْتِدَاءِ
لَا إِبْتِدَاءَ لَهُ، وَفِي الْإِنْتِهَاءِ لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَفِي الصِّفَاتِ كُلِّ صِفَاتِهِ كَمَالٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الْقَيُّومُ﴾ مِنْ قَامَ، أَي: الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، الْقَائِمُ عَلَى غَيْرِهِ، فَهُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ،
لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ أَبَدًا، لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ فِي طَعَامٍ، وَلَا شَرَابٍ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، يَعْنِي: كَمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ
ذَلِكَ؟ لَكِنْ مَنْ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ؟ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ قَائِمٌ عَلَى غَيْرِهِ،
كَمَا أَنَّهُ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ، وَكُلُّ أَحَدٍ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أَي: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنَامَ، وَلَا أَنْ يَنْعَسَ، قَالَ
النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ»، رقم (١٧٩) من حديث أبي
موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له وحده، وإنما قلنا: وحده؛ لأنَّ ﴿لَهُ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ، و﴿مَا﴾ مُبتدأٌ مؤخَّرٌ، قال العلماء: وتقديم ما حقه التأخير من خبرٍ أو مفعولٍ أو مُتعلِّقٍ يُفيدُ الحصرَ. فعلى هذا يكون ﴿لَهُ﴾ أي: لا لغيره ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ما في السماوات من أعيانٍ وأوصافٍ، ولهذا جاءت (ما) دون (من)؛ للإفادة أنَّ كُلَّ ما في السماوات والأرض من أوصافٍ أو أعيانٍ فهو لله عزَّ وجلَّ.

والسَّماواتُ أَوْسَعُ من الأرضِ بكثيرٍ، وقد أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ ما من مَوْضِعٍ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ من السَّمَاءِ إِلَّا وفيه مَلَكٌ قائمٌ لله أو راجِعٌ أو ساجِدٌ^(١).

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ هذا استيفهائهم بِمَعْنَى النَّفْيِ، يعني: لا أَحَدٌ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ مَهْمَا كانت مَنَزِلَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ، حتَّى الوَسْطَاءُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْخَيْرَ لِغَيْرِهِمْ لا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْضَلَ لَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وذلك لِكَمالِ سُلْطَانِهِ وَمَلَكُوتِهِ وَعَظَمَتِهِ، فلا أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ حتَّى فيما فيه خَيْرٌ لِلْغَيْرِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ﴿مَا﴾ مَوْصُولٌ يُفِيدُ الْعُمُومَ، أي: كُلُّ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَعْلَمُهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ، والمُرَادُ به الحاضِرُ والمُسْتَقْبَلُ، فالحاضِرُ بَيْنَ يَدَيْكَ، والمُسْتَقْبَلُ بَيْنَ يَدَيْكَ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما مَضَى، فَيَعْلَمُهُ ما مَضَى لا يَنْسَى، وبِعِلْمِهِ المُسْتَقْبَلُ لا يَجْهَلُ، كما قال موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين سَأَلَهُ فِرْعَوْنُ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥١-٥٢].

إِذَنْ، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبَلَ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الْمَاضِي، وَإِذَا كَانَ عِلْمُ اللَّهِ مُحِيطًا بِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا شَأْنُ عِلْمِ الْإِنْسَانِ؟

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ يَعْنِي: الْخَلَائِقُ ﴿شَيْءٍ﴾ أَذْنَى شَيْءٍ ﴿مَنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أَي: إِلَّا بِالَّذِي يَشَاؤُهُ جَلَّ وَعَلَا، فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي يُعَلِّمُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ وَأُمُورِ الشَّاهِدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أَي: إِلَّا بِمَا شَاءَ أَنْ يُحِيطُوا بِهِ، فَيُعَلِّمُهُمْ بِهِ.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يَعْنِي: أَحَاطَ بِالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْكُرْسِيُّ فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِأَنَّهُ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ^(١)، أَي: قَدَمَيَّ الرَّبِّ عَزَّجَلَّ، فَهُوَ بِالنِّسْبَةِ لِلْعَرْشِ كَالْمُقَدِّمَةِ.

وَإِذَا كَانَ الْكُرْسِيُّ وَسِعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَالْعَرْشُ مِنْ بَابِ أَوَّلَى؛ لِأَنَّ الْعَرْشَ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنَ الْكُرْسِيِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُؤْذُهُ﴾ أَي: لَا يُثْقِلُهُ ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أَي: حِفْظُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَذَلِكَ لِسَعَةِ عِلْمِهِ، وَكَمَالِ عَظَمَتِهِ جَلَّ وَعَلَا؛ فَإِنَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَا يُثْقِلُ اللَّهَ تَعَالَى حِفْظُهُ، بَلْ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ، يَسِيرٌ عَلَيْهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَهُوَ أَعْلَى الْعَرْشِ الْعَلِيِّ﴾ مِنَ الْعُلُوِّ، يَعْنِي: الْعَالِي فَوْقَ عِبَادِهِ، الْعَالِي الْمُنَزَّلِ، فَهُوَ عَالِي الْمَكَانِ، عَالِي الْمُنَزَّلَةِ جَلَّ وَعَلَا، وَالْعَظِيمُ يَعْنِي: ذَا الْعَظَمَةِ وَالسُّلْطَانِ وَكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالْحَوْلِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (ص: ٣٠٤) برقم (٥٩٠).

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - إثبات توحيد الله عزَّجَل في ألوهيته؛ لقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وتوحيد الألوهية أخلَّ به كثيرٌ من الناس اليوم، فتجد الرجل يقول: إنه مُسلمٌ. ويجده يُصلي، ويصوم، ويحج، ويعتمر، لكن لا يقبل منه؛ لأنه مُشركٌ، ولهذا لا يغفرُ الله الشُّرك إلا بتوبة، ولا يقبلُ الله عملاً مع شركٍ إلا بتوبة من الشُّرك.

٢ - إثبات هذين الاسمين العظيمين: (الحي، القيوم)، قال أهل العلم -وأظنّه وردَ فيه حديثٌ^(١) - إنهما اسمُ الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى.

٣ - إثبات ما دلَّ عليه هذان الاسمان، وهي: الحياة، والقيومية. وذلك لأنَّ أسماء الله تعالى كُلها مُشمِلة على المعاني والأوصاف العظيمة الحميدة. وإثبات حياة الله تعالى وقيوميته تتضمن أوصافاً كثيرة، كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والحكمة، والعزة، والقوة، وغير ذلك؛ لأنَّ كلَّ هذه من كمال الحياة، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿الْحَيُّ﴾ أي: ذو الحياة الكاملة.

٤ - أنه يجب على المرء أن يرجع إلى ربه في جميع أموره؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَيُّومُ﴾، يعني: القائم بنفسه، القائم على غيره جلَّ وعلا، فإذا كان هو القائم عليك فلا تلجأ إلا إليه عزَّجَل في جلب المنافع ودفع المضار، ولا تتخذ رباً سواه، أفرد الله تعالى بالتوكل، أفرد الله تعالى بالإنابة، بالخشية، بكل ما يختصُّ الله به.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (١/ ٥٠٥) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٥- كَمَالُ حَيَاةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَكَمَالُ قِيُومِيَّتِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، ومن المعلوم أَنَّ انْتِفَاءَ السَّنَةِ والنَّوْمِ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى النَّوْمِ وَيَأْخُذُهُ النَّوْمُ نَاقِصُ الْحَيَاةِ، فَنَحْنُ نَحْتَاجُ إِلَى النَّوْمِ؛ لِنَسْتَرِيحَ مِنْ عَنَاءِ التَّعَبِ السَّابِقِ، وَلِنَسْتَجِدَّ الْقُوَّةَ لِلتَّعَبِ اللَّاحِقِ، وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَنَامُونَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا لُغُوبٌ.

٦- إِبْثَاتُ الصِّفَاتِ الَّتِي يُسَمُّونها: الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ. يَعْنِي: الْمُنْفِيَّةُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وَمَعْنَى إِبْثَاتِهَا: أَنَّ اللَّهَ يُوصَفُ بِالنَّفْيِ كَمَا يُوصَفُ بِالِإِبْثَاتِ. لَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ النَّفْيَ الَّذِي يَتَّصِفُ اللَّهُ بِهِ إِنَّمَا يُنْفَى عَنْهُ لِكَمَالِ ضِدِّهِ. فَمَثَلًا: إِذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فَاَلْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ؛ لِكَمَالِ عَدْلِهِ، لَا لِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ الظُّلْمِ، لَوْ شَاءَ لَظَلَّمَ، لَكِنْ لِكَمَالِ عَدْلِهِ لَا يَظْلِمُ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»^(١).

كَذَلِكَ يَقُولُ هُنَا: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، فَهَلِ الْمُرَادُ: نَفْيُ النَّوْمِ عَنِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَالسَّنَةِ الَّتِي هِيَ النُّعَاسُ، أَوِ الْمُرَادُ: لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وَقِيُومِيَّتِهِ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ؟ الثَّانِي هُوَ الْمُتَعَيَّنُ، يَعْنِي: أَنَّهُ لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وَقِيُومِيَّتِهِ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ، جَلَّ وَعَلَا.

٧- عُمُومُ مُلْكِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَعْيَانِ، وَمَا يَتَّبِعُ عَنْهَا مِنْ أَفْعَالٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٥٢).

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّهُ لَا حُكْمَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَالِكُ، وَالْمَالِكُ يُدَبِّرُ مُلْكَهُ عَلَى مَا يَشَاءُ.

٨- أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَمَّا غَيْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَلَنْ يَمْلِكَ شَيْئًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا مَلَكَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَمُلْكُهُ نَاقِصٌ مِنْ حَيْثُ الشُّمُولُ، نَاقِصٌ مِنْ حَيْثُ التَّصَرُّفُ، فَقَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ [النور: ٦١] أَثْبَتَ لِلْعِبَادِ مُلْكَ الْمَفَاتِحِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] أَثْبَتَ لِلْعِبَادِ مُلْكَ الْيَمِينِ.

لَكِنْ هَلْ هَذَا الْمُلْكُ لِلإِنْسَانِ مُلْكٌ عَامٌّ لِكُلِّ مُلْكٍ يَمِينٍ؟ لَا، فَفُلَانٌ يَمْلِكُ عَبْدَهُ، وَفُلَانٌ يَمْلِكُ عَبْدَهُ، وَلَيْسَ أَحَدُهُمَا يَمْلِكُ عَبْدَ الْآخَرِ.

كَذَلِكَ أَيْضًا مُلْكُ الْإِنْسَانِ لِمَا مَلَكَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لَيْسَ هُوَ حُرًّا فِيهِ، يَفْعَلُ مَا شَاءَ، بَلْ هُوَ مُلْكٌ مُقَيَّدٌ، لَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ إِلَّا حَيْثُ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ.

أَمَّا الْمُلْكُ الشَّامِلُ الْعَامُّ الْمُطْلَقُ فَهُوَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٩- إِثْبَاتُ أَنَّ السَّمَاوَاتِ جَمْعٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿السَّمَوَاتِ﴾، وَهَذَا الْجَمْعُ قَدْ بَيَّنَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ سَبْعُ سَمَوَاتٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

أَمَّا الْأَرْضُ فَجَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ مُفْرَدَةً، لَكِنْ يُرَادُ بِهَا الْجِنْسُ، وَالْمُفْرَدُ الَّذِي يُرَادُ بِهِ الْجِنْسُ يُعْمُ كُلَّ جِنْسٍ، لَكِنْ ظَاهِرُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ

وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴿١٠﴾ يَقْتَضِي أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ؛ لِأَنَّ مُمَائِلَةَ الْأَرْضِ لِلسَّمَاءِ فِي غَيْرِ الْعَدَدِ غَيْرُ مُمَكِّنَةٍ؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ أَعْظَمُ وَأَوْسَعُ، وَهِيَ مُحِيطَةٌ بِالْأَرْضِ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أَي: مِثْلَهُنَّ فِي الْعَدَدِ.

أَمَّا السُّنَّةُ فَصَرِيحَةٌ فِي أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ، كَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(١).

١٠ - إِبْثَابُ الشَّفَاعَةِ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا ثُبُوتُ الشَّفَاعَةِ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ﴿١٠﴾ فَائِدَةٌ، فَالشَّفَاعَةُ ثَابِتَةٌ، وَلَكِنَّهَا بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ: إِبْثَابُ الشَّفَاعَةِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلْنَا: إِنَّ الشَّفَاعَةَ نَوْعَانِ، فَلْيُعَاوِذْ مَا ذَكَرْنَاهُ سَابِقًا^(٢).

١١ - أَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى كَمَالِ سُلْطَانِهِ جَلَّوَعَلَا، وَأَنَّهُ لِكَمَالِ سُلْطَانِهِ لَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَلَوْ بِمَا يَنْفَعُ الْغَيْرَ، إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.

لَكِنِ الْمُلُوكُ مَهْمَا عَظُمَتْ مَنَزِلَتُهُمْ لَهُمْ أَصْحَابٌ وَأَصْدِقَاءُ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَشْفَعُوا لِأَحَدٍ دُونَ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا مِنَ السُّلْطَانِ، لَكِنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ مَهْمَا كَانَ الشَّافِعُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَظَالِمِ، بَابُ إِثْمٍ مِنْ ظَلَمَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ، رَقْمُ (٢٤٥٢) (٢٤٥٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاقَاةِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ وَغَضَبِ الْأَرْضِ، رَقْمُ (١٦١٠) (١٦١٢) مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كَمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ، رَقْمُ (٢٤٥٤) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ، رَقْمُ (١٦١١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انْظُرْ: (ص: ٢٧٥).

فِي مَنْزِلَتِهِ، وَمَهْمَا كَانَ الْمَشْفُوعُ لَهُ فِي حَاجَتِهِ، لَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِكَمَالِ سُلْطَانِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

١٢ - إثبات علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، وإثبات عموميه في الماضي والمستقبل والحاضر؛ لقوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّكَ مَتَى عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ عَالِمٌ مَا بَيْنَ يَدَيْكَ وَمَا خَلْفَكَ، فَإِنَّكَ سَوْفَ تَحْذَرُ مِنْ مُخَالَفَتِهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّكَ مَهْمَا خَالَفْتَ فِي سِرٍّ أَوْ إِعْلَانٍ، أَوْ ظُهُورٍ أَوْ خَفَاءٍ، عِنْدَكَ أَحَدٌ أَوْ لَيْسَ عِنْدَكَ أَحَدٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالِمٌ بِهِ، فَاحْذَرُ أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ مِنْكَ مَا يُخَالِفُ مَا يُرِيدُ مِنْكَ.

١٣ - أَنَّهُ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمَنَا عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، فنحن لا نعلم عنه ولا عن صفاته إِلَّا بِمَا شَاءَ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ إِلَّا مَا عَلَّمَنَا، فَهَاهُنَا شَيْئَانِ:

الْأَوَّلُ: مَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَصِفَاتِهِ.

وَالثَّانِي: مَا يَتَعَلَّقُ بِمَخْلُوقَاتِهِ.

وَكِلَاهُمَا لَا نَعْلَمُهُ إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا عَزَّوَجَلَّ، وَلِذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْنَا الْكَفُّ عَنِ الْكَلَامِ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ إِلَّا مَا وَصَلَ إِلَيْنَا عِلْمُهُ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا الْكَفُّ عَمَّا يَتَعَلَّقُ بِمَخْلُوقَاتِهِ إِلَّا بِمَا وَصَلَ إِلَيْنَا عِلْمُهُ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ عَنْ كَيْفِيَّةِ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ إِذَا لَمْ يُبَيِّنْ لَنَا ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا قَالَ: إِنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَإِنَّا نَقُولُ: لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَسْأَلَ هَذَا السُّؤَالَ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ

التَّعَمُّقِ فِي الدِّينِ وَالتَّنَطُّعِ فِيهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(١).

وَلَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كَيْفَ اسْتَوَى؟ أَنْكَرَ هَذَا السُّؤَالَ، وَقَالَ: الْاسْتِوَاءُ غَيْرُ مُجْهُولٍ، وَالْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ^(٢). وَأَصَابَ فِي إِنْكَارِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ السُّؤَالُ عَنْهُ مِنَ الْحَقِّ لَكَانَ أَوَّلَى النَّاسِ بِهِ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَأَنَّ عَنْدهُمْ مَنْ إِذَا سَأَلُوهُ أَجَابَهُمْ فِيهِمَا عِنْدَهُ فِيهِ عِلْمٌ، وَهُوَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

١٤ - إِبْثَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

وَيَتَفَرَّعُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّكَ إِذَا سَأَلْتَ الْعِلْمَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَعَلَّقْ قَلْبَكَ بِرَبِّكَ؛ لِيَزِيدَكَ عِلْمًا، وَلَكِنْ لَا يَغْنِي ذَلِكَ إِبْطَالُ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْعِلْمُ، كَالْأَخْذِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، أَوْ مِنَ الْكُتُبِ الْمُوثُوقَةِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

١٥ - إِبْثَاتُ الْكُرْسِيِّ، وَأَنَّهُ عَظِيمٌ شَامِلٌ لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

١٦ - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَوُودُهُ - أَي: لَا يُثْقِلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - حِفْظُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا حِفْظُهُمَا بِذَاتِهِمَا، وَلَا حِفْظُ مَا فِيهِمَا مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ هَلَكِ الْمُتَنَطِّعُونَ، رَقْم (٢٦٧٠) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ (ص: ٥٦)، وَابِيهَقِي فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ (٢/ ٣٠٥)، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّالِكَايْنِيُّ فِي شَرْحِ أَصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ (٢/ ٤٤١) بِرَقْم (٦٦٤).

وَتَصَوَّرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ! لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُحِيطَ بِهِمَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُثْقَلُهُ حِفْظُهُمَا؛ لِكَمَالِ قُوَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا.

١٧ - إِبْتِاثُ عُلُوِّ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ أَعْلَى﴾، الْعَلِيُّ بِذَاتِهِ، الْعَلِيُّ بِصِفَاتِهِ، فَهُوَ نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا عُلْيَا، لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

الْعَظِيمُ: يَعْنِي ذَا الْعَظَمَةِ، فَلَا شَيْءَ أَعْظَمَ مِنَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وَأُحْتُ إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى قِرَاءَةِ هَذِهِ الْآيَةِ كُلِّ لَيْلَةٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَرَأَهَا الْإِنْسَانُ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ.

وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَبْذُلُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ لِمَنْ يَحْرُسُهُ مِنَ الْبَشَرِ، مَعَ أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِرَاسَتَهُ مِنْ شَيَاطِينِ الْجَنِّ، فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ بِدُونِ بَذْلِ مَالٍ.

ثُمَّ هُوَ فِي قِرَاءَتِهِ لَهَا يُؤَجَّرُ، كُلُّ حَرْفٍ بِحَسَنَةٍ، وَالْحَسَنَةُ بَعْسَرُ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

وَأُوصِي إِخْوَانِي أَنْ يَقْرَؤُوهَا بِتَمَهُّلٍ وَتَدْبِيرٍ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنُوا عَظَمَةَ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي أَقَرَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَبِي بَنَ كَعْبٍ حِينَ سَأَلَهُ: «أَيُّ آيَةٍ أَعْظَمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟» قَالَ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ^(١).

وأوصي أيضًا بتدبير ما فيها من صفات الله عزَّ وجلَّ العظيمة، وأسمائه الحسنى
الكريمة؛ حتى يزداد بذلك إيمانًا بالله، وتَعْظِيمًا له، ولِكِتَابِهِ.
وَأَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِي وَلِإِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُنْتَدِرِينَ لِكِتَابِهِ،
الْمُعْظَمِينَ لَهُ جَلَّ وَعَلَا، الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَجَهَارًا، مُحْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ
بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦)

هذه الآية يُظَنُّ بعض النَّاسِ أَنَّهَا من آية الكرسي، وليس كذلك، فآية الكرسي
آية واحدة مُسْتَقِلَّةٌ، وهذه آية أُخْرَى مُسْتَقِلَّةٌ، فليست منها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أَي: لَا أَحَدٌ يُكْرَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، بَلْ مَنْ دَخَلَ
فِي دِينِ اللَّهِ دَخَلَهُ اخْتِيَارًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَأَيُّ إِنْسَانٍ يَتَأَمَّلُ الْإِسْلَامَ
بِمَحَاسِنِهِ عِبَادَةً وَأَدَبًا وَخُلُقًا لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ الْإِسْلَامَ مَخْتَارًا؛ لِأَنَّهُ فِطْرَةُ اللَّهِ، وَلِهَذَا
قَالَ: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، وهذه الْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِلْحُكْمِ السَّابِقِ، أَي: لَا إِكْرَاهَ
فِي الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَمَنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ دَخَلَهُ بِاخْتِيَارٍ لَا بِإِكْرَاهٍ.

وَلَيْسَ مَعْنَى الْآيَةِ كَمَا يَظُنُّ بعض النَّاسِ: لَا إِكْرَاهَ عَلَى الدِّينِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قَدْ
نَسَخَتْ وَجُوبَ الْجِهَادِ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، بَلْ الْجِهَادُ قَائِمٌ لِمَنْ عَانَدَ
وَاسْتَكْبَرَ، وَأَمَّا مَنْ تَمَشَّى عَلَى الْفِطْرَةِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى جِهَادٍ، وَلَا إِكْرَاهٍ عَلَى الدِّينِ.

والمُرَادُ بِاللَّذِينَ هُنَا: دِينَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -؛ لِأَنَّهُ هُوَ الدِّينُ الْمَقْبُولُ عِنْدَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أَي: ظَهَرَ وَاتَّضَحَ، وَالرُّشْدُ: سُلُوكُ طَرِيقِ الصَّوَابِ. وَالْغَيِّ: مُجَانَبَةُ الصَّوَابِ.

و﴿تَبَيَّنَ﴾ هُنَا فِيهَا نَوْعٌ مِنْ تَضْمِيرِ التَّمْيِيزِ، يَعْنِي: تَبَيَّنَ وَتَمَيَّزَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ.

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ بَعْدَ تَبَيُّنِ الرُّشْدِ مِنَ الْغَيِّ، انْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى قِسْمَيْنِ، ذَكَرَ أَحَدَهُمَا، وَطَوَى ذِكْرَ الْآخَرِ، فَقَالَ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أَي: مَنْ يُنْكِرِ الطَّاغُوتَ، وَيَتَّبِعِدْ عَنْهُ.

والمُرَادُ بِالطَّاغُوتِ: كُلُّ مَا خَالَفَ حُكْمَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّهُ طَاغُوتٌ، وَهُوَ يَخْتَلِفُ عَلَى دَرَكَاتٍ.

وَدَلِيلُ قَوْلِنَا: إِنَّ الطَّاغُوتَ كُلَّ مَا خَالَفَ حُكْمَ اللَّهِ. قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أَي: إِيْمَانًا حَقِيقِيًّا خَالِيًا مِنَ الْكُفْرِ، خَالِيًا مِنَ الشَّكِّ، خَالِيًا مِنَ الشَّرِكِ.

وَقَدَّمَ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ عَلَى الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ؛ لِإِرْدَاءِ الْإِيْمَانِ عَلَى قَلْبٍ خَالٍ مِنَ الشَّوَائِبِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: «التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ»، يَعْنِي: أَخْلِ الْمَكَانَ مِنَ الشَّوَائِبِ،

ثُمَّ حَلَّهُ وَزَيَّنَهُ، ولهذا جاء النَّفْيُ فِي كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ قَبْلَ الْإِثْبَاتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وقوله: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ ﴿اسْتَمْسَكَ﴾ بِمَعْنَى: تَمَسَّكَ، وَزِيدَتِ الْهَمْزَةُ وَالسَّيْنُ لِلْمُبَالَغَةِ، أَي: تَمَسَّكَ تَمَسُّكًا قَوِيًّا.

والعُرْوَةُ هِيَ: مَا يَتَمَسَّكُ بِهِ الْإِنْسَانُ، كَالْعُرَى الَّتِي تَكُونُ فِي جَوَانِبِ الْبِرْكََةِ أَوْ الْبِئْرِ لِمَنْ أَرَادَ السَّبَاحَةَ.

و﴿الْوُثْقَى﴾ يَعْنِي الْوَثِيقَةَ، الَّتِي يَطْمَئِنُّ الْمُتَمَسِّكُ بِهَا اطمِئْنَانًا كَامِلًا غَيْرَ خَائِفٍ مِنَ الْغَرَقِ ﴿لَا أَنْفِصَامَ لَهَا﴾ أَي: لَا انْقِطَاعَ، فَهِيَ عُرْوَةٌ وَثِيقَةٌ لَا تَنْقَطِعُ.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي: سَمِيعٌ لِكُلِّ قَوْلٍ، عَلِيمٌ بِكُلِّ فِعْلٍ، بَانَ أَوْ خَفِيَ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحِكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١- أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ دِينُ الْفِطْرَةِ، يَقْبَلُهُ كُلُّ ذِي فِطْرَةٍ سَلِيمَةٍ، وَأَمَّا الْمُعَانِدُ الْمُسْتَكْبِرُ فَهَذَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

٢- أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ رُشْدٌ، وَمَا سِوَاهُ غَيٌّ، فَالدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ حِلْمٌ، وَمَا سِوَاهُ سَفَهٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٣- أَنَّ مَنْ التَّبَسَّسَ عَلَيْهِ الرُّشْدُ بِالْغَيِّ بَعْدَ تَبَيُّنِهِ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ بِهِائِمِ الْأَنْعَامِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُكَذِّبِينَ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

٤- أنه لا يَتِمُّ الإيمانُ باللهِ حَتَّى يَتِمَّ الكُفْرُ بالطَّاغُوتِ، ولكن هل يَجْتَمِعُ هذا

وهذا؟

الجواب: أمَّا الكُفْرُ المطلقُ فلا يُمكنُ أن يَجْتَمِعَ مع الإيمانِ، وأمَّا مُطلقُ الكُفْرِ فيمكنُ أن يَجْتَمِعَ مع الإيمانِ النَّاقِصِ، دَلِيلُ ذلك: قولُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^(١)، فَجَعَلَ قِتَالَ الْمُؤْمِنِ كُفْرًا، لَكِنَّهُ كُفْرٌ يَجْتَمِعُ مع الإيمانِ؛ بِدَلِيلِ قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَقْنَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩-١٠]، فَجَعَلَ اللهُ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ إِخْوَةً لَنَا فِي الْإِيمَانِ، مع أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «قِتَالُهُ كُفْرٌ»، فَمُطلقُ الكُفْرِ يُمكنُ أن يَجْتَمِعَ مع مُطلقِ الإيمانِ، أمَّا الكُفْرُ المطلقُ فلا يُمكنُ أن يَجْتَمِعَ مع الإيمانِ.

٥- أنْ مَنْ كَفَرَ بالطَّاغُوتِ، وآمَنَ باللهِ، فالنَّجاةُ مَضْمُونَةٌ لَهُ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾، وهو كذلك، قال النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِئْتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ»، رقم (٦٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

٦- إِبْثَاتُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، هُمَا: السَّمِيعُ، وَالْعَلِيمُ. فَيَسْمَعُهُ جَلَّ وَعَلَا يَسْمَعُ كُلَّ صَوْتٍ وَإِنْ خَفِيَ، يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، أَي: أَخْفَى مِنَ السِّرِّ، وَهُوَ مَا حَدَّثَ الْإِنْسَانُ بِهِ نَفْسَهُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦) إِذْ يَتَلَفَّى التَّتَلَفَيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿[ق:١٦-١٧].

٧- إِبْثَاتُ عِلْمِ اللَّهِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ الْأَسْمِ الْكَرِيمِ: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لِأَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ تَعَالَى كُلَّهَا تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ، لَيْسَ فِيهَا اسْمٌ جَامِدٌ لَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى أَبَدًا، كُلُّ أَسْمَائِهِ تَدُلُّ عَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْمَعَانِي، قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كُلَّهَا تَدُلُّ عَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ مَعَانٍ، وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]، وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى فِي تَفْصِيلِ عِلْمِهِ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ أَلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

وَإِذَا آمَنَ الْإِنْسَانُ بِهَذَا الْعِلْمِ لَزِمَ أَنْ يَخْشَى اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ إِنْ تَكَلَّمَ عِلْمُ اللَّهِ بِهِ، وَإِنْ فَعَلَ عِلْمُ اللَّهِ بِهِ، وَإِنْ تَرَكَ شَيْئًا مَأْمُورًا بِهِ عِلْمُ اللَّهِ بِهِ، وَإِنْ أَسَرَ شَيْئًا فِي نَفْسِهِ عِلْمُ اللَّهِ بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥]، فَمَتَى آمَنَ الْإِنْسَانُ بِهَذَا الْأَسْمِ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الصِّفَةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُحَدِّثَ

له خوفاً من الله، وخشية منه؛ حتى لا يعلمه عز وجل على وجه لا يرضى به عنه.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يتولاهم في الدنيا والآخرة، وهذه هي الولاية الخاصة؛ لأن ولاية الله عز وجل نوعان: عامة، وخاصة.

فالعامة في مثل قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿١١﴾﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿[الأنعام: ٦١-٦٢]﴾، وقال تعالى: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠].

أما الولاية الخاصة ففي مثل هذه الآية، وفي مثل قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

ومن ولايته عز وجل للمؤمنين تلك الولاية الخاصة: ما أفاده قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الشرك والمعاصي إلى نور التوحيد والطاعة، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ يعني: يتولاهم الطَّاغُوتُ، وهم شياطين الإنس والجن، يتولون الكفار، ويحرّضونهم على الغي والضلال، ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ

النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴿١٠﴾، فَتَجِدُ هَؤُلَاءِ يَنْحَرِفُونَ بَعْدَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ، وَبَعْدَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَمَالِ الَّذِينَ يَنْحَرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ: مَا ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- بُشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَلِيُّهُمْ؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ولو لم يكن من آثار الإيمان إلا هذا لكفى، أَنْ يَتَوَلَّاكَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

٢- أَنَّ الْإِيمَانَ سَبَبٌ لِلْعِلْمِ، وَسَبَبٌ لِلْإِسْتِقَامَةِ؛ لقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

٣- أَنَّهُ جَمَعَ الظُّلُمَاتِ، وَأَفْرَدَ النُّورَ؛ لِأَنَّ النُّورَ وَاحِدٌ، وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وَهُوَ طَرِيقٌ وَاحِدٌ.

وَأَمَّا مَا خَالَفَهُ فَهُوَ طُرُقٌ، وَمِلَلٌ شَتَّى، وَمَنَاهِجٌ مُتَعَدِّدَةٌ: هَذَا وَثَنِيٌّ، وَهَذَا مُلْحِدٌ لَا يُؤْمِنُ بِشَيْءٍ، وَهَذَا يَهُودِيٌّ، وَهَذَا نَصْرَانِيٌّ، فَالظُّلُمَاتُ كَثِيرَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٤- أَنَّهُ أَفْرَدَ وِلَايَةَ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا وَاحِدٌ، وَجَمَعَ أَوْلِيَاءَ الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّهُمْ كَثِيرُونَ، فَهَذَا إِمَامٌ لَهُم فِي الشَّرِّ، وَهَذَا إِمَامٌ لَهُم فِي الْفُسْقِ، وَهَذَا إِمَامٌ لَهُم فِي الْإِنْحِرَافِ، وَهَكَذَا.

٥- أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مَوْلَاهُمُ الطَّاغُوتُ، يَتَوَلَّاهُمْ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

٦- أَنَّ الْكُفَّارَ فِي ضَلَالٍ، وَفِي ظُلْمَةٍ، حَتَّى لَوْ اسْتَنَارُوا بَعْضُ الشَّيْءِ فَإِنَّ مَرَدَّهُمْ إِلَى الظُّلُمَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، أَي: مَنْ نُورِ الْهُدَى وَالْإِسْلَامِ إِلَى ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ.

٧- أَنَّ الْكُفَّارَ مُحَلَّدُونَ فِي النَّارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وَلَمْ يَذْكُرْ ثَوَابَ الَّذِينَ آمَنُوا؛ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تُعْرَفُ بِضِدِّهَا، فَإِذَا كَانَ الْكُفَّارُ أَصْحَابَ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، فَالْمُؤْمِنُونَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. أَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لَنَا جَمِيعًا مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ الْخَالِدِينَ فِيهَا، نَتَمَتَّعُ بِرُؤْيَا اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَبِصُحْبَةِ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥٨)

قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الْاسْتِفْهَامُ لِلتَّعْجِيبِ وَالْإِثَارَةُ وَالْإِنْتِبَاهِ.

والمخاطَبُ هنا: إمَّا أن يكونَ الرَّسُولَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-،
وإمَّا أن يكونَ غَيْرُهُ مِمَّنْ يَصِحُّ أن يُوجَّهَ إليه الخِطَابُ.

وقوله: ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أي: جادلَهُ، والمُحَاجَّةُ: هي المُجَادَلَةُ
بالْحُجَّةِ الَّتِي يُدلي بها كُلُّ واحدٍ من المتجادِلين.

وإِبْرَاهِيمُ هو: أبو الأنبياء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، وهو أَفْضَلُ الأنبياءِ
بعدَ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

وقوله: ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أي: في الله عَزَّجَلَّ، والضميرُ في قوله: ﴿فِي
رَبِّهِ﴾ يعودُ إلى إِبْرَاهِيمَ؛ لأنَّ الرَّجُلَ الآخرَ لا يُؤمِّنُ بذلك.

وقوله: ﴿أَنِّ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ هذه الجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِمُحَاجَّةِ الرَّجُلِ الآخرِ،
يَعْنِي: أَنَّ هذا الرَّجُلَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ، وقال: أنا لي المُلْكُ، وأنا الرَّبُّ، فأين رَبُّكَ
يا إِبْرَاهِيمُ؟

وقوله تعالى: ﴿الْمُلْكَ﴾ المراد: الجِنْسُ، وليس كُلُّ مُلْكِ الأرضِ والسَّمَاوَاتِ.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ هذا تَفْصِيلُ المُحَاجَّةِ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي
وَيُمِيتُ﴾ يُحْيِي المَيِّتَ، وَيُمِيتُ الحَيَّ، وَمِنْ إحياءِ المَوْتَى: إِنْشَاءُ الحَيَاةِ فيما ليس
بحَيٍّ، دليلُ ذلك: قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، ولا أَحَدَ يَقْدِرُ على أن يُحْيِيَ وَيُمِيتَ.

لكنَّ هذا ادَّعى دَعْوَى باطِلَةً، قال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، فادَّعى ما ليس له،
ولا حَاجَّةَ أن نقول: إِنَّه أرادَ أَنَّهُ يُقدِّمُ إليه الرَّجُلُ يَسْتَحِقُّ القَتْلَ، فيُقيِّه، أو يُقدِّمُ إليه

الرَّجُلُ الْبَرِيءُ، فَيَقْتُلُهُ. لَا حَاجَةَ لَذَلِكَ، هُوَ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةٍ، قَالَ: ﴿أَنَا أُخِي-
وَأُمِيْتُ﴾.

ولَمَّا كَانَ هَذَا أَمْرًا قَدْ يَخْفَى انْتَقَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الْأَمْرِ الْأَجْلَى
الَّذِي لَا يُمَكِّنُ لِهَذَا أَنْ يَدَّعِيَهُ، قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ
فَأَتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، وَحِينَئِذٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: آتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ. وَلَوْ ادَّعَى
ذَلِكَ لَكَذَّبَهُ كُلُّ أَحَدٍ.

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أَي: غُلِبَ وَانْخَذَلَ الَّذِي كَفَرَ، وَعَجَزَ أَنْ يَرُدَّ عَلَى إِبْرَاهِيمَ
هَذِهِ الْبَيِّنَةُ.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: لَا يَهْدِي مَنْ قَضَى بِظُلْمِهِمْ، وَأَمَّا الظَّالِمُ
الَّذِي لَمْ يَقْضِ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالظُّلْمِ إِلَى الْمَمَاتِ فَقَدْ يَهْدِيهِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١ - الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِعْتِبَارِ فِيمَنْ مَضَى؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يَدُلُّ عَلَى هَذَا،
كَمَا ذَكَرْنَا فِي التَّفْسِيرِ.

٢ - أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُجَادِلُونَ وَيُؤَدِّدُونَ فِي اللَّهِ، وَهُمْ صَابِرُونَ
فِي ذَلِكَ، مُثْبِتُونَ لِلْحَقِّ.

٣ - أَنَّ النِّعْمَةَ قَدْ تُطْغِي الْإِنْسَانَ حَتَّى يَتَجَاوَزَ حَدَّهُ؛ لِأَنَّ هَذَا لَمَّا آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ
ادَّعَى أَنَّهُ رَبٌّ.

٤ - قُوَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حَيْثُ قَالَ أَمَامَ هَذَا الرَّجُلِ الطَّاعِيَةِ: ﴿رَبِّي
الَّذِي يُخِي- وَيُمِيْتُ﴾، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ الْكُفْرَ بِهَذَا الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ.

وهكذا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ شُجَاعًا حَازِمًا، لَاسِيَّما فِي مَقَامِ الْمُنَاطَرَةِ،
الَّتِي إِذَا انْخَدَلَ الْإِنْسَانُ فِيهَا كَانَ سَبِيًّا لَانْخِدَالِ الْحَقِّ.

٥- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُنَاضِلِ الْمُجَادِلِ أَلَّا يَذْكَرَ مِنَ الْحُجَجِ مَا يُمَكِّنُ لِلْخَصْمِ أَنْ
يَدَّعِيَ مِثْلَهُ أَوْ أَنْ يَمِيلَ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَإِنْ ذَكَرَ ذَلِكَ فَلْيَذْكَرْ مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدَّعِيَهُ
الْخَصْمُ، وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَدَلَ عَنْ مُنَاطَرَةِ هَذَا الرَّجُلِ
بِالطَّرِيقِ الْخَفِيَّةِ إِلَى مُنَاطَرَتِهِ بِالطَّرِيقِ الْجَلِيَّةِ.

٦- أَنَّ الشَّمْسَ هِيَ الَّتِي تَسِيرُ، وَهِيَ الَّتِي يُؤْتَى بِهَا، وَهِيَ الَّتِي تَغِيبُ، وَهِيَ
الَّتِي تَغْرُبُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرِّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧]، أَرْبَعَةُ أَفْعَالٍ أَضَافَهَا اللَّهُ إِلَى الشَّمْسِ:
إِذَا طَلَعَتْ، تَزَّوَّرُ، إِذَا غَرَبَتْ، تَقَرِّضُ. وَإِضَافَةُ الْفِعْلِ تَقْتَضِي قِيَامَهُ بِمَنْ أُضِيفَ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا دَعَايُ أَنَّ الشَّمْسَ ثَابِتَةٌ، وَأَنَّ الْحَرَكَةَ لِلْأَرْضِ، فَهَذِهِ تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ،
فَإِنْ ثَبَتَ ذَلِكَ قَطْعًا فَإِنَّا نَقْبَلُهُ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَصْرِفَ الْآيَاتِ عَنْ ظَاهِرِهَا، وَنَقُولَ:
صَرَفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا كَانَ بِمُقْتَضَى الدَّلِيلِ الْحِسِّيِّ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
يُخَالَفَ شَيْئًا مُحَسَّسًا أَبَدًا؛ لِأَنَّ دَلَالََةَ الْحِسِّ عَلَى مَدْلُولِهِ قَطْعِيَّةُ الثَّبُوتِ، وَالْقُرْآنُ
قَطْعِيُّ الثَّبُوتِ سَدًّا وَمَعْنَى، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ قَطْعِيُّ الثَّبُوتِ الْحِسِّيِّ مُنَاقِضًا
لِقَطْعِيِّ الثَّبُوتِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَبَدًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّنا عِنْدَ التَّعَارُضِ الْمُطْلَقِ نُقَدِّمُ
دَلَالَاتِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّهَا صَدَرَتْ مِنْ عِنْدِ الْخَالِقِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا خَلَقَ،
لَكِنْ عِنْدَمَا يَكُونُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ يُمَكِّنُ أَنْ يُؤَوَّلَ - إِذَا دَلَّ الْحِسُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمُؤَوَّلِ
إِلَيْهِ - فَإِنَّ هَذَا مُمَكِّنٌ.

٧- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُجَادِلِ الْمَحَاجُّ أَنْ يَأْتِيَ بِالضَّرْبَةِ الْقَاصِمَةِ الَّتِي لَا مَجَالَ وَلَا مُحَاوَلَةَ لِلتَّخْلُصِ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ بُهِتَ الَّذِي كَفَرَ، وَمَا اسْتَطَاعَ الرَّدَّ.

٨- أَنَّ الظَّالِمَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- لَا يُوقَفُ لِلهُدَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، فانتِفَاءُ هِدَايَةِ اللَّهِ لِحُكْمِهِ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا الَّذِي انْتَفَتْ عَنْهُ الْهِدَايَةُ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا.

وَيُذَلُّ لِهَذَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الشَّخْصِ أَنَّهُ لَيْسَ أَهْلًا لِلْهِدَايَةِ لَمْ يَهْدِهِ؛ لِأَنَّ هِدَايَةَ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا نَوْعٌ مِنَ الْعَبَثِ، لَا فَائِدَةَ مِنْهُ.

وَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ -مَثَلًا- أَهْلٌ لِلْهِدَايَةِ هَدَاهُ اللَّهُ، وَلِهَذَا نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرِ، فَهَدَاهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا أَهْلٌ لِلْهِدَايَةِ، فَيَهْدِيهِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْجِبُ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٥٩)

هذه الآية فيها عبرٌ، وفيها نعمٌ، فمن العبرِ: ما تَضَمَّتْهُ من إحياءِ الموتى، ومن النعمِ: أن الله عَزَّوَجَلَّ أرادَ أن يُبَيِّنَ لهذا الشَّاكِّ الَّذِي خَفِيَ عليه إحياءُ الله تعالى لهذه القرية، قال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ يعني: أو لم ترْ كَالَّذِي مَرَّ على قَرْيَةٍ، بعد أن ضَرَبَ الله المَثَل في قصَّةِ مُحَاجَّةِ إبراهيمَ والرَّجُلِ الكافرِ، ذَكَرَ قِصَّةً أُخْرَى.

﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يابسةٌ هَامِدَةٌ أَشْجَارُهَا وَزُرُوعُهَا، فقال: ﴿أَنَّى يُبَيِّنَ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني: كيف يُحْيِيهَا اللهُ، وهي مَيِّتَةٌ هَامِدَةٌ؟ فأرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يُبَيِّنَ له قُدْرَتُهُ على كُلِّ شَيْءٍ، فَأَمَاتَهُ جَلَّوَعَلَا مِئَةَ عَامٍ، أي: ماتَ مِئَةَ سَنَةٍ، ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ بعدَ مِئَةِ سَنَةٍ، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، قال بعضُ المُفَسِّرِينَ: إنَّه قال: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ لأنَّه ماتَ في أوَّلِ النَّهَارِ، وَبُعِثَ في آخِرِ النَّهَارِ، فقال: إنَّه لَبِثَ يَوْمًا إذا كان ماتَ بالأمْسِ، أو بعضَ يومٍ إن كان ماتَ في اليومِ، وهو قد بَقِيَ مِئَةَ عَامٍ، قال اللهُ له: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾، و﴿بَلْ﴾ هذه للإِضْرَابِ الإِبْطَالِيَّ، يعني: أنَّ الله أَبْطَلَ ما قالَهُ هذا: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وقال: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ مِئَةَ سَنَةٍ، يعني: أَرْبَعَ مِئَةِ فَضْلٍ، فهذه آيَةٌ من آيَاتِ اللهِ: أنَّ الله أَمَاتَهُ، ثُمَّ بَعَثَهُ.

ثُمَّ أَرَاهُ اللهُ تَعَالَى آيَةً ثَانِيَةً، فقال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، طَعَامٌ وَشَرَابٌ بَقِيَ مِئَةَ سَنَةٍ لَمْ يَتَسَنَّهْ، أي: لَمْ يَتَغَيَّرْ، فَالشَّرَابُ لَمْ يَبْسُ، والطَّعَامُ لَمْ تُفْسِدْهُ الرِّيحُ وَالشَّمْسُ؛ لأنَّ الله حَفِظَهُ، وهو خَيْرٌ حَافِظًا عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ أَرَاهُ اللهُ تَعَالَى آيَةً ثَالِثَةً، فقال: ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾، وكان معه حِمَارٌ، فماتَ الحِمَارُ، ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ عِظَامِ الحِمَارِ

﴿كَيفَ نُشْرِهَهَا﴾ رَأَى الْعِظَامَ وشاهدَهَا بعَيْنِهِ يَلْتَصِقُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ بِوَاسِطَةِ الْعَصَبِ ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ رَأَى اللَّحْمَ بعَيْنِهِ يُكْسَى، كُلُّ هَذَا بِلَحْظَةٍ، عِظَامٌ مُتَنَازِلَةٌ تَقَارَبَتْ، مُتَفَاصِمَةٌ فَالتَحَمَتْ، عَارِيَةٌ فَكُسِيتَ بِاللَّحْمِ.

وحينئذٍ أَقَرَّ، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿، وَتَبَيَّنَ الْأَمْرَ وَاضِحًا: أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَيِّمَ الْقَرْيَةَ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا، وَقَالَ: ﴿أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، ولهذا قَالَ: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذه من نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ، أَنْ يُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَزِدُّهُ بِهِ يَقِينَهُ، وَيَكْمُلُ بِهِ إِيْمَانَهُ، فَاللَّهُمَّ أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا، وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ، وَأَرِنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - الدَّعْوَةُ إِلَى النَّظَرِ وَالاعتِبَارِ.

٢ - أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُلَامُ إِذَا اسْتَعْرَبَ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ لَهُ الْبَيِّنَةُ، ولهذا عَذَرَ اللَّهُ هَذَا الرَّجُلَ، وَأَرَاهُ آيَاتٍ تُوجِبُ لَهُ الْيَقِينَ.

٣ - أَنَّ الْأَرْضَ تُوصَفُ بِالْحَيَاةِ وَبِالْمَوْتِ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَإِذَا كَانَتْ أَشْجَارُهَا يَابِسَةً، وَزُرُوعُهَا هَامِدَةً، فَهِيَ مَيِّتَةٌ، وَإِذَا قَامَتْ أَشْجَارُهَا، وَنَمَتْ زُرُوعُهَا، فَهِيَ حَيَّةٌ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يَعْنِي: هَامِدَةً ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ بِالزُّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ ﴿وَرَبَتْ﴾ نَمَتْ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْفَقِ إِنَّهُ، عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

٤ - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَمُنُّ عَلَى عَبْدِهِ، فَيُظْهِرُ لَهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَزِدُّهُ بِهِ إِيْمَانَهُ وَيَقِينَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ مَنْ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ بِهَذَا الْمَثَلِ الَّذِي حَصَلَ لَهُ.

٥- سُرْعَةُ الزَّمَنِ فِي الْمَوْتِ، يَعْنِي: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ يُسْرِعُ ذَهَابُ الزَّمَنِ فِي حَقِّهِ، وَإِذَا شِئَتْ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ فَانْظُرْ إِلَى النَّائِمِ، يَنَامُ السَّاعَتَيْنِ وَالثَّلَاثَ وَالْأَرْبَعَ وَالْعَشَرَ، وَكَأَنَّهَا دَقَائِقُ، مَعَ أَنَّ الرُّوحَ لَمْ تُفَارِقِ الْبَدَنَ مُفَارَقَةً تَامَّةً، وَهَذَا يُدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَوْتَى الَّذِينَ لَهُمْ مِائَتُ السِّنِينَ أَوْ أَلْفُ السِّنِينَ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النَّازِعَات: ٤٦].

وَلَا تَظُنَّ أَنَّ أَصْحَابَ الْقُبُورِ كَأَصْحَابِ الدُّورِ، أَصْحَابُ الدُّورِ يُرَاقِبُونَ السَّاعَاتِ وَالْدَقَائِقَ وَالْأَيَّامَ وَالشُّهُورَ وَالْأَعْوَامَ، لَكِنْ أُولَئِكَ لَا يُرَقِبُونَ هَذَا، فَالزَّمَنُ فِيهِمْ سَرِيعٌ جِدًّا.

وَيُدُلُّ عَلَى ذَلِكَ: هَذِهِ الْقِصَّةُ، مَاتَ مِئَةَ عَامٍ، وَقَالَ: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وَأَصْحَابُ الْكَهْفِ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةِ سِنِينَ، وَازْدَادُوا تِسْعًا، مَعَ أَنَّهُمْ نِيَامٌ، وَلَمَّا اسْتَيْقَظُوا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿كَمْ لَبِثْنَا قَالَ لَيْسَ إِلَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكَهْف: ١٩].

٦- تِلْكَ الْآيَةُ الْعَجِيبَةُ: طَعَامٌ وَشَرَابٌ بَقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ عُرْضَةً لِلشَّمْسِ وَالرِّيَّاحِ وَالْأَمْطَارِ، لَمْ يَتَغَيَّرْ، لَا بِنَقْصٍ، وَلَا زِيَادَةٍ، وَلَا فُسَادٍ.

٧- مَا حَصَلَ لِهَذَا الْحِمَارِ، بَقِيَتْ عِظَامُهُ مِئَةَ سَنَةٍ، مَعَ أَنَّهُ فِي الْعَادَةِ لَا تَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ الْعِظَامُ مِئَةَ سَنَةٍ، بَلْ تَزُولُ وَتَتَفَتَّتْ، لَكِنَّ هَذَا حِفْظُهُ مِنْ لَهْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا يُؤَوِّدُهُ حِفْظُهَا عَزَّوَجَلَّ.

٨- أَنَّ الْعَصَبَ تُعْتَبَرُ هِيَ الرِّبَاطُ الَّذِي يَرِبُطُ الْمَفَاصِلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ نُنشِرُهَا﴾، وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَلِذَلِكَ إِذَا انْهَارَتِ الْأَعْصَابُ انْهَارَ

الجِسْمُ، حَتَّى إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقِفَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]، أَي: قَوَيْنَا رَبْطَهُمْ.

ولعلنا نأخذُ من هذا فائدة: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُمَرَّنَ دَائِمًا أَعْضَاءَهُ عَلَى الْعَمَلِ؛ حَتَّى تَشْتَدَّ الْأَعْصَابُ، وَتَقْوَى، وَتَتَكَيَّفَ مَعَ الْعَمَلِ.

٩- أَنَّ الْعِظَامَ لِلْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ الْأَعْمِدَةِ وَالْجُسُورِ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

١٠- حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، حَيْثُ كَسَا الْعِظَامَ لَحْمًا، وَكَذَلِكَ الْعَصَبُ؛ لِأَنَّهَا لَوْ بَقِيَتْ هكَذَا بَدُونِ أَنْ تُكْسَى لَحْمًا مَا تَمَكَّنَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعَمَلِ، لَكِنْ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ كَسَاهَا.

١١- أَنَّ اللَّحْمَ يُعْتَبَرُ كِسْوَةً لِلْبَدَنِ، وَلِهَذَا يُعَبَّرُ بَعْضُ النَّاسِ، فَيَقُولُ فِي الرَّجُلِ السَّمِينِ: «عَلَيْهِ ثِيَابٌ مِنْ نَسِجٍ أَضْرَاسِهِ» أَي: مِنْ أَكْلِهِ.

١٢- أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمُشَاهَدَاتِهِ أَقَرَّ وَاعْتَرَفَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ كَانَ فِي الْأَوَّلِ يَقُولُ: ﴿أَنْتَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

١٣- عُمُومُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ جَلَّوَعَلَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، قَادِرٌ عَلَى إِيجَادِ الْمَعْدُومِ، وَعَلَى إِعْدَامِ الْمَوْجُودِ، وَعَلَى تَغْيِيرِ الصِّفَاتِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ، وَالْقُدْرَةُ الشَّامِلَةُ قُدْرَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٤- الرَّدُّ عَلَى الْقُدْرَةِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا اسْتَقَلَّ بِعَمَلِهِ فَلَا عِلَاقَةَ لِقُدْرَةِ اللَّهِ فِيهِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ قال المفسرون المعتنون بالإعراب: (إِذْ) ظَرْفٌ لعاملٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: واذكُرْ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ. لأنَّ (إِذْ) ظَرْفٌ، والظَّرْفُ لا بُدَّ له من مُتعلِّقٍ.

وإبراهيمُ هو: إبراهيمُ الخليلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إِمَامُ الحُتَفَاءِ وَأَبُو الْأَنْبِيَاءِ، سَأَلَ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾؛ لِيُطَّلَعَ عَلَى كَيْفِيَّةِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وهو لم يَشْكُ أَبَدًا، بل هو مُؤْمِنٌ، ولهذا قال النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «نَحْنُ أَوْلَىٰ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»^(١)، يَعْنِي: إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ شَاكًّا فَنَحْنُ أَوْلَىٰ مِنْهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَمْ يَشْكُ، كَمَا أَنَّنَا لَمْ نَشْكُ نَحْنُ.

قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ يَعْنِي: اجْعَلْنِي أَرَىٰ ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، قال الله له: ﴿أُولَمْ تُؤْمِنُ﴾ قال: ﴿بَلَىٰ﴾ أَوْ مِنْ بَأَنَّكَ تُحْيِي الْمَوْتَى، لَكِنْ أَحِبُّ أَنْ أَنْظُرَ كَيْفَ؟ ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ يَعْنِي: يَسْتَقِرُّ، وَيَعْرِفُ كَيْفَ كَانَ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ، لَوْ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ خَبَرَ أَخْبَرَكَ بِخَبَرٍ، وَلَمْ تَرَ الْمُخْبَرَ بِهِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ صَافِيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، رقم (٣٣٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب، رقم (١٥١) من حديث أبي هريرة

ثُمَّ رَأَيْتُهُ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَزْدَادُ يَقِينَكَ، ولهذا جاء في الحديث: «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ»^(١).
 ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ يَعْنِي: فَادْبَحْهُنَّ ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يَعْنِي: اضْمُمْ
 إِلَيْكَ أَجْسَادَهُنَّ، ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾، وَهِيَ جِبَالٌ حَوْلَهُ، ففَعَلَ
 هَذَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ جُزْءًا، ثُمَّ دَعَاهُنَّ، قَالَ: هَلُمَّ، أَوْ أَقْبِلْنَ،
 أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يُفِيدُ الدَّعْوَةَ، فَاتَيْنَ إِلَيْهِ يَسْعَيْنَ سَعِيًّا، وَلَيْسَ طَيْرَانًا، خِلَافَ مَا
 كَانَ مَعْرُوفًا مِنَ الطَّيْرِ.

قال: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَزِيزٌ﴾ أَي: غَالِبٌ قَاهِرٌ لِكُلِّ شَيْءٍ عَزَّجَلَّ،
 ولهذا قال الشاعرُ الجاهليُّ:

أَيُّنَ الْمَفْرُ وَالْإِلَهِ الطَّالِبُ وَالْأَشْرُمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ^(٢)

ف: ﴿عَزِيزٌ﴾ أَي: ذُو عِزَّةٍ بِالْغَةِ، قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْعِزَّةُ فِي الْأَصْلِ: الْامْتِنَاعُ، وَمِنْهُ:
 أَرْضٌ عَزَازٌ، أَي: قَوِيَّةٌ تَمْتَنِعُ مِنْ تَأْثِيرِ الْمَاعُولِ فِيهَا، فَالْعَزِيزُ هُوَ: ذُو الْامْتِنَاعِ الَّذِي
 يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ النَّقْصُ وَالْعَيْبُ وَالذُّلُّ عَزَّجَلَّ.

﴿حَكِيمٌ﴾ مَاخُودَةٌ مِنَ الْحُكْمِ، وَمِنَ الْحِكْمَةِ، الْحُكْمُ: هُوَ الْقَضَاءُ بِالشَّيْءِ.
 وَالْحِكْمَةُ: هِيَ وَضْعُ الْأَشْيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - أَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَطْلُبَ مَا يَزْدَادُ بِهِ يَقِينُهُ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ سَيِّدَ
 الْخَتَفَاءِ طَلَبَ مَا يَزْدَادُ بِهِ يَقِينُهُ.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢١٥/١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) البيت لنفيل الحميري في شرح شواهد المغني (ص: ٢٤٠).

٢- إثبات كلام الله عزَّجَلَّ؛ لأنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ قال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ إلى آخر الآية، ففيها نصٌّ صريحٌ على أنَّ اللهَ يَتَكَلَّمُ بكلامٍ مسموعٍ مفهومٍ، ولا يكون مفهوماً إلا إذا كان بلغة المخاطب.

وعليه يكون كلامُ الرَّبِّ عزَّجَلَّ بحرفٍ وصوتٍ، وهذا هو الذي عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعة، ولهم في ذلك أدلَّةٌ ليس هذا موضعُ بسطِها؛ إذ إنَّها موجودةٌ في كُتُبِ العقائد، واللهُ الحمدُ.

٣- الاستيفصالُ في مقامِ الاحتمالِ، فإذا سألَكَ سائلٌ سؤالاً يَحْتَمِلُ أَكْثَرَ من مَعْنَى فاستفهم واستفصل، ولا تحكم على الشَّيْءِ بظاهره إذا كان يَحْتَمِلُ أَشْيَاءَ مُتَعَدِّدَةً، دليلُ ذلك: قوله تعالى لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ يعني: أنك مؤمنٌ، فكيف تسأل؟!

٤- أنَّ اليقينَ يزيدُ وينقصُ؛ لقوله: ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾، وهذا أمرٌ مُشَاهِدٌ، أنَّ اليقينَ يزيدُ وينقصُ، فلو أخبرَكَ مُحِبٌّ بشيءٍ، وهو ثقةٌ عندك، قَبِلْتَ هذا الخبرَ، فإذا أخبرَكَ آخَرُ بمثله ازدادَ قبولُكَ إِيَّاهُ، وثالثٌ يزدادُ أَكْثَرَ، ورابعٌ يزدادُ أَكْثَرَ، ونَحْسُ بنفسِكَ أنَّ يقينَكَ يزدادُ، والمُشَاهَدَةُ أَقْوَى سَبَبٌ لليقينِ، ولهذا قال عزَّجَلَّ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۖ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْتَلْنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٦-٨].

٥- أنَّ القلبَ له أحوالٌ: حالٌ استِقْرَارٍ وثباتٍ، وحالٌ قَلَقٍ وشكٍّ، وحالٌ إنكارٍ. والمُوقِفُ مَنْ كان قلبُهُ مُطْمَئِنًّا، اللَّهُمَّ ازْزُقْنَا طُمَأْنِينَةَ الْقُلُوبِ، وانْشِرَاحَ الصُّدُورِ يا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

٦- بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ حَيْثُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَتَلَ هَذِهِ الطُّيُورَ، وَوَزَّعَهَا عَلَى الْجِبَالِ، ثُمَّ دَعَاها، فَآتَتْ تَسْعَى، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَفِيهِ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِدَّةُ حَوَادِثَ فِيهَا إِحْيَاءُ الْمَوْتَى:

- مِنْهَا: قَوْمُ مُوسَى، أَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ، ثُمَّ بَعَثَهُمُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ.
- وَمِنْهَا: صَاحِبُ الْبَقَرَةِ، ضَرَبَ الْقَتِيلَ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ، فَحَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ.
- وَمِنْهَا: قِصَّةُ الرَّجُلِ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ، وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا.
- وَمِنْهَا: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُنَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَى لَهُ الطُّيُورَ بَعْدَ مَوْتِهَا.

٧- أَنَّ الطُّيُورَ تَفْهَمُ الدَّعْوَةَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾، لَا يُقَالُ: إِنَّ هَذَا خَاصٌّ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ. لِأَنَّ الْمَشَاهِدَ أَنَّ الْبَهَائِمَ تُدْعَى وَتُحْضَرُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١].

٨- أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وَأَنَّهُ جَلَّوَعْلَا لَا يُغْلَبُ، بَلْ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَنَّهُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَهُ الْحُكْمُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، فَلَا حَاكِمَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا حُكْمَ أَحْسَنُ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وَالْحِكْمَةُ وَأَنْوَاعُهَا وَالْحُكْمُ وَأَنْوَاعُهُ لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ سَبَقَ شَيْءٌ مِنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣١)

يَضْرِبُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَمْثَالَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ تَقْرِيْبًا لِلْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ، وَلَا يَعْقِلُ هَذِهِ الْأَمْثَالَ وَمَا تَرْمِي إِلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي إِلَّا أَهْلُ الْعِلْمِ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَيِ: فِي دِينِ اللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ؛ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُمْ جَامِعُونَ بَيْنَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَالْمُتَابَعَةِ لَشَرِيعَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ بَذَرَهَا فِي الْأَرْضِ، فَأَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، ﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾، فَالْجَمِيعُ سَبْعُ مِئَةٍ.

وَمَعَ ذَلِكَ لَا يُقْتَصَرُ عَلَى هَذَا الْعَدَدِ، بَلْ إِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُهَا إِلَى سَبْعِ مِئَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ^(١).

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أَيِ: وَاسِعٌ فِي سُلْطَانِهِ، وَاسِعٌ فِي قُدْرَتِهِ، وَاسِعٌ فِي عَطَائِهِ، وَاسِعٌ فِي كُلِّ صِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا، ﴿عَلِيمٌ﴾ أَيِ: ذُو عِلْمٍ، وَعِلْمُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَامِلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ، رَقْمُ (٦٤٩١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ، رَقْمُ (١٣١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَظْلُمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾
[الأنعام: ٥٩].

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - صَرَبُ الأمثال، ولا شكَّ أنه - أعني: صَرَبُ الأمثال - من الصَّيغِ الَّتِي تُقَرِّبُ المعاني إلى الأفهام.

٢ - عَظَمَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي بَيَانِهِ وَإِبْصَاحِهِ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٣ - أَنَّ مَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَيْسَ مَالًا لَهُ، وَلَيْسَ لَهُ وَلايَةٌ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ مِنْهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾، فلو أَنَّ أَحَدًا سَرَقَ مِنْ شَخْصٍ مَالًا، وَتَصَدَّقَ بِهِ، لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَلَوْ أَنَّهُ غَصَبَ مَالًا، فَتَصَدَّقَ بِهِ، لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ.

٤ - الْإِشَارَةُ إِلَى الْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فَمَنْ لَمْ يُخْلِصْ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، كَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، كَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

٥ - أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا حَدَّ لَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وَلَمْ يُحَدِّدْ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ»^(١).

٦ - إِبْطَاتُ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ لِلَّهِ، وَهُمَا: (وَاسِعٌ) وَ(عَلِيمٌ)، وَمَا تَضَمَّنَاهُ مِنْ صِفَةٍ، وَهِيَ السَّعَةُ فِي كُلِّ مَا يَتَّصِفُ اللَّهُ بِهِ، وَالْعِلْمُ بِكُلِّ شَيْءٍ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦١٢﴾

هذه الآية جاءت عَقِبَ الآية الأولى؛ لَأَنَّ فيها الإِشارةَ إِلَى أَنَّ الإِنْفَاقَ يَحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقًا بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّابَعَةِ، وَمَثُلُوا بِعَدَمِ الْمَنَّةِ وَالْأَذَى فِيمَنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِ. يَقُولُ عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نَقُولُ فِيهَا كَمَا قُلْنَا فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا ﴿ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ أَي: مَنًّا عَلَى مَنْ أُعْطُوا، بَأَنَّ يَظْهَرُ مِنْهُمْ الْكَلَامُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَانٌّ عَلَى الْمُعْطَى ﴿وَلَا أَذًى﴾ بَأَنَّ يَقُولُ لَهُ مَا يَتَأَذَّى بِهِ، مِثْلُ: أَنْ يَقُولَ أَمَامَ النَّاسِ: لَقَدْ أُعْطِيتُ فُلَانًا كَذَا وَكَذَا. وَهُوَ حَاضِرٌ، فَيَتَأَذَّى بِذَلِكَ.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ هِيَ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾، أَي: لَهُمْ ثَوَابُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الثَّوَابَ: أَجْرًا؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ عَمَلٍ.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِمَّا يُسْتَقْبَلُ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِمَّا مَضَى، فَلَا يَخَافُونَ أَنْ يَضِيعَ عَمَلُهُمُ الَّذِي عَمِلُوهُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا أَنْفَقُوهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ نَفْسَهُمْ طَيِّبَةٌ بِهِ.

ففي الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أَنَّ الإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ يَتَّبِعُهُ مَا يُبْطِلُهُ، وَهُوَ الْمَنُّ عَلَى الْمُعْطَى، كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وَقَدْ جَاءَ

في الحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم» كررها ثلاثاً، فقالوا: يا رسول الله، خابوا وخسروا، من هم؟ قال: «المُسْبِل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»^(١).

٢- تحريم المن والأذى؛ لأنّ المعطي قد أضاع ماله إذا أتبعه المن والأذى، وإضاعة المال محرمة؛ لأنّ النبي ﷺ نهى عن إضاعة المال^(٢).

٣- أن الله سبحانه وتعالى أضاف الأجر عنده، وهو سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً، لا بنقص من حسناته، ولا بزيادة في سيئاته.

٤- عظم منّة الله عز وجل؛ حيث سمى الثواب: أجراً. وكأنّه أمر أوجبّه الله تعالى على نفسه، كأجر الأجير الذي يحب على مستأجره.

٥- أن أولئك الذين يُنفقون أموالهم على هذا الوجه، لن يلحقهم خوف من أن تضيع نفقاتهم سدى، ولا يلحقهم حزن فيما أنفقوا؛ لأنهم إذا أنفقوا فما أنفقوه هو الربح في الحقيقة؛ لأنّه لا يبقى للإنسان من ماله إلّا ما قدّمه الله عز وجل، أمّا ما خلفه فهو للورثة.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٦) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم (٢٤٠٨)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل، رقم (٥٩٣) من حديث المغيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿قَوْلُ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (١٣٣)

قَوْلُهُ: ﴿قَوْلُ مَعْرُوفٌ﴾ مُبْتَدَأٌ، و﴿خَيْرٌ﴾ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، والقَوْلُ الْمَعْرُوفُ هُوَ: الَّذِي لَيْسَ فِيهِ سَبٌّ، وَلَا شَتَمٌ، وَلَا مُنْكَرٌ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أَي: مَغْفِرَةٌ لِّمَا قَدْ يَصْدُرُ مِّنْ مُنْعٍ، فلم يُعْطَ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَنَعَ أَحَدًا مِنَ الْعَطَاءِ فَقَدْ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ وَيَسُبُّهُ، فَاَلْمَغْفِرَةُ لِهَذَا الْمُتَكَلِّمِ مَعَ قَوْلِ الْمَعْرُوفِ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ يُتْبِعُهَا أَذَى يَتَقَدَّمُ بِهِ إِلَى هَذَا الْمُعْطَى، ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ جَلَّ وَعَلَا، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَمُنَّ عَلَى هَذَا الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ، فَيُغْنِيَهُ، ﴿حَلِيمٌ﴾ فَلَا يُعَاجِلُ بِالْعُقُوبَةِ جَلَّ وَعَلَا.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَتِمَكَّنْ مِنَ الْإِنْفَاقِ فَلْيَقُلْ قَوْلًا مَعْرُوفًا، وَلْيَتَحَمَّلْ مَا يَصْدُرُ مِّنْ حَرَمِهِ الْعَطَاءِ إِنْ تَكَلَّمَ عَلَيْهِ بِمَا يَسُوؤُهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَوْلُ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ﴾.

٢- أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُبْطِلُ عَمَلَهُ وَثَوَابَهُ فِيَمَا يُنْفِقُهُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، إِذَا أَتْبَعَهُ أَذَى لِلْمُعْطَى.

٣- أَنَّ الصَّدَقَةَ صَدَقَةٌ وَإِنْ تَبِعَهَا أَذَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ﴾، وَلَكِنَّ هَذَا الْأَذَى قَدْ يُبْطِلُ الْأَجْرَ، كَمَا سَيَأْتِي -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ.

٤- إِبْطَاتُ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ، فَلَا يَنْفَدُ مَا عِنْدَهُ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «يُدُّ اللَّهُ مَلَأَى -أَي: مُمْتَلِئَةً- سَحَاءً -أَي: كَثِيرَةً الْعَطَاءِ- اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ -أَي:

في اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ - لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ أَي: لَا يَنْقُصُهَا نَفَقَةٌ، ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ»^(١) هَكَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ غِنَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا نِهَآيَةَ لَهُ.

٥ - حِلْمُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا حَلِيمٌ، يَحْلُمُ عَلَى عَبْدِهِ، فَلَا يُعَاجِلُ بِالْعُقُوبَةِ.

وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَابِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

٦ - إِبْتَاتُ هَذَيْنِ الْأَسْمَنِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

■ الْغَنِيُّ، فَيُعْطِي عِنْدَ الْعَمَلِ، وَيُثِيبُ عَلَيْهِ.

■ الْحَلِيمُ، فَيُصْفَحُ وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الْعَبْدِ، وَيُمْهِلُهُ، لَعَلَّهُ يُجِدُّ تَوْبَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٤)

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ أَلْمَاءَ﴾، رقم (٧٤١٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة، رقم (٣٧/٩٩٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ: ﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تَكَرَّرَ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهَا: التَّنْبِيهُ، وَالْحَثُّ، وَالْإِغْرَاءُ عَلَى قَبُولِ مَا يُلْقَى؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا تُودِيَ بِهَذَا الْوَصْفِ الْجَلِيلِ انْتَبَهَ، وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرْعَهَا سَمْعَكَ، فَإِمَّا خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، وَإِمَّا شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ ^(١).

﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ أَي: لَا تُضَيِّعُوهَا سُدَى لَا تَنْفَعُكُمْ ﴿بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ أَي: بِالْمَنِّ عَلَى الْمُعْطَى، وَالْأَذَى لِلْمُعْطَى.

وهذا -أعني: إِبْطَالُ الصَّدَقَةِ- بَعْدَ أَنْ يَتَصَدَّقَ الْإِنْسَانُ، يَمُنُّ وَيُؤْذِي، وَهَنَكَ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَتَصَدَّقَ يُبْطِلُ الصَّدَقَةَ أَيْضًا.

قَالَ: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أَي: كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ مُرَاءَةً لِلنَّاسِ، أَي: لِيَرَاهُ النَّاسُ وَيَقُولُوا: مَا أَكْرَمَ هَذَا الرَّجُلُ! مَا أَكْثَرَ عَطَاءَهُ! أَوْ يَقُولُوا: مَا أَذِينَهُ، وَمَا أَحَبَّهُ لِلصَّدَقَةِ! فَهَذَا تَبْطُلُ صَدَقَتُهُ بِمَا قَارَنَهَا مِنَ الرِّيَاءِ، وَالْأَوَّلُ تَبْطُلُ صَدَقَتُهُ بِمَا أَتْبَعَهَا مِنَ الْمَنِّ وَالْأَذَى.

﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يَعْنِي: لَيْسَ عِنْدَهُ إِيمَانٌ كَامِلٌ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، هَذَا إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا فَإِنَّ إِيمَانَهُ نَاقِصٌ إِذَا رَأَى بِعَمَلِهِ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ الَّذِي يُرَائِي بِعَمَلِهِ، وَهُوَ أَضَلُّ لَيْسَ يَعْمَلُ إِلَّا رِيَاءً، فَهَذَا يَنْتَفِي عَنْهُ الْإِيمَانُ بِالْكُلِّيَّةِ.

﴿فَمَثَلُهُ﴾ أَي: مَثَلُ هَذَا الَّذِي يُنْفِقُ رِثَاءَ النَّاسِ ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ الصَّفْوَانُ: الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ الَّذِي لَا يَقَرُّ عَلَيْهِ التُّرَابُ، وَيَتَفَرَّقُ مِنْهُ. فَإِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ أَي: مَطَرٌ قَوِيٌّ، قَالَ: ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أَي: تَرَكَهُ خَالِيًا

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي الزَّهْدِ (ص: ٥٧) بِرَقْم (٣٦)، وَأَبُو عُبَيْدٍ فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ (١/ ٧٤).

من التُّراب، يَذْهَبُ كُلُّ التُّرابِ الَّذِي عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ حَجَرٌ أَمْلَسُ، وَالْمَطَرُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ
بَغْزَارَةٍ، فَيَزُولُ.

﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾؛ لِأَنَّهُ ضَاعَ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ.
وَحِينَئِذٍ تَفُوتُ الْأَرْضُ الْحِضْبَةَ بِزَوَالِ هَذَا التُّرابِ الَّذِي عَلَى الصَّفْوَانِ،
فَلَا يُنْبِتُ شَيْئًا.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لَا يَهْدِي مَنْ كَتَبَهُمْ فِي الْكُفَّارِ، كَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ
آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

- ١- أَنَّ الْمَنَّ وَالْأَذَى يُبْطَلُ ثَوَابُ الصَّدَقَةِ، وَهَذَا إِبْطَالٌ لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا.
- ٢- التَّحْذِيرُ مِنَ الْمَنِّ وَالْأَذَى بِالصَّدَقَةِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَخْرَجَ مَالَهُ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ مَنًّا
وَأَذَى، بَطَلَ ثَوَابُهُ، فَخَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.
- ٣- أَنَّ عَمَلَ الْمُرَائِي غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَلَا نَافِعٍ لَهُ، وَلَكِنْ هَلْ يَسْلَمُ مِنَ الْإِثْمِ؟
الْجَوَابُ: هُوَ لَا شَكَّ أَنَّهُ مُحْرَمٌ مِنَ الْأَجْرِ، لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَسْلَمُ مِنَ الْإِثْمِ؛
لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ الْمُرَائِينَ، وَبَيَّنَّ أَنَّ الرِّيَاءَ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا
أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ»^(١).

٤- أَنْ الْمُرَائِيَّ إِمَّا فَاقِدُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ كَالْمُنَافِقِ، وَإِمَّا نَاقِصُ الْإِيمَانِ كَالْمُؤْمِنِ يُرَائِي النَّاسَ فِي بَعْضِ الْأَعْمَالِ، فَيَكُونُ إِيْمَانُهُ نَاقِصًا.

٥- إِبْثَاتُ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يُبْعَثُ فِيهِ النَّاسُ لِلْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ.

٦- أَنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ الرِّيَاءُ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الرِّيَاءَ مُبْطِلٌ لِلْعَمَلِ، فَلَا يُرَائِي، لَكِنْ كَمَا قُلْنَا: إِنْ رَأَى فَإِنَّهُ يَنْقُصُ إِيْمَانُهُ، مَا لَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ النِّفَاقِ.

٧- ضَرْبُ الْأَمْثَالِ حَتَّى يُقَرَّبَ الْمَعْقُولُ إِلَى أَفْهَامِ الْمُخَاطَبِينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

٨- أَنَّ الْمُرَائِيَّ إِذَا أَرَادُوا الثَّوَابَ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

٩- أَنَّ مَنْ قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى كُفْرَهُ فَإِنَّهُ لَا هَادِيَ لَهُ مَعَهَا كَانَ، وَمَعَهَا بَلَغَتْ مَعَهُ الدَّعْوَةُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وَيُؤَيِّدُ هَذَا آيَاتٌ عَدِيدَةٌ، مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

١٠- أَنَّ الْهِدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذَا آمَنَ الْإِنْسَانُ بِهَذَا فَإِنَّهُ لَا يَسْأَلُ الْهِدَايَةَ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأَنَّتْ أَكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٦٥﴾﴾

هذا المثلَّ ضَرَبَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بَعْدَ أَنْ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْمُرَائِي؛ لِأَنَّ حَالَ هَؤُلَاءِ
عَكْسُ حَالِ الْمُرَائِينَ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي:
طَلَبًا لِمَرْضَاةِ اللهِ، لا يُريدون بهذا شيئًا من الدنيا، لا مَدْحًا، ولا رِئَاسَةً، ولا جَاهًا،
إنَّما يُريدونَ بذلك مَرْضَاةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: اطمئننا من أنفسهم، إِنْفَاقًا غَيْرَ مَقْرُونٍ بِشَحٍّ
أَوْ بُخْلِ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا أَنْفَقُوا وَهُمْ مُوقِنُونَ بِثَوَابِ هَذَا الْإِنْفَاقِ، لِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَتَثْبِيتًا
مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فَهُمْ يُنْفِقُونَ مُطْمَئِنَّةً نَفُوسُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ وَاثِقُونَ بِالْخَلْفِ الْعَاجِلِ،
وَبِالثَّوَابِ الْآجِلِ.

مَثَلُهُمْ ﴿كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي: بُسْتَانٍ كَثِيرِ الْأَشْجَارِ ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ أي: بِمَكَانٍ
مُّرْتَفِعٍ قَدْ تَبَيَّنَ لِلشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي: مَطَرٌ كَثِيرٌ ﴿فَتَأَنَّتْ أَكُلَهَا
ضِعْفَيْنِ﴾ يَعْنِي: زَادَتْ ثِمَارُهَا بِسَبَبِ هَذَا الْوَابِلِ الَّذِي أَصَابَهَا، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا
وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ أي: مَطَرٌ خَفِيفٌ يَحْصُلُ بِهِ رِيُّ الْأَرْضِ.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عَلِيمٌ بِكُلِّ مَا نَعْمَلُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي :

١ - أن القرآن الكريم مثاني، يعني: أنه تُثَنَّى به الأحوال والمعاني، فيذكر مثلاً أصحاب النار وأصحاب الجنة، أحوال أهل النار وأحوال أهل الجنة، أحوال المخلصين وأحوال المرائين، وهلمَّ جرّاً.

والحكمة من ذلك: أن يكون الإنسان سائراً إلى ربه سيراً مُعتدلاً؛ لأنه لو غلب جانب التخويف والوعيد لَقِنَطَ الإنسان من رحمة الله، ولو غلب جانب الرجاء والوعيد لَأَمِنَ الإنسان من مكر الله، فصار هذا القرآن يُرِيّ الناس التربية الوسطَ بين اليأس والرجاء.

٢ - الإشارة إلى الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، وهكذا ينبغي في جميع الأعمال أن يقصد بها الإنسان رضا ربه عزَّ وجلَّ.

٣ - إثبات صفة الرضا لله عزَّ وجلَّ، وهي صفة حقيقة، ولكنها ليست كرضا المخلوقين، الذي قد يخرج الإنسان بالرضا إذا قويَّ جداً إلى أمورٍ لا تُحمدُ عُقباها، بل هو رضا تامُّ كاملٌ، أعني: رضا الله عزَّ وجلَّ.

٤ - أنه ينبغي للإنسان إذا أنفق شيئاً أن يثبت نفسه، بأن يبذله بنفسٍ مطمئنةٍ مؤمنةٍ بالخلف العاجل والثواب الآجل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: يأتي بخلفه ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

٥ - الحكمة العظيمة، وهي ضربُ الأمثال؛ لِيَسْتَقِلَّ الذَّهْنُ من المحسوس إلى المعقول.

٦- الإشارةُ إلى أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الْبُسْتَانُ فِي مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ، فَهُوَ أَكْثَرُ لِإِنْتاجِهِ وَنَمَائِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَرَبَ الْأَعْلَى فِيمَا يَحْصُلُ بِهِ النَّهْءُ وَالثَّمَرَةُ.

٧- أَنَّ الْمَاءَ سَبَبٌ لِنُمُو الثَّمَارِ وَكَثْرَتِهَا، لِأَسِيْمَا السَّيْلِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق: ٩-١١].

٨- أَنَّ الْجَنَّاتِ وَالْبَسَاتِينَ قَدْ يَكْفِيهَا الطَّلُّ بَدَلًا عَنِ الْوَابِلِ، وَهَذَا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ، بَلْ أحيانًا تَشْرَبُ الْأَشْجَارُ بِعُرْوِقِهَا مِنْ نَدَى الْأَرْضِ الْأَسْفَلِ، فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِي بَعْضِ الصَّحَارِيِّ أَشْجَارٌ تَبْقَى أَشْهُرًا لَا يَأْتِيهَا الْمَطَرُ، وَمَعَ ذَلِكَ تَهْتَزُّ خَضِرَاءً.

٩- عُمُومُ عِلْمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

١٠- التَّحْذِيرُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَتَى عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَصِيرٌ بِعَمَلِهِ فَإِنَّهُ لَنْ يُخَالَفَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ.

١١- التَّرْغِيبُ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ بِهِ، وَلَا يَضِيعُ عَلَيْكَ، بَلْ يُثَبِّتُكَ عَلَيْهِ ثَوَابًا عاجِلًا، وَثَوَابًا آجِلًا.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا وَإِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣١﴾﴾

هذا الاستفهام لتقرير الحال التي يريدها الإنسان، فيقول الله عزَّ وجلَّ: أَيْحُبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ - أي: بُسْتَانٌ عَظِيمٌ - مِنْ نَخِيلٍ، وَأَعْنَابٍ، وَمِيَاهٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ مِنْ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَالْفَوَاكِهِ وَغَيْرِهَا ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا، ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ لَا يَقُومُونَ بِمَا يَنْبَغِي لِهَذِهِ الْجَنَّةِ ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ أي: إِعْصَارٌ يَحْمِلُ حَرَارَةً شَدِيدَةً ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾، هَلْ أَحَدٌ يَوَدُّ هَذَا؟!

إِنَّ الْجَوَابَ مَعْلُومٌ: أَنَّ أَحَدًا لَا يَوَدُّ هَذَا؛ لِأَنَّهُ سَيَفْقِدُ هَذِهِ الْجَنَّةَ الَّتِي هِيَ مَحَطُّ رِزْقِهِ، تُدْرِكُهُ عَلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ كَبِرَ وَصَارَ عِنْدَهُ الذَّرِّيَّةُ الضُّعَفَاءُ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتَسِبَ لَهُمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَكْتَسِبُوا لَهُ، لَا أَحَدٌ يَوَدُّ هَذَا.

فَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ يُشَبِّهُ هَذَا، وَالَّذِي يُبْطِلُ صَدَقَاتِهِ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى يُشَبِّهُ هَذَا، كَأَنَّهُ قَضَى عَلَى نَفَقَتِهِ بَرِيائِهِ أَوْ بِمَنِّهِ وَأَذْيَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وجلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - بَلَاغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي ضَرْبِ الْأَمْثَالِ الَّتِي تُشَدُّ الدَّهْنَ إِلَى الْإِصْغَاءِ لِمَا

يُلْقَى.

٢- أن الإنسان ينبغي له عند الإقناع أن يعرض المسألة التي يريد الإقناع بها بصيغة الاستفهام المقررة؛ حتى لا يستطيع المخاطب أن يحيد يمينا أو شمالا.

٣- أن أعظم ما يكون حسرة هو أن الإنسان تزهو له الدنيا إلى أبعد الحدود، ثم يصيبه ما لا يستطيع أن يدرك به ما يفوته من هذه الدنيا، ثم يصاب هذا الذي أدركه بجائحة تقضي عليه.

٤- أن الله تبارك وتعالى بين لعباده بيانا شافيا واضحا، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٥- الإشارة إلى أن الإنسان كلما بانث له الآيات بالتفكير فإنه يزداد عقلا وفهما؛ لقوله تبارك وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

٦- إثبات حكمة الله عز وجل، وأنه لا ينزل الآيات إلا لحكمة، ولا يقضي قضاء شرعيا ولا كونيا إلا لحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

٧- الثناء على التفكير، وأنه ينبغي للإنسان أن يكون مفكرا، لكن يجب أن يكون تفكيره مبنيا على آيات الله عز وجل، لا على أفكار منحرفة؛ لأن الإنسان قد يكون عنده ثقافة وتفكير، لكنه مبني على أفكار منحرفة، فيزداد ضلالا.

وإنما التفكير النافع ما كان في آيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْتَغِ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

٨- أن القرآن آيات لله عز وجل، لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا يستطيع البشر أن يأتوا بعشر سور منه، ولا يستطيع البشر أن يأتوا بسورة منه، ولا يستطيع

البَشَرُ أَنْ يَأْتُوا بآيَةٍ مِنْهُ، كُلُّ هَذَا مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ بآيَةٍ، وَلَا بِسُوْرَةٍ، وَلَا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ، وَلَا بِمِثْلِ كُلِّ الْقُرْآنِ.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَكِيمٌ﴾ (٢١٧)

هذه الآية لها علاقة بما قَبْلَهَا، وهي الأمرُ بِالْإِنْفَاقِ، بَعْدَ أَنْ مَدَحَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ، وَضَرَبَ لَهُمُ الْأَمْثَالَ، أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبُوا، وَيَعْنِي بِذَلِكَ: الْأَمْوَالَ التِّجَارِيَّةَ الَّتِي يَتَكَسَّبُ بِهَا النَّاسُ، وَيُسَمِّيهَا الْعُلَمَاءُ: عُرُوضَ التِّجَارَةِ. لِأَنَّهَا أَمْوَالٌ تَعْرِضُ، ثُمَّ تَزُولُ، لَا يُقْصَدُ بَقَاؤُهَا، وَإِنَّمَا يُقْصَدُ رِبْحُهَا.

﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: وَأَنْفَقُوا مِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، (وَمِنْ) هُنَا لِلتَّبْعِيضِ، أَي: بَعْضٍ مَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، مِثْلُ: الْحُبُوبِ وَالشَّارِ.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِشُّوا فِيهِ﴾ الْخَبِيثُ هُنَا بِمَعْنَى: الرَّدِيءِ، أَي: لَا تَقْصِدُوا الرَّدِيءَ تُنْفِقُونَ مِنْهُ، وَتُبْقُونَ لَكُمْ الْجَيْدَ؛ لِأَنَّكُمْ لَوْ كَانَ لَكُمْ حَقٌّ عِنْدَ شَخْصٍ، فَأَعْطَاكُمْ الرَّدِيءَ، لَمْ تَأْخُذُوهُ إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْإِغْمَاضِ، يَعْنِي: الْحَيَاءِ، وَالْحَجَلِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ يَعْنِي: فَلَمْ يَطْلُبْ مِنَّا جَلًّا وَلَا أَنْ نُنْفِقَ؛ لِأَنَّهُ مُحْتَاجٌ لِلتَّفَقُّةِ، بَلْ هُوَ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿حَكِيمٌ﴾ أَي: مُحْمَدٌ عَلَى مَا تَفَضَّلَ بِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَفَضَّلَ بِهَذَا الْمَالِ الَّذِي طَلَبَ مِنَّا أَنْ نُنْفِقَ مِنْهُ، فَكَيْفَ تَبْخَلُونَ؟!

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١- الْعِنَايَةُ بِمَا طُلِبَ مِنَّا، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ، وَجْهٌ ذَلِكَ: أَنَّهُ صَدَّرَ هَذَا بِاللِّدَاءِ، وَبَوَصَفَ الْإِيمَانَ لِلْمُنَادَى.

٢- وَجُوبُ زَكَاةِ عُرُوضِ التِّجَارَةِ، يَعْنِي: الْأَمْوَالِ الَّتِي أَعَدَّهَا الْإِنْسَانُ لِلتِّجَارَةِ.

وَعُرُوضُ التِّجَارَةِ قَاضِيَةٌ عَلَى غَيْرِهَا، وَلَيْسَ غَيْرُهَا قَاضِيًّا عَلَيْهَا، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَوْ كَانَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ سَائِمَةٌ مِنَ الْإِبِلِ أَوْ الْبَقَرِ أَوْ الْغَنَمِ، قَدْ أَعَدَّهَا لِلتِّجَارَةِ، فَإِنَّهَا تُزَكَّى زَكَاةَ تِجَارَةٍ وَلَوْ كَانَتْ سَائِمَةً، كَرَجُلٍ عِنْدَهُ عَشْرٌ مِنَ الْإِبِلِ يَرْعَاهَا، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْهَا تَنْمِيَةً، وَإِنَّمَا اتَّخَذَهَا لِلتِّجَارَةِ، فَنَقُولُ: زَكَاتُهَا زَكَاةُ تِجَارَةٍ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ إِذَا جَاءَ وَقْتُ الزَّكَاةِ يُقَدَّرُ قِيَمَتُهَا، وَيُخْرِجُ رُبْعَ الْعَشْرِ مِنْهَا، لَكِنْ لَوْ كَانَتْ سَائِمَةً لَقُلْنَا: عَلَيْهِ فِيهَا شَاتَانِ، قَلَّتْ قِيَمَتُهَا أَمْ كَثُرَتْ.

إِذَنْ، عُرُوضُ التِّجَارَةِ تَقْضِي عَلَى غَيْرِهَا، وَغَيْرُهَا لَا يَقْضِي عَلَيْهَا.

ثُمَّ هِيَ أَيْضًا -أَعْنِي: عُرُوضُ التِّجَارَةِ- شَامِلَةٌ لِكُلِّ مَا يُبَاعُ وَيُشْتَرَى لِلتَّكْسِبِ، مِنْ قُمَاشٍ وَأَوَانٍ وَمُعَدَّاتٍ وَأَلَاتٍ وَأَرْضٍ وَعَقَارَاتٍ وَغَيْرِهَا، كُلُّ شَيْءٍ يُعَدُّهُ الْإِنْسَانُ لِلرَّيْحِ، لَا يَقْصِدُ بَقَاءَهُ عِنْدَهُ إِلَّا لَانْتِظَارِ الرَّيْحِ، فَهَذَا عُرُوضُ تِجَارَةٍ، وَالزَّكَاةُ فِيهِ وَاجِبَةٌ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ مِنَ الْمَالِ، مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ نُحَاسٍ أَوْ رِصَاصٍ أَوْ غَيْرِ هَذَا؛ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ طَلَبَتِ مَا كَسَبَتْ﴾.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا مِقْدَارُ زَكَاتِهَا؟

قُلْنَا: مِقْدَارُ زَكَاتِهَا مِقْدَارُ زَكَاةٍ مَا يُرَادُ مِنْهَا، وَهُوَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ (النَّقْدُ)، فَفِيهَا رُبْعُ الْعَشْرِ، أَعْنِي: وَاحِدًا مِنْ أَرْبَعِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: اثْنَانِ وَنِصْفٌ فِي الْمِئَةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَكَيْفَ أَقْدَرُ قِيَمَتَهَا؟

قُلْنَا: إِذَا جَاءَ وَقْتُ الزَّكَاةِ، كَمَا لَوْ كَانَتْ زَكَاتُكَ فِي رَمَضَانَ، فَقَوِّمُهَا أَوَّلَ يَوْمٍ فِي رَمَضَانَ: كَمْ تُسَاوِي؟ وَأَدِّ الزَّكَاةَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَخْشَى أَنْ أَحَابِيَ نَفْسِي، وَأَقْدَرُ الْقِيَمَةَ أَقَلَّ مِنَ الْوَاقِعِ؟

قُلْنَا: اسْتَغْنِ بغيرِكَ مِنْ أَهْلِ الْخَبْرَةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ أَعْتَبِرُ مَا اشْتَرَيْتُ بِهِ، أَوْ مَا أَبَيْعُ بِهِ، أَوْ مَا يُسَاوِي فِي نَظَرِ النَّاسِ فِي وَقْتِ وَجوبِ الزَّكَاةِ؟

قُلْنَا: خُذْ بِالثَّالِثِ، أَيِ: بِمَا تُسَاوِي عِنْدَ وَجوبِ الزَّكَاةِ فِي نَظَرِ النَّاسِ، سِوَا مَا بَعْتَهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِأَكْثَرٍ أَوْ بِأَقَلَّ، وَسِوَا مَا كَانَ السَّعْرُ أَكْثَرَ مِمَّا اشْتَرَيْتَ بِهِ أَوْ أَقَلَّ، فَالْمُعْتَبَرُ وَقْتُ وَجوبِ الزَّكَاةِ.

فإن قال قائل: هل يُشترط تمام الحول فيما اشتراه للتجارة؟

قلنا: لا، ما اشتراه للتجارة مبني على حول ماله، فمثلاً: لو كان عند الإنسان عشرة آلاف ريال، باقية في الصندوق، زكاتها في رمضان، ثم اشترى في شعبان شيئاً للتجارة، فإنه إذا جاء رمضان يزكيه، مع أنه لم يمض عليه إلا شهر واحد؛ لأن عروض التجارة يبني بعضها على بعض في تمام الحول.

٣- أن من أنفق مالا لم يكتسبه، بأن سرقه أو نحو ذلك، فإنه غير مأثور بذلك، فلا يقبل.

ولكن لو كان الإنسان لا يعرف صاحبه، وتاب إلى الله، فماذا يصنع؟

نقول: يتصدق به عن صاحبه تخلصاً منه، لا تقرباً به إلى الله؛ لأنه لو تقرب به إلى الله لم ينفعه؛ فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.

فإذن، لا بد أن يتصدق به عن صاحبه، وحينئذ تبرأ ذمته، لكن لا يتعجل بالصدقة به، بل يتأنى حتى يئأس من صاحبه، فإذا أيس منه تصدق به، ثم إذا جاء صاحبه فيما بعد خيره، قال له: إنه قد تصدق بالمال. فإن أجازة فلا أجر له، وإن لم يجزه فلا أجر للمتصدق به، ويضمنه لصاحبه.

٤- وجوب الزكاة فيما يخرج من الأرض؛ لقوله: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ

الْأَرْضِ﴾.

وتأمل الحكمة في قوله: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، فأضاف الكسب إليهم؛

لأن هذا الكسب كان بعملهم وكدهم، وقوله: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾؛

لَأَنَّ مَا أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُخْرِجَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

٥- أَنْ جَمِيعَ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ الزَّكَاةُ، لَكِنْ لَا تَسْتَوْعِبُ الزَّكَاةُ جَمِيعَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَالَ: الْأَصْلُ أَنَّ كُلَّ مَا خَرَجَ مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ الزَّكَاةُ، إِلَّا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ.

وقال بعض أهل العلم: بل لا زكاة إلا فيما يُكَالُ ويُدَخَّرُ فقط، كالتمر والحبوب والزبيب وما أشبهها، وأمّا ما لا يُكَالُ ولا يُدَخَّرُ فلا زكاة فيه، كالبرّيق والرمّان والبادنجان والبطيخ وما أشبهها، وهذا هو المشهور من مذهب الحنابلة رَحِمَهُمُ اللَّهُ: أَنَّ الْمَدَارَ عَلَى كَوْنِهِ مَكِيلًا مُدَخَّرًا، وَمَا سِوَى ذَلِكَ لَا زَكَاةَ فِيهِ ^(١).

٦- تَحْرِيمُ إِخْرَاجِ الرَّدِيِّ عَنِ الطَّيِّبِ أَوْ الْوَسْطِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا ظَلَمٌ لِمُسْتَحِقِّ الزَّكَاةِ.

٧- أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ أَخْرَجَ الطَّيِّبَ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ مُحْمُودٌ عَلَى ذَلِكَ، وَإِخْرَاجُهُ الطَّيِّبَ مِنْ مَالِهِ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

٨- أَنَّهُ يَجُوزُ إِخْرَاجُ الْوَسْطِ، الَّذِي لَيْسَ الْأَجُودَ وَلَا الرَّدِيَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾، وَيُؤَيَّدُ هَذَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْخَذُ فِي الصَّدَقَةِ هَرِمَةٌ، وَلَا تَيْسٌ، وَلَا ذَاتُ عَوَارٍ» ^(٢)، وَقَالَ لِمُعَاذٍ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ،

(١) الإنصاف مع المقنع والشرح الكبير (٦/ ٤٩٤)، منتهى الإرادات بشرح البهوتي (٢/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب لا يؤخذ في الصدقة هرمة، رقم (١٤٥٥) من حديث

أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(١).

ثُمَّ اعْلَمْ - أَيُّهَا الْأَخُ الْمُسْلِمُ - أَنَّ مَا تُنْفِقُهُ لِنَفْسِكَ، وَلَيْسَ لغيرِكَ، فَإِذَا أُعْطِيََتِ الْفَقِيرَ الطَّيِّبَ فَإِنَّمَا أُعْطِيََتِ نَفْسَكَ؛ لِأَنَّكَ سَتَجِدُ هَذَا مُدْخَرًا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْحَلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ ۖ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨].

٩ - ضَرَبَ الْمَثَلَ الْمُقْبِعَ لِلإِنْسَانِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، يَعْنِي: لَوْ كَانَ الْحَقُّ لَكُمْ، وَأَعْطَاكُمْ الْإِنْسَانُ الرَّدِيءَ بَدَلَ الْجَيِّدِ أَوْ الْوَسَطِ، لَمْ تَأْخُذْهُ إِلَّا عَلَى إِغْمَاضٍ.

وَمِثْلُ هَذَا الْمَثَلِ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، يَعْنِي: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْحَمَ الْيَتِيمَ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ لَوْ تَرَكَ مِنْ خَلْفِهِ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافَ عَلَيْهِمْ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ حَقَّ الْيَتِيمِ، وَهَذَا مِنْ حُسْنِ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَفَصَاحَتِهِ، وَبَيَانِهِ.

١٠ - الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُعَامِلَ النَّاسَ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُعَامِلَوْهُ بِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، وَقَدْ جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - مَا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ، فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، رقم (١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(١)، وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-:
«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢).

فَيَبْغِي لَكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُعَامَلَ غَيْرَكَ بِمُعَامَلَةٍ أَنْ تَقِيسَ ذَلِكَ فِي نَفْسِكَ،
فَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تُعَامَلَ بِهَا فَعَامِلٌ بِهَا غَيْرَكَ، وَإِنْ كَرِهْتَ أَنْ تُعَامَلَ بِهَا فَلَا تُعَامَلَ بِهَا
غَيْرَكَ، وهذا الميزان هو العدل، وهو الَّذِي يُوجِبُ مَحَبَّةَ النَّاسِ لِلشَّخْصِ، واحْتِرَامَهُمْ
لَهُ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَحْتَرَمْ النَّاسَ لَمْ يَحْتَرِمْهُ النَّاسُ، وَمَنْ احْتَرَمَ النَّاسَ احْتَرَمَهُ النَّاسُ.

١١ - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ حَمِيدٌ، غَنِيٌّ وَاسِعُ الْغِنَى عَزَّوَجَلَّ، حَمِيدٌ مَحْمُودٌ عَلَى غِنَاهُ،
حَيْثُ إِنَّهُ جَلَّوَعَلَا يُجُودُ عَلَى عِبَادِهِ بِهَذَا الْغِنَى، حَمِيدٌ عَلَى عَدَمِ احتِياجِهِ لِأَحَدٍ؛ لِأَنَّهُ
غَنِيٌّ بِذَاتِهِ عَنْ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ.

١٢ - الْعِنَايَةُ بِمَعْرِفَةِ الْعَبْدِ لِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
حَكِيمٌ﴾، فَأَمَرْنَا بِالْعِلْمِ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، وَذَلِكَ لِأَهْمِيَّةِ مَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ
عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ يَزِيدُهَا الْإِيمَانُ وَيَقْوَى، وَيَعْبُدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا
عَلَى بَصِيرَةٍ.



(١) تقدم تخريجه (ص: ٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)،
ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب
لنفسه، رقم (٤٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ

وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

الشَّيْطَانُ عَدُوُّ الْإِنْسَانِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ

عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وَمِنْ عَادَاتِهِ لِبَنِي آدَمَ: أَنَّهُ يَعِدُهُمُ الْفَقْرَ، كُلَّمَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجُودَ بِمَا لَهُ

قَالَ: لَا تُخْرِجْ، فَتَبْقَى فَقِيرًا. فَيَخْلُ الْإِنْسَانُ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ وَسْوَاسَ لَهُ، وَوَعْدُهُ إِذَا أَنْفَقَ بِالْفَقْرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: يَأْمُرُكُم بِالْبُخْلِ؛ لِأَنَّ

السَّيَاقَ يَقْتَضِيهِ، وَالصَّوَابُ: أَنَّهُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّهُ يَأْمُرُ بَنِي آدَمَ بِكُلِّ فَاكِشَةٍ، مِنَ الْبُخْلِ وَالزُّنَا وَاللَّوْاطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى ابْنِ آدَمَ أَنْ يَمْنَعَ عَنْهُ الْخَيْرَ، وَأَنْ يَمْلَأَهُ بِالشَّرِّ.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ الْوَعْدَ الْحَقِيقِيَّ النَّافِعَ لِبَنِي آدَمَ، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً

مِّنْهُ﴾ بِالْإِنْفَاقِ؛ لِأَنَّ النَّفْقَةَ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ ﴿وَفَضْلًا﴾ أَيِ: زِيَادَةً عَلَى مَا عِنْدَكُمْ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»^(١).

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ سَبَقَ لَنَا مِثْلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، وَأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَاسِعٌ﴾ أَيِ:

وَاسِعُ الصِّفَاتِ، وَاسِعُ الْعِلْمِ، وَاسِعُ السُّلْطَانِ، وَاسِعُ الْقُدْرَةِ، كُلُّ صِفَاتِهِ لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ، بَلْ كُلُّهَا وَاسِعَةٌ شَامِلَةٌ، وَالْعَلِيمُ: الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - أَنَّ الشَّيْطَانَ له إرادة؛ لقوله: ﴿يَعِدُّكُمْ﴾، ﴿وَيَأْمُرُكُمْ﴾، وهذا لا يصدُرُ إِلَّا مَنْ له إرادة، وماذا يريد الشَّيْطَانُ من بني آدَمَ؟ يريد إغواءهم وإهلاكهم.
فإن قال قائل: ما العلامة؟

قلنا: العلامة إذا أَحَسَسْتَ من نَفْسِكَ من داخلها ما يَحُثُّكَ على الفَسَادِ وعلى المحرَّم فهذا هو أمر الشَّيْطَانِ، فاحذره.

وقد أَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ^(١)، وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الحُلُمَ مِنَ الشَّيْطَانِ^(٢)، وهو أن يَرَى الإنسانُ في منامِهِ ما يَكْرَهُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُرِي الإنسانَ في منامِهِ ما يَكْرَهُ؛ حَتَّى يَقُومَ حَزِينًا مَغْمُومًا، ولهذا أُمِرَ الإنسانُ إذا رَأَى في منامِهِ ما يَكْرَهُ أَنْ يَتَّقِلَ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَيَسْتَعِذَّ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ شَرَّ مَا رَأَى، وَأَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى الْجَنْبِ الْآخَرِ إِنْ أَرَادَ الاستِمْرَارَ فِي نَوْمِهِ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ له لَمَّةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ.

٢ - أَنَّكَ متى أَحَسَسْتَ عِنْدَ الإنْفَاقِ الحَشْيَةَ مِنَ الْفَقْرِ فاعْلَمْ أَنَّ هَذَا مِنْ وَعْدِ الشَّيْطَانِ؛ لقوله: ﴿يَعِدُّكُمْ الْفَقْرَ﴾.

٣ - أَنَّ أوَامِرَ الشَّيْطَانِ كُلَّهَا شَرٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾، فاحذِرِ الشَّيْطَانَ؛ فَإِنَّهُ عَدُوُّكَ أَيُّهَا الإنسانُ، كما قال اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ

(١) تقدم تخريجه (ص: ٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٩٢)، ومسلم: كتاب

الرؤيا، رقم (٢٢٦١) من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ [فاطر: ٦]، أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهُ.

٤- أَنْ مَا يَعِدُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ دَائِرٌ بَيْنَ الْمَغْفِرَةِ لِلذُّنُوبِ، وَالْفَضْلِ وَالْعَطَاءِ بِزِيَادَةِ الْمَطْلُوبِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾، فكيف كان ذلك بالنسبة للإِنْفَاقِ؟

الجواب: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَخْبَرَ أَنَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِئُ الْحَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ^(١)، وبذلك تَحْصُلُ الْمَغْفِرَةُ، وَأَخْبَرَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْقُصُ الْمَالَ^(٢)، وهذا يَعْنِي أَنَّهَا تَزِيدُهُ، وهذا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَضْلًا﴾.

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ يَجِدُونَ ذَلِكَ ظَاهِرًا فِي أَمْوَالِهِمْ، بِالْبَرَكَاتِ فِيهَا، وَدَفْعِ الْآفَاتِ عَنْهَا، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ يَقُولُ: كَيْفَ لَمْ أَنْفِقْ فِي هَذَا الشَّهْرِ إِلَّا كَذَا، أَوْ فِي هَذَا الْأُسْبُوعِ إِلَّا كَذَا؟ يَتَقَالُ مَا أَنْفَقَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِيهِ الْبَرَكَاتِ.

وَبَرَكَاتُ اللَّهِ تَعَالَى لَا نِهَايَةَ لَهَا، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَزِيدَ مَالُكَ، وَتُكَفَّرَ سَيِّئَاتُكَ، فَعَلَيْكَ بِالصَّدَقَةِ، أَعَانَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ عَلَيْهَا.

٥- أَنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، فَيُعْطِي عَلَى الْعَمَلِ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَحِقُّ الْعَامِلُ؛ لِسَعَةِ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه:

كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٤٨/٥) من حديث معاذ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٢٣٧).

فَضْلِهِ، وَعِلْمِهِ عَزَّجَلَّ بَمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ فَهُوَ يَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ امْتِثَالَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ، يَعْنِي: يَعْلَمُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلْهِدَايَةِ، فَيَهْدِيهِ، وَمَنْ لَيْسَ أَهْلًا، فَلَا يَهْدِيهِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

• • ﴿٣١﴾ • •

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٣١﴾

قَوْلُهُ: ﴿يُؤْتِي﴾ يَعْنِي: اللَّهُ عَزَّجَلَّ ﴿الْحِكْمَةَ﴾ هِيَ إِتْقَانُ الْأُمُورِ، وَتَنْزِيلُهَا مَنَازِلَهَا، وَالتَّائِي فِيهَا، وَعَدَمُ إِصْدَارِ الْأَحْكَامِ إِلَّا بَعْدَ ثُبُوتِ مُقْتَضِيَاتِهَا، وَالْقِيَامُ بِمَا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَقُومَ بِهِ بِالنِّسْبَةِ لِحَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ الْعِبَادِ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَلَكِنْ إِيَّانَ الْحِكْمَةِ مَنْ يَشَاءُ مَبْنِيٌّ عَلَى حِكْمَةٍ أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّ الَّذِي أُوتِيَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ أَهْلٌ لَذَلِكَ؛ لَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ اسْتِعْدَادَهُ لِمَا يُؤْتَى مِنَ الْحِكْمَةِ، فَيُوفِّقُهُ لَهَا.

ولهذا لما قالت قُرَيْشٌ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يَعْنِي: غَيْرَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْمُرَادُ بِالْقَرَبَيْنِ: الطَّائِفُ، وَمَكَّةُ. قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحِمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] الْجَوَابُ: لَا. وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وَكَذَلِكَ هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ إِزْثَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَهْلِهِ.

يَقُولُ عَزَّجَلَّ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، ولكن هذا إِذَا اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ أَنْ يُؤْتَى هَذَا الْحِكْمَةُ؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ أَنْ يُؤْتَى الْحِكْمَةُ، فَمَشِيئَةُ اللَّهِ تَابِعَةٌ لِحِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: مَنْ يُعْطَى الْحِكْمَةُ وَيُوفَّقُ لَهَا ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ لِأَنَّهُ سَيَسِيرُ عَلَى مِنْهَاجٍ سَلِيمٍ.
﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ أي: مَا يَتَّبَعُ بِمَوَاقِعِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ إِلَّا أَصْحَابُ الْعُقُولِ.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِالْحِكْمَةِ، فَتَجِدُ الرَّجُلَ حَكِيمًا فِي قَوْلِهِ، وَفِي فِعْلِهِ، وَفِي تَرْكِهِ، وَفِي إِقْدَامِهِ، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، مُتَأَنِّيًا، مُطَّلَعًا إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ وَإِلَى الْآثَارِ، فَيَزِنُ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَيُقَدِّمُ حَيْثُ كَانَ الْإِقْدَامُ خَيْرًا، وَيُحْجِمُ حَيْثُ كَانَ الْإِحْجَامُ خَيْرًا.

٢- إِبْطَاتُ مَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٣- تَفَاضُلُ النَّاسِ فِي هَذَا، أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى الْحِكْمَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْرَمُ الْحِكْمَةُ.

٤- أَنَّ مَنْ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا؛ لِأَنَّ أُمُورَهُ تَكُونُ مُرْتَبَةً، قَدْ تَأَنَّى فِيهَا، وَقَدْ عَلِمَ كَيْفَ يَضَعُ قَدَمَهُ، فَتَجِدُهُ قَلِيلَ الزَّلَلِ، وَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ لَيْسَ مَعْصُومًا، لَكِنْ مَنْ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ فَهُوَ أَقْلٌ زَلَلًا مِنْ غَيْرِهِ.

٥- أَنَّهُ لَا يَتَذَكَّرُ بِالْقُرْآنِ إِلَّا أَصْحَابُ الْعُقُولِ، وَالْمُرَادُ: الْعُقُولُ الرَّشِيدَةُ. فَالْعَقْلُ هُنَا عَقْلُ الرَّشِدِ، وَلَيْسَ عَقْلُ الْإِدْرَاكِ؛ لِأَنَّ عَقْلَ الْإِدْرَاكِ يَكُونُ عِنْدَ الْكُفَّارِ

وغير الكُفَّار، قد يُوجدُ في الكُفَّارِ مَنْ له عقلٌ إدراكٌ أكثرُ من كثيرٍ من المسلمين، لكنَّ المرادَ هنا: عقلُ الرُّشدِ، يعني: حُسنَ التَّصرفِ، فهؤلاءُ هم الذين يتَّعظون بكلامِ الله عزَّوجلَّ، ويتَّفعِلون به.

٦- أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله وحده الحكمة؛ لأنه إذا كان الذي يُؤتي الحكمة هو الله، فإلى مَنْ نلجأ إذا أردنا الحكمة؟ إلى الله عزَّوجلَّ.

فأنت -يا أخي المسلم- إذا أردتَ الحكمةَ فاطلبها مَنْ يَقْدِرُ على إعطائك إيَّها، ولكن مع هذا نقول: إنَّ التجاربَ لها دورٌ عظيمٌ في الوصولِ إلى الحكمة، وإنَّ مصاحبةَ العقلاء أيضًا لها دورٌ عظيمٌ في تحصيلِ الحكمة، فاعمل أنت -أيها المسلم- بدُعاءِ الله عزَّوجلَّ أن يُؤتيكَ الحكمةَ، وكذلك أيضًا بالأسبابِ الأخرى الحسنيَّة، حتَّى تصلَ إلى مُرادِكَ.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعًا من الحكماء العلماء العقلاء؛ إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ

مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧﴾﴾

الجملةُ هذه شرطيةٌ، يعني: مهما أنفقتم من نفقةٍ قليلةٍ أو كثيرةٍ فإنَّ الله تعالى يَعْلَمُها، وكونُهُ يَعْلَمُها تَبَارَكَ وَتَعَالَى يعني: أنه سيُجازي عليها؛ كما قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَنِيٌّ كَرِيمٌ، يُجَازِي الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَكْذِرٍ﴾ أَي: قُضِّمْتُمْ بِهِ مِنْ وَاجِبٍ؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ فِي الشَّرْعِ يُسَمَّى: نَذْرًا. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْأَبْرَارِ وَالْأَخْيَارِ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ أَي: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ، سِوَاءِ أَعْلَنْتُمُوهُ لِلنَّاسِ، أَوْ أَخْفَيْتُمُوهُ عَنْهُمْ.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أَي: لَيْسَ لِلظَّالِمِ الَّذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ -بِتَقْرِيبِهِ فِي الْوَاجِبِ، أَوْ انْتِهَاكِهِ لِلْمُحَرَّمِ، سِوَاءِ فِي حَقِّ اللَّهِ أَوْ فِي حَقِّ الْعِبَادِ- مِنْ أَنْصَارٍ يَنْصُرُونَهُ، أَي: يَمْنَعُونَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١- الْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي الْحَيْرِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَنْ يَضِيعَ.

٢- الْحَثُّ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَنْ يَضِيعَ.

وَلْيُعْلَمَ أَنَّ الْقِيَامَ بِالْوَاجِبِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْقِيَامِ بِالتَّطَوُّعِ؛ لِمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْقُدْسِيِّ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ

إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»^(١).

وكثيرٌ من الناسِ يظنون أنَّ النوافِلَ أَفْضَلُ من الواجباتِ، وهذا غلطٌ، بل الواجباتُ أَفْضَلُ، لكن النوافِلَ مُكَمَّلَاتٌ للواجباتِ، تُكَمِّلُ بها الفرائضَ يومَ القيامةِ.

ولْيُعَلِّمْ أَنَّ هذه الآيةَ ليست في النَّذْرِ المَعْرُوفِ، الَّذِي هُوَ إلْزَامُ الإنسانِ نَفْسَهُ بطاعةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّ هذا النَّذَرَ -الَّذِي هُوَ إلْزَامُ الإنسانِ نَفْسَهُ بطاعةِ اللَّهِ - عَقْدُهُ مَكْرُوهٌ، نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»^(٢)، وقال: «لَا يَرُدُّ شَيْئًا»^(٣).

ولكن مع ذلك لو نَذَرَ طاعةً وَجَبَ عَلَيْهِ الوفاءُ بها، أي: بما نَذَرَهُ من الطَّاعاتِ؛ لقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ»^(٤)، سواءَ عَلَّقَ هذه الطَّاعةَ على حُصُولِ مَطْلُوبٍ أو ائْتِفاءِ مَكْرُوهٍ، أو نَذَرَ نَذْرًا مُطْلَقًا غَيْرَ مُعَلَّقٍ بِشَيْءٍ.

فَمَنْ قال: إِنْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ ضَالَّتِي فَلِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ أَصُومَ شَهْرًا مَثَلًا. فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ ضَالَّتَهُ، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُوفِيَ بِالنَّذْرِ.

وَمَنْ قال: إِنْ شَفَانِي اللَّهُ فَلِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصُومَ شَهْرًا. فَعَاثَهُ اللَّهُ، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصُومَ شَهْرًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٢٤٢).

(٣) تقدم تخريجه (ص: ٢٤٢).

(٤) تقدم تخريجه (ص: ٢٤٣).

وَمَنْ قَالَ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصُومَ شَهْرًا. وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصُومَ شَهْرًا.

لَكِنْ أَصْلُ عَقْدِ النَّذْرِ مَكْرُوهٌ؛ لِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ.

وَإِنِّي أَنْصَحُ إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَثِيرًا مَا يَنْذُرُونَ إِذَا أَيْسُوا مِنْ حُصُولِ مَطْلُوبِهِمْ أَوْ انْدِفَاعِ مَكْرُوهِهِمْ، يَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا يَجْلِبُ الْخَيْرَ أَوْ يَدْفَعُ الشَّرَّ، وَهَذَا غَلَطٌ.

وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَنْذُرُونَ مُعَلِّقِينَ نُذُورَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مَا، فَيَحْصُلُ لَهُمْ مَا يُرِيدُونَ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ إِلَى بَابِ كُلِّ عَالِمٍ يَسْأَلُونَهُ التَّخْفِيفَ، لَعَلَّهُ يُسْقِطُ عَنْهُمْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمُ بِالنَّذْرِ، وَهَذَا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ، فَالْحَذَرُ الْحَذَرُ مِنَ النَّذْرِ!

وَاعْلَمْ - أَيُّهَا الْأَخُ الْمُسْلِمُ - أَنَّ الْمَرِيضَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ شِفَاءَهُ شَفَاهُ بِدُونِ نَذْرٍ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِلَّا يَشْفِيَهُ لَمْ يَشْفِهِ بِالنَّذْرِ، وَكَذَلِكَ حُصُولُ الْمَطْلُوبِ، كَحُصُولِ النَّجَاحِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، لَيْسَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ النَّذْرُ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»^(١).

٣- أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَى وَاسِعٌ، مُتَعَلِّقٌ بِأَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَفْعَالِهِ جَلَّ وَعَلَا، فَهُوَ يَعْلَمُ مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، سِوَاءَ مَنْ أَفْعَالِهِ أَوْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ.

٤- التَّحْذِيرُ مِنَ الظُّلْمِ، وَأَنَّ عَاقِبَتَهُ وَخِيمَةٌ، وَأَنَّ الظَّالِمَ لَنْ يَجِدَ لَهُ نَاصِرًا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٧١)

قوله: ﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ أي: تُظهِرُوهَا وتُبَيِّنُوهَا لِلنَّاسِ ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي: فَنِعَمَ مَا هِيَ الصَّدَقَةُ، فهي خَيْرٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، سواء أَبَدَاها الْإِنْسَانُ أَمْ أَخْفَاهَا، ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ إِخْفَاءَ الصَّدَقَاتِ أَبْعَدُ مِنَ الرِّيَاءِ، وَأَدْلَى عَلَى الْإِخْلَاصِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الْفُقَرَاءَ لَا يَبْدُو لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ فُقَرَاءُ يُتَصَدَّقُ عَلَيْهِمْ، فَتَنْكِسُرُ قُلُوبُهُمْ، فَإِذَا أُعْطِيَ الْفَقِيرُ الصَّدَقَةَ خُفِيَةً كَانَ هَذَا أَطْيَبَ لِقَبْلِهِ، وَأَبْعَدَ عَنْ ذُلِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِبْدَائِهَا، لَكِنْ الصَّدَقَةُ كُلُّهَا خَيْرٌ.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: يُكَفِّرُ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ بِصَدَقَاتِكُمْ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»^(١)، يَعْنِي: تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ.

ثُمَّ خَتَمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عَلِيمٌ، وَالْخَبْرَةُ أَبْلَغُ مِنْ مُجَرَّدِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْخَبْرَةَ هِيَ الْعِلْمُ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ، فَيُخْبِرُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ عَلِيمٌ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ، كَمَا أَنَّهُ عَلِيمٌ بِظَوَاهِرِهَا.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٤٨/٥) من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

- ١- الحثُّ على الصَّدَقَاتِ، وأنها خيرٌ بكلِّ حالٍ، سواء أُبْدِيَتْ أو أُخْفِيَتْ.
- ٢- تفاضُلُ الأَعْمَالِ، وأنَّ الأَعْمَالَ تَتَفَاوَلُ بِحَسَبِ أَعْيَانِهَا وَأَوْصَافِهَا، فَمَثَلًا: الْفَرِيضَةُ أَفْضَلُ مِنَ النَّافِلَةِ، وَالصَّلَاةُ أَفْضَلُ مِنَ الزَّكَاةِ، وَالصَّدَقَاتُ الْمُخْفَاءُ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَاتِ الْمُبْدَاةِ، ولهذا قال: ﴿إِنْ بُدِّئُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.
- وَالصَّدَقَةُ هِيَ: بَذْلُ الْمَالِ -تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لِلْفُقَرَاءِ الْمُحْتَاجِينَ لَهَا.
- ٣- أَنَّ إِخْفَاءَ الصَّدَقَاتِ أَفْضَلُ مِنْ إِظْهَارِهَا، لَكِنْ إِنْ تَرْتَّبَ عَلَى إِظْهَارِهَا مَصْلَحَةٌ أَكْبَرُ مِنْ مَصْلَحَةِ إِخْفَائِهَا صَارَ إِظْهَارُهَا أَفْضَلَ، مِثْلُ: أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ أُسْوَةً لِلنَّاسِ يَتَأَسَّوْنَ بِهِ فِي أَعْمَالِهِ، فَإِذَا أَبْدَى الصَّدَقَةَ عَلَى فَقِيرٍ مَا تَسَابَقَ النَّاسُ إِلَى هَذَا الْفَقِيرِ وَأَعْطَوْهُ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِبْدَاؤُهَا أَفْضَلَ مِنْ إِخْفَائِهَا؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ مَصْلَحَةِ الْفُقَرَاءِ.
- ٤- أَنَّ الصَّدَقَاتِ تُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ، وَالْإِنْسَانُ لَا يَخْلُو مِنْ سَيِّئَةٍ، وَكُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ، وَثَبَّتَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ^(١).
يَعْنِي: تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ.
- ٥- أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ الْأَعْمَالَ مِنَ الْإِيمَانِ؛ كَمَا دَلَّ

على ذلك الكتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ السَّلَفِ، وإذا كانتِ الأَعْمَالُ من الإيمانِ فإِنَّهَا إذا
ازْدَادَتْ - كَمِيَّةً أو كَيْفِيَّةً - ازْدَادَ الإيمانُ بلا شكٍّ.

٦- سَعَةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَشُمُولُهُ لظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنِهَا، وَمُنَاسَبَةُ ذِكْرِ
اسْمِهِ (الْحَبِيرِ) هُنَا: مِنْ أَجْلِ أَنْ يُبَيَّنَ جَلَّوَعْلًا لِعِبَادِهِ أَنَّ مَا أَخْفَوَهُ مِنَ الصَّدَقَةِ، حَتَّى
صَارَ أَمْرًا بَاطِنًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْفَقِيرُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِهِ، خَيْرٌ لَا يُخْفَى عَلَيْهِ
شَيْءٌ.

٧- التَّحْذِيرُ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَوَجْهُهُ: أَنَّكَ إِذَا آمَنْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُخَالَفَهُ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا عَمِلْتَ فَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ،
وَسَيُجَازِيكَ.

٨- أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِجَمِيعِ أَحْوَالِهِ اعْتَمَدَ عَلَيْهِ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَرَضِيَ بِمَا قَدَّرَ عَلَيْهِ، إِنَّ خَيْرًا شَكَرَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ سِوَى
ذَلِكَ صَبَرَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ،
وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ
سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١)، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُحَاطِبًا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ:

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٧٢﴾

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ يعني: لا يجب عليك أن تهدي الناس، ولا يُمَكِّنكَ ذلك، ولكن المراد بالهداية هنا: هداية التوفيق، وأمّا هداية الدلالة والإرشاد فهي على الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن هداية الدلالة والإرشاد من البلاغ، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

إذن، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أي: هدى الخلق، والمراد: هداية التوفيق.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هو الذي يهدي عز وجل ويوفق من يشاء، والمسئئة هنا تابعة للحكمة، أي: لحكمة الله، وهكذا كلما جاءت آية فيها تعليق الحكم بالمسئئة فاعلم أن ذلك مبني على الحكمة؛ لأن الله تعالى لا يشاء الشيء سفهاً، بل هو عز وجل لا يشاء إلا ما هو غاية الحكمة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ ﴿٣٨﴾ ما خلقنهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ﴾ أي: أي شيء من الخير تُنْفِقُونَهُ فهو لأنفسكم، لا يتفجع الله به؛ كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان: ١٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: ما تُنْفِقُونَ نَفَقَةً تَنْفَعُكُمْ إِلَّا مَا كَانَ يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، يَعْنِي: إِلَّا النَّفَقَةُ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَابْتِغَاءِ وَجْهِ اللَّهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِنْفَاقٌ حَقِيقَةٌ، إِنْفَاقٌ غَيْرُ ضَائِعٍ.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: أَيُّ خَيْرٍ تُنْفِقُونَهُ قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ﴿يُوفَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: تُعْطَوْنَهُ وَافِيًا مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تظْلَمُونَ﴾، حَاشَا لِلَّهِ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا مِنْ عِبَادِهِ جَلَّ وَعَلَا، فَلَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا بِنَقْصٍ حَسَنَةٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَلَا بِإِضَافَةٍ سَيِّئَةٍ إِلَى سَيِّئَاتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَمْلِكُ هِدَايَةَ الْخَلْقِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ هِدَايَةُ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وانظُرْ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - إِلَى مَا بَدَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مُحَاوَلَةٍ لِهِدَايَةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، الَّذِي نَصَرَهُ وَدَافَعَ عَنْهُ، فَحَاوَلَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَدَّرَ عَدَمَ الْهِدَايَةِ، فَإِنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، أَعْنَى: أَبَا طَالِبٍ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ كَانَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَرَجُلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: «يَا عَمُّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، وَكَانَ جَلِيسَا الشُّوْءِ مِنْ قُرَيْشٍ عِنْدَهُ يَقُولَانِ لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟! وَمِلَّةُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

ولا شكَّ أنَّ هذا يُؤثِّرُ على رَسولِ الله ﷺ، أن يكونَ عَمَّهُ أبو طالِبِ الَّذي دافَعَ عنه، وناضَلَ عنه، وشارَكَهُ حَياتَهُ، تكونُ غايَتُهُ هذه الغايةَ السيِّئةَ، فقال: «لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحْكُ عَنْكَ»، فَأَنزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وَأَنزَلَ فِي تَسْلِيَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَوْلَهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]^(١)، أي: أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلْهُدَايَةِ، فَيَهْدِيهِ، نَسَأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَهْدِيَنَا وَإِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا جَمِيعًا بِالتَّوْبَةِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٢- أَنَّهُ إِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ -وهو الْمُكَلَّفُ بِإِبْلَاجِ الرِّسَالَةِ- لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَهْدِيَ عِبَادَ اللهِ وَيُوقِفَهُمْ، فَمَنْ دُونَهُ مِنْ بَابِ أُولَى، فَإِذَا حَرِصَ الْإِنْسَانُ مَثَلًا فِي دَعْوَةِ أَقَارِبِهِ لِلْحَقِّ، وَدَعَائِهِمْ، وَبَدَّلَ مَا يَسْتَطِيعُ، وَلَكِنْ لَمْ يَحْصُلْ مُرَادُهُ، فَلَا يَحْزَنُ عَلَيْهِمْ، لَوْ شَاءَ اللهُ لَهْدَاهُمْ، لَكِنْ لَا يَيْئَسُ مِنْ هِدَايَتِهِمْ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ دَعَا شَخْصًا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَكَرَّةً بَعْدَ كَرَّةٍ، ثُمَّ هَدَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ! فَلَا يَيْئَسُ الدَّاعِيَةُ مِنْ هِدَايَةِ عِبَادِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

٣- أَنَّ الْهُدَايَةَ بِيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ سُؤَالِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ، وَلِهَذَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْنَا فَرَضًا حَتْمًا أَنْ نَسْأَلَهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ إِذَا قَالَ الْمُشْرِكُ عِنْدَ الْمَوْتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، رَقْمُ (١٣٦٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى صِحَّةِ إِسْلَامٍ مِنْ حَضَرِهِ الْمَوْتِ، رَقْمُ (٢٤) مِنْ حَدِيثِ الْمُسَيْبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الْهِدَايَةَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٥-٧].

٤- إثباتُ أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ يَكُونُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا كُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وَإِذَا كَانَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْمِلُ الْعَاقِلَ عَلَى أَنْ يَسْأَلَ الْهِدَايَةَ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ.

٥- إثباتُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَفْعَالِ الْعِبَادِ، فَكُلُّ مَنْ فَعَلَ فِعْلاً فَإِنَّا نَقُولُ: هَذَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَكُنْ. وَلِهَذَا أَجَمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَهِيَ: «مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ».

٦- أَنَّ مَا تُنْفِقُهُ مِنَ الْخَيْرِ لَا يَعُودُ نَفْعُهُ إِلَّا إِلَيْنَا، لَا إِلَى اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَنْفُسُكُمْ﴾، أَمَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَدْ قَالَ عَنْ نَفْسِهِ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»^(١).

٧- الْحُثُّ عَلَى إِنْفَاقِ الْخَيْرِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَتَى عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ - وَكُلُّ إِنْسَانٍ يُحِبُّ الْخَيْرَ لِنَفْسِهِ - أَكْثَرَ مِنَ الْإِنْفَاقِ.

٨- أَنَّ مَالَ الْإِنْسَانِ مَا قَدَّمَهُ، وَأَمَّا مَا خَلْفَهُ بَعْدَ حَيَاتِهِ فَلَيْسَ مَالَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَنْفُسُكُمْ﴾.

ولهذا سَأَلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَصْحَابَهُ، قَالَ: «أَيُّكُمْ مَالٍ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا يُحِبُّ مَالَهُ أَكْثَرَ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ.

فقال: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ»^(١).

٩- الحثُّ على الإخلاص؛ لقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾، وأما مَنْ أنفق رياءً وسُمعةً فإنه خاسِرٌ، ليس له من إنفاقه أجرٌ.

وفي الحديث الصحيح، أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قال في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ»^(٢).

والمُتَصَدِّقُ لِمُرَاةِ النَّاسِ مِنْ أَوَّلِ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فإنه يُقالُ له: إِنَّمَا تَصَدَّقْتَ أَوْ أَنْفَقْتَ لِقَوْلِ النَّاسِ: هَذَا كَرِيمٌ، أو: هَذَا جَوَادٌ. وقد قِيلَ، يعني: فَجَزَاؤُكَ مَا سَمِعْتَ مِنَ النَّاسِ.

١٠- إثباتُ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وهو كثيرٌ في القرآن، مثل: قوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَىٰ ۖ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠-١٩]، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ ۖ﴾ [١٩] وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

فَلِلَّهِ تَعَالَى وَجْهُ عَظِيمٌ، وَجْهُ كَرِيمٌ، مَوْصُوفٌ بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَجْهُ لَا يُمِائِلُ أَوْجُهَ الْمَخْلُوقِينَ جَلَّوَعَلَا، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، حِجَابُهُ جَلَّوَعَلَا النُّورُ، لو كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ -أي: بِهَاؤُهُ وَعَظَمَتُهُ- ما انتهى إليه بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ، أي: لَأَحْرَقَ كُلَّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له، رقم (٦٤٤٢) من حديث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٨٧).

بَصَرَ اللَّهِ يَنْتَهِي إِلَى كُلِّ شَيْءٍ، فلو كَشَفَ اللَّهُ حِجَابَ النُّورِ عَنْ وَجْهِهِ؛ لَأَحْرَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

ولكن لِيُعْلَمَ أَنَّ هذا في الدُّنْيَا، أمَّا في الآخِرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعِيدُ الْأَجْسَامَ إِلَى قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ تَحْتَمِلُ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، ولهذا كان من عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والْجَمَاعَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا سَلَفُ الْأُمَّةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرَى فِي الْجَنَّةِ رُؤْيَا حَقِيقَةً بِالْبَصَرِ، كما قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، وفي لَفْظٍ: «لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ» يعني: لا يَنْضَمُّ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ؛ لِإِرِيهِ الْآخَرَ؛ لِأَنَّهُ ظَاهِرٌ، لا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ نَقُولَ: انْظُرْ إِلَيْهِ، كما يَتَضَامُ النَّاسُ فِي رُؤْيَا الْهِلالِ؛ لِإِرْيَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَا رَأَاهُ.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(١)، وَيَعْنِي بِهِاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ: صَلَاةَ الْفَجْرِ، وَصَلَاةَ الْعَصْرِ؛ لِأَنَّ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَالْعَصْرُ أَفْضَلُ مِنَ الْفَجْرِ؛ لِأَنَّهَا الصَّلَاةُ الْوُسْطَى الَّتِي نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالْزَّكَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

١١ - إِبْثَاتُ الْجَزَاءِ، وَأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أَي: تُعْطَوْنَهُ وَافِيًا غَيْرَ نَاقِصٍ، بل زَائِدٌ، الْحَسَنَةُ بَعْشَرُ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

(١) تقدم تخريجه (ص: ٢١٢).

١٢- أَنَّ الْعَامِلَ لَنْ يُظْلَمَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، وَالظُّلْمُ نَوْعَانِ: إِمَّا نَقْصُ حَقٍّ وَاجِبٍ، إِمَّا إِضَافَةُ شَيْءٍ لَمْ يَقُمْ بِهِ الْإِنْسَانُ.

فَإِذَا اكْتَسَبَ الْإِنْسَانُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ أُعْطِيَ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَلَنْ تَنْقُصَ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً لَمْ يُجَازَ بِأَكْثَرٍ، وَلَا يُضَافُ إِلَيْهِ سَيِّئَةٌ، إِلَّا وَاحِدًا، وَهُوَ مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ، فَإِنَّهُ يُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا فَنِيَتْ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ مَنْ ظَلَمَهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ، نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا جَمِيعًا بِالْإِخْلَاصِ؛ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

لَمَّا بَيَّنَّ جَلَّ وَعَلَا الْإِنْفَاقَ، وَحَثَّ عَلَيْهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ، وَذَكَرَ ثَوَابَهُ، ذَكَرَ مَحَلَّ الْإِنْفَاقِ، وَهُوَ أَمْرٌ مُهِمٌّ، أَنْ تَعْرِفَ أَيْنَ تَضَعُ مَا تُنْفِقُهُ مِنَ الْمَالِ؟ حَتَّى لَا تَضَعَهُ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ، فَقَالَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾، يَعْنِي: أَنَّ الْإِنْفَاقَ يَكُونُ لِهَؤُلَاءِ الْمُوصُوفِينَ، وَهَذَا أَعْلَى أَنْوَاعِ الْمَحَلِّ، وَلِتَتَأَمَّلَ أَوْصَافَهُمْ:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ فُقَرَاءُ جَدِيرُونَ بِالصَّدَقَةِ عَلَيْهِمْ.

الوصفُ الثاني: ﴿الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: مُنِعُوا من الذَّهَابِ يَمِينًا وَشِمَالًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لَأَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ، وَذَلِكَ أَمْثَالُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَهُمْ فَقَرَاءٌ.

الوصفُ الثالثُ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لَا يَسْتَطِيعُونَ سَفَرًا فِيهَا؛ لِأَنَّ الضَّرْبَ فِي الْأَرْضِ هُوَ السَّفَرُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخْرَجُوا بِضُرِّيَّتِهِ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

الوصفُ الرابعُ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾، يَعْنِي: أَنَّ الْجَاهِلَ بِحَالِهِمُ الَّذِي لَا يَدْرِي عَنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّهُمْ أَغْنِيَاءُ؛ لِتَعَفُّفِهِمْ، وَعَدَمِ تَعَرُّضِهِمْ لِلسُّؤَالِ، وَلِكُونِهِمْ يَظْهَرُونَ مَظْهَرَ الْأَغْنِيَاءِ، فَمَنْ لَا يَدْرِي عَنْ حَالِهِمْ يَحْسَبُهُمْ أَغْنِيَاءَ.

الوصفُ الخامسُ: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾، يَعْنِي: لَيْسَ هُنَاكَ عَلَامَةٌ ظَاهِرَةٌ تُبَيِّنُ أَنَّهُمْ فَقَرَاءٌ، وَلَكِنْ عَلَامَةٌ خَفِيَّةٌ يَعْرِفُهَا صَاحِبُ الْفِرَاسَةِ.

الوصفُ السادسُ: ﴿لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾، أي: لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ، وَإِنْ اضْطُرُّوا لَمْ يَسْأَلُوا سُؤَالَ الْإِلْحَافِ، أي: سُؤَالَ الْخَاحِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ سَبَقَ نَظِيرُهَا قَرِيبًا.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ إِذَا أَنْفَقَ أَنْ يَتَحَرَّى أَحَقَّ النَّاسِ بِالنَّفَقَةِ؛ حَتَّى تَقَعَ

مَوْقِعَهَا.

٢- أَنَّ الْمُتَصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ، وَهِيَ سِتُّ صِفَاتٍ: فَقَرَاءٌ، أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيَاهُمْ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفًا.

٣- أَنَّ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ السَّفَرَ وَلَا الذَّهَابَ يَمِينًا وَشِمَالًا هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْإِنْفَاقَ.

فَيُعْلَمُ بِذَلِكَ: أَنَّ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَسَّبَ -وإن لم يكنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَالِ- لَيْسَ أَهْلًا لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّدَقَةِ: «إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِغَنِيِّي، وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ»^(١) يَعْنِي: الزَّكَاةَ، فَقَالَ: «وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ»، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ دَرَاهِمٌ؛ لِأَنَّ هَذَا غَنِيٌّ بِعَمَلِهِ، وَهَذَا يَقُولُ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾.

٤- الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْأَسْفَارَ مِنْ أَسْبَابِ الْكَسْبِ وَالْغِنَى، وَمَا أَحْسَنَ مَا قِيلَ:

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعِلَا وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَةٌ مَاجِدٌ^(٢)

الشَّاهِدُ: «وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ»، فَالْأَسْفَارُ لَطَلَبِ الرِّزْقِ مِنْ أَسْبَابِ الرِّزْقِ.

٥- أَنَّ انْجِبَاسَ الْإِنْسَانِ فِي الْبَلَدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ -يَعْنِي: لِلْعَمَلِ،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب من يعطي من الصدقة، رقم (١٦٣٣)، والنسائي: كتاب

الزكاة، باب مسألة القوي المكتسب، رقم (٢٥٩٩)، وأحمد (٤/ ٢٢٤).

(٢) البيتان للشافعي، كما في ديوانه (ص: ١٥٩).

وَالْعِبَادَةِ، وَالتَّهَيُّ لِلْجِهَادِ - مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٦- الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَفَرَّغَ لَطَلَبِ الْعِلْمِ أَوْ لِلْجِهَادِ كَانَ جَدِيرًا بِالْمَعُونَةِ.

٧- أَنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِي الْفِرَاسَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا يَخْتَلِفُونَ اخْتِلَافًا عَظِيمًا - أَي: فِي الْفِرَاسَةِ - فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِثِيَابِ الْإِنْسَانِ مِنْ أَيِّ بَلَدٍ هُوَ؟ أَوْ بِخُشُونَةِ يَدَيْهِ أَوْ نُعُومَةِ يَدَيْهِ مِنْ أَيِّ الصُّنَاعِ هُوَ؟ وَبَعْضُ النَّاسِ يَسْتَدِلُّ بِحَرَكَةِ حَدَقَةِ الْعَيْنِ عَلَى حَالِ الْإِنْسَانِ مِنْ خَوْفٍ أَوْ طُمَأْنِينَةٍ أَوْ مَا أَشَبَهُ ذَلِكَ، فَالنَّاسُ فِي هَذَا يَخْتَلِفُونَ اخْتِلَافًا عَظِيمًا، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يُوجِبُ أَنْ يُسَيِّئَ الْإِنْسَانُ الظَّنَّ بِعِبَادِ اللَّهِ.

٨- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَظْهَرَ مَظْهَرُ الْغِنَى فِي لِبَاسِهِ وَهَيْئَتِهِ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى ذَلِكَ: بَيَانُ جَهْلِ الَّذِينَ يَلْبَسُونَ خَشَنَ الثِّيَابِ، وَوَسَخَ الثِّيَابِ، وَلَا يُبَالُونَ بِثِيَابِهِمْ؛ يَزْعُمُونَ هَذَا تَعَفُّفًا، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ، وَلَمَّا قَالَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ نَعْلُهُ حَسَنًا، وَثَوْبُهُ حَسَنًا؟ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ - يَعْنِي: يُحِبُّ أَنْ يَتَجَمَّلَ الْإِنْسَانُ فِي ثِيَابِهِ وَنَعْلِهِ وَهَيْئَتِهِ - الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١)، وَهَذَا قَالَ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيان، رقم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لو قال قائل: هذا في الواقع تشبّع بما لم يُعط، كيف يُظهر نفسه بمظهر الغني، وهو فقير؟

نقول: ليس كذلك، الرجل هنا لا يريدُ مُراءاة الناس، لكن يريدُ أن يُعزّ نفسه ويرفعها عن الدّل، ورؤية أنّه فقير، وما أشبه ذلك.

٩- الثناء على من لا يسأل الناس إلحافاً ولو أحوَجته الحاجة، بل يسأل بطمأنينة وهُدوء إذا اضطرّ، وأمّا مع عدمِ الضرورة فالمسألة حرام، إلا من سأل حقاً له، فلا حرج عليه.

١٠- الحثُّ على إنفاقِ الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، فأخبرَ جلَّ وعلا أنّه علِيمٌ بذلك؛ ليحثَّ عباده على الإنفاق في الخير. نسأل الله جلَّ وعلا أن يجعلنا من أهل الجود والكرم، وأن يُمّن علينا جميعاً بمنه وكرمه؛ إنّه على كلّ شيء قدير.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٧٦﴾

يُخبرُ الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية الكريمة عن قومٍ يُنفقون أموالهم ليلاً ونهاراً، حسب ما تقتضيه الحاجة والمصلحة، و﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كذلك، أي: يُنفقونها أحياناً سِرّاً، وأحياناً علانيةً.

وَقَدَّمَ السِّرَّ عَلَى الْعَلَانِيَةِ؛ لِأَنَّهُ أَفْضَلُ، وَأَقْرَبُ إِلَى الْإِخْلَاصِ، وَلَكِنْ إِذَا اقْتَضَتْ الْحَالُ أَنْ يَكُونَ فِي الْعَلَانِيَةِ خَيْرٌ، صَارَتْ الْعَلَانِيَةُ أَفْضَلَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ.

وَلَا بُدَّ مِنْ قَيْدِ مُهِمٍّ فِي هَذَا، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْإِنْفَاقُ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فَيَنْوِي الْإِنْسَانُ بِالْإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا يُرِيدُ أَنْ يَمْدَحَهُ النَّاسُ، وَلَا أَنْ يَحْتَرِمُوهُ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ شَيْئًا وَاحِدًا، وَهُوَ وَجْهُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ آتَى بِالْفَاءِ فِي خَيْرِ الْمُبْتَدَأِ؛ لِأَنَّ اسْمَ الْمَوْصُولِ يُشْبِهُ الشَّرْطَ فِي الْعُمُومِ، فَجَازَ أَنْ يَدْخُلَ فِي خَبَرِهِ حَرْفُ الْفَاءِ؛ لِمِشَابَهَتِهِ لَهُ فِي الْعُمُومِ.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَي: ثَوَابُهُمْ، وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الثَّوَابَ: أَجْرًا؛ لِأَنَّهُ عَوَظٌ عَنْ عَمَلٍ، وَهُوَ مِنْ كَرَمِهِ جَلَّ وَعَلَا؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي يَسَّرَ الْعَمَلَ لِلْعَامِلِ، وَمَعَ ذَلِكَ جَعَلَ ثَوَابَهُ أَجْرًا لِلْعَامِلِ، كَأَنَّهُ اسْتَحَقَّه بِكَسْبِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ هَذِهِ الْعِنْدِيَّةُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الْأَجْرُ عَظِيمًا؛ لِأَنَّ مَا كَانَ عِنْدَ الْعَظِيمِ فَهُوَ عَظِيمٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَهَذَا الْأَجْرُ: الْحَسَنَةُ بَعْشَرُ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا مَضَى مِنْ أَمْرِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَخْشَوْا هَذَا الْوَقْتَ الَّذِي مَضَى عَلَيْهِمْ، فَهُمْ لَا يَحْزَنُونَ عَلَى ذَهَابِهِ؛ لِأَنَّهُمْ اغْتَنَمُوهُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - الحثُّ على الإنفاقِ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وهو أنواعٌ، منه: الواجبُ الَّذي يكونُ رُكنًا من أركانِ الإسلامِ، وهو الزَّكاةُ، ومنه: الواجبُ لحقِّ الغيرِ، كالإنفاقِ على الزَّوجةِ، وعلى الأقاربِ الَّذين تَجِبُ نفقتُهُم، ومنه: الإنفاقُ الواجبُ على الكفايةِ، كالإنفاقِ في الجهادِ في سبيلِ الله، ومنه: المُستحبُّ، والمُستحبُّ يتفاوتُ، فهو على القريبِ صدقةٌ وصلَّةٌ، وعلى الجارِ صدقةٌ وإكرامٌ جارٍ، وعلى سائرِ النَّاسِ صدقةٌ، وتتفاوتُ هذه في أجرِها تفاوتًا عظيمًا.

٢ - أنَّه لا يتقيَّدُ الإنفاقُ بوقتٍ مُعيَّن، بل يكونُ ليلًا ونهارًا، على حَسَبِ ما تقتضيه الحكمةُ والحاجةُ، فقد يقرعُ عليك البابُ رَجُلٌ مُحتاجٌ في الليلِ، فتنفقُ عليه، وقد يمرُّ بك رَجُلٌ مُحتاجٌ في النهارِ، فتنفقُ عليه.

٣ - أنَّ الصَّدقةَ مقبولةٌ، وفيها ثوابٌ، سواءٌ كانت سرًّا أم علانيةً، بشرطِ الإخلاصِ لله عزَّ وجلَّ.

٤ - أنَّ صدقةَ السرِّ أفضلُ؛ لأنَّها أقربُ إلى الإخلاصِ، وأرفقُ بالمتصدِّقِ عليه؛ حيثُ لا يَحْجُلُ أمامَ النَّاسِ، فإنَّ كثيرًا من النَّاسِ لا يَرغبُ أن تتصدَّقَ عليه أمامَ النَّاسِ.

٥ - أنَّ العلانيةَ قد تكونُ خيرًا من السرِّ، ولكن هذا مشروطٌ بحَسَبِ ما يؤدِّي إليه الإعلانُ، فقد يكونُ الإنسانُ مُعلنًا صدقتهُ؛ ليقْتدي النَّاسُ به، ويتَّسَّؤا به، فيكونُ قد سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةَ حَسَنَةٍ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ حثَّ على الصَّدقةِ ذاتِ يومٍ، فأتى رَجُلٌ بصرَّةً معه، ووضعها في حجرِ النَّبيِّ ﷺ، فقال ﷺ: «مَنْ سَنَّ في الإسلامِ

سُنَّةٌ حَسَنَةٌ فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ»^(١).

٦- تَرْتِيبُ الثَّوَابِ عَلَى الْعَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾.

٧- أَنَّ أَجْرَ الْإِنْفَاقِ أَجْرٌ كَبِيرٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وَالشَّيْءُ يُعْظَمُ بِعَظَمِ مَنْ أُضِيفَ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: عَلَّمَنِي دُعَاءً أَذْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي. قَالَ: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(٢).

٨- أَنَّ اللَّهَ أَضَافَ رُبُوبِيَّتَهُ إِلَى هَؤُلَاءِ: ﴿رَبِّهِمْ﴾؛ لِأَنَّ هَذِهِ رُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ، مُقْتَضَاهَا تَوْفِيقُ الْعَبْدِ لِلْقِيَامِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَإِلَّا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١]، فَرُبُوبِيَّتُهُ لَهُؤُلَاءِ الْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ لَا يَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ رَبًّا لغيرهم، بَلْ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ.

٩- تَطْمِينُ أَوْلَئِكَ الْمُنْفِقِينَ بِأَنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا مَضَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وَقَدَّمَ نَفْيَ الْخَوْفِ؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَقْبَلِ، وَالْحُزْنَ يَتَعَلَّقُ بِالْمَاضِي، وَالْمَاضِي قَدْ تَجَاوَزَهُ الْإِنْسَانُ، وَعَرَفَ مَا هُوَ عَلَيْهِ، لَكِنَّ الشَّأْنَ كُلَّ الشَّأْنِ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الدعوات والتعوذ، رقم (٢٧٠٥).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ والربا يعني: الزيادة، تقول: ربا المال. أي: زاد، وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]، أي: علت، والعلو زيادة.

وقوله: ﴿يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أي: يَكْسِبُونَ الرِّبَا، لكنه عبّر بالأكل؛ بناءً على الأعم الأغلب؛ لأنَّ أشدَّ شيءٍ يحتاجُهُ الإنسان في ماله هو الأكل.

قال: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ هذا خبرُ المبتدأ، أي: هؤلاء لا يقومون ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

وقوله: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ هذا فعلٌ، ولم يُبين الله تبارك وتعالى وقته، ف قيل: المعنى: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس.

وقيل: المعنى: لا يقومون - لا تجارهم بالربا، وتكالبيهم عليه - إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، يعني: كأنهم لجشعهم وطمعهم في تصرّفهم للوصول إلى الربا، كأنهم مجانين، ليس عندهم إدراكٌ، ولا عقلٌ، فهذان قولان:

القول الأول: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كالمجانين.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: لَا يَقُومُونَ لِاِكْتِسَابِ الرِّبَا، يَعْنِي: فِي تِجَارَاتِهِمْ وَسَعْيِهِمْ وَذَهَابِهِمْ وَإِيَابِهِمْ إِلَّا كَالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ؛ لِأَنَّهُمْ لَشِدَّةِ جَسَعِهِمْ وَطَمَعِهِمْ كَأَنَّهُمْ مَجَانِينُ.

وَمَعْنَى التَّخَبُّطِ: الضَّرْبُ عَلَى غَيْرِ اتِّزَانٍ، فَيَضْرِبُهُ الشَّيْطَانُ، فَيُصْرَعُ، وَيَخْتَلُ تَوَازُنُهُ وَتَفْكِيرُهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أَي: ذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، فَأَلْحَقُوا الْوَاضِحَ بِالْمُشْكِلِ، يَعْنِي: أَلْحَقُوا الْحَلَالَ الْوَاضِحَ، وَهُوَ الْبَيْعُ، فَجَعَلُوهُ مُمَازِلًا لِلرِّبَا، وَالْوَاقِعُ يَقْتَضِي الْعَكْسَ؛ فَإِنَّ حِلَّ الْبَيْعِ أَمْرٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ، لَكِنَّ هَذَا مِنْ شِدَّةِ مُجَادَلَتِهِمْ، ادَّعَوْا أَنَّ الْبَيْعَ مِثْلَ الرِّبَا، فَإِنْ كَانَ الرِّبَا حَرَامًا فَلْيَكُنِ الْبَيْعُ حَرَامًا، وَإِنْ كَانَ الْبَيْعُ حَلَالًا فَلْيَكُنِ الرِّبَا حَلَالًا، فَقَالُوا: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ أَنْ أَتَعَامَلَ بِالرِّبَا أَوْ بغيرِ الرِّبَا؟ كُلُّهُ أَخْذٌ وَعَطَاءٌ.

رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، وَهَذِهِ مُقْنَعَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ، فَهُوَ حَلَالٌ، وَحَرَّمَ الرِّبَا، فَهُوَ حَرَامٌ، وَلَهُ عَزَّوَجَلَّ الْحُكْمُ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ، وَلَا يُمَكِّنُ لَأَيِّ إِنْسَانٍ يُقَرُّ بِالْخَالِقِ أَنْ يُعَارِضَهُ فِي حُكْمِهِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ الْمَوْعِظَةُ هِيَ: الْخَبَرُ الْمَقْرُونُ بِالترْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَقَدْ يُرَادُ بِالْمَوْعِظَةِ: الْحُكْمُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨].

فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ اللَّهِ، فَاتَّعَظَ، ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي: ما مضى مما تعامل به من الربا؛ لَأَنَّهُ تَابَ إِلَى اللَّهِ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ، وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: شَأْنُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَيُحَاسِبُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: رَجَعَ إِلَى الرَّبَا ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: فأولئك العائدون أصحاب النار، أي: الملازمون لها، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى (مَنْ) مُفْرَدًا بِاعْتِبَارِ لَفْظِهَا، وَجَاءَ اسْمُ الْإِشَارَةِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ: ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - تحريم الربا، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أَنَّ اللَّهَ شَبَّهَهُمْ - أي: آكلي الربا - بِأَقْبَحِ تَشْبِيهِ؛ تَحْذِيرًا مِنْ أَكْلِ الرَّبَا.

والثاني: مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

والربا من أكبر الكبائر، لم يرد في أيِّ ذَنْبٍ دُونَ الشَّرِّكَ مِثْلُ مَا وَرَدَ فِي الرَّبَا مِنَ الْوَعِيدِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّفُوسَ تَدْعُو إِلَيْهِ، حَيْثُ إِنَّهُ يَكْتُرُ بِهِ الْمَالُ حِسًّا، وَلَكِنَّهُ يَنْقُصُ بِهِ مَعْنَى وَبَرَكَتَهُ، وَالنَّفُوسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى مَحَبَّةِ الْمَالِ، فَلِهَذَا وَرَدَ فِيهِ التَّحْذِيرُ وَالْوَعِيدُ الشَّدِيدُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلِ الزَّيَادَةُ فِي كُلِّ بَيْعٍ مَمْنُوعَةٌ؟

فالجواب: لا، إِنَّمَا الرِّبَا فِي أَشْيَاءٍ مَخْصُوصَةٍ، بَيْنَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي قَوْلِهِ: «الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، مِثْلًا بِمِثْلٍ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، يَدًا بِيَدٍ»^(١)، هذه هي الأموال الَّتِي يَجْرِي فِيهَا الرِّبَا بِالنَّصِّ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هَلْ يُلْحَقُ بِهَا غَيْرُهَا، أَوْ لَا؟

فَمَنْ مَنَعَ الْقِيَاسَ -كَالظَّاهِرِيَّةِ- قَالُوا: لَا يُلْحَقُ بِهَا غَيْرُهَا. وَعَلَى هَذَا فَلَا رِبَا فِي الرُّزِّ وَالذَّرَّةِ وَمَا أَشَبَّهَهَا؛ اقْتِصَارًا عَلَى مَا جَاءَ بِهِ النَّصُّ.

وَمَنْ أَجَازَ الْقِيَاسَ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ انْقَسَمُوا إِلَى قِسْمَيْنِ:

■ قِسْمٌ قَالَ: يُقْتَصَرُ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَافِ السَّتَّةِ. وَاحْتِجَّ لِقَوْلِهِ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي عِلَّةِ الرِّبَا، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا فِي عِلَّةِ الرِّبَا أَسْقَطْنَا كُلَّ الْخِلَافِ، وَقُلْنَا: نَبَقِيَ عَلَى النَّصِّ، فَهُوَ أَسْلَمٌ.

■ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُلْحَقُ بِهَا غَيْرُهَا، وَهُوَ مَا نَأْتِيهَا فِي الطَّعْمِ وَالْأَفْتِيَّاتِ وَالتَّقْدِيرِ.

وَعَلَى هَذَا فَجَمِيعُ النُّقُودِ -أَي: جَمِيعُ مَا يُسْتَعْمَلُ اسْتِعْمَالَ النُّقُودِ- فِيهِ الرِّبَا، سِوَاكَانٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ مَعْدِنٍ أَوْ رِصَاصٍ أَوْ صُفْرِ أَوْ وَرَقٍ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ مَوْجُودَةٌ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاقَاةِ، بَابُ الصَّرْفِ، رَقْمُ (٨١/١٥٨٧) (٨٢/١٥٨٤) مِنْ حَدِيثِ عِبَادَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وعلى هذا فلا يجري في الموزونات، كالحديد والرصاص والصُّفْرِ وما أشَبَها، وهذا هو الصحيح، أنه لا رِبَا في جميع الموزونات إلا في الذهب والفضة.

والعلة في غير الذهب والفضة هي: أنها قوتٌ مُدَّخَرَةٌ؛ لأنك إذا نظرت إلى البرِّ وجدتَ أنه قوتٌ، وأنه مُدَّخَرٌ.

وعلى هذا فلا رِبَا في الفواكه بجميع أنواعها، ولا رِبَا في البطيخ بجميع أنواعه، فلا يجوزُ للإنسان أن يبيع صاعاً من البرِّ بصاعين وإن كانت القيمة واحدة، ولا أن يبيع الذرة -لمن كانوا يفتاتونها- الصاع بالصاعين ولو كانت القيمة واحدة، ويجوزُ أن يبيع البرِّ ثقالَةً ببرِّ ثقالتين، والثفاحة بالثفاحتين، وما أشَبَه ذلك؛ لأنها ليست قوتاً ولا مُدَّخِراً، وهذا أقرب ما يكون من الأقوال: يجري الرِّبَا في الذهب والفضة والنقود مطلقاً، ويجري في المطعوم الذي يُقتات دُونَ الذي لا يُقتات.

فإن قال قائل: يَرِدُ على هذا الملح، ليس مطعوماً وَحْدَهُ، ولا مُقتاتاً؟

والجواب: أن الملح مُقتاتٌ لا إشكال فيه، ولكنه مُلَازِمٌ للطعام الذي يُدَّخَرُ؛ لأنه لا يُمْكِنُ أَكْلُ الذرة أو البرِّ إلا بملح، فألحق به من هذا الوجه.

وهنا مسألة: لو فُرِضَ أَنَّ شَخْصاً أَبْدَلَ حُلِيّاً مُسْتَعْمَلاً زِنْتَهُ مِئَةَ غَرَامٍ، بِحُلِيٍّ جَدِيدٍ زِنْتُهُ ثَمَانُونَ غَرَاماً، فهذا رِبَاً لا يجوزُ وإن كانت القيمة واحدة.

ولو أَبْدَلَ صاعاً طيباً من البرِّ بصاعين رَدِيئَيْنِ يُساويان الصاعَ في القيمة، فإنه رِبَاً لا يجوزُ.

ويدلُّ لذلك: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى إِلَيْهِ بِتَمْرٍ طَيِّبٍ، فَسَأَلَ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا؟» لَأَنَّ تَمَرَ خَيْرَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، قالوا: يا رسولَ الله، كُنَّا نَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ،

وَالصَّاعِينَ بِالثَّلَاثَةِ. فَقَالَ: «هَذَا عَيْنُ الرَّبِّ! رُدُّوهُ»، فَأَمَرَ بِرَدِّ الْبَيْعِ، وَقَالَ: «إِنَّهُ عَيْنُ الرَّبِّ!»، ثُمَّ فَتَحَ لَهُمْ مُعَامَلَةً لَيْسَ فِيهَا رَبًّا، أَمَرَهُمْ أَنْ يَبِيعُوا الرَّدِيءَ بِالْدَّرَاهِمِ، وَيَشْتَرُوا بِالْدَّرَاهِمِ جَيِّدًا^(١).

وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا تَوَافَقَ الْمُبِيعَانِ فِي الْعِلَّةِ وَالنَّوعِ فَلَا بُدَّ مِنْ شَرْطَيْنِ:
الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: التَّسَاوِي فِي الْمِغْيَارِ الشَّرْعِيِّ.
وَالثَّانِي: الْقَبْضُ قَبْلَ التَّفَرُّقِ.

وَإِذَا اتَّفَقَا فِي الْعِلَّةِ، وَاخْتَلَفَا فِي النَّوعِ، كَشَعِيرٍ بِحِنْطَةٍ، فَلَا بُدَّ مِنْ شَرْطٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ التَّقَابُضُ فِي الْمَجْلِسِ، وَلَا يَصُرُّ التَّفَاضُلُ، فَلَوْ بَاعَ صَاعًا مِنَ الْحِنْطَةِ بِصَاعَيْنِ مِنَ الشَّعِيرِ، وَتَقَابَضَا فِي الْمَجْلِسِ، فَلَا حَرَجَ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ، إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ»^(٢).

وَأَمَّا بَيْعُ الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَالتَّمْرِ وَالْمِلْحِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ بِالْدَّرَاهِمِ وَالْدَّنَانِيرِ فَلَا حَرَجَ مِنَ التَّفَرُّقِ قَبْلَ التَّقَابُضِ؛ لِأَنَّهُ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ جَوَازُ السَّلَمِ^(٣)، وَالسَّلَمُ: أَنْ يَدْفَعَ الْمُشْتَرِي دَرَاهِمَ لِلْبَائِعِ، وَيَقْبِضَ الْمُبِيعَ بَعْدَ سَنَةٍ أَوْ سَتَيْنِ، حَسَبَ مَا يَتَّفِقَانِ عَلَيْهِ. فَإِذَا كَانَ الْعَوَظُ أَحَدَ النَّقْدَيْنِ فَإِنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ التَّقَابُضُ فِي مَجْلِسِ الْعَقْدِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا باع الوكيل شيئاً فأسدأ فبيعه مردود، رقم (٢٣١٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل، رقم (١٥٩٤) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب الصرف، رقم (١٥٨٧ / ٨١) من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب السلم، باب السلم في وزن معلوم، رقم (٢٢٤٠)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب السلم، رقم (١٦٠٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٢- أَنْ آكِلِي الرَّبَا يُبْتَلَوْنَ بِالْجَشَعِ وَالطَّمَعِ، حَتَّى يَكُونُوا فِي تَصَرُّفَاتِهِمْ كَتَصَرُّفِ الْمَجْنُونِ، وَهَذَا عَلَى أَحَدِ الْمَعْنَيْنِ فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ.

أَمَّا عَلَى الْمَعْنَى الثَّانِي -أَنَّ هَذَا وَصْفٌ لِحَالِ قِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ- فففيه أَيْضًا أَنَّ آكِلِي الرَّبَا يُحْزَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ الْعَالَمِ كُلِّهِ، فَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ كَمَا يَقُومُ الْمَضْرُوعُ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

٣- شِدَّةُ التَّحْذِيرِ مِنَ الرَّبَا؛ لِأَنَّ هَذَا التَّشْبِيهَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِمُجَرَّدِ مَا يَسْمَعُهُ الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ سَوْفَ يَنْفِرُ، وَيَفِرُّ مِنَ الرَّبَا فِرَارَهُ مِنَ الْأَسَدِ.

٤- إِبْتِاثُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَتَخَبَّطُ الْإِنْسَانَ، فَيَصْرَعُهُ، وَهَذَا ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ كَمَا هُنَا، وَثَابِتٌ بِالسُّنَّةِ أَيْضًا، وَثَابِتٌ بِالْوَاقِعِ فِيمَا مَضَى مِنَ التَّارِيخِ، وَفِي الْحَاضِرِ أَيْضًا، وَلَا يَرْتَابُ أَحَدٌ فِي أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يُسَلِّطُ عَلَى الْإِنْسَانِ، فَيَتَخَبَّطُهُ وَيَصْرَعُهُ وَيُؤْذِيهِ، حَتَّى يُلْحِقَهُ بِالْمَجَانِينِ.

ولكن ما الطريق الذي يَحْمِي مِنَ الشَّيْطَانِ؟

الطَّرِيقُ هُوَ: أَنْ نَأْخُذَ بِهَدْيِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي اسْتِعْمَالِ الْأَوْرَادِ الشَّرْعِيَّةِ، مِثْلُ قِرَاءَةِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ؛ فَإِنَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ، آيَةٌ وَاحِدَةٌ تَقْرُؤُهَا تَحْمِيكَ، وَلَا يَزَالُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَوْ اسْتَأْجَرْتَ أَكْبَرَ الْحَرَّاسِ، وَأَكْثَرَ الْحَرَّاسِ، عَلَى أَنْ يَقُوكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، مَا اسْتَطَاعُوا، لَكِنَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ إِذَا قَرَأْتَهَا فِي لَيْلَةٍ مُؤْمِنًا بِمَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ فَإِنَّهَا سَتَحْمِيكَ، وَمَا أَكْثَرَ الْغَافِلِينَ عَنْ هَذَا.

كذلك قراءة المَعُودَتَيْنِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾؛
فَإِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَخْبَرَ أَنَّهُ مَا تَعُوذُ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا^(١).

كذلك أَنْ تَقُولَ إِذَا نَزَلْتَ الْبَيْتَ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ،
أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»،
فَإِنَّ مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَهَا، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ.

٥- بُطْلَانُ الْقِيَاسِ الْفَاسِدِ، وَأَنَّهُ لَا قِيَاسَ مَعَ النَّصِّ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ
الرِّبَا لَمَّا جَعَلُوا حِلَّ الرِّبَا أَبْلَغَ مِنْ حِلِّ الْبَيْعِ، قَالُوا: ﴿إِنَّمَا أَلْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾،
فَأَبْطَلَ اللَّهُ هَذَا الْقِيَاسَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ: بُطْلَانُ
الْقِيَاسِ الْمُخَالِفِ لِلنَّصِّ، وَيُسَمَّى الْقِيَاسُ الْمُخَالِفُ لِلنَّصِّ: فَاسِدَ الْإِعْتِبَارِ. يَعْنِي:
لَا عِبْرَةَ بِهِ.

٦- بُطْلَانُ حُجَّةٍ مَنْ أَرَادَ إِبْطَالَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، بِحُجَّةٍ لَا يَتِمَكَّنُ مُؤْمِنٌ مِنْ
دَفْعِهَا، وَهِيَ أَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ، فَلَا جِدَالَ بَعْدَ وَضُوحِ الْحَقِّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ
وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، وَقَدْ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ
بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ
وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ
إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْوُتْرِ، بَابُ فِي الْمَعُودَتَيْنِ، رَقْمُ (١٤٦٣)، وَالنَّسَائِيُّ: كِتَابُ الْإِسْتِعَاذَةِ،
بَابُ مَا جَاءَ فِي سُورَتِي الْمَعُودَتَيْنِ، رَقْمُ (٥٤٤٠)، وَأَحْمَدُ (١٤٤/٤) مِنْ حَدِيثِ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَصْلُهُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْمَعُودَتَيْنِ، رَقْمُ
(٨١٤).

ولَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَطْعِ يَدِ الْمَرْأَةِ الْمُخْزُومِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَسْتَعِيرُ الْمَتَاعَ مِنَ النَّاسِ، وَإِذَا جَاؤُوا يَطْلُبُونَهَا أَنْكَرَتْ، وَصَارَتْ تَجَحَّدُ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بِقَطْعِ يَدِهَا، أَهَمَّ ذَلِكَ قُرَيْشًا، أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مُخْزُومٍ مِنْ قِبَائِلِ قُرَيْشٍ تُقَطَّعُ يَدُهَا! وَطَلَبُوا مِنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنْ يَشْفَعَ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، فَشَفَعَ، وَكَلَّمَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ لَهُ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟» يَعْنِي: قَضَى اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ، فَحَمَدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْتُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ» ثُمَّ أَقْسَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ: «وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(١)، وَفَاطِمَةُ أَشْرَفُ مِنَ الْمُخْزُومِيَّةِ نَسَبًا وَدِينًا، وَهِيَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وهنا قال: «لَقَطَعْتُ يَدَهَا»، وَلَمْ يَقُلْ: لَأَمَرْتُ بِقَطْعِ يَدِهَا. يَعْنِي: هُوَ نَفْسُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يُبَاشِرُ قَطْعَ يَدِهَا.

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ عَارَضَ النَّصَّ، وَالْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ.

٧- الْوُقُوفُ عِنْدَ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ، سِوَا أَنْ أَدْرَكَ الْعَقْلُ حِكْمَتَهُ أَمْ لَمْ يُدْرِكْهَا، فَإِذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أَنْتَهَى بِلا جِدَالٍ.

٨- أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَابَ إِلَى اللَّهِ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ، وَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَوْعِظَةٍ تَصِلُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ كِرَاهِيَةِ الشَّفَاعَةِ فِي الْحَدِّ إِذَا رُفِعَ إِلَى السُّلْطَانِ، رَقْم (٦٧٨٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ قَطْعِ السَّارِقِ الشَّرِيفِ وَغَيْرِهِ، رَقْم (١٠/١٦٨٨) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَلَيْسَ فِي الْبُخَارِيِّ ذِكْرُ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَسْتَعِيرُ الْمَتَاعَ فَتَجَحَّدُ.

قَلْبُهُ، فَإِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُ مَا قَدْ سَلَفَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾، وهذا فَضْلُ اللَّهِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

بل الكُفْرُ - وهو أعظمُ من الرِّبَا - إذا تابَ الإنسانُ منه تابَ اللهُ عليه، قال اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وأخبرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ الإسلامَ يَهْدِمُ ما قَبْلَهُ^(١)، فكَذَلِكَ التَّوْبَةُ تَهْدِمُ ما قَبْلَهَا.

٩- أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَلْزِمُهُ أَنْ يُخْرِجَ مَا اكْتَسَبَهُ بِالرِّبَا بَعْدَ التَّوْبَةِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ أي: فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَوَفَّقَهُ لِلتَّوْبَةِ ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي: ما مَضَى مِنَ الرِّبَا، وَأَمَّا ما بَقِيَ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَجَنَّبَهُ، وَلَا يَأْخُذْهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «رَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رَبًّا أَضْعُ رِبَانًا رَبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(٢).

وَلَكِنْ إِذَا قُلْنَا: إِنَّ التَّائِبَ مِنَ الرِّبَا إِذَا بَقِيَ لَهُ رَبًّا فِي ذِمَّةِ النَّاسِ فَإِنَّهُ يَتْرُكُهُ، فَهَلْ يَسْقُطُ عَنْ ذِمَّةِ الَّذِي أَعْطَى الرِّبَا؟

الجواب: لَا يَسْقُطُ، بَلْ يُؤْخَذُ مِنْهُ، وَيُوضَعُ فِي بَيْتِ الْمَالِ؛ لِئَلَّا يَجْتَمِعَ لَهُ الرِّبْحُ مِنْ وَجْهَيْنِ، فَيُقَالُ: أَنْتَ أَيُّهَا الدَّائِنُ الَّذِي لَكَ الرِّبَا لَا تَأْخُذِ الرِّبَا؛ لِأَنَّكَ تُبِتَ إِلَى اللَّهِ، وَلَا تَرْجِعُ فِي تَوْبَتِكَ، لَكِنَّ هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ الرِّبَا تَصَرَّفَ بِاخْتِيَارِهِ، وَالتَّرَمَّ الرِّبَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، رقم (١٢١) من حديث عمرو ابن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

باختياره، وانتفعَ بالمالِ الذي أَخَذَهُ، فلا يُمكنُ أنْ نَجْمَعَ له بَيْنَ الْفَائِدَتَيْنِ، ونقولُ: نَأْخُذُ الرَّبَا مِنْهُ، وَنَجْعَلُهُ فِي بَيْتِ الْمَالِ.

مثال ذلك: لو أَنَّ شَخْصًا تَعَامَلَ مع شَخْصٍ، وَأَعْطَاهُ مَلِيُون رِيَالٍ عَلَى أَنْ يُسَدِّدَهُ عَلَى أَقْصَاطٍ مَلِيُونًا وَمِئَةَ أَلْفٍ، فنقولُ: أَنْتَ أَيُّهَا الدَّائِنُ لَا تَأْخُذْ إِلَّا مَلِيُونَ رِيَالٍ، وَأَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمَدِينُ فَأَعْطِ الدَّائِنَ مَلِيُونَ رِيَالٍ، وَنَأْخُذْ مِنْكَ مِئَةَ أَلْفٍ، نَجْعَلُهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ؛ لِأَنَّكَ رَاضٍ بِدَفْعِهَا، وَلَا يُمكنُ أَنْ نَجْمَعَ لَكَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، هَذَا مَا نَرَاهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

وَلَكِنْ لو أَعْطَاهُ الرَّبَا أَحَدُ الْبُنُوكِ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ فَهَلْ يَلْزَمُهُ أَنْ يَأْخُذَهُ؟
الجوابُ: لَا يَلْزَمُهُ، بَلْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَهُ؛ لِأَنَّهُ رَبًّا، نَعَمْ، إِنَّ الزَّمَوَهُ بِذَلِكَ، وَقَالُوا: لَا بُدَّ أَنْ تَأْخُذَهُ؛ لِأَنَّ حِسَابَاتِنَا تَحْتَلُّ لو رَجَعْنَاهُ. فَهَنَا يَأْخُذُهُ، وَلَكِنْ يَتَصَدَّقُ بِهِ مُخْلِصًا مِنْهُ، لَا تَقَرُّبًا بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لو أَبْقَيْنَاهُ، وَلَمْ نَأْخُذْهُ، انْتَفَعْتَ بِهِ الْأُمَمُ الْكَافِرَةُ، وَرُبَّمَا يُوجِّهُونَهُ إِلَى الْكِنَائِسِ وَمَعَابِدِ الْكُفْرِ، أَوْ إِلَى مَصَانِعِ الْأَسْلِحَةِ؛ لِيَتَقَوَّوْا بِهَا أَوْ يُقَاتِلُوا بِهَا الْمُسْلِمِينَ؟

قلنا: هَذَا مُحْتَمَلٌ، وَفِيهِ احْتِمَالٌ آخَرُ رُبَّمَا يَكُونُ أَرْجَحَ مِنْهُ: أَنْ يَضَعُوا هَذِهِ الزِّيَادَةَ الرَّبَوِيَّةَ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَتَزْدَادَ أَمْوَالُهُمْ، وَيَزْدَادَ رِبْحُهُمْ، فَالاحْتِمَالَانِ مُتَقَابِلَانِ.

ثُمَّ عَلَى فَرَضٍ أَنْ يَتَرَجَّحَ الْاحْتِمَالُ الْأَوَّلُ فَأَنَا لَمْ أُعْطِهِمْ مِنْ مَالِي شَيْئًا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مَالِي؛ إِذْ إِنَّ الْمَالَ الَّذِي أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهُ قَدْ يَصْرِفُونَهُ فِي تِجَارَةٍ تَخْسِرُ، أَوْ تَرْبِحُ أَقَلَّ مِمَّا قَدَّرُوهُ، فَلَيْسَ شَيْئًا خَارِجًا مِنِّي حَتَّى أَقُولَ: إِنِّي أَعْتُهُمْ فِي اقْتِصَادِيَّاتِهِمْ

أَوْ فِي مَعَابِدِهِمْ أَوْ فِي مَصَانِعِهِمُ الَّتِي قَدْ يَكُونُ ضَرُّهَا عَائِدًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ.
ثُمَّ إِنِّي إِذَا تَرَكْتُهَا، وَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ دِينِي يُحَرِّمُ عَلَيَّ أَخَذَهَا. فَسَازِدَادُ عِنْدَهُمْ
رِفْعَةً، وَسَيَكُونُ هَذَا مَوْضِعَ الْعَجَبِ مِنْهُمْ، وَرُبَّمَا يَكُونُ فِي هَذَا دَعْوَةٌ لِلإِسْلَامِ.
ثُمَّ إِنِّي إِذَا تَرَكْتُهَا وَتَرَكَهَا النَّاسُ أَيْضًا، فَسَيُضْطَرُّ النَّاسُ إِلَى إِنْشَاءِ مُعَامَلَاتٍ
مَضْرُوفَةٍ مُتَمَشِّئَةٍ عَلَى طَرِيقَةِ الإِسْلَامِ.
ثُمَّ إِنِّي إِذَا أَخَذْتُهَا فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الإِسْلَامَ يُحَرِّمُ الرَّبَا، بَلِ الرَّبَا مُحَرَّمٌ فِي
شُرَائِعِهِمْ، فَيَكُونُ الْمُسْلِمُونَ مَحَلَّ قَدْحٍ عِنْدَهُمْ، أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ مُبَارِزِينَ بِمُخَالَفَةِ
دِينِهِمْ، وَهُمْ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ.
وَالْحَاصِلُ: أَنَّ فِي تَرْكِهِ مَصَالِحَ، وَدَرَّةَ مَفَاسِدَ.

١٠ - أَنْ اللَّهَ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ قَالَ: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمْرُهُ
إِلَى اللَّهِ﴾، وَهَذَا فِيهِ شَيْءٌ مِنَ التَّحْذِيرِ مِنَ الرَّبَا، أَيْ: أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، فَلَا يُدْرَى.

١١ - أَنْ مَنْ عَادَ إِلَى الرَّبَا بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُ تَحْرِيمُهُ فَإِنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ الَّذِينَ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى أَكْلِ الرَّبَا، وَإِنْ كَانَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ -الَّذِي
هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ- أَنَّ أَكْلَ الرَّبَا لَا يَخْرُجُ مِنَ الإِسْلَامِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ فِي
النَّارِ، لَكِنْ يُخْشَى إِذَا نَبَتَ جِلْدُهُ عَلَى الْحَرَامِ أَلَّا تُسْتَجَابَ لَهُ دَعْوَةٌ، وَلَا تُقْبَلَ مِنْهُ
عِبَادَةٌ، فَتَكُونُ النَّارُ أَوْلَى بِهِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

١٢ - إِبْتِاثُ الْعُقُوبَةِ بِالنَّارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾، وَالنَّارُ هِيَ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ
تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ، فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ مَا يُدْمِي الْأَكْبَادَ.

١٣ - إِبْتِاثُ الْخُلُودِ فِي النَّارِ، وَهُوَ بِالنَّسْبَةِ لِلْكَافِرِينَ خُلُودٌ مُؤَبَّدٌ، ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى تَأْيِيدَهُ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٣٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٣٩﴾﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْجِنِّ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾، فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى أَصْدَقُ الْكَلَامِ، وَحُكْمُهُ فَوْقَ كُلِّ الْأَحْكَامِ، فَلَا أَحَدٌ يَنْجُرُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَحْكَامِهِ، وَإِذَا أَخْبَرَنَا جَلَّوَعَلَا أَنَّ أَهْلَ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا فَلَيْسَ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ قَوْلٌ، وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا الْآبِدِينَ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

أَجَارَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَجَعَلَنَا مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، وَخَتَمَ لَنَا بِالْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِيقَانِ، وَجَعَلَ خَيْرَ أَعْمَارِنَا آخِرَهَا، وَخَيْرَ أَعْمَالِنَا خَوَاتِمَهَا، وَخَيْرَ أَيَّامِنَا وَأَسْعَدَهَا يَوْمَ نَلْقَاهُ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٧١﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أَي: يَسْحَتُهُ وَيُزِيلُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَهَذَا يَشْمَلُ الْمَحْقَ

الْحِسِّيَّ وَالْمَحْقَ الْمَعْنَوِيَّ.

أَمَّا الْحَسِيُّ فَأَنْ يُسَلِّطَ اللَّهُ عَلَى مَالِ الْمُرَابِيِّ مَا يُفْنِيهِ وَيُتْلِفُهُ، وَأَمَّا الْمَحْقُ الْمَعْنَوِيُّ فَأَنْ يَمْحَقَ اللَّهُ بَرَكَتَهُ، حَتَّى لَا يَسْتَفِيدَ مِنْهُ صَاحِبُهُ.

وَلَمَّا كَانَ الرَّبُّ ظَلَمًا فِي الْأَصْلِ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُقَابِلُهُ مِنَ الْإِحْسَانِ، وَهُوَ الصَّدَقَاتُ، فَقَالَ: ﴿وَيَرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ أَي: يَزِيدُهَا.

وَالصَّدَقَاتُ: جَمْعُ صَدَقَةٍ، وَهِيَ كُلُّ مَا يَبْذُلُهُ الْإِنْسَانُ لِمُحْتَاجٍ يُرِيدُ بِذَلِكَ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ كَفَّارٌ أَي: بَالِغُ الْكُفْرِ. وَالْأَثِيمُ: الْآثِمُ. وَذَلِكَ لِعِنَادِهِ وَشِدَّةِ كُفْرِهِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١ - التَّحْذِيرُ مِنَ الرِّبَا، وَأَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِ، بَلْ يَمْحَقُ اللَّهُ بِهِ الْمَالَ، إِمَّا مُحَقًّا مَعْنَوِيًّا، وَإِمَّا مُحَقًّا حَسِيًّا، بِأَنْ يُسَلِّطَ اللَّهُ عَلَى الْمَالِ نَارًا تُحْرِقُهُ، أَوْ مَاءً يُغْرِقُهُ، أَوْ يَكُونُ فِي ذِمِّهِ أَنْاسٍ يُفْلِسُونَ، وَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِسْتِيفَاءُ مِنْهُمْ.

٢ - أَنْ مَنْ ابْتَغَى الشَّيْءَ عَلَى وَجْهِ مُحَرَّمٍ فَإِنَّهُ يُعَاقَبُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ، فَهَؤُلَاءِ الْمُرَابُونَ أَرَادُوا أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ، فَعُوقِبُوا بِضِدِّ مَا يُرِيدُونَ، أَي: بِمَحْقِ الرِّبَا.

وَلِذَلِكَ كَثِيرًا مَا نَرَى الْمُرَابِينَ مِنْ أَبْخَلِ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَحْيَانًا نَرَى بَعْضَهُمْ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ مَا يُتْلَفُ مَالُهُ، إِمَّا بِحَوَادِثَ وَجَوَائِحَ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي ذِمِّهِ أَنْاسٌ يَلْحَقُهُمُ الْإِعْسَارُ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْوَفَاءَ.

٣- الحثُّ على الصَّدَقَةِ، وأنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُرَبِّيهَا وَيَزِيدُهَا، وفي الحديث الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَخْبَرَ أَنَّه ما من مُسْلِمٍ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا اللهُ عَزَّجَلَّ بيمينِهِ، فِيرَبِّيَهَا كما يُرَبِّي أَحَدُنَا فَلَوْهٗ -أي: صغيرَ خَيْلِهِ- حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ^(١). وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا زِيَادَةٌ عَظِيمَةٌ، ثَمَرَةٌ تَكُونُ مِثْلَ الْجَبَلِ.

وَيَشْمَلُ الزِّيَادَةُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْمُتَصَدِّقَ يُخْلِفُ اللهُ عَلَيْهِ؛ كما قال اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وَالتَّصَدَّقُ يُنْزِلُ اللهُ لَهُ الْبَرَكَاتِ فِي مَالِهِ، فَيَفْتَحُ لَهُ مِنْ أَبْوَابِ ثُمُومِ الْمَالِ مَا يَزِيدُهُ، حَتَّى إِنْ بَعْضُهُمْ لَيَتَعَجَّبُ: مِنْ أَيْنَ جَاءَنِي هَذَا الْمَالُ؟ يَعْنِي: إِذَا رَاجَعَ دَفَاتِرَهُ فِي آخِرِ الْعَامِ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، مِنْ أَيْنَ أَتَى؟! مُصَدِّقًا لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

٤- إثباتُ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾، وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ: أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَنْفِ مَحَبَّةَ هَؤُلَاءِ إِلَّا لِثُبُوتِهَا لِمَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِهِمْ، وَلَوْ كَانَتْ مَحَبَّةُ اللهِ مُنْتَفِيَةً عَنْ كُلِّ أَحَدٍ مَا صَحَّ أَنْ تُخَصَّصَ فِي الْكَفَّارِ الْأَثِيمِ.

وَبِمِثْلِ هَذَا الاسْتِدْلَالِ اسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ﴾ أي: الْفَجَّارَ ﴿عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فَقَالَ: مَا حَجَبَ هَؤُلَاءِ فِي حَالِ الْعُصْبِ إِلَّا وَرَأَاهُ الْأَبْرَارُ فِي حَالِ الرِّضَا^(٢). وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ جَيِّدٌ لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا الْفُحُولُ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، رقم (١٤١٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٥٦٠) برقم (٨٨٣).

وَمَحَبَّةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لِلْعَبْدِ مَحَبَّةٌ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ، جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَحِبَّابِهِ.

وَأَخْطَأَ مَنْ قَالَ: إِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ يَعْنِي: إِثَابَتُهُ عَلَى عَمَلِهِ. فَإِنَّ الْإِثَابَةَ شَيْءٌ مُنْفَصِلٌ عَنِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، ثَوَابٌ مَخْلُوقٌ يَخْلُقُهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ يُكْرِمُ بِهِ مَنْ أَطَاعَهُ، وَأَمَّا الْمَحَبَّةُ فَهِيَ وَصْفٌ مُتَعَلِّقٌ بِذَاتِ الْمُحِبِّ.

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، كَيْفَ جَعَلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَتْبَاعَ النَّبِيِّ ﷺ سَبَبًا مُوجِبًا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ؟

٥- التَّحْذِيرُ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَنَّهُ سَبَبٌ لِلْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ كَفَّارٍ

أَثِيمٌ﴾.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٧٧)

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي: آمَنُوا بِكُلِّ مَا يَجِبُ الْإِيْمَانُ بِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ سَأَلَ جِبْرِيلُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْإِيْمَانِ، فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ» أي: تُؤْمِنَ بِهِ رَبًّا عَزَّجَلَّ، وتُؤْمِنَ بِهِ إِلَهًا، وتُؤْمِنَ بِهِ مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وهذه الأركان الثلاثة للإيمان بالله عَزَّجَلَّ، فهو الرَّبُّ الإلهُ الْكَامِلُ الْأَوْصَافُ.

ومن مُقْتَضَى رُبُوبِيَّتِهِ: أَنْ يَكُونَ لَهُ الْحُكْمُ فِي عِبَادِهِ كَوْنًا وَشَرْعًا، ولذلك غَلِطَ مَنْ قَالَ: إِنَّ التَّوْحِيدَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، وَتَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَتَوْحِيدُ الْحَاكِمِيَّةِ. لَأَنَّا نَقُولُ: تَوْحِيدُ الْحَاكِمِيَّةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّخْصِصِ؛ لِأَنَّ هَذَا مُقْتَضَى الرُّبُوبِيَّةِ، وَالخُرُوجُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ عُلَمَاؤُنَا مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ بَدُونِ مُسَوِّغٍ لَا يَنْبَغِي؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْبَلْبَلَةِ وَالْإِشْكَالِ، لَا سِيَّمَا فِي الْعَقِيدَةِ.

ولقد ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأَقْسَامَ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، فَقَالَ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥﴾، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هَذَا تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ هَذَا تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ هَذَا تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَلَا مَحِيدَ لَنَا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُنَا.

ونقول لِمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، مَعَ عِلْمِهِ بِحُكْمِ اللَّهِ، مُعْتَقِدًا أَنَّ مَا حَكَمَ بِهِ أَفْضَلُ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ، أَوْ أَنَّهُ مِثْلُ حُكْمِ اللَّهِ، نَقُولُ: إِنَّكَ لَمْ تُحَقِّقِ الْإِيمَانَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، بَلْ إِنَّكَ بِاعْتِقَادِكَ أَنَّهُ مِثْلُ حُكْمِ اللَّهِ أَوْ خَيْرٌ مِنْهُ كَفَرْتَ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، أي: لَا أَحَدَ أَحْسَنُ حُكْمًا مِنَ اللَّهِ، هَذَا الرُّكْنُ الْأَوَّلُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ.

الرُّكْنُ الثَّانِي: الْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ، وَالْمَلَائِكَةُ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، لَا نَعْلَمُهُمْ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمَنَا عَنْهُمْ، وَقَدْ خُلِقُوا مِنْ نُورٍ، وَلَا يَخْتَاجُونَ إِلَى أَكْلِ، وَلَا شَرِبٍ، وَلَا نَوْمٍ، وَهُمْ أَجْسَادُ ذَوُو عَقْلٍ، وَفَهُمْ، وَعِبَادَةٌ، وَتَسْبِيحٌ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا وَهَبَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَأَشْرَفُهُمْ ثَلَاثَةٌ: جِبْرِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، وَإِسْرَافِيلُ. وَهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ كَانُوا النَّبِيِّ ﷺ إِذَا اسْتَفْتَحَ صَلَاةَ اللَّيْلِ قَالَ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١).

فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً، وَهُمْ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، لَهُمْ وَظَائِفُ خَصَّصَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا.

الرُّكْنُ الثَّالِثُ: الْإِيمَانُ بِالْكِتَابِ، أَي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى رُسُلِهِ كُتُبًا، فَمَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا وَمَعَهُ كِتَابٌ يَدْعُو النَّاسَ بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وَأَشْرَفُ هَذِهِ الْكِتَابِ: هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي قَالَ عَنْهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، هَذَا الْكِتَابُ الْعَزِيزُ نَاسِخٌ لِجَمِيعِ الْكِتَابِ السَّابِقَةِ، وَالْبَشَرُ مُحَاطَبُونَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَتَحْكِيمِهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، رقم (٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الرُّكْنُ الرَّابِعُ: الإِيْمَانُ بِرُسُلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَهُمْ الْبَشَرُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى بَنِي آدَمَ، يَدْعُونَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، أَوْلَهُمْ: نُوحٌ، وَآخِرُهُمْ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا.

فَتَوْمِنْ بَنُو نُوْحٍ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَسَائِرِ الْمُرْسَلِينَ.

وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرُّسُلِ، وقد ذَكَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي مَوَاضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

الرُّكْنُ الْخَامِسُ: الإِيْمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْيَوْمُ الْآخِرُ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَسُمِّيَ آخِرًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ؛ إِذْ إِنَّ الْخَلِيقَةَ تَنْتَهِي، إِمَّا إِلَى جَنَّةٍ وَإِمَّا إِلَى نَارٍ، وَهُوَ الْمَثْوَى الْآخِرُ، وَلَيْسَ الْمَثْوَى الْآخِرُ الْقَبْرُ، بَلِ الْقَبْرُ زِيَارَةٌ وَمَعْرُ، سَمِعَ أَغْرَابِيٌّ رَجُلًا يَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى ذُرِّمَ الْمَقَابِرُ ﴿[التكاثر: ١-٢]﴾، يَعْنِي: حَتَّى مُتُّمْ. فَأَقْسَمَ هَذَا الْأَغْرَابِيُّ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا الزَّائِرُ بِالْمُقِيمِ. يَعْنِي: بَلِ وِرَاءَ تِلْكَ الزَّيَارَةِ يَوْمٌ آخَرُ.

يَوْمُ الْقِيَامَةِ ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَذَكَرَ مَا يَكُونُ فِيهِ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِكُلِّ مَا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَوْ صَحَّ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ فِيهِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ عَلَيْنَا يَسِيرًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: وَمِنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ^(١). حَتَّى وَإِنْ كَانَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَالْإِنْسَانُ بَعْدَ الْمَوْتِ يَنْتَقِلُ إِلَى عَالَمٍ الْآخِرَةِ، يَنْتَقِلُ إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ مِنْ دَارِ الْعَمَلِ، فَلَا رَجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا.

لَكِنْ قَدْ يَقَعُ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى فِي الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ الْآيَةِ وَالْإِعْتِبَارِ، كَمَا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الرُّكْنُ السَّادِسُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ: الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ أُمُورٍ أَرْبَعَةٍ:

١- أَنْ تُؤْمِنَ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

٢- وَأَنْ تُؤْمِنَ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ.

٣- وَأَنْ تُؤْمِنَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، لَمْ يَخْرُجْ عَنْ مَشِيئَتِهِ شَيْءٌ.

٤- وَأَنْ تُؤْمِنَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، أَي: مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَلَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْأَرْبَعَةِ، وَإِذَا تَمَّ الْإِيمَانُ بِهَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فَقَدْ تَمَّ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ.

وقوله: «خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»؛ لَأَنَّ الْمَقْدُورَ قِسْمَانِ: قِسْمٌ فِيهِ خَيْرٌ، وَقِسْمٌ فِيهِ شَرٌّ. فَتُؤْمِنُ بِهَذَا وَهَذَا، وَأَنَّ كُلَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

هذه أركان الإيمان الستة الداخلة في قولِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ، فَمَتَى تَكُونُ الْأَعْمَالُ صَالِحَاتٍ؟

تَكُونُ الْأَعْمَالُ صَالِحَاتٍ إِذَا تَضَمَّنَتْ شَيْئَيْنِ:

الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَالثَّانِي: الْمُتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

أَمَّا الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فَأَلَّا يُرِيدَ الْإِنْسَانُ بِعَمَلِهِ الَّذِي يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ بِهِ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ، فَلَا يَتَعَبَّدُ رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً، وَلَا طَلَبًا لِحَاثٍ، وَلَا طَلَبًا لِرِثَاسَةٍ، وَلَا طَلَبًا لِمَالٍ، وَإِنَّمَا يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ تَعَالَى طَلَبًا لَوَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَالْوُصُولِ إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُ مُوَافِقَةً لِشَرِيعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى وَفْقِ مَا شَرَعَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

فَبِالْأَمْرِ الْأَوَّلِ - أَعْنِي: الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ - يَنْتَفِي الشُّرْكُ، وَبِالْثَّانِي - وَهُوَ الْمُتَابَعَةُ - تَنْتَفِي الْبِدْعَةُ، فَمَنْ عَمِلَ لِلَّهِ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ فَهُوَ بَاطِلٌ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ»^(١).

وبالثاني - وهو مُتَابِعَةُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - يَنْتَهِي الْإِبْتِدَاعُ،
فَمَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ تَعَالَى بِبِدْعَةٍ - أي: بِعِبَادَةٍ لَمْ يَشْرَعْهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَسَلَّمَ - فِعْبَادَتُهُ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ
عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١) أي: مَرْدُودٌ عَلَيْهِ.

إِذَنْ، الْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا اجْتَمَعَ فِيهِ شَيْئَانِ:

الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ.

وَالثَّانِي: الْمُتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

فَهَذَانِ وَصَفَانِ: الْإِيْمَانُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ.

الْوَصْفُ الثَّلَاثُ: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، وَالصَّلَاةُ: هِيَ التَّعَبُّدُ لِلَّهِ تَعَالَى بِأَقْوَالٍ
وَأَفْعَالٍ مَعْلُومَةٍ، مُفْتَتِحَةٌ بِالتَّكْبِيرِ، وَمُخْتَمَةٌ بِالتَّسْلِيمِ.

وإقامة الصلاة: الإتيانُ بها على وَجْهِ مُسْتَقِيمٍ، وَذَلِكَ بِكَوْنِهَا خَالِصَةً لِلَّهِ،
مُتَابَعًا فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

وَالصَّلَوَاتُ مَعْرُوفَةٌ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ خَاصَّتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ، وَهِيَ
خَمْسُ صَلَوَاتٍ: الْفَجْرُ، وَالظُّهْرُ، وَالْعَصْرُ، وَالْمَغْرِبُ، وَالْعِشَاءُ. هَذِهِ هِيَ الصَّلَوَاتُ
الْوَاجِبَةُ، وَيَكُونُ بَدَلُ الظُّهْرِ - أي: فِي وَقْتِ الظُّهْرِ - تَكُونُ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ فِي يَوْمِ
الْجُمُعَةِ.

وإقامتها: أَنْ تَأْتِيَ بِهَا مُسْتَقِيمَةً عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ.

(١) تقدم تخريجه (ص: ١١٢).

وهي -أعني: الصلاة- أعظمُ شرائعِ الدينِ بعدَ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، وهذا مُتَّفَقٌ عليه بينَ أَهْلِ الْعِلْمِ، ولا يَكْفُرُ أَحَدٌ بِتَرْكِ شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا الصَّلَاةَ؛ كما قالَ عبدُ اللهِ بنُ شَقِيقٍ: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرَكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ^(١).

وكُفْرُ تَارِكِ الصَّلَاةِ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَكَاهُ إِجْمَاعُهُمْ، أَي: أَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا مَا سِوَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فَإِنَّ تَرْكَهُ لَا يَكُونُ كُفْرًا، فَمَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعِيدِ مَثَلًا لَمْ يَكْفُرْ، وَمَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْكُسُوفِ لَمْ يَكْفُرْ، وَمَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْاسْتِسْقَاءِ لَمْ يَكْفُرْ، وَمَنْ تَرَكَ الْوِتْرَ لَمْ يَكْفُرْ، وَإِنْ دَاوَمَ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَا عَدَا الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ لَا كُفْرَ فِي تَرْكِهِ.

وَلْيُعْلَمَنَّ أَنَّهُ لَا يَخْلُو الْمُسْلِمُ مِنْ تَقْصِيرٍ فِي صَلَاتِهِ، وَلِهَذَا مَنَّ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ بِمَشْرُوعِيَةِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِصَّلَوَاتٍ يَتَطَوَّعُ فِيهَا الْعَبْدُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، فَمَثَلًا: الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ لَهَا رَوَاتِبٌ: أَرْبَعٌ قَبْلَ الظُّهْرِ بِسَلَامَيْنِ، وَرَكْعَتَانِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، وَرَكْعَتَانِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَرَكْعَتَانِ قَبْلَ الْفَجْرِ. فَهَذِهِ اثْنَتَا عَشْرَةَ رَكْعَةً، مَنْ صَلَّاهُنَّ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ.

وَأَكْثُ هَذِهِ الرَّوَاتِبِ: رَاتِبَةُ الْفَجْرِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَانَ لَا يَدْعُهَا حَضْرًا وَلَا سَفَرًا^(٢)، وَأَمَّا الظُّهْرُ وَالْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ فَكَانَ ﷺ لَا يُصَلِّي

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب المداومة على ركعتي الفجر، رقم (١١٥٩) من حديث

عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

رَوَاتِبَهَا فِي السَّفَرِ^(١).

وُسُنَّةُ الْفَجْرِ تَمَازُ عَنْ غَيْرِهَا بِأَنَّهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «رَكَعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(٢).

وَتَمَازُ عَنْ غَيْرِهَا بِأَنَّ السُّنَّةَ تُخَفِّفُهَا، أَي: يُخَفِّفُ هَاتَيْنِ الرَّكَعَتَيْنِ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يُخَفِّفُهَا، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَقْرَأُ بِأَمِّ الْكِتَابِ؟^(٣).

ومنها: أَنَّ لَهَا قِرَاءَةً خَاصَّةً بَعْدَ الْفَاتِحَةِ: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُوتُ﴾ فِي الْأُولَى، وَ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١١٣) آيَةُ الْبَقَرَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، يَقْرَأُ هَذَا تَارَةً، وَهَذَا تَارَةً، وَإِنْ قَرَأَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا حَرَجَ، لَكِنَّ السُّنَّةَ أُولَى.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التقصير، باب من لم يتطوع في السفر دبر الصلاة وقبلها، رقم (١١٠١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، رقم (٦٨٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم (٧٢٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب ما يقرأ في ركعتي الفجر، رقم (١١٧١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم (٧٢٤).

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: أَعْطُوا الزَّكَاةَ مُسْتَحِقَّهَا.

وَالزَّكَاةُ هِيَ: نَصِيبٌ مَفْرُوضٌ فِي الْأَمْوَالِ الزَّكَوِيَّةِ، يَتَطَوَّعُ بِهِ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ، أَيْ: يَفْعَلُهُ طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِهِ، وَهُوَ -أَعْنِي: إِيْتَاءُ الزَّكَاةِ- رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي الْمُسْتَحِقِّينَ لَهُ.

وَالْأَمْوَالُ الزَّكَوِيَّةُ هِيَ: الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَالثَّمَارُ وَالْحُبُوبُ، وَسَائِمَةُ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، وَعُرُوضُ التِّجَارَةِ.

وَأَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ مِنَ الْفَوَاكِهِ، وَالْأَشْجَارِ، وَالْحَيَوَانِ غَيْرِ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، وَالْأَنْثَاثِ، وَالسَّيَّارَاتِ، وَالْمَكَائِنِ، وَمَا أَشْبَهَهَا، فَلَيْسَ فِيهَا زَكَاةٌ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مُعَدَّةً لِلتِّجَارَةِ، فَإِنَّهَا إِذَا أُعِدَّتْ لِلتِّجَارَةِ تَكُونُ عُرُوضَ تِجَارَةٍ، وَفِيهَا زَكَاةٌ.

وَأَمَّا مُسْتَحِقُّوهَا -أَعْنِي: الزَّكَاةَ- فَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُؤُهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَعْلُومَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الْجُمْلَةُ هَذِهِ خَبَرٌ (إِنَّ)، وَالْمَعْنَى: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُؤَصِّفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وَالْأَجْرُ يَعْنِي: الثَّوَابَ، وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الثَّوَابَ: أَجْرًا؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابِلِ عَمَلٍ، فَهُوَ كَأَجْرِ الْأَجِيرِ، وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَرَّمَهُ.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الثَّوَابَ الَّذِي يَجْعَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادَةِ لَيْسَ عِوَضًا عَنْهَا حَقِيقَةً، وَلَكِنَّ الْعَمَلَ سَبَبٌ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «لَنْ يَدْخُلَ

الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»^(١).

وَالثَّوَابُ عَلَى الْعَمَلِ إِنَّمَا وَضَعَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، فَهُوَ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَإِلَّا لَكَانَتْ نِعْمَتُهُ -الَّتِي هِيَ تَتَرَى عَلَيْنَا- أَكْثَرَ مِنْ أَعْمَالِنَا، فَلَوْ نُوقِشْنَا الْحِسَابَ لَهَلَكْنَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ هَذِهِ الْأَعْمَالَ سَبَبًا لِلثَّوَابِ الَّذِي رَتَّبَهُ عَلَيْهَا.

ومن فوائد هذه الآية ما يلي:

١ - عِظَمُ هَذَا الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وَالْعِنْدِيَّةُ الْمُضَافَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ تَقْتَضِي التَّعْظِيمِ، وَلِهَذَا يُوصَفُ الْأَجْرُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ بِأَنَّهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ، وَأَنَّهُ أَجْرٌ كَبِيرٌ، وَأَنَّهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ.

٢ - أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمَوْصُوفِينَ بِالصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ -الْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ- لَيْسَ عَلَيْهِمْ خَوْفٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَلَا مِنْهُمْ حُزْنٌ فِيهَا مَضَى، لَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا مَضَى؛ لِأَنَّهُمْ اكْتَسَبُوا فِيهِ الْخَيْرَ، وَصَرَفُوهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا يَخَافُونَ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وَهُنَا قَالَ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿يَتَّيْنَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّيْنَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هَذَا نِدَاءٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَتَّيْنَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرَعَهَا سَمْعَكَ، فَإِمَّا خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، وَإِمَّا شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ ^(١).

وَوَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى حَالَ النِّدَاءِ بِالْإِيمَانِ؛ حَثًّا لَهُمْ عَلَى قَبُولِ مَا يُخَاطِبُهُمْ بِهِ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ حَقِيقَةً أَنْ يَتَلَقَّى الْإِنْسَانُ أَوْامِرَ اللَّهِ وَنَوَاهِيَهُ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَيَتَلَقَّى أَخْبَارَهُ بِالتَّصْدِيقِ وَالْإِقْرَارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ﴾ هَذَا مَا وَجَّهَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا، وَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهَا: إِنَّهَا اتِّخَاذُ وَقَايَةٍ مِنْ عَذَابِهِ جَلَّ وَعَلَا، بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ. هَذِهِ هِيَ التَّقْوَى، يَعْنِي: أَنْ تَقُومَ بِأَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَنْتَهِيَ عَنْ مَنَاهِي اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلِهَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقْوَى	خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا
ضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى	وَاعْمَلْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْ
إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى ^(٢)	لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً

(١) تقدم تخريجه (ص: ٣١٥).

(٢) تقدم (ص: ١٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أي: اتركوه عند من عاملتموه به، أي: لا تأخذوا منه شيئاً، فإذا كان لكم رباً عند أحدٍ فلا تأخذوه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقاً، فاتركوا هذا الربا؛ لأنَّ المؤمنَ حقاً هو الذي يُقدِّم طاعةَ الله عزَّ وجلَّ على ما تهواه نفسه، فتجده في عراكٍ مع نفسه: هل يترك هذا، أو لا يتركه؟ فالمؤمن حقاً يتركه، ويغلب هواه؛ لأنه مؤمنٌ.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي: فإن لم تتقوا الله، وتذروا ما بقي من الربا ﴿فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: أعلنوا الحرب مع الله ورسوله، والعياد بالله، وأيُّ إنسانٍ يستطيع أن يعلن الحرب مع الله؟! أيُّ إنسانٍ؟! إلا جاهلٌ مغرورٌ، أملى الله له واستدرجته، وكما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلِتْهُ»، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١) [هود: ١٠٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أي: إن من الله عليكم، وتبتم بعد أن انتهكتم تحريم الربا ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ بدون زيادة، وبدون نقص، ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنقص رؤوس الأموال.

ففي الآية الأولى من الحكم والفوائد ما يلي:

١- كمال العناية بالتحذير من الربا؛ لأنَّ الله تعالى إذا صدر الخطاب بالنداء دلَّ ذلك على أهميَّة موضوعه.

٢- أنَّ مقتضى الإيمان بالله تعالى السَّمْعُ والطَّاعةُ، وترك ما بقي من الربا.

٣- أَنْ الْإِخْلَالَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَبِتَرْكِ الرَّبِّ، مُنَافٍ لِكَمَالِ الْإِيمَانِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾.

٤- أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ قَبَضَ الرَّبَّ سَابِقًا قَبْلَ نُزُولِ الْآيَةِ فَلَهُ مَا سَلَفَ، وَلَكِنْ مَا بَقِيَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَهُ وَيَدَعَهُ.

٥- الْإِغْرَاءُ بِتَرْكِ الرَّبِّ، وَتَحْدِي مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَتْرُكُ الرَّبَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ومن فوائد الآية الثانية:

١- أَنْ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ مُحَارِبٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا أَعْظَمَ حَرْبَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ! نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ، كُلُّ مَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّهُ مَهْزُومٌ وَلَا شَكَّ، إِلَّا أَنْ يَتُوبَ.

٢- عِظَمُ الرَّبِّ، وَأَنَّهُ حَرْبُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَلَيْسَ بِالْأَمْرِ السَّهْلِ، بَلْ هُوَ صَعْبٌ، وَإِنَّمَا شَدَّدَ اللَّهُ الْوَعِيدَ فِيهِ؛ لِقُوَّةِ الدَّاعِي فِي النَّفْسِ إِلَيْهِ، وَكُلَّمَا قَوِيَ الدَّاعِي فِي النَّفْسِ إِلَى الْمَحْرَمِ فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي أَنْ يُشَدَّدَ فِي التَّحْذِيرِ مِنْهُ وَعُقُوبَتِهِ.

٣- صِحَّةُ تَوْبَةِ الْمُرَابِيِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تُبْتَغُوا فَلََكُمْ رُدُّهُُمْ مَعَهُمْ﴾.

٤- أَنَّ التَّوْبَةَ لَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ فِيهَا أَنْ يَنْقُصَ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ، أَوْ أَنْ يَرُدَّ شَيْئًا مِمَّا أَخَذَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تُبْتَغُوا فَلََكُمْ رُدُّهُُمْ مَعَهُمْ﴾.

٥- عَدْلُ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، فَلَا ظُلْمَ فِي الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، بَلِ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ كُلُّهُ عَدْلٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠].

٦- الإشارة إلى سبب الربا، ونتيجة الربا أيضًا، وهو الظلم، وكانوا في الجاهلية إذا حلّ الدين قال صاحب الدين للمطلوب: إمّا أن تقضيني، وإمّا أن تُرَبِّي. أي: تزيد، فإذا حلّ الدين مثلاً في أول شهرٍ مُحَرَّم قال له صاحب الدين: إمّا أن تُوفِّي الآن، وإمّا أن تُرَبِّي. أي: تزيد، فمثلاً: إذا كان الدين عشرة آلاف قال: إمّا أن تُوفِّيني الآن، وإلا فكلّ شهرٍ أُضيفُ إليك ألفاً. وهذا رِبًا وظلمٌ؛ لأنّه لا يُمكن أن يُلجأَ أحدٌ إلى الالتزام بإضافة ألفٍ إلى رأس المال إذا لم يُوفِّ إلا وهو فقيرٌ، والفقير لا يَجُوزُ مُطالَبَتُهُ؛ لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وما أعظمَ جُرم أولئك القوم الذين إذا حلَّت الديون لهم على الفقراء ألزموهم بالتسليم، أو الحبس! وكيف يُلزَمُ المُعْدَمُ بأن يُسَلِّمَ؟! من أين؟! ثمَّ كيف يُحبَسُ هذا المسكين الذي لا يجد شيئاً يُوفي به؟! وما فائدة حبسه؟! ليس في حبسه إلا المَضَرَّةُ العظيمةُ عليه، ومنعه من التَّكسُّبِ، وعلى عائِلته إن كان ذا عائِلَةٍ، ويحصلُ بذلك إرهابٌ للدولة في ملء السَّجونِ بغير حقٍّ.

ويُقالُ لهذا المُرابي: أنتَ تَعْرِفُ حالَ الرَّجُلِ، فلماذا تُعْطيه شيئاً؟! لولا أنّه حَمَلَكَ الجَشَعُ والطَّمَعُ بزيادةِ الرِّبا ما أعطيتُهُ، ولهذا تَجِدُ هؤلاء المُرابينَ كُلِّما كان الطَّالِبُ للمالِ أفقرَ زادوا عليه الضَّريبةَ، ممّا يدلُّ على أنّه ليس قَصْدُهُم رَحْمَةُ الخَلْقِ، بل قَصْدُهُم المالُ والمادَّةُ، نَسألُ الله العافية.

ثمَّ إذا حلَّ الدينُ وهو يَعْلَمُ أنَّ صاحِبَهُ فقيرٌ، فبعضُ النَّاسِ لا يَرَحِّمُهُ ولا يَخَافُ اللهَ، فيزَعُّهُ إلى الجهاتِ المُختَصَّةِ، ويُطالبُ بحبسه، نَسألُ الله العافية، مع أنَّ اللهَ أَوْجَبَ عليه أن يُنْظِرَهُ، فقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ وتَسْقِطُوا عن الفقيرِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٧- الإشارة إلى التَّوْبَةِ من الرِّبَا، وكذلك من جَمِيعِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُبَادِرَ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»^(١).

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتُوبَ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ جَمِيعًا، وَأَنْ يُوفِّقَنَا لِلتَّخَلُّصِ مِنْ ظُلْمِ الْعِبَادِ، لَا نَظْلِمُ، وَلَا نُظْلَمُ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠)

قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي: وَإِنْ وُجِدَ ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي: صَاحِبُ عُسْرَةٍ، وَهُوَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الْوَفَاءَ ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ أي: فَعَلَيْكُمْ إِنْظَارٌ ﴿إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي: إِلَى أَنْ يُوسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بِإِبْرَائِهِ مِنْ دَيْنِهِ، وَعَدَمِ مُطَالَبَتِهِ نَهَائِيًا ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِيسَارِ عَلَى الْمُعْسِرِينَ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه: كتاب الأدب، باب الاستغفار، رقم (٣٨١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصله في صحيح البخاري: كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ، رقم (٦٣٠٧) بلفظ: «أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً».

وقد أخرجه بمعناه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار، رقم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إِنْ كُنْتُمْ ذَوِي عِلْمٍ، وهذه الجملة مُسْتَقْلَّةٌ، لا علاقة لها بما قبلها؛ لأننا لو جعلناها مُتَعَلِّقَةً بما قبلها فَسَدَ الْمَعْنَى، فكان المعنى على هذا التقدير: إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فهو خَيْرٌ لكم، وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فليس خيراً لكم، مع أَنَّهُ خَيْرٌ على كُلِّ حالٍ.

وَأَعْقَبَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾، وَمَعْنَى أَعْقَبَهَا، أَي: جَعَلَهَا عَقِيْبَةً لَهَا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا حُلَّ الْأَجَلُ عَلَى الْمُعْسِرِ، وَلَمْ يُوفَ، زَادُوا عَلَيْهِ فِي الرَّبَا، فَمَثَلًا: إِذَا كَانَ يَطْلُبُهُ مِئَةُ رِيَالٍ، وَحُلَّ أَجْلُهَا، وَلَمْ يُوفَ، قَالَ: نَزِيدُ عَلَيْكَ الْأَجَلَ، وَنَزِيدُ الدِّينَ. فيقول: نُؤَجِّلُهَا إِلَى شَهْرٍ، وَتَكُونُ بِمِئَةِ وَعَشْرَةٍ. أَوْ: إِلَى سَنَةٍ، وَتَكُونُ بِمِئَةِ وَخَمْسِينَ. فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى الْوَاجِبَ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ صَاحِبُهُ مُعْسِرًا، أَنْ يُنْظِرَهُ إِلَى مِيسْرَةٍ.

ففي هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١- وَجوبُ إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ -أي: إِمْهَالِهِ- حَتَّى يُغْنِيَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا يَجِبُ عَلَيَّ إِنْظَارُهُ؟ أَلَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَسْتَقْرِضَ مِنْ أَحَدٍ، أَوْ يَسْتَدِينَ مِنْهُ، فَيُوفِّيَنِي؟

فالجواب: بلى، يُمَكِّنُ، وَلَكِنْ مَاذَا يَسْتَفِيدُ هَذَا الْمَدِينُ إِذَا اسْتَقْرِضَ؟ انْتَقَلَ دَيْنُهُ مِنَ الشَّخْصِ الْأَوَّلِ إِلَى الشَّخْصِ الثَّانِي، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي أَنْ نُلْزِمَهُ أَنْ يَذْهَبَ، وَيَتَكَفَّفَ النَّاسُ؛ لِيُوفِيَكَ؟!

٢- أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ لَهُ دَيْنٌ عَلَى شَخْصٍ مُعْسِرٍ أَنْ يُطَالِبَهُ بِهِ عِنْدَ الْقَاضِي

أَوْ عِنْدَ السُّلْطَةِ؛ لِيَحْبِسُوهُ، إِذَا كَانَ يَجِبُ إِنْظَارُهُ - وَهُوَ تَحْرِيمُ طَلَبِهِ - فَكَيْفَ بِمُطَالَبَتِهِ؟!

فَعَلَى أَوْلَئِكَ الْأَغْنِيَاءِ أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ بِالْغِنَى، وَأَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَهُمُ الْفَقِيرَ، وَالْأَيُّرْغَمُوهُ عَلَى الْوَفَاءِ وَهُوَ لَا يَجِدُ.

وَمَنْ طَلَبَ مِنَ السُّلْطَاتِ أَنْ يَحْبِسُوا غَرِيمَهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ غَرِيمَهُ لَا يَجِدُ، فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، ظَالِمٌ لْغَرِيمِهِ.

وَيَجِبُ عَلَى وُلاَةِ الْأُمُورِ إِذَا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ أَنَّ هَذَا الْغَرِيمَ لَا يَسْتَطِيعُ الْوَفَاءَ، أَنْ يَحْكُمُوا بَعْدَ وَجُوبِ الْوَفَاءِ عَلَيْهِ حَتَّى يُوسِرَ؛ لِأَنَّ هَذَا حُكْمُ اللَّهِ، وَلَيْتَصَحَّحُوا صَاحِبَ الدِّينِ عَنْ مُطَالَبَتِهِ.

٣- أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمُشْتَرِي أَنْ يَشْتَرِيَ شَيْئًا إِلَى مَيْسَرَةٍ، بِمَعْنَى: أَنْ يَقُولَ لِلْبَائِعِ: اشْتَرَيْتُ مِنْكَ هَذَا بِمِئَةِ رِيَالٍ إِلَى أَنْ يُوسِرَ اللَّهُ عَلَيَّ. وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مَجْهُولًا، لَكِنْ هَذَا هُوَ مُقْتَضَى الْعَقْدِ، إِذَا عَلِمَ الْبَائِعُ أَنَّ صَاحِبَهُ فَقِيرٌ فَإِنَّ مُقْتَضَى الْعَقْدِ أَلَّا يُطَالِبَهُ حَتَّى يُوسِرَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَرْسَلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - إِلَى شَخْصٍ قَدِمَ لَهُ بَرٌّ مِنَ الشَّامِ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَبِيعَ عَلَيْهِ تَوْبِينَ إِلَى مَيْسَرَةٍ^(١).

٤- فَضِيلَةُ إِعْفَاءِ الْفَقِيرِ مِنَ الدِّينِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، أَيِ: خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْظَارِهِ.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل، رقم (١٢١٣)، والنسائي، كتاب البيوع، باب البيع إلى أجل المعلوم، رقم (٤٦٣٢)، وأحمد (١٤٧/٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٥- أن إبراء المعسر ليس بواجب؛ لأن الله فضله على الإنظار، ولم يُبين أنه واجب.

وقد ألغز بعض أهل العلم لهذه المسألة، وقال: شيء مسنون صار أفضل من واجب. ولكن هذا الإلغاز فيه نظر؛ لأن هذا المسنون -الذي هو الإبراء- تضمن الواجب وزيادة، والواجب هو الإنظار، فإذا أبرأه فقد أنظره وزاد.

وكذلك ألغز بعض العلماء في الوضوء ثلاثاً، مع الوضوء واحدة، فالوضوء واحدة واجب، يجب أن يغسل الإنسان أعضاء الوضوء مرة واحدة، إلا الرأس فيمسح، والثلاث أفضل من الواحدة، وهي سنة، فقال: إن هنا سنة أفضل من الواجب، وهي الوضوء ثلاثاً، أفضل من الوضوء مرة. وهذا أيضاً غلط؛ لأنه إذا توضأ ثلاثاً فقد أتى بالواجب وزيادة.

٦- بيان تفاضل الأعمال؛ لقوله: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ومتى تفاضلت الأعمال تفاضل العمال.

٧- نعي الجهال على جهلهم؛ لقوله: ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، كما تقول: «إن كنت رجلاً فافهم كذا» «إن كنت طالب علم فأترك ما حرم الله عليك».

٨- الحث على العلم؛ لقوله: ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل العلم العاملين به، الداعين إلى الله تعالى على بصيرة؛ إنه على كل شيء قدير.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ ﴿٣٨١﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ أي: اتَّخَذُوا مَا يَقِيكُمْ مِنْ عَذَابِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: تُرَدُّونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ثُمَّ بَعْدَ رُجُوعِكُمْ إِلَى اللَّهِ ﴿تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: تُعْطَى كُلُّ نَفْسٍ ثَوَابَ مَا كَسَبَتْ، أي: مَا كَسَبَتْهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لَا يُنْقَصُونَ مِنْ حُقُوقِهِمْ شَيْئًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، ظُلْمًا فِي زِيَادَةِ سَيِّئَاتِهِ، وَلَا هَضْمًا فِي نَقْصِ حَسَنَاتِهِ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

أَتَى اللَّهُ تَعَالَى بِهِذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَعْدَ ذِكْرِ آيَةِ الرَّبِّ؛ لِشِدَّةِ التَّحْذِيرِ مِنْهُ، وَمِنْ عُقُوبَتِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ الْخَلَائِقُ عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُم الدَّاعِي، وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ، لَا مَالِكَ وَلَا مَمْلُوكَ، وَلَا سَيِّدَ وَلَا مَسُودَ، يُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاءَ غُرْلًا كَمَا بَدَأَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ

وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى عُسْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، واجْعَلْهُ عَلَيْنَا يَسِيرًا.

وفي هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

- ١ - إثبات اليوم الآخر الذي هو مرجع الناس إلى الله عز وجل يوم القيامة.
- ٢ - تعظيم شأن ذلك اليوم؛ لقوله: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.
- ٣ - أنه في ذلك اليوم تُعطى كل نفس ما كسبت من خيرٍ وشرٍّ، فالعمل في الدنيا، والجزاء في الآخرة.
- ٤ - أنه يُحاسب ويُعطى نصيبه من كان بالغاً عاقلاً ومن كان دون ذلك، لكن الفرق أن من دون البلوغ يُكتب له، ولا يُكتب عليه، وأما من كان مجنوناً فلا يُكتب له ولا عليه، والفرق ظاهر؛ لأن الصَّغير العاقل يَعْرِفُ، وَيُرِيدُ، وَيَقْضِدُ، وَيُخْتَارُ، وَيَكْرَهُ، بخلاف المجنون، فالصَّغير الذي لم يبلُغ يُكتب له، ولا يُكتب عليه، وهذا من نعمة الله عز وجل، وكون رحمته سبقت غضبه، والمجنون لا يُكتب له ولا عليه؛ لأنه لا قِصْدَ له.
- ٥ - الإشارة إلى أنه لا تَزُرُّ وازرةٌ وزرٌ أخرى؛ لقوله: ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ يعني: لا ما كَسَبَ غيرها، ولا يُشْكِلُ على هذا أن من سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لأن أصل سنَّتها من عمله، فلولاها ما فعل الناس، فتكون داخله في كسبه.
- ٦ - انتفاء الظلم في الحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾.

واستدلَّ بعضُ العلماءِ رَحِمَهُمُ اللهُ بهذه الآية على أَنَّهُ لا يَصِلُ المِيتَ شَيْءٌ من أَعْمَالِ الحَيِّ، يَعْنِي: لو صَلَّى ونَوَاهَا لِشَخْصٍ فَإِنَّهَا لا تَصِلُ إِلَى المِيتِ، أو تَصَدَّقَ ونَوَاهَا لِشَخْصٍ لم تَصِلْ إِلَى المِيتِ، لكن هذا الخِلاف فيه ضعيفٌ، والرَّاجِحُ من أقوالِ العلماءِ في هذه المسألة: أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا فَعَلَهُ الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ يَصِلُ إِلَى المِيتِ.

ولكن هل نقولُ لِلْإِنْسَانِ: اْعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا لَوَالِدَيْكَ المِيتَيْنِ؛ لِأَنَّهما في حاجةٍ، فقد انقطعَ عَمَلُهُما بِمَوْتِهِما؟

الجوابُ: لا نقولُ له ذلك، لكن لو فَعَلَ لم نُقَلِّ له: إِنَّ ذلك لا يَصِلُ إِلَيْهِما. وأَحْسَنُ من هذا: الدُّعَاءُ لِلْمِيتِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو الحَكِيمُ، الَّذِي بَلَغَ الْبَلَاحَ الْمُبِين- لَمَّا قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ»، قَالَ: «صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أو عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»، ولم يَقُلْ: أو وَلَدٌ صَالِحٌ يُصَلِّي له، أو يصومُ عنه، أو يَتَصَدَّقُ عنه، أو يُحْجُّ عنه، أو يَعْتَمِرُ عنه. فدلَّ هذا على أَنَّ ذلك غيرُ مَشْرُوعٍ، وَأَنَّ الدُّعَاءَ أَفْضَلُ، وهو كذلك.

وما انْهَمَكَ به بعضُ النَّاسِ الْيَوْمَ من حِرْصِهِمْ على إِهْدَاءِ الْقُرْبِ إِلَى الْأَمْوَاتِ، فليس مَعْرُوفًا عِنْدَ السَّلَفِ رَحِمَهُمُ اللهُ بهذا الْإِنْهَمَاكَ الْكَثِيرِ، حَتَّى إِنَّكَ لَتَجِدُ المِيتَ أو الحَيَّ يُهْدِي ثَوَابَ الْقُرْبِ لِلْمِيتِ أَكْثَرَ مِمَّا يُهْدِي لِلْحَيِّ، فَتَجِدُ المِيتَ يَكْتُبُ مَثَلًا: هَذِهِ وَصِيَّتِي فِي أَضْحِيَّةٍ وَعِشَاءٍ لِلْمِيتِ الْفُلَانِيٍّ. وَيُنْسِي نَفْسَهُ، وَهَذَا مِنَ التَّقْصِيرِ وَالْقُصُورِ، مِنَ التَّقْصِيرِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ حَتَّى يُبَيِّنُوا لَهُمُ الْأَمْرَ، وَمِنَ الْقُصُورِ؛ لِأَنَّ كَوْنَ الْإِنْسَانِ يُقَدِّمُ غَيْرَهُ عَلَى نَفْسِهِ لَا شَكَّ أَنَّهُ قَاصِرُ النَّظَرِ.

فَالْمِهُمُّ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَا تُدَلُّ عَلَى امْتِنَاعِ انْتِفَاعِ الْإِنْسَانِ بِعَمَلٍ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ السُّنَّةَ قَدْ وَرَدَتْ بِذَلِكَ، فَهَذَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يَجْعَلَ مِخْرَافَهُ -أَي: بُسْتَانَهُ- صَدَقَةً لِأُمِّهِ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأْذَنَ لَهُ ^(١)، وَرَجُلٌ آخَرُ قَالَ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي افْتَلَتَتْ نَفْسُهَا، وَأَظْنُهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ لَتَصَدَّقْتَ، أَفَأَتَصَدَّقُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ» ^(٢)، وَقَالَ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ» ^(٣)، وَسَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَبَّيْكَ عَنْ شُبْرُمَةَ. فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ شُبْرُمَةُ؟» قَالَ: أَخٌ لِي أَوْ قَرِيبٌ لِي. قَالَ لَهُ: «أَحْبَبْتَ عَنْ نَفْسِكَ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «هَذِهِ عَنْ نَفْسِكَ، ثُمَّ حُجَّ عَنْ شُبْرُمَةَ» ^(٤).



(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب إذا قال أُرْضِي أَوْ بَسْتَانِي صدقة، رقم (٢٧٥٦) من

حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب ما يستحب لمن توفي فجاء أن يتصدقوا عنه، رقم

(٢٧٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه، رقم (١٠٠٤) من

حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، رقم (١٩٥٢)، ومسلم: كتاب

الصيام، باب قضاء الصوم عن الميت، رقم (١١٤٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب الرجل يحج عن غيره، رقم (١٨١١)، وابن ماجه: كتاب

المناسك، باب الحج عن الميت، رقم (٢٩٠٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاسْكُتُوا وَلْيَكُتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكُتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِكْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكُتُبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكُتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

هذه الآية هي أطول آية في كتاب الله، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المذثر: ٢١] أقصر آية في كتاب الله.

وتقدير الآيات وتَحْدِيدُهَا تَوْقِيفِيٌّ، هو من عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَتَرْتِيبُهَا بَوْضُعُهَا فِي مَكَانِهَا هُوَ أَيْضًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، تَوْقِيفِيٌّ.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاسْكُتُوا﴾ تَصْدِيرُ الْخِطَابِ بِالنِّدَاءِ يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ؛ لِأَنَّ النِّدَاءَ يَقْتَضِي التَّنَبُّهَ لِمَا سَيُلْقَى.

ثُمَّ تَوْجِيهُ النِّدَاءِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا يُخَاطَبُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ مُقْتَضِيَّاتِ

الإيمان، إِنْ كَانَ نَهْيًا فَبِالْتَّرَكِ، وَإِنْ كَانَ أَمْرًا فَبِالْفِعْلِ.

والمُرَادُ بِالذِّينِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: كُلُّ مَا يَثْبُتُ فِي الذِّمَّةِ مِنْ ثَمَنِ مَبِيعٍ، أَوْ أَجْرَةٍ، أَوْ قَرْضٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَجَلَ مُسَمًّى﴾ أَي: إِلَى حَدِّ مُعَيَّنٍ.

قَالَ: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ لِأَنَّ ذَلِكَ أَحْفَظُ لِلْمَالِ، وَأَبْعَدُ عَنِ الْإِشْكَالِ، فَيُكْتَبُ الذِّينُ، وَيُكْتَبُ أَجَلُهُ.

ثُمَّ وَجَّهَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلكِتَابَةِ، فَقَالَ: ﴿وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، فَلَا يَهْضُمُ حَقَّ الْمَدِينِ وَلَا الدَّائِنِ، بَلْ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ أَنْ يُؤَدِّيَ كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ أَي: لَا يَمْتَنِعُ كَاتِبٌ إِذَا طُلِبَتْ مِنْهُ الْكِتَابَةُ عَنِ الْكِتَابَةِ؛ لِأَنَّ الَّذِي مَنْ عَلَيْهِ بِالْكِتَابَةِ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَلْيَشْكُرِ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَلْيَكْتُبْ لِإِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ، فَيُسَاعِدَهُمْ عَلَى أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تَكَرَّارٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، أَوْ نَقُولُ: هِيَ جُمْلَةٌ غَيْرُ مُكَرَّرَةٍ، يَعْنِي: لَيْسَتْ الْجُمْلَةُ الْأُولَى؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُرْتَّبَ عَلَيْهَا قَوْلُهُ: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ يَعْنِي: يُمْلِي عَلَى الْكَاتِبِ ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ يَعْنِي: الْمَطْلُوبُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَمْلَى الطَّالِبُ لَكَانَ إِمْلاؤُهُ دَعْوَى، فَإِذَا أَمْلَى الْمَطْلُوبُ - الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ - صَارَ إِمْلاؤُهُ إِقْرَارًا.

﴿وَلَيْتَقَ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ لَيْتَقَ اللَّهُ -أي: الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ- رَبَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ، وَأَمَدَهُ بِالنَّعَمِ، وَأَعَدَّ لَهَا يُكَلِّفُ بِهِ، لَيْتَقِهِ، فلا يَبْخَسُ من الحقِّ شَيْئًا، أي: لا يَنْقُصُ من الحقِّ شَيْئًا، يكونُ عليه المِثَّةُ، فيُمْلَى على الكَاتِبِ: اكَتُبْ مِثَّةً. ولا يَنْقُصُ.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ أي: إذا كان الَّذِي عَلَيْهِ الدِّينُ سَفِيهًا لا يُحْسِنُ التَّصَرُّفَ، أَوْ ضَعِيفًا لا يُدْرِكُ مَا الَّذِي وَجَبَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِالْإِمْلَاءِ، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ لَكُونِهِ أَخْرَسَ مَثَلًا، وَهُوَ الَّذِي لَا يَنْطِقُ، ﴿فَلْيُمِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: فليُباشِرِ الْوَلِيُّ الْإِفْرَارَ بِهَا يَأْمُرُ بِكِتَابَتِهِ، وَلَكِنْ بِالْعَدْلِ مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ لِمَنْ لَهُ الْحَقُّ.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْأَسْتِشْهَادِ عَلَى الْحَقِّ، فَقَالَ: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ﴾ أي: اطلبوا مِنْهُمَا الشَّهَادَةَ ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ أي: الْمَطْلُوبَانِ إِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: فَالشَّاهِدُ رَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴿وَمَنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ لَأَمَانَتِهِمْ وَصِدْقِهِمْ.

وَأَمَّا مَنْ لَا يُرْضَى فَلَا يَكْفِي، فَلَوْ أَنَّ الْمَطْلُوبَ أَتَى بَرَجُلَيْنِ، وَقَالَ: هَذَانِ يَشْهَدَانِ. وَالطَّالِبُ لَا يَرْضَاهُمَا، لَمْ يَلْزَمْهُ الْقَبُولُ، بَلْ يَقُولُ: ائْتِ بَاثْنَيْنِ آخَرَيْنِ أَرْضَاهُمَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ هَذَا تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ: لِمَاذَا كَانَتِ الْمَرَأَتَانِ بَدَلًا عَنِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ؟ فَبَيَّنَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى السَّبَبَ فِي هَذَا، قَالَ: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا

فَتَذَكَّرَ أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى ﴿١٠﴾، والمُرَادُ بِالضَّلَالِ هُنَا: النِّسْيَانُ؛ لِأَنَّهَا قَدْ عَلِمَتْ الْأَمْرَ، وَتَحَمَّلَتْ الشَّهَادَةَ عَلَى مَا عَلِمَتْ، فَرَبَّمَا تَنْسَى الشَّهَادَةَ رَأْسًا، أَوْ تَنْسَى تَفْصِيلَ الشَّهَادَةِ، فَعُزِّزَتْ شَهَادَتُهُمَا بِشَهَادَةِ رَجُلٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَذَكَّرَ﴾ أَي: تُبَيِّنَ لَهَا الْأَمْرَ حَتَّى تَذَكَّرَ.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْبَ﴾ أَي: لَا يَمْتَنِعُ ﴿الشُّهَدَاءُ﴾ أَيَّا كَانُوا ﴿إِذَا مَا دُعُوا﴾، وَ(مَا) هُنَا زَائِدَةٌ فِي الْإِعْرَابِ، لَكِنَّهَا تُفِيدُ قُوَّةَ الْحَبَرِ وَالْحُكْمِ، وَكُلُّ حَرْفٍ زَائِدٍ فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ لِلتَّوْكِيدِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾، وَلَمْ يُبَيِّنْ مِنَ الدَّاعِي؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ قَدْ يَكُونُ صَاحِبَ الْحَقِّ، وَقَدْ يَكُونُ الْقَاضِي، وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ الْمُصْلِحَ بَيْنَهُمَا.

﴿وَلَا تَسْمَعُوا﴾ أَي: لَا تَمَلُّوا ﴿أَنْ تَكْتُوبُوا﴾ أَي: الدِّينَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ أَي: لَا تَمَلُّوا، وَاتَّكَبُوا كُلَّ دِينٍ إِلَى أَجَلِهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْكِتَابَةَ -وإن شَقَّتْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ- تُرِيحُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ، فَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُنْكِرَ مَا تَضَمَّنَهُ الْعَقْدُ، وَإِذَا أَنْكَرَ فَالشُّهُودُ.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ الْحِكْمَةَ مِنْ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ يَعْنِي: أَنْ اسْتَشْهَدَكُمُ الرَّجُلَيْنِ أَوْ الرَّجُلَ وَالْمَرَاتَيْنِ ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَعْنِي: أَعْدَلُ عِنْدَ اللَّهِ، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾، وَهَاتَانِ فَائِدَتَانِ ﴿وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ يَعْنِي: أَقْرَبُ أَنْ يَنْتَفِيَّ عَنْكُمُ الْارْتِيَابُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ بِلَا شُهُودٍ -أَعْنِي: الدِّينَ- ثُمَّ جَاءَ الْمَدِينُ لِيُوفِيَ، فَقَدْ يَرْتَابُ الْإِنْسَانُ إِذَا لَمْ يَكُنْ شُهُودٌ وَلَا كِتَابَةٌ، قَدْ يَقُولُ:

لَعَلَّ حَقِّي أَكْثَرَ. أَوْ: أَخْشَى أَنْ يَكُونَ حَقِّي أَقَلَّ، وَهَذَا أَوْفَانِي مَا لَا أَسْتَحِقُّ. فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ شُهُودٌ وَكِتَابَةٌ انْتَفَتَتْ هَذِهِ الْمَشْكِلَةُ.

قَالَ: ﴿لَا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾ وَالتَّجَارَةُ: هِيَ مَا يَتَجَرُّ بِهِ الْإِنْسَانُ ﴿حَاضِرَةً﴾ يَعْنِي: لَا تَحْتَاجُ إِلَى أَجَلٍ ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ يَعْنِي: تَدُورُ عَلَيْكُمْ، تَشْتَرِي هَذِهِ السَّلْعَةَ، ثُمَّ تَبِيعُهَا عَلَى فُلَانٍ، ثُمَّ تَشْتَرِي أُخْرَى، وَتَبِيعُهَا عَلَى فُلَانٍ، وَهَكَذَا، كَأَنَّهَا دَائِرَةٌ، يَقُولُ عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ يَعْنِي: لَيْسَ عَلَيْكُمْ إِثْمٌ إِذَا لَمْ تَكْتُبُوهَا؛ لِأَنَّ هَذَا فِيهِ مَشَقَّةٌ، وَهِيَ تُتَدَاوَلُ، وَلَا يَلْحَقُهَا النِّسْيَانُ؛ لِأَنَّ أَمَدَهَا قَرِيبٌ، فَهَذَا فَرْقٌ.

يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا بَيَّعْتُمْ﴾ يَعْنِي: إِذَا جَرَى بَيْنَكُمْ بَيْعٌ فَأَشْهَدُوا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِشْهَادَ يُؤَدِّي إِلَى ضَبْطِ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي، بِحَيْثُ لَا يَدَّعِي الْبَائِعُ أَنَّ الثَّمَنَ أَكْثَرُ، وَلَا الْمُشْتَرِي أَنَّ الثَّمَنَ أَكْثَرُ، وَلَا يُنْكِرُ الْبَائِعُ شَرْطًا شَرِطَ عَلَيْهِ، وَلَا الْمُشْتَرِي شَرْطًا شَرِطَ عَلَيْهِ، فِي الْإِشْهَادِ ضَبْطُ الْأُمُورِ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا يُضَارَرُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿يُضَارَرُ﴾ أَي: يُلْحَقُ الضَّرَرُ، لَكِنْ وَزْنُهَا الضَّرْفُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى تَقْدِيرٍ: «وَلَا يُضَارَرُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ»، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى تَقْدِيرٍ: «وَلَا يُضَارَرُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ»، فَالْأَيُّ فِي الْبِنَاءِ هَذَا صَالِحَةٌ لِلْأَمْرَيْنِ، وَهَذَا مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ، أَنْ تَأْتِيَ كَلِمَةٌ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ تَحْتِمِلُ مَعْنَيْنِ.

فَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ أَصْلَهَا: «وَلَا يُضَارَرُ كَاتِبٌ» صَارَتْ «كَاتِبٌ» فَاعِلًا، وَ«شَهِيدٌ» مَعْطُوفَةٌ عَلَى «كَاتِبٌ»، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: نَهَى الْكَاتِبَ وَالشَّهِيدَ أَنْ يُضَرَّ الْمَشْهُودُ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا عَلَى تَقْدِيرِ فَتَحِ الرَّاءِ: «وَلَا يُضَارَرُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ» فَ﴿كَاتِبٌ﴾ نَائِبُ فَاعِلٍ و﴿شَهِيدٌ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ، وَالْمَعْنَى: وَلَا يُضَارَرُ الْمَكْتُوبُ لَهُ وَالْمَشْهُودُ عَلَيْهِ الْكَاتِبُ وَلَا الشَّهِيدَ.

وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ جَمِيعًا يَكُونُ النَّهْيُ شَامِلًا لِسَيِّئَةِ: لِلكَاتِبِ، وَالشَّهِيدِ، وَالْمَشْهُودِ لَهُ، وَالْمَشْهُودِ عَلَيْهِ، وَالْمَكْتُوبِ لَهُ، وَالْمَكْتُوبِ عَلَيْهِ.

قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَأِنْ تَفَعَّلُوا﴾ أَي: تُضَارَرُوا ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أَي: خُرُوجٌ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَخُرُوجٌ عَمَّا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَمَانَةِ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي: اتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى عَنِ الْمُضَارَّةِ بِالكَاتِبِ وَالشَّهِيدِ.

﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ؛ لِيَبَانَ نِعْمَتُهُ عَلَيْنَا بِهَذَا التَّعْلِيمِ الْمُفْصَّلِ.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْحِكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١- فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ جَدًّا، وَهِيَ عِنَايَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالذُّيُونِ، فَيَكُونُ فِيهِ رَدٌّ لِقَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْإِسْلَامَ إِنَّمَا جَاءَ لِإِصْلَاحِ مَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَهُوَ الْعِبَادَةُ، وَأَمَّا الْمُعَامَلَاتُ الْجَارِيَةُ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّ النَّاسَ أَعْلَمَ بِمَا يُصْلِحُ دُنْيَاهُمْ. فَإِنَّ هَذَا كَذِبٌ وَاقْتِرَاءٌ عَلَى الْقُرْآنِ، بَلِ الْقُرْآنُ فِيهِ تَفْصِيلٌ كُلُّ شَيْءٍ، وَالسُّنَّةُ بَيَّنَّتِ الْمُجْمَلَ مِنْهُ، وَفَصَّلَتْهُ.

فَنَقُولُ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ ادَّعَوْا هَذِهِ الدَّعْوَى الْكَاذِبَةَ الْبَاطِلَةَ، نَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ أَطْوَلَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ جَاءَتْ فِي الْمُعَامَلَاتِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِنَايَةِ الْقُرْآنِ بِالْمُعَامَلَاتِ.

٢- أَنْ تَنْفِذَ مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ أَوْامِرَ وَنَوَاهٍ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا صَدَّرَ الْخِطَابَ بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مِنْ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ: امْتِثَالُ الْأَمْرِ فِي هَذَا الْخِطَابِ، وَاجْتِنَابُ النَّهْيِ فِيهِ.

٣- جَوَازُ الدَّيْنِ إِلَى أَجَلٍ، سِوَاءِ كَانِ ذَلِكَ فِي الْمَبِيعِ أَوْ فِي الثَّمَنِ.

مِثَالُهُ فِي الْمَبِيعِ: السَّلَمُ، وَالسَّلَمُ: عِبَارَةٌ عَنْ شِرَاءِ سِلْعَةٍ مَوْصُوفَةٍ يُدْرِكُهَا الْوَصْفُ، مُؤَجَّلَةٍ، وَلَكِنْ بِثَمَنِ مُعَجَّلٍ. كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُسْلِفُونَ فِي الثَّارِ السَّنَةَ وَالسَّنَتَيْنِ، فَقَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ أَسْلَمَ فِي شَيْءٍ فَلْيُسْلِمِ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»^(١).

٤- أَنَّ الدَّيْنَ يَكُونُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، وَإِلَى أَجَلٍ غَيْرِ مُسَمًّى، فَإِنْ كَانَ إِلَى أَجَلٍ غَيْرِ مُسَمًّى فَالشَّرْطُ غَيْرُ صَحِيحٍ، فَمَثَلًا: لَوْ قَالَ لَكَ قَائِلٌ: بِعْتُكَ هَذَا الْبَيْتَ. فَقُلْتَ: اشْتَرَيْتُ، لَكِنْ بِثَمَنِ مُؤَجَّلٍ. وَلَمْ تَذْكُرِ الْأَجَلَ، فَإِنَّ الشَّرْطَ لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ مَجْهُولٌ، وَيَحْصُلُ النِّزَاعُ بَيْنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي فِيهِمَا بَعْدُ.

أَمَّا إِذَا كَانَ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ فَصَحِيحٌ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: بِعْتُكَ هَذَا الْبَيْتَ بِعَشْرَةِ آلَافِ رِيَالٍ مُؤَجَّلَةٍ إِلَى سَنَةٍ. فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَوْ جَعَلَ لِهَذَا الدَّيْنِ الْمُؤَجَّلِ أَقْسَاطًا فِي أَثْنَاءِ الْعَامِ، بِأَنْ يَقُولَ: بِعْتُكَ بِعَشْرَةِ آلَافِ رِيَالٍ إِلَى سَنَةٍ، كُلُّ شَهْرٍ يَحُلُّ خَمْسُ مِئَةِ رِيَالٍ مِثْلًا، وَالشَّهْرَ الْأَخِيرَ يَحُلُّ بَاقِي الْمَبْلَغِ، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ السَّلَمِ، بَابُ السَّلَمِ فِي وَزْنِ مَعْلُومٍ، رَقْمُ (٢٢٤٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاقَاةِ، بَابُ السَّلَمِ، رَقْمُ (١٦٠٤) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥- وَجُوبُ كِتَابَةِ الدِّينِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾، وَإِنَّمَا وَجَبَ ذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَحْصُلَ الْإِنْكَارُ فِيهِ بَعْدُ، عَمْدًا أَوْ نِسْيَانًا، وَلِئَلَّا يَحْصُلَ التَّنَازُعُ بَيْنَ الدَّائِنِ وَالْمَدِينِ؛ لِأَنَّهُمَا قَدْ يَنْسِيَانِ ذَلِكَ، وَقَدْ لَا يَنْسِيَانِ، وَلَكِنْ يَتَعَمَّدَانِ أَكْلَ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ كِتَابَةَ الدِّينِ الْمُؤَجَّلِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ، إِلَّا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَتَصَرَّفُ لْغَيْرِهِ، كَوَلِيِّ الْيَتِيمِ مَثَلًا، إِذَا رَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي بَيْعِ مَالِهِ مُؤَجَّلًا فَلْيَفْعَلْ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ الدِّينَ؛ لِأَنَّهُ يَتَصَرَّفُ لْغَيْرِهِ.

وَكَالْوَكِيلِ عَلَى بَيْعِ شَيْءٍ، إِذَا بَاعَهُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَهُ؛ لِئَلَّا يَضِيعَ حَقُّ صَاحِبِهِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ -أَعْنِي: الْقَوْلَ بِالتَّفْصِيلِ- أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ قَدْ يَكُونُ فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتْرَكَ الْكِتَابَةَ فِي دَيْنٍ مُّؤَجَّلٍ أَبَدًا.

٦- أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْكَاتِبُ مِنْ غَيْرِ الْمُتَعَاقِدَيْنِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْكِتَابَةُ إِقْرَارًا بِشَيْءٍ، وَيَكْتُبُهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ، فَلَا حَرَجَ؛ لِأَنَّهُ لَا ضَرَرَ فِي ذَلِكَ إِذَا كَانَ خَطُّهُ مَعْرُوفًا، أَوْ اسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ شَاهِدَيْنِ.

دَلِيلُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: وَلْيَكْتُبْ أَحَدُكُم.

٧- أَنَّهُ يُخْتَارُ لِلْكِتَابَةِ مَنْ يُوثَقُ بِكِتَابَتِهِ وَعَدْلِهِ؛ لَكَوْنِهِ أَمِينًا، وَعَالِمًا بِمَدْلُولَاتِ

الألفاظ؛ لأنه قد يُؤتى بكَاتِبٍ أمينٍ، ولكن لا يَعْرِفُ مَذَلُولَاتِ الألفاظِ، وحينئذٍ يَبْقَى الشَّكُّ فِي كِتَابَتِهِ.

٨- أنه يجبُ على الكاتبِ أن يَكْتُبَ بِالْعَدْلِ، فإذا رأى من أحدهما ما يَكُونُ فيه نَقْصٌ عليه، وهو جاهِلٌ لا يَعْرِفُ تمامًا، فالواجِبُ عليه أن يُبَيِّنَ له؛ لئَلَّا يَغْرَهُ الآخَرُ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَخْصٍ مُعَامَلَةٌ، ويَكُونُ غَرِيرًا لا يَعْرِفُ، فيُمْلِي عليه الآخَرُ ما يُريدُ، وَعِنْدَ النَّزاعِ يَكُونُ هذا المَعْرُورُ قد غَرِمَ وَنَدِمَ، فلا بُدَّ أن يَكُونَ الكَاتِبُ عَدْلًا، يَعْنِي: يَكْتُبُ بِالْعَدْلِ، إذا رأى من تَعْبِيرِ أَحَدِهِمَا نَقْصًا كَمَلَّهُ، وإذا رأى من تَعْبِيرِ أَحَدِهِمَا زِيَادَةً مَنَعَهُ، هذا هو العَدْلُ.

٩- أن الَّذِي يُمْلِي على هذا الكَاتِبِ هو الَّذِي عليه الحَقُّ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾.

١٠- أنه لو ادَّعى مَنْ له الحَقُّ على مَنْ عليه الحَقُّ شَيْئًا زَائِدًا على إِقْرَارِهِ فَإِنَّهُ لا يَقْبَلُ؛ لَأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ المَرْجِعَ في هذا مَنْ عليه الحَقُّ، وَأَمَّا مَنْ له الحَقُّ فَقَدْ يَدَّعي ما ليس له عُدُوَانًا أو نِسْيَانًا.

١١- أن الأَصْلَ بَرَاءَةُ الذِّمَّةِ، فَمَنْ ادَّعى على شَخْصٍ شَيْئًا فعليه البَيِّنَةُ، وإلَّا فالأَصْلُ بَرَاءَةُ ذِمَّةِ المُدَّعى عليه، وكذلك الأَصْلُ بَرَاءَةُ ذِمَّةِ المُدَّعى عليه ممَّا زادَ على ما أَقَرَّ به؛ بِدَلِيلٍ: أن الله تَعَالَى جَعَلَ المَرْجِعَ إِلَيْهِ، أي: إلى الَّذِي عليه الحَقُّ.

١٢- أن مَنْ عليه الحَقُّ يَجِبُ عليه أن يَتَّقِيَ اللهَ عَزَّجَلَّ، وألَّا يَنْقُصَ من الحَقِّ شَيْئًا، وهذا من بَلَاغَةِ القرآنِ، أن الله تَعَالَى لَمَّا جَعَلَ المَرْجِعَ في الحَقِّ إلى مَنْ عليه الحَقُّ، حَذَّرَ مَنْ عليه الحَقُّ أَنْ يَتَجَاوَزَ، فَأَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ، وَهَاهُ أَنْ يَنْقُصَ مِنْهُ شَيْئًا؛

لأنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَغْلِبُهُ الشُّحُّ، فَإِذَا جُعِلَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ نَقَصَ، فَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ، وَحَذَرَ مِنَ الْمَخَالَفَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَيْتَقَى اللَّهُ رَبَّهُ﴾.

١٣ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ أَنْ يُقَرَّ بِهِ كُلُّهُ، فَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ وَلَا شَيْئًا قَلِيلًا، فَمَثَلًا: إِذَا كَانَ فِي ذِمَّتِهِ مَلِيُونُ رِيَالٍ وَرُبُعُ رِيَالٍ، فَيَجِبُ أَنْ يُقَرَّ بِمَلِيُونِ رِيَالٍ وَرُبُعِ رِيَالٍ، وَلَا يَقُلْ: رُبُعُ رِيَالٍ سَهْلٌ، لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ أُقَرَّ بِهِ؛ لِأَنَّهُ سَهْلٌ. لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾، وَ﴿شَيْئًا﴾ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ، فَتَعُمُّ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ.

١٤ - أَنَّهُ إِذَا كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا لَا يُحْسِنُ التَّصَرُّفَ، أَوْ ضَعِيفًا لَا يُحْسِنُ التَّعْبِيرَ، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِيَ إِطْلَاقًا؛ لِهَيْبَةٍ فِي نَفْسِهِ، أَوْ لُثْغَةٍ فِي لِسَانِهِ، أَوْ خَرَسٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ إِطْلَاقًا، فَإِنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ يُمْلَى وَلِيُّهُ، وَلَكِنْ بِالْعَدْلِ. وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ يُقَامُ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَاءُ، أَعْنِي: أَنَّهُ إِذَا كَانَ صَاحِبُ الْحَقِّ سَفِيهًا، أَوْ ضَعِيفًا، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِمْلَاءَ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ وَلِيٌّ يَتَوَلَّى شُؤْنَهُمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾.

١٥ - أَنَّ عَلَى أَوْلِيَاءِ هَؤُلَاءِ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ، وَيَقُولُوا بِالْعَدْلِ، بِحَيْثُ لَا يُسْقِطُونَ شَيْئًا لَصَاحِبِ الْحَقِّ، وَلَا يُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ شَيْئًا، فَمَثَلًا: إِذَا كَانَ الْحَقُّ أَلْفًا فَإِنَّ الْوَلِيَّ يَكْتُبُ الْأَلْفَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْقُصَهُ شَيْئًا، يَعْنِي: يَجْعَلُهُ تِسْعَ مِائَةٍ؛ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ بِعَدْلٍ، وَلَا أَنْ يُضَيِّفَ إِلَيْهِ شَيْئًا، بِحَيْثُ يَعْرِفُ أَنَّ الْحَقَّ أَلْفٌ، وَلَكِنْ يَجْعَلُهُ أَلْفًا وَمِائَةً؛ لِوُجُوبِ الْعَدْلِ، وَهُوَ أَلَّا يُفْضَلَ صَاحِبَ الدِّينِ عَلَى الْمَدِينِ، وَلَا الْعَكْسُ.

١٦ - طَلَبُ الْإِشْهَادِ عَلَى الدِّينِ، يَعْنِي: أَنَّهُ يُطَلَّبُ مِمَّنْ لَهُ الْحَقُّ أَنْ يَسْتَشْهَدَ شَهِيدَيْنِ مِنَ الرِّجَالِ.

١٧ - أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُوجَدْ رَجُلَانِ فَلَا بُدَّ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَتَيْنِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾.

ولكن قد ثَبَتَ فِي السُّنَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَضَى بِالشَّاهِدِ وَالْيَمِينِ^(١)، أَي: إِذَا ادَّعَى شَخْصٌ عَلَى آخَرَ بَدِينٍ، وَأَنْكَرَ، وَأَقَامَ صَاحِبُ الدِّينِ شَاهِدًا، وَحَلَفَ مَعَهُ، حُكِمَ لَهُ بِذَلِكَ.

١٨ - أَنَّ الْمَطْلُوبَ عِنْدَ الْإِشْهَادِ أَنْ يَسْتَشْهَدَ الْإِنْسَانُ رَجُلَيْنِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَكْمَلُ، وَالْإِنْسَانُ فِي ابْتِدَاءِ الْقَضِيَّةِ الْأَمْرُ بِيَدِهِ.

١٩ - أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ بِالْغَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، وَالرَّجُلُ: هُوَ الذَّكَرُ الْبَالِغُ. فَأَمَّا شَهَادَةُ الصَّبِيَّانِ فَلَا تُقْبَلُ إِلَّا بِشُرُوطٍ مَعْرُوفَةٍ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ.

٢٠ - أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ مُسْلِمًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، وَالْخِطَابُ -كَمَا فِي أَوَّلِ الْآيَةِ- لِلْمُؤْمِنِينَ، فَشَهَادَةُ الْكَافِرِ لَا تُقْبَلُ، إِمَّا مُطْلَقًا، وَإِمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ ضَرُورَةً، فَإِنْ كَانَ ضَرُورَةً فَإِنَّهَا تُقْبَلُ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَحْكَامِ مَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْفُقَهَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

٢١ - أَنَّ الْمَرَاتَيْنِ تَقُومَانِ مَقَامَ الرَّجُلِ فِي الشَّهَادَةِ فِي الْأَمْوَالِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، فَهَذِهِ ثَلَاثُ وَثَائِقَ فِي الشَّهَادَةِ:

الأولى: شَهَادَةُ الرَّجُلَيْنِ، وَهِيَ أَكْمَلُهَا.

والثَّانِيَةُ: شَهَادَةُ رَجُلٍ وَامْرَأَتَيْنِ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْأَقْضِيَّةِ، بَابُ الْقَضَاءِ بِالْيَمِينِ وَالشَّاهِدِ، رَقْمُ (١٧١٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَالثَّالِثَةُ: شَهَادَةُ رَجُلٍ وَيَمِينُ الْمُدَّعِي؛ كَمَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَسَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَضَى بِالشَّاهِدِ وَالْيَمِينِ فِي الْأَمْوَالِ^(١).

٢٢- أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ، إِذَا ذَكَرَ الْحُكْمَ، وَصَارَ يَرُدُّ عَلَى النَّفْسِ التَّطَلُّعَ إِلَى مَعْرِفَةِ اخْتِلَافِ الْحُكْمِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَيِّنُ عِلَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ، يُؤْخَذُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَمْرًا تَكُنَ مِنْ رِضْوَانٍ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، فَإِنَّهُ قَدْ يَقَعُ فِي النَّفْسِ: لِمَاذَا لَا تُقْبَلُ الْمَرْأَةُ الْوَاحِدَةُ مَعَ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ؛ كَمَا يُقْبَلُ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ مَعَ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ؟ فَأَجَابَ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ سَرِيعَةُ الْعَاطِفَةِ، قَلِيلَةُ الْحِفْظِ، كُلُّ شَيْءٍ يَجْذِبُهَا، كُلُّ شَيْءٍ يُغْرِيبُهَا، كُلُّ شَيْءٍ يُخْفِئُهَا، فَقَدْ تَضَلَّ، أَيْ: تَنَسَّى، أَوْ تَضَلَّ، أَيْ: تَرْتَكِبُ الْخَطَأَ عَنْ عَمْدٍ، فَتُذَكِّرُهَا الْأُخْرَى، إِمَّا بِالْمَوْعِظَةِ إِنْ كَانَتْ ارْتَكَبَتْ الْخَطَأَ عَنْ عَمْدٍ، وَإِمَّا مِنْ بَابِ أَنْ تَذَكَّرَ ذَلِكَ بَعْدَ النِّسْيَانِ.

٢٣- أَنَّ فِيهَا رَدًّا وَاضِحًا لِقَوْلِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُسَوُّوا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالَفَ بَيْنَهُمَا قَدْرًا وَشَرْعًا، فِيمَا تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ أَنْ يَخْتَلِفَا فِيهِ، وَسُنَّةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاحِدَةٌ.

وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- هَذَا مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَيْ: عَقْلِهَا لِلْأَشْيَاءِ وَفَهْمِهَا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ يَخْطُبُ فِي النِّسَاءِ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ، أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ

(١) تقدم تخريجه قريباً.

إِحْدَاكُنَّ»، فَسَأَلْتُهُ عَنْ نُقْصَانِ الْعَقْلِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ وَاضِحٌ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ،
حَيْثُ جَعَلَ شَهَادَةَ الْمَرَاتَيْنِ عَنْ شَهَادَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ^(١).

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّا نَجِدُ فِي بَعْضِ النِّسَاءِ مِنَ النَّبَاهَةِ وَالْحِفْظِ وَالْعَقْلِ مَا هُوَ
أَكْمَلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الرِّجَالِ، فَكَيْفَ يَتَّفِقُ هَذَا مَعَ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْأَعْمِّ الْأَكْثَرِ، وَالنَّادِرُ لَا حُكْمَ لَهُ، فَالْأَصْلُ فِي الْمَرْأَةِ
قُصُورُهَا عَنِ الرَّجُلِ، وَاخْتِلَافُهَا عَنِ الرَّجُلِ، وَإِذَا وَجَدَ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ هِيَ كَامِلَةٌ
الْعَقْلَ، قُوَّةَ الْعَزِيمَةِ، فَهَذَا نَادِرٌ، وَالنَّادِرُ لَا حُكْمَ لَهُ، وَالْعِبْرَةُ بِالْأَعْمِّ الْأَغْلَبِ.

٢٤ - جَوَّازُ شَهَادَةِ الْإِنْسَانِ إِذَا نَسِيَهَا، ثُمَّ ذَكَرَ بِهَا، فَيَشْهَدُ، وَلَكِنْ هَلْ يَلْزِمُهُ
أَنْ يَقُولَ: إِنِّي شَهِدْتُ، ثُمَّ نَسِيتُ، فَذَكَرَنِي فَلَانَ؟

الْجَوَابُ: لَا يَلْزِمُ، مَا دَامَ أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ الشَّهَادَةَ حِينَ ذَكَرَ بِهَا فَلَا حَاجَةَ أَنْ يَقُولَ:
نَسِيتُهَا، فَذَكَرْتُ بِهَا. إِذْ إِنَّهُ سَيَشْهَدُ بِمَا شَهِدَ بِهِ أَوَّلًا، وَذَكَرَ إِيَّاهُ.

٢٥ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الشَّاهِدِ إِذَا دُعِيَ أَنْ يُجِيبَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا
دُعُوا﴾، وَهَذَا شَامِلٌ لِلتَّحْمُلِ وَالْأَدَاءِ.

فَالْتَّحْمُلُ مِثْلُ: أَنْ يَطْلُبَ صَاحِبُ الْحَقِّ مِنْ شَخْصٍ أَنْ يَشْهَدَ لَهُ عَلَى فَلَانٍ
عِنْدَ الْعَقْدِ، فَيَقُولُ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُقْرِضَ هَذَا الرَّجُلَ مِئَةَ رِيَالٍ، فَتَعَالَ، فَاشْهَدْ.
فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَشْهَدَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَأْبَى، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَهُ ضَرَرٌ فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان،
باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات، رقم (٨٠) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما أخرجه
مسلم في الموضع نفسه، رقم (٧٩) عن ابن عمر، و(٨٠) عن أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أو أهلِهِ، فهذا شيءٌ آخرٌ، بمعنى: أنه إذا خاف أن يلحقَهُ ضررٌ سقطَ عنه الوجوبُ.

ويشملُ الأداءَ أيضًا، إذا دُعِيَ الشَّاهدُ الَّذِي شَهِدَ بالحقِّ إلى مجلسِ القضاء؛ ليشهدَ بالحقِّ لصاحبه، وجبَ عليه أن يحضرَ إذا دُعِيَ.

وظاهرُ الآيةِ الكريمة: أنه إذا لم يُدعَ لم يلزمه أن يشهدَ، ولكن في هذا تفصيلٌ، وهو أن يُقال: إن كان الَّذي له الحقُّ يعلمُ بشهادةِ هذا الرَّجلِ فإنه لا يلزمه أن يشهدَ حتَّى يدعوهُ صاحبُ الحقِّ، وأمَّا إذا كان لا يعلمُ فإنه يجبُ على الشَّاهدِ أن يُبلغَ صاحبَ الحقِّ بالشَّهادةِ، ويقول: أنا مُستعدٌّ للحضورِ إذا طُلبَ مِنِّي.

٢٦- أنَّ ظاهرَ قولِهِ: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أنه لو كان الشُّهُودُ أَرْبَعَةً مَثَلًا، ثُمَّ طُلبَ منهمُ الحُضُورُ، وَجَبَ عليهمُ الحُضُورُ، ولا يقولون: الحقُّ يثبتُ بشهادةِ رَجُلَيْنِ. لأنَّ الآيةَ عامَّةٌ: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾، ولأنَّ رَبَّما يَقْدَحُ الحَصْمُ بشهادةِ الرَّجُلَيْنِ، فإذا قَدَحَ فيها، وبَطَلَتْ، ثُمَّ جاءَ بالشَّاهِدَيْنِ المُكَمِّلَيْنِ للأربعةِ، قَدَحَ فيهما أيضًا، وقال: هذانِ الشَّاهِدَانِ أَتَيْتَ بهما من السُّوقِ، لماذا لم تأتِ بهما من أوَّلِ القضيَّةِ؟! فإذا دُعِيَ الشُّهُودُ -ولو كانوا مِثَّةً- وَجَبَ عليهم الحُضُورُ.

٢٧- الإِرشادُ إلى الصَّبْرِ وامْتِثالِ الأمرِ؛ لِمَا في ذلك من الخيرِ الكثيرِ عاجلاً وآجلاً؛ لقولِهِ: ﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُوبُوا﴾ أي: الدِّينَ ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾.

٢٨- تحريرُ الكتابةِ، فيذكرُ الأَصْلَ والوَصْفَ؛ لقولِهِ: ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾، فلا يُكتفى بأن يكتبَ: في ذِمَّةِ فلانٍ دينٌ لِفُلانٍ مُؤَجَّلٌ. بل لا بُدَّ أن يُبيِّنَ الأَجَلَ.

٢٩- رَحْمَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعِبَادِهِ، حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِمَا فِيهِ حِفْظُ حُقُوقِهِمْ، وَسَدُّ بَابِ النِّزَاعِ وَالْخُصُومَةِ؛ فَإِنَّ الْكِتَابَةَ وَالْإِشْهَادَ لَا شَكَّ أَنَّ فِيهِمَا فُضًّا لِلنِّزَاعِ لَوْ حَصَلَ.

٣٠- أَنَّ فِي الْكِتَابَةِ وَالْإِشْهَادِ ثَلَاثَ فَوَائِدَ:

أولاً: أَنَّهُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ.

وثانياً: أَنَّهُ أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ.

وثالثاً: أَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى عَدَمِ الشَّكِّ.

لَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾؛ لَأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُكْتَبِ الدِّينُ، وَادَّعَاهُ صَاحِبُهُ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْمَدِينِ ذِكْرٌ لَهُ، فَقَالَ لَهُ الدَّائِنُ: إِنِّي قَدْ أَفْرَضْتُكَ مِئَةَ رِيَالٍ. وَالْمَدِينُ يُثِيقُ بِهَذَا الْمُدَّعِي، وَسَيُعْطِيهِ الْمِئَةَ، لَكِنْ سَيُعْطِيهِ الْمِئَةَ وَهُوَ فِي رَيْبٍ؛ لَأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مُسْتَنْدَاتٌ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾، فَإِذَا كُتِبَ وَأُشْهِدَ عَلَيْهِ زَالَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ فِي الْقُلُوبِ.

٣١- أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْعُقُودُ تِجَارَةً حَاضِرَةً، تُدَارُ بَيْنَ النَّاسِ، فَلَا بَأْسَ أَلَّا تُكْتَبَ؛ لَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾.

٣٢- تَخْفِيفُ الشَّرِيعَةِ وَتَيْسِيرُهَا؛ لَأَنَّهُ لَوْ أُمِرَ بَأَنْ يُكْتَبَ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى التِّجَارَةُ الْحَاضِرَةُ الَّتِي تُدَارُ، لَكَانَ فِي هَذَا مَشَقَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَلَكِنْ مِنْ تَيْسِيرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ التِّجَارَةَ الْحَاضِرَةَ الَّتِي تُدَارُ لَا يَلْزَمُ كِتَابَتُهَا.

٣٣- الْإِرْشَادُ إِلَى الْإِشْهَادِ عِنْدَ الْبَيْعِ؛ لَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾،

وَهَلِ الْإِشْهَادُ هُنَا وَاجِبٌ، أَوْ لَيْسَ بِوَاجِبٍ؟

الجواب: إن كان الإنسان يتصرف لغيره - كالولي، والوكيل، والوصي، وناظر الوقف - وكانت الصفة ذات أهمية، فالإشهاد واجب؛ لئلا يحصل في ذلك نزاع، ويضيع حق الغير.

أما إذا كان ذلك العقد لنفسه فالإشهاد ليس بواجب، لكنه أفضل وأكمل، ودليل ذلك: أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ابتاع فرساً من أعرابي، وطلب أن يتبعه إلى بيته؛ لينقد له الثمن، فلحق الناس هذا الأعرابي، وجعلوا يزيدون الثمن، دون أن يعلموا أنه اتفق مع النبي ﷺ، فلما وصل إلى البيت قال الأعرابي للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: هل لك أن تزيد؟ لأنه زيد في ثمنه، قال له: «إنك قد بعث علي»، قال: ما بعث، هل لك أحد يشهد؟ يقوله الأعرابي، فقام خزيمة بن ثابت رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، أنا أشهد أنك اشتريته منه بهذا الثمن. فافتنع الأعرابي، ثم قال النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - لخزيمة: «كيف تشهد؟» يعني: ولم تحضر؟ قال: يا رسول الله، نصدقك بخبر السماء، ولا نصدقك بخبر الأرض؟! فجعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين^(١)، وهذا يدل على أن الإشهاد عند البيع ليس بواجب.

٣٤- تحريم المضاربة للكاتب والشاهد، سواء وقعت منهما، أو وقعت عليهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، وسبق أن الآية الكريمة صالحة لأن تكون المضاربة من الكاتب والشاهد، أو على الكاتب والشاهد.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب القضاء، باب إذا علم الحاكم صدق الشاهد الواحد، رقم (٣٦٠٧)، والنسائي: كتاب البيوع، باب التسهيل في ترك الإشهاد على البيع، رقم (٤٦٥١)، وأحمد (٢١٥/٥).

٣٥- الإشارة إلى تحريم المضاربة، ووجوب إزالة الضرر؛ لقوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، فالضرر مَنفِيٌّ شَرْعًا، والضرارُ أَشَدُّ، وَيَجِبُ أَنْ يُمْنَعَ، وَيَشْهَدُ لهذا: قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «لَا ضَرَرَ، وَلَا ضَرَارَ»^(١)، فَنَفَى النَّبِيُّ ﷺ الضَّرَرَ وَالضَّرَارَ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الضَّرَرَ يَحْصُلُ بِلا قَصْدٍ، وَالضَّرَارَ يَحْصُلُ بِقَصْدٍ، وَمَنْ ضَارَّ ضَارًّا اللَّهُ بِهِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ مَسَائِلُ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الْجَارِ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَتَضَرَّرُ بِهِ جَارُهُ، وَلَهُ أُمُثْلَةٌ كَثِيرَةٌ ذَكَرَهَا أَهْلُ الْعِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي بَابِ الصُّلْحِ، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهَا.

وكَذَلِكَ يَحْرُمُ عَلَى الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي أَنْ يُضَارَّ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، وَعَلَى الْمُؤْجِرِ وَالْمُسْتَأْجِرِ، وَكُلُّ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ مُعَامَلَةٌ فَإِنَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ دَاخِلَةٌ فِيهَا، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِقْرَارُ الضَّرَرِ، وَلَا تَجَوُّزُ الْمُضَارَّةِ.

٣٦- أَنَّ الْمُضَارَّةَ فَسَقٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾، أَي: وَإِنْ تُضَارُّوا الْكَاتِبَ وَالشَّهِيدَ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ، أَي: خُرُوجٌ عَنِ الطَّاعَةِ، وَعَنِ الْمَعْرُوفِ، وَعَنِ الْمُرُوءَةِ، فَكَيْفَ يُضَارُّ الْكَاتِبُ وَهُوَ مُحْسِنٌ؟! أَوِ الشَّهِيدُ وَهُوَ مُحْسِنٌ؟! وَكَيْفَ يَقَعُ الضَّرَرُ أَوْ الْإِضَارُّ مِنَ الْكَاتِبِ وَالشَّهِيدِ، وَهُوَ مُؤَمَّنٌ؟! كُلُّ هَذَا يُخْرِجُ عَنِ الْعَدَالَةِ إِلَى الْفِسْقِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾.

٣٧- وَجُوبُ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ -أَعْنِي: التَّقْوَى- امْتِثَالُ أَمْرِ اللَّهِ وَاجْتِنَابُ نَهْيِهِ، وَلَا سِيَّما فِيما وَرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، فَتَفْعَلُ الْأَوَامِرَ، وَتُجْتَنِبُ النَّوَاهِي.

٣٨- مِنْهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِتَعْلِيمِهِمْ مَا فِيهِ صَلَاحٌ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ،
وَاسْتِقَامَةُ أَحْوَالِهِمْ، وَابْتِعَادُهُمْ عَنِ الْخُصُومَةِ وَالنِّزَاعِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ
اللَّهُ﴾.

وقد ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَدْوَاتِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ
أُمَهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]،
فهذه هي الوسائلُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْعِلْمُ؛ لِأَنَّ الْمَعْلُومَ إِمَّا مَسْمُوعٌ، وَإِمَّا مَرِيٌّ،
وَإِمَّا مَعْقُولٌ، فَأَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لِتَسْمَعُوا
مَا يَحْصُلُ بِهِ الْعِلْمُ ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لِتَرَوْا مَا يَحْصُلُ بِهِ الْعِلْمُ ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لِتَعْقِلُوا
مَا يَحْصُلُ بِهِ الْعِلْمُ.

٣٩- عُمُومُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ﴾، فَيَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْمُتَمَتِّعُ يَعْلَمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ مُتَمَتِّعٌ، كَمَا فِي قَوْلِ
اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا﴾ لو كان معه إِلَهٌ
﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وَلِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ
مَعَ اللَّهِ آلِهَةٌ.

٤٠- التَّحْذِيرُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَتَى عِلِمَ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ أَحْوَالِهِ،
بِكُلِّ أَقْوَالِهِ، بِكُلِّ أَفْعَالِهِ، بِكُلِّ تَقَلُّبَاتِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَخَافَ وَيَحْذَرُ، وَلَوْلَا هَذِهِ الْفَائِدَةُ
لَمْ يَحْصُلْ لِلْإِنْسَانِ سُلوُكٌ حَسَنٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُخَالَفَةِ وَالطَّاعَةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَهَلْ يَعْلَمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْتَقْبَلَ؟

فالجواب: نَعَمْ، يَعْلَمُ الْمُسْتَقْبَلُ: متى يكون؟ وأين يكون؟ وكيف يكون؟
 قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]،
 وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في آية الكرسي: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عِندَ اللَّهِ قَلْبُهُ مُّغْلَبٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (١٨٢)

هذه تابعة للآية التي قبلها، حيث أَمَرَ اللهُ تعالى بكتابة الدين المؤجل، فإذا
 كنّا على سفرٍ، وليس عندنا من يكتبُ، فكيف يتوثّق الإنسان من صاحبه؟
 بيّن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هنا ما يكون به التوثّق، فقال: ﴿فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً﴾ يعني:
 الواجبُ رهانٌ تُقبَضُ.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ أي: أَمِنَ صاحبُ الحقِّ مَنَ عليه الحقُّ، فلا حاجة
 إلى رهنٍ، ولا إلى قبضِ رهنٍ، ولهذا قال: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾ ولا حاجة
 إلى شيءٍ سوى هذا ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فيؤدّ الأمانة على ما كانت عليه بدونِ نقصٍ،
 ولا زيادةٍ.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ انتقل إلى خطابِ الشّهداء، يُخاطِبُهُم، يقولُ:
 لا تَكْتُمُوا الشّهادة، أي: لا تُخفّوها، بل ائثروا بها ولو كانت على أنفسكم أو الوالدين

وَالْأَقْرَبِينَ؛ كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ بِأَلْقَاطٍ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا﴾ أي: مَنْ يَكْتُمِ الشَّهَادَةَ حِينَ يُسْأَلُ شَهَادَتَهُ، أَوْ حِينَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَدَاؤُهَا إِذَا لَمْ يَعْلَمْ الْمَشْهُودُ لَهُ، قَالَ: ﴿فَإِنَّهُ ءَاتَمٌ قَلْبُهُ﴾، لَمَّا كَانَ الْكِتْمَانُ لَشَهَادَةٍ غَيْرِ مَعْلُومَةٍ، وَمَحَلُّ ذَلِكَ الْقَلْبُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُ ءَاتَمٌ قَلْبُهُ﴾؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَحَلُّ الشَّهَادَةِ، فَإِذَا كَتَمَهَا الْإِنْسَانُ كَانَ الْإِثْمُ لِلْقَلْبِ.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يَعْنِي: لَا تُظَنُّوا أَنَّكُمْ إِذَا كَتَمْتُمُ الشَّهَادَةَ أَنَّ اللَّهَ يَخْفَى عَلَيْهِ ذَلِكَ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ بِمَا تَعْمَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ هُوَ عَزَّجَلَّ يَعْلَمُ مَا لَمْ نَعْمَلْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝ (١٦) إِذْ يَنْفَلِقُ الْمَتْلِفَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٨].

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أَنَّ التَّوَثُّقَ فِي الْحَقِّ تَكُونُ بِالرَّهْنِ، كَمَا تَكُونُ بِالْكِتَابَةِ وَالشَّهَادَةِ، فَالْكِتَابَةُ وَالشَّهَادَةُ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيْهِمَا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَأَمَّا الرَّهَانُ فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ.

قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: وَالرَّهْنُ: أَنْ يُوثَّقَ الْإِنْسَانُ دَيْنًا بَعِيْنٍ، بِمَعْنَى: أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي ذِمَّةِ شَخْصٍ دَيْنٌ، فَيُرِيدُ أَنْ يُوثَّقَهُ، فَيُعْطِيَهُ الْمَدِينُ عَيْنًا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَوْفِيَ الْحَقَّ مِنْهَا.

مِثَالُ ذَلِكَ: رَجُلٌ اسْتَقْرَضَ مِنْهُ آخَرُ مِئَةَ رِيَالٍ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمَا كَاتِبٌ وَلَا شَاهِدٌ، فَقَالَ: أَعْطِنِي رَهْنًا أَسْتَوْثِقُ لَهُ. فَأَعْطَاهُ رَهْنًا يُسَاوِي مِئَةَ رِيَالٍ أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ، فَإِنْ

كان يُساوي مئة ريالٍ أو أكثرَ فقد استوثقَ لدينه كُلُّه، وإن كان لا يُساوي إلا أقلَّ فقد استوثقَ لِبعضِ دينه، وهو حُرٌّ في ألا يستوثقَ بجميعِ الدينِ.

٢- ذِكْرُ الحَالِ الَّتِي يُضْطَرُّ فِيهَا لِلرَّهْنِ، وذلك فيما إذا كان على سَفَرٍ؛ لأنَّ هذا هو الَّذي يَحْتَاجُ فيه الإنسانُ -أي: يُضْطَرُّ فيه- إلى رَهْنٍ، ولا حَرَجَ أن يكونَ الرَّهْنُ في الحَضَرِ؛ لأنَّه ثَبَتَ عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ اشْتَرَى طَعَامًا لِأَهْلِهِ مِنْ يَهُودِيٍّ، وَأَرْهَنَهُ دِرْعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حَتَّى إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ تُوْفِيَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ هَذَا الْيَهُودِيِّ^(١).

٣- أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَبْضِ الرَّهْنِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَرَهْنٌ مَقْبُوضَةٌ﴾، وَلَكِنَّ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ أَجْلِ تَمَامِ التَّوَثُّقِ، لَا مِنْ أَجْلِ لُزُومِ الرَّهْنِ، فَلَا تَتِمُّ التَّوَثُّقُ بِالرَّهْنِ إِلَّا إِذَا كَانَ مَقْبُوضًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ عِنْدَ الرَّاهِنِ فَرَبًّا يُتْلَفُهُ أَوْ يَجْحَدُهُ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَهَلْ يَصِحُّ إِنْقَاءُ الْمَرْهُونِ عِنْدَ الرَّاهِنِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ، وَيَكُونُ الرَّهْنُ لَا زِمًا؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ فِي هَذَا خِلَافًا بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ قَبْضَ الرَّهْنِ شَرْطٌ لِلزُّومِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِشَرْطٍ لِلزُّومِ. وَهَذَا الثَّانِي هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ عَمَلُ النَّاسِ، فَيَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَرْتَهِنَ بَيْتًا فِي دَيْنٍ لَهُ عَلَى صَاحِبِ الْبَيْتِ، مَعَ بَقَاءِ صَاحِبِ الْبَيْتِ سَاكِنًا فِيهِ، هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ.

وَحِينَئِذٍ لَا يَجُوزُ لِصَاحِبِ الْبَيْتِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهِ بِبَيْعٍ أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا يَكُونُ سَبَبًا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابُ مَا قِيلَ فِي دِرْعِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (٢٩١٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاقَاةِ، بَابُ الرَّهْنِ، رَقْمُ (١٦٠٣) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

فِي نَقْلِ مَلِكِهِ، وَعَمَلِ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَقْبُوضَةٌ﴾ وَصَفًا لِتِمَامِ التَّوَثُّقَةِ بِالرَّهْنِ.

٤- أَنَّهُ إِذَا أَمِنَ بَعْضُ الْمُتَعَاقِدِينَ الْآخَرَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الرَّهْنِ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى قَبْضِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾، وَأَمَانَتُهُ مُقْتَضَى الْعَقْدِ الَّذِي حَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِهِ.

٥- تَهْدِيدٌ مَنْ لَمْ يُؤَدِّ الْأَمَانَةَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَيْتَقَى اللَّهُ رَبَّهُ﴾، وَالْخِيَانَةُ فِي الْأَمَانَةِ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّ الْمُنَافِقَ هُوَ الَّذِي إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَإِذَا خَانَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَهَلْ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَخُونَهُ فِي مُقَابَلَةٍ مَا خَانَهُ بِهِ؟

فَالْجَوَابُ: لَا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»^(١).

٦- تَحْرِيمُ كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾، وَلَكِنْ هَلْ يُشْتَرَطُ طَلَبُ الْمَشْهُودِ لَهُ أَنْ يَشْهَدَ الشَّاهِدُ؟

الْجَوَابُ: إِنْ كَانَ الْمَشْهُودُ لَهُ قَدْ عَلِمَ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَأْتُمُ الشَّاهِدُ حَتَّى يُطْلَبَ، فَإِذَا طُلِبَ وَامْتَنَعَ فَهُوَ آثِمٌ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمَشْهُودُ لَهُ لَا يَعْلَمُ فَالْوَاجِبُ عَلَى الشَّاهِدِ أَنْ يُخْبِرَ الْمَشْهُودَ لَهُ بِأَنْ لَهُ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ طَلَبَهَا، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَهَا.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْبَيُوعِ، بَابُ فِي الرَّجُلِ يَأْخُذُ حَقَّهُ مِنْ تَحْتِ يَدِهِ، رَقْمُ (٣٥٣٥)، وَالتِّرْمِذِيُّ:

كِتَابُ الْبَيُوعِ، رَقْمُ (١٢٦٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كَمَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ، رَقْمُ (٣٥٣٤)، وَأَحْمَدُ (٤١٤/٣) مِنْ حَدِيثِ رَجُلٍ مَبْهُمٍ.

٧- أَنَّ الْعِبْرَةَ بِمَا فِي الْقَلْبِ، وَعَلَيْهِ مَدَارُ الْأَعْمَالِ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ: قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

وقد ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَالَ الذَّاكِرِينَ، وَأَنَّ حُضُورَ الْقَلْبِ فِي الذِّكْرِ هُوَ الْمُهْمُّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٨- عِلْمُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِكُلِّ مَا نَعْمَلُ؛ لقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، فَكُلُّ مَا نَعْمَلُهُ فَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ، حَتَّى إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي سُورَةِ (ق): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

٩- تَهْدِيدُ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ؛ فَإِنَّ إخبارَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِإِيَانَا بِعِلْمِهِ بِعَمَلِنَا يَقْتَضِي التَّهْدِيدَ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ سُوءًا فَلْيَذْكُرْ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِهِ، فَيَخَافُ اللَّهَ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ صَالِحًا فَلْيَذْكُرْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِهِ، فَلَنْ يُضَيِّعَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤)

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال، رقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يُخْبِرُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ خَلَقًا وَمُلْكًا وَتَدْبِيرًا.

وما في السَّمَاوَاتِ يَشْمَلُ كُلَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وما فيها من المَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ، وقد شَاهَدَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- حين عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاوَاتِ، شَاهِدًا مَنْ شَاهَدَ مِنَ الرُّسُلِ الْكَرَامِ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وكذلك ما في الْأَرْضِ، وَالْأَرْضُ هُنَا وَإِنْ كَانَتْ مُفْرَدَةً فَالْمُرَادُ الْجِنْسُ، فَيَشْمَلُ الْأَرْضِينَ السَّبْعَ، فَكُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَيٍّ وَمَيِّتٍ، وَرَطْبٍ وَيَابِسٍ، وَأَنْهَارٍ وَبِحَارٍ، وَغَيْرِهَا، كُلُّهُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ ﴿تُبْدُوا﴾ أي: تُظْهِرُوا؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ تُخَفُّوهُ﴾، وَالْكَلِمَةُ يُعْرَفُ مَعْنَاهَا إِمَّا بِنَفْسِهَا، وَإِمَّا بِذِكْرِ مَا يُقَابِلُهَا.

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، لَوْ قَالَ لَكَ قَائِلٌ: مَا مَعْنَى ﴿ثُبَاتٍ﴾؟ فَرُبَّمَا لَا تَعْرِفُ مَعْنَاهَا؛ لِأَنَّ لَفْظَهَا غَرِيبٌ، لَكِنْ إِذَا قَرَأْتَ: ﴿أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ عَرَفْتَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أي: مُتَفَرِّقِينَ وَحَدَانًا.

وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ هل يَلْزَمُ مِنَ الْحَاسِبَةِ الْمُؤَاخَذَةُ وَالْمُعَاقَبَةُ؟ فَهِمَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ذَلِكَ، وَجَاؤُوا يَشْكُونَ الْأَمْرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُمِرْنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّيَامِ وَالْحَجِّ بِمَا لَنَا فِيهِ طَاقَةٌ، فَقُمْنَا بِهِ، لَكِنْ مَا فِي النُّفُوسِ لَيْسَ لَنَا بِهِ طَاقَةٌ. وَذَلِكَ لِأَنَّ مَا فِي النُّفُوسِ يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ

من الوسائسِ وغيرها مما لا يستطيعُ الإنسانُ أن يتخلَّصَ منه، فقال النبي ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا، وَعَصَيْنَا؟! قُولُوا: سَمِعْنَا، وَأَطَعْنَا، غُفْرَانِكَ رَبَّنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، فقالوا ذلك، فأنزل الله بعدها: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١).

وقال بعضُ أهلِ العلم: هذه الآية ليس فيها ما تخوِّفه بعضُ الصحابةِ رضي الله عنهم؛ لأنَّه لا يلزمُ من المحاسبةِ المؤاخذه، فهاهو الله عزَّ وجلَّ يخلو بالمؤمن يومَ القيامةِ، فيقرُّه بذنوبه: عَمِلْتَ كَذَا، عَمِلْتَ كَذَا. حتَّى يُقرَّ، فيقولُ الله له: «قَدْ سَتَرْتُمَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(٢).

وعلى كُلِّ حالٍ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُعاقِبُ العبدَ على شيءٍ لا يَحْتَمِلُهُ.

وقوله: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: بعدَ المحاسبةِ يغفرُ لِمَنْ يَشَاءُ، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ؛ لأنَّ له الملكَ المطلقَ، لا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وهو السَّمِيعُ العَلِيمُ، ولكنَّه جَلَّ وَعَلَا لَنْ يَفْعَلَ فِعْلاً إِلَّا لِحُكْمَةٍ، إِنْ غَفَرَ فَلِحُكْمَةٍ وَرَحْمَةٍ، وَإِنْ عَذَّبَ فَلِحُكْمَةٍ وَعَدْلٍ.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعْجزُهُ شَيْءٌ عَزَّ وجلَّ، إِنْ كَانَ مَوْجُودًا فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعْدَامِهِ، وَإِنْ كَانَ مَعْدُومًا فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِجَادِهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان؛ باب بيان تجاوز الله عن حديث النفس، رقم (١٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٢٥٤).

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد والأسرار ما يلي:

١ - عمومُ مُلْكِ اللهِ سُبحَانَهُ وتَعَالَى لَهَا في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وأنَّه لا شَرِيكَ لَهُ في ذلك، ودليلُهُ: أَنَّهُ قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فَقَدَّمَ الحَبَرَ، وتَقَدَّمَ ما حَقُّهُ التَّأخيرُ يُفِيدُ الاختِصاصَ والحَصَرَ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ.

٢ - أَنَّ السَّمَاوَاتِ جَمْعٌ، وَلَكِنْ ما العَدَدُ؟ بَيَّنَّ في آيَةٍ أُخْرَى، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا: ١٢].

أَمَّا الأَرْضُ فجاءَتْ في القرآنِ مُفْرَدَةً، لَكِنْ صَحَّتِ السُّنَّةُ بِأَنَّهَا سَبْعُ أَرْضِينَ؛ كما في قَوْلِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(١).

٣ - أَنَّ اللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ ما يُخْفِي العَبْدُ وما يُبْدِيهِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، والغَرَضُ من هذا: أَلَّا يُضْمَرَ الإنسانُ في نَفْسِهِ شَيْئًا يُؤَاخِذُهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ الإنسانَ متى عَلِمَ أَنَّ اللهُ عَالِمٌ بما يُبْدِي وَيُخْفِي فلن يُخْفِيَ شَيْئًا لا يَرْضاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، إِنْ كانَ مُؤْمِنًا عَاقِلًا.

٤ - إِبْثَابُ المَشِيئَةِ المُطْلَقَةِ لِلهِ عَزَّوَجَلَّ، لا رَادَّ لِحُكْمِهِ، ولا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾، والحِكْمَةُ من ذِكْرِ هذا: أَنَّ يَلْجَأَ العَبْدُ إلى رَبِّهِ في مَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِ، وَيُعَلِّقَ هذا بالله؛ لِأَنَّهُ لا أَحَدَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

٥- إثبات الفعلِ لله عَزَّجَلَّ، أي: أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ؛ لِقَوْلِهِ: «يَغْفِرُ» و«يُعَذِّبُ» و«يَحَاسِبُ».

٦- إثباتُ قُدْرَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا الْخَبَرِ الْعَظِيمِ: أَلَّا نَسْتَحْسِرَ فِي شَيْءٍ نَطْلُبُهُ مِنْ اللهِ عَزَّجَلَّ بَدُونِ اعْتِدَاءٍ، وَلَوْ كَانَ بَعِيدًا، وَلَوْ كَانَ عَظِيمًا، لَا تَقُلْ: هَذَا مَرَضٌ خَطِيرٌ. هَذَا مَرَضٌ لَا يُرْجَى بُرْؤُهُ. هَذَا مَرَضٌ كَيْفَ أَسْأَلَ اللهُ أَنْ يَشْفِيَنِي مِنْهُ؟! لَا يَا أَخِي، اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَلَمَّا قَالَ زَكَرِيَّا لِرَبِّهِ عَزَّجَلَّ: إِنَّهُ بَلَغَهُ الْكِبَرُ، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ عَاقِرًا. قَالَ اللهُ لَهُ: ﴿كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، وَقَالَ لَهُ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، انْظُرْ: ﴿خَلَقْتَكَ مِنْ قَبْلُ﴾، فَالَّذِي أَوْجَدَكَ مِنَ الْعَدَمِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعْدمَ مَا فِيكَ مِنْ مَرَضٍ؛ لِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَلَا تَيَاسَسْ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تُرِيدُهُ مِنَ اللهِ عَزَّجَلَّ، لَكِنْ لَا تَعْتَدِ فِي دُعَائِكَ، فَتَطْلُبْ مَا لَا يُمَكِّنُ شَرْعًا أَوْ مَا لَا يُمَكِّنُ حِسًّا.



ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّجَلَّ:

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥)

قَوْلُهُ: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ﴾ الرَّسُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-؛

لَآئِهٖ لَا رَسُولَ حِينَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ إِلَّا مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وَهُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ يَشْمَلُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿الرَّسُولِ﴾، أَي: وَأَمَنَ الْمُؤْمِنُونَ كَذَلِكَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

﴿كُلُّ﴾ أَي: كُلُّ مِنَ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿ءَامَنَ﴾ أَي: أَقَرَّ إِقْرَارًا تَامًا لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَا رَيْبَ فِيهِ ﴿بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾.

وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِوُجُودِهِ، وَالْإِيمَانَ بِأَنَّهُ الرَّبُّ وَحْدَهُ، وَبِأَنَّهُ الْإِلَٰهُ وَحْدَهُ، وَبِأَنَّهُ ذُو الْأَسْمَاءِ الْكَامِلَةِ، وَالصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ.

﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ جَمْعُ مَلَكٍ، وَهُمْ - أَعْنِي: الْمَلَائِكَةُ - عَالَمٌ غَيْبِيٌّ لَا يُشَاهَدُ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ آيَةً يَأْتِي بِهَا الرَّسُولُ ﷺ.

وهؤلاء الملائكة لا يُخْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ، مِنْهُمْ مَنْ عَلِمْنَا، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَعْلَمْ، فَتَوْمِنُ بِمَنْ عَلِمْنَا عَلَى حَسَبِ مَا عَلِمْنَا، وَتَوْمِنُ بِمَنْ لَمْ نَعْلَمْ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُتُبِهِ﴾ يَعْنِي: الَّتِي أُنْزِلَتْهَا عَلَى الرُّسُلِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ

النَّاسِ فِيْمَا اخْتَلَفُوا فِيْهِ ﴿البقرة: ٢١٣﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ اَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ
وَاَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

والكُتُبُ منها ما عَلِمْنَاهُ، ومنها ما لم نَعْلَمْهُ، فالتَّوْرَةُ عَلِمْنَا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَهَا عَلَى
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْإِنْجِيلُ عَلِمْنَا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَهُ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالزَّبُورُ آتَاهُ اللهُ
دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ آتَاهُ اللهُ صُحُفًا، وَمُوسَى كَذَلِكَ، وَمَا لَمْ نَعْلَمْ
نُؤْمِنُ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُسُلِهِ﴾ جَمْعُ رَسُولٍ، وَهُمْ رِجَالٌ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِمْ بِمَا شَاءَ مِنْ
شَرِيعَتِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُبَلِّغُوهُ إِلَى النَّاسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِحَمِيدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى
آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَهُوَ خَاتَمُهُمْ: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ
فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وَهُمْ قِسْمَانِ:

■ قِسْمٌ عَلِمْنَاهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ، وَعَلِمْنَا أَقْوَامَهُمْ.

■ وَقِسْمٌ لَمْ نَعْلَمْهُمْ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ
مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُّسُولِ أَنْ يَأْتِيَكِ بَشِيرَةً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [غافر: ٧٨]، فَتُؤْمِنُ
بِهِمْ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ فِيمَنْ عَلِمْنَاهُ، وَعَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ فِيمَا لَمْ نَعْلَمْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ أي: لَا تُفَرِّقُ فِي الْإِيمَانِ بِهِمْ، بَلْ تُؤْمِنُ
بِهِمْ جَمِيعًا، وَإِنْ كُنَّا نَفَرِّقُ بَيْنَهُمْ فِي التَّفَاضُلِ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ:
﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فَتُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ.

وَنُفِّرْ بَيْنَهُمْ أَيْضًا مِنْ جِهَةِ الْعَمَلِ بِشَرَائِعِهِمْ، فَلَا نَعْمَلُ بِشَرِيعَةِ سِوَى شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِأَنَّ شَرِيعَتَهُ نَاسِخَةٌ لِجَمِيعِ الشَّرَائِعِ.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: قَالَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿سَمِعْنَا﴾ أي: سَمِعْنَا مَا أَمَرْتَنَا بِهِ يَا رَبَّنَا، وَمَا أَخْبَرْتَنَا عَنْهُ يَا رَبَّنَا، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أَوْ أَمَرَكُ بِامْتِثَالِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي ﴿غُفْرَانُكَ﴾ هَذِهِ مَفْعُولٌ لِفِعْلِ مَحْذُوفٍ مُقَدَّرٍ، وَالتَّقْدِيرُ: نَسَأَلُكَ غُفْرَانَكَ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْقَارِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ثُمَّ يَقُولَ: ﴿غُفْرَانُكَ﴾؛ لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ السَّامِعُ أَنَّنَا أَطَعْنَا الْغُفْرَانَ.

وَالْمَغْفِرَةُ: سَتْرُ الذَّنْبِ، وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُ. فَسَتْرُ الذَّنْبِ بَحِثٌ لَا يُفْضَحُ بِهِ الْعَبْدُ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَعْمَلُ الذَّنْبَ سِرًّا، ثُمَّ يُطْلِعُ اللَّهَ عَلَيْهِ الْخَلْقَ، نَسَأَلُ اللَّهَ السَّتْرَ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا لَا يُؤَاخِذُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَجْهٌ هَذَا التَّفْسِيرِ -أَعْنِي: أَنَّ الْغُفْرَانَ شَامِلٌ لِمَعْنَيْنِ: السَّتْرَ، وَالْمُجَاوِزَةَ- أَنَّهُ مَأْخُودٌ مِنَ الْمَغْفَرِ، وَهُوَ مَا يُوَضَّعُ عَلَى الرَّأْسِ مِنْ حَدِيدٍ -يُسَمَّى: الْبَيْضَةَ، أَوْ الْخُوْذَةَ- يَبْقَى بِهِ الْإِنْسَانُ السَّهَامَ عِنْدَ الْقِتَالِ، وَهَذَا الْمَغْفَرُ جَامِعٌ بَيْنَ سَتْرِ الرَّأْسِ وَوِقَايَتِهِ، فَلِهَذَا قُلْنَا: إِنَّ الْمَغْفِرَةَ سَتْرُ الذَّنْبِ وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا﴾ مُنَادَى حُذِفَتْ مِنْهُ يَاءُ النِّدَاءِ، وَالتَّقْدِيرُ: «يَا رَبَّنَا»، فَهُوَ دُعَاءٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، أَوْ عَلَى الْفِعْلِ الْمَقْدَرِ قَبْلَ: ﴿غُفْرَانُكَ﴾، وَالْمَعْنَى: إِلَيْكَ وَحْدَكَ الْمَصِيرُ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: «وَحْدَكَ»؛ لِأَنَّهُ قَدَّمَ الْمَعْمُولَ -وَهُوَ (إِلَيْكَ)- عَلَى الْعَامِلِ، وَهُوَ ﴿الْمَصِيرُ﴾، وَتَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ عَلَى عَامِلِهِ يُفِيدُ الْحَضَرَ وَالِاخْتِصَاصَ، وَالْمَصِيرُ هُوَ: الْمَرْجِعُ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي :

١ - الثناء على مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - والمؤمنين معه بالإيمان التام الذي لا شك فيه، ولا إشكال.

٢ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد أُنْزِلَ إِلَيْهِ الْوَحْيُ؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾.

وَمِنْ الْحِكْمَةِ فِي إِضَافَةِ هَذَا الْمُنْزَلِ إِلَى رَبِّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إلقاء الهيبة والتعظيم على ما أُنْزِلَ على الرَّسُولِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -؛ لأنه إذا كان من عِنْدِ اللهِ فسيكون له من العظمة والقبول ما ليس لغيره.

٣ - أَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ من الربوبية الخاصة، التي يَمُنُّ اللهُ بها على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ مَنْ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى عِلْمًا بِمَا أُنْزِلُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فإنه من الربوبية الخاصة، والعناية الخاصة، ولهذا كان العلماء ورثة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

٤ - ذِكْرُ التَّفْصِيلِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ؛ لقوله: ﴿كُلُّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكْتِكَيْهِ وَكُتِبَ عَلَيْهِ رُسُلُهُ﴾؛ لأنَّ الْإِيْمَانَ بهذه الْأَرْبَعَةِ مِنْ جُمْلَةِ الْإِيْمَانِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

٥ - أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ مَلَأَتْهُ، وَأَنَّهُ أُنْزِلَ كُتْبًا -تَقَوْمُ بِهَا الْحُجَّةُ- عَلَى كُلِّ رَسُولٍ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلًا إِلَى الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ الْعُقُولَ لَا تُدْرِكُ مَا يَحِبُّ اللهُ تَعَالَى مِنْ حُقُوقِ.

وقد بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى الْحِكْمَةَ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

٦- إثبات الملائكة عليهم الصلاة والسلام، وهم جنودُ اللهِ عَزَّجَلَّ، يَبْعَثُهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، مِنْهُمْ مَلَائِكَةٌ يُرْسِلُونَ رَحْمَةً، وَمَلَائِكَةٌ يُرْسِلُونَ لِلْعَذَابِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَنْ يَتَوَلَّانا مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ.

٧- الإيَّانُ بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ عَلَى الرُّسُلِ، فَمَا عَلِمْنَا مِنْهَا أَمَنًا بِهِ بَعِيْنِهِ، وَمَا لَمْ نَعْلَمْ نُؤْمِنُ بِهِ إِجْمَالًا، فَحَنُّ نَعْلَمُ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كِتَابًا يُسَمَّى: التَّوْرَةَ. وَعَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كِتَابًا يُسَمَّى: الْإِنْجِيلَ. وَدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ آتَاهُ اللهُ كِتَابًا يُسَمَّى: الزَّبُورَ. وَآتَى اللهُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ صُحُفًا، فَنُؤْمِنُ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ هَذِهِ.

ولكن هل ما بَيْنَ أَيْدِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْيَوْمَ هِيَ الْكِتَابُ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ، أَوْ وَقَعَ فِيهَا التَّخْرِيفُ، وَالتَّبْدِيلُ، وَالْإِخْفَاءُ، وَالْإِبَانَةُ؟

الجواب: الثاني، ولهذا لَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ أَنَّ التَّوْرَةَ الَّتِي فِي أَيْدِي الْيَهُودِ الْيَوْمَ هِيَ الَّتِي أَنْزَلَتْ عَلَى مُوسَى، وَلَا أَنَّ الْإِنْجِيلَ الَّذِي فِي يَدِ النَّصَارَى هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عِيسَى؛ لِأَنَّهُ دَخَلَ فِيهِ التَّبْدِيلُ وَالتَّغْيِيرُ وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ، لَكِنْ نُؤْمِنُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ كِتَابًا هُوَ التَّوْرَةُ، وَأَنَّ عِيسَى أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ كِتَابًا هُوَ الْإِنْجِيلُ، وَهَكَذَا.

٨- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِكُلِّ الرُّسُلِ مِنْ دُونِ تَفْرِيقٍ، فَنُؤْمِنُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَرْسَلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، وَلَا نُفَرِّقُ، فَلَا نَقُولُ: نُؤْمِنُ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَكْفُرُ بِنَبِيِّ آخَرَ، بَلْ نُؤْمِنُ بِالْجَمِيعِ.

فإن قال قائل: أليس في هذا حجة للنصارى واليهود الذين يقولون: إننا على كتاب، وأنتم على كتاب، وأنتم تقولون: لا نفرق بين أحد من رُسُلِهِ؟

قلنا: لا حجة، بل هذه الآية حجة عليهم؛ لأننا نؤمن بأن عيسى عليه السلام رسول الله، وأن موسى عليه السلام رسول الله، وهم لا يؤمنون بأن محمداً ﷺ رسول الله، وإن آمنوا فبعضهم يقول: مُرْسَلٌ إلى العرب فقط دون غيرهم. فهم الذين كفروا، وفرّقوا بين الرُّسُلِ، أمّا نحن فلا، بل نؤمن بالجميع، لكن الاتّباع للشرعية الأخيرة، وهي التي جاء بها محمدٌ -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم-؛ لأنّها ناسخةٌ لجميع الشرائع السابقة، حتّى إنّ عيسى عليه الصلاة والسلام بشّر بمحمدٍ ﷺ، فقال لقومه: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فمن لم يؤمن بمحمدٍ ﷺ على الوصف الذي أُرْسِلَ -أنّه مُرْسَلٌ لجميع الناس- فإنّه كافِرٌ بعيسى عليه السلام؛ إذ كيف يُبشّرهم عيسى عليه السلام برسول ليس برسولٍ لهم؟! هذا مُستحيلٌ.

كذلك لا يكون في هذه الآية حجة للمُنْهَزِمِينَ أمام كِبَرِيَاءِ الكُفَّارِ من اليهود والنصارى وغيرهم، حينما يُدَاهِنُونَهُمْ، ويقولون: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾، فإنّ هؤلاء انْهَزَامِيُونَ، ضِعَفَاءُ الْإِيمَانِ، ضِعَفَاءُ النُّفُوسِ، بل نحن لا نفرق بين أحدٍ من رُسُلِهِ في أنّ كلّ واحدٍ منهم رسولٌ صادقٌ، ونؤمن بما صحَّ عنه من أخبار الغيب، أمّا الشريعة فلا، بل نتبع شريعة آخرهم، وهو محمدٌ ﷺ.

وقد سبق أنّ التفرّيق بينهم في الفضل بنص القرآن، فنفرّق، ونقول: أُولُو الْعِزِّمْ أَفْضَلُ من غيرهم، وأُولُو الْعِزِّمْ أَنْفُسُهُمْ يَتَفَضَّلُونَ، وأُولُو الْعِزِّمْ خَمْسَةٌ:

نُوحٌ، وإبراهيمُ، ومُوسى، وعيسى، ومُحمَّدٌ، عليهم الصَّلَاة والسَّلَامُ. ومع ذلك فهم يَتَفَاَضِلُونَ، أَفْضَلُهُمْ: مُحمَّدٌ، ثُمَّ إبراهيمُ، ثُمَّ موسى، ثُمَّ نُوحٌ وعيسى، عليهم الصَّلَاة والسَّلَامُ.

٩- أُنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَبْدُ مَأمُورٍ، يَلْزِمُهُ السَّمْعُ والطَّاعَةُ؛ لِأَنَّهُ اتَّزَمَ بِهِذَا، فَقَالُوا -أي: الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ- ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

١٠- وَمِنَ الْحِكْمَةِ فِي إِخْبَارِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَالْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: أَنْ يَكُونَ لَنَا فِي ذَلِكَ أُسْوَةٌ، فنَقُولُ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. وهذا بِاعتِبَارِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، فلا نَقُولُ: لِمَ أَوْجَبَ اللَّهُ كَذَا؟ لِمَ حَرَّمَ اللَّهُ كَذَا؟ ولا نَقُولُ: لِمَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ، وَحَرَّمَ الرِّبَا؟ بل نَقُولُ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. كما قال اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، وقال اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مُعَاذَةً، وَقَدْ سَأَلَتْهَا: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ، وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ قالت: كَانَ يُصِيئُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا نُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ^(١). فلا يَقُولُ قَائِلٌ: لِمَاذَا يَجِبُ الْوُضُوءُ مِنْ أَكْلِ لَحْمِ الْإِبِلِ، وَلَا يَجِبُ الْوُضُوءُ مِنْ أَكْلِ لَحْمِ الْغَنَمِ؟ بل نَقُولُ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

وَالْإِنْسَانُ إِذَا مَشَى عَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ، وَهَذِهِ الطَّرِيقِ، سَلِمَ مِنْ إِشْكَالَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَمِنْ شُكُوكٍ كَثِيرَةٍ، وَصَارَ عَبْدًا حَقًّا.

وإنني بهذه المناسبة أنبه أيضاً على شيء يفعلُه بعض الناس، إذا ورد أمرٌ بشيءٍ تحبُّ بعض الناس يقول: هل الأمر للاستحباب، أو للوجوب؟ يا أخي، لا تقل هكذا، قل: سمعنا وأطعنا. إن كان للوجوب فقد أثابك الله عليه ثواب الواجب، وإن كان للاستحباب أثابك الله عليه ثواب المستحب.

لكن تسليمك لهذا الشيء، وفعلك إياه، دون أن تشعر بأنه واجب أو مستحب، هذا أعلى المقامات.

وكذلك إذا ورد النهي، يقول: هل هو للكرهية، أو للتحریم؟ لا تسأل يا أخي، نهيت، فاترك.

ولهذا لا أعلم أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يقولون إذا أمر الرسول ﷺ بأمر: يا رسول الله، هل هو مستحب، أو واجب؟ أو إذا نهى عن شيء يقولون: هل هو مكروه، أو حرام؟ ما علمت هذا.

نعم، إذا دار الأمر بين أن يكون هذا الأمر للمشورة أو للإرشاد أو لطلب الفعل، سألوا الرسول ﷺ، كما جاء ذلك في قصة بركة وزوجها مغيث، وكانت بركة مولاة مملوكة، ثم عتقت، فخيرها النبي ﷺ بين أن تبقى مع زوجها أو تفسخ نكاحها، فاختارت فسوخ النكاح، فجعل زوجها يطلب منها أن تبقى معه، ولكنها أصرت على المفارقة، حتى كان يلاحقها في أسواق المدينة يبكي، يريد أن ترجع، ولكنها أبت، فطلب من النبي ﷺ أن يشفع له إليها، فشفع، وقال لها: «لو راجعته» قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال ﷺ: «إمتا أنا أشفع»، قالت: لا حاجة لي فيه^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بركة، رقم (٥٢٨٣) من

حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وما كانوا يسألون: أتريدُ الوجوبَ يا رسولَ الله، أو تُريدُ الاستِحبابَ؟ أبدًا.

فمِنْ تَمَامِ الانقيادِ والذَّلِّ لله عَزَّجَلَّ إِذَا سَمِعْتَ أَمْرًا أَنْ تَفْعَلَهُ، نَعَمْ، إِذَا تَوَرَّطَ
الإنسانُ في الشَّيْءِ، أي: في المُخَالَفَةِ، فحينئذٍ يَسْأَلُ: هل هو للوجوبِ، فيحتاجُ إلى
توبةٍ، أو للاستِحبابِ، فالأمرُ فيه سَعَةٌ؟

وَأَمَّا قَبْلَ التَّوَرُّطِ فَيَا أَخِي أَنْتَ مُؤْمِنٌ، أَنْتَ ذَلِيلٌ، أَنْتَ عَبْدٌ، إِنَّكَ لَوْ أَمَرْتَ
وَلَدَكَ بِشَيْءٍ، وَرَدَّ عَلَيْكَ، وَقَالَ: يَا أَبَتِ، هل أَنْتَ مُصِرٌّ؟ لَرَأَيْتَ هَذَا سُوءَ آدَبٍ،
فكيف بأوامرِ الخالقِ؟!

فتِمَامُ الانقيادِ: فِعْلُ المأمُورِ، سواء كان واجِبًا أو غَيْرَ واجِبٍ، وتِمَامُ الانقيادِ:
تَرْكُ المَنْهِي عنه، سواء كان حَرَامًا أو غَيْرَ حَرَامٍ.

١١- أَنْ كُلَّ أَحَدٍ مُحْتَاجٌ إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ، فَالرَّسُولُ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ يَقُولُونَ:

﴿عُفْرَانُكَ﴾.

وكان النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ
تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ
اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ﴾ ٢ فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿[النصر: ١-٣]﴾ كان
يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ
لِي»^(١).

وكان يَسْأَلُ اللَّهَ المَغْفِرَةَ فِي صَلَاتِهِ وَخَارِجَ صَلَاتِهِ، بل قد قال الله تعالى له:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء في الركوع، رقم (٧٩٤)، ومسلم: كتاب الصلاة،
باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، فكلُّ إنسانٍ محتاجٌ إلى مغفرةِ الله، نَسألُ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا بِمَغْفِرَتِهِ وَعَفْوِهِ.

١٢- أَنْكَ إِذَا دَعَوْتَ اللَّهَ فَلْتَوَسَّلْ إِلَيْهِ بِرُبُوبِيَّتِهِ؛ لِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ هِيَ الَّتِي تَتَضَمَّنُ الْخَلْقَ وَالْمُلْكَ وَالتَّدْبِيرَ، وَانْظُرْ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿رَبَّنَا أَخْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وَانْظُرْ مَنْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا حِينَ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا ءَانِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

١٣- أَنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦]، فَمَهْمَا كَانَ الْإِنْسَانُ، وَمَهْمَا فَرَّ، فَالْمَصِيرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

أَخْبَرَنَا اللَّهُ بِذَلِكَ لِحِكْمَةٍ، وَهِيَ أَنْ نَسْتَعِدَّ لِهَذَا الْمَصِيرِ، وَأَنْ نُعِدَّ لَهُ الْعُدَّةَ، فَبِمَاذَا تُحْيَبُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ رَبَّكَ إِذَا لَقَاكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَإِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: أَقِيمُوا الصَّلَاةَ. فَأَقِمِ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّكَ سَتُسْأَلُ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦) فَلَنَقْضَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٦-٩]، إِنَّكَ مَسْئُورٌ عَمَّا حُمِّلْتَ، فَأَعِدَّ لِهَذَا السُّؤَالِ جَوَابًا.

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ [الفصص: ٦٥-٦٦].

نَسَّأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

يُخْبِرُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ بَيَانِ مِتِّهِ عَلَى هَذِهِ الْأَمَّةِ -وَاللَّهُ الْحَمْدُ- بَلْ وَعَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ، فَيَقُولُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أَي: لَا يُلْزِمُهَا إِلَّا بِمَا تُطِيقُ؛ لِأَنَّ الْوُسْعَ بِمَعْنَى الطَّاقَةِ، وَمَا لَا تُطِيقُهُ فَإِنَّهُ لَنْ يُلْزِمَهَا بِهِ؛ لِأَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ؛ وَلِأَنَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا.

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ، فَمَا كَسَبَتْ مِنْ خَيْرٍ فَهُوَ لَهَا، لَنْ يَضِيعَ، وَلَنْ يُنْقَصَ مِنْهُ شَيْءٌ، وَمَا اكْتَسَبَتْ مِنَ الشَّرِّ فَعَلَيْهَا، لَنْ يَزِيدَ، بَلْ بِالْعَدْلِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

يقول عَزَّجَلَّ: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربَّنَا ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وهذه فردٌ من أفرادِ قولِ الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، يعني: أن من آثارِ كونه عَزَّجَلَّ لا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا: أنه لا يُؤَاخِذُ بالنِّسيانِ والخطأ.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ هذه مَقُولٌ لِقَوْلِ مَحْذُوفٍ، والتَّقديرُ: يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ أي: لا تُعَاقِبْنَا ﴿إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، يعني: إن وَقَعَتِ الْمُخَالَفَةُ مِنَّا نِسْيَانًا أَوْ خَطَأً، فَالنِّسيانُ يَكُونُ بَعْدَ الْعِلْمِ، وَالْخَطَأُ قَبْلَ الْعِلْمِ، أي: أنَّ النِّسيانَ أن يَكُونَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ عِلْمٌ، ثُمَّ يَذْهَلُ عَنْهُ، وَيَغِيبَ عَنْ فِكْرِهِ، وَالْخَطَأُ: أَلَّا يَكُونَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ عِلْمٌ، بَلْ يَكُونُ جَاهِلًا، فَالْخَطَأُ بِمَعْنَى الْجَهْلِ هُنَا.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ كَرَّرَ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا﴾ لِأَهَمِّيَّةِ هَذَا الدُّعَاءِ.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ أي: لَا تَحْمِلْنَا وَتُكَلِّفْنَا بِالْإِصْرِ الَّذِي كَانَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا.

وَالْإِصْرُ: الشَّدَّةُ وَالْمَشَقَّةُ؛ لِأَنَّ مَنْ قَبْلَنَا مِنَ الْأُمَمِ عَلَيْهِمْ مَشَقَّةٌ فِي بَعْضِ التَّكَالِيفِ، مِثْلُ: إِذَا عَدِمُوا الْمَاءَ فَإِنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ بِالتَّيَمُّمِ، تَبْقَى الصَّلَوَاتُ فِي ذِمَّتِهِمْ وَلَوْ بَقُوا شَهْرًا كَامِلًا، فَإِذَا وَجَدُوا الْمَاءَ تَطَهَّرُوا بِهِ، ثُمَّ قَضَوْا مَا فَاتَهُمْ مِنَ الصَّلَوَاتِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا فِيهِ مَشَقَّةٌ.

كَذَلِكَ لَا يُصَلُّونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، إِنَّمَا يُصَلُّونَ فِي الْمَسَاجِدِ الْخَاصَّةِ (الْكَنَائِسِ وَالْبَيْعِ وَالصَّوَامِعِ)، وَهَذِهِ مَشَقَّةٌ، فَإِذَا وَجَبَتْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ فِي بَرِّيَّةٍ - وَلَوْ تَطَهَّرُوا بِالْمَاءِ - فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُصَلُّوا إِلَّا فِي الْكَنَائِسِ، وَلَوْ بَقُوا أَشْهُرًا، وَهَذِهِ مَشَقَّةٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَيْهِمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا ابْتُلِيَ بِهِ النَّصَارَى مِنَ الْبِدْعِ وَالرَّهْبَنَةِ الَّتِي لَمْ تُفَرِّضْ عَلَيْهِمْ، لَكِنْ هُمْ فَرَضُوهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ يَبْتَغُونَ رِضْوَانَ اللَّهِ.

الْمُهِمُّ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَسْأَلُونَ اللَّهَ أَلَا يَحْمِلَ عَلَيْهِمْ إِصْرًا كَمَا حَمَلَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ آتَى بِالْوَاوِ فِي: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا﴾؛ لِأَنَّ الثَّانِيَّ مِنْ جِنْسِ الْأَوَّلِ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أَي: مَا لَا نَسْتَطِيعُهُ مِنَ الْأَوَامِرِ الَّتِي تَقَعُ بِاخْتِيَارِنَا، وَأَمَّا مَا لَا يَقَعُ بِاخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَشِبْهِهَا فَهَذَا أَمْرٌ يُؤْجِرُ الْإِنْسَانَ عَلَيْهِ، وَيُثَابُ عَلَيْهِ، أَوْ يَكُونُ تَكْفِيرًا لِسَيِّئَاتٍ مَضَتْ.

﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ مَا قَصَرْنَا فِيهِ مِنَ الْوَاجِبِ ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ مَا انْتَهَكْنَاهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بِالتَّوْفِيقِ لِلْإِسْتِقَامَةِ، فَهَذِهِ ثَلَاثُ جُمَلٍ:

■ الْعَفْوُ فِي التَّفْرِيطِ بِالْوَاجِبِ.

■ الْمَغْفِرَةُ فِي ارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ.

■ الرَّحْمَةُ فِي اسْتِقَامَةِ الْحَالِ.

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: أنت الذي تتولّى أمورنا، وأنت مرجعنا، وأنت ناصِرنا؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ [الأنفال: ٤٠].

وقوله: ﴿فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: اجعل لنا الغلبة والنصرة على القوم الكافرين، إمّا بالآلات الحربيّة، وإمّا بالأدلة الشرعيّة.

هذه الآية من أفضل الآيات وأيسرها، ففيها فوائد وحكم وأسرار، منها:

١ - بيان سعة رحمة الله تعالى وعفوه، حيث لم يلزم عباده بما لا يطيقون؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وهذا عامٌ في كلّ ما ألزم الله به العباد، أنّه يُشترط فيه: الاستطاعة، والقدرة؛ لقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وقال تعالى في الإنفاق: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَانْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم-: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(١).

وهو أيضًا عامٌ في التشريع العام والخاص، ففي التشريع العام: أنّ شرائع الإسلام كلّها يطبقها الإنسان، ولا يعجز عنها، وفي التشريع الخاص: أنّ من عجز عن شريعة من الشرائع الإسلاميّة سقطت عنه، إمّا إلى بدّل، وإمّا إلى غير بدّل، ولهذا أمثلة كثيرة في أبواب الفقه.

فمن ذلك: إذا عجز الإنسان عن الطهارة بالماء؛ لمريض أو شلّلي، ولم يجد من

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب توقيه ﷺ، رقم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَقُومُ بَطْطَهْرِهِ، أَوْ خَوْفٍ مِنْ مَرَضٍ، فَإِنَّهُ يَتَيَمَّمُ، فَيَسْقُطُ عَنْهُ وَاجِبُ الطَّهَّارَةِ بِالماءِ إِلَى التَّيَمُّمِ.

وَإِذَا عَجَزَ عَنِ التَّيَمُّمِ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُيَمِّمُهُ، سَقَطَ عَنْهُ التَّيَمُّمُ، وَصَلَّى بِدُونِ وُضوءٍ وَلَا تَيَمُّمٍ؛ لِأَنَّهُ لَا وَاجِبَ مَعَ الْعَجْزِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: إِذَا أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ، وَكَانَ فِي ثَوْبِهِ نَجَاسَةٌ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرُهُ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ إِزَالَةَ النِّجَاسَةِ، فَإِنَّهُ يُصَلِّي بِثَوْبِهِ، وَلَا إِعَادَةَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اجْتِنَابَ النِّجَاسَةِ حَالُ الصَّلَاةِ وَاجِبٌ، فَإِذَا عَجَزَ عَنْهُ سَقَطَ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي حَالِ الصَّلَاةِ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ إِلَّا مَا اسْتُنْجِيَ، فَإِذَا عَجَزَ عَنْ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ؛ لكونِهِ مَرِيضًا، وَجْهُهُ إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مَنْ يُوجِّهُهُ، سَقَطَ عَنْهُ اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ، وَصَلَّى عَلَى حَسَبِ حَالِهِ.

وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ فَارًّا مِنْ عَدُوٍّ، لَوْ وَقَفَ يُصَلِّي وَيَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ أَدْرَكَهُ الْعَدُوُّ، فَإِنَّهُ يُصَلِّي حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، وَيَسْقُطُ عَنْهُ اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ؛ لِلْخَوْفِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُصَلِّيَ الْفَرِيضَةَ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ سَقَطَ عَنْهُ الْقِيَامُ، وَصَلَّى قَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ سَقَطَ عَنْهُ الْقُعُودُ، وَصَلَّى عَلَى جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ أَوِ الْأَيْسَرِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، يَوْمِيَّ بَرَأْسِهِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَلَا يَوْمِيَّ بِأَصْبُعِهِ كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الْعَوَامِّ، فَإِنَّهُ لَا أَصْلَ لِهَذَا، لَا فِي الْقُرْآنِ، وَلَا فِي السُّنَّةِ، وَمَا عَلِمْتُهُ فِي كُتُبِ الْعُلَمَاءِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ إِذَا كَانَ عاجِزًا عَنْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ لَا يَعْرِفُهَا سَقَطَتْ عَنْهُ، وَوَجَبَ بَدَلُهَا مَا يُسَاوِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ إِنْ كَانَ يُحْسِنُهُ، وَإِلَّا فَالذِّكْرُ، يُحْمَدُ اللَّهُ، وَيُكَبَّرُهُ، وَيُهَلِّلُهُ.

ومن ذلك: أنه إذا وَجَبَتْ عليه الزَّكَاةُ، ولم يكن عنده نُقُودٌ، ولا اسْتَطَاعَ أَنْ يَبِيعَ شَيْئًا من العُرُوضِ الَّتِي تَحِبُّ فِيهَا الزَّكَاةُ، فَإِنَّ لَهُ أَنْ يُؤَخَّرَهَا حَتَّى يَسْتَطِيعَ يَبِيعَهَا، ثُمَّ يُخْرِجَ عَمَّا مَضَى.

وهذا يَقَعُ كَثِيرًا فَيَمَنُ عِنْدَهُمْ أَرْضٌ لِلتَّجَارَةِ، فَكَسَدَتْ، ولم يَجِدُوا مُشْتَرِيًا لَابْقَلِيلٍ وَلَا بَكْثِيرٍ، وليس عِنْدَهُمْ نُقُودٌ، فهؤلاء لَا يَلْزَمُهُمْ أَنْ يَسْتَقْرِضُوا من النَّاسِ؛ لِيُخْرِجُوا الزَّكَاةَ، بل يَكْتُبُونَهُ، كُلَّمَا حَلَّتِ الزَّكَاةُ يَكْتُبُونَ مِقْدَارَ الزَّكَاةِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، وَيَحْفَظُونَهَا، فإذا يَسَّرَ اللَّهُ لَهُمْ نُقُودًا -وهي الَّتِي يُسَمِّيَهَا النَّاسُ: سُيُولَةً- أَخْرَجُوا الزَّكَاةَ.

ومن ذلك: أَنَّ صِيَامَ رَمَضَانَ وَاجِبٌ، فإذا عَجَزَ عنه حَاضِرًا وَمُسْتَقْبَلًا سَقَطَ عنه، وَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَفِدِيَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ بِإِطْعَامِ مِسْكِينٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ سَقَطَ عنه. ومن ذلك: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَالٌ يُحْجُّ بِهِ سَقَطَ عنه الْحَجُّ، حَتَّى يُوسِعَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

ومن ذلك: أَنَّ مَنْ عَجَزَ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ عَنْ إِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسَاكِينٍ أَوْ كِسْوَتِهِمْ أَوْ تَحْرِيرِ رَقَبَةٍ، فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَإِنْ عَجَزَ عَنْ صِيَامِ الْآيَّامِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَتَابِعَةِ سَقَطَتْ، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وكذلك فِي قَتْلِ النَّفْسِ خَطَأً إِذَا كَانَتْ مَعْصُومَةً -وهي أَرْبَعَةٌ: نَفْسُ الْمُؤْمِنِ، وَنَفْسُ الذَّمِّيِّ، وَنَفْسُ الْمُعَاهِدِ، وَنَفْسُ الْمُسْتَأْمِنِ- فِيهَا كَفَّارَةٌ: عِتْقُ رَقَبَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ بِأَنْ كَانَ فَقِيرًا مَرِيضًا، أَوْ فَقِيرًا كَبِيرًا فِي السَّنِّ، فَإِنَّهَا تَسْقُطُ.

وكذلك واجباتُ الحجِّ، فيها عندَ العلماءِ رَحْمَةُ اللَّهِ فِدْيَةٌ: ذَبْحُ شَاةٍ فِي مَكَّةَ، وَتَوَزُّعٌ عَلَى فُقَرَاءِ مَكَّةَ، فَإِذَا عَجَزَ فَلَ شَيْءٍ عَلَيْهِ، وَتَسْقُطُ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

والأمثلةُ في هذا كثيرةٌ لا تُحصى، لكنَّ قَاعِدَتَهَا -والحمدُ لله- هي هذه الآيةُ:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

فالمُهِمُّ: أَنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ كُلَّهَا تَحْتَ الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ، هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ، ثُمَّ عَلَى سَبِيلِ الْخُصُوصِ، إِذَا كَانَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَعْجِزُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الشَّرَائِعِ سَقَطَ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: «لَا وَاجِبَ مَعَ الْعَجْزِ»، وَأَخَذُوهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فَنَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُعِينَنَا جَمِيعًا عَلَى ذِكْرِهِ، وَشُكْرِهِ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

٢- أَنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِيمَا يَلْزَمُهُمْ مِنَ الشَّرِيعَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وَهَذَا نِكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، فَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْإِنْسَانُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِهَذَا الْوَاجِبِ، وَالْآخَرُ لَا يَسْتَطِيعُ، فَيَكُونُ وَاجِبًا عَلَى الْأَوَّلِ، غَيْرَ وَاجِبٍ عَلَى الثَّانِي.

٣- أَنَّ مَا كَسَبَهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَهُوَ لَهُ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُنْقَصَ مِنْهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْعَمَلُ مِنْهُ مُبَاشَرَةً، أَوْ لَكُونِهِ دَالًّا عَلَيْهِ وَدَاعِيًّا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ.

وهذا -والله أعلم- هو الفائدةُ من قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، وَقَالَ فِي الْإِثْمِ: ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ فِيهِ: «لَهَا مَا اكْتَسَبَتْ»؛ لِأَنَّ الْكَسْبَ أَعْمُ مِنْ مُبَاشَرَةِ الشَّيْءِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِيمَنْ عِنْدَهُ مَظَالِمٌ لِلخَلْقِ، أَلَيْسَ يُؤْخَذُ مِنْ عَمَلِهِ الصَّالِحِ لَهُمْ؟

فالجواب: بلى، لكنه هو الذي تسبب في هذا، حتى صار غارماً لهؤلاء، فيقتضى حقهم من حسناته يوم القيامة، فإن بقي من حسناته شيء، وإلا أخذ من سيئاتهم، فطرح عليه، ثم طرح في النار، نسأل الله السلامة والعافية.

٤- أن على النفس ما اكتسبت من الإثم؛ كما قال عز وجل: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ [النور: ١١]، وسواء اكتسبه مباشرة، أو عن طريق الدلالة والمعونة؛ فإن الدال على الشيء المحرم له نصيب من ذلك المحرم، وليس كالدال على الخير، فالدال على الخير له مثل أجر فاعله، أما هذا فله كفل منه.

٥- إثبات ربوبية الله عز وجل، يعني: أنه الخالق، المالك، المدبر لجميع الأمور؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

٦- أن من آداب الدعاء أن يصدر الداعي دعاءه بهذا الاسم الكريم: «الرَّبُّ»، ولهذا تجد الأدعية التي في القرآن غالبها مصدرٌ بذلك، أي: بالرب، وكذلك الأدعية الواردة في السنة.

وقد أشار إلى هذا النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- حينما ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث، أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمُنَاسِبَةُ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ تَصْرِيفُ الْأُمُورِ، وَتَدْبِيرُهَا، وَتَحْصِيلُ الْمَطْلُوبِ.

٧- اِرْتِفَاعُ الْعُقُوبَةِ وَالْإِثْمِ مَعَ الْجَهْلِ وَالنَّسْيَانِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ أَي: لَا تُعَاقِبْنَا وَلَا تُلْزِمْنَا ﴿إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قَدْ فَعَلْتُ»^(١).

وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلَهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ نِسْيَانًا أَوْ جَهْلًا فَلَيْسَ عَلَيْهِ إِثْمٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَرَكَهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ نِسْيَانًا أَوْ جَهْلًا فَلَيْسَ عَلَيْهِ إِثْمٌ، لَكِنْ بَعْضُ الْوَاجِبَاتِ يُلْزَمُ الْإِنْسَانُ بِقَضَائِهِ عَلَى وَجْهِ صَحِيحٍ، مَعَ انْتِفَاءِ الْإِثْمِ عَنْهُ حِينَ الْفِعْلِ، فَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْمَأْمُورَاتِ وَالْمَنْهَيَّاتِ، أَنَّهُ لَا مُؤَاخَذَةَ مَعَ الْجَهْلِ وَالنَّسْيَانِ، لَكِنْ الْوَاجِبُ قَدْ يُلْزَمُ الْإِنْسَانُ بِفِعْلِهِ بَعْدَ الذِّكْرِ.

وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ شَامِلَةٌ لِكُلِّ الشَّرَائِعِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، وَكُلِّ الْمَحْظُورَاتِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا.

وَلْنَضْرِبَ لِهَذَا أَمْثِلَةً:

■ لَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ تَوَضَّأَ، وَنَسِيَ أَنْ يَمْسَحَ رَأْسَهُ، وَصَلَّى، فَلَيْسَ عَلَيْهِ إِثْمٌ، مَعَ أَنَّهُ صَلَّى بِغَيْرِ وُضوءٍ صَحِيحٍ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ هَذَا أَمْرًا وَاجِبًا قُلْنَا: لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَضَّأَ وَوُضوءًا صَحِيحًا، ثُمَّ تُعِيدَ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ يَسْقُطُ إِثْمُهُ بِالْجَهْلِ، وَلَكِنَّهُ لَا تَبْرَأَ الذِّمَّةُ بِدُونِهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا: مَا ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٠٧).

أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّى، وَلَمْ يَطْمِئِنَّ فِي صَلَاتِهِ، فَجَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ لَهُ: «ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فَفَعَلَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أُحْسِنُ غَيْرَ هَذَا، فَعَلَّمَنِي. فَعَلَّمَهُ، وَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»^(١)، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُعِيدَ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّهُ تَرَكَ رُكْنًا فِيهَا، وَهُوَ الطُّمَأْنِينَةُ، لَكِنَّهُ لَمْ يُؤْثِّمَهُ بِهِذِهِ الصَّلَاةِ الْمُحَرَّمَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ جَاهِلًا.

وَمِنْ ذَلِكَ: لَوْ نَسِيَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُصَلِّيَ بِالْكُلِّيَّةِ، صَارَ عِنْدَهُ شُغْلٌ شَغَلَهُ عَنِ الصَّلَاةِ، وَلَمْ يَتَذَكَّرْ حَتَّى خَرَجَ الْوَقْتُ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ -مَعَ أَنَّهُ لَوْ تَعَمَّدَ تَرْكَهَا حَتَّى يَخْرُجَ الْوَقْتُ لَكَانَ آثِمًا، وَلَا تُقْبَلُ مِنْهُ- وَلَكِنَّا نَقُولُ: صَلَّاهَا؛ لِأَنَّكَ تَرَكْتَ وَاجِبًا، وَالوَاجِبُ إِذَا نُسِيَ لَا يَسْقُطُ، لَكِنْ يَسْقُطُ التَّائِبُ بِتَأْخِيرِهِ.

وَدَلِيلُ هَذَا: قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ»، ثُمَّ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]^(٢).

(١) تقدم تخريجه (ص: ٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب من نسي صلاة، رقم (٥٩٧)، ومسلم: كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة، رقم (٦٨٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يذكر البخاري النوم.

وَمِنْ ذَلِكَ: لَوْ سَلَّمَ قَبْلَ تَمَامِ صَلَاتِهِ نَاسِيًا فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يُتِمَّهَا؛ لِأَنَّهُ تَرَكَ رُكْنًا فِيهَا أَوْ أَكْثَرَ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَأْتُمُ بِسَلَامِهِ قَبْلَ تَمَامِهَا.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ: مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ صَلَاةَ الظُّهْرِ أَوْ الْعَصْرِ، وَسَلَّمَ مِنْ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ ذَكَرُوهُ، فَأَتَمَّ صَلَاتَهُ، وَسَلَّمَ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيِ السَّهْوِ بَعْدَ السَّلَامِ^(١).

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ مَنْ أَكَلَ وَهُوَ صَائِمٌ نَاسِيًا فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَلَا يَقْضِي؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ فِعْلِ الْمُحَرَّمِ، وَالْمُحَرَّمُ الْمَقْصُودُ عَدَمُهُ، لَا الْمَقْصُودُ إِجَادُهُ، فَإِذَا ارْتَكَبَهُ الْإِنْسَانُ نَاسِيًا أَوْ جَاهِلًا فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْهُ تَمَامًا، وَعِبَادَتُهُ صَاحِيحَةٌ، وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ.

وَدَلِيلُ هَذَا: قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ، فَأَكَلَ أَوْ شَرَبَ، فَلَيْتَمَ صَوْمُهُ؛ فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ»^(٢)، وَفِي قَوْلِهِ: «فَلَيْتَمَ صَوْمُهُ» دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ صَوْمَهُ لَمْ يَنْقُضْ.

وَلَوْ أَكَلَ يَظُنُّ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ غَرَبَتْ؛ لَكُونِ السَّمَاءِ مُغِيمةً، فَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا، فَأَكَلَ ظَنًّا أَنَّ الشَّمْسَ غَرَبَتْ، ثُمَّ انْجَلَى السَّحَابُ، فَإِذَا الشَّمْسُ لَمْ تَغْرُبْ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ جَاهِلٌ، لَكِنْ إِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغْرُبْ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنِ الْأَكْلِ، وَأَنْ يَلْفِظَ مَا كَانَ فِي فَمِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ تَشْبِيكِ الْأَصَابِعِ فِي الْمَسْجِدِ، رَقْمُ (٤٨٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ السَّهْوِ فِي الصَّلَاةِ وَالسُّجُودِ لَهُ، رَقْمُ (٥٧٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ الصَّائِمِ إِذَا أَكَلَ أَوْ شَرَبَ نَاسِيًا، رَقْمُ (١٩٣٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الصِّيَامِ، بَابُ أَكْلِ النَّاسِيِ وَشَرْبِهِ، رَقْمُ (١١٥٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا قال قائل: أكل في رَمَضانَ فكيف لا قضاء عليه؟!

قلنا: نَعَمْ، لكن هل هو جاهلٌ، أو عالمٌ؟ الجواب: جاهلٌ، إذَنْ فهو داخلٌ في قوله: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وهذا دليلٌ عامٌ، وهناك دليلٌ خاصٌ في الموضوع، وهو ما رواه البخاريُّ عن أسماء بنتِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: أفطَرْنَا على عهدِ النَّبيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- في يَوْمِ غَيْمٍ، ثُمَّ طَلَعَتِ الشَّمْسُ^(١). ولم يأْمُرْهُمُ النَّبيُّ ﷺ بالقضاء، ولو كان القضاء واجبًا لكان من دينِ الله تعالى، ولَوَجَبَ على النَّبيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يُبَلِّغَهُ، ويأْمُرْهُمُ بالقضاء، ولو أَمَرَهُمُ بالقضاء لَنُقِلَ إلينا؛ لأنَّه إذا أَمَرَهُمُ بالقضاء صار القضاء من دينِ الله وشريعةِ الله، والله تعالى قد حَفِظَ هذه الشَّريعةَ، فلمَّا لم يُنْقَلِ الأمرُ بالقضاء ولا القضاء عُلِمَ أَنَّ القضاء ليس بواجبٍ.

فإن قال قائل: لو أَنَّ إنسانًا صائمًا، وتُوجَدُ غَيُومٌ كَثِيفَةٌ كَثِيفَةٌ، وأفطَرَ عِنْدَ الظُّهرِ، فهل تَعْذُرُونَهُ؟

فنقول: لا نَعْذُرُهُ؛ لأنَّه مُعْتَدٍ، وإنَّما نَعْذُرُهُ إذا كان الوقتُ قريبًا من الغروبِ، يعني: أَنَّهُ يَتَحَرَّى غُرُوبَ الشَّمْسِ، لكن لم يَتَأَكَّدْه بِسَبَبِ الْغَيْمِ، أمَّا إنسانٌ يُفْطِرُ في نِصْفِ النَّهَارِ، ويقول: أفطَرْتُ في يَوْمِ غَيْمٍ. فهذا لا أَحَدٌ يَقْرَهُ.

ومن ذلك: أَنَّ الإنسانَ لو أُعْطِيَ شَخْصًا زَكَاةَ مَالِهِ، يَظُنُّ أَنَّهُ فَقِيرٌ، فبأنَّه غَنِيٌّ، فزكاته مَقْبُولَةٌ؛ لأنَّه حينَ إعْطائه الزَّكَاةَ يَظُنُّ أَنَّ ذِمَّتَهُ بَرَّتْ.

ويُذَلُّ لذلك: حَدِيثُ الرَّجُلِ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ على غَنِيٍّ، فأَصْبَحَ النَّاسُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا أفطر في رمضان ثم طلعت الشمس، رقم (١٩٥٩).

يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى غَنِيٍّ! فَقِيلَ لِهَذَا الرَّجُلِ: إِنَّ صَدَقَتَكَ قَدْ قُبِلَتْ^(١).
وَلَأَنَّ الْغَنَى وَالْفَقْرَ أَمْرٌ خَفِيٌّ.

لَكِنْ إِذَا غَلَبَ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الزَّكَاةِ فَالْوَاجِبُ أَنْ تَقُولَ لَهُ:
إِنْ شِئْتَ أُعْطَيْتُكَ، وَلَا حَظٌّ فِيهَا لَغَنِيِّي، وَلَا لِقَوِيِّي مُكْتَسِبٍ. وَأَمَّا إِذَا غَلَبَ عَلَى ظَنِّكَ
أَنَّهُ فَقِيرٌ فَلَا حَاجَةَ أَنْ تَقُولَ لَهُ هَذَا.

وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّهُ كَاذِبٌ، وَأَنَّهُ غَنِيٌّ، لَكِنَّهُ يَسْأَلُ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكْثُرًا، فَاَنْصَحْهُ،
وَشَدِّدْ عَلَيْهِ، وَلَا تُعْطِهِ، فَتُسَاعِدَهُ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَحْرَمَ حُرْمَتٍ عَلَيْهِ مَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ، وَمِنْهَا:
الطَّيِّبُ، فَلَوْ أَنَّ الْمُحْرِمَ تَطَيَّبَ نَاسِيًا فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، لَا إِثْمٌ وَلَا فِدْيَةٌ، لَكِنْ مَتَى
ذَكَرَ وَجَبَ عَلَيْهِ غَسْلُهُ إِنْ كَانَ عَلَى الْبَدَنِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى الْإِحْرَامِ وَجَبَ عَلَيْهِ إِبْدَالُ
الْإِحْرَامِ أَوْ غَسْلُ الْإِحْرَامِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: لَوْ أَنَّ الْمُحْرِمَ صَادَ حَمَامَةً بَعْدَ إِحْرَامِهِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ حُدُودَ
الْحَرَمِ؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ الصَّيْدَ لَا يَحْرُمُ إِلَّا إِذَا دَخَلَ حُدُودَ الْحَرَمِ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، حَتَّى
لَوْ أَكَلَهَا فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَلَا جَزَاءَ، وَذَلِكَ لِدُخُولِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وَمِنْ ذَلِكَ: لَوْ أَنَّ الْمُحْرِمَ بِالْحَجِّ جَامَعَ زَوْجَتَهُ لَيْلَةَ مُزْدَلِفَةٍ؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ الْحَجَّ
عَرَفَةٌ، فَوَقَفَ بِعَرَفَةٍ، وَانْتَهَى، فَجَامَعَ زَوْجَتَهُ لَيْلَةَ مُزْدَلِفَةٍ جَاهِلًا، فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ،
وَحَجُّهُ صَحِيحٌ، وَلَا يَلْزَمُهُ الْقَضَاءُ، وَلَا فِدْيَةٌ عَلَيْهِ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ، بَلْ هُوَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، رقم (١٤٢١)، ومسلم:
كتاب الزكاة، باب ثبوت أجر المتصدق، رقم (١٠٢٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جاهلٌ، وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وقال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

ومن ذلك: لو أن رجلاً قطعَ شجرةً في الحرم من غير ما زرعه آدمي، مما ينبت من المطر، ولكنه لا يدري أن ذلك حرام، يظن أن قطع الشجرة حرام على المحرم، وأما المحل فلا يحرم عليه، فلا شيء عليه، وليس عليه إثم؛ لأنه كان جاهلاً.

لكن ظنه أن الشجر يحرم على المحرم خطأ؛ لأن قطع الشجر ليس حراماً على المحرم، ولكنه حرام على من كان داخل حدود الحرم، وأما ما كان خارج حدود الحرم فهو حلال، يجوز للمحرم وغير المحرم أن يقطعه، وأما ظن بعض الناس أن قطع الشجر تابع للإحرام فليس بصحيح.

ومن ذلك: أن الإنسان إذا كان محرماً، وقطع من رأسه شعرات كثيرة، يظن أنه لا بأس بذلك، فلا حرج عليه، لا إثم ولا فدية؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وليُعلم أن المحرم بالنسبة لخلق رأسه له ثلاث أحوال:

الحال الأولى: أن يخلقهُ بدون حاجة، وبدون عذر، فهذا عليه الإثم والفدية.

والفدية بينها الله عَزَّجَلَّ في قوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ، فِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُلْكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقد بين النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم- الصيام بأنه ثلاثة أيام،

وَالصَّدَقَةَ بِأَتَمِّهَا إِطْعَامُ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ، وَالنُّسْكُ ذَبْحُ شَاةٍ^(١).

الحال الثانية: أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى حَلْقِهِ، فَيَحْلِقَهُ مُتَعَمِّدًا، لَكِنْ لِلْحَاجَةِ؛ إِمَّا لِرَضٍ فِي رَأْسِهِ لَا يَزُولُ إِلَّا بِحَلْقِ الشَّعْرِ، وَإِمَّا بِأَذَى فِي رَأْسِهِ، ككَثْرَةِ الْقَمَلِ مَثَلًا، كَمَا جَرَى لِكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَهَذَا عَلَيْهِ الْفِدْيَةُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِثْمٌ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ: الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الَّتِي سَقْنَاهَا: أَنَّ مَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذَى مِنْ رَأْسِهِ، فَعَلِيهِ الْفِدْيَةُ: مِنْ صِيَامٍ، أَوْ صَدَقَةٍ، أَوْ نُسْكٍ.

الحال الثالثة: أَنْ يَحْلِقَهُ نَاسِيًا أَوْ جَاهِلًا، فَهَذَا لَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَلَا فِدْيَةَ عَلَيْهِ؛ لِدُخُولِهِ فِي عُمُومِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وَمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ وَجُوبِ الْفِدْيَةِ فِي هَذِهِ الْحَالِ فَفِيهِ نَظَرٌ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُضَيِّقَ مَا وَسَّعَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]؟! كَيْفَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]؟! كَيْفَ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ»^(٢)؟! كَيْفَ وَقَدْ كَانَ ﷺ إِذَا بَعَثَ النَّاسَ لِلدَّعْوَةِ لِلإِسْلَامِ يَقُولُ: «يُسِّرُوا، وَلَا تُعَسِّرُوا»^(٣)؟!

(١) أخرجه البخاري: كتاب المحصر، باب النسك شاة، رقم (١٨١٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، رقم (٨٣/١٢٠١) من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ١٠٧).

(٣) تقدم تخريجه (ص: ١٠).

فإن قال قائل: هل حلق بعض الرأسِ حرامٌ، أو لا؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾، ولم يقل: «بعض رؤوسكم»، فهل هو حرامٌ، أو لا؟

فالجواب: هو حرامٌ؛ لقول النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم-: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»^(١)، وهذا قد نهى الله عنه، فيُجْتَنَبُ كُلُّهُ، لكن إن احتاج إليه -أي: إلى حلق بعضه- حلقه؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦].

فإذا حلق بعض الرأسِ فهل تلزمه الفدية، أو لا؟ ظاهر السنة: أنها لا تلزمه الفدية، وأنَّ الفدية إنما تكون في حلق الرأسِ كاملاً أو حلق أكثره، أمَّا بعضه فلا.

ودليل ذلك: أنَّ النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم- احتجَمَ في رأسه وهو مُحْرِمٌ^(٢)، وشعر النبي ﷺ كثيفٌ، لا يمكن أن يحجَمَ على رأسه إلا بعد حلق مكان الحجامَةِ، ولم ينقل عنه -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم- أنه فدى، لكن لو أنَّ الإنسان فدى من باب الاحتياط فإنه لا يُنكَرُ عليه.

والحاصل: أنَّ هذه القاعدة -والحمد لله- قاعدةٌ عظيمةٌ، ليست من قول فلانٍ وفلانٍ، بل هي من قول من له الحكم، وإليه الحكم عَزَّوَجَلَّ، وهو الذي يحكم بين العباد، ويحكم في العباد، فإذا كان الله تعالى عفا عن عباده في الخطأ والنسيان فلا يمكن أن نُلغِي هذا بأيِّ حالٍ من الأحوال، لا باستحسانٍ ولا غير استحسانٍ،

(١) تقدم تخريجه (ص: ٤٣٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب الحجامَةِ للمحرم، رقم (١٨٣٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز الحجامَةِ للمحرم، رقم (١٢٠٣) من حديث ابن بحنة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بل إِنَّ الاستِحْسَانَ هو إسقاطُ المؤاخَذَةِ مع الجَهِلِ والنَّسيانِ؛ لأنَّ هذا ممَّا يُرغَّبُ في الدِّينِ الإسلاميِّ؛ لِيُسِرَّه وسُهُولَتِهِ.

فإنَّ قالَ قائلٌ: أنتم إذا أسقطتمُ الإثمَ أو الفِدْيَةَ فيما فيه فِدْيَةٌ أو الكَفَّارَةُ، فإنَّكم قد تُوسِّعونَ للنَّاسِ.

فنقولُ: وليكنْ، إذا قيَّدنا الشَّيْءَ بالشُّروطِ الشرعيَّةِ فلنُوسِّعْ، فلو أنَّ رجُلًا صائمًا، وامرأته صائمةً، وجامعَها، ولكنْ لم يحصلْ إنزالٌ، وجاءَ يسألُ يقولُ: إِنَّه فعَلَ هذا؛ يظُنُّ أنَّ الَّذي يُفسِدُ الصَّيَّامَ هو الجماعُ مع الإنزالِ. فإذا عَلِمنا أنَّ الرَّجُلَ صادقٌ، وأنَّ هذا ظَنُّه، قُلنا: لا شَيْءَ عَلَيْكَ، وصيامُكَ صحيحٌ، ولا كَفَّارَةٌ. لأنَّه جاهِلٌ، داخِلٌ في الآيةِ الكريمةِ.

فإنَّ قالَ قائلٌ: إذا كان الإنسانُ عاليًا بالحُكمِ، لكنَّه جاهِلٌ بالعُقوبةِ، ما ظَنَّ أنَّ عُقوبةَ هذا الفعلِ بهذه الشَّدَّةِ، فهل تُسقطونَ عنه العُقوبةَ؟

فالجوابُ: لا؛ لأنَّ الرَّجُلَ انتَهَكَ المُحرَّم، ويدُلُّ لهذا: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، أَنَّ رجُلًا أتى النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، هَلَكْتُ، وَأَهْلَكْتُ. قالَ: «مَا بِأَلْكَ؟» قالَ: إِنِّي أَتَيْتُ امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ وَأَنَا صَائِمٌ. فَالرَّجُلُ يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا حَرَامٌ، والدَّلِيلُ: أَنَّهُ جاءَ مَرْعُوبًا، ويقولُ: هَلَكْتُ، وَأَهْلَكْتُ. لكنَّه لا يَدْرِي ما الكَفَّارَةُ، فَسأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تَحِبُّ رَقَبَةً؟» قالَ: لا. قالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟» قالَ: لا. قالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِينَ مِسْكِينًا؟» قالَ: لا. ثُمَّ جَلَسَ الرَّجُلُ، وأُرْسِلَ بَتَمَرٍ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، فقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «خُذْ هَذَا، تَصَدَّقْ بِهِ»، فقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ،

أَعْلَى أَفْقَرٍ مِنِّي؟! وَاللَّهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا -يَعْنِي الْمَدِينَةَ- أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنِّي. فَضَحِكَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: كَيْفَ أَتَى هَذَا الرَّجُلُ خَائِفًا، ثُمَّ لَمْ يَذْهَبْ حَتَّى طَمَعَ! وَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَطْعِمَهُ أَهْلَكَ»^(١)، وَلَمْ يَقُلْ: فَإِنْ أَغْنَاكَ اللَّهُ فَكَفَّرْ. لِأَنَّهُ حِينَ وُجُوبِ الْكَفَّارَةِ لَا يَسْتَطِيعُ، وَقَدْ قَرَّرْنَا فِيهَا سَبْقَ أَنَّهُ لَا وَاجِبَ مَعَ الْعَجْزِ؛ بِنَاءً عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وَلِذَلِكَ لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا صَدَمَ شَخْصًا خَطَأً، وَمَاتَ الْمَصْدُومُ، فَالذِّئْبُ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، مَا لَمْ يَعْفُ عَنْهَا أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ، أَمَّا الْكَفَّارَةُ فنَقُولُ لَهُ: عَلَيْكَ كَفَّارَةٌ عِتْقُ رَقَبَةٍ. فَإِذَا قَالَ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ. قُلْنَا: صُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ. فَإِذَا قَالَ: لَا أَقْدِرُ. فَمَاذَا نَقُولُ؟ هَلْ نَقُولُ: مَتَى اسْتَطَعْتَ فَصُِّمْ. أَوْ: مَتَى اسْتَطَعْتَ فَأَعْتِقْ؟

الْجَوَابُ: لَا، وَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ، وَلَا إِطْعَامَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ كَفَّارَةَ الْقَتْلِ لَيْسَ فِيهَا إِطْعَامٌ، هَذَا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ.

وَأُوصِي إِخْوَانِي، وَلَا سِيَّامًا طَلَبَةَ الْعِلْمِ، الَّذِينَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَبُولِ النَّاسِ فَتَوَاهِمَ، أَوْصِيهِمْ أَنْ يَكُونَ الْمَأْخُذُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ لِأَنَّهُمَا هُمَا الطَّرِيقُ الْمُوَصِّلَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

لَكِنْ إِذَا وَقَعَ الشَّيْءُ خَطَأً، ثُمَّ تَبَيَّنَ الْخَطَأُ، فَهَلْ تَرْتَبُّ الْأَحْكَامُ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ، أَوْ لَا؟

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ إِذَا جَامَعَ فِي رَمَضَانَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ، رَقْمُ (١٩٣٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الصِّيَامِ، بَابُ تَغْلِيزِ تَحْرِيمِ الْجَمَاعِ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ، رَقْمُ (١١١١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نقول: لا، مثال ذلك: إنسان باع سلعة بعد أذان الجمعة الثاني، وهو ممن تَلَزَمُهُ الجمعة، فالبيع غير صحيح؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]، فالبيع غير صحيح، لكن البائع لا يأثم ما دام لا يعلم بالحكم، إلا أننا نقول: العقد ليس بصحيح؛ لأن الصَّحَّةَ ليست هي البيع، بل هي مُرتَبَةٌ على البيع، فتبين أن هذا البيع فاسدٌ، فلا تترتب عليه الصَّحَّةُ، لكن لا إثم.

ومن ذلك: لو أن رجلاً ذبح ذبيحةً، ونسي أن يُسمِّي الله عزَّ وجلَّ، فلا إثم عليه، مع أن الواجب أن يذكر اسم الله عليها، لكن نسي، فنقول: لا إثم عليه. ولكن هل يأكل منها، أو لا؟

الجواب: لا يأكل منها؛ لأنه تبين أن الذبيحة فاقدة الشرط، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فنقول: الذبيحة هذه حرام، لا تأكلها أنت أيها الذابح، ولا يأكلها غيرك.

لكن لو أكلها غيره، وهو لا يدري أنها متروكة التسمية، فليس عليه إثم؛ لأنه جاهل، أو نسي، فأكل، فلا إثم عليه؛ لأنه ناس.

فإن قال قائل: هذا الرجل نسي أن يُسمِّي، لماذا لا تدخلونه في الآية؟

قلنا: نحن أدخلناه في الآية، وقلنا: لا إثم عليه. لكن الآثار المترتبة على شيء غير صحيح لا تكون صحيحةً، وهنا شيان: أكل، وذبح. فالذبح تبين أنه غير صحيح، لكن لا إثم فيه؛ لأن الذابح ناس، لكن الأكل لا يجوز، ولهذا قلنا: لو أكل الإنسان الذابح أو غيره ناسياً أو جاهلاً فلا إثم عليه، فلكل فعل حكمه.

وهذا الَّذِي قَرَرْنَاهُ هُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١)، وَمَا ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْإِجْمَاعِ عَلَى حِلِّ مَتْرُوكِ التَّسْمِيَةِ سَهْوًا^(٢) لَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَلَا إِجْمَاعٌ؛ فَإِنَّ مِنَ السَّلَفِ مَنْ مَنَعَ ذَلِكَ، أَيْ: مَنَعَ الْأَكْلَ مِنْ مَتْرُوكِ التَّسْمِيَةِ سَهْوًا، لَكِنَّ ابْنَ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يَرَى خِلَافَ الرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ شَيْئًا^(٣)، وَالْوَاجِبُ الرُّجُوعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَا لَمْ يُخَالِفْ إِجْمَاعًا قَطْعِيًّا، فَإِنْ خَالَفَ إِجْمَاعًا قَطْعِيًّا فَلْيَتَّهِمِ الْإِنْسَانَ رَأْيَهُ، وَلَا يُخَالِفِ الْإِجْمَاعَ.

وَيُسْتَشْنَى مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ مَا كَانَ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ؛ فَإِنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ النَّاسِي وَالذَّاكِرِ، وَالْعَامِدِ وَالْجَاهِلِ، فَلَوْ أَنَّ شَخْصًا أَخْطَأَ، فَلَيْسَ ثَوْبٌ غَيْرُهُ، يَظُنُّهُ ثَوْبَ نَفْسِهِ، ثُمَّ احْتَرَقَ هَذَا الثَّوْبُ، فَهَلْ يَضْمَنُ، أَوْ لَا؟

الْجَوَابُ: يَضْمَنُ، لَكِنْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: يَضْمَنُ؛ لِأَنَّ هَذَا حَقُّ آدَمِيٍّ مَبْنِيٌّ عَلَى الْمُسَاحَاةِ، وَأَمَّا حَقُّ اللَّهِ فَقَدْ سَبَقَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِنْسَانِ شَيْءٌ فِي الْكَفَّارَاتِ وَالْفِدَى.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تُجِيبُونَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ [النساء: ٩٢]، فَأَوْجَبَ اللَّهُ حَقَّ آدَمِيٍّ - وَهُوَ الدِّيَةُ - وَحَقَّ نَفْسِهِ، وَهُوَ الْكَفَّارَةُ؟

(١) مجموع الفتاوى (٢٣٩/٣٥).

(٢) تفسير الطبري (٥٢٩/٩).

(٣) العدة (١١٩/٤)، اللمع (ص: ١٨٧)، البرهان (٢/٧٢١)، تفسير ابن كثير (٦٠٠/٣).

فالجواب: أن هذه مُسْتثْنَاةٌ من القاعدة، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَسْتثنِي ما شاء، وإذا قُلْتَ بهذا الجوابِ سَلِمْتَ من كُلِّ اعتراضٍ، تقول: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فأوجب الله تعالى الكفارة والدية في قتل الخطأ مع أنه خطأ، والحكم لله عز وجل، فيُستثنى هذا من عموم آية البقرة.

فإن قلت: ما الحكمة أنه يُستثنى؟

فالجواب: أننا نعلم أن كل شيء حكّم الله به ورسوله فهو حكمة، سواء علمنا تلك الحكمة أو لا.

ثم نقول: لما كانت النفوس خطرًا عظيمًا لم يسقط الواجب في حق الله وحق العباد وإن كان الفاعل مُحْطِئًا، والأمر في هذا - والحمد لله - واضح.

٨- بيان منّة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على هذه الأمة، في أنه لم يحمل عليها إضرًا كما حمّله على الذين من قبل.

والإضر هو: الشيء الشديد الثقيل. وكانت الأمم السابقة - ولاسيما اليهود - قد غلّظ عليهم في الأحكام الشرعية؛ لأنهم كذّبة، ولأنهم أهل طغيان وكبرياء؛ كما قال الله عز وجل: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١] إلى آخر الآية، فقال: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، لكن هذه الأمة لم يحمل الله عليها من الآصار والأغلال ما كان على من قبلها، ولهذا كان من وصف النبي ﷺ أنه يَضْعُ عن هذه الأمة إضرهم والأغلال التي كانت عليهم^(١).

(١) كما في سورة الأعراف، الآية (١٥٧).

٩- أَنَّ اللَّهَ لَهُ الْحُكْمُ، يَحْكُمُ بِمَا شَاءَ، يُشَدِّدُ عَلَى أَقْوَامٍ، وَيُخَفِّفُ عَنْ آخَرِينَ، وَلَكِنْ لَنَعْلَمَنَّ أَنَّهُ لَا صِلَةَ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَالْخَلْقِ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ إِلَّا سَبَبَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنَّهُ جَلَّوَعَلَا لَا يُشَدِّدُ عَلَى قَوْمٍ، وَيُسِّرُ عَلَى آخَرِينَ، إِلَّا لِحُكْمٍ بِالْغَةِ، سَوَاءٍ أَذَرَكْنَاهَا أَمْ لَمْ نُدْرِكْهَا، فَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُحَقِّقَ قَوْلَهُ: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا.

١٠- أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يُحْمَلْ عِبَادُهُ مَا لَا يُطِيقُونَ، بَلْ جَعَلَ الدِّينَ يُسْرًا مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي، وَهَذَا كَالْتَأَكِيدَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، لَكِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ -وهي قَوْلُهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾- خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ دُعَاءٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

١١- طَلَبُ الْعَفْوِ مِنَ اللَّهِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَالْعَفْوُ عَنِ التَّقْصِيرِ فِي الْوَاجِبِ، وَالْمَغْفِرَةُ عَنِ فِعْلِ الْمُحَرَّمَ، وَالرَّحْمَةُ ثَوَابُ الْعَمَلِ، وَالتَّوْفِيقُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ. فَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَدْعُوَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الثَّلَاثِ: اعْفُ عَنَّا، وَاعْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَا.

١٢- أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾، وَوِلَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ: عَامَّةٌ، وَخَاصَّةٌ.

فَأَمَّا الْعَامَّةُ فَهِيَ الشَّامِلَةُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، وَأَمَّا الْخَاصَّةُ فَهِيَ الْمُخْتَصَّةُ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَكُلُّ أَحَدٍ فَاللَّهُ مَوْلَاهُ، يَتَوَلَّاهُ وَيَتَصَرَّفُ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ، وَكُلُّ مُؤْمِنٍ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ تَوَلَّاهُ تَوَلِّيًّا خَاصًّا، وَفَقَّهَ بِهِ لِلْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْمُرَادُ هُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ الْوِلَايَةُ الْخَاصَّةُ.

١٣ - طَلَبُ النَّصْرِ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، سواء كان النَّصْرُ بِالْقَوْلِ أو بِالْفِعْلِ،
فالنَّصْرُ بِالْقَوْلِ: هو ظُهُورُ حُجَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَدَحْضُ حُجَّةِ الْكَافِرِينَ، والنَّصْرُ بِالْفِعْلِ:
هو أن يكونَ قِتَالٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَعْدَائِنَا الْكُفَّارِ، فَيَنْصُرَنَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ.

وَلْيَعْلَمْ إِخْوَانِي الْمُسْلِمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَالَّتِي قَبْلَهَا إِذَا قَرَأَهَا الْإِنْسَانُ فِي
لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ، أَي: فِي الْحِفْظِ وَالرَّعَايَةِ وَالِدُّعَاءِ؛ لِأَنَّهَا اشْتَمَلَتَا عَلَى كُلِّ مَصَالِحِ الدِّينِ
وَالدُّنْيَا.

وإلى هنا انتهَى الْكَلَامُ عَلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ، السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَخَذَهَا بَرَكَةٌ،
وَفَقَدَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا السَّحَرَةُ.

ثُمَّ نَنْتَقِلُ إِلَى السُّورَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ أُخْتُهَا الَّتِي أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقِرَاءَتِهَا مَعَ الْبَقَرَةِ،
فَقَالَ: «اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ
أَوْ غَيَاتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).



(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن، رقم (٨٠٤) من حديث أبي
أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

• • •

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، لَكِنَّهَا آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، لَا تَتَّبِعُ مَا قَبْلَهَا، وَلَا مَا بَعْدَهَا، وَلِذَلِكَ لَمْ تُرَقِّمْ فِي الْعَدَدِ إِلَّا فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، فَقَدْ رُقِّمَتْ، وَلَكِنْ تُرْقِيْمُهَا عَلَى قَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالصَّحِيحُ: أَنَّهَا لَا تُرَقِّمُ وَلَا فِي الْفَاتِحَةِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ آيَةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ الْأَدِلَّةَ عَلَى ذَلِكَ، أَي: أَنَّ الْبَسْمَلَةَ لَيْسَتْ آيَةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ^(١).

• • •

قال الله تعالى: ﴿الْم ١﴾

هَذِهِ حُرُوفٌ هِجَائِيَّةٌ ثَلَاثَةٌ: أَلِفٌ، وَلامٌ، وَمِيمٌ. وَالْحُرُوفُ الْهِجَائِيَّةُ بِمُقْتَضَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى فِي حَدِّ ذَاتِهَا؛ لِأَنَّهَا حُرُوفٌ هِجَائِيَّةٌ يَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلَامُ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَعَلَى هَذَا فَالْحُرُوفُ الْهِجَائِيَّةُ الَّتِي ابْتَدَأَ اللَّهُ بِهَا فِي بَعْضِ السُّورِ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى، هَذَا مُقْتَضَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَلَكِنْ لَهَا فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهِيَ إِظْهَارُ عَجْزِ الْمُعَارِضِينَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهَا؛ لِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَعْجَزَهُمْ لَمْ يَأْتِ بِجَدِيدٍ أَوْ غَرِيبٍ عَلَى الْحُرُوفِ الَّتِي يُرَكَّبُونَ مِنْهَا كَلَامَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ أَعْجَزَهُمْ، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الَّتِي يُرَكَّبُ مِنْهَا هَؤُلَاءِ كَلَامَهُمْ، وَعَجَزُوا أَنْ يُعَارِضُوهُ، هَذَا هُوَ الْمَغْزَى.

(١) الشرح الممتع (٣/٥٨).

ولذلك لَا تَجِدُ سُورَةً مَبْدُوءَةً بِهَذِهِ الْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ إِلَّا وَبَعْدَهَا ذِكْرُ الْقُرْآنِ
مُبَاشَرَةً، أَوْ ذِكْرُ مَا لَا يُمَكِّنُ الْعِلْمُ بِهِ إِلَّا بِوَحْيٍ، مِثْلُ: ﴿آلَمْ﴾ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ②
فِي آدْنَى الْأَرْضِ ﴿[الرُّوم: ١-٣].



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ②﴾

هَذِهِ الْآيَةُ بَعْضُ آيَةٍ مِنْ آيَةِ الْكُرْسِيِّ، يُخْبِرُ اللَّهُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ الْمَتَّوِّحِدُ
بِالْأُلُوهِيَّةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ كَامِلُ الْحَيَاةِ وَالْقَيُّومِيَّةِ، فَالْحَيَاةُ ضِدُّ الْمَوْتِ، وَلِهَذَا
قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وَالْقَيُّومِيَّةُ تَعْنِي الْقَائِمَ بِنَفْسِهِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ، الْقَائِمُ عَلَى غَيْرِهِ، فَكُلُّ
مَخْلُوقٍ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، لَا يَقُومُ إِلَّا بِاللَّهِ.

إِذَنْ، فَتَفْسِيرُ الْحَيِّ: أَنَّهُ ذُو الْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، حَيَاةٌ لَمْ تُسَبِّقْ بَعْدَمَ،
وَلَا يَلْحَقُهَا فَنَاءٌ، وَلَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ لَا فِي الصِّفَاتِ، وَلَا فِي الْأَفْعَالِ، وَلَا فِي الْأَحْكَامِ.

وَالْقَيُّومُ هُوَ: الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، الْقَائِمُ عَلَى غَيْرِهِ. وَهَذَا يَتَضَمَّنُ كَمَالَ غِنَاهُ عَنْ كُلِّ
مَنْ سِوَاهُ، وَافْتِقَارَ كُلِّ مَنْ سِوَاهُ إِلَيْهِ جَلَّوَعَلَا.

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنَ الْحِكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١ - أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ الَّذِي أَعْجَزَ الْبَشَرَ - وَلَا سِيَّامَا الْعَرَبُ الْفُصَحَاءُ الْبُلْغَاءُ - لَمْ يَكُنْ
مِنْ حُرُوفٍ غَرِيبَةٍ يَتَحَجَّجُ بِهَا الْمُعَارِضُ، بَلْ هُوَ مِنْ حُرُوفٍ يَتَرَكَّبُ مِنْهَا كَلَامُهُمْ،

يُؤْخَذُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الَمْ﴾.

٢- انفرادُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْأُلُوْهِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣- إثباتُ الاسْمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: ﴿لَحْيُ الْقَيُّومِ﴾، وقد ذَكَرَ هَذَانِ الاسْمَانِ فِي كِتَابِ اللهِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ: فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَفِي سُورَةِ طه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوْهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

٤- إثباتُ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَانِ الاسْمَانِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُمَا يَتَضَمَّنَانِ جَمِيعَ صِفَاتِ الْكَمَالِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، إِمَّا مُطَابَقَةً، وَإِمَّا التَّزَامًا.

٥- أَنَّ الْمُدَبِّرَ لِلخَلْقِ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿الْقَيُّومُ﴾، وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا: أَلَّا تَسْأَلَ إِلَّا اللهَ، وَلَا تَعْتَمِدَ إِلَّا عَلَى اللهِ، وَلَا تَلْجَأَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ إِلَّا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْقَائِمُ عَلَيْكَ، الْمُدَبِّرُ لَأُمُورِكَ، فَلَا تَلْجَأُ إِلَى غَيْرِ اللهِ؛ فَإِنَّ مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَإِلَيْهِ، وَمَنْ تَعَلَّقَ غَيْرَ اللهِ فَهُوَ خَاسِرٌ.



ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أَي: نَزَّلَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ﴾ يَعْنِي:

أَنْزَلْنَاهُ مُفْرَقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، فالقرآن الكريم نزل شيئًا فشيئًا، بعضه بدون سبب، وبعضه لسبب، وهذا يرجع إليه في كتب التفسير.

وقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن؛ لأنه مكتوب، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الآدميين.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني: أن ما جاء به فهو حق، أو ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني: أنه حق من عند الله، وكلا المعنيين صحيح، وكلاهما لا يتناقضان، وعلى هذا فنقول: إن معنى الآية: أنه أتى بالحق، وأنه حق.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حال، يعني: حال كون هذا الكتاب مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، يعني: من الكتب السابقة، ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾. وتصدق القرآن لما بين يديه له وجهان:

الوجه الأول: شهادته بأن الكتب السابقة حق، فهو قد صدقها، وبين أنها حق.

الوجه الثاني: أنه وقع مطابقًا لما أخبرت به الكتب السابقة، فيكون مُصَدِّقًا لها فيما أخبرت به؛ لأن رسالة النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - مذكورة في الكتب السابقة، قال الله تبارك وتعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِرُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ﴾ يعني: على موسى ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ على عيسى، وإنما قال: «أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ» دُونَ (نَزَلَ)؛ لِأَنَّ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ نَزَلَا جُمْلَةً وَاحِدَةً بِدُونِ تَفْرِيقٍ.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، وَكَانَ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - سِتُّ مِثَّةٍ سَنَةٍ، وَلَمْ يَأْتِ بَعْدَهُ نَبِيٌّ.

وقوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أي: عِلْمًا يَهْتَدُونَ بِهِ، فَأَمَّا التَّوْرَةُ فَلِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْإِنْجِيلُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْقُرْآنُ لَجَمِيعِ الْخَلْقِ.

﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ يعني: الْفَرْقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ مُلْتَبَسًا، بَلْ فَرَّقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَهُمَا تَفْرِيقًا وَاضِحًا لَا يَزِيغُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ.

وقيل: إِنَّ الْفُرْقَانَ هُوَ الْقُرْآنُ، وَلَكِنْ هَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ تَنْزِيلَ الْقُرْآنِ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الْجُمْلَةَ بَعْدَ ذِكْرِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ؛ تَهْدِيدًا لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِأَنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ.

وَالْكُفْرُ بِآيَاتِ اللَّهِ هُوَ إِمَّا تَكْذِيبُهَا، وَإِمَّا الْاسْتِكْبَارُ عَنْهَا، وَعَلَى هَذَا يَدُورُ مَحْوَرُ الْكُفْرِ، إِمَّا انْكَارٌ وَتَكْذِيبٌ، وَإِمَّا اسْتِكْبَارٌ وَإِعْرَاضٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَأَيْتَ اللَّهَ﴾ هِيَ شَرَائِعُهُ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّ الشَّرَائِعَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ شَرِيعَةٍ شَرَعَهَا اللَّهُ فَهِيَ مُطَابِقَةٌ لِلْحِكْمَةِ تَمَامًا، وَلِلرَّحْمَةِ، وَلِلصَّالِحِ، وَالْإِصْلَاحِ، وَلَنْ يَأْتِيَ الْبَشَرُ بِمِثْلِ شُرَائِعِ اللَّهِ فِي أَيِّ زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ، فَلِهَذَا كَانَتِ الشَّرَائِعُ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أَي: قَوِيٌّ فِي نَوْعِيَّتِهِ، شَدِيدٌ فِي أَبَدِيَّتِهِ، وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ، ﴿لَا يَقْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَي: غَالِبٌ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].

وَقَوْلُهُ: ﴿ذُو أَنْقَامٍ﴾ أَي: صَاحِبُ انتِقَامٍ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَزِيزٌ، لَا يَذُلُّ أَبَدًا، فَلَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ مِنَ الْحِكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١ - إِبْطَاتُ أَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ (الْقُرْآنَ)، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شَيْئَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ.

الثَّانِي: عَلُوُّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ كَلَامُهُ - وَقَدْ نَزَلَ - دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهِ عَالٍ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالٍ بِذَاتِهِ، وَعَالٍ بِصِفَاتِهِ، فَعُلُوُّ اللَّهِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

الْأَوَّلُ: عَلُوُّ ذَاتٍ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَدِلَّتُهُ كَثِيرَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ.

الثاني: علُو صِفَةٍ، بِمَعْنَى: أَنَّ لَهُ الصِّفَاتِ الْعُلْيَا عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّ صِفَاتِهِ أَعْلَى الصِّفَاتِ وَأَكْمَلُهَا.

٢- شَرَفُ النَّبِيِّ ﷺ، وَعُلُوُّ مَنْزِلَتِهِ؛ حَيْثُ نَزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ.

٣- أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مُفْتَرًى مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَإِذَا كَانَ حَقًّا، وَقَدْ أَلْتَزَمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُحْفَظَهُ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ حُذِفَ مِنْهُ شَيْءٌ. فَإِنَّ الْقُرْآنَ -وَالْحَمْدُ لِلَّهِ- لَمْ يُحْذَفْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا تَلَقَّيْتُمُ الْأُمَّةَ صَاحِرًا عَنْ كَابِرٍ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مُحْذُوفٌ.

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ فِيهِ شَيْئًا مُحْذُوفًا فَقَدْ قَدَحَ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ، وَقَدَحَ فِي خَبَرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وَقَدَحَ فِيهَا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدًى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

٤- أَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ فَهُوَ حَقٌّ مُوَافِقٌ لِلْمَصَالِحِ، وَمَنَافِعِ الْخَلْقِ، فَمَا أَمَرَ بِهِ فَالْحَقُّ فِي امْتِثَالِهِ، وَمَا نَهَى عَنْهُ فَالْحَقُّ فِي اجْتِنَابِهِ.

٥- شَرَفُ هَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ حَيْثُ كَانَتْ الْكُتُبُ السَّابِقَةُ قَدْ نَوَّهَتْ عَنْهُ، وَنَزَلَ مُصَدِّقًا لَهَا، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي التَّفْسِيرِ الْآيَةَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى هَذَا.

٦- وَجُوبُ الْإِيْمَانِ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ كِتَابًا يُسَمَّى: التَّوْرَةَ. وَهُوَ نَازِلٌ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكِتَابًا يُسَمَّى: الْإِنْجِيلَ. وَهُوَ نَازِلٌ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ، وَأَنْزَلَ الْإِنْجِيلَ.

ولكن هل التَّورَةُ الموجودةُ، والإنجيلُ الموجودُ في أيدي اليهود والنصارى هو ما نَزَلَ حقًّا على موسى وعيسى؟

الجواب: قد بينَ اللهُ عَزَّجَلَّ أنَّ فيها زيادةً ونقصًا، وتبديلًا، وتقديماً وتأخيراً، فحرِّفَ الكلامُ عن مواضعِهِ، لكنَّ الواجبَ أنْ نُؤمِّنَ بأنَّ اللهَ أنزَلَ كتابًا على موسى يُسمَّى: التَّورَةُ. وكتابًا أنزَلَ على عيسى يُسمَّى: الإنجيلُ. وأتَّهما حقًّا.

ولكن هل بَقِيَتْ شرائعُهُما، بِمعْنَى: هل يجبُ علينا أنْ نَعْمَلَ بما فيها من الشَّرْعِ إذا وَرَدَ شَرْعُنَا بخلافِهِ؟

الجواب: لا، بل ولا يجوزُ؛ لأنَّ الكتابَ العزيزَ (القرآنَ) نَزَلَ ناسِخًا لكلِّ ما سَبَقَهُ من الكُتُبِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي: له الهَيْمَنَةُ عليه والسُّلْطَةُ، فما خالفَهُ ولو كان ثابتًا في التَّورَةِ والإنجيلِ فَإِنَّهُ مَنْسُوخٌ، والذي تَوَلَّى ذلكَ هو اللهُ الَّذي أنزَلَ هذا وهذا، فإذا نَسَخَ الشَّرَائِعَ السَّابِقَةَ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَجَبَ علينا أنْ نُؤمِّنَ بِأَنَّها حقٌّ، وأنَّه يجبُ العَمَلُ بها قَبْلَ أنْ تُنسخَ، وأما بعدَ النسخِ فلا يُعْمَلُ بها.

٧- أنَّ النَّاسَ مُتَحَاجُونَ إلى هُدى اللهِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ② من قَبْلِ هُدىِّ النَّاسِ، فالعقلُ لا يَسْتَقِلُّ بعِلْمٍ ما يَنْفَعُ، ولا بعِلْمٍ ما يَضُرُّ أيضًا، بل لا بُدَّ من شَرِيعَةٍ تُبَيِّنُ للنَّاسِ ذلكَ، ولهذا قال: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾.

٨- أنَّ اللهَ تعالى أنزَلَ الفُرْقَانَ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، والصِّدْقِ والكَذِبِ، والضَّارِّ والنَّافِعِ، حتَّى لا يَبْقَى النَّاسُ في عَمَى لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا.

فإن قال قائل: أليس يخفى على بعض الناس ما جاء في القرآن من الحق؟

فالجواب: بلى، ولكن هذا ليس لقصور هداية القرآن، وإنما هو لقصور في المستدل بالقرآن، فقد يكون ناقص علم، وقد يكون قاصر فهم، وقد يكون سيئ الإرادة، لا يريد الحق، فيحرم من الوصول للحق.

وأما من أعطاه الله تعالى فهماً، وعِلْماً، ونيةً حسنةً يريد الوصول إلى الحق، فلن يشبهه عليه شيء، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَوْهَابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٧-٨].

٩- وعيد أولئك الكفار الذين كفروا بما أنزل الله تعالى من الكتاب، إما بالتكذيب، وإما بالاستكبار.

١٠- التحذير من الكفر؛ لأن كل من علم بأن للكافر عذاباً شديداً فسوف يحذر.

١١- إثبات هذا الاسم لله عز وجل، وهو (العزیز) الغالب الذي لا يغلب.

١٢- أن الله ذو انتقام، ولكن ممن؟

الجواب: بين الله تعالى أنه ينتقم من المجرمين، فقال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، وانتقام الله تبارك وتعالى قوي شديداً، نسأل الله أن يعيدنا جميعاً من انتقامه، وأسباب سخطه؛ إنه على كل شيء قدير.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾

هذه جملة مؤكدة بـ: ﴿إِنَّ﴾، يؤكدُ الله عزَّ وجلَّ أنه لا يخفى عليه أي شيء، سواء في الماضي، أو المستقبل، أو الحاضر، وسواء كان عظيمًا أو هيئًا، ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، وذلك لكمال إحاطته عزَّ وجلَّ بالخلقِ علمًا.

ففي هذه الآية من الفوائد:

- ١- بيان عمومِ علمِ الله عزَّ وجلَّ، وأنه شاملٌ لكلِّ شيءٍ في الأرضِ والسَّمَاءِ.
- ٢- التحذيرُ من مخالفةِ أمرِ الله، إمَّا بالتهاوُنِ بالواجباتِ، أو بانتهاكِ المحرَّماتِ؛ لأنَّ الإنسانَ متى علِمَ أنَّ الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ، ولا في السَّمَاءِ، فإنَّه لن يجزُّوَ على المخالفةِ.
- ٣- بلاغةُ القرآنِ الكريمِ؛ حيثُ بدأ بالأرضِ هنا قبلَ السَّمَاءِ؛ لأنَّه قد يظنُّ ظانٌّ أنَّ كَوْنَ الله تَعَالَى لا يخفى عليه شيءٌ في السَّمَاءِ ظاهرٌ، لكنَّ إذا كان في الأرضِ فقد يتوهَّمُ واهِمٌ أنَّ الله لا يخفى عليه، والأمرُ على حدِّ سواءٍ بالنسبةِ لله عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّمَاءِ، فالمسموعُ مسموعٌ له، والمبصرُ مبصرٌ له جَلَّ وَعَلَا.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾ أي: يجعلكم على صورة معينة ﴿فِي الْأَرْحَامِ﴾ جَمْعُ رَحِمٍ، وهو وعاء الجنين ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: على الوجه الذي يشاءه عز وجل، ما بين جميل وذميم، وأسود وأبيض، وطويل وقصير، وصحيح وسقيم، فهو يصور ما في الأرحام كيف يشاء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود حق إلا هو سبحانه وتعالى ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: ذو العزة والحكمة.

فِيستفاد من هذه الآية الكريمة:

١ - عُمُومُ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، حَيْثُ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَيُصَوِّرُ مَا فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ.

٢ - أَنَّ أَمْرَ التَّصْوِيرِ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَهُوَ خَالِقُ الصُّورِ، لَيْسَ بِاخْتِيَارِ الْأَبِ، وَلَا بِاخْتِيَارِ الْأُمِّ أَنْ يَكُونَ طِفْلُهَا عَلَى مَا يُرِيدَانِ مِنْ جَمَالٍ وَدَّلَالٍ، بَلْ هُوَ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

٣ - أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُعَيِّرَ الشَّخْصَ بِصُورَتِهِ، فيقول: هو قصير، هو ذميم، هو مُسْتَطِيلُ الْوَجْهِ، هو كذا وكذا. لِشَيْءٍ مِمَّا صَوَّرَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّ عَيْبَ الصُّورَةِ فِي الْحَقِيقَةِ عَيْبٌ لِلْمُصَوِّرِ، فَإِذَا وَجَدْتَ رَجُلًا ذَمِيمًا فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُعَيِّرَهُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّكَ إِذَا عَيَّرْتَهُ فَقَدْ عَيَّرْتَ خَالِقَهُ جَلَّ وَعَلَا؛ إِذْ إِنَّ هَذَا الذَّمِيمَ لَا يَمْلِكُ أَنْ يُجَمِّلَ نَفْسَهُ.

٤ - أَنَّ هَذَا التَّصْوِيرَ تَابِعٌ لِمَشِئَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُقَيِّدُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالمَشِئَةِ فَإِنَّهُ مُقَيَّدٌ بِالحِكْمَةِ، أي: أَنَّ مَشِئَةَ اللَّهِ لَيْسَتْ مَشِئَةً مُجَرَّدَةٌ هَكَذَا عَفْوِيَّةً، بَلْ هِيَ

مَشِيئَةً مَّبْنِيَّةً عَلَى حِكْمَةٍ بِالْغَةِ، قَدْ نَعَلَمُهَا، وَقَدْ لَا نَعَلَمُهَا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فَيَنْبَغِي لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ مَشِيئَتُهُ تَابِعَةٌ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

٥- إِبْطَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَوَاضِحٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، حَتَّى أَفْعَالُنَا نَحْنُ الَّتِي تَصْدُرُ بِإِزَادَاتِنَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨-٢٩].

٦- انْفِرَادُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْأُلُوْهِيَّةِ الْحَقِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وَهَذِهِ الْفَائِدَةُ تَسْتَلْزِمُ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نَتَّأَلَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْمَعْبُودَاتِ مِنْ سِوَى اللَّهِ فَهِيَ بَاطِلَةٌ، وَعَلَيْهِ فَلَا نَلْجَأُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِهِ، وَلَا نَسْتَغِيثُ إِلَّا بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى الْقُبُورِ، وَسُؤَالِ الْأَمْوَاتِ، فَإِنَّ هَذَا شِرْكٌ أَكْبَرُ، وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

٧- أَهْمِيَّةُ تَوْحِيدِ الْأُلُوْهِيَّةِ، حَيْثُ يُكْرَّرُ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، فَفِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢]، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أَيْ: لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ، فَكُلُّ الْمَعْبُودَاتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ بَاطِلَةٌ؛ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ.

٨- إِبْطَاتُ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ: (الْعَزِيزِ) وَ(الْحَكِيمِ)، وَمَا تَضَمَّنَاهُ مِنْ صِفَتَيِ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ، وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ.

فَالْعَزِيزُ مَعْنَاهُ: ذُو الْعِزَّةِ، وَالْعِزَّةُ هِيَ: الْعَلْبَةُ، فَهُوَ غَالِبٌ لَا يُغْلَبُ، وَقَاهِرٌ لَا يُقَهَّرُ، جَلَّ وَعَلَا.

والْحَكِيمُ يَعْنِي: ذَا الْحِكْمَةِ، وَذَا الْحُكْمِ، فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ الْحُكْمُ الْمَطْلُوقُ الْكَوْنِيُّ وَالشَّرْعِيُّ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِيمَا قَضَاهُ وَقَدَّرَهُ، وَفِيمَا حَكَمَ بِهِ عَزَّوَجَلَّ.

• • ❦ • •

يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٧﴾

قَوْلُهُ: ﴿هُوَ﴾ الصَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْكَ﴾ يَعُودُ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.
وَالكِتَابُ هُوَ الْقُرْآنُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أَي: آيَاتٌ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ، لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي: هُنَّ الْمَرْجِعُ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي الْكِتَابِ ﴿وَأُخَرُ﴾ يَعْنِي: وَمِنْهُ أُخَرُ ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ تَشَبَهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، وَتَخْفَى عَلَيْهِمْ، فَقَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ إِلَى قِسْمَيْنِ:

■ مُحْكَمٌ، أَي: وَاضِحٌ بَيِّنٌ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ.

■ وَمُتَشَابِهٌ، يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ.

وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْمُحْكَمَاتِ عَلَى ذِكْرِ الْقِسْمِ الثَّانِي -وهو المتشابهات- لِيَبْدُرَ إِلَى الدَّهْنِ أَنَّ هَذِهِ الْمُحْكَمَاتِ هِيَ الْمَرْجِعُ.

وَقَسَمَ النَّاسَ بِاعْتِبَارِ الْمُتَشَابِهِ إِلَى قِسْمَيْنِ، فَقَالَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: مَيْلٌ عَنِ الْحَقِّ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَانْحِرَافٌ عَنْهُ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ أي: يَطْلُبُونَ الْمُتَشَابِهَ؛ لِيُشَكِّكُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْقُرْآنِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ابْتَغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿ابْتَغَاءَ﴾ بِمَعْنَى: طَلَبٍ، يَعْنِي: يَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ طَلَبًا لِلْفِتْنَةِ، وَالْفِتْنَةُ: صَدُّ النَّاسِ عَنْ دِينِهِمْ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْخَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، فَقَوْلُهُ: ﴿فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: صَدَّوْهُم عَنْ دِينِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي: تَفْسِيرِهِ بِمَا لَمْ يُرِدْهُ اللَّهُ بِهِ، فَيُضِلُّونَ بِأَنفُسِهِمْ، وَيُضِلُّونَ غَيْرَهُمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ اختَلَفَ السَّلَفُ رَجَاهُ اللَّهِ: هَلْ يُوقَفُ عَلَى ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، أَوْ يُوَصَّلُ، فَيُقَالُ: ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ؟﴾ وَاخْتِلَافُهُمْ هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى مَعْنَى التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ: التَّفْسِيرُ. فَالْقِرَاءَةُ بِالْوَصْلِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: وَمَا يَعْلَمُ تَفْسِيرَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، يَعْنِي: يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَهُ.

وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ مَا يُؤْوَلُ إِلَيْهِ الشَّيْءُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، أي: مَالُهُ الَّذِي يُؤْوَلُ إِلَيْهِ، فَهَذَا الْوَقْفُ، نَقُولُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، وَيَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ أي: بِالْقُرْآنِ مُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾، وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَنْ

عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ، لَا يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلَا يَتَنَاقِضُ فِي أَحْكَامِهِ؛
لأنَّه مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَذْكُرْ إِلَّا آلًا أُؤَلُّوا الْأَلْبَابُ﴾ أَي: مَا يَتَّعِظُ بِهَذَا الْقُرْآنِ
إِلَّا أَصْحَابُ الْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ الرَّاشِدَةِ، وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ عَقْلٌ رَاجِحٌ رَاشِدٌ فَإِنَّ
الْقُرْآنَ لَا يَنْفَعُهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ
هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ
يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾
[التوبة: ١٢٤-١٢٦].

في هذه الآية الكريمة من الفوائد:

١- أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-،
وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ شَيْئَيْنِ:

الأوَّل: أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ.

والثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالٍ عَلَى خَلْقِهِ.

٢- بَيَانُ انْقِسَامِ الْقُرْآنِ إِلَى قِسْمَيْنِ: مُحْكَمٍ، وَمُتَشَابِهٍ.

■ فَاَلْمُحْكَمُ: مَا اتَّضَحَ مَعْنَاهُ وَبَانَ لِكُلِّ أَحَدٍ، مِثْلُ: قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ
إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْرِفُ الْإِحْسَانَ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ
رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فَكُلُّ أَحَدٍ يَعْرِفُ الشَّهْرَ، وَيَعْرِفُ
رَمَضَانَ.

■ وَأَمَّا الْمُتَشَابِهُ فَكَثِيرٌ مَّا اخْتَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ، كَاخْتِلَافِهِمْ فِي مَعْنَى الْقُرْوَءِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْبِصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرْوَءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فَإِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا: مَا الْمُرَادُ بِالْقُرْءِ؟ فَقِيلَ: الْحَيْضُ. وَقِيلَ: الطُّهُرُ. وَلَهُ أَمْثَلَةٌ أُخْرَى.

٣- الْحِكْمَةُ فِي أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ بَعْضَ الْقُرْآنِ مُتَشَابِهًا؛ لِيَبْتَلِيَ مَنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ، فَيَتَّبِعُ الْمُتَشَابِهَ، وَمَنْ كَانَ رَاسِخًا فِي الْعِلْمِ، فَيَتَّبِعُ الْمُحْكَمَ، وَيَحْمِلُ الْمُتَشَابِهَ عَلَيْهِ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَالْمُتَشَابِهُ كَمَا يَكُونُ فِي الْقُرْآنِ فَكَذَلِكَ يَكُونُ فِي السُّنَّةِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «الْحَلَالُ بَيْنٌ، وَالْحَرَامُ بَيْنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ»^(١).

٤- أَنَّ الْوَاجِبَ رَدُّ الْمُتَشَابِهِ إِلَى الْمُحْكَمِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾، أَي: مَرْجِعُهُ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ، فَلَا يَجُوزُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَّبِعَ الْمُتَشَابِهَ، وَيَدَّعِ الْمُحْكَمَ، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ يَرُدَّ الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ؛ لِيَكُونَ كُلُّهُ مُحْكَمًا.

٥- أَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا فِي هَذَا الْمُتَشَابِهِ إِلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ، يَتَّبِعُ الْمُتَشَابِهَ، وَيُورِدُهُ عَلَى نَفْسِهِ أَوَّلًا، فَيُشْكُّ، وَعَلَى غَيْرِهِ ثَانِيًا، فَيُشْكِّكُ.

مِثَالُ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال، رقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۖ يَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [طه: ١٠٢-١٠٣]،
 فيأتي إنسانٌ ممن في قلبه رَيْغٌ، ويقول: كيف يُخْبِرُ بَأَنَّ الوجوهَ تَسْوَدُّ، ويُخْبِرُ بأنَّهم
 يُحْشَرُونَ زُرْقًا؟ فيقول: هذا مُتَنَاقِضٌ. فيفتِنُّ، ويفتِنُّ النَّاسَ.

وأما الرَّاسِخُونَ في الْعِلْمِ فيقولون: لا مُنَاقِضَةَ؛ لأنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُمْسُونَ أَلْفَ
 سَنَةٍ، تَتَغَيَّرُ فِيهِ الْوُجُوهُ مِنْ سَوَادٍ إِلَى زُرْقَةٍ، أو من زُرْقَةٍ إِلَى سَوَادٍ، أو يُقَالُ: إِنَّ الْأَزْرَقَ
 الْخَالِصَ يَكُونُ قَرِيبًا مِنَ السَّوَادِ؛ لِأَنَّهُ أَزْرَقُ خَالِصٌ دَاكِنٌ، فَيَكُونُ كَالسَّوَدِ.

ومن ذلك: أَنْ يَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا
 الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ
 فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فكيفَ يَقُولُ في الآية الأولى:
 ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، وفي الثانية يَقُولُ عنهم: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا
 مُشْرِكِينَ﴾، وما هذا إِلَّا كَتَمٌ؟ فَيَفْتِنُّ بِنَفْسِهِ، وَيَفْتِنُّ غَيْرَهُ.

أما الرَّاسِخُونَ في الْعِلْمِ فيقولون: إِنَّ هَؤُلَاءِ يَكْتُمُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ في
 أَوَّلِ الْأَمْرِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُخْتَمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتَكَلَّمُ أَيْدِيهِمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ، وَحِينَئِذٍ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا، وَالْأَمْثَلُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ.
 نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ في الْعِلْمِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٦- أَنْ مَا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَنَاقِضَ؛ لِقَوْلِ الرَّاسِخِينَ في الْعِلْمِ:
 ﴿ءَاْمَنَّا بِهِ- كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

٧- وَجُوبُ التَّسْلِيمِ التَّامِّ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ في الْأُمُورِ الَّتِي تَشْتَبِهُ عَلَيْكَ، وَإِذَا سَلَكَتَ
 هَذَا الطَّرِيقَ، وَفَوَضْتَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ في الْأُمُورِ الْقَدَرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، سَلِمْتَ مِنْ أُمُورٍ

كثيرة، واطمأنَّ قَلْبُكَ، واستراحتْ نَفْسُكَ؛ لِقَوْلِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ: ﴿ءَامَنَّا بِهِ- كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

٨- أَنَّهُ لَا يَتَذَكَّرُ بِالْمَوَاعِظِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ إِلَّا أَصْحَابُ الْعُقُولِ.

٩- أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ، وَالْمُرَادُ بِالْعُقُولِ هُنَا: الْعُقُولُ الرَّاشِدَةُ النَّاصِحَةُ الَّتِي تَعْرِفُ مَا يَضُرُّهَا، فَتَجْتَنِبُهُ، وَتَعْرِفُ مَا يَنْفَعُهَا، فَتُوافِيهِ.

وليس المراد بالعقل هنا: العقل الذي يترتب عليه التكليف؛ فإنَّ العقل الذي يترتب عليه التكليف حاصل للكفار وغير الكفار، لكن عقل الرشد ليس إلا للمؤمنين.



قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨)

هذا من قولِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، يَقُولُونَ فِي الْمَتَشَابِهِ: ﴿ءَامَنَّا بِهِ- كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَكِّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٧) رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.

وَالزَّيْغُ بِمَعْنَى: الْمِيلُ، أَي: لَا تُثَلِّ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا بِالْعِلْمِ وَالتَّوْفِيقِ ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أَي: أَعْطِنَا مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً تُثَبِّتُنَا بِهَا، وَتُبْعِدُنَا عَنِ الشُّبُهَاتِ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أَي: كَثِيرُ الْعَطَاءِ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ، بَلَّا لَا يُزِيغَ قَلْبَهُ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّجَلَّ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ، وَالإِنْسَانُ عَلَى خَطَرٍ مَا دَامَتْ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ.

٢ - التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِنِعْمَتِهِ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، أَي: كَمَا مَنَنْتَ عَلَيْنَا بِالْهُدَايَةِ، فَلَا تَحْذُلْنَا بِالْغَوَايَةِ وَالزَّيْغِ.

٣ - الاعْتِرَافُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ بِالْفَضْلِ بِهِدَايَتِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَعْظَمَ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ أَنْ يَهْدِيَهُ لِلْإِسْلَامِ، فَيَنْشَرِحَ بِهِ صَدْرُهُ، وَيَطْمَئِنَّ بِهِ قَلْبُهُ.

٤ - سُؤَالُ اللَّهِ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾، وَإِنَّمَا أَضَافُوا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾؛ لِأَنَّ عِظَمَ الْعَطِيَّةِ مِنْ عِظَمِ الْمُعْطِي، وَكَثْرَةُ الْهَدِيَّةِ وَالْهِبَةِ مِنْ كَرَمِ الْمُعْطِي.

٥ - إِبْطَاتُ هَذَا الْأِسْمِ الْكَرِيمِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ: (الْوَهَّابِ)، أَي: كَثِيرِ الْهِبَاتِ وَالْعَطَايَا.

٦ - التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ، وَيُخْتَارُ الْأِسْمُ الْمُنَاسِبُ لِمَا دَعَا بِهِ الْإِنْسَانُ، فَهَم قَالُوا: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، وَالْقَائِلُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ. اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ۝١﴾

قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا﴾ يَعْنِي: يَا رَبَّنَا ﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ أَي: حَاشِرُهُمْ جَمِيعًا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وَاللَّامُ هُنَا لِلتَّوْقِيتِ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ سَيُجْمَعُونَ فِي يَوْمٍ لَا شَكَّ فِيهِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿[الغاشية: ٢٥-٢٦]﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ هَذِهِ جُمْلَةٌ تَعْلِيلِيَّةٌ، يَعْنِي: آمَنَّا بِذَلِكَ، وَأَقْرَرْنَا بِهِ؛ لِأَنَّكَ وَعَدْتَ بِهِ، وَأَنْتَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ، وَذَلِكَ لِكَمَالِ صِدْقِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ؛ فَإِنَّهُ بِكَمَالِ الصَّدَقِ وَالْقُدْرَةِ يَحْصُلُ الْمَوْعُودُ بِهِ؛ إِذْ إِنَّ إِخْلَافَ الْوَعْدِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَكَذِبِ الْوَاعِدِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لَعَجْزِهِ، وَالرَّبُّ عَزَّجَلَّ مُنَزَّهٌ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْكَذِبِ وَالْعَجْزِ، فَقَوْلُهُ أَصْدَقُ الْقَوْلِ، وَقُدْرَتُهُ أَعْظَمُ الْقُدَرِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

- ١- أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا جَازِمًا لَا يَغْتَرِيهِ شَكٌّ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.
- ٢- أَنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يُجْمَعُونَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝١١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿[الواقعة: ٤٩-٥٠]﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿[الجنات: ٢٦]﴾.
- ٣- صِدْقُ إِيمَانِ هَؤُلَاءِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، بِأَنَّهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَكٌّ وَلَا احْتِمَالٌ فِيمَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ مِنْ جَمْعِ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ.

٤- أن إيمان أولئك الراسخين في العلم بيوم البعث مبني على يقين وإيمان بكمال صفات الله عز وجل، حيث إنه تعالى لا يخلف الميعاد.

٥- أن العاقل يحب عليه أن يعمل لهذا اليوم الذي لا ريب فيه، ولكن النفوس تعمل ليوم زائل فان، وتنسى اليوم الآخر الباقي، فما أكثر الذين غرثهم الحياة الدنيا، ولهو بها عن مستقبلهم في الآخرة، وكأنهم مقيمون أبداً في الدنيا لا يرحلون، وكأنهم لا يبعثون فيجازون، نسأل الله عز وجل أن يرزقنا الاستعداد لذلك اليوم العظيم، وأن يجعلنا فيه من السعداء، وأن يهتم لنا ولاخواننا بالخير؛ إنه على كل شيء قدير.



يقول الله تبارك وتعالى لما ذكر حال الراسخين في العلم، المؤمنين بالله واليوم الآخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ❶

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كفروا بالله، وبما يحب الإيمان به، وقد بين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أن الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر^(١)، فمن كفر بشيء من ذلك دخل في هذه الآية.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو؟ رقم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. كما أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

كذلك أيضًا مَنْ كَفَرَ كُفْرَ اسْتِكْبَارٍ، بَأْنِ اسْتَكْبَرَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيهِا يَخْرُجُ بِهِ الْعَبْدُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِذَا خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَلِهَذَا أَطْلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْكُفْرَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وَلَمْ يَقُلْ بِكَذَا وَكَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أَي: لَنْ يُفِيدَهُمْ، وَلَنْ تَمْنَعَهُمْ مِنَ اللَّهِ إِذَا أَرَادَ بِهِمْ سُوءًا، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ يَشْمَلُ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ، وَمِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ، مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ فِضَّةٍ، أَوْ جَوَاهِرٍ، أَوْ لَالِيٍّ، أَوْ أَوَانٍ، أَوْ أَيِّ شَيْءٍ، لَنْ يُفِيدَهُمْ شَيْئًا، وَلَنْ يَمْنَعَ عَنْهُمْ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ ذَلِكَ.

ولِهَذَا نَجِدُ الزَّلَازِلَ وَالْفَيْضَانَاتِ وَالْأَمْرَاضَ الْمُهْلِكَةَ، لَا يُمَكِّنُ لِلْغَنِيِّ مَهْمَا كَثُرَ مَالُهُ أَنْ يَدْفَعَهَا عَنْ نَفْسِهِ إِذَا أَرَادَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أَيْضًا تُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَالْأَوْلَادُ هُنَا يَشْمَلُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَشْمَلُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، فَقَالَ: ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْأَوْلَادَ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْأُنْثَى تَدْخُلُ فِي مُسَمًى الْوَلَدِ.

فَالْأَوْلَادُ مَهْمَا كَثُرُوا، وَمَهْمَا كَانُوا فِي الشَّجَاعَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْبَاسِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا وَالِدَهُمْ شَيْئًا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، حَتَّى لَوْ وَقَفُوا عَلَى بَابِهِم بِالسُّيُوفِ وَالْمَدَافِعِ فَلَنْ يُغْنُوا عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي: الَّذِي تُوقَدُ بِهِ النَّارُ، فَهُمْ وَقُودُ النَّارِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؛ كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فُؤَا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]، يَعْنِي: أَنَّ النَّاسَ لِلنَّارِ مِثْلُ الْحَطَبِ، النَّارُ تَأْكُلُهُمْ، وَتَشْتَعِلُ بِهِمْ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

- ١ - إثبات هذا الحكم العظيم للكافرين - والعياذ بالله - أنهم وَقُودُ النَّارِ.
- ٢ - أَنَّ الْكَافِرَ مَهْمَا قَوِيَ سُلْطَانُهُ، وَكَثُرَ مَالُهُ وَالْمُدَافِعُ عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَنْ يُغْنِيَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.
- ٣ - التَّحْذِيرُ مِنَ الْكُفْرِ؛ لِأَنَّ شَيْئًا هَذِهِ عَاقِبَتُهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْذَرَ مِنْهُ الْعَاقِلُ.
- ٤ - أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ هَذَا لِلْكَفَّارِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَنْ يُصِيبَهُ ذَلِكَ، أَيْ: لَنْ يَكُونَ وَقُودَ النَّارِ، وَإِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا سَيِّئًا يَسْتَحِقُّ بِهِ دُخُولَ النَّارِ، فَإِنَّهُ لَنْ يُجَلِّدَ فِيهَا.
- ٥ - أَنَّ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ دِفَاعًا عَنِ الْإِنْسَانِ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ يَتَّخِذُ الْمَالَ وَالْوَلَدَ حِمَايَةً لَهُ، وَلَكِنْ هَلْ هَذَا يَحْمِيهِ مِنَ اللَّهِ؟
الجواب: لا، لا يَحْمِيهِ مِنَ اللَّهِ.
- ٦ - تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ هَذَا مَصِيرُهُمْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَأَنَّهُمْ لَنْ يُعْجِزُوا اللَّهَ.
- ٧ - تَهْدِيدُ أَوْلَئِكَ الْكَفَّارِ، فَإِنَّهُ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَتَأْمَلْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بَلَيِّنَنِي لَرَأُوتَ كِتَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ٢٥]،

بَيْنَمَا الْمُؤْمِنُ يُفْرَحُ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾ [الحاقة: ١٩]، أَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: ﴿يَلَيِّنَنِي لَمْ أَتُوتْ كِتَابِي﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَمْ أَذِرْ مَا حَسِيَّةٌ ﴿٦١﴾ يَلَيِّنَهَا كَانَتْ الْفَاضِيَّةُ ﴿٦٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿الحاقة: ٢٥-٢٩﴾، اللَّهُمَّ أَعِزَّنَا مِنْ ذَلِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

٨- إثبات النار، وهي الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِأَعْدَائِهِ، فَإِنَّهَا مَصِيرُهُمْ أَبَدًا الْآبِدِينَ، لَنْ يُخْرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، وَيَقُولُونَ: ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنكِتُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧-٧٨]، وَيَقُولُونَ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وَاللَّهُ مَا طَمِعُوا بِالْخُرُوجِ، وَلَا طَمِعُوا بِدَوَامِ التَّخْفِيفِ، بَلْ قَالُوا: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾، وَيَقُولُونَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، فَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿أَخْسِنُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧-١٠٨]، وَهَذَا أَعْظَمُ الْإِذْلَالِ، وَأَعْظَمُ الْخِزْيِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، أَنْ يَقُولَ لَهُمْ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ: ﴿أَخْسِنُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ لِأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ لَذَلِكَ، مُعَاقِبُونَ بِعَذْلِهِ؛ فَإِنَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَهْلُ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

الدَّأْبُ بِمَعْنَى: العادة.

وَأَلِ فِرْعَوْنَ الْمُرَادُ بِهِمْ: أَتْبَاعُهُ عَلَى دِينِهِ، وَهُوَ عَلَى رَأْسِهِمْ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ

الْمَوْزُودُ﴾ [هود: ٩٧-٩٨].

وفِرْعَوْنُ هُوَ: الطَّاغِيَةُ الْعَنِيدُ الْمُتَكَبِّرُ الَّذِي أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مُوسَى بْنَ

عِمْرَانَ مَعَ أَخِيهِ هَارُونَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ طَاغِيَةُ مِصْرَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: قَبْلَ آلِ فِرْعَوْنَ، مِثْلُ: قَوْمِ لُوطٍ، وَثَمُودَ،

وَعَادٍ، وَأَشْبَاهِهِمْ.

ثُمَّ ذَكَرَ هَذَا الدَّأْبَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَي: كَذَّبُوا بِشَرِيعَتِنَا؛ لِأَنَّ الشَّرَائِعَ

مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ إِذْ لَا أَحَدَ مِنَ الْبَشَرِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَضَعَ شَرِيعَةً كَشَرِيعَةِ اللَّهِ فِي

إِصْلَاحِ عِبَادِ اللَّهِ، فَالشَّرَائِعُ آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَؤُلَاءِ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ،

وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا.

وَلَكِنْ هَلْ تَكْذِيبُهُمْ كَانَ عَنْ حَقِيقَةٍ؟ انْظُرْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ آلِ فِرْعَوْنَ:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فَهُمْ فِي الْبَاطِنِ مُوقِنُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ هَذِهِ مُتَعَلِّقَةٌ بـ: ﴿جَحَدُوا﴾، يَعْنِي: جَحَدُوا بِهَا ظُلْمًا

وَعُلُوًّا مَعَ اسْتَيْقَانِهِمْ بِهَا.

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ مُوسَى يُخَاطَبُ فِرْعَوْنَ مُوَاجَهَةً، قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ:
﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْتُ
مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولم يكذب فرعون موسى، مع قدرته على تكذيبه؛ لأن هذا
هو الواقع.

وَأَمَّا قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿يَنْهَكُنْ أَبْنِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) أَسْبَبَ
السَّمَوَاتِ فَاطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] فهذا من بابِ
التَّمويه على قومه، وإلا ففي قرارة نفسه أن موسى صادق، لا شك عنده في هذا.
وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم، وإن شئت فقل: أي: أخذهم
بالعذاب، وهو الهلاك، والباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم، والذنوبُ
هي: المعاصي.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: قويُّ العقابِ عَزَّجَلَّ، والعقابُ: المؤاخذهُ على
الدَّنبِ. وَسُمِّيَ: عِقَابًا؛ لَأَنَّهُ يَعْقُبُ الدَّنْبَ، والدَّنْبُ سَبِيهُ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - بَيَانُ حِكْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي تَحْذِيرِ الْعِبَادِ، حَيْثُ يَذْكُرُ مَا جَرَى لِلْأُمَمِ
السَّابِقَةِ مِنَ النِّكَالِ وَالْعِقَابِ بِسَبَبِ التَّكْذِيبِ.

٢ - أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُجَازِي أَحَدًا لِشَرِّهِ أَوْ نَسَبِهِ أَوْ ثَرَوَتِهِ أَوْ مَا أَشَبَهَ ذَلِكَ،
فَالْعِبَادُ فِي حَقِّ الْمَعْبُودِ وَاحِدٌ، إِذَا كَانَ عَاقِبَ أَحَدًا هَذَا الدَّنْبِ فَيُعَاقَبُ مَنْ كَانَ
مِثْلَهُ، وَلَا فَرْقَ.

٣- حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي إِنْزَالِ الْقُرْآنِ، فَتَجِدُ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ أحيانًا مَبْسُوطًا مُطَوَّلًا، وأحيانًا مُخْتَصَرًا قَصِيرًا، حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْبَلَاغَةُ وَالْفَصَاحَةُ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَعْلَى مَا يَكُونُ فَصَاحَةً وَبَيَانًا وَبَلَاغَةً، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْقَصَصُ مُخْتَصَرٌ جَدًّا.

٤- الْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ مَا جَرَى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ: تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَتَحْذِيرٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ.

٥- بَيَانُ قُوَّةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَنَّ الْأُمَمَ مَعَهَا عَظُمَتْ قُوَّتُهُمْ وَاشْتَدَّتْ فَإِنَّهُمْ لَنُعْجِزُوا اللَّهَ، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيُجْزَى بِأَظْلَمٍ^(١)

٦- إِبْثَابُ الْأَسْبَابِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ حِكْمَتِهِ رَبَطَ الْمُسَبِّبَاتِ بِأَسْبَابِهَا، فَالْعُقُوبَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ لَهَا سَبَبٌ، وَهُوَ الذُّنُوبُ.

٧- التَّحْذِيرُ مِنْ أَسْبَابِ الْعُقُوبَةِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

٨- إِبْثَابُ هَذَا الْوَصْفِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَهُوَ شِدَّةُ الْعِقَابِ، وَذَلِكَ لِكَمَالِ سُلْطَانِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا أَحَدَ يُحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا أَرَادَ مِنَ الْعُقُوبَةِ.

٩- التَّحْذِيرُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ؛ لِأَنَّ عُقُوبَةَ اللَّهِ إِنَّمَا تَكُونُ بِالذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ إِمَّا تَرْكُ وَاجِبٍ، وَإِمَّا فِعْلُ مُحَرَّمٍ.

(١) بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة (ص: ٤٥٣)، وبهجة المجالس (١/ ٣٦٧).

١٠- بَيَانُ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ، وَإِثْبَاتُ الْقِيَاسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فَكَأَنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: لَيَنْظُرَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ مَاذَا صُنِعَ بِأَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيَقْيِسُوا الْحَاضِرَ عَلَى الْمَاضِي.

وفيه إيماءٌ إلى إِعْمَالِ الْعَقْلِ؛ لِأَنَّ دَلَالََةَ الْقِيَاسِ عَقْلِيَّةٌ، وَإِعْمَالُ الْعَقْلِ هُوَ: أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ ذَا تَعَقُّلٍ وَتَبَصُّرٍ فِي الْأُمُورِ، وَيَقْيِسُ الْمُتَشَابِهَاتِ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ. وَالْقِيَاسُ هُوَ الدَّلِيلُ الرَّابِعُ مِنْ أَدِلَّةِ الشَّرِيعَةِ، فَإِنَّ الْأَدِلَّةَ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ، وَالْقِيَاسُ الصَّحِيحُ.

لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْقِيَاسُ صَحِيحًا، أَمَّا الْقِيَاسُ الْفَاسِدُ الْمُضَادُّ لِلنَّصِّ فَهُوَ مُطَرَّحٌ وَفَاسِدٌ عَلَى اسْمِهِ، وَلِهَذَا يُسَمَّى الْأُصُولِيُّونَ الْقِيَاسَ الْمُخَالَفَ لِلنَّصِّ يُسَمُّونَهُ: فَاسِدَ الْاِعْتِبَارِ. يَعْنِي: لَا اِعْتِبَارَ بِهِ، وَهَذَا حَقٌّ.

نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا جَمِيعًا الْبَصِيرَةَ فِي دِينِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فَيْسَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطْلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]؛ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٢)

يَعْنِي: أَعْلِنَ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلَ، بِأَنَّهُمْ سَيُغْلَبُونَ فِي الدُّنْيَا، وَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

وإِنَّمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ؛ مِنْ أَجْلِ كَسْرِ شَوْكَتِهِمْ، وَإِنْزَالِ الرَّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - حَقٌّ، وَأَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ سَيَقَعُ.

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهُمْ أَذِلَّاءُ فِي الدُّنْيَا، وَأَذِلَّاءُ فِي

الْآخِرَةِ.

﴿وَيُنَسَّ إِلَيْهِمْ﴾ أَي: بِئْسَ الْقَرَارُ هِيَ.

في هذه الآية الكريمة من الأحكام والحكم:

١- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا بِدِينِهِ، مُسْتَشْعِرًا لِلْغَلْبَةِ عَلَى أَعْدَائِهِ؛ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ تَحْصُلُ لَهُ الْجُرْأَةُ وَالْإِقْدَامُ وَالشَّجَاعَةُ.

٢- أَنَّهُ يَنْبَغِي فِعْلُ كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ فِيهِ إِرْهَابُ الْعَدُوِّ، وَإِذْلَالُهُ، وَخِذْلَانُهُ، وَكَسْرُ شَوْكَتِهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا يَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٣- أَنَّ الْعَلْبَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿سَتُعْلَبُونَ﴾ مَبْنِيٌّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَلَكِنَّ الْفَاعِلَ - وَهُوَ الْغَالِبُ - مَعْرُوفٌ، وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ، لَكِنْ مَتَى يَكُونُ هَذَا؟

الجواب: يَكُونُ إِذَا قَامَ الْمُسْلِمُونَ بِالْإِيمَانِ الْحَقِّ، الَّذِي يَمْلَأُ الْقُلُوبَ، وَتَصْلُحُ بِهِ الْجَوَارِحُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، فَسَلَّمَ ذَلِكَ لَهُمْ، وَلَكِنْ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «وَاللَّهُ أَعَزُّ، وَرَسُولُهُ أَعَزُّ، وَالْمُؤْمِنُونَ

أَعَزُّ؛ لَأَنَّهُ لَوْ قِيلَ ذَلِكَ لَكَانَ لِلْمُنَافِقِينَ عِزَّةٌ، وَلَكِنَّهُ لَا عِزَّةَ لَهُمْ، فَلَا عِزَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَّا إِذَا قَامُوا بِأَمْرِ اللَّهِ إِيْمَانًا بِهِ جَلَّوَعَلَا، وَتَصَدِيقًا بِأَخْبَارِهِ، وَاتِّبَاعًا لِأَحْكَامِهِ.

أَمَّا وَهُمْ مُتَفَرِّقُونَ مُتَنَازِعُونَ مِنْهُمْ كَوْنٌ فِي حُبِّ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَفُوا بِالشَّرْطِ الَّذِي تَكُونُ بِهِ الْعِزَّةُ.

٤ - إِبْثَابُ الْجَزَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٥ - أَنَّ الْكَافِرِينَ يُخْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى جَهَنَّمَ، وَلَكِنَّ حُشْرَهُمْ هَذَا لَيْسَ كَحُشْرِ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ مُكْرَمِينَ مُعَزَّزِينَ ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦]، يُسَاقُونَ إِلَيْهَا سَوْقًا -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ- عَلَى أَشَدِّ مَا يَكُونُ مِنَ الْعَطَشِ، ثُمَّ يُدْعَوْنَ فِيهَا دَعَا -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ- وَيُلْقَوْنَ فِيهَا إِلْقَاءً، أَعَادَنَا اللَّهُ جَمِيعًا مِنَ النَّارِ.

٦ - الشَّاءُ عَلَى النَّارِ بِالْقَدَحِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَنْسُ الْمِهَادُ﴾، وَصَدَقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّ دَارًا يَلْقَى فِيهَا أَهْلُهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا تَنْخَلِجُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَتَدْمَى لَهُ الْأَكْبَادُ، لِبَسِّ الْمِهَادُ هِيَ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأًى أَلْعَيْنَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ لِمَا فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١٣)

هَذِهِ الْآيَةُ كَالْمِثَالِ لِغَلْبَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَفَّارِ.

وقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ الجملة هذه مؤكدة بـ: (قد)، والآية: العلامة الدالة على أن الكفار مغلوبون ﴿فِي فِتْنَيْنِ﴾ أي: طائفتين ﴿الَّتَقَاتَا﴾ في القتال، ﴿فِتْنَةٌ﴾ تَقَاتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، والقتال في سبيل الله هو: القتال الذي يُقصد به إغلاء كلمة الله عز وجل، كما قال النبي ﷺ حين سُئل عن الرجل يُقاتل شجاعةً، ويُقاتل حميةً، ويُقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ؛ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١)، وهذا الرسول والمؤمنون.

﴿وَأُخْرَى كَافَّةٌ﴾ وهم قريش، وذلك في بدر، فقد كان المؤمنون نحو ثلاث مئة وأربعة عشر رجلاً، وكان أعداؤهم من قريش ما بين تسع مئة إلى ألف، ولهذا قال: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْغَيْنِ﴾؛ لأنهم ثلاث مئة وأربعة عشر، وهؤلاء تسع مئة إلى ألف، فثلاث مئة وأربعة عشر هي الثلث، ويبقى الثلثان، فهم ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْغَيْنِ﴾، يعني: زائداً على عدد المؤمنين.

ثم قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ أي: يُقوي ﴿بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، ولكن هذا تابع لحكمته عز وجل، فمن كان أهلاً للنصر نصره، ومن كان أهلاً للخذلان، أو لم يكن أهلاً للخذلان، لكن في خذلانه مصلحة للإسلام والمسلمين حصل له الخذلان، لكنه لا يستمر، ولا يستقر.

﴿لَا يَكُنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما حصل من غلبة القليل للكثير ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ أي: لا اعتباراً يُعتبر به المرء، ولكن ﴿لَاؤْلَى الْأَبْصَرِ﴾ أي: لأصحاب الأبصار، والمراد

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (٢٨١٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالأبصارِ هنا: أَبْصَارُ الْبَصِيرَةِ؛ إذْ قد يكونُ الإنسانُ من ذوي الأبْصَارِ وإنْ كان أعْمَى، وقد لا يكونُ من ذوي الأبْصَارِ وإنْ كان مُبْصِرًا.

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١ - صَرَبُ المَثَلِ بالشَّيْءِ الواقع؛ لأنَّ ذلك أبلغُ في طمَأنينةِ النَّفْسِ، وطلَبُ الطَّمانينةِ لا يُنَافِي أَصْلَ الإِيْمَانِ؛ فإنَّ إبراهيمَ الحَلِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَئِنْ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فأراه اللهُ ذلك.

وإبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكنْ شاكًّا في القُدرةِ الإلهيَّةِ، ولكنْ يُريدُ أنْ ينظُرَ كيف، ولهذا قالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- نافيًا أنْ يكونَ إبراهيمُ شاكًّا: «نَحْنُ أَوْلَى بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»^(١)، يعني: فإذا كُنَّا مُصَدِّقِينَ لإبراهيمَ أَشَدُّ.

ولَمَّا بَشَّرَ اللهُ تَعَالَى زكريَّا بالوَلَدِ قالَ: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ٤٠ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلا تَكَلِمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ﴿[آل عمران: ٤٠-٤١].

٢ - هذه الصُّورَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّجَلَّ، وليس بكثرةِ العَدَدِ، فِتْنَانِ إِحْدَاهُمَا ثِقَاتِلٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْأُخْرَى كَافِرَةٌ، وَالْأَوَّلَى أَقْلٌ مِنَ الْآخَرَى بِالضُّعْفَيْنِ، ومع ذلك غَلَبَتِ الْقَلِيلَةُ؛ لأنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، لا بكثرةِ العَدَدِ، ولا بِقُوَّةِ العُدَدِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: ﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، رقم (٣٣٧٢)، ومسلم: كتاب الإيْمَانِ، باب زيادة طمَأنينةِ القلب، رقم (١٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَانْظُرْ مَا حَصَلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ، حِينَ افْتَخَرُوا بِكَثْرَتِهِمْ، وَقَالُوا: لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ. فغلبوا وهم كثرة، وعدوهم قليل؛ إذ كان الذين غلبوهم ثلاثة آلاف وخمس مئة رجل، والذين مع النبي ﷺ نحو اثني عشر ألفاً، ولكن كانت النهاية انتصار النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ يعني: ولقد نصركم الله يوم حنين ﴿إِذْ أَعْجَبَكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾ ٢٥ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[التوبة: ٢٥-٢٧]﴾.

٣- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَلَّا يَنْظُرَ إِلَى كَثْرَتِهِ، وَلَا إِلَى قُوَّتِهِ، وَلَكِنْ يَنْظُرَ إِلَى نَصْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَسْأَلُ اللَّهَ النَّصْرَ وَالْعِزَّةَ، وَيَسْعَى بِأَسْبَابِ النَّصْرِ وَالْعِزَّةِ، بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

٤- أَنَّ الْقِتَالَ الْمَضْمُونِ الْإِنْتِصَارُ بِهِ هُوَ الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ الْقِتَالُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا.

وَأَمَّا الْقِتَالُ لِعَصْبِيَّةٍ، أَوْ وَطَنِيَّةٍ، أَوْ قَوْمِيَّةٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَلَيْسَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ يُقَاتِلُ لِلدِّفَاعِ عَنْ وَطَنِهِ الْإِسْلَامِيِّ بِاعْتِبَارِهِ وَطَنًا إِسْلَامِيًّا، فَيُقَاتِلُ حِمَاةً لِلْإِسْلَامِ فِي هَذَا الْوَطَنِ، فَهَذَا يَكُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

٥- أَنَّ التَّأْيِيدَ بِالنَّصْرِ لَا يُطْلَبُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٦- إِبْثَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، وَلَكِنْ هَلْ هَذِهِ الْمَشِيئَةُ مَشِيئَةُ مُطْلَقَةٍ مُجَرَّدَةٌ؟

الجواب: لا، هذه المشيئة لها سَبَبٌ بَيْنَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ٤٠ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، فَذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْبَعَةَ شُرُوطٍ: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِذَا كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

٧- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَبِرَ وَيَتَبَصَّرَ فِي آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْكَوْنِيَّةِ - وَهِيَ الَّتِي يُقَدِّرُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَلْقِهِ - وَالشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ الَّتِي يَشْرَعُهَا لِعِبَادِهِ.

فَتَأَمَّلْ - يَا أَخِي - فِي آيَاتِ اللَّهِ، تَأَمَّلْ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَلَا سِيَّامَا شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ لَهُ، مَجْدُهَا أَكْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَأَنْفَعُ مَا يَكُونُ لِلْقُلُوبِ، وَأَصْلَحُ مَا يَكُونُ لِلْأَبْدَانِ، وَأَقْوَمُ مَا يَكُونُ لِلْبُلْدَانِ، شَرِيعَةٌ كَامِلَةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

وَفِي آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ مَجْدُ الْعَبَرِ، مَجْدُ نَخْلَتَيْنِ فِي أَرْضٍ وَاحِدَةٍ، تُسْقِيَانِ بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ فِي الثَّمَرَةِ، وَفِي الشَّجَرَةِ فِي هَيْئَتِهَا، فِي خُوصِصِهَا وَرِمَاحِهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ تَجِدُ الْبُقْعَةَ الصَّغِيرَةَ مِنَ الْأَرْضِ فِيهَا أَشْجَارٌ مُخْتَلِفَةٌ فِي شَكْلِ أَوْراقِهَا،
وفي لَوْنِ أَزْهَارِهَا، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخَالِقَ عَزَّجَلَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

تَأْمَلْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٍ بِأَبْصَارٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّيِّكُ
عَلَى قُضْبِ الزَّبَرَجَدِ شَاهِدَاتٌ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ^(١)

٨- أَنَّهُ لَا يَعْتَبَرُ إِلَّا ذَوُو الْبَصَائِرِ، أَمَّا أَهْلُ الْغَفْلَةِ فَيَقْوِيهِمُ الْاعْتِبَارُ؛ لِقَوْلِهِ:
﴿لَا يَكُنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنا جَمِيعًا، ذُكُورًا وَإِنَاثًا، صِغَارًا وَكِبَارًا، مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ
وَالْاعْتِبَارِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ﴾ (١٤)

قَوْلُهُ: ﴿زُيِّنَ﴾ أَي: حُسِّنَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ هَذَا الشَّيْءُ، وَالْمُزَيَّنُ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ،
وَإِنَّمَا بُنِيَ الْفِعْلُ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ؛ لِلْعِلْمِ بِالْفَاعِلِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَخُلِقَ
الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، أَي: خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

(١) البيت لإسحاق بن محارب كما في المحب والمحبوب (٣/١٠٣).

وقوله: ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أي: حُبُّ الْمَلَذَّاتِ وما تَمِيلُ إليه نَفْسُهُمْ ﴿مِنْ﴾
النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴿، سِتَّةَ أَشْيَاءَ كُلُّهَا مُحِبَّةٌ لِلنَّاسِ مُزَيَّنَةٌ لَهُمْ، لَكِنَّهُمْ يُخْتَلِفُونَ فِيهَا،
مِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ فِي حَقِّهِ جَانِبُ النِّسَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ فِي حَقِّهِ جَانِبُ الْخَيْلِ،
وهكذا.

وَبَدَأَ بِالنِّسَاءِ؛ لِأَنَّهُنَّ أَعْظَمُ فِتْنَةٍ، وَأَضَرُّ، وَأَخْطَرُ، قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(١)، وَصَدَّقَ
رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-؛ فَإِنَّ فِتْنَةَ النِّسَاءِ عَظِيمَةٌ.

وَلِذَلِكَ لَمَّا فُتِنَ الْكُفَّارُ بِالنِّسَاءِ، وَجَعَلُوهُنَّ السَّيِّدَاتِ، شَاعَتِ الْفَوَاحِشُ
فِيهِمْ، وَالصُّحْبَةُ غَيْرُ الْبَرِيَّةِ، وَحَصَلَ الشَّرُّ وَالْفَسَادُ.

وقوله: ﴿وَالْبَنِينَ﴾ هُمْ ذُكُورُ الذَّرِّيَّةِ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْبَنَاتِ؛ لِأَنَّ الْبَنَاتِ لَا يَفْتِنُنَّ
بَيْنَ الرَّجَالِ، مِنْ حَيْثُ هِيَ بِنْتُ، وَلَا يَفْتَخِرُونَ بِهِنَّ.

وقوله: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ الْقَنَاطِيرُ: جَمْعُ قَنْطَارٍ، وَهُوَ الْمَالُ الْكَثِيرُ ﴿مِنْ﴾
الذَّهَبِ ﴿وَالْفِضَّةِ﴾ وَهِيَ الدَّنَانِيرُ ﴿وَالْفِضَّةِ﴾ وَهِيَ الدَّرَاهِمُ، وَرُبَّمَا يَشْمَلُ ذَلِكَ الْحِلْيَ وَنَحْوَهُ.
﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: الْمُعْلَمَةِ، أي: الْمَوْضُوعِ عَلَيْهَا عَلَامَةٌ تَدُلُّ عَلَى جَوْدَتِهَا،
وَقُوَّتِهَا، وَسُرْعَةِ عَدْوِهَا، وَكَرَّهَا، وَفَرَّهَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم (٥٠٩٦)، ومسلم: كتاب
الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، رقم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
كما أخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٢٧٤١) من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَالْأَنْعَمِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم.

﴿وَالْحَرِثِ﴾ وهو الزروع.

كُلُّ يَتَفَاخَرُ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ السَّتَةِ: النِّسَاءِ، وَالْبَنِينَ، وَالْقَنَاظِيرِ الْمَقْنَطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالْحَيْلِ الْمُسَوِّمَةِ، وَالْأَنْعَامِ، وَالْحَرِثِ.

وَلَكِنْ هَلْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ بَاقِيَةٌ؟ وَهَلْ أَهْلُهَا بَاقُونَ لَهَا؟

الْجَوَابُ: اسْمَعُهُ مِنَ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَي: شَيْءٌ يَتَمَتَّعُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي دُنْيَاهُ فَقَطْ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْآيَةِ نَفْسِهَا: ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَعَاتِبِ﴾، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي نَحْيَاهَا الْآنَ، وَسَمَّاها اللَّهُ تَعَالَى: (دُنْيَا) لِوَجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهَا قَرِيبَةٌ، أَقْرَبُ مِنَ الْآخِرَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهَا دَنِيئَةٌ حَقِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْآخِرَةِ، حَتَّى إِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١)، سَوْطٌ -مِقْدَارُ ذِرَاعٍ، أَوْ نَحْوِهِ- خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَعَاتِبِ﴾ أَي: الْمَأْتِ الْحَسَنُ، وَالْمَأْتِ: مَا يَوْوَبُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد هذه الآية الكريمة:

- ١- التحذير من الفتنه بهذه الأمور المتعلقة بالدنيا، يُؤخذ هذا من سياق الآية.
- ٢- أن حب هذه الأشياء من طبيعة الإنسان، ولكن لا يعني هذا أن يُقدّم هذه الأشياء على مَرْضاة الله عزَّوجلَّ.
- ٣- عِظَمُ فِتْنَةِ النِّسَاءِ؛ لَأَنَّهُ تَعَالَى قَدَمُهَا عَلَى كُلِّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ.
- ٤- التحذير من فِتْنَةِ النِّسَاءِ، نَسَأَلَ اللهُ أَنْ يَعِصِمَنَا وَإِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا.
- ٥- جَشَعُ الْإِنْسَانِ وَطَمَعُهُ فِي افْتِنَاءِ الْأَمْوَالِ؛ لَأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ﴾ أي: المكدّسة، المحفوظة برَبطِها، وشَدَّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وهذا يدلُّ على عناية الإنسان بِجَمْعِ الْمَالِ، وَالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهِ.
- ٦- أَنَّ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ مَعْدَنَانِ كَرِيمَانِ تَتَعَلَّقُ بِهِمَا النَّفُوسُ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ تَعَلُّقَ النَّفُوسِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ أَقْوَى مِنْ تَعَلُّقِهَا بِغَيْرِهِمَا مِنَ الْمَعَادِنِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ الْمَعْدِنُ أَعْلَى مِنْهُمَا، وَهَذَا شَيْءٌ مُجْبُولٌ عَلَيْهِ بَنُو آدَمَ.
- ٧- الإِشَارَةُ إِلَى الْخَيْلِ، وَالْمُفَاخَرَةِ بِهَا، وَلِهَذَا تَكُونُ مُعْلَمَةً، لَهَا عِلَامَاتٌ تَدُلُّ عَلَى جَوْدَتِهَا وَالْمُفَاخَرَةِ بِهَا، وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي الْأَنْعَامِ الَّتِي هِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ.
- ٨- الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ حَارِثٌ، أَي: عَامِلٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ: عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ. وَأَصْدَقُهَا: حَارِثٌ، وَهَمَامٌ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، رقم (٢١٣٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا دون قوله: «وَأَصْدَقُهَا...».

٩- التَّزْهِيدُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، وَأَتَمُّهَا فَانِيَةُ زَائِلَةٍ، لَكِنْ مَا أَحْسَنَ أَنْ تَكُونَ وَسِيلَةً لِمَرْضَاةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ!

فالمرأة الصَّالِحَةُ عِنْدَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مَطْلُوبَةٌ، وَالتَّزْوُجُ مَأْمُورٌ بِهِ، إِمَّا وَجُوبًا، وَإِمَّا اسْتِحْبَابًا بِالشَّرْطِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ.

وكَذَلِكَ الْبَنُونَ، قَدْ يَكُونُونَ صَالِحِينَ، يَنْفَعُونَ وَالِدَيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ، وَبَعْدَ الْمَمَاتِ. وَكَذَلِكَ الْحَيَلُ قَدْ تَكُونُ مِمَّا يُجَاهَدُ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وكَذَلِكَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، قَدْ تَكُونُ مِمَّا يُتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِذَبْحِهِ، كَالْهَدَايَا وَالضَّحَايَا وَالْعَقَائِقِ.

وكَذَلِكَ الْحَرْثُ إِذَا لَمْ يَصُدَّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَصَارَ الْإِنْسَانُ يَحْرُثُ ابْتِغَاءَ فَضْلِ اللَّهِ، وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ عِبَادِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ، يَتَفَعَّلُ بِهِ حَتَّى الطُّيُورُ وَالزَّوَاحِفُ وَالطُّبَّاءُ وَالْأَرَانِبُ وَغَيْرُهَا.

١٠- أَنَّ حُسْنَ الْمَا بِ حَقِيقَةٍ هُوَ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَابِ﴾.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُحْسِنَ مَا بَنَّا جَمِيعًا، وَأَنْ يُعِيدَنَا مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ، وَسُوءِ الْحَقَائِمَةِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



= كما أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠)، وأحمد (٣٤٥ / ٤) من حديث أبي وهب الجشمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥)
 قَوْلُهُ: ﴿قُلْ﴾ أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ، وَيَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهَا عَامَّةٌ لِّكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ،
 أَي: قُلْ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ ﴿أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ﴾، وَالْاِسْتِفْهَامُ لِلتَّشْوِيقِ،
 وَمَعْنَى ﴿أُوْنِيْتُكُمْ﴾ أَوْخَبِرْكُمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْفَرٍ
 تُجِيعُكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ﴾ الْمَشَارُ إِلَيْهِ مَا سَبَقَ مِنَ الْأُمُورِ السَّتَةِ الَّتِي زُيِّنَ
 لِلنَّاسِ حُبُّهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ هَذَا مَوْضِعُ بَيَانِ الْحَيْرِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ
 ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مُتَعَلِّقَةً بِ: ﴿خَيْرٍ﴾، أَي: بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ
 رَبِّهِمْ، وَ﴿جَنَّاتٌ﴾ هِيَ بَيَانُ ذَلِكَ الْحَيْرِ، وَلَا يَخْتَلِفُ الْمَعْنَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أَي: اتَّقَوْا مُحَارِمَ اللَّهِ، وَأَجْمَعُ مَا قِيلَ فِي التَّقْوَى: أَنَّهَا تَوْفِي
 عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ خَصَّ رُبُوبِيَّتَهُ بِهِمْ؛ لِأَنَّهَا رُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ أَوْصَلَتْهُمْ إِلَى
 هَذَا الْمَكَانِ الْعَظِيمِ.

﴿جَنَّاتٌ﴾ الْمُرَادُ بِهَا: الْجَنَّاتُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فِيهَا مَا لَا
 عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ سَاكِنِيهَا
 يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تسيل من تحت قُصُورِها وأشجارِها، والأَنْهَارُ أَرْبَعَةٌ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ما كَثُرَ أَبَدًا، وقد جاء التَّصْرِيحُ بِالتَّأْيِيدِ فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وقوله: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿جَنَّاتٍ﴾، وَخَصَّهَا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهَا أَلَدُّ شَيْءٍ يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ مِمَّا يَتَمَتَّعُ بِهِ النَّاسُ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا إِيَّاهُ.

وقوله: ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَنْجَاسِ، فَلَا بَوْلَ، وَلَا غَائِطَ، وَلَا عَرَقَ مُتَيْنٍ، وَلَا حَيْضَ، وَلَا شَيْءَ، وَمُطَهَّرَةٌ أَيْضًا مِنَ الْكَرَاهِيَةِ لِأَزْوَاجِهِنَّ وَالْبَعْضَاءِ، وَمُطَهَّرَةٌ مِنَ النَّشُوزِ وَالتَّكْرُّهِ لِلزَّوْجِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وقوله: ﴿وَرِضْوَاتٌ مِنْ رَبِّ اللَّهِ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: رِضَا مِنْ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يُحِلُّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهِمْ رِضَاهُ، فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ، وَفَوْقَهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ أي: عَلِيمٌ بِهِمْ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا الْجَزَاءَ، وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أَمُرُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ مَلَاذِ الدُّنْيَا، وَتَشْوِيْقُهُمْ إِلَى ذَلِكَ بِصِيغَةِ الاستِفْهَامِ: ﴿قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾.

٢- أَنَّهُ يَجُوزُ الْمُقَارَنَةُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ مَعَ بُعْدٍ مَا بَيْنَهُمَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَخَيْرُ مِنْ ذَلِكَ﴾، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَمَوْضِعُ سَوَاطِئِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١)، بَلْ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، فَإِنَّ الْمُفْضَلَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسَ فِيهِ خَيْرٌ؛ لِأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَأَهْلُ النَّارِ لَا خَيْرَ فِي مُسْتَقَرِّهِمْ، أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا.

وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى مُتَحَدِّيًا الْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

[النمل: ٥٩].

٣- أَنَّ الْمُتَّقِينَ لَهُمْ هَذَا الْجِزَاءُ الْعَظِيمُ، هَذِهِ الْجَنَّاتُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾، وَتَقْدِيمُ الْخَيْرِ عَلَى الْمُبْتَدَأِ يَدُلُّ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ، أَي: أَنَّ هَذِهِ الْجَنَّاتِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْمُتَّقِينَ.

٤- عُلُوُّ مَنَزِلَةِ الْجَنَّةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْجَنَّاتُ عِنْدَ اللَّهِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى عُلُوِّهَا، وَيُؤَيِّدُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَرِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

إِلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ الْفِرْدَوْسَ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَأَنَّ مِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَأَنَّ سَقْفَهُ عَرْشُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا^(١).

٥ - أَنَّ الْجَنَّاتِ مُتَنَوِّعَةٌ، لِقَوْلِهِ: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وَجْهٌ هَذَا: أَنَّهَا جَاءَتْ بِصِغَةِ الْجَمْعِ: ﴿جَنَّاتٌ﴾.

وَيُذَلُّ عَلَى تَنَوُّعِهَا: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ دُونِهَا جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦-٦٢]، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ جَنَّتَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا^(٢).

٦ - أَنَّ الْجَنَّةَ ذَاتُ أَشْجَارٍ وَقُصُورٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

٧ - أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مُخَلَّدُونَ فِيهَا، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنِ التَّائِبِ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَمَعَ كَوْنِهِمْ مُخَلَّدِينَ فِيهَا ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، أَيْ: تَحْوَلًا؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَانِعٌ بِمَا أُعْطِيَهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَا يَرَى أَنَّ غَيْرَهُ أَفْضَلُ مِنْهُ مِنْ حَيْثُ النَّعِيمِ، وَإِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ مِنْ حَيْثُ الدَّرَجَاتِ، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ - يَعْنِي: الْعُلْيَا - كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَنَالُهَا غَيْرُهُمْ. قَالَ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَصَدَّقُوا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهَا جَنَّاتٌ﴾، رقم (٤٨٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربه، رقم (١٨٠) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْمُرْسَلِينَ»^(١)، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

٨- أَنْ الْجَنَّةَ أَنْهَارُهَا مُتَعَدَّدَةٌ، وَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ الْقِتَالِ أَوْ سُورَةِ مُحَمَّدٍ -وَهُمَا سُورَةٌ وَاحِدَةٌ، اسْمَانِ لِمُسَمًّى وَاحِدٍ- أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ: مَاءٌ غَيْرُ آسِنٍ، لَبَنٌ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، حَمْرٌ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، عَسَلٌ مُصَفًّى.

٩- خُلُودُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيهَا، وَالْخُلُودُ هَذَا أَبَدِيٌّ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ السُّنَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨]، أَي: غَيْرَ مَقْطُوعٍ.

•••••

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

هذه صِفَةُ لِقَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٍ، أَي: هُمْ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ بِالسُّتَيْهِمْ مُعْتَقِدِينَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴿رَبَّنَا﴾ أَي: يَا رَبَّنَا ﴿إِنَّنَا ءَامِنَا﴾ أَي: أَيقَنَّا وَأَقْرَرْنَا بِكُلِّ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ.

وقد بيّن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم- أَرْكَانَ الْإِيمَانِ فِي قَوْلِهِ حِينَ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٥٦)، ومسلم: كتاب

الجنة، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، رقم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨) من حديث عمر

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الفاء هنا عاطفة، وتفيد السببية، أي: فبسبب إيماننا اغفر لنا، فالإيمان من أسباب المغفرة.

والذنوب هي: الآثام التي ارتكبتها العبد. ومغفرتها: أن الله تعالى يسترها عليك في الدنيا والآخرة، ويقيك من عذابها، فهي ستر ووقاية.

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: اجعل بيننا وبينه وقاية، والنار هي: الدار التي أعدّها الله عز وجل للكافرين، وفيها من أنواع العذاب ما تنخلع له القلوب، أجازنا الله وإياكم منها.

في هذه الآية حكم وفوائد عظيمة، منها:

١ - التوسل عند الدعاء برؤية الله، أي: أن تقول: يا ربّ. أو: يا ربنا. أو: ربّ. أو ما أشبه ذلك، وذلك لأنّ إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية؛ لأنّ الرّب هو الخالق المالك المدبّر لجميع الأمور.

٢ - التوسل بالإيمان بالله وبما يجب الإيمان به، إلى مغفرة الذنوب، أي: التوسل بالأعمال الصالحة من إيمان؛ لأنّ الإيمان سبب للمغفرة.

وهل هناك توسل بغير الإيمان بالله؟

الجواب: نعم، التوسل نوعان: نوع محرّم، ونوع جائز.

فالنوع المحرّم: أن يتوسل الإنسان إلى الله تعالى بمعبوداته التي يعبدّها من دون الله عز وجل، وهذا شرك؛ لأنّهم صرّفوا العبادة لغير الله عز وجل، وصرفوا العبادة لغير الله شرك أكبر محرّج عن الملة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

أُولَٰئِكَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴿٣﴾ [الزمر: ٣]، أي: يقولون ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، والحقيقة أنها لن تُقَرِّبَهُمْ إِلَى اللَّهِ، بل تُبَعِّدُهُمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ.

ومن التَّوَسُّلِ الْمُحَرَّمِ: أَنْ يَتَوَسَّلَ الْإِنْسَانُ بِالنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، أي: بِذَاتِهِ، وذلك لِأَنَّ التَّوَسُّلَ بِذَاتِهِ لَا يُفِيدُ شَيْئًا؛ إِذْ إِنَّ ذَاتَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَإِنْ كَانَتْ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الْبَشَرِ، لَكِنَّهَا لَا تُفِيدُ إِلَّا النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَلَا تَنْفَعُ أَحَدًا يَتَوَسَّلُ بِهَا، وَإِلَّا لَتَوَسَّلَ بِهَا أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ مِنَ الْكُفَّارِ.

ويُدُلُّكَ عَلَى أَنَّ ذَاتَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَا يُتَوَسَّلُ بِهَا، وَلَا تَنْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ جَلَّوَعَلَا أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَأُمَّهِ، فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَزُورَ قَبْرَهَا، فَأَذِنَ لَهُ^(١).

ويُدُلُّ لذلِكَ أَيضًا: أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا يَتَوَسَّلُونَ بِذَاتِ النَّبِيِّ ﷺ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِنَبِيِّكَ أَنْ تَغْفِرَ لِي. أَبَدًا لَا فِي حَيَاتِهِ، وَلَا فِي مَمَاتِهِ.

وَأَمَّا حَدِيثُ الْأَعْمَى الَّذِي جَاءَ يَطْلُبُ مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يُرَدَّ عَلَيْهِ بَصَرُهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ، وَيُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ، وَيَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِنَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ... إلخ^(٢) فهذا إِنْ صَحَّ الْحَدِيثُ فَلَهُ وَجْهَانِ:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٧٨)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في صلاة الحاجة، رقم (١٣٨٥)، وأحمد (١٣٨/٤) من حديث عثمان بن حنيف.

الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَسْأَلُكَ نَبِيَّكَ، أَي: بِإِيْمَانِي بِهِ، وَتَصْدِيقِي إِيَّاهُ، وَاتِّخَاذِي إِيَّاهُ أُسْوَةً حَسَنَةً.

الثَّانِي: أَنْ مَعْنَى: أَسْأَلُكَ نَبِيَّكَ. أَي: أَسْأَلُكَ أَنْ يَدْعُوَ لِي نَبِيَّكَ، وَالتَّوَسُّلُ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ - أَي: أَنْ تَطْلُبَ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَدْعُوَ لَكَ - هَذَا أَمْرٌ جَائِزٌ، وَرَدَّ عُمُومًا وَخُصُوصًا.

أَمَّا وَرُودُهُ عُمُومًا فَإِنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - يَخْطُبُ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وَرَفَعَ النَّاسُ أَيْدِيَهُمْ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَغْنِنَا، اللَّهُمَّ أَغْنِنَا، اللَّهُمَّ أَغْنِنَا»، فَمَا نَزَلَ مِنَ الْمُنْبَرِ إِلَّا وَالْمَطَرُ يَتَحَادَرُ مِنْ لَحْيَتِهِ، وَبَقِيَ الْمَطَرُ أُسْبُوعًا كَامِلًا.

وَفِي الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى دَخَلَ الرَّجُلُ أَوْ رَجُلٌ آخَرُ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، غَرِقَ الْمَالُ، وَتَهَدَّمَ الْبِنَاءُ، فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكُهَا عَنَّا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْأَكَامِ، وَالظَّرَابِ، وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ، وَمَنَايِبِ الشَّجَرِ»، فَانْفَرَجَتْ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَصَارَ الْمَطَرُ حَوْلَهَا^(١). وَهَذَا تَوَسُّلٌ بِدُعَائِهِ لِلْعُمُومِ.

أَمَّا لِلْخُصُوصِ فَإِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - رَأَى أُمَّتَهُ، وَفِيهِمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتُونُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحِصَنِ، فَقَالَ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الخطبة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يا رسولَ الله، اذْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَني منهم. فقال: «أَنْتَ مِنْهُمْ»^(١)، وله أمثالٌ.

إِذَنْ، فَقَوْلُهُ: «أَسْأَلُكَ بِنَبِيِّكَ الرَّحْمَةِ» لَهُ وَجْهَانِ لَا غَيْرُ، إِمَّا أَنْ الْمَعْنَى: أَسْأَلُكَ بِالْإِيمَانِ بِهِ، فَيَكُونُ هَذَا مِنَ التَّوَسُّلِ بِالْإِيمَانِ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَإِمَّا أَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْكَ بِدُعَائِهِ، أَي: أَنْ يَدْعُوَ لِي، وَالتَّوَسُّلُ بِدُعَائِهِ جَائِزٌ.

لَكِنَّ هَذَا الْآخِرَ فِي حَيَاتِهِ فَقَطْ، أَمَّا بَعْدَ مَمَاتِهِ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَوَسَّلَ الْإِنْسَانُ إِلَى اللَّهِ بِدُعَاءِ الرَّسُولِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، فَإِنَّهُ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(٢).

وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ الْعُتْبِيِّ فَإِنَّهُ لَا صِحَّةَ لَهُ، وَسَنَدُهُ غَيْرُ صَحِيحٍ^(٣)، وَلَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الْاسْتِدْلَالُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] فَلَا دَلَالَهَ فِيهَا أَصْلًا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِذْ﴾ لِلْمَاضِي، وَلَيْسَتْ لِلْمُسْتَقْبَلِ، أَي: لَمْ يَقُلِ اللَّهُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، رقم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كما أخرجه مسلم في الموضع السابق برقم (٢١٦) (٢١٨) من حديث أبي هريرة وعمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البيهقي بنحوها في شعب الإيمان (٦/ ٦٠) برقم (٣٨٨٠).

عَزَّجَلْ: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذَا ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ»، فهي في قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ماضية، فلا يَصِحُّ أَنْ يُسْتَدَلَّ بها على شَيْءٍ مُسْتَقْبَلٍ.

ويدُلُّ لهذا أيضًا: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -وَهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِأَحْوَالِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ، وَأَتَقَى النَّاسِ، وَأَشَدَّهُمْ حُبًّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ- لم يكونوا يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَسْتَغْفَرَ لَهُمْ إِذَا أَذْنَبُوا، بل إِنَّهُ لَمَّا حَصَلَ الْجَدْبُ فِي عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاسْتَسْقَى، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَعَمِّ نَبِيِّنَا، فُمَّ يَا عَبَّاسُ، فَادْعُ اللَّهَ^(١).

فَالصَّحَابَةُ أَفْقَهُ النَّاسِ فِي دِينِ اللَّهِ، وَأَعْرَفُ النَّاسِ بِأَحْوَالِ رَسُولِ اللَّهِ، مَا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُغِيثَنَا.

وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ تَقُولَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لِي. وَبَيْنَ أَنْ تَقُولَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُغِيثَنَا. كُلُّهَا لَا تَجُوزُ.

وَهَذَا بَطْلُ اسْتِدْلَالٍ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ التَّوَسُّلَ بِذَاتِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- الْمَجْرَدَةُ جَائِزٌ.

وَأَقُولُ لِإِخْوَانِي: لِمَاذَا تُصَرُّونَ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْخِلَافِيَّةِ، وَالتِّي الرَّاجِحُ فِيهَا عَدَمُ الْجَوَازِ، وَتَدْعُونَ مَا هُوَ مَشْرُوعٌ وَجَائِزٌ، وَلَا لَبْسَ فِيهِ، وَلَا اشْتِبَاهَ؟! مَا دُمْتُمْ تُرِيدُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَتَوَسَّلُوا بِشَيْءٍ لَا شُبْهَةَ فِيهِ، تَوَسَّلُوا بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّرِيقِ الْمُبَاحَةِ، وَاسْلَمُوا مِنَ الْبَلَاءِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء، رقم (١٠١٠).

مثل ذلك أيضًا: التَّوَسَّلْ بِجَاهِ النَّبِيِّ ﷺ، ولا شكَّ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَعْظَمُ الْبَشَرِ جَاهًا عِنْدَ اللهِ، وَلَكِنْ مَنْ الَّذِي يَسْتَفِيدُ بِجَاهِهِ إِلَّا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟! فليس جَاهُهُ من أَعْمَالِنَا حَتَّى نَسْتَفِيدَ بِهِ، بل هو مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ وَجَّهَهُ، فَكَانَ يُجِيبُ دُعَاءَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَكَانَ هُوَ صَاحِبَ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا إِشْكَالَ فِي هَذَا.

بَدَأْنَا بِذِكْرِ التَّوَسَّلِ الْمَمْنُوعِ، بِذِكْرِ أدَلَّتِهِ الَّتِي أَسْأَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَفْتَحَ بِهَا قُلُوبَنَا غُلْفًا، وَيُسَمِّعَ بِهَا آذَانَنَا صُمًّا، وَيُبْصِرَ بِهَا أَعْيُنَنَا عُمَيًّا، وَأَسْأَلَ اللهُ أَنْ يَحْمِيَنِي وَإِخْوَانِي مِنَ الْبِدْعِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ، وَأَسْأَلَ اللهُ لِي وَإِخْوَانِي الْهَدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ، أَقُولُ: بَدَأْنَا بِهَذَا؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ عَلَيْهِ أَقْلُ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى التَّوَسَّلِ الْمَشْرُوعِ.

أَمَّا التَّوَسَّلُ الْجَائِزُ فَهُوَ أَنْوَاعٌ:

- التَّوَسَّلُ بِأَسْمَاءِ اللهِ عُمُومًا.
- التَّوَسَّلُ بِصِفَاتِ اللهِ عُمُومًا.
- التَّوَسَّلُ بِاسْمٍ خَاصٍّ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ.
- التَّوَسَّلُ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ.
- التَّوَسَّلُ بِالْإِيمَانِ بِاللّهِ.
- التَّوَسَّلُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.
- التَّوَسَّلُ بِذِكْرِ حَالِ الدَّاعِي.
- التَّوَسَّلُ بِدُعَاءِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، يَعْني: أَنْ تَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَكَ.

فَلْنَبْدُ بِالْأَوَّلِ: التَّوَسَّلُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى أَنْ تَغْفِرَ لِي، وَتَرْحَمَنِي، وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ.

دَلِيلُ هَذَا: حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَنْ أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ غَمٌّ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي»، إِذَا قَالَه أَزَالَ اللَّهُ عَنْهُ الْهَمَّ وَالْغَمَّ^(١).

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا: قَوْلُهُ: «بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ»، فَتَوَسَّلْ بِكُلِّ أَسْمَاءِ اللَّهِ. وَأَمَّا التَّوَسُّلُ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَأَنْ تَقُولَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»، ف: (الْغَفُورُ) مُنَاسِبٌ لِلْمَغْفِرَةِ، وَإِذَا قُلْتَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» فَهَذَا تَوَسَّلُ بِاسْمَيْنِ مُنَاسِبَيْنِ لِمَا تَدْعُو اللَّهَ إِلَيْهِ.

الثَّالِثُ: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، مِثْلُ أَنْ تَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِصِفَاتِكَ الْعُلْيَا، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الصِّفَاتِ، أَنْ تَدُلَّنِي عَلَى الْخَيْرِ، وَتُوفِّقَنِي لِلْعَمَلِ بِهِ».

الرَّابِعُ: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، صِفَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ صِفَتَيْنِ، الْمُهْمُ أَنَّهُ شَيْءٌ مُخْصُوصٌ مِنَ الصِّفَاتِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «اللَّهُمَّ بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ،

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١/٣٩١)، وَابْنُ حَبَانَ (٣/٢٥٣)، وَالْحَاكِمُ (١/٥٠٩) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ

وَقَدَرْتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَخْبِنِي إِذَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي»^(١).

الخامس: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَفْعَالِهِ، ومنه: الدُّعَاءُ فِي التَّشْهِيدِ الْآخِرِ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»، أي: كما صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ.

السادس: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِيمَانِ، ومنه هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

السابع: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، ومنه: حَدِيثُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ دَخَلُوا غَارًا، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ، وَعَجَزُوا عَنْ إِزَالَتِهَا، فَتَوَسَّلَ كُلُّ مِنْهُمْ بِعَمَلٍ صَالِحٍ حَتَّى انْفَرَجَتْ، تَوَسَّلَ أَحَدُهُم بِالْبِرِّ التَّامِّ لِوَالِدَيْهِ، وَالثَّانِي بِالْعِفَّةِ الْكَامِلَةِ، وَالثَّالِثُ بِالْأَمَانَةِ التَّامَّةِ^(٢).

الثامن: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِذِكْرِ حَالِ الدَّاعِي، ومنه: قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

(١) أخرجه النسائي: كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، رقم (١٣٠٦)، وأحمد (٢٦٤ / ٤) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٦٥)، ومسلم: كتاب الذكر، باب قصة أصحاب الغار، رقم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقد اجتمع التَّوسُّلُ بحالِ الدَّاعي، وصِفَةِ المَدْعُوِّ أو اسْمِهِ، في دُعَاءِ أَيُّوبَ، إذ قال: رَبِّ إِنِّي مَسْنِي الضُّرَّ، وأنت أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

التَّاسِعُ: التَّوسُّلُ إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِطَلَبِ الدُّعَاءِ مِمَّنْ تُرْجَى إجابَتُهُ من عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ، وهذا على نَوْعَيْنِ: عامٍّ، وخاصٍّ. أي: أَنَّ طَالِبَ دُعَاءِ الْغَيْرِ إمَّا أَنْ يَكُونَ طَلَبُهُ عامًّا لِجَمِيعِ النَّاسِ أو خاصًّا به.

مثالُ الْأَوَّلِ: أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ النَّاسَ، فقال: يا رسولَ الله، هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا. فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ، فقال: «اللَّهُمَّ اغْنِنَا» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَأَغْنَاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْمِنْبَرِ إِلَّا وَالْمَطَرُ يَتَحَادَرُ مِنْ لَحِيَّتِهِ^(١).

ومثالُ الْخَاصِّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَدَّثَ أَنَّ مِنْ أُمَّتِهِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحِصَنٍ، فقال: ادْعُ اللهُ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ. فقال: «أَنْتَ مِنْهُمْ»^(٢).

هذا ما حَضَرَنِي مِنْ أَقْسَامِ التَّوسُّلِ الْجَائِزِ، بَقِيَ أَنْ يُقَالَ: هل مِنْ الْمَشْرُوعِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَطْلُبُ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ؟

والجوابُ: لا، بل ادْعُ اللهُ أَنْتَ بِنَفْسِكَ؛ حَتَّى تُظْهَرَ افْتِقَارُكَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَحَاجَتُكَ إِلَى الْإِجَابَةِ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ الدُّعَاءُ عِبَادَةً، وَأَنْتَ إِذَا طَلَبْتَ مِنْ غَيْرِكَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة، رقم (٩٣٣) من حديث

أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والحديث تقدم تخريجه (ص: ٢٥٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٥٠١).

أَنْ يَدْعُوَ لَكَ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ بِهِ، وَرُبَّمَا يَقُولُ لَكَ الشَّيْطَانُ: لَا تَدْعُ اللَّهَ؛ فَإِنَّكَ أَوْصَيْتَ فَلَانًا الصَّالِحَ أَنْ يَدْعُوَ لَكَ، وَكَفَى. فَلَا تَسْأَلْ أَحَدًا أَنْ يَدْعُوَ لَكَ، وَادْعُ اللَّهَ أَنْتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وَلَمْ يَقُلْ: اسْأَلُوا عِبَادِي الصَّالِحِينَ أَنْ يَدْعُوا لَكُمْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تُجِيبُونَ عَنِ الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لِعُمَرَ: «يَا أَخِي، لَا تَنْسَنَا مِنْ دُعَائِكَ»^(١)؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا حَدِيثٌ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، وَمَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ فَلَيْسَ بِحُجَّةٍ.
فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ مَنْ رَأَى أُوَيْسَ الْقُرْنِيَّ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ^(٢)؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا خَاصٌّ بِهَذَا الرَّجُلِ، وَإِلَّا فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَكَثِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ أَفْضَلُ مِنْ أُوَيْسٍ، وَهُمْ فِي الصُّحْبَةِ كُلِّهِمْ أَفْضَلُ مِنْ أُوَيْسٍ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ ﷺ: اطْلُبُوا مِنْ أَبِي بَكْرٍ، أَوْ عُمَرَ، أَوْ عُثْمَانَ، أَوْ عَلِيٍّ، أَوْ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَوْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَوْ غَيْرِهِمْ مِنْ ذَوِي الْفَضْلِ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنْ يَدْعُوا لَكُمْ. وَمَا كَانَ خَاصًّا بِشَخْصٍ فَإِنَّهُ لَا يَتَعَدَّاهُ إِلَى غَيْرِهِ، عَلَى أَنَّهُ رَبُّمَا يَكُونُ لِهَذَا الْحَدِيثِ مَعْنَى آخَرُ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْوَتَرِ، بَابُ الدُّعَاءِ، رَقْمُ (١٤٩٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، رَقْمُ (٣٥٦٢)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الْمَنَاسِكِ، بَابُ فَضْلِ دُعَاءِ الْحَاجِّ، رَقْمُ (٢٨٩٤)، وَأَحْمَدُ (٢٩/١) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابُ مَنْ فَضَّلَ أُوَيْسَ الْقُرْنِيَّ، رَقْمُ (٢٥٤٢) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أخي المسلم، عليك بدعاء الله عَزَّجَلَّ، عليك بالتَّوَسُّلِ بالأسبابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى وَسِيلَةً، ولا تُقَحِّمِ نَفْسَكَ في أُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ مع وجودِ الأمور الواضحة، والحمدُ لله؛ فإنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يقول: «مَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرعى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»^(١).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْمِيَنَا وَإِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.



ثمَّ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في وَصْفِ الْمُتَّقِينَ بعدَ ذِكْرِ أَوْصَافِ سَبَقَتْ: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾^(٧)

هذه خمسُ صفاتٍ: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ الَّذِينَ يَصْبِرُونَ على قضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، وعلى أحكامِ اللهِ، وقد قَسَمَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ الصَّبْرَ إلى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: أَعْلَاهَا وَأَفْضَلُهَا: الصَّبْرُ على طاعةِ اللهِ، بِالْأَلَّا يَتَضَجَّرَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَلَا يَسْتَقِلَّهَا، بل تكونُ مَحَبُوبَةً إِلَيْهِ، رَاغِبًا فِيهَا، يَنْتَظِرُ الطَّاعَةَ تَلَوَّ الطَّاعَةِ، إِذَا خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْ صَلَاةٍ انْتَظَرَ الصَّلَاةَ الْآخَرَى، إِذَا تَصَدَّقَ بِشَيْءٍ انْتَظَرَ الصَّدَقَةَ بِشَيْءٍ آخَرَ، إِذَا قَامَ بِرٍّ انْتَظَرَ الْبِرَّ فِي وَقْتٍ آخَرَ.

المُهِمُّ: أَنَّهُ صَابِرٌ على طاعةِ اللهِ، لَا يَضَجَّرُ، وَلَا يَسْأَمُ، وَلَا يَقُولُ: لَيْتَهَا لَمْ تُفَرَضْ عَلَيْنَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال، رقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الثاني: الصَّبْرُ عن مَعْصِيَةِ اللَّهِ، بأنْ يَحْبِسَ نَفْسَهُ عن المَعَاصِي صَغَائِرِهَا وَكَبَائِرِهَا، فلا يَتَضَجَّرُ مِنْ مَنَعِهِ إِيَّاهَا، بل يَرى أَنَّ مَنَعَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَاصِي هُوَ خَيْرُهُ وَسَعَادَتُهُ وَنَهَاءُ أَخْلَاقِهِ، فَيَصْبِرُ عن الفَوَاحِشِ، وقد ثَبَتَ عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، ففَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١)، والشَّاهِدُ: قَوْلُهُ: «رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ».

ومن هذا: صَبْرُ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ دَعَتْهُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ إِلَى نَفْسِهَا، فَأَبَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقال: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثالث: الصَّبْرُ على أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّةِ الَّتِي لَا تُنَاسِبُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَفَقْدِ الْأَحِبَّةِ، وَفَقْدِ الْمَالِ، وَالْخَوْفِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَيَصْبِرُ على أَقْدَارِ اللَّهِ، فلا يَعْصِي اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا يَتَضَجَّرُ مِمَّا قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَأْتِي بِأَقْوَالٍ مُحَرَّمَةٍ، كَقَوْلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: وَابْتُورَاهُ، وَانْقِطَاعَ ظَهْرَاهُ. وَلَا يَأْتِي بِأَفْعَالٍ مُحَرَّمَةٍ، كَفَعْلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، يَشْقَى الثَّوبَ، وَيَلْطِمُ الْحَدَّ، وَيَتَيْفُ الشَّعْرَ؛ تَسْخُطًا مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَعْظَمُ ذَلِكَ وَأَقْبَحُهُ: أولئك الَّذِينَ يَتَجَرَّحُونَ؛ جَزَعًا من المصائب، وتخلُّصًا منها، فإنَّهم -والله- كالمُستجير من الرمضاء بالنار، إنَّهم يُعَذِّبُونَ في نارِ جَهَنَّمَ خالدينَ فيها مُخلِّدينَ أَبَدًا -والعياذُ بالله- كما جاء في الحديث.

والإنسانُ يَحِبُّ عليه أن يكونَ مُؤْمِنًا عَاقِلًا، فيؤمنُ بأنَّ هذه المصيبة من عِنْدِ الله عَرَجٌ، فيَرْضَى، ويُسَلِّمُ، قال علقمة -وهو أحدُ أصحابِ عبدِ الله بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]: هو الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المصيبةُ، فيَعْلَمُ أنَّها من عِنْدِ الله، فيَرْضَى، ويُسَلِّمُ^(١).

والنَّاسُ مع المصيبةِ أقسامٌ:

قِسْمٌ جَزَعٌ، يَجْزَعُ، وَيَتَسَخَّطُ، وَيَرى أَنَّ رَبَّهُ ظالِمُهُ -والعياذُ بالله- فهذا خاسِرٌ؛ لأنَّ مُصِيبَتَهُ لَنْ تَرْتَفِعَ بهذا، ما كانَ فَإِنَّهُ لَا يَرْتَفِعُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ الله عَرَجٌ، وهذا خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

القِسْمُ الثَّانِي: صابِرٌ، هو يَتَأَلَّمُ، وَيَوَدُّ أَنْ لَمْ تَكُنْ هذه المصيبةُ، لكنَّه صابِرٌ، لَا يَكُونُ في قَلْبِهِ شَيْءٌ على رَبِّهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِ بِمَا لَا يَجُوزُ، وَلَا يَفْعَلُ فِعْلًا حَرَامًا، فهو صابِرٌ مُنْتَظَرٌ لِلْفَرَجِ، وهذا له الثَّوَابُ إذا احتسَبَ الأجرَ على الله عَرَجٌ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: راضٍ بقضاءِ الله، والفرقُ بينَ الرَّاضِي والصَّابِرِ: أَنَّ الرَّاضِيَ يَسْتَوِي عِنْدَهُ المصيبةُ وَعَدَمُهَا ما دَامَ الشَّيْءُ كُلُّهُ بقضاءِ الله وَقَدَرِهِ، وقد قال النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٢٩٥)، والطبري في التفسير (٢٣/ ١٢).

شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

القِسْمُ الرَّابِعُ: الشَّاكِرُ، بَأَنْ يَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَيَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ الْمُصِيبَةِ بِالنِّسْبَةِ لِمَا هُوَ أَعْظَمُ، فَإِذَا أُصِيبَ بِفَقْدٍ وَلَدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ أَنَّهُ لَمْ يُفَقَدْ وَلَدٌ آخَرُ.

وَيَشْكُرُ اللَّهَ أَيْضًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ: أَنَّ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تَقَعَ تُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ، وَتُرْفَعُ بِهَا الدَّرَجَاتُ مَعَ الْإِحْتِسَابِ، فَيَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى مَا يَحْصُلُ مِنْ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ، لَا عَلَى الْمُصِيبَةِ نَفْسِهَا، إِلَّا إِذَا وَازَنَهَا بِمُصِيبَةٍ أَكْبَرَ، فَهُوَ يَشْكُرُ اللَّهَ أَنْ لَمْ تَكُنِ الْمُصِيبَةُ الْكُبْرَى.

الْخُلَاصَةُ: أَنَّ كَلِمَةَ ﴿الْمُصْبِرِينَ﴾ تَشْمَلُ الصَّابِرَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَالصَّابِرَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَالصَّابِرَ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلِّمَةِ.

الْوَصْفُ الثَّانِي: قَالَ: ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾، الصَّادِقِينَ بِأَقْوَالِهِمْ، لَا يَقُولُونَ الْكَذِبَ، الصَّادِقِينَ بِأَفْعَالِهِمْ، لَا تَكُونُ مُخَالَفَةً لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، فَإِنَّ مُخَالَفَةَ الْفِعْلِ لِلْقَوْلِ إِذَا كَانَ الْفِعْلُ رِثَاءً وَسُمْعَةً مِنَ النِّفَاقِ، فَهُوَ لَاءٌ صَادِقُونَ فِي أَقْوَالِهِمْ لَا يَكْذِبُونَ، وَهُمْ صَادِقُونَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، مُخْلِصُونَ لَهُ، مُتَّبِعُونَ لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾، الْقَانِتُ هُوَ: الْمُدِيمُ لِلطَّاعَةِ عَلَى وَجْهِ الْخُشُوعِ وَالْإِنَابَةِ وَالْإِحْبَابِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هُمْ قَانِتُونَ فِي صَلَاتِهِمْ، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]،
قَانِتُونَ فِي جَمِيعِ عِبَادَاتِهِمْ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُنْتُمْ مِنَ الْفَانِينَ﴾ [التحریم: ١٢].

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾، يَعْنِي: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيمَا يُرْضِي
اللَّهَ عَزَّجَلَّ، فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ أَشْرٌ، وَلَا بَطَرٌ، وَلَا بُخْلٌ وَشُحٌّ، بَلْ هُمْ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ، كَالزَّكَاةِ، وَصَرْفِ الْأَمْوَالِ فِي الْحَجِّ، وَصَرْفِهَا فِي
الْإِنْفَاقِ عَلَى الْأَقَارِبِ، وَالصَّدَقَاتِ عَلَى عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، يَعْنِي: الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ
تَعَالَى فِي آخِرِ اللَّيْلِ؛ لِأَنَّ آخِرَ اللَّيْلِ مَظْنَّةٌ إِبْجَابَةِ الدُّعَاءِ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ
الْآخِرِ، فيَقُولُ: «مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي، فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي،
فَأَغْفِرَ لَهُ؟»^(١) قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّهُمْ يَقُومُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَيَتَهَجَّدُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ
اللَّهَ تَعَالَى، فَيَحْتَمُونَ تَهَجُّدَهُمْ بِالْأَسْحَارِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ قَصَرُوا.

وَالْأَسْحَارُ: جَمْعُ سَحَرٍ، وَهُوَ آخِرُ اللَّيْلِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِخْوَانِي مِنْهُمْ، وَأَنْ يُخْتِمَ لَنَا بِخَيْرٍ.



(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ التَّهَجُّدِ، بَابُ الدُّعَاءِ وَالصَّلَاةِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، رَقْمُ (١١٤٥)، وَمُسْلِمٌ:
كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، رَقْمُ (٧٥٨) مِنْ حَدِيثِ
أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ الشَّهَادَةُ هِيَ: الْإِخْبَارُ بِالشَّيْءِ عَنْ يَقِينٍ. وَشَهَادَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْبَرُ شَهَادَةٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، فَلَ شَهَادَةُ فَوْقَ شَهَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَا الْمَشْهُودُ بِهِ؟ ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، فَمَا أَعْظَمَ الشَّاهِدَ، وَمَا أَعْظَمَ الشَّهَادَةَ، وَمَا أَعْظَمَ الْمَشْهُودَ بِهِ!

وقَوْلُهُ: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا هُوَ عَزَّ وَجَلَّ، فَكُلُّ الْمَعْبُودَاتِ مِنْ دُونِهِ فَهِيَ بَاطِلَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدٌ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، فَمَنْ دَعَا مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ، أَوْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ صِدِّيقًا مِنَ الصِّدِّيقِينَ، أَوْ شَهِيدًا مِنَ الشُّهَدَاءِ، أَوْ وَلِيًّا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ، أَوْ صَالِحًا مِنَ الصُّلَحَاءِ، فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَتَعَلَّقَ بِبَاطِلٍ لَا يَنْفَعُهُ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْقَالَ ذَرَفٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٢-٢٣]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٦]، فَمَنْ ذَهَبَ إِلَى قَبْرِ شَخْصٍ، وَقَالَ: يَا سَيِّدِي، يَا مَوْلَايَ، إِنَّ زَوْجَتِي لَا تُنْجِبُ، فَاجْعَلْهَا تُنْجِبُ. فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ، وَتَعَلَّقَ بِهَا لَا يَنْفَعُهُ.

وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى قَبْرِ أَحَدٍ، وَقَالَ: يَا مَوْلَايَ، إِنِّي فَقِيرٌ، فَارْزُقْنِي. فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ، وَلَنْ يَنْفَعَهُ ذَلِكَ.

وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى قَبْرِ أَحَدٍ، وَقَالَ: يَا مَوْلَايَ، إِنِّي مَرِيضٌ، فَاشْفِنِي. فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ، وَلَنْ يَنْفَعَهُ ذَلِكَ.

وَمَنْ سَجَدَ لِصَنْمٍ أَوْ رَكَعَ لِصَنْمٍ فَقَدْ أَشْرَكَ وَكَفَرَ، وَلَنْ يَنْفَعَهُ ذَلِكَ.
فَكُلُّ مَنْ صَرَفَ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ، أَوْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ كَافِرٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أَي: وَشَهِدَ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَفْضَلُهُمْ جِبْرِيلُ، شَهِدُوا كُلَّهُمْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ آتَاهُمُ اللَّهُ الْعِلْمَ، وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أَي: شَهِدُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ، أَي: بِالْعَدْلِ، لَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، لَا يَخَافُ ظُلْمًا بزيادة السيئات، وَلَا هَضْمًا بنقصان الحسنات، فَهُوَ عَزَّوَجَلَّ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ، أَي: بِالْعَدْلِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا تأكيدٌ بعدَ الشَّهادةِ، والمعنى: لا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا هُوَ عَزَّوَجَلَّ، ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي: ذو العِزَّةِ، وهي العَلْبَةُ التَّامَّةُ، فهو العَزِيزُ، فلن يَغْلِبَهُ أَحَدٌ، يقولُ الشَّاعِرُ الجَاهِلِيُّ:

أَيَّنَ الْمَفْرُ وَالْإِلَهَ الطَّالِبُ وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ^(١)

وقال ابنُ القَيِّمِ في (النُّونيةِ):

وَهُوَ الْعَزِيزُ فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ أَنَّى يُرَامُ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ؟!^(٢)

أي: الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿الْعَاصِمُ﴾ أي: الَّذِي لَهُ الْحُكْمُ التَّامُّ، لا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، ولا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ وَحُكْمِهِ، وهو ذو الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، فَكُلُّ مَا قَدَّرَهُ اللهُ فَهُوَ عَلَى وَفْقِ الْحِكْمَةِ، وَكُلُّ مَا شَرَعَهُ اللهُ فَهُوَ عَلَى وَفْقِ الْحِكْمَةِ، فَلَوْ قُلْتَ مَثَلًا: لِمَاذَا قَدَّرَ اللهُ الْكُفْرَ؟ فنقول: لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ، لَوْلا الْكُفْرُ مَا عُرِفَ الْإِيمَانُ، لو كان النَّاسُ كُلُّهُمْ مُؤْمِنِينَ فَأَيْنَ الْكَافِرُ؟! ولا نَعْرِفُ أَنَّ هَذَا إِيْمَانٌ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى هَذَا، وَلَوْلا الْكُفْرُ مَا قَامَ عِلْمُ الْجِهَادِ، وَلَوْلا الْكُفْرُ مَا حَصَلَ الْإِبْتِلَاءُ، وَلَوْلا الْكُفْرُ لَكَانَ خَلْقُ جَهَنَّمَ عَبَثًا، وَهَلُمَّ جَرًّا.

ولو قال قائلٌ: ما الْحِكْمَةُ مِنْ خَلْقِ إِبْلِيسَ؟

قُلْنَا: حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ: لِيَبْتَلِيَ اللهُ الْخَلْقَ؛ مَنْ يَتَّبِعْ إِبْلِيسَ، وَمَنْ يَتَّبِعْ الْحَقَّ، وَلَوْلا هَذَا مَا عُرِفَ الصَّادِقُ مِنْ غَيْرِهِ.

(١) البيت من الرجز، وهو لنفيل الحميري في شرح شواهد المغني (ص: ٢٤٠).

(٢) البيت ذو الرقم (٢٣٦١) من النونية (ص: ٢٠٨).

ولو قال: لماذا قَدَّرَ اللهُ المَرَضَ؟

قلنا: لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ، لولا المَرَضُ ما عَرَفَ الإنسانُ الصِّحَّةَ، ولا عَرَفَ قَدَرَ نِعْمَتِهِ عليه بالصِّحَّةِ.

ولو قال: لماذا مَنَعَ اللهُ المَطَرَ في وَقْتِهِ؟

قلنا: لِحِكْمَةٍ: حَتَّى يَلْجَأَ النَّاسُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَعْرِفُوا أَنَّهُ لَنْ يَفْرُجَ كُرْبَاتِهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ عَزَّوَجَلَّ، وَهَلَمَّ جَرًّا، وَقَدْ قِيلَ: بِضِدِّهَا تَبَيَّنَ الْأَشْيَاءُ.

فَالْمُهِمُّ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ كُلَّ مَا قَدَّرَهُ اللهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، أَمِنْ أَوْ رَخَاءٍ، خَوْفٍ أَوْ طُمَأْنِينَةٍ، فَهُوَ لِحِكْمَةٍ.

كذلك بالنسبة للشرائع، فمثلاً: لماذا أَحَلَّ اللهُ البَيْعَ، وَحَرَّمَ الرِّبَا؟

نقول: لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ: لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الرِّبَا مِنَ الْمَفَاسِدِ.

ولماذا حَرَّمَ اللهُ السِّفَاحَ -وهو الزَّنا- وَأَحَلَّ النِّكَاحَ؟

نقول: لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ، ولولا هذا لاختَلَطَتِ الأنسابُ، ولم يَعْرِفِ الإنسانُ أَبَاهُ مِنْ غَيْرِهِ.

فعلينا أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى حَكِيمٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فِيمَا خَلَقَ، وَفِيمَا سَرَعَ؛ لِأَنَّ اللهَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿الْمَزِيدُ الْحَكِيمُ﴾.

وفي الجَمْعِ بَيْنَ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ فائِدَةٌ، وَهِيَ: أَنَّ حُكْمَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَانَ عَنْ عِزَّةٍ وَقُدْرَةٍ وَسُلْطَانٍ، وَأَنَّ عِزَّةَ اللهِ مَقْرُونَةٌ بِالْحِكْمَةِ، بِخِلَافِ عِزَّةٍ غَيْرِهِ، فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ إِذَا عَزَّ وَغَلَبَ مُتَصَرِّفًا تَصَرُّفًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ، تَغَرَّهَ الْغَلْبَةُ، فَيَتَصَرَّفُ تَصَرُّفًا

أَحَقُّ، أَمَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ فَعَزَّتْهُ مَقْرُونَةٌ بِالْحِكْمَةِ، ولهذا يَقْرُنُ اللَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ، وهُمَا: ﴿الْمُرِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

••❦••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ بِالْعِلْمِ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١١)
قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَعْنِي: الدِّينَ الْمَقْبُولَ عَقِيدَةً وَقَوْلًا وَعَمَلًا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ ﴿الْإِسْلَامُ﴾، وَغَيْرُ الْإِسْلَامِ لَا يُقْبَلُ.

وَالْإِسْلَامُ بِالْمَعْنَى الْعَامُّ هُوَ: الْإِسْتِسْلَامُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَطَاعَتُهُ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ شَرِيعَةٍ كَانَتْ قَائِمَةً غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ، فَاَلْمُؤْمِنُونَ بِنُوحٍ مُسْلِمُونَ، وَبِإِبْرَاهِيمَ مُسْلِمُونَ، وَبِمُوسَى مُسْلِمُونَ، وَبِعِيسَى مُسْلِمُونَ، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - مُسْلِمُونَ.

وَلَكِنْ كُلُّ دِينٍ يَنْسَخُ مَا قَبْلَهُ أَوْ يُكَمِّلُ مَا قَبْلَهُ، وَالدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ الَّذِي بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - نَاسِخٌ لِكُلِّ مَا قَبْلَهُ، فَلَا دِينَ مَعَ دِينِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «لَا يَجْتَمِعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ»^(١)، فَلَا يُقَامُ فِيهَا كَنِيسَةٌ وَمَسْجِدٌ، أَوْ بَيْعَةٌ وَمَسْجِدٌ، لَا، بَلِ الْمَسْجِدُ فَقَطْ؛ لِأَنَّ الْجَزِيرَةَ هِيَ أُمَّ بِلَادِ الْإِسْلَامِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٧٥/٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَمَنْ حَوَّلَهَا ﴿الشورى: ٧﴾، والإيمان يَأْرِزُ إلى المدينة كما تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إلى جُحْرِهَا، أي: يَرْجِعُ.

فدينُ الإسلامِ بعدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- هو الدينُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لا غَيْرُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني: الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ، وهو يَوْمُ عَرَفَةَ فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ، فَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وهو واقِفٌ بِعَرَفَةَ، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ﴿الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ فِي وَصْفِ الْقُرْآنِ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي: حَاكِمًا عَلَى الْكِتَابِ السَّابِقَةِ كُلِّهَا، فَهُوَ نَاسِخٌ لَهَا.

وَالْجُمْلَةُ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تُفِيدُ الْحَصَرَ، وَهُوَ -أَعْنِي: الْحَصَرَ- إِثْبَاتُ الْحُكْمِ فِي الْمَذْكُورِ، وَنَفْيُهُ عَمَّا سِوَاهُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: «مَا الدِّينُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا الْإِسْلَامُ»، لَكِنْ جَاءَتْ ﴿إِنَّ﴾ لِلتَّوَكِيدِ، وَاسْتِفِيدَ الْحَصَرُ مِنْ تَعْرِيفِ جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ: ﴿الدِّينَ﴾ ﴿الْإِسْلَامُ﴾، فَالْإِسْلَامُ الْخَاصُّ هُوَ: مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَهُوَ نَاسِخٌ لِجَمِيعِ مَا سَبَقَ مِنَ الْأَدْيَانِ.

قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الدِّينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: الْعِلْمُ الثَّابِتُ الْمُتَيَقِّنُ، وَقَدْ كَانُوا يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَمَا يَعْرِفُونَ

أَبْنَاءَهُمْ، يَعْرِفُونَ ذَلِكَ بِمَا ذُكِرَ مِنْ أَوْصَافِهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- هُوَ الرَّسُولُ الْحَقُّ كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ ابْنَهُ.

بعد ذلك اختلّفوا، منهم مَنْ آمَنَ، ومنهم مَنْ كَفَرَ، لَكِنْ مَا الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذَا؟ الَّذِي حَمَلَهُمُ الْبَغْيُ، وَالْعُدْوَانُ، وَالْحَسَدُ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، قَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ الرَّسُولُ الَّذِي بُشِّرْنَا بِهِ مِنَ الْعَرَبِ؟! لِمَاذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟! فَحَسَدُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ مُبَيِّنًا حُكْمَ هَؤُلَاءِ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِتَايَاتِ اللَّهِ﴾ أَي: الدَّالَّةِ عَلَى شَرْعِهِ، وَعَلَى صِدْقِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ﴿فَاتَّ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَي: فَسَيُحَاسِبُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَمَا أَسْرَعَ حِسَابَ اللَّهِ؛ إِذْ لَيْسَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَهَذَا الْحِسَابِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ، وَلَا يَذَرِي الْإِنْسَانُ مَتَى يَمُوتُ، ثُمَّ إِذَا مَاتَ -وَلَوْ عُمَرَ أَلْفَ سَنَةٍ- فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعِشْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً وَاحِدَةً؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِشَّةً أَوْ صُحْحَةً﴾ [النازعات: ٤٦]، فَمَا أَسْرَعَ حِسَابَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ حِكْمٌ وَأَحْكَامٌ، مِنْهَا:

١- أَنَّهُ لَا دِينَ عِنْدَ اللَّهِ سِوَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَعَلَى هَذَا فَلَاذْيَانُ الَّتِي عَلَيْهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ كُلُّهَا

باطلة مَرْدُودَةٌ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وتوَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ عَلَى دِينٍ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللَّهِ -الآن- وَهُمْ مُكْذِبُونَ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ما هو إِلَّا أَمَانِيٌّ كاذِبَةٌ، فَإِنَّهُمْ -والله- ليسوا على شيء، وليسوا على دين، كيف وقد كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-؟!!

ولهذا نقول: مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى الْيَوْمَ عَلَى دِينٍ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ كُفْرًا أَكْبَرَ خُرْجًا عَنِ الْمِلَّةِ، وَلَا تَقُولُوا: إِنِّي شَدَدْتُ. أنا ليس بيدي التَّكْفِيرُ أَوْ رَفْعُ التَّكْفِيرِ، التَّكْفِيرُ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ مُتَلَقًى مِنَ الشَّرْعِ، فكما أَنَّا لَا نَمْلِكُ أَنْ نُحْلَلَ وَنُحَرِّمَ، فلا نَمْلِكُ أَنْ نُكْفِّرَ أَوْ لَا نُكْفِّرَ.

لكن أَرَأَيْتُمْ رَجُلًا يَقُولُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ عَلَى دِينٍ مَقْبُولٍ -أعني: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى الْيَوْمَ- وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، أَفَلَيْسَ هَذَا مُكْذَبًا لِلَّهِ؟! والمُكْذَّبُ لِلَّهِ تَعَالَى كَافِرٌ، ثُمَّ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ فَقَطْ، فَغَيْرُهُ لَيْسَ دِينًا، فكيف نقول: إِنَّ غَيْرَهُ دِينٌ مَقْبُولٌ؟! أَفَلَيْسَ هَذَا التَّكْذِيبَ بَعَيْنِهِ؟!!

أنا أعجبُ من قَوْمٍ الْآنَ مُدَاهِنُونَ غَايَةَ الْمُدَاهَنَةِ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ، فيقولون: هَؤُلَاءِ أَهْلُ أَدْيَانٍ سَمَاقِيَّةٍ. نَعَمْ، دِينُ الْيَهُودِ دِينُ سَمَاقِيَّةٍ حِينَ كَانَتْ شَرِيعَتُهُمْ قَائِمَةً، أَمَّا وَقَدْ نُسِخَتْ فَالَّذِي شَرَعَهَا أَوَّلًا هُوَ الَّذِي رَفَعَهَا ثَانِيًا، وكذلك يُقَالُ فِي النَّصَارَى.

وإِنَّا بقَوْلِنَا هَذَا لِنَا أَعْدَاءَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ، بل نحن أولياءُ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ لَأَنَّا نُرِيدُ أَنْ نَحْمِلَ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى دِينِ اللَّهِ الَّذِي شَرَعَهُ وَقَبِلَهُ حَتَّى يُفْلِحُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ولهذا يُرَوَى عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ إِلَى النَّاسِ بَعْدَ أَنْ بُعِثَ، يَخْرُجُ إِلَى مَنِيٍّ، ويقولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. تَفْلِحُوا»^(١)، نحن لا نُرِيدُ أَنْ نُبَكِّتَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، بل نُرِيدُ أَنْ نَذَلَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي يُفْلِحُونَ بِهِ، وَيَسْعَدُونَ بِهِ، وَيَحْيُونَ بِهِ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَهُوَ اتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَلَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ نُسَلِّمُ لِقَضَاءِ اللَّهِ، وَنَقُولُ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا. وَأَمَّا أَنْ نُدَاهِنَهُمْ، وَنَقُولَ: أَنْتُمْ عَلَى حَقٍّ، أَنْتُمْ أَهْلُ دِينٍ سَمَاوِيِّ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي يَقُولُهَا مَنْ لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهَا، أَوْ مَنْ لَا قِيَمَةَ لِلْإِسْلَامِ عِنْدَهُ.

فَالوَاجِبُ: الْبَرَاءَةُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمِنْ شُرَكَاهُمْ، وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ، وَمِنْ دِينِهِمْ، لَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ نَشْهَدُ أَنَّ مُوسَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمِنْ أَوْلِي الْعِزِّ، وَأَنَّ عِيسَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمِنْ أَوْلِي الْعِزِّ، نَشْهَدُ بِذَلِكَ، وَنُؤْمِنُ بِهِ، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ، وَأَحَقُّ بِعِيسَى مِنْهُمْ، وَأَحَقُّ بِإِبْرَاهِيمَ مِنْهُمْ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، هَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

وهذا لا يَمْنَعُ أَنْ نَنْتَفِعَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعُلُومِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مِنْ عِلْمِ الصَّنَائِعِ، وَعِلْمِ الزَّرَاعَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُوجِبُ مَوَدَّةَ لَهُمْ، وَلَا مُوَالَاةَ لَهُمْ.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٩٢/٣) من حديث ربيعة بن عباد الديلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- أَنْ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا يَتَعَبَّدُ بِهِ لِلَّهِ عَلَى غَيْرِ وَفْقِ الشَّرْعِ فَهُوَ مَرْدُودٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَلَا يُقْبَلُ، وَلَكِنْ لَا يَعْْنِي ذَلِكَ أَنَّ فَاعِلَهُ يَكْفُرُ؛ لِأَنَّ هَذَا لَهُ تَفَاصِيلُ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْحُكْمَ: قَوْلُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١).

وَيُؤَيِّدُهُ: مَا ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّى صَلَاةً لَا يَطْمِئُنُّ فِيهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّ السَّلَامَ، مَعَ أَنَّ الرَّجُلَ صَلَّى صَلَاةً غَيْرَ مَقْبُولَةٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فَارْجَعَ الرَّجُلُ، فَصَلَّى كَصَلَاتِهِ الْأُولَى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: «ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فَارْجَعَ، فَصَلَّى كَالأُولَى، ثُمَّ أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: «ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»؛ لِأَنَّ صَلَاتَهُ لَيْسَتْ عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَةِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أُحْسِنُ غَيْرَ هَذَا، فَعَلَّمَنِي. وَهَذَا الْكَلَامُ عَجِيبٌ.

أَوَّلًا: أَنَّ الرَّجُلَ أَقْسَمَ بِالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَلَمْ يَقُلْ: وَاللَّهِ. إِشَارَةً إِلَى أَنَّ مَا يُرْشِدُهُ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ ذَكَرَ نَقْصَ نَفْسِهِ، وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مَنْ يُكْمِلُ نَقْصَهُ، فَقَالَ: لَا أُحْسِنُ غَيْرَ هَذَا. لِيَعْذُرَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وَلِيُرْشِدَهُ إِلَى الْحَقِّ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨/١٨)، وأخرجه بمعناه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الثالث: قال: «عَلَّمَنِي»، طَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُعَلِّمَهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ سَيُعَلِّمُهُ، لَكِنْ إِذَا جَاءَ بِطَلَبٍ عَلَى شَغَفٍ وَانْتِظَارٍ صَارَ أْبْلَغَ فِي النَّفْسِ، وَأَرْسَخَ فِي الْقَلْبِ، فَعَلَّمَهُ، قَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»^(١).

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: قَوْلُهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، أَي: لَمْ تُصَلِّ صَلَاةً مَقْبُولَةً، وَإِلَّا فَالرَّجُلُ صَلَّى، لَكِنَّهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَةِ.

وعلى هذا فما يُحَدِّثُهُ أَهْلُ الْبِدْعِ مِنْ عِبَادَاتٍ قَوْلِيَّةٍ أَوْ فِعْلِيَّةٍ، يَجِبُ أَنْ نَعْرِضَهَا عَلَى السُّنَّةِ، فَإِنْ كَانَتِ السُّنَّةُ تُؤَيِّدُهَا فَهِيَ حَقٌّ بِالسُّنَّةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تُؤَيِّدُهَا فَهِيَ بَاطِلَةٌ مَرْدُودَةٌ عَلَى صَاحِبِهَا، لَا تَزِيدُهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- حَذَرَ مِنَ الْبِدْعِ، وَقَالَ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٢)، فَقَدْ يُزَيِّنُ الشَّيْطَانُ لِأَهْلِ الْبِدْعِ بِدَعَهُمْ، وَيُحَدِّثُ فِي قُلُوبِهِمْ رِقَّةً، وَفِي أَعْيُنِهِمْ دَمْعَةً، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ عَلَى خِلَافِ الشَّرْعِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، رقم (٦٢٥١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا قال قائل: ما تقولون: هل الأصل في العبادات أن يتعبد الإنسان لله تعالى بما يستحسنه، أو الأصل في العبادات المنع والتحریم حتى يثبت أنها مشروعة من عند الله، إمّا في الكتاب، أو السنة، أو الإجماع؟

فالجواب: أن الأصل في العبادات المنع، فلا يتعبد لله إلا بما علمنا أنه شرعه أو غلب على ظننا أنه شرعه بمقتضى طرق الاستدلال، ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، لو كان كل إنسان يستحسن شيئاً يتعبد لله به صار عبادة لتفرق الناس، وصار كل طائفة لهم دين، وكل أهل بلد لهم دين، وكل أهل زمان لهم دين، ومسخ الدين الإسلامي، لكن هنا قواعِد.

وعلى هذا، فلو رأيت شخصاً يتعبد لله عز وجل بخلاف ما تعرف أنه شرعه فقل له: لماذا تفعل كذا؟ لماذا تفعل كذا؟ هل هذا وارد؟ فإذا قال: نعم وارد. فقل: هل ورد على وجه صحيح؟ إن أثبت ذلك على وجه صحيح قلنا: الحمد لله، جزاك الله خيراً، وزادك من التمسك بدين الله، وأزددتنا إلى شيء كنا نجهله.

أمّا إذا كان ما أورده لا يصح عن النبي ﷺ، أو كان يصح عنه، لكنه فهمه على غير ما أراد الرسول ﷺ، فإننا لا نقبله، وما أكثر الأحاديث الموضوعة الباطلة التي يحتج بها بعض أهل البدع، وهي لا أصل لها.

فعليك -يا أخي- بهذا الأصل، أي إنسان يتعبد لله بشيء فقل له: ما الدليل؟ فإن أتى بدليل فعلى العين والرأس، ويجب علينا قبول ذلك، وإن لم يأت بدليل نصحناه، وخوفناه من الله عز وجل، وقلنا: لا تجعل نفسك شريكاً مع الله، تشرع العبادة بدون إذن من الله.

والواجبُ على كُلِّ مُسْلِمٍ تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ أَنْ يَتَّبِعَهُ، وَتَبَيَّنَ لَهُ الضَّلَالُ أَنْ يَجْتَنِبَهُ؛ حَتَّى يَكُونَ مُسْلِمًا حَقًّا مُسْتَسْلِمًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٣- أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ الْمُخْتَلِفِينَ قَدْ اخْتَلَفُوا عَنْ عِلْمٍ، لَا عَنْ جَهْلٍ، وَالْمُخَالَفُ عَنْ عِلْمٍ أَشَدُّ إِثْمًا مِنَ الْمُخَالَفِ عَنْ جَهْلٍ، فَالْمُخَالَفُ عَنْ عِلْمٍ مِنْ قِسْمِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَالْمُخَالَفُ عَنْ جَهْلٍ مِنْ قِسْمِ الضَّالِّينَ، وَالْأَوَّلُ أَشَدُّ لَوْمًا، وَأَعْظَمُ إِثْمًا.

٤- أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَالَفُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمْ يُخَالَفُوا عَنْ صِدْقِ نِيَّةٍ، وَحُسْنِ طَوِيَّةٍ، وَلَكِنَّهُ الْبَغْيُ، وَالْعُدْوَانُ، وَالْحَسَدُ.

٥- تَهْدِيدٌ مَنْ يَكْفُرُ بِآيَاتِ اللَّهِ بِأَنَّهُ مُحَاسَبَتُهُ قَرِيبَةٌ، فَعَلَيْهِ أَلَّا يَتِمَادِيَ، عَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِيمَانِ بَعْدَ الْكُفْرِ، إِلَى السُّنَّةِ بَعْدَ الْبِدْعَةِ، إِلَى الطَّاعَةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ، قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَهُ الْأَجَلُ، وَلَا يَتِمَكَّنَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧-١٨].

٦- إِبْتِاثُ مُحَاسَبَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِلخَلْقِ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَيْفَ هَذِهِ الْمُحَاسَبَةُ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا جَمِيعًا مِنْهُمْ، يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَذَلِكَ بِأَنْ يَخْلُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِعَبْدِهِ، وَيُفَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ: فَعَلْتَ كَذَا يَوْمَ كَذَا، وَفَعَلْتَ كَذَا يَوْمَ كَذَا. فَإِذَا أَقَرَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا،

وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(١)، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أَمَّا الْكُفَّارُ -والعياذُ بالله- فَإِنَّهُمْ لَا يُحَاسِبُونَ حِسَابَ مَنْ لَهُ حَسَنَاتٌ وَسَيِّئَاتٌ، وَيُنْظَرُ بَيْنَهَا، وَلَكِنَّهَا تُحْصَى عَلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيُحْزَنُ بِهَا، وَيُنَادَى عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

٧- حَثُّ الْإِنْسَانِ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِالتَّوْبَةِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَسَوْفَ يَخْشَى مِنْ وَقُوعِ الْمَوْتِ وَالْمُفَاجَأَةِ، فَيُسْرِعُ بِالتَّوْبَةِ، وَلَا سِيَّما التَّوْبَةُ مِنْ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ؛ لِأَنَّ حُقُوقَ الْآدَمِيِّينَ لَا بُدَّ أَنْ تُسْتَوْفَى وَلَوْ مِنْ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ الصَّالِحَةِ.

فلذلك أُحِثُّ إِخْوَانِي الَّذِينَ عَلَيْهِمْ حَقُوقٌ لِلنَّاسِ مِنْ عَمَلٍ، أَوْ جِرَانٍ، أَوْ أَقَارِبَ، أَوْ أَزْوَاجَ أَنْ يُبَادِرُوا بِالْخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الْحُقُوقِ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَهُمُ الْمَوْتُ، وَتَبْقَى الْحَقُوقُ تُؤْخَذُ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لِأَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: «اتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعٍ. قَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَيِّتَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)،

ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
ءَاسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ ﴿٥٠﴾﴾

الخطابُ في قولِ الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ للنبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله
وسلم-، والمُحاجةُ هي: المُجادلةُ بالإدلاءِ بالحُجَّةِ؛ لِغَلَبَةِ الخصمِ. أي: إن حاجَكَ
هؤلاءِ المُكذِّبونَ لك ﴿فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: وَجْهَهُ إِيَّاهُ مُسْتَسْلِمًا لِأَمْرِهِ،
راضيًا بِحُكْمِهِ ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى التَّاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَسَلَّمْتُ﴾ يَعْنِي: وَمَنِ
اتَّبَعَنِي أَسَلَّمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ أَيْضًا، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وعلى
آله وسلم-.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ مِنَ الْعَرَبِ
﴿ءَاسَلَّمْتُمْ﴾.

سُمِّيَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى
الْيَهُودِ كِتَابَ التَّوْرَةِ، وَعَلَى النَّصَارَى كِتَابَ الْإِنْجِيلِ، وَمَا زَالَ فِيهِمَا بَقَايَا إِلَى أَنْ
بُعِثَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

وَأَمَّا الْأُمِّيُّونَ فَهُمْ الْعَرَبُ؛ لِأَنَّهُمْ جُهَاَلٌ، وَالْجَاهِلُ يُنْسَبُ إِلَى الْأُمِّ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ
إِذَا خَرَجَ مِنْ أُمِّهِ خَرَجَ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ
بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقوله: ﴿ءَاسَلَمْتُمْ﴾ الاستفهام هنا بمعنى الأمر، أي: أسلموا، ويحتمل أن يكون للتقرير، أي: أبعد هذا البيان تُسلمون؟

﴿فَإِنْ أَسَلَمُوا﴾ أي: الذين أوتوا الكتاب والأُمِّيُونَ ﴿فَقَدْ أَهْتَدَوْا﴾ أي: سلكوا طريق الهدى والرشاد ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فَإِنَّ الضَّرَرَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وليس على النَّبِيِّ ﷺ من توليهم شيء، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ وقد أدّيته، و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ولهذا ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، أي: عَلِيمٌ بأحوالهم الظاهرة والباطنة.

في هذه الآية حكم وفوائد عظيمة، منها:

١- أن أهل الكتاب والمُشْرِكِينَ أيضًا يُحَاجُّونَ النَّبِيَّ ﷺ، أي: يُجَادِلُونَهُ، وأن هذا أمرٌ كائنٌ من أول الرسالة، وسيستمرُّ إلى آخرها.

٢- أنه لا بأس في مُجَادَلَةِ المُشْرِكِينَ وأهل الكتاب، لكن بشرط: أن يكون عند الإنسان علمٌ بما عليه الخصم، وعلمٌ بما هو عليه أيضًا من الحق.

أما علمُ بما عليه الخصم فلاجل أن يعرف معايه، ومن أين يأتيه، وأما العلمُ بما عنده فليكون عنده حُجَّةٌ قَوِيَّةٌ يَقْتُلُ بِهَا الخصم.

٣- إعلان الإخلاص أمام هؤلاء المُحَاجِّينَ؛ لقوله: ﴿فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾.

٤- أن الوجه أشرف الأعضاء، ولهذا يُعَبَّرُ به عن النفس؛ لقوله: ﴿أَسَلَمْتُ

وَجْهِيَ﴾.

٥- أَنْ الْمُتَّبِعِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مُسْلِمُونَ وَجُوهَهُمْ لِلَّهِ، كَمَا مِمَّهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

٦- فَضِيلَةُ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّنْوِيهِ بِفَضْلِ مُتَّبِعِيهِ.

٧- أَنْ يُعْرَضَ طَلَبُ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَعَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَا كِتَابَ لَهُ. فَيَشْمَلُ الْمُشْرِكُ وَالْجَاهِدَ جَحْدًا تَامًا كَالشُّيُوعِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ.

٨- أَنْ مَنْ أَسْلَمَ فَقَدْ اهْتَدَى، وَسَلَكَ الطَّرِيقَ الَّتِي بِهَا النِّجَاةُ، وَمَفْهُومُ الْآيَةِ: أَنْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ لَمْ يَهْتَدِ، وَالرَّجُلُ يَفُوتُهُ مِنَ الْإِهْتِدَاءِ بِقَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَكُلَّمَا أَسْلَمَ الْإِنْسَانُ وَجَّهَهُ اللَّهُ أَزْدَادَ إِهْتِدَاءٍ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآمَنَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [حمد: ١٧].

٩- أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ إِلَّا الْبَلَغُ، فَإِنْ اهْتَدَى الْمُبْلَغُ فَهَذَا لَهُ وَلِلْمُبْلَغِ، وَإِنْ لَمْ يَهْتَدِ فَعَلَيْهِ وَلِلْمُبْلَغِ، فَالْمُبْلَغُ إِذَا قَامَ بِالْوَاجِبِ بَرَأَتْ ذِمَّتُهُ.

١٠- أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يُبْلَغَ بَلَاغًا تَامًا، فَيَسْلُكَ كُلَّ طَرِيقٍ يَكُونُ سَبِيلًا لِهِدَايَةِ الْخَلْقِ.

١١- أَنْ اللَّهَ تَعَالَى بَصِيرٌ بِعِبَادِهِ جَلَّ وَعَلَا، فَهُوَ الَّذِي جَعَلَ مِنْهُمْ الْكَافِرَ وَالْمُؤْمِنَ، وَالْمُطِيعَ وَالْعَاصِيَّ، وَالْبَرَّ وَالْفَاجِرَ؛ لِأَنَّ حَالَهُمْ لَا تَسْتَقِيمُ إِلَّا بِهَذَا، فَلَوْ لَا الْكُفْرُ لَمْ يُعْرِفِ الْإِيمَانُ، وَلَوْ لَا الْمَعْصِيَةُ مَا عُرِفَتِ الطَّاعَةُ، وَلَوْ لَا هَذَا الْاِخْتِلَافُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ، وَلَا نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ، وَلَوْ لَا هَذَا الْاِخْتِلَافُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، فَلَهُ جَلَّ وَعَلَا الْحِكْمَةُ فِي إِهْتِدَاءِ الْمُهْتَدِي، وَاسْتِكْبَارِ الْمُعْتَدِي.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١١)

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: يَجْحَدُونَهَا، وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِهَا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَكُونُونَ مُتَّقِينَ لَهَا، لَكِنْ يَجْحَدُونَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وآيَاتُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَوْعَانِ:

■ آيَاتُ كُونِيَّةٌ، وَهِيَ: مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَخْلُوقَاتِ.

■ آيَاتُ شَرْعِيَّةٌ، وَهِيَ: مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ النَّبِيُّونَ: جَمْعُ نَبِيٍّ، وَهُوَ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ فَرَسُولٌ، وَإِلَّا فَنَبِيٌّ فَقَطْ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: بِغَيْرِ حَقٍّ يُبِيحُ قَتْلَهُمْ، وَهَذَا الْقَيْدُ يُرَادُّ بِهِ التَّشْنِيعُ عَلَى قَاتِلِي الْأَنْبِيَاءِ، أَي: أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلَا يُرَادُّ بِهِ الْاحْتِرَازُ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ قَتْلَ الْأَنْبِيَاءِ يَكُونُ بِحَقٍّ، وَيَكُونُ بِغَيْرِ حَقٍّ. كَلَّا، بَلْ إِنَّ قَتْلَ الْأَنْبِيَاءِ كُلَّهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، لَكِنَّ هَذَا الْقَيْدَ؛ لِأَجْلِ التَّشْنِيعِ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَأَنَّهُمْ قَتَلُوهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ فِي قَتْلِهِمْ.

وهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، فَإِنَّهُ لَا إِثْمَ وَلَا بَغْيَ بِحَقٍّ، لَكِنْ فِيهِ التَّشْنِيعُ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْغُونَ

وَيَأْتُمُونَ، ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، أي: ما لم يُنَزَّلْ به بُرْهَانًا ودليلاً، ومن المعلوم أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُومَ بُرْهَانٌ وَدَلِيلٌ عَلَى الشَّرِكِ، بَلِ الْبُرْهَانُ وَالِدَلِيلُ عَلَى بُطْلَانِهِ، لَكِنْ هَذَا مِنْ بَابِ التَّشْنِيعِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ؛ حَيْثُ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ بَدُونِ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: بِالْعَدْلِ، وَكُلُّ مَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ فَهُوَ عَدْلٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠]، فَمَنْ هُمُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْعَدْلِ؟

الْجَوَابُ: هُمُ الْعُلَمَاءُ، وَيَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ ﴿الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ الْأَنْبِيَاءُ، فَيَكُونُ عَطْفٌ ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ، فَهَؤُلَاءِ الْمُعْتَدُونَ اعْتَدَوْا عَلَى الرُّسُلِ، وَعَلَى أَتْبَاعِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أَخْبِرْهُمْ بِعَذَابٍ مُؤَلِمٍ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَذَلِكَ لِعَظَمِ جُرْمِهِمْ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حُكْمٌ وَفَوَائِدٌ عَظِيمَةٌ، مِنْهَا:

١ - الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ: الْكُفْرَ بِآيَاتِ اللَّهِ، قَتْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ، قَتْلَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ.

٢ - تَحْرِيمُ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ: الْكُفْرَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقَتْلَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ.

٣ - أَنَّ كُلَّ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ قُتِلَ بِغَيْرِ حَقٍّ، بَلِ بِالْعُدْوَانِ، وَالظُّلْمِ، وَالْجَوْرِ.

٤- أَنْ لِلْحَقِّ أَعْدَاءٌ، وَإِلَّا فَمَا ذَنْبُ الْأَنْبِيَاءِ؟ وما ذَنْبُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ
من النَّاسِ؟!

٥- الثَّنَاءُ عَلَى الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَوَعَّدَ مَنْ
قَتَلَهُمْ بِهَذَا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

٦- إِنْخِبَارُ مَنْ عَمِلَ مَا يَحْصُلُ بِهِ الْعَذَابُ بِمَا تُوَعَّدَ بِهِ، لَعَلَّهُ يَرْتَدِّعُ وَيَنْزَجِرُ؛
لِقَوْلِهِ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٧- أَنْ عَذَابَ أَهْلِ النَّارِ مُؤَلَّمٌ، وَلَيْسَ كَمَا زَعَمَهُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ يَتَأَقْلَمُونَ عَلَى
هَذَا الْعَذَابِ، ثُمَّ لَا يَتَأَثَّرُونَ بِهِ، بَلْ إِنَّهُمْ يَتَأَلَّمُونَ أَشَدَّ الْأَلَمِ، نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ،
اللَّهُمَّ أَعِزَّنَا مِنَ النَّارِ.

٨- جَوَازُ الْإِنْخِبَارِ بِلَفْظِ التَّبَشِيرِ، حَتَّى فِي الْأَشْيَاءِ الْمُؤَلِّمَةِ، ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ﴾.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الْبَشَارَةُ فِيمَا يَسُرُّ، فَكَيْفَ عُبِّرَ عَنِ الْعَذَابِ بِالْبَشَارَةِ بِهِ؟
فَالْجَوَابُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَا يُسَلِّمُ أَنَّ الْبَشَارَةَ فِيمَا يَسُرُّ فَقَطْ، بَلِ الْبَشَارَةُ كُلُّ مَا يُؤَثِّرُ عَلَى
الْمُبَشِّرِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ تُؤَثِّرُ عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ بِالْخَيْرِ، وَالْبَشَارَةُ بِالشَّرِّ؛ لِأَنَّهُ مَاخُودٌ
مِنَ الْبَشَرَةِ، أَي: مِنْ تَغْيِيرِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: إِنَّهُ أُطْلِقَ عَلَيْهِ التَّبَشِيرُ مَعَ أَنَّهُ عَذَابٌ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقَتَلُوا مَنْ يَأْمُرُ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ، ظَنُّوا أَنَّهُمْ
غَانِمُونَ، وَأَنَّهُمْ كَاسِبُونَ، فَقِيلَ: هَذَا كَسْبُكُمْ، أَبْشِرُوا بِهِ.

٩- أَنْ اللَّهَ تَعَالَى يُدَافِعُ عَنْ أَوْلِيَائِهِ؛ لَأَنَّ كَوْنَ اللَّهِ تَعَالَى يَعِدُ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَدِينَ عَلَيْهِم بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُدَافِعٌ عَنْهُمْ جَلَّ وَعَلَا.

وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»^(١) أَي: أَعْلَنْتُ الْحَرْبَ عَلَيْهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْفَى مُعَاهِدٍ بِعَهْدِهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وَعَهْدُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أُمِرْنَا أَنْ نُوفِيَ بِهِ هُوَ: أَنْ نَقُومَ بِطَاعَتِهِ عَزَّجَلَّ، فَإِذَا قُمْنَا بِطَاعَتِهِ فَهُوَ أَوْفَى مِنَّا عَزَّجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾ أَي: لَا أَحَدٌ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴿فَاسْتَبَشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بِآيَتِهِمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ

نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

أَي: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ، هُمُ الَّذِينَ خَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَلَمْ تَنْفَعَهُمْ لَا فِي الدُّنْيَا، وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَمَا يُمِدُّهُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ فَهُوَ مِنْ
بَابِ الاسْتِدْرَاجِ - والعياذُ بالله - كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّيْ لَهُمْ
خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّيْ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وما لهم أحدٌ ينصُرهم لا في الدُّنْيَا، ولا في الْآخِرَةِ، والعياذُ بالله، قال اللهُ تعالى:
﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

في هذه الآيةِ حِكْمٌ وفَوَائِدٌ عَظِيمَةٌ، منها:

١- أَنَّ مَنْ قَامَ بِالصِّفَاتِ السَّابِقَةِ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ لَا عَمَلَ يُبْطِلُ الْأَعْمَالَ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا الْكُفْرُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ
كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٢- أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَنْتَفِعُ بِعَمَلِهِ لَا فِي الدُّنْيَا، وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أليس اللهُ تعالى يُمِدُّ الْكَافِرَ بِمَالٍ وَبَنِينَ فِي الدُّنْيَا، وَيُنَعِّمُهُ؟

قُلْنَا: بَلَى، لَكِنْ هَذَا لَا يَزِدُّهُ إِلَّا إِثْمًا، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ يُحَاسِبُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى عَلَى الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللَّبَاسِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فَهِيَ حِلٌّ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهِيَ خَالِصَةٌ لَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ، فَلَا يُعَذَّبُونَ عَلَيْهَا، بِخِلَافِ الْكَافِرِ.

٣- قَطْعُ أَمَلِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَامَ
الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ، فَبَيَّنَ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي أَمْثَالِهَا أَنَّ
هَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ نَاصِرٌ، وَصَدَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فِي الْآخِرَةِ يَفْقَرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ،

وأبيه، وصاحِبَتِهِ، وَبَنِيهِ، فَسَأَلَ اللَّهُ لَنَا وَإِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ، وَالْوَفَاءَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُؤَيِّدَنَا بِنَصْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مَّقَرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستِفْهَامُ لِلتَّعْجُبِ وَالتَّعْجِيبِ، وَالْمَعْنَى: أَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى حَالِ هَؤُلَاءِ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾، أَي: أُعْطُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ، عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِّنَ الْعِلْمِ، فَيُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ (الْقُرْآنِ) لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ يُصِرُّونَ عَلَى الْإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أَي: يُوَلُّونَ الْأَذْبَارَ ﴿وَهُمْ مُّقْرِضُونَ﴾ فَلَا يُلْتَفَتُونَ، وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْاسْتِفْهَامِ: التَّعْجُبُ وَالتَّعْجِيبُ مِنْ حَالِهِمْ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَنْبَغِي -حَيْثُ كَانَ عِنْدَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْكِتَابِ- أَنْ يَسْتَجِيبُوا إِذَا دُعُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ؛ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، وَلَكِنْ كِبَرِيائِهِمْ وَفَخْرِهِمْ وَاعْتِزَالِهِمْ بِمَا مَعَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ يَأْبُونَ ذَلِكَ.

وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْيَهُودُ؛ لِأَنَّ عِنْدَهُمْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ مَعَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ، فَإِذَا دُعُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ تَوَلَّوْا؛ حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، فَاعْجَبَ لِحَالِ هَؤُلَاءِ.

وَهَذَا التَّوَلَّى الَّذِي يَقُومُونَ بِهِ تَوَلَّى مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ نَبِيَّةٌ فِي الرُّجُوعِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُمْ مُّقْرِضُونَ﴾ لَا يُلْتَفَتُونَ.

في هذه الآيةِ الكريمةِ من الحكمِ والفوائدِ ما يلي:

- ١ - القَدْحُ في حالِ هؤلاءِ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ، ثُمَّ يُعْرِضُونَ عَنْ الْحَقِّ.
- ٢ - التَّعَجُّبُ من حالِ هؤلاءِ تَعَجُّبُ إنكارٍ، لا تَعَجُّبُ سُرُورٍ وإِقْرَارٍ.
- ٣ - أَنَّ هؤلاءِ لم يُعْطُوا الْكِتَابَ كُلَّهُ، بل نَصِيصًا مِنْهُ، وذلكَ لِأَنَّ ما بأيديهم من التَّوْرَةِ - حينِ نُزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - قد بُدِّلَ وَغُيِّرَ، وفاتَ مِنْهُ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ.
- ٤ - أَنَّ هؤلاءِ يُدْعَوْنَ إِلَى الْحَقِّ لا من طَرَفٍ وَاحِدٍ؛ لِأَنَّهُ لم يَقُلْ: يَدْعُوهُمْ رَسُولُ اللَّهِ. بل قَالَ: ﴿يُدْعَوْنَ﴾، فكانَ الْأُمَّةُ كُلُّهَا تَدْعُوهُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ؛ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ.
- ٥ - أَنَّ الْمَرْجِعَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ نُنْزِعُكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].
- ٦ - إِضَافَةُ الْقُرْآنِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَكَلَّمَ بِهِ، فهو كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -؛ لِيَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ.
- ٧ - أَنَّ هؤلاءِ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، بعدَ أَنْ يُفَكِّرُوا وَيُقَدِّرُوا يَتَوَلَّوْنَ؛ لِأَنَّهُ أَتَى بِ: ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ عَلَى التَّراخي، بِمَعْنَى: أَنَّ الْأَمْرَ لم يَفْجَأْهُمْ، بل فَكَّرُوا، وَقَدَّرُوا، ثُمَّ تَوَلَّوْا.

٨- أَنْ التَّوَلَّى لَيْسَ مِنَ الْجَمِيعِ، بَلْ مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، وَلِهَذَا أَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْيَهُودِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمِنَ النَّصَارَى كَالنَّجَاشِيِّ، فَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَعْرَضُوا وَتَوَلَّوْا، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ اهْتَدَى وَعَرَفَ الْحَقَّ.

٩- أَنْ التَّوَلَّى قَدْ يَكُونُ مَعَ الْإِعْرَاضِ، وَقَدْ يَكُونُ بِدُونِهِ، وَالتَّوَلَّى مَعَ الْإِعْرَاضِ أَشَدُّ؛ لِأَنَّ الْمُتَوَلَّى الَّذِي لَمْ يُعْرِضْ قَدْ يَلْتَفِتُ وَيَرْجِعُ، لَكِنْ تَوَلَّى الْمُعْرِضِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - مَا بَعْدَهُ أَمَلٌ.

١٠- أَنَّ الْوَاجِبَ عِنْدَ التَّنَازُعِ الرَّدُّ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، وَهَذَا مَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ لَنْتَزِعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا قَبُولَ الْحَقِّ، وَاتِّبَاعَهُ، وَالثَّبَاتَ عَلَيْهِ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

••❦••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا

يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

الْمُشَارُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ تَوَلَّى هَؤُلَاءِ، وَإِعْرَاضَهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ ادَّعَوْا أَنَّ النَّارَ لَا تَمَسُّهُمْ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، قَالُوا ذَلِكَ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَخْلِفُونَنَا فِيهَا. وَهَذِهِ دَعْوَى بَاطِلَةٌ، أَبْطَلَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٨٠﴾، وهم لم يَتَّخِذُوا عَهْدًا عِنْدَ اللَّهِ، بل ادَّعَوْا ذَلِكَ كَذِبًا وزُورًا، وسيُخْلَدُونَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَدَ الْآبِدِينَ.

وقوله: ﴿لَنْ تَمْسَنَا﴾ يعني: لن تُصِيبَنَا ﴿النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾، وفي آية أخرى: ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، والمعنى واحد؛ لأنَّ جَمْعَ التَّكْسِيرِ يجوزُ في وَصْفِهِ الْإِفْرَادُ وَالْجَمْعُ.

قال: ﴿وَعَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ﴾ أي: في الْعَمَلِ الَّذِي يَتَعَبَّدُونَ بِهِ، وَيَدِينُونَ لِلَّهِ بِهِ، عَرَّهُمْ -وَانْخَدَعُوا- ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، وهو قولهم: إِنَّا عَلَى الْحَقِّ. فَأَصْرُوا عَلَى الْبَاطِلِ، وادَّعَوْا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ.

في هذه الآيةِ الكريمةِ من الْحُكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

- ١- إثباتُ الْأَسْبَابِ لِلْوَاقِعَاتِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الْبَاءُ فِيهِ لِلْسَّبَبِيَّةِ.
- ٢- أَنَّ السَّبَبَ قَدْ يَكُونُ صَحِيحًا، وَقَدْ يَكُونُ بَاطِلًا، فَإِنْ كَانَ صَحِيحًا فَمُسَبِّبُهُ صَحِيحٌ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا فَمُسَبِّبُهُ بَاطِلٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا بُرْهَانَ لَهُؤَلَاءِ وَلَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّ النَّارَ لَا تَمْسُهُمْ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ.
- ٣- أَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مُقَرَّنُونَ بِالْآخِرَةِ وَالْبَعْثِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِهِمْ لِلْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ بِالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ كَذَلِكَ.

وقد ظَنَّ -وَضَلَّ- قَوْمٌ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ دُونَ الْعَمَلِ بِمَا يَقْتَضِيهِ ذَلِكَ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلِهَذَا يَعْتَقِدُ بَعْضُ الْجُهَالِ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ

الْآخِرِ، فَهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَهُ شُرُوطٌ، وَلَهُ مُقْتَضِيَاتٌ.

٤ - إِقْرَارُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِأَنَّ النَّارَ تَمَسُّهُمْ؛ لِقَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، وَهَذَا إِقْرَارٌ مِنْهُمْ بِأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلنَّارِ، وَأَنَّهُمْ يُعَذِّبُونَ فِيهَا، فَيَبْقَى قَوْلُهُمْ: ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ دَعْوَى، إِنَّ أَتَوْا بِبُرْهَانٍ، وَإِلَّا فَقَدْ أَقْرَأُوا عَلَى أَنَّ النَّارَ تَمَسُّهُمْ.

٥ - أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَغْتَرُّ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ عَمَلٍ، وَهُوَ خَطَأٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَعَرَّضْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، وَهَذِهِ نُقْطَةٌ يَجِبُ الْحَذَرُ مِنْهَا: أَنْ تَسْتَحْسِنَ شَيْئًا وَهُوَ سَيِّئٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مُنْكَرًا هَذَا: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لِمَا أَعْمَلْتُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ. فَحِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

فَلْيَحْذَرِ الْإِنْسَانُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ السَّيِّئِ: أَنْ يُزَيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ، فَيَرَاهُ حَسَنًا؛ فَإِنَّ هَذَا أَشَدُّ مِمَّنْ يَرَى سُوءَ الْعَمَلِ سَيِّئًا؛ لِأَنَّ الثَّانِيَ قَدْ يُقْلِعُ، وَالْأَوَّلُ سَيَسْتَمِرُّ.

٦ - أَنْ يَحْذَرَ الْعَالِمُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا قَدْ يُجَرِّمُ الشَّيْءَ عَلَى النَّاسِ، وَلَا يُجَرِّمُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَدْ يُجَرِّمُهُ عَلَى شَخْصٍ، وَلَا يُجَرِّمُهُ عَلَى آخَرَ؛ لِمُجَرِّدِ الْهَوَى، وَهَذَا عَكْسُ الصَّوَابِ، أَيْ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْتَاطَ لِنَفْسِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَاطُ لِغَيْرِهِ.

ولهذا لما قيل للبراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين حَدَّثَ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَصْحَابِي: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوْرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ضَلْعُهَا، وَالْكَبِيرَةُ النَّبِيُّ لَا تُنْقِي» قَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ فِي الْأُذُنِ نَقْصٌ، أَوْ فِي الْقَرْنِ نَقْصٌ، أَوْ قَالَ: فِي السِّنِّ نَقْصٌ. فَقَالَ: مَا كَرِهَتْهُ فِدَعُهُ، وَلَا تُحَرِّمُهُ عَلَى غَيْرِكَ^(١). وهذا من فقه البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالإنسان يُنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى نَفْسِهِ أَشَدَّ مِنْ غَيْرِهِ، أَمَّا أَنْ يُفْتِيَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ، وَيَتَأَوَّلَ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي لَا مُؤَثَّرَ لَهَا، وَيُفْتِيَ غَيْرَهُ بِهَا هُوَ أَشَدُّ، فَهَذَا خِلَافُ الْأَمَانَةِ، وَخِلَافُ الصِّدْقِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الثَّبَاتَ عَلَى مَا يُحِبُّ وَيَرْضَى؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أَي: فَكَيْفَ تَكُونُ حَالُ هَؤُلَاءِ ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ أَي: مَعَ خُصُومِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اللَّامُ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّوْقِيتِ، أَي: جَمْعِنَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى: (فِي)، أَي: فِي يَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَكِلَا الْمَعْنَيْنِ حَقٌّ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الضحايا، باب ما يكره من الضحايا، رقم (٢٨٠٢)، والنسائي: كتاب الضحايا، باب ما نهى عنه من الأصحابي، رقم (٤٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب الأصحابي، باب ما يكره أن يضحي به، رقم (٣١٤٤)، وأحمد (٤/٢٨٤).

وَالرَّيْبُ هُوَ: الشَّكُّ مَعَ الْقَلْتِ، يَعْنِي: أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَلَا امْتِرَاءَ فِيهِ، وَلَا شَكَّ فِيهِ، بَلْ هُوَ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةً، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهُ يَسِيرًا عَلَيْنَا، وَعَلَى إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أَي: أُعْطِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَفَاءً، فَالْمُحْسِنُ لَهُ الْإِحْسَانُ، وَالْمُسِيءُ لَهُ الْعَدْلُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

قَالَ: ﴿وَهُمْ﴾ أَي: الْمَجْمُوعُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ أَي: لَا يُنْقَصُونَ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْئًا، فَلَا يُزَادُ فِي ظُلْمِ الظَّالِمِ عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِ فِي إِحْسَانِهِ، بَلْ كُلُّ يُوَفَّى أَجْرُهُ، إِمَّا بِالْفَضْلِ أَوْ بِالْعَدْلِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١- تَعْظِيمُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٢- تَهْدِيدُ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَتَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

٣- إِثْبَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْمَعُ فِيهِ الْخَصَمَ وَخَصَمَهُ.

٤- أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةً، وَلَا تَرَدُّدَ فِيهِ، وَلَا إِشْكَالَ، وَذَلِكَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْلُقُ الْخَلْقَ، وَيُسْرِعُ الشَّرَائِعَ، وَيَنْقَسِمُ النَّاسُ إِلَى مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ، ثُمَّ يَمُوتُونَ، وَلَا يُبْعَثُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

٥- أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ تُؤَفَّى مَا كَسَبَتْ، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ

مِنَ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَوَفَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾؛ لأنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ، يُعْمُ كُلُّ مَا كَسَبَتْ.

٦- انتِفَاءُ الظُّلْمِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَقْضِي بَيْنَ عِبَادِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]؛ لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَامِلُ الْعَدْلِ، كَامِلُ الْوَفَاءِ، فَلِكَمَالِ عَدْلِهِ، وَتَمَامِ وَفَائِهِ جَلَّ وَعَلَا لَا يَظْلِمُ أَحَدًا.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٦﴾

قَوْلُهُ: ﴿قُلِ﴾ الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَلِكُلِّ مَن يَصِحُّ أَنْ يُوجَّهَ إِلَيْهِ الْخِطَابُ ﴿اللَّهُمَّ﴾ بِمَعْنَى: يَا اللَّهُ ﴿مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ أَي: مَالِكِ كُلِّ مَمْلُوكٍ، أَوْ ﴿مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ أَي: مَالِكِ التَّمْلِكِ، تُمْلِكُ مَن تَشَاءُ.

ثُمَّ فَصَّلَ شَيْئًا مِنْ مُلْكِهِ عَزَّوَجَلَّ، فَقَالَ: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾، وَهَذَا شَيْءٌ مُّشَاهِدٌ، تَحْدُ الرَّجُلَ الْيَوْمَ مَلِكًا، وَغَدًا مَمْلُوكًا، أَوْ بِالْعَكْسِ؛ لِأَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ الْأَمْرُ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ إِمَّا بِمَوْتِ الْمَلِكِ، أَوْ بِاسْتِيلَاءِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى مَمْلَكَتِهِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ أَمَرُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي: تَجْعَلُ لَهُ عِزَّةً وَغَلْبَةً عَلَى خَصْمِهِ ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بالعكس، أي: تَجْعَلُ الذِّلَّ عَلَى مَنْ تَشَاءُ، فَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَلَوْ كَانَ ذَلِيلًا فِي نَفْسِهِ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ وَلَوْ كَانَ عَزِيزًا فِي نَفْسِهِ.

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أي: أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ فَهُوَ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُدُّ اللَّهُ مَلَأَى -أي: مُمْتَلِئَةً- سَحَاءَ- أي: كَثِيرَةُ الْعَطَاءِ- اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ- يَعْنِي: يُعْطِي فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَزَّوَجَلَّ- لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةً، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ -أي: لَمْ يَنْقُصْ- مَا فِي يَمِينِهِ»^(١)، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: لَا يُعْجِزُكَ شَيْءٌ، كُلُّ شَيْءٍ فَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ، إِيجَادِ الْمَعْدُومِ، وَإِعْدَامِ الْمَوْجُودِ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

في هذه الآية الكريمة حكم وفوائد عظيمة، منها:

١- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ اللَّجُوءُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالِكُ الْمُلْكِ، مُدَبِّرُ الْخَلْقِ.

٢- أَنَّ الْمُلْكَ كُلَّهُ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا، لَهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

٣- أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا يُعْطِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَلَكِنَّ الْمَشِيئَةَ هَذِهِ مَقْرُونَةٌ بِالْحِكْمَةِ، لَيْسَتْ مَشِيئَةً بَغَيْرِ حِكْمَةٍ، بَلْ بِحِكْمَةِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، كَذَلِكَ نَزَعَ الْمُلْكُ مَن يَشَاءُ بِحِكْمَةٍ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَاثَ عَرْشُهُ عَلَى أَلْمَاءَ﴾، رقم (٧٤١٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة، رقم (٣٧/٩٩٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- أَلَا يَغْتَرَّ أَحَدٌ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ يَنْزِعُهُ مِنْهُ، فَلْيَلْجَأْ إِلَى اللَّهِ، وَلْيَسْأَلْهُ الثَّبَاتَ.

٥- أَنَّ الْعِزَّةَ وَالذُّلَّ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، يُعَزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ.

٦- أَنَّهُ بِنَاءٌ عَلَى هَذَا الَّذِي أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَلَّا يَسْأَلَ إِلَّا اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الْأُمُورُ.

٧- إِبْطَاتُ الْيَدِ لِلَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾، وَهِيَ يَدُ حَقِيقَةٍ، لَكِنْ لَا يَجُوزُ أَبَدًا أَنْ نَتَصَوَّرَ أَوْ نَقُولَ: إِنَّهَا مِثْلُ أَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٨- إِضَافَةُ الْخَيْرِ إِلَى اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾، وَأَمَّا الشَّرُّ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(١) يَعْنِي: إِلَى اللَّهِ، وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: بِيَدِكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ. بَلْ: بِيَدِكَ الْخَيْرُ؛ لِأَنَّ الشَّرَّ الَّذِي يَحْصُلُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لَيْسَ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى فِعْلِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُقَدِّرْهُ إِلَّا لِلْحُكْمَةِ، لَكِنَّهُ شَرٌّ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَفْعُولَاتِ، أَيِ: لِمَخْلُوقَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٩- عُمُومُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.



(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، رقم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧)

قوله: ﴿تُولِجُ﴾ أي: تُدْخِلُ ﴿اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾، وذلك بأن يطول الليل، ويقصر النهار ﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بأن يطول النهار، ويقصر الليل.

وقد جعل الله تعالى مدار ذلك على أربعة فصول: فصل الربيع، فصل القيظ، فصل الخريف، فصل الشتاء. أربعة فصول، لكنها اثنا عشر برجا، يطول الليل في أيام الشتاء، ويطول النهار في أيام القيظ، ولا أحد يستطيع أن يزيد دقيقة واحدة في الليل أو في النهار، أو ينقص دقيقة واحدة، وإنما ذلك إلى الله عز وجل الذي هو على كل شيء قدير.

وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يشمل هذا النبات والحيوان، أما النبات فهاهي حبة القمح يابسة لا تنمو، فإذا بُذِرَتْ في الأرض حييت ونمت، وكذلك النواة للنخلة يابسة لا تنمو، فإذا بُذِرَتْ في الأرض نمت، وصارت نخلة، وفي الحيوان أيضا الدجاجة تخرج منها البيضة ميتة لا تنمو، ثم تعود البيضة فرخا حيا ناميا، فيخرج الحي من الميت (الفرخ من البيضة) والميت من الحي (البيضة من الدجاجة)، ولا أحد يستطيع هذا.

وربما نقول: إن معنى الآية أشمل من ذلك، فنقول: إن المراد بالحي هنا: حي القلب الذي آتاه الله علما وإيمانا، والميت ميت القلب الذي لم يوفق لعلم ولا إيمان، فأبو إبراهيم الخليل - على إبراهيم الخليل السلام - كان مشركا، تبرأ منه ابنه إبراهيم

لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، وَابْنُ نُوحٍ كَانَ كَافِرًا، فَأَخْرَجَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ صُلْبِ أَبِيهِ آزَرَ، وَأَخْرَجَ اللَّهُ ابْنَ نُوحٍ مِنْ صُلْبِ نُوحٍ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَي: تُعْطِي مَنْ تَشَاءُ مِنْ فَضْلِكَ أَنْوَاعًا مِنَ الرِّزْقِ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَرُبَّمَا يَرْزُقُ اللَّهُ الْمَرْءَ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وَلَا أَحَدٌ يَمْلِكُ مَا ذَكَرَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ عَزَّوَجَلَّ.

في هذه الآية حكم وفوائد عظيمة، منها:

١ - بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِإِذْخَالِ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ، وَإِذْخَالِ النَّهَارِ عَلَى اللَّيْلِ، وَهَذَا لَا يَسْتَطِيعُهُ أَحَدٌ.

٢ - بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَهُوَ إِخْرَاجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَإِخْرَاجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ، وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَقْلِبُ الظُّلْمَةَ نُورًا إِذَا أَدْخَلَ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ، وَالنُّورَ ظُلْمَةً إِذَا أَدْخَلَ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ.

٣ - أَنَّ الْعَطَاءَ وَالْفَضْلَ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

٤ - إِثْبَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾، وَلَكِنْ اْعْلَمْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُ - أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَيْسَتْ مَشِيئَةً مُجَرَّدَةً عَنْ حِكْمَةٍ، بَلْ مَشِيئَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَابِعَةٌ لِحُكْمَتِهِ، فَإِذَا كَانَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَقْتَضِي إِيجَادَ الشَّيْءِ أَوْ جَدَهُ اللَّهُ، وَإِذَا كَانَتْ تَقْتَضِي إِعْدَامَهُ أَعْدَمَهُ اللَّهُ، وَإِذَا كَانَتْ تَقْتَضِي تَغْيِيرَهُ غَيَّرَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ رَزَقَ اللَّهُ دَلِيلٌ عَلَى رِضَاهُ عَنِ الْعَبْدِ، أَوْ دَلِيلٌ عَلَى سَخَطِهِ عَلَى الْعَبْدِ، أَوْ لَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى هَذَا وَلَا عَلَى هَذَا؟

فَالْجَوَابُ: إِنْ كَانَ الْعَبْدُ مُقِيمًا عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَهُ اسْتِدْرَاجٌ، يُمْلِي لَهُ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۚ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣]، وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، وَتَلَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] ^(١)، فَإِذَا رَأَيْتَ أَنَّ اللَّهَ أَغْدَقَ لَكَ الرِّزْقَ بِالْأَمْوَالِ، وَالْأَهْلِ، وَالْبَنِينَ، وَالْجَاهِ، وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ، وَأَنْتَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا اسْتِدْرَاجٌ، وَأَنَّ مَالَكَ الْحَسَارَةَ وَالْهَلَاقُ وَالشَّقَاءُ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ رِزْقُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مَعَ اسْتِقَامَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى دِينِ اللَّهِ فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى رِضَا اللَّهِ عَنِ الْعَبْدِ، دَلِيلٌ هَذَا: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «مَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ سِوَى ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» ^(٢)، فَانْتَبِهْ -يَا أَخِي- لِنَفْسِكَ، إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ أَغْدَقَ عَلَيْكَ النِّعَمَ فَاظْطَرَّ مَاذَا تُقَابِلُ هَذِهِ النِّعَمَ؟ أَتُقَابِلُهَا بِالْعِصْيَانِ، فَهَذَا اسْتِدْرَاجٌ، أَمْ بِالشُّكْرِ، فَهَذَا زِيَادَةٌ وَفَضْلٌ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، رَقْمُ (٤٦٨٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، رَقْمُ (٢٥٨٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْبِرِّ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، رَقْمُ (٢٥٧٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا جَمِيعًا مِنَ الشَّاكِرِينَ عَلَى النِّعَمَاءِ، الصَّابِرِينَ عَلَى
الْبُلُوَاءِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.

••❦••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ
اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨)
قَوْلُهُ: ﴿لَا يَتَّخِذِ﴾ هَذَا نَهْيٌ، وَمَعْنَاهُ: يَجْعَلُ، وَ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ فَاعِلٌ ﴿يَتَّخِذِ﴾،
وَ﴿الْكَافِرِينَ﴾ مَفْعُولُهَا، أَي: لَا يَجُوزُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿يَتَوَلَّوْنَهُمْ بِالْمُعْوَنَةِ وَالنُّصْرَةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَيَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ، وَيَدْعَوْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا أَسْبَابٌ، مِنْهَا: أَنَّهُ فِي نَظَرٍ كَثِيرٍ مِنْ ذَوِي النَّظَرِ الْقَاصِرِ إِذَا
رَأَى تَفَوُّقَ الْكَافِرِينَ فِي الْأُمُورِ الْمَادِّيَّةِ -وهي الْأُمُورُ الدُّنْيَوِيَّةُ- أَعْرَضَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ،
وَجَعَلَ وَجْهَهُ إِلَى الْكَافِرِينَ، فَيَكُونُ اتِّخَاذُهُ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ سَبَبُهُ أَنَّهُ
انْبَهَرَ بِمَا لَدَى الْكَافِرِينَ مِنَ الْقُوَى الْمَادِّيَّةِ، فَاتَّجَهَ إِلَيْهِمْ، وَنَسِيَ إِخْوَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أَي: مَنْ يَتَّخِذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا قِيَمَةَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَلَا عَهْدَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ،
وَلَا ذِمَّةَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ.

قَالَ: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً﴾ يَعْنِي: إِلَّا فِي حَالٍ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ،
وَتَعْمَلُونَ مَا تَتَّقُونَ بِهِ شَرَّهُمْ، دُونَ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ، وَعَلَى هَذَا فَالاسْتِثْنَاءُ هُنَا

مُنْقَطِعٌ، يَعْنِي: لَكِنْ إِذَا اتَّقَيْتُمْ مِنْهُمْ ثِقَاةً فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ مِنْ دُونِ أَنْ تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أَي: يُخَوِّفُكُمْ وَيُنْذِرُكُمْ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا نَفْسَهُ أَنْ يُعَاقِبَكُمْ، إِمَّا عَاجِلًا وَإِمَّا آجِلًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾، أَي: الْمَرْجِعُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ، فَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي شَرْعِهِ، وَيَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي قَدَرِهِ عَزَّجَلَّ، يَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالشَّرْعِ، وَيَحْكُمُ فِي الْعِبَادِ بِالْقَدَرِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١- تَحْرِيمُ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَالْأَصْلُ فِي النَّهْيِ: التَّحْرِيمُ، لَأَسِيًّا وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَرَّرَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَتَّخِذُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المتحنة: ١]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَتَّخِذُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

٢- وَجُوبُ مُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذِهِ الْمُوَالَاةُ هِيَ الْحَقِيقَةُ الثَّابِتَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، ثُمَّ فَصَّلَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْوِلَايَةِ، فَقَالَ: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١].

٣- عُقُوبَةُ مَنْ اتَّخَذَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ، فَيُوكَلُّ إِلَيْهِمْ، أَي: إِلَى هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ، وَمَنْ وُكِّلَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ.

٤- جَوَازُ مُدَارَاةِ الْكُفَّارِ عَلَى وَجْهِ لَا يَصِلُ إِلَى الْمَوَالَاةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَةً﴾، وَكَمَا ذَكَرْنَا فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ الْاسْتِثْنَاءَ هُنَا مُنْقَطِعٌ، أَي: أَنَّ هَذِهِ التَّقَاةَ لَيْسَتْ مِنَ الْوَلَايَةِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا.

٥- تَحْذِيرُ اللَّهِ تَعَالَى الْعِبَادَ نَفْسَهُ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ إِذَا عَصَوْا اللَّهَ عَزَّجَلَّ بِاتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، سِوَاءَ كَانَتِ الْعُقُوبَةُ عَاجِلَةً أَمْ آجِلَةً.

٦- أَنَّ مَرْجِعَ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ شَرْعًا وَقَدَرًا، أَمَّا الشَّرْعُ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وَأَمَّا الْقَدَرُ فَلِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (١٩) وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ ﴿[القمر: ٤٩-٥٠].

ولهذا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِزَاءَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ أَنْ يَرْضَى وَيُسَلِّمَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَأَلَّا يَتَسَخَّطَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، وَأَلَّا يَتَحَكَّمَ عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ عَزَّجَلَّ.

وَفِي مَقَامِ الشَّرْعِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ التَّحَاكُمُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ فِيهَا حَكَمَ اللَّهِ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ هَذَا.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُحَكَّمِينَ لَشَرِيعَتِهِ، الرَّاضِينَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿قُلْ إِنْ تُحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩)

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ﴾ أَي: يَا مُحَمَّدُ، أَوْ قُلْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ لِغَيْرِكَ: ﴿إِنْ تُحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾، وَالْمُرَادُ بِمَا فِي الصُّدُورِ: مَا أَضْمَرَهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَدًا ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ أَي: تُظْهِرُوهُ وَتُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ، إِمَّا لِلأَقْرَبِينَ أَوْ لِلأَقْرَبِينَ وَالْأَبَاعِدِ، أَوْ لِلأَبَاعِدِ دُونَ الْأَقَارِبِ ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾، فَيَعْلَمُ جَلَّ وَعَلَا مَا أْبْدَاهُ الْإِنْسَانُ وَمَا أَخْفَاهُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]، أَي: مَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ.

قَالَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِمَّا لَا يُحِيطُ بِهِ الْإِنْسَانُ عِلْمًا، وَلَا يُبْدِيهِ، وَلَا يُخْفِيهِ، بَلْ وَلَا يَعْلَمُهُ، وَ﴿مَا﴾ هُنَا اسْمٌ مَوْصُولٌ بِمَعْنَى: الَّذِي، وَالْأَسْمَاءُ الْمَوْصُولَةُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ تُفِيدُ الْعُمُومَ، أَي: يَعْلَمُ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مِنْ أَعْيَانٍ، وَأَوْصَافٍ، وَأَحْوَالٍ، وَتَغْيِرَاتٍ، وَكُلِّ شَيْءٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي: فَاعِلٌ لِكُلِّ مَا أَرَادَهُ بِلا عَجْزٍ عَزَّجَلَّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفٌ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وَخَتَمَ الْآيَةَ بِهَذَا الْاسْمِ الْكَرِيمِ (القدير) بَعْدَ ذِكْرِ الْعِلْمِ؛ لِيُبَيِّنَ عَزَّجَلَّ أَنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، قَدِيرٌ عَلَى أَنْ يُغَيِّرَ مَا فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مِمَّا أَخْفَاهُ، وَمَا فِي جَوَارِحِهِ وَلِسَانِهِ مِمَّا أْبْدَاهُ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: بِنَقْضِ الْعَزَائِمِ، وَصَرْفِ الْهِمَمِ. وَهَذَا أَعْرَابِيٌّ عَجِيبٌ

استَدَلَّ بِشَيْءٍ كُلُّ يُدْرِكُهُ: نَقَضِ الْعَزَائِمِ، وَصَرَفِ الْهِمَمِ.

وَنَقَضِ الْعَزَائِمِ هُوَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْزِمُ عَلَى الشَّيْءِ وَإِذَا بِهِ يَتَرَجَّعُ، إِمَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَإِمَّا بِالتَّدْرُجِ بَدُونِ أَنْ يَقُولَ لَهُ أَحَدٌ شَيْئًا، لَكِنَّ اللَّهَ نَقَضَ عَزِيمَتَهُ.

وَصَرَفِ الْهِمَمِ: أَنْ يَهْمَّ الْإِنْسَانُ بِالشَّيْءِ، وَإِذَا بِهِ يَنْصَرِفُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، مِثْلُ: أَنْ يَهْمَّ الْإِنْسَانُ بِالتَّجَارَةِ فِي الْأَوَانِي، وَإِذَا بِهِ يَنْصَرِفُ إِلَى التَّجَارَةِ فِي الْعَقَارِ، بَدُونِ أَنْ يَتَكَلَّمَ مَعَهُ أَحَدٌ.

وَقِيلَ لِآخَرَ: بِمَ عَرَفْتَ اللَّهَ؟ فَقَالَ: الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَالْأَثَرُ يَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءُ ذَاتِ أَجْرَاجٍ، وَأَرْضُ ذَاتِ فِجَاجٍ، وَبِحَارُ ذَاتِ أَمْوَاجٍ، أَلَا تَدُلُّ عَلَى السَّمِيعِ الْبَصِيرِ؟!

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حِكْمٌ وَفَوَائِدُ عَظِيمَةٌ، مِنْهَا:

١- إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِكُلِّ شَيْءٍ مِمَّا فِي نَفُوسِ الْعِبَادِ، سِوَاءِ أَبَدَوْهُ أَمْ أَخْفَوْهُ، وَكَذَلِكَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَاللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِهِ عِلْمًا.

٢- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُرَاقِبَ اللَّهَ تَعَالَى فِيمَا يُضْمِرُهُ، فَإِنَّهُ لَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ الْمَعْصِيَةَ سِرًّا فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَيَنْسَى أَنَّ اللَّهَ رَقِيبٌ عَلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ.

٣- أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى إِخْفَاءِ الشَّيْءِ وَإِظْهَارِهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُظْهَرَ مَا الْحِكْمَةُ فِي إِخْفَائِهِ، وَلَا أَنْ يُخْفَى مَا الْحِكْمَةُ فِي إِظْهَارِهِ، وَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ، وَاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ، وَاخْتِلَافِ

الْأَزْمَانِ، واختِلَافِ الْأَمْكِنَةِ، فَلْيُلَاحِظِ الْإِنْسَانُ هَذَا، فَأَحْيَانًا يَكُونُ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ تُبْدِيَ مَا فِي نَفْسِكَ، وَأَحْيَانًا يَكُونُ مِنَ الْحِكْمَةِ إِخْفَاءُ مَا فِي نَفْسِكَ.

ولكن إذا تَوَرَّطْتَ، وأُجْبِرْتَ على أَنْ تُبْدِيَ مَا فِي نَفْسِكَ، وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الْحِكْمَةَ عَدَمُ إِبْدَائِهِ، فَمَاذَا تَصْنَعُ؟

الجواب: أَنْ تُؤَوَّلَ وَتُورِّيَ فِي الْكَلَامِ، فَتَنْوِيَ فِي قَلْبِكَ خِلَافَ ظَاهِرِ اللَّفْظِ، مِثَالُ ذَلِكَ: قَالَ لَكَ رَجُلٌ: احْلِفْ لِي أَلَّا تُخْبِرَ عَنِّي بِمَا رَأَيْتَ مِنِّي مِنَ الْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ. وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَوْ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّكَ لَوْ لَمْ تَحْلِفْ لِأَصَابِكَ بِسُوءٍ، فَمَاذَا تَصْنَعُ؟

نقول: احْلِفْ لَهُ، وَتَأَوَّلْ، فَتَنْوِيَ بِقَلْبِكَ أَلَّا تُخْبِرَ بِهِ الْيَوْمَ، وَأَنْتَ مَظْلُومٌ إِذَا رَأَيْتَ أَنَّ الْحِكْمَةَ إِبْدَاؤُهُ وَإِظْهَارُهُ، وَهَذَا يُرِيدُ أَلَّا تُبْدِيَ وَلَا تُظْهِرَ، أَوْ تَنْوِيَ أَلَّا تُخْبِرَ بِهِ زَيْدًا مِنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّكَ لَا تَرَى فَائِدَةً فِي إِخْبَارِ زَيْدٍ، وَلَكِنْ تَرَى فَائِدَةً فِي إِخْبَارِ وُلاةِ الْأُمُورِ.

٤- عُمُومُ عِلْمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَعِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، فَالْجُمْلَةُ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَالتَّفْصِيلُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

٥- إِبْطَاتُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وَيَتَفَرَّغُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّكَ مَتَى عَلِمْتَ قُدْرَةَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَلَنْ تَيَاسَسَ مِنْ رَحْمَتِهِ؛ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعَيِّرَ.

فَلَنَضْرِبَ لَهُذَا مَثَلًا بِرَجُلٍ مَرِيضٍ، طَالَ بِهِ الْمَرَضُ، فَأَتَتْكَ جِسْمُهُ، فَقِيلَ لَهُ:
ادْعُ اللَّهَ. فَقَالَ: لَا، قَدْ انْتَهَى الْأَمْرُ. فَنَقُولُ: هَذَا غَلَطٌ، بَلْ ادْعُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، فَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَلَمَّا قَالَ زَكَرِيَّا: ﴿رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ أُمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ
مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ
وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿[مريم: ٨-٩]، فَفَكَّرَ فِي نَفْسِكَ أَوَّلًا، فَإِنَّكَ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا، فَأَوْجَدَكَ
اللَّهُ، إِذْنًا، هَذَا الَّذِي أَصَابَكَ -أَيُّهَا الْأَخ- مِنَ الْمَرَضِ لَمْ يَكُنِ الْمَرَضُ شَيْئًا مِنْ قَبْلُ،
وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى رَفْعِهِ بَعْدَ وُجُودِهِ، فَلَا تَيَاسَسْ، وَعَلَيْكَ بِالصَّبْرِ، وَانْتَظِرِ الْفَرَجَ فِيمَا
أَصَابَكَ مِنَ الْمَصَائِبِ، فَإِنَّهُ مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ، وَاعْلَمْ أَنَّ
النَّصَرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُتَحَصِّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ
بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٠)

قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾ ظَرَفُ زَمَانٍ عَامِلُهُ مَحْذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: اذْكُرْ يَوْمَ تَجِدُ،
أَوْ اذْكُرُوا يَوْمَ تَجِدُ، وَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي تَجِدُ فِيهِ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ،
﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُتَحَصِّرًا﴾ أَي: حَاضِرًا لَدَيْهَا، مَكْتُوبًا بِصَحَائِفِ
الْأَعْمَالِ، يُؤْتَى الْمُؤْمِنُ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ -أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ- فَيَقْرَحُ بِهَذَا
الْكِتَابِ الَّذِي قَرَأَهُ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾ يَعْنِي: خُذُوا أَقْرَأُوا كِتَابِي؛

فَرِحًا بِذَلِكَ، ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠]، أي: أَقْبَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ، يَجِدُهُ مُحْضَرًا، فَيَفْرَحُ وَيُسَرُّ وَيَبْتَهِجُ، وَيُنَادِي النَّاسَ: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾.

قال: ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ﴾ (ما) مُبْتَدَأٌ، وليست مَعْطُوفَةٌ عَلَى (ما) الْأُولَى، يَعْنِي: وَالَّذِي عَمِلْتَ مِنَ السُّوءِ ﴿تَوَدُّ﴾ أي: النَّفْسُ ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ﴾ أي: وبين ما وَجَدْتَ مِنْ سُوءٍ ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: زَمَنًا بَعِيدًا، فلم يُدْرِكْهَا، ولم تُدْرِكْهُ، وَلَكِنْ هَلْ يَنْفَعُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كُتِبَ، وَجَاءَ وَقْتُ الْجَزَاءِ؟

الجواب: إِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُهُ، وَإِلَّا فَهُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ.

وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أعَادَ ذَلِكَ -أي: تَحْذِيرَ اللَّهِ نَفْسَهُ عِبَادَهُ- لِأَهْمِيَّةِ الْأَمْرِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ أَنْ يَحْذَرَ عُقُوبَةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ إِذَا خَالَفَ اللَّهَ. وقوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ الرَّأْفَةُ: أَشَدُّ الرَّحْمَةِ وَالْيَنُوهَا، وَالْعِبَادُ: هُمُ الْخَلْقُ، فَهُوَ عَزَّجَلَّ رَءُوفٌ بِعِبَادِهِ عُمُومًا، يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَاءَ، وَيَرْزُقُهُمُ النِّعَمَاءَ، وَيُلَطِّفُ بِهِمْ، لَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَرَى هَذِهِ النِّعْمَةَ، فَيُنِيبُ إِلَى رَبِّهِ وَيَشْكُرُهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ.

في هذه الآية الكريمة فوائد وأحكام عظيمة، منها:

١- أَنَّ كُلَّ مَا عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ خَيْرٍ سَيَجِدُهُ حَاضِرًا، سواء كان في حَقِّ اللَّهِ أَوْ حَقِّ الْعِبَادِ، وسواء كان مَالِيًّا أَوْ بَدَنِيًّا أَوْ جَامِعًا بَيْنَ الْبَدَنِ وَالْمَالِي، فَأَيُّ خَيْرٍ عَمِلَهُ سَيَجِدُهُ مُحْضَرًا.

٢- كَمَا أَلَّا عَدَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ؛ حَيْثُ لَمْ يَظْلِمْ أَحَدًا حَسَنَةً وَاحِدَةً مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْعُمُومِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَمِلْتَ﴾.

٣- أَنْ عَامِلَ الشُّوْءِ يَتَمَنَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَوَدُّ بِكُلِّ قَلْبِهِ، أَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشُّوْءِ أَمَدًا بَعِيدًا، وَلَكِنْ أَنَّى لَهُ ذَلِكَ، وَقَدْ انْتَقَلَ مِنْ دَارِ الْعَمَلِ إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ؟! وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ إِلَّا يَكُونُ ارْزَادًا، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ إِلَّا يَكُونُ اسْتَعْتَبٌ»^(١).

٤- التَّحْذِيرُ مِنَ عَمَلِ الشُّوْءِ، وَالْحَثُّ عَلَى عَمَلِ الْخَيْرِ مَا دَامَ الْإِنْسَانُ فِي رَمَنِ الْإِمْهَالِ، وَالطَّرِيقُ مَفْتُوحًا، وَالْعَمَلُ مُتَسِّرًا، قَبْلَ أَنْ يَنْدَمَ حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، أَعَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

٥- شِدَّةُ فِرَارِ أَصْحَابِ الشُّوْءِ مِمَّا أَسَاؤُوا بِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾، فَعَلِيهِمْ أَنْ يَتَذَكَّرُوا هَذِهِ الْحَالِ حَتَّى يَخْلُصُوا مِنْهَا.

٦- الْحَذَرُ مِنْ مُخَالَفَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، فَاحْذَرُوا - يَا أَخِي - احْذَرُوا رَبَّكَ عَزَّجَلَّ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَلَا تَقَعُ فِي مُخَالَفَتِهِ، وَلَا يَفْقِدُكَ حَيْثُ أَمَرَكَ، وَلَا يَجِدُكَ حَيْثُ نَهَاكَ.

٧- إِبْطَاتُ الرَّأْفَةِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ بِعِبَادِهِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنْ تَتَعَرَّضَ لِمَا فِيهِ رَأْفَةُ اللَّهِ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرَأْفَ بِنَا فِي قَضَائِهِ، وَأَنْ يُعِيدَنَا مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ، وَشُوءِ الْعَمَلِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٤٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُخَاطَبَ قَوْمًا يَدْعُونَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ، فقال له: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وهذه الآية تُسَمَّى عِنْدَ السَّلَفِ: آيَةُ الْمِحْنَةِ، يَعْنِي: آيَةُ الْاِخْتِبَارِ.

فَمَنْ كَانَ صَادِقًا فِي كَوْنِهِ يُحِبُّ اللَّهَ فَلْيَتَّبِعِ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَبِقَدْرِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ تَكُونُ الْمَحَبَّةُ.

وَأَثَابُ الْاِتِّبَاعِ لَيْسَ ثُبُوتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُحِبُّ اللَّهَ فَحَسَبُ، بَلْ غَايَةُ شَرِيفَةٍ عَظِيمَةٍ، وَهِيَ أَنْ يُحِبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ، فَقَالَ: ﴿يُحِبِّبْكُمُ اللَّهُ﴾، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْآيَةَ وَجَدْتَ أَنَّ هُنَاكَ اخْتِلَافًا بَيْنَ الشَّرْطِ وَالْمَشْرُوطِ، فَالشَّرْطُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾، وَالْمَشْرُوطُ: ﴿يُحِبِّبْكُمُ اللَّهُ﴾، دُونَ أَنْ يُقَالَ: تَصَدَّقُوا فِي دَعْوَاكُمْ؛ لِأَنَّ الشَّأْنَ كُلَّ الشَّأْنِ أَنْ يُحِبَّكَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أَي: يَسْتُرُهَا مَعَ الْعَفْوِ، وَالذُّنُوبُ هِيَ: الْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ الَّتِي يُعَاقَبُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَي: ذُو مَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾

[الأنعام: ١٣٣].

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أنها لا تُقبل الدَّعوى إِلَّا بَيِّنَةٍ، وَإِلَّا لَادَّعَى كُلُّ إِنْسَانٍ مَا يُرِيدُ، ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ أُعْطِيَ النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى رِجَالٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَى الْمُدَّعِي»^(١).

٢- أن من عَلاماتِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ تَحْقِيقَ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾.

٣- أن اتِّبَاعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- سَبَبٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ، أَيْ: لِكَوْنِ اللَّهِ يُحِبُّكَ.

ويتفرَّعُ على هذا: أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِلْعَبْدِ تُبَدِّلُ لَهَا نَفَائِسُ الْأَمْوَالِ وَالْأَزْمَانِ وَالْأَرْوَاحِ؛ لِأَنَّهَا هِيَ غَايَةُ كُلِّ إِنْسَانٍ.

٤- إثباتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ وَيُحِبُّ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

والمَحَبَّةُ مِنَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ وَمِنَ الْعَبْدِ لِلَّهِ ثَابِتَةٌ حَقِيقَةٌ عَلَى ظَاهِرِهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَيُثَبِّتُونَ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ، وَأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ، وَمَحَبَّةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَتَعَلَّقُ بِالْأَعْمَالِ، وَالْأَزْمَانِ، وَالْأَمَاكِينِ، وَالرَّجَالِ.

فتتعلَّقُ بِالْأَعْمَالِ مِثْلُ: قَوْلِهِ ﷺ فِي عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ الْأُولَى: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٥٢/١٠)، وأصله في صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، رقم (٤٥٥٢)، ومسلم: كتاب الأفضية، باب اليمين على المدعى عليه، رقم (١٧١١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعُشْرِ»^(١)، وكحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَفْتِهَا»^(٢).

وتتعلق بالأماكن مثل: قول النبي ﷺ في مكة: «إِنَّكَ لَأَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللَّهِ»^(٣)، وكذلك قوله: «أَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا»^(٤).

وتتعلق بالعامل مثل: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في آيات كثيرة: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وما أشبه ذلك، وهي محبة حقيقية، وقال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- في أُحُدٍ: «إِنَّهُ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»^(٥)، فَأَثَبَتِ النَّبِيُّ ﷺ محبة الجبل.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصيام، باب في صوم العشر، رقم (٢٤٣٨)، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر، رقم (٧٥٧)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب صيام العشر، رقم (١٧٢٧)، وأحمد (١/٢٢٤)، وأصله في صحيح البخاري، كتاب العيدين باب فضل العمل في أيام التشريق، رقم (٩٦٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (١٣٧/٨٥).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل مكة، رقم (٣٩٢٥)، وابن ماجه: كتاب المناقب، باب فضل مكة، رقم (٣١٠٨)، وأحمد (٤/٣٠٥) من حديث عبد الله بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب فضل الجلوس في مصلاه، رقم (٦٧١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، رقم (٤٤٢٢)، وفي باب أحد يحبنا ونحبه، رقم (٤٠٨٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٢) (١٣٩٣) من حديث أبي حميد وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥- أَنْ اتَّبَعَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - سَبَبٌ لِمَغْفِرَةِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ؛
لِقَوْلِهِ: ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

٦- إثبات هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وهُمَا: الْغَفُورُ، الرَّحِيمُ.
فَبِمَغْفِرَتِهِ يَغْفُو عَنِ الذُّنُوبِ، وَبِرَحْمَتِهِ يُوقُّ مَنْ شَاءَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ.

••❦••

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٢)

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ﴾ أَي: يَا مُحَمَّدٌ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أَي: انْقَادُوا لِطَاعَتِهِ، بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ،
وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ﴿وَالرَّسُولَ﴾ يَعْنِي: مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -،
ف: (أَل) لِلْعَهْدِ الْمَعْلُومِ بِالذَّهْنِ؛ إِذْ لَا رَسُولَ بَعْدَ بَعْتِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى
آلِهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا الرَّسُولَ.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَي: أَعْرَضُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾،
يَعْنِي: فَهُمْ كُفَّارٌ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١- وَجُوبُ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، وَالْأَصْلُ
فِي الْأَمْرِ: الْوُجُوبُ، خُصُوصًا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعِبَادَاتِ، إِلَّا أَنْ يَدُلَّ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لِيُغَيَّرَ
الْوُجُوبُ.

٢- أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، فيكون الله تعالى أمراً بطاعته وطاعة رسوله، وقد صرح الله بذلك في قوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

٣- أن النبي ﷺ رسول الله حقاً، ولهذا أمر الله تعالى بطاعته.

٤- أن من تولى عن طاعة الله ورسوله فله غيبي عنه، لا يبالي الله به بالة.

٥- أن الله لا يحب الكافرين.

٦- أن الله تعالى لا تنتفي محبته عن المؤمنين؛ لأنها إنما انتفت محبته عن الكافرين لكفرهم، فالمؤمن لا تنتفي محبة الله عنه، بل لو قيل: إن في هذا إثبات محبة الله عز وجل للمؤمنين؛ لأنه ما نفى محبته للكافرين إلا ليثبت محبته للمؤمنين.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً من أحبائه وأوليائه، وأن يتولانا في الدنيا والآخرة في حياتنا وقبورنا ومبعثنا؛ إنه على كل شيء قدير.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٣﴾ ذُرِّيَّةٌ
بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ﴾ يعني: اختار، مأخوذة من الصفوة، وهي: خيار الشيء
﴿آدَمَ﴾ هو أبو البشر، خلقه الله تعالى من طين، ونفخ فيه من روحه، وبارك في عقبه،
وآدم هو الأب الأول للبشرية ﴿وَنُوحًا﴾ هو الأب الثاني للبشرية؛ كما قال تعالى:
﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْقَابِقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وإنما كان الأب الثاني؛ لأن الله تعالى أهلك من في الأرض ممن كذبوه وكفروا به، ولم يبق إلا ذريته، على أن أحد أبنائه كان كافراً، فهلك بالغرق.

وقوله تعالى: ﴿وَالْإِسْرَافِيَّةُ﴾ يعني: إبراهيم وذريته، وهو -أي: إبراهيم عليه السلام- أبو الأنبياء، الذي أمر النبي ﷺ باتباع ملته، فقال جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقوله: ﴿وَالْعِزَّةُ﴾ هو أبو موسى، وموسى أشرف أنبياء بني إسرائيل.

اصطفى الله هؤلاء الأربعة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، يعني: على الخلق، وسُمي الخلق عالماً؛ لأنهم علم على خالقهم عز وجل، فهم من آيات الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وما أودع الله فيهم من العقول والذكاء والتفكير كله من آيات الله عز وجل، وكذلك المخلوقات الأخرى فيها من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته وحكمته ما تتوقف العقول عن إدراكه.

قال الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ بدل مما سبق ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ يعني: ليس لأحد فضل على الآخر، فبعضهم من بعض، وهذا باعتبار الأصل، وإلا فقد يتفاضلون باعتبار أخرى؛ كما في الحديث عن النبي ﷺ، أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(١).

(١) أخرجه بنحوه مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، رقم (٢٢٧٦) من حديث وائلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لكل صَوْتٍ، سواء كان قولاً أو غيرَهُ، ﴿عَلَيْمٌ﴾ بكلِّ شيءٍ.

في الآية الأولى من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - إِبْنَاتُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِيَدِهِ الْأُمُرُ كُلُّهُ، يَصْطَفِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَجْعَلُ الْآخَرَ مَفْضُولًا، وهذا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فاصْطَفَى مِنْ بَنِي آدَمَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، فَهُوَ الصَّفْوَةُ مِنْ بَنِي آدَمَ كُلِّهِمْ، وَاصْطَفَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاصْطَفَى مِنَ الْبِقَاعِ مَكَّةَ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

٢ - إِبْنَاتُ هَؤُلَاءِ الْأَبَاءِ الْكَرَامِ: آدَمَ، وَنُوحَ، وَإِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

٣ - نِعْمَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى بَنِي آدَمَ؛ حَيْثُ اصْطَفَاهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

٤ - فَضِيلَةُ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ؛ حَيْثُ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ:

١ - أَنَّ هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، لَا فَضْلَ لِأَحَدٍ عَلَى الْآخَرِ إِلَّا بِالتَّقْوَى، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ^(١)، وَيَتَفَاضَلُونَ فِي أُمُورٍ أُخْرَى حَسَبَ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤١١/٥).

٢- إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: (السميع) و(العليم)، فبالسمع لا يفوته شيء من الأصوات، وبالعلم لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السموات.

٣- الحذر من أن يُسمع الإنسان ربه ما لا يرضاه، أو أن يعمل ما لا يرضاه؛ لأن الله يسمعه ويعلمه، فلا مفر من الله عز وجل، فالواجب على الإنسان: أن يخشى ربه عز وجل في السر والعلانية، وفي الشدة والرخاء، وفي جميع الأحوال بقدر استطاعته.



ثم ذكر الله تبارك وتعالى قصة مريم عليها السلام وزكريا عليه السلام، فقال عز وجل:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٥)

قوله: ﴿إِذْ﴾ المعنى: اذكر يا محمد للأمة ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ تعني: الحمل الذي في بطنها ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: من قيد الاستخدام الخاص، ولكنه محرر لله عز وجل في عبادة الله تبارك وتعالى ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ أي: قبل مني هذا النذر، وهي إنما أرادت بذلك الثواب ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ ليأقول ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالي.

ففي هذا من الفوائد ما يلي:

١- فضيلة امرأة عمران رضي الله عنها؛ حيث نذرت لله هذا النذر؛ ليقوم ما في حملها بخدمة بيوت الله، وبطاعة الله عز وجل.

٢- جواز النذر في الشيء المُبهم، فلو قال قائل: لله علي نذر أن أتصدق بما في بطني هذه البعير. فلا بأس به، ويتصدق به إذا وضعته.

وَرُبَّمَا يُؤْخَذُ مِنْهُ أَيْضًا فَائِدَةٌ أُخْرَى، وهي: جَوَازُ هِبَةِ الْمَجْهُولِ، مِثْلُ: أَنْ يَقُولَ لِشَخْصٍ: وَهَبْتُكَ مَا فِي بَطْنِ هَذِهِ الْحَامِلِ. أَيْ: الْبَعِيرِ أَوِ الشَّاةِ أَوِ الْبَقَرَةِ، أَوْ يَقُولَ: وَهَبْتُ لَكَ سَاعَتِي الضَّائِعَةَ. أَوْ يَقُولَ: وَهَبْتُ لَكَ جَمَلِي الشَّارِدَ. أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْهِبَةَ لَيْسَتْ مُعَاوَضَةً يَجْرِي فِيهَا الْمَيْسِرُ، بَلْ هِيَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَوْهُوبُ لَهُ غَانِيًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ سَالِمًا، وَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْمَيْسِرِ.

٣- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ إِذَا فَعَلَ طَاعَةً أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى قَبُولَهَا، وَلَا يُعْجَبَ بِنَفْسِهِ، وَيَقُولَ: عَمِلْتُ عَمَلًا صَالِحًا، فَسَيُقْبَلُ. لِأَنَّهُ لَا يَذْرِي، فَلَعَلَّ هُنَاكَ مَانِعًا مِنَ الْقَبُولِ لَا يُحِسُّ بِهِ.

وَانْظُرْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حِينَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَقَالَا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وَانْظُرْ إِلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- حَيْثُ كَانَ إِذَا ضَحَّى قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ»^(١)؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ إِذَا لَمْ يُقْبَلْ فَهُوَ تَعَبٌ جِسْمٍ وَضْيَاعٌ وَقَتٍ، وَإِذَا قُبِلَ فَهَا هِيَ الثَّمَرَةُ: الْحَسَنَةُ بَعَشْرَ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

٤- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ إِذَا عَمَلَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ أَنْ يَكُونَ خَائِفًا -أَنْ يَكُونَ فِي عَمَلِهِ تَقْصِيرٌ يَكُونُ سَبَبًا لِلرَّدِّ- رَاجِيًا ثَوَابَ اللَّهِ، حَيْثُ وَفَّقَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْقِيَامِ بِالْعَمَلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُوفِّقْهُ لِلْقِيَامِ بِهِ إِلَّا لِشَيْئِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْأَصْحَابِي، بَابُ اسْتِحْبَابِ اسْتِحْسَانِ الضَّحِيَّةِ، رَقْمُ (١٩٦٧) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٥- إثبات هَـذَيْنِ الاسْمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ: (السَّمِيع) و(الْعَلِيم)، وقد مَضَى الْكَلَامُ عَلَى مَعْنَاهُمَا.

وَالثَّمَرَةُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِذَيْنِ الْاسْمَيْنِ، وَمَا تَضَمَّنَاهُ مِنْ وَصْفِ السَّمْعِ فِي (السَّمِيعِ)، وَالْعِلْمِ فِي (الْعَلِيمِ)، مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَحْفَظُ لِسَانَهُ مِنْ قَوْلٍ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُهُ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَحْفَظُ حَالَهُ مِنْ أَنْ يُضْمِرَ فِي قَلْبِهِ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ، أَوْ يَفْعَلَ بِجَوَارِحِهِ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ، أَوْ يَقُولَ بِلِسَانِهِ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلِيمٌ، فَإِنَّكَ مَهْمَا كُنْتَ فَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكَ، حَتَّى لَوْ كُنْتَ فِي حُجْرَةٍ عَلَيْهَا مِثَاثُ الْجُدْرَانِ فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلِيمٌ بِكَ، حَتَّى إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي: فِي قُبُورِهِمْ ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ﴾ [ق:٤].



ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٣١)

قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أَي: مَا فِي بَطْنِهَا، وَلَا يُشْكِلُ عَلَيْكَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «فَلَمَّا وَضَعَتْهُ» مَعَ أَنَّ الضَّمِيرَ لِلْمُذَكَّرِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ؛ لِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ عَادَ إِلَى مَا فِي الْبَطْنِ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى، فَإِنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِي فِي بَطْنِهَا أُنْثَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾، وَكَأَنَّهَا تَعْتَذِرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ كَوْنِ الَّذِي فِي بَطْنِهَا أُنْثَى.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ هذا دَفْعُ تَوَهُّمٍ أَنْ يَكُونَ فِي قَوْلِهَا: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ إِعْلَامُ لِلَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ أُنْثَى، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ؛ لِيَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهَا: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ مِنْ بَابِ الْاِعْتِذَارِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

وقوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ يعني: ليس الذَّكَرُ فِي كَوْنِهِ مُحَرَّرًا يَخْدُمُ بُيُوتَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَيَقُومُ بِمَا يُرْضِي اللَّهَ عَزَّجَلَّ مِمَّا لَا تُطِيقُهُ الْإِنَاثُ، لَيْسَ كَالْأُنْثَى، فَالْأُنْثَى أَضْعَفُ وَأَكْثَرُ تَقْصِيرًا مِنَ الرَّجُلِ، هَذَا فِي الْغَالِبِ.

قالت: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ أَي: سَمَّيْتُ هَذِهِ الْأُنْثَى مَرْيَمَ ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أَي: أَلْتَجِئُ إِلَيْكَ فِي حِفْظِهَا وَعِصْمَتِهَا ﴿وَوَدَّرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ وَهُوَ شَيْطَانُ الْجِنِّ ﴿الرَّجِيمِ﴾ أَي: الْمَرْجُومُ الْمُبْعَدُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُعِذِ اللَّهُ الْعَبْدَ مِنَ الشَّيْطَانِ اسْتَوَلَى عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، فَأَضَلَّهُ؛ كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَعْبُدْ عَنِ الذِّكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧].

في هذه الآية فوائد وأحكام، منها:

١- أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَتِمَّ مَقْصُودُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ فَإِنَّهُ يَعْتَذِرُ مِنَ اللَّهِ، فَإِذَا قَدَرْنَا أَنَّهُ هُمْ بَطَاعَةٌ، ثُمَّ لَمْ يَتَسَرَّ لَهُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: رَبِّي إِنِّي نَوَيْتُ كَذَا، وَلَكِنْ حَصَلَ هَذَا الْعُذْرُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ أَسْبَابِ مَغْفِرَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

٢- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ فِيهِ إِيهَامٌ، أَنْ يَأْتِيَ بِمَا يَدْفَعُ هَذَا الْإِيهَامَ؛ حَتَّى لَا يَتَسَلَّطَ الشَّيْطَانُ عَلَى أَفْهَامِ الْمُخَاطَبِينَ بِمَا لَا يَلِيقُ، يُؤْخَذُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾.

٣- بيان الفرق بين الرجال والنساء في العمل والعقل والخلق وغير ذلك من الفوارق الظاهرة والباطنة، ولقد حاول يائساً من أراد أن يسوي بين الرجال والنساء، حتى كانوا يطلقون على الإسلام أنه دين التسوية.

والحقيقة أن الإسلام ليس دين التسوية، بل دين العدل، بمعنى: أنه يُعطي كل ذي حق حقه، وإلا فمن المعلوم أنه لا يمكن أن يسوي بين شيئين مختلفين اختلافًا يقتضي اختلاف الحكم، ولنضرب لهذا أمثالا كثيرة:

المثال الأول: الطهارة بالماء واجبة على القادر عليها الذي لا يتضرر بها، وعلى العاجز أو المتضرر ليست واجبة، بل يتيمم، فهذا فرق.

المثال الثاني: الصلاة قائما في الفريضة واجبة على القادر، وعلى غير القادر غير واجبة.

المثال الثالث: الزكاة على من يملك مالا زكويًا واجبة، وعلى من ليس عنده مال زكوي غير واجبة.

المثال الرابع: إعطاء الزكاة للفقير جائز، وللغني غير جائز.

المثال الخامس: الحج على القادر واجب، وعلى غير القادر غير واجب.

المثال السادس: الجهاد على الرجال واجب، وعلى النساء غير واجب.

وأشياء كثيرة تختلف فيها الرجال والنساء، ويختلف فيها المخالف في مقتضي الإيجاب أو التحريم.

وأكثر ما في القرآن نفى التسوية، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي

الظُّلُمْتُ وَالنُّورُ ﴿ [الرعد: ١٦]، ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: ١٨]، ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [الحديد: ١٠].

فلذلك نقول: إِنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ دِينُ تَسْوِيَةٍ. قد هَضَمَ الْإِسْلَامَ، بل الواجبُ أن يُقَالَ: إِنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ دِينُ عَدْلِ، كما أَمَرَ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ [النحل: ٩٠]، فَأَمَرَ بِأَشْيَاءَ، وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ.

وإنني بهذه المناسبة أودُّ ألاَّ يَتَلَقَّفَ إِخْوَانُنَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَوْ الْمُتَعَلِّمِينَ أَوْ الْأُدْبَاءِ أَوْ غَيْرِهِمْ، أَلَّا يَتَلَقَّفُوا الْكَلِمَاتِ مِنْ غَيْرِهِمْ حَتَّى يَعْرِفُوا مَذْلُولَهَا، وَهَلْ مَذْلُولُهَا صَحِيحٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ، أَوْ يَخْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ؟ وَهَلْ يَصِحُّ إِطْلَاقُهَا، أَوْ لَا يَصِحُّ؟

إِذَنْ، نَقُولُ: الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ دِينُ الْعَدْلِ، أَوْ نُقَيِّدُ، فنقول: دِينُ التَّسْوِيَةِ فِيهَا لَا تَقْتَضِي الْحَالُ فِيهِ التَّفَرُّقَةَ، وَأَمَّا عَلَى الْإِطْلَاقِ فَلَا.

٤ - التَّسْمِيَةُ مِنْ حِينَ الْوِلَادَةِ؛ لِقَوْلِهَا: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾، فَإِنَّ ظَاهِرَ الْقِصَّةِ أَنَّهَا سَمَّيْتُهَا حِينَ الْوَضْعِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي وَقَعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ وُلِدَ ابْنُهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ مَارِيَةِ الْقِبْطِيَّةِ، وَقَالَ لِأَهْلِهِ: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ وَلَدٌ، وَسَمَّيْتُهُ إِبْرَاهِيمَ»^(١)، فَلَا فَضْلَ: الْمُبَادَرَةُ بِتَسْمِيَةِ الْمَوْلُودِ إِذَا كَانَ الْاسْمُ قَدْ هُبِيَ، أَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ مُهَيَّأً عِنْدَ الْوِلَادَةِ فَلَا فَضْلَ أَنْ تُوجَلَ التَّسْمِيَةُ إِلَى الْيَوْمِ السَّابِعِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان، رقم (٢٣١٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُخْتَارَ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا هُوَ أَفْضَلُ، وَأَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ: عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ. كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(١).

وقد اشتهر عند العامة لفظ زعموه حديثاً، وهو: «خَيْرُ الْأَسْمَاءِ مَا مُحَمَّدٌ وَعَبْدٌ»^(٢)، وهذا ليس حديثاً، بل هو موضوع مكذوب على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والحديث الصحيح: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ: عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ».

ولا يحل للإنسان أن يُسمِّي ابنه بالأسماء الخاصة بالكفار؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(٣)، ولا شك أن الكفار يَفْخَرُونَ إِذَا سَمَّى الْمُسْلِمُونَ بِأَسْمَائِهِمْ، وَيَفْرَحُونَ، وَيُسَرُّونَ، وَنَحْنُ مَأْمُورُونَ بِأَنْ نَفْعَلَ مَا يَغِيظُ الْكُفَّارَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبَّئُوهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَتَّبِعُونَ فُضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، فكيف نفعل ما يُدْخِلُ السُّرُورَ عَلَيْهِمُ وَالْفَرَحَ؟!

(١) تقدم تخريجه (ص: ٤٩١).

(٢) انظر: الجدل الحديث فيما ليس بحديث (ص: ٩٤) رقم (١٥٠)، وكشف الخفاء (١/ ٣٩٠) رقم (١٢٤٥).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)، وأحمد (٢/ ٥٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولقد ضلَّ قومٌ انبَهَرُوا بما عليه الكُفَّارُ من التَّقَدُّمِ المادِّيِّ الدُّنيويِّ، وصاروا يَرَوْنَهُمْ في مَنزِلَةٍ عَالِيَةٍ رَفِيعَةٍ، مع أَنَّ اللهَ تَعَالَى قال في كِتَابِهِ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، فالمُسْلِمُ هو العَالِي على غَيْرِهِ من البَشَرِ الَّذِينَ ليسوا بِمُسْلِمِينَ، فليَعْرِفْ مَنزِلَتَهُ، وَلِيَرَفَعْ رَأْسَهُ عَالِيًا على الكُفَّارِ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ، وَيُعَلِّيَ كَلِمَتَهُ، وَأَنْ يُهَيِّنَ أَعْدَاءَهُ وَيُذِلَّهُمْ؛ إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٥- أَنَّ الإنسانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَدْعُوَ لِأَوْلَادِهِ بِمِثْلِ مَا دَعَتْ بِهِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ، فيقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُعِيدُ أَوْلَادِي بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»؛ لِمَا في ذَلِكَ من حِفْظِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلأَوْلَادِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لِلإنْسَانِ، يَتَحَيَّنُ الفُرْصَةَ الَّتِي يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْهَا، إِلَّا أَنْ يُعِيدَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ شَرِّهِ.

٦- أَنَّ الشَّيْطَانَ مَرْجُومٌ، أَي: مُبْعَدٌ مَطْرُودٌ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وقد قال اللهُ لَهُ: ﴿وَلَا يَنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨].



ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿فَنَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧)

قَوْلُهُ: ﴿فَنَقَبَلَهَا رَبُّهَا﴾ أَي: تَقَبَّلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْإُنْثَى ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، فَأَسْبَغَ عَلَيْهَا النِّعَمَ، وَأَعَاذَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَسَرَّ لَهَا زَكَرِيَّا كَافِلًا لَهَا، أَي:

ضَامًّا لَهَا إِلَى عِيَالِهِ، وَوَجَدَ فِيهَا شَيْئًا مِنَ الْكَرَامَاتِ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾
وَالْمِحْرَابُ هُوَ: مَوْضِعُ صَلَاتِهَا ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أَي: طَعَامًا، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ يَجِدُ
عِنْدَهَا فَاكِهَةً الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَفَاكِهَةً الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَكِنْ مَهْمَا
كَانَ هَذَا الرِّزْقُ الَّذِي يَأْتِيهَا، وَهِيَ امْرَأَةٌ فِي مِحْرَابِهَا، فَمِنْ أَيْنَ لَهَا هَذَا؟ فَيَقُولُ:
﴿أَنَّى لَئِبَ هَذَا﴾ أَي: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، كَرَامَةٌ لَهَا مِنَ اللَّهِ
عَزَّوَجَلَّ يُيسِّرُ اللَّهُ لَهَا هَذَا الرِّزْقَ الَّذِي أَسْبَابُهُ الْمُعْتَادَةُ غَيْرُ مَعْلُومَةٍ.

ثُمَّ بَيَّنَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، أَي: يُعْطِي الْعَطَاءَ مَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِغَيْرِ حِسَابٍ، أَي: بِغَيْرِ حُسْبَانٍ لَهُ، أَوْ الْمَعْنَى: بِغَيْرِ عَدَدٍ، وَكِلَاهُمَا
صَحِيحٌ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾
[الطلاق: ٣].

وفي الآية الكريمة من الفوائد والأحكام:

١ - استجابة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى للدُّعَاءِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ، وَذَلِكَ مِنَ الْعِلْمِ بِكَرَمِ
اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَفَضْلِهِ، وَإِحْسَانِهِ، فَهُوَ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِالْدُّعَاءِ
إِلَّا لِيُجِيبَهُمْ إِذَا تَمَّتْ شُرُوطُ الْإِجَابَةِ، وَلَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي
عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتَفَضَّلُ عَلَى عِبَادِهِ بِأَوْقَاتٍ تَكُونُ أُخْرَى بِالْإِجَابَةِ فِيهَا،
مِنْهَا: ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يُنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا

حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي، فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي، فَأَغْفِرَ لَهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»^(١).

ومنها: حال السجود، فقد قال النبي ﷺ: «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقِمْنَ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»^(٢)، وقال -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»^(٣).

ومنها: الدعاء بين الأذان والإقامة.

ومنها: الدعاء عشية يوم عرفة.

إلى غير ذلك من مواطن الدعاء أمكنة وأزمته، فعليك -يا أخي- بدعاء الله عز وجل، وألح عليه في الدعاء، وكُنْ حَال دُعَائِكَ نَاطِرًا إِلَى فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، لَا إِلَى ذُنُوبِكَ؛ حَتَّى لَا تَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

واذعُ الله دعاء مُفْتَقِرٍ لِمَنْ هُوَ مُسْتَعِينٌ عَنْكَ، اذعُ الله تعالى وأنت راجٍ مُحْسِنٌ لِلظَّنِّ بِرَبِّكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ بِهِ، وَلَا تَدْعُ بِإِثْمٍ، وَلَا بِقَطِيعَةِ رَحِمٍ.

٢- الإِشَادَةُ بِفَضْلِ مَنْ أَنْبَتَهُ اللَّهُ نَبَاتًا حَسَنًا، أَي: شَبَّ عَلَى شَبَابٍ حَسَنِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ

(١) تقدم تخريجه (ص: ٥١٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِي ظِلِّهِ يَوْمٌ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابُّ نَشَأٍ فِي طَاعَةِ اللَّهِ^(١).

ولهذا يُؤَمَّرُ الأولياءُ أَنْ يُرَبُّوا مَنْ وَلَّاهُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَهْلِ وَالصَّغَارِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَعَلَى الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ؛ حَتَّى يَكُونَ أَهْلُهُمْ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُمْ.

وَالْغَالِبُ أَنَّ مَنْ ضَيَّعَ حَقَّ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ ضَيَّعَ أَهْلُهُ حَقَّ اللَّهِ فِيهِ، فَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، تَجِدُ الرَّجُلَ الَّذِي مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِ بِرِعَايَةِ أَهْلِهِ وَتَرْبِيَتِهِمْ تَرْبِيَةً حَسَنَةً يُيَسِّرُ اللَّهُ لَهُ أَنْ يُعَامِلَهُ أَهْلُهُ مُعَامَلَةً حَسَنَةً، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ.

٣- أَنْ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُيَسَّرَ لَهُ مَنْ يَكْفُلُهُ مِنَ الصَّالِحِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، وَهُوَ أَحَدُ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ.

ولهذا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ حَضَانَةُ الصَّبِيِّ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى تَحْتَ صَالِحٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، فَلَا حَضَانَةَ لِفَاسِقٍ، وَلَا لِكَافِرٍ عَلَى مُسْلِمٍ، فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ رَجُلًا طَلَّقَ زَوْجَتَهُ، وَلَهُ مِنْهَا أَوْلَادٌ، ثُمَّ طَلَبَ الْأَبُ أَنْ يَكُونَ حَاضِنًا لَهُمْ فِي وَقْتِ زَالَتِ فِيهِ حَضَانَةُ الْأُمِّ، فَإِنَّا لَا نُجِيبُهُ إِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ سَيُهْمِلُ الْأَوْلَادَ، وَيَجْعَلُهُمْ تَحْتَ رِعَايَةِ زَوْجَتِهِ الْأُخْرَى الَّتِي هِيَ ضَرَّةُ أُمِّهِمْ، فَإِنَّهَا قَدْ لَا تَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ، بَلْ قَدْ تُهْمِلُهُمْ وَتُفْضِلُ أَوْلَادَهَا عَلَيْهِمْ، فَيَفْقِدُونَ رِعَايَةَ الْأُمُومَةِ، وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ الْمَحْضُونَ لَا يُقَرَّبُونَ بِدٍ مَنْ لَا يَصُونُهُ وَلَا يُصْلِحُهُ.

٤- إِبْتَاتُ الْكَرَامَاتِ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَالْكَرَامَةُ هِيَ: الْأَمْرُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ الَّذِي يُجْرِيهِ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَى يَدِ وَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَكْرِيمًا لَهُ، وَتَأْيِيدًا لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ.

(١) تقدم تخريجه (ص: ٥٠٩).

فَكَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ لَهَا فَائِدَتَانِ:

الفائدة الأولى: تَكْرِيمُ مَنْ وَقَعَتْ لَهُ.

والثانية: تَأْيِيدُ الطَّرِيقِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، وَبَيَانُ أَنَّهُ حَقٌّ.

وَلَكِنْ مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟ هَلْ كُلُّ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ فَهُوَ وَلِيُّ اللَّهِ؟

الجواب: لا، إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ مِيزَانًا عَدْلًا لِبَيَانِ مَنْ هُوَ وَلِيُّ اللَّهِ،

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢-٦٣]، فالإيمان راسخٌ في قلوبهم، والتَّقْوَى

سَارِيَةٌ فِي جَوَارِحِهِمْ، فَقَدْ صَلَحُوا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَهَؤُلَاءِ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ.

وَأَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ مُضِيعٌ لِدِينِ اللَّهِ، لَا يُصِلِّي إِلَّا حَيْثُ شَاءَ،

وَمَتَى شَاءَ، وَكَيْفَ شَاءَ، وَلَا يَتَّقِيْدُ بِحُدُودِ اللَّهِ، بَلْ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ،

فليس -والله- هذا بوليٌّ، بل هذا عَدُوٌّ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولذلك إِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ فَانْظُرْ إِلَى أَفْعَالِهِ: هَلْ هِيَ مُطَابِقَةٌ لِشَرِيعَةِ

اللَّهِ؟ هَلْ عِنْدَهُ إِيمَانٌ بِاللَّهِ؟ وَالْإِيمَانُ وَإِنْ كَانَ مَحَلُّهُ الْقَلْبَ، لَكِنَّ الْجَوَارِحَ تَدُلُّ عَلَيْهِ؛

لِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ

صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

فكيف يكون من أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مَنْ يَسْتَبِيحُ مِنَ النِّسَاءِ مَا شَاءَ، حَتَّى بَلَغْنَا أَنَّ

بَعْضُهُمْ يَسْتَبِيحُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ خَمْسِينَ امْرَأَةً أَوْ مِئَةَ امْرَأَةٍ؟!

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة،

باب أخذ الحلال، رقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وكيف يكون من أولياء الله من يقول: إِنَّ الصَّلَاةَ لَا تَجِبُ عَلَى الْخَوَاصِّ،
وإنَّما تَجِبُ عَلَى الْعَوَامِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟!

وكيف يكون من أولياء الله من يقول: إِنَّ الْحَجَّ إِلَى الْقَبْرِ الْفُلَانِي أَفْضَلُ مِنَ
الْحَجِّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ؟!

إلى غير ذلك مما يدَّعيه أَدْعِيَاءُ الْوِلَايَةِ.

وَكَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ ثَابِتَةٌ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَفِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ،
فَفِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ هَذِهِ الْقِصَّةُ: الرَّزْقُ الَّذِي يَجِدُهُ زَكْرِيَّا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ مَرْيَمَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَلَى وَجْهِ لَيْسَ بِمُعْتَادٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: مَا جَرَى لِمَرْيَمَ نَفْسِهَا عِنْدَ وَلَادَةِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،
فَقَدْ أَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ، قَالَتْ: ﴿بَلِّغْتَنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا
مَنْسِيًّا﴾ يَعْنِي: يَا لَيْتَ هَذَا لَمْ يُصِبنِي، ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ
سَرِيًّا﴾ (٢٤) وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴿أَي: هُزِّي النَّخْلَةَ مِنْ جِذْعِهَا ضَمًّا إِلَيْكَ﴾ ﴿تَسْقِطُ
عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَمِنْ كَرَامَاتِ مَرْيَمَ، وَإِلَّا فَكَيْفَ امْرَأَةٌ
أَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى هَذَا الْجِذْعِ، تَهَزُّ النَّخْلَةَ مِنْ جِذْعِهَا، فَتَهْتَرُّ النَّخْلَةُ، ثُمَّ تَسْقِطُ
الرُّطْبُ اللَّيْنَةُ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا تَتَأَثَّرُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾، كَأَنَّ الْإِنْسَانَ جَنَاهُ
بِيَدِهِ، قَالَ: ﴿فَكُلِّي﴾ مِنْ ثَمَرِ النَّخْلِ ﴿وَأَشْرَبِي﴾ مِنَ السَّرِيِّ، وَهُوَ النَّهْرُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ
تَحْتَهَا ﴿وَقَرِي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٣-٢٦].

وَمِنْ الْكَرَامَاتِ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ: قِصَّةُ الرَّجُلِ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ، وَهِيَ خَاوِيَةٌ
عَلَى عُروَشِهَا، قَالَ: ﴿أَنَّى يُعْجَى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾
[البقرة: ٢٥٩]، فَأَكْرَمَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِأَنْ يُرِيَهُ الْآيَةَ بِعَيْنِهِ.

ومنها: قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، حَيْثُ هَاجَرُوا مِنْ بِلَادِهِمْ، فَيَسَّرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ الْكَهْفَ الَّذِي لَا تَأْتِيهِ الشَّمْسُ، لَا عِنْدَ الشُّرُوقِ، وَلَا عِنْدَ الْغُرُوبِ، ﴿إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧]، وَبَقُوا نَائِمِينَ ثَلَاثَ مِئَةِ سَنَةٍ، وَتِسْعَ سِنِينَ، وَلَمْ يَتَغَيَّرُوا، لَا طَالَتِ الشُّعُورُ، وَلَا الْأُظْفَارُ، وَلَا جَاعُوا، وَلَا عَطَشُوا ثَلَاثَ مِئَةِ وَتِسْعَ سِنِينَ، مَعَ أَنَّ الْعَادَةَ خِلَافُ ذَلِكَ.

ولهذا لَمَّا اسْتَيْقَظُوا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿كَمْ لَيْتُمْ قَالُوا لَيْشَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، قَالَ الْعُلَمَاءُ: لَا تَهْمُ نَامُوا فِي الصَّبَاحِ، وَاسْتَيْقَظُوا فِي الْمَسَاءِ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا زَالُوا فِي يَوْمِهِمْ؛ حِمَاةٌ لَهُمْ وَحِفْظًا.

ثُمَّ إِنَّ مِنْ حِمَاةِ اللَّهِ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُجُبًا﴾ [الكهف: ١٨]، أَي: لَهَرَبْتَ فَارًّا مَرْغُوبِ الْقَلْبِ حِمَاةٌ لَهُمْ، وَإِلَّا لَكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ يَدْخُلُ عَلَى هَذَا الْكَهْفِ، وَيَنْظُرُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، سَبْعَةَ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَالكَرَامَاتُ كَثِيرَةٌ.

كَذَلِكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ حَصَلَتْ كَرَامَاتٌ عَظِيمَةٌ لِلصَّحَابَةِ وَلِلتَّابِعِينَ، وَهِيَ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرُ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْيَقِينِ التَّامِّ وَالْإِخْلَاصِ الْخَالِصِ مَا يُغْنِيهِمْ عَنِ الْكَرَامَاتِ الَّتِي تُؤَيِّدُ إِيْمَانَهُمْ وَتُقَوِّيهِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِثْبَاتُكَ لِلْكَرَامَاتِ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَشْتَبَهَ مَنْ يَسْتَخْدِمُونَ الشَّيَاطِينَ بِأَهْلِ الْكَرَامَاتِ.

فَالْجَوَابُ: لَا اشْتِبَاهَ؛ لِأَنَّ الْكَرَامَةَ تَأْتِي الْإِنْسَانَ بِدُونِ تَصْنُعٍ، وَبِدُونِ تَطَلُّعٍ، وَبِدُونِ فِعْلٍ مِنْهُ إِلَّا إِذَا تَوَصَّلَ إِلَيْهَا بِالْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ بِالْجَنِّ فَإِنَّهَا لَا تَأْتِيهِمُ الْخَوَارِقُ إِلَّا عَنْ قَصْدٍ، وَاسْتِخْدَامٍ لِلْجَنِّ، هَذَا وَجْهٌ.

وَجْهٌ آخَرُ: أَنَّ أَصْحَابَ الْكَرَامَاتِ عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى مَا أَجْرَى اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ مَا يُؤَيِّدُهُمْ، وَيَشْهَدُ لِصِدْقِهِمْ.

وَأَمَّا الَّذِينَ يَسْتَعِيدُمُونَ الشَّيَاطِينَ فَعَلَى الْعَكْسِ، تَجِدُ الرَّجُلَ يَسْتَعِيدُمُ الشَّيْطَانَ وَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الْمَظْهَرِ الدِّينِيِّ فِي شَكْلِهِ، وَفِي زِيَّهِ، وَفِي تَقْصِيرِهِ فِي الْوَاجِبَاتِ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نَقُولُ: كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ. وَلَمْ نَقُلْ: الْكَرَامَاتُ. وَأَطْلَقْنَا، فَمَنْ جَرَى عَلَى يَدِهِ شَيْءٌ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَلَيْسَ بَوَلِيٍّ، فَهَذِهِ لَيْسَتْ كَرَامَةً، بَلْ هِيَ مِنَ الشَّيَاطِينِ.

٥- قُوَّةُ تَوَكُّلِ مَرْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حَيْثُ لَمْ تَأْتِ بِشَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَى مُجَادَلَةٍ، قَالَتْ: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وَكَفَى، فَلَا قَوْلَ لِأَحَدٍ بَعْدَ هَذَا الْقَوْلِ.

٦- أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْزُقُ الْعَبْدَ عَلَى وَجْهِ لَا يَحْتَسِبُ الرِّزْقَ مِنْ جِهَتِهِ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ يَأْتِيهِ بِلَا كَسْبٍ مِنْهُ، وَبِلَا اسْتِشْرَافِ نَفْسٍ، وَبِلَا تَقْدِيرٍ أَصْلًا، وَيَشْهَدُ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٧- أَنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا نَفَادَ لَهُ، وَلَا إِحْصَاءَ لَهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعْطِيَنَا مِنْ رِزْقِهِ، وَأَلَّا يَحْرِمَنَا فَضْلَهُ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَهَذَا نُبْنِيهِ إِلَى شَيْءٍ يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْمُنْشِئِينَ لِلْمَسَاجِدِ، فَتَجِدُهُ يَكْتُبُ بِحَرْفٍ كَبِيرٍ

على حِجَابِ الْقِبْلَةِ، وهو الطَّاقُ الذي جُعِلَ عَلامَةً على الْقِبْلَةِ، يَكْتُبُ: ﴿كَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾، وهذا لا يَجُوزُ، لكن لماذا؟

الجواب: لأنَّ هذا الَّذِي كَتَبَ الْآيَةَ أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَهَا على هذا الْمِحْرَابِ الْمَوْجُودِ فِي الْقِبْلَةِ، وليس كذلك، فالْمِحْرَابُ مَكَانُ الصَّلَاةِ، وليس طَاقُ الْقِبْلَةِ، بِدَلِيلِ: قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهَلْ أُنْتِكَ نَبُؤُا الْحَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّغَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ [ص: ٢١-٢٢]، ولا يَجُوزُ أَنْ تُنْزَلَ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ على شَيْءٍ لَا تَمُتُ إِلَيْهِ بِصَلَةٍ، لَكِنْ الْجَهْلُ مِنَ الْعَوَامِّ، وَعَدَمُ التَّنْبِيهِ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ، هُوَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى مِثْلِ هَذَا، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعِلْمَ النَّافِعَ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ

الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ (هنا) اسمُ إشارةٍ إلى المكانِ، وَاللَّامُ لِلْبُعْدِ، وَالْكَافُ حَرْفُ خِطَابٍ ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أي: طَلَبَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَقَالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، وَكَانَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يُولَدْ لَهُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ. رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ. وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

وهنا لَمَّا رَأَى مَا يَحْصُلُ لِمَرْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ رِزْقٍ لَا يُحْتَسَبُ، عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ قد عَلِمَ ذَلِكَ، لَكِنْ رُبُّهُ الْأَشْيَاءِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ جَعَلَهُ يَدْعُو اللَّهَ بهذا

الدُّعَاءُ: ﴿هَبْ لِي﴾ أي: أعطني ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي: من عِنْدِكَ ﴿ذُرِّيَّةً﴾ الذَّرِيَّةُ هُمْ: الأولادُ مِنْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴿طَيِّبَةً﴾ أي: طَيِّبَةَ الْخُلُقِ، طَيِّبَةَ الْخَلْقِ، طَيِّبَةَ الْعَمَلِ، طَيِّبَةً مِنْ كُلِّ وَجْهِ هُوَ طَيِّبٌ.

وَالطَّيِّبُ يُقَابِلُ الرَّدِيءَ، وَيُقَابِلُ الْحَبِيثَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فَالْحَبِيثُ هُنَا الرَّدِيءُ؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابِلِ الْمَالِ الطَّيِّبِ الْجَيِّدِ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ الْجُمْلَةُ اسْتِثْنَائِيَّةٌ، يُرَادُ بِهَا التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِكَوْنِهِ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، أي: مُجِيبُ الدُّعَاءِ، أي: الطَّلَبِ، فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُجِيبُ الطَّلَبِ مَا لَمْ يَكُنْ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ، وَقَدْ تَخَلَّفَ الْإِجَابَةُ لِحُكْمَةِ يَعْلَمُهَا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُهَا الْعَبْدُ.

في هذه الآيةِ الكريمةِ من الحكمِ والفوائدِ ما يلي:

١ - بَيَانُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ لَهَا أَسْبَابٌ، وَمِنْ أَسْبَابِهَا وُجُودُ نَظَائِرِهَا، فَزَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَهَبَ لَهُ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، فَأَجَابَهُ عَزَّجَلَّ، وَلَكِنْ كَوْنُهُ يَدْعُو بَعْدَ أَنْ شَاهَدَ مَا حَصَلَ لِمَرِيَمَ هَذَا مِنْ بَابِ قَوْلِهِمْ: الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يُذَكَّرُ.

٢ - أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مُضْطَرٌّ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، مُفْتَقِرٌ إِلَى دُعَائِهِ، حَتَّى الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بَلْ حَتَّى أَوْلُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ.

ولهذا لما قال النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُ الْجَنَّةِ

بِعَمَلِهِ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»^(١)، فَحَتَّى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَدْخُلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ، مَعَ أَنَّهُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ، وَأَقْوَمُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَتَقَاهُمْ لِلَّهِ، وَأَشْكَرَهُمْ لِلَّهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ.

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ» لَا تَظَنَّ أَنَّهُ يُنَافِي قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ الصَّحِيحَةَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَا يُمْكِنُ أَنْ يُنَاقِضَ بَعْضُهُمَا بَعْضًا.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَاجْتَمَعَ بَيْنَهُمَا: أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ» يَعْنِي: أَنْ تَكُونَ الْجَنَّةَ عَوَضًا عَنِ الْعَمَلِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَمَلَ مَهْمَا كَانَ فَإِنَّهُ لَا يُكَافِي نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، بَلِ الْعَبْدُ إِذَا عَمِلَ لِلَّهِ، وَتَعَبَّدَ لَهُ، فَإِنَّ هَذَا نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ عَلَيْهِ الْمِنَّةُ بِهَا، كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ فِي الْأَعْرَابِ: ﴿يَمْنُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

فَإِذَا كَانَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ بِالْعَمَلِ نِعْمَةً تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرٍ، فَإِنَّكَ إِذَا قُمْتَ بِشُكْرِهَا فَشُكْرُكَ إِيَّاهَا نِعْمَةٌ أُخْرَى تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرٍ، وَهَلُمَّ جَرًّا، حَتَّى لَا تَسْتَطِيعَ أَنْ تَقُومَ بِشُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعَمِهِ، وَلِهَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةً اللَّهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمنى المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، وفي كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٧)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم (٢٨١٦) (٢٨١٨) من حديث أبي هريرة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمُرُ^(١)

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فَالْبَاءُ هُنَا لِلْسَّبَبِيَّةِ، أَي: أَنَّ الْعَمَلَ سَبَبٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ، وَلَيْسَ عَوَضًا، وَفَرَقُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ.

٣- أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا سَأَلَ رَبَّهُ فَلْيَسْأَلْهُ أَفْضَلَ مَا يَكُونُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ، كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ يَسِيرٌ سَهْلٌ، فَلَا تَتَعَاطَمُ، وَلَا تَقُلْ: هَذَا شَيْءٌ كَبِيرٌ، هَذَا شَيْءٌ صَعْبٌ. فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ سَهْلٌ.

ولهذا قال زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «ذُرِّيَّةً» وَيَسْكُتُ، بَلْ قَالَ: ﴿طَيِّبَةً﴾، فَأَنْتَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَدْعُو اللَّهَ فَادْعُ اللَّهَ بِأَعْلَى مَا يَكُونُ، وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّ شَيْئًا. اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنَّ شَيْئًا. وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا مُكْرَهَ لَهُ»^(٢)، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»^(٣)، فَكُلُّ شَيْءٍ فَبِإِرَادَتِهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكُلُّ شَيْءٍ سَهْلٌ عَلَيْهِ.

٤- أَنَّ الْعَطِيَّةَ تَعْظُمُ بِحَسَبِ عَظَمَةِ مُعْطِيهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ أَي: مِنْ عِنْدِكَ، وَإِذَا كَانَتْ مِنْ عِنْدِكَ وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، وَأَفْضَلُ الْمُعْطِينَ، فَلْتَكُنْ هَذِهِ الْعَطِيَّةُ عَظُمَى؛ لِأَنَّ الْعَطَاءَ بِحَسَبِ الْمُعْطِي.

(١) البيتان لمحمود الوراق كما في موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا (٣/ ٣٦) برقم (٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، رقم (٦٣٣٨) (٦٣٣٩)، ومسلم: كتاب الذكر، باب العزم بالدعاء، رقم (٢٦٧٨) (٢٦٧٩/ ٩) من حديث أنس وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الذكر، باب العزم بالدعاء، رقم (٨/ ٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولذلك لو تصدَّق رجلُ حاله قَريبةُ بعشرةِ رِياتٍ لَرَأَيْتَ هذا كَبِيرًا، ولو تصدَّق بها مَنْ عِنْدَه مَلايينَ رَأَيْتَ هذا صَغِيرًا، ورَأَيْتَ أَنَّ مَنْ عِنْدَه المَلايينَ يَجِبُ أَنْ يُعْطِيَ عَطِيَّةً أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ.

٥- التَّوَسَّلْ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذِكْرِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِلْإِجَابَةِ، حَيْثُ قَالَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

٦- تَمَامُ عِلْمِ اللَّهِ، وَسَمْعِ اللَّهِ، وَكَرَمِ اللَّهِ، وَقُدْرَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ إِجَابَةَ الدُّعَاءِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِهَذَا، وَلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ أَغْلَاها وَأَتْمَتْها، فَسُبْحَانَهُ، لَا نُخْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ، هُوَ كَمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٩)

قَوْلُهُ: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ﴾ أَي: نَادَتْ زَكَرِيَّا، وَالْمَلَكَةُ عَالِمٌ غَيْبِيٌّ، خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ نُورٍ، صُمِدٌ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى أَكْلِ وَلَا شُرْبٍ، أَعْطَاهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَةً تَامَةً، وَتَذَلُّلاً لِّرَبِّهِمْ عَزَّجَلَّ، وَقُدْرَةً عَلَى مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، وَقُوَّةً عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَنْ عِنْدَهُ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩-٢٠].

نَادَتْ زَكَرِيَّا ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْهَاءِ فِي (نَادَتْهُ)، يَعْنِي: وَالْحَالُ أَنَّهُ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ.

وقوله: ﴿فَإِيْمٌ يُصَلِّي﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّهُ يُصَلِّي، وَصَادَفَ تَبَشِيرُ الْمَلَائِكَةِ لَهُ فِي حَالِ قِيَامِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَابِتٌ عَلَى الصَّلَاةِ، سَوَاءً كَانَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا أَوْ مُسَلِّمًا مِنَ الصَّلَاةِ، وَيَتَنَظَّرُ صَلَاةً أُخْرَى، وَالْمِحْرَابُ: مَكَانُ الصَّلَاةِ. وَالنِّدَاءُ: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِخَيْرٍ﴾، وَالتَّبَشِيرُ هُوَ: الْإِخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدُّنْيَا، وَسَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ يَقْظَةً أَوْ مَنَامًا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ، الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْإِنْسَانُ أَوْ تَرَى لَهُ»^(١).

وقوله: ﴿يُحْيِي﴾ أَي: بِذِكْرِ اسْمِهِ يُحْيِي، فَسُمِّيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَهَذَا الْأِسْمُ اسْمٌ تَفَاوُلٌ، أَنْ يُحْيِي هَذَا الْإِبْنُ الْمُبَشِّرُ بِهِ ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي: أَنْ يُحْيِي عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيَكُونُ نَبِيًّا، وَيُصَدِّقُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَسَيَكُونُ سَيِّدًا، أَي: ذَا شَرَفٍ فِي قَوْمِهِ ﴿وَحَصُورًا﴾ أَي: عَفِيفًا، أَوْ حَصُورًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، مُلَازِمًا لَهَا ﴿وَنَبِيًّا﴾، وَالنَّبِيُّ هُوَ: الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْهِ بَشَرٌ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَبْلِيغِهِ، هَكَذَا عَرَفَهُ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ.

وَلَكِنْ كُلُّ مَنْ وُصِفَ بِالنَّبُوَّةِ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ نَبِيٌّ رَسُولٌ، كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، فَيَكُونُ التَّعْرِيفُ الَّذِي عَرَفَهُ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ بِحَسَبِ الْأَصْطِلَاحِ، أَمَّا بِحَسَبِ الْوَارِدِ فِي الْقُرْآنِ فَكُلُّ مَنْ وُصِفَ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ فَإِنَّهُ رَسُولٌ.

وقوله: ﴿مَنْ الصَّالِحِينَ﴾ أَي: الْقَائِمِينَ بِحَقِّ اللَّهِ، وَحَقِّ الْعِبَادِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

في هذه الآية الكريمة من الأحكام:

١ - إثبات القول للملائكة، يعني: أنهم يقولون قولاً معلوماً مفهوماً؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾، وبين ما نادته به، والنداء: رفع الصوت بالقول.

٢ - إثبات الملائكة، والإيمان بهم - أي: بالملائكة - أحد أركان الإيمان الستة؛ لأن النبي ﷺ حين قال له جبريل: أخبرني عن الإيمان؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(١).

فمن أنكر وجود الملائكة فهو مكذب لله ورسوله، فيعرف إن كان جاهلاً، فإن أصر على الإنكار فهو مرتدٌ يحلُّ دمه.

٣ - أنه يجوز أن يخاطب المصلي، بشرط: أن تأمن عليه الفتنة، بمعنى: ألا نخشى أننا إذا كلمناه ردّ علينا؛ لأن بعض الناس إذا كلم سها عن الحال التي هو عليها، وردّ الكلام.

وأيضاً، لو كان هذا الكلام يشغل بالله، فإذا كلمناه به انشغل به عن صلاته، فلا نكلمه حتى ينتهي من صلاته، إلا عند الضرورة.

٤ - أنه ينبغي البشارة للإنسان بما يسره، وكان هذا من هدي النبي ﷺ، فإذا حصل لأخيك ما يسره فمن السنة أن تبشّره، تقول: يا فلان، أبشّر، قد حصل لك كذا وكذا، أو نجوت من كذا وكذا أو ما أشبه ذلك؛ لأن هذا من إدخال السرور على أخيك، وقد قال النبي ﷺ لكعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين تاب الله على كعب،

قَالَ لَهُ: «أَبَشِّرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتِكَ أُمُّكَ»^(١)، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

٥- الثَّنَاءُ عَلَى الْمُصَلِّينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُصَلِّينَ مِنْ أَهْلِ الثَّنَاءِ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ خَيْرٌ مَوْضِعٌ، وَالْمُحَافِظُ عَلَى الصَّلَاةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مُحَافِظٌ عَلَى دِينِهِ، وَمَنْ ضَيَّعَ صَلَاتَهُ فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعٌ، وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتُهُ.

٦- جَوَازُ اتِّخَاذِ الْإِنْسَانِ مُصَلًّى لَهُ فِي الْبَيْتِ، أَوْ فِي أَيِّ مَكَانٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ﴾، وَطَلَبَ عِتْبَانُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يَزُورَهُ فِي بَيْتِهِ؛ لِيُصَلِّيَ فِي مَكَانٍ يَتَّخِذُهُ عِتْبَانُ مُصَلًّى^(٢).

وَقَدْ كَانَ النَّاسُ فِيمَا سَبَقَ تَتَّخِذُ نِسَاؤُهُمْ مُصَلِّيَاتٍ فِي بُيُوتِهِنَّ، كُلَّمَا أَرَادَتِ الْمَرْأَةُ أَنْ تُصَلِّيَ جَاءَتْ إِلَيْهِ، وَصَلَّتْ.

٧- أَنَّ الرَّسُولَ إِذَا أُرْسِلَ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ يُحَافِظُ عَلَى الصَّيْغَةِ الَّتِي أُرْسِلَ بِهَا، لَا يَتَجَاوَزُ مَا قِيلَ لَهُ، وَلَا يُوصِي غَيْرَهُ بِهَا، بَلْ هُوَ يُبَاشِرُ مَا وُصِّيَ بِهِ، وَيَنْقُلُهُ كَمَا كَانَ؛ لِقَوْلِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾، وَلَمْ تَقُلِ الْمَلَائِكَةُ: أَبَشِّرْ بِكَذَا. مَعَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَعْلَمُ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَقٌّ.

٨- مَنْقَبَةُ يُحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، حَيْثُ تَوَلَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَسْمِيَتَهُ، وَاللَّهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، رَقْمُ (٤٤١٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ التَّوْبَةِ، بَابُ حَدِيثِ تَوْبَةِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، رَقْمُ (٢٧٦٩).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ الْمَسَاجِدِ فِي الْبُيُوتِ، رَقْمُ (٤٢٥)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ الرِّخْصَةِ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجَمَاعَةِ لِعِذْرِ، رَقْمُ (٢٦٣/٣٣) مِنْ حَدِيثِ عِتْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمُنُّ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، فَقَدْ زَوَّجَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وَكَانَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَفْتَحِرُ عَلَى زَوْجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى زَوَّجَهَا نَبِيَّهَ بِنَفْسِهِ ^(١).

٩- الثَّنَاءُ عَلَى يَحْيَى بِتَصَدِيقِهِ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ مُحَلٌّ ثَنَاءٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أُمَرَاتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ الْغَوْرِ الطَّالِمِينَ﴾ ⑪ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنْ الْقَنِينِ ﴿[التحریم: ١١-١٢]، فَتَصَدِّقُ الْمَرْءَ بِخَبَرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنْ مَنَاقِبِهِ، وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقًا أَنْ نُعَارِضَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ بِعُقُولِنَا وَأَهْوَائِنَا.

فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ بِأُمُورٍ تَحَارُّ فِيهَا الْعُقُولُ، لَكِنْ لَا تُنْكِرُهَا، فَالوَاجِبُ عَلَيْنَا التَّصَدِّيقُ وَالْقَبُولُ، فَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَنَا عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، أَي: عَلَا عَلَى الْعَرْشِ، وَالْعَرْشُ أَعْظَمُ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ الْمَعْلُومَةِ لَنَا، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّتُهُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَقْدُرُ قَدْرُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ بِأَنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَيْهِ، أَي: عَلَا عَلَيْهِ عُلُوءًا خَاصًّا بِهِ، وَهَذَا غَيْرُ الْعُلُوءِ الْعَامِّ عَلَى كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَيْسَ لَنَا إِطْلَاقًا أَنْ تُنْكِرَ هَذَا بِعُقُولِنَا الْفَاسِدَةِ، وَأَهْوَائِنَا الْبَاطِلَةِ، وَنَقُولُ: اسْتَوَى بِمَعْنَى: اسْتَوَى. فَإِنَّ هَذَا قَوْلٌ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، وَعُدْوَانٌ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَاثَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، رقم (٧٤١٨).

فلو قال قائل: كيف استوى على العرش، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه؟

فالجواب: أن هذا مردودٌ على مؤرِّده، باطلٌ في حاله، فهل سأل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن كيفية ذلك؟! مع أننا نعلم علم اليقين أنهم أشدُّ منا حرصاً على معرفة الله تعالى، فقل: آمَنْتُ بالله، آمَنْتُ بالله، آمَنْتُ بالله، صدقت بكلمات الله. ولا تسأل.

ومن ذلك: أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: مَنْ يَدْعُونِي، فأستجيب له؟ مَنْ يسألني، فأعطيه؟ مَنْ يستغفرني، فأغفر له؟ فيجب علينا أن نصدق بذلك، وأن نقول: إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْزِلُ نَزْولاً يليق بجلاله وعظمته.

فإذا قال قائل: كيف نزوله، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؟ وكيف يكون النزول، وثلث الليل الآخر يختلف باختلاف الجهات؟

فنقول: علينا التصديق بكلمات الله، وليس لنا أن نورد إیرادات باطلة، فالصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمَّا حَدَّثَهُم النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بهذا الحديث لم يقولوا: كيف؟ بل آمنوا بذلك حقاً، وقالوا: إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وهو السميع البصير.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ۖ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، فأخبر الله تبارك وتعالى أنه في يوم القيامة تكون هذه الوجوه النَّصْرَةُ الْحَسَنَةُ نَازِرَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ نَظَرًا حَقِيقِيًّا بِالْعَيْنِ، وَوَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا النَّظَرَ بِوَصْفٍ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، فَقَالَ:

«إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»^(١)، أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ هَؤُلَاءِ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَا نَقُولَ: كَيْفَ يَكُونُ هَذَا؟ وَلَا نَقُولَ: كَيْفَ يُمَكِّنُ النَّظْرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا مَجَلَّى لِلْجَبَلِ جَعْلَهُ دَكًّا؟!

ولا يجوزُ لنا إطلاقاً أَنْ نَعْرِضَ النُّصُوصَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى عُقُولِنَا، فَإِنْ قَبِلْتَهَا قَبَلْنَاهَا وَإِلَّا رَدَدْنَاهَا؛ لِأَنَّا لَوْ فَعَلْنَا هَذَا لَكَانَ مُفْتَضًى ذَلِكَ أَلَّا نُصَدِّقَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ، مَا دُمْنَا نَعْرِضُ كَلِمَاتِ اللَّهِ وَكَلَامَ رَسُولِهِ عَلَى عُقُولِنَا، وَهِيَ عُقُولٌ فَاسِدَةٌ أَيْضاً؛ لِأَنَّ عُقُولَ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ قَبِلَتْ هَذَا، وَلَمْ تَرَهُ أَمْرًا مُسْتَحِيلًا، وَعَلَى هَذَا فَفَقِسْ. وَالْمَجَالُ لَا يَتَّسِعُ لِذِكْرِ كُلِّ مَا قِيلَ حَوْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ، الْمُهْمُّ: أَنَّ التَّصَدِيقَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ مِنَ الْمَنَاقِبِ الْعَالِيَةِ لِلْبَشَرِ.

١٠ - إثباتُ السِّيَادَةِ لِيَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسَيِّدًا﴾، أَي: شَرِيفًا فِي قَوْمِهِ، وَالسَّيِّدُ وَصْفٌ تَشْرِيفٍ وَتَعْظِيمٍ وَتَكْرِيمٍ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»^(٢)، قَالَ ذَلِكَ مُفْتَخِرًا، لَا مُتَفَاخِرًا عَلَى النَّاسِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

١١ - الثَّنَاءُ عَلَى يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَمَالِ الْعِفَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَحَصُورًا﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ كَمَالَ الْعِفَّةِ مِنْ مَنَاقِبِ الْإِنْسَانِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَرَأَيْتَ مَا جَرَى لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ حِينَ أَرَادَتْ بِهِ سُوءًا، فَدَعَتْهُ، وَأَدْخَلَتْهُ إِلَى أَقْصَى مَكَانٍ فِي بَيْتِهَا، وَغَلَقَتْ الْأَبْوَابَ حَتَّى لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ، وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ. لَكِنَّ اللَّهَ مَنَّ عَلَيْهِ بِالْحَصَانَةِ وَالْعِفَّةِ النَّامَّةِ، ففِي هَذَا الْمَقَامِ الَّتِي هِيَ سَيِّدَتُهُ، وَهِيَ زَوْجُ سَيِّدِ مِصْرَ، وَفِي هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي لَمْ يَحْضُرْهُمَا فِيهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَفِئَ أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فامْتَنَعَ عَنْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْتَمِدْ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، بَلْ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾.

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

وَالشَّاهِدُ: قَوْلُهُ: «رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ»، فَهُوَ آمِنٌ مِنْ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: أَخَافُ أَنْ يَطَّلَعَ النَّاسُ، أَوْ أَنْ يَرَانِي فَلَانٌ أَوْ فَلَانٌ. وَإِنَّمَا قَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ. فَلِمَكَانُ خَالٍ، وَمَعَ ذَلِكَ مَنَعَهُ خَوْفُ اللَّهِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْفَاحِشَةِ مَعَ تَوَفُّرِ أَسْبَابِهَا.

فَالْمُهِمُّ: أَنَّ الْعِفَّةَ خُلُقٌ فَاضِلٌ، لَا يَنَالُهُ إِلَّا الْخُلَّصُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

[يوسف: ٢٤].

وَيُنَبِّئِي عَلَى هَذَا: أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْعِفَّةُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الْخُلُقِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَبْعَدَ عَنْ كُلِّ مَا يَحْرِمُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ، فَنَعُصَّ الطَّرْفَ، أَوِ الْاسْتِمَاعَ إِلَى أَصْوَاتِ النِّسَاءِ اللَّاتِي يَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ؛ حَتَّى نَحْصُلَ لَنَا الْعِفَّةُ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُوفِّقَنَا لَهَا؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١٢ - الشَّاءُ عَلَى يَحْيَى أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَهِيَ بَشَارَةٌ عَظْمَى، ذَلِكَ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ هُمْ الرُّسُلُ أَعْلَى طَبَقَاتِ الْخَلْقِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مَعَهُمْ.

١٣ - أَنَّ الصَّلَاحَ مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَيَّتَنَّهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَآخِرَتِهِ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ قُلُوبَنَا وَأَعْمَالَنَا وَأَحْوَالَنَا وَحَالَنَا وَمُسْتَقْبَلَنَا؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ

يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٤٠﴾

قَوْلُهُ: ﴿قَالَ﴾ يعني: زكريّا ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ يعني: أصابني الكبر ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لا تلد، يستفهم عليه الصلاة والسلام، واستفهامه هذا ليس للاستنكار؛ لأنه هو نفسه سأل الله أن يهب له من لدنه ذرية طيبة، ولا يسأل شيئاً ينكره فيما بعد، لكن أراد أن يستثبت في الأمر، كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُولَمُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّطَمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فقول زكريّا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ يريد به أن يستثبت ويطمئن.

ولا أحد يشك أن طلب الاستثبات، وأن الاستيقان من الشيء أمر مطلوب، خصوصاً في الأمر البعيد المنال؛ لأنّ النفوس قد يلحقها الشك فيما قيل لها، ولست أريد بذلك أن زكريّا لحقه شك أبداً، بل كان يعلم أن هذا حق، لكن ليتيقن ويستثبت.

﴿قَالَ﴾ الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: الأمر كذلك، وأنه سيكون لك ولد اسمه يحيى، ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأمور الموافقة للعادة، ومن الأمور المخالفة للعادة؛ لأنه جل وعلا على كل شيء قدير، ﴿وَأَنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي :

١ - جَوَازُ طَلَبِ الْإِنْسَانِ مَا يَثْبُتُ بِهِ الْخَبَرُ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي أَخْبَرَهُ صَادِقًا لَا شَكَّ فِي صِدْقِهِ، وَجَهُ الدَّلَالَةِ: مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ﴾، وَقَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً﴾، فَإِذَا وَقَعَ هَذَا مِنْ نَبِيٍّ فِي خَبَرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَمَا بِالْكَ بَمَنْ دُونَهُ؟!

٢ - أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُلَامُ عَلَى مِثْلِ هَذَا مَا دَامَ قَصْدُهُ الْحَقَّ، لَا الْاسْتِبْعَادَ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ مَقْصُودٌ، وَالْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ لَيْسَتْ مَحْضُورَةً بِشَيْءٍ مُعَيَّنٍ.

٣ - أَنَّ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بَشَّرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِأَنْ ابْنَهُ يَكُونُ سَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ، عَلِمَ أَنَّ هَذَا سَيَكُونُ، وَيَكُونُ الْمُبَشِّرُ بِهِ غُلَامًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَمٌ﴾.

٤ - أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَبُرَ نَقَصَتْ مِنْهُ الْحَيَوَانَاتُ الْمَنْوِيَّةُ أَوْ فُقِدَتْ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَ الْكِبَرِ لَا بُدَّ أَنْ يُصَابَ بِأَمْرَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا: إمَّا بِضَعْفِ الْعُضْوِ، بِحَيْثُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِنْتِشَارِ، أَيْ: الْإِنْتِصَابِ، وَإِمَّا بِضَعْفِ الْمَنِيِّ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِيهِ حَيَوَانَاتُ مَنْوِيَّةٌ، وَإِمَّا بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا.

٥ - أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصِفَ حَالَهُ الْحَقِيقَةَ عِنْدَ الْحَاجَةِ لَذَلِكَ، فَلَا يَتَسَرَّرُ، وَيُظْهِرُ نَفْسَهُ مَظْهَرَ الْقَوِيِّ الصَّحِيحِ النَّشِيطِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى بَيَانِ حَالِهِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ الْمَرْضَى لَا يَصِفُ حَالَهُ بِدَقَّةٍ لِلطَّبِيبِ، فَرُبَّمَا يُعْطِيهِ عِلَاجًا عَلَى حَسَبِ مَا سَمِعَ مِنْهُ، وَتَكُونُ النَّتِيجَةُ عَكْسِيَّةً، فَالْعَاقِلُ لَا يَسْتَحْيِي، وَلَا يُخْفِي، بَلْ يَقُولُ الْأَمْرَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَنْفَعُ وَأَجْدَى، بِدَلِيلِ: قَوْلِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ﴾.

٦- بيانُ قُدْرَةِ اللهِ على كُلِّ شَيْءٍ، وأنَّ بيْدَهُ الأَمْرَ، وأنَّ الأُمُورَ تأتي على خِلَافِ العادةِ بأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

٧- إثباتُ المِشِيئَةِ لله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ ما شاء اللهُ كانَ، وما لم يشأْ لم يكنْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.



ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۖ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَكِّتًا بِالنُّفُسِ وَالْإِبْكَارِ ۝١١﴾

طَلَبَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلاَمَةً يَسْتَشِيبُهَا، ﴿قَالَ﴾ يعني: زَكَرِيَّا الَّذِي بُشِّرَ بِيَحْيَى ابْنًا لَهُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: صَيِّرْ لِي آيَةً، أي: عَلاَمَةً تَزِيدُنِي طُمَآنِينَةً بِهَذَا الوَعْدِ الصَّادِقِ أَنَّهُ سَيَأْتِينِي وَلَدٌ، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾، أي: أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُكَلِّمَ النَّاسَ، مع أَنَّهُ لَا آفَةَ بِهِ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾، فَالْقَادِرُ عَلَى مَنَعِ الْكَلَامِ مع الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِالْوَلَدِ عَلَى الْكِبَرِ.

فكَانَتِ الْعَلاَمَةُ عَلَى أَنَّهُ سَيَأْتِيهِ وَلَدٌ أَنَّهُ سَيَعْجِزُ عَنْ شَيْءٍ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ، لَكِنْ يَقْدِرُ عَلَى جَنْسِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَوْعِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ أي: اذْكُرْ رَبَّكَ بِلِسَانِكَ، فَصَارَ إِذَا خَاطَبَ النَّاسَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللهُ

ذَكَرَهُ بِكَلَامٍ فَصِيحٍ ﴿وَسَبِّحْ﴾ أَي: سَبِّحْ رَبَّكَ ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾، فالذِّكْرُ والتَّسْبِيحُ يَنْطَلِقُ بِهَا لِسَانُهُ، أَمَّا كَلَامُ النَّاسِ فَلَا يُمَكِّنُ ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ أَي: إشارةً.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الاسْتِثْنَاءَ هُنَا مُنْقَطِعٌ؛ لِأَنَّ الرَّمْزَ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْكَلَامِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الاسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٌ، وَإِنَّ الرَّمْزَ -وهو الإشارة المفهومة- بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ، فَهِيَ مِنْ جِنْسِهِ، وَالْخِلَافُ فِي هَذَا قَرِيبٌ مِنَ اللَّفْظِيِّ، وَإِنْ كَانَ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ اخْتِلَافٌ فِي الْأَحْكَامِ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ يَعْنِي: أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَذَكَرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَكُونُ بِالْقَلْبِ، بَأَن يَسْتَحْضِرَ الْإِنْسَانُ عَظَمَةَ رَبِّهِ دَائِمًا، وَكِبْرِيَاءَهُ، وَفَضْلَهُ، وَإِحْسَانَهُ، فَعِنْدَمَا يَهُمُّ بِالْمَعْصِيَةِ يَذْكُرُ عِقَابَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَعَذَابَ اللَّهِ، وَعِنْدَمَا يَهُمُّ بِالطَّاعَةِ يَذْكُرُ رَحْمَةَ اللَّهِ، وَفَضْلَ اللَّهِ، وَإِحْسَانَهُ.

وَكَذَلِكَ يَكُونُ الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ أَيْضًا، وَهُوَ مَعْرُوفٌ، مِثْلُ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، فَهَذَا ذِكْرٌ بِاللِّسَانِ.

وَالثَّالِثُ: ذِكْرٌ بِالْأَرْكَانِ، يَعْنِي: بِالْجَوَارِحِ، وَهُوَ كُلُّ فِعْلٍ يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ الْبَاءُ هُنَا بِمَعْنَى: (فِي)، وَالْبَاءُ تَأْتِي بِمَعْنَى: (فِي) كَثِيرًا، وَمِنْهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا لَهُمْ مَعْصِيَةً﴾ (١٣٧) وَبِالْإِلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، ﴿وَبِالْإِلِ﴾ يَعْنِي: فِي اللَّيْلِ، فَقَوْلُهُ: ﴿بِالْعَشِيِّ﴾

الباء هنا ظرفية بمعنى: (في)، والعشي: ما بعد زوال الشمس، والإبكار: ما بعد طلوع الفجر.

ففي هذه الآية من الأحكام:

١- أنه لا حرج على الإنسان أن يطلب التثبت الذي تزيد به طمأنينته، وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٢- قدرة الله تبارك وتعالى، حيث كان زكريا يتكلم بالتسبيح والذكر كلاماً عادياً، ومع الناس لا يستطيع أن يتكلم إلا رمزاً.

٣- العمل بالقرائن، وجه ذلك: أن الله تبارك وتعالى جعل لزكريا آية، أي: قرينة تدل على إمكان ما بشر به.

والعمل بالقرائن ثابت، فمن ذلك: قول شاهد يوسف لما اتهمت امرأة العزيز يوسف عليه الصلاة والسلام بأنه راودها عن نفسها، قال الشاهد: ﴿إِنْ كَانَتْ فَمِصُّهُ، قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾؛ لأنه يدل على أنه لحقها، فقدت قميصه، ﴿وَإِنْ كَانَتْ فَمِصُّهُ، قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦-٢٧]؛ لأن ذلك يدل على أنها هي التي لحقته، وأمسكت بقميصه، وهذا قرينة.

ومن ذلك أيضاً: قصة المراتين اللتين خرجتا بأولادهما، ثم أكل الذئب ولد الكبرى، فاختصمتا إلى داود، ثم إلى سليمان، وكان داود قد قضى به للكبرى، أي: بالطفل الباقي، فقال سليمان: لا. ودعا بالسكينة؛ ليشقه نصفين، فيكون للكبرى النصف، وللصغرى النصف، أما الكبرى فوافقت؛ لأنه ليس ولد لها، فليس في قلبها

رَحْمَةً لَهُ، وَأَمَّا الصُّغْرَى فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هُوَ لَهَا. فَقَضَى بِهِ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
لِلصُّغْرَى، فَأَثَرَتْ أَنْ يَبْقَى الْوَلَدُ حَيًّا، وَلَا يَكُونُ مَعَهَا.

٤- الْعَمَلُ بِالْإِشَارَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾،
وَالْإِشَارَةُ الْمَفْهُومَةُ يُعْمَلُ بِهَا، سِوَاءُ كَانَتْ مِنْ أَخْرَسٍ أَوْ مِنْ نَاطِقٍ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ
الدَّلَالَةُ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ، وَهُوَ حَاصِلٌ بِالْإِشَارَةِ كَمَا هُوَ حَاصِلٌ بِالْعِبَارَةِ.

٥- الْحُثُّ عَلَى كَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ تَوَافَرَتِ النُّصُوصُ فِي ذَلِكَ، مِثْلُ:
قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ يَعْنِي: صَلَاةَ الْجُمُعَةِ ﴿فَأَنْشِرُوا فِي الْأَرْضِ
وَأَبْغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَالذَّكِرِ﴾ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّكِرَتِ ﴿[الأحزاب: ٣٥]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُ مَتَسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ
ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

٦- أَنْ التَّسْبِيحَ يَكُونُ صَبَاحًا وَمَسَاءً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ﴾ أَي: مَسَاءً
﴿وَالْإِبْكَرِ﴾ يَعْنِي: صَبَاحًا.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ

الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ﴾ أَي: وَادْكُرْ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ؛ لِمَا فِي هَذِهِ
الْقِصَصِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَالْمَلَأِكَةُ: عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نُورٍ،

وَسَخَّرَهُمْ لِعِبَادَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، و طاعة أمره.

وعبرَ بالملائكة عن الواحدِ منهم؛ لأنَّ المُعْتَبَرَ الجِنْسُ، ويَحْتَمِلُ أَنَّ المُرَادَّ بالملائكة جَمْعٌ، فتتواردُ هذه البُشْرَى من وَاحِدٍ لآخر.

قالت: ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: اختاركِ لِعِبَادَتِهِ ﴿وَوَهَبَكِ﴾ من الشُّرَكِ والأَحْقَادِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ ﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: فَضَّلَكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، والمُرَادُ بنِسَاءِ الْعَالَمِينَ: نِسَاءُ أَهْلِ زَمَانِهَا.

ففي هذه الآية من الأحكام:

١ - مَنْقَبَةُ عَظِيمَةِ لِمَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وقد جاء في الحديث عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»^(١).

٢ - إِبْثَاتُ أَنَّ لِلْمَلَائِكَةِ قَوْلًا مَسْمُوعًا مُكُونًا مِنْ حُرُوفٍ؛ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَتْهُ الْمَلَائِكَةُ مَسْمُوعٌ بِلا شَكٍّ، سَمِعَتْهُ مَرْيَمُ، وَهُوَ مُكُونٌ مِنْ حُرُوفٍ.

٣ - طَهَارَةُ مَرْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِمَّا نَسَبَهُ إِلَيْهَا الْيَهُودُ الْمُفْتَرُونَ، الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهَا كَانَتْ بَغِيًّا، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ.

٤ - أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا حَصَرَ لَهُ، فَلَا يُحْصَرُ بِالذُّكُورِ، وَلَا بِالْإِنَاثِ، بَلْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٣٧٦٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٣١) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَخْتَارُ عَزَّجَلَّ مَا شَاءَ؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

٥- جَوَازُ إِطْلَاقِ الْعَامِّ، وَيُرَادُّ بِهِ الْخَاصُّ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يُعْمُ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ فِي وَقْتِهَا وَبَعْدَهُ وَقَبْلَهُ، وَالْمُرَادُّ: نِسَاءُ الْعَالَمِينَ فِي وَقْتِهَا؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُسَاوِينَ مَرِيَمَ فِي هَذَا الْأَصْطِفَاءِ وَالْفَضْلِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.

٦- أَنَّ هَذِهِ الْمَنْقَبَةَ مُهِمَّةٌ؛ حَيْثُ أَشَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا، وَنَوَّهَ بِذِكْرِهَا.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿يَمْرَيْمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرُّكْعَيْنِ﴾

قَوْلُهُ: ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ الْقُنُوتُ هُوَ: دَوَامُ الطَّاعَةِ مَعَ الْخُشُوعِ. وَالْمُرَادُّ بِالرَّبِّ هُنَا: الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ، لَكِنَّهَا رُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَأَسْجُدِي﴾ أَي: لِرَبِّكِ، وَالسُّجُودُ بَيْنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: عَلَى الْجَبْهَةِ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى أَنْفِهِ - وَالْكَفَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ»^(١).

وقَوْلُهُ: ﴿وَأَرْكَبِي مَعَ الرُّكْعَيْنِ﴾ الرُّكُوعُ: أَنْ يَخْنِي الْإِنْسَانُ ظَهْرَهُ تَعْظِيماً لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب السجود على الأنف، رقم (٨١٢)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود، رقم (٢٣٠ / ٤٩٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وتأمل قوله: ﴿وَأَذَكِّي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ولم يقل: «مع الرَّاكِعَاتِ» إشارةً إلى كمالِ مريمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وأنها في صفوفِ الكُمَّلِ من الرجالِ، وهذا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ الْقَنِينِ﴾ [التحریم: ١٢]، ولم يقل: «من القانتات»؛ لتكونَ داخلةً في الكُمَّلِ من الرجالِ.

في هذه الآيةِ الكريمةِ من الحكمِ والفوائدِ ما يلي:

١- الأمرُ بالقنوتِ، وهو دَوَامُ الطَّاعَةِ مع الخُشُوعِ لله عَزَّوَجَلَّ، وهو بالنسبةِ لمريمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا واضحٌ، وبالنسبةِ لغيرها وجهُ الدلالةِ في هذه الآيةِ عليه: أنَّ هذه عبادةٌ أَمَرَتْ بها امرأةٌ صالحةٌ، فكان المعنى يقتضي أن يكون ذلك عامًّا لكلِّ أحدٍ.

٢- الإشارةُ إلى الإخلاصِ؛ لقوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

٣- أنَّ الإقرارَ بالربوبيةِ لله عَزَّوَجَلَّ يستلزمُ توحيدَ الألوهيةِ؛ لأنَّك إذا اعتقدتَ أنَّ اللهَ وحدهُ هو الرَّبُّ الخالقُ المالكُ المدبِّرُ لجميعِ الأمورِ، لَزِمَكَ ألا تُشْرِكَ معه في العبادةِ أحدًا.

٤- الإشارةُ إلى فضلِ السُّجُودِ والرُّكُوعِ، وذلك لأنَّه خَصَّهْمَا بالذكرِ، وقد ثبتَ عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»^(١).

٥- ذِكْرُ ما يكونُ سببًا للنشاطِ في العبادةِ، وذلك بذِكْرِ عبادةِ الآخرين؛ لقوله تَعَالَى: ﴿وَأَذَكِّي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، وهذا أمرٌ مُجَرَّبٌ، أنَّ الإنسانَ إذا ذَكَرَ له

(١) تقدم تخريجه (ص: ٥٧٣).

شَخْصٌ مُتَعَبِّدٌ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ مُؤَدِّ حَقُوقِ اللَّهِ، وَحَقُوقِ عِبَادِ اللَّهِ، وَطُلِبَ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ، صَارَ هَذَا أَبْلَغَ فِي الْحَثِّ عَلَى فِعْلِ هَذَا.

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَيْهِمْ يَكْفُلْ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤)

قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما سَبَقَ مِنَ الْأَخْبَارِ النَّافِعَةِ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: من أخبار الغيب التي كان النبي ﷺ لا يَعْلَمُهَا وَلَا قَوْمُهُ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وَالْغَيْبُ: ما غَابَ عَنِ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ نَوْعَانِ:

■ غَيْبٌ مُطْلَقٌ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

■ وَغَيْبٌ مُقَيَّدٌ، وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ مَعْلُومًا لِلْأَنَاسِ دُونَ آخَرِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: وَخِي رَسُولَهُ، وَهُوَ -أَعْنِي الْوَحْيَ- شَرْعًا وَاصْطِلَاحًا: إِخْبَارُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الرَّسُولَ بِمَا يُوحِي إِلَيْهِ مِنْ شَرْعٍ أَوْ قَدَرٍ.

قال: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: مَا كُنْتَ عِنْدَهُمْ ﴿إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَيْهِمْ يَكْفُلْ مَرِيَمَ﴾، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ تَنَازَعُوا أَيُّهُمْ يَكُونُ كَافِلًا لِمَرِيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ أَفْلَمْهُمْ فِي النَّهْرِ، وَجَعَلُوا عَلَامَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْعَلَامَةُ لِقَلَمٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ

فهو الَّذِي يَكْفُلُهَا، فَوَقَعَ الْأَمْرُ عَلَى زَكَرِيَّا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: ما كُنْتَ عِنْدَهُمْ حِينَ اخْتِصَامِهِمْ عَلَى هَذَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَاهُ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ، فَبَلَّغَهُ لِلنَّاسِ.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة:

١- إِبْثَاتُ بُرْهَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

٢- الْمَنْقَبَةُ الْعَظِيمَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، حَيْثُ عَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ.

٣- اِعْتِبَارُ الْقُرْعَةِ، وَالْعَمَلُ بِهَا، وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الْقُرْعَةِ فِي الْقُرْآنِ فِي مَوْضِعَيْنِ، هَذَا أَحَدُهُمَا، وَالثَّانِي: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ يُوسُفَ: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١].

وَتَتَعَيَّنُ الْقُرْعَةُ إِذَا اشْتَرَكَ جَمَاعَةٌ فِي شَيْءٍ، وَلَا مَزِيَّةَ لِأَحَدِهِمْ عَلَى الْآخَرِ، فَثَمَّةُ الْقُرْعَةُ لِلتَّمْيِيزِ، وَكَذَلِكَ تَمْيِيزُ الْأَشْيَاءِ الْمُبْهَمَةِ فِي الْمَبِيعَاتِ وَغَيْرِهَا.

المُهِمُّ: أَنَّ الْقُرْعَةَ سَبَبٌ لِتَعْيِينِ الْمُبْهَمِ، وَتَمْيِيزِ الْمُسْتَحَقِّ، وَتَكُونُ فِي الْعِبَادَاتِ، وَفِي الْمُعَامَلَاتِ، وَفِي جَمِيعِ الشُّؤُونِ.

وقد ذَكَرَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ (الْقَوَاعِدُ) أَمْثِلَةً كَثِيرَةً عَلَى الْقُرْعَةِ، فَمَنْ شَاءَ الْمَزِيدَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ^(١).

(١) قواعد ابن رجب (٣/ ١٩٥) القاعدة (١٦٠).

٤- أَنَّهُ عِنْدَ الْاِخْتِصَامِ تُحْلُ الْمُسْكَلَةُ بِالْقُرْعَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ طَرِيقُ آخَرٍ مُّقَدَّمٌ عَلَيْهَا، فَلَوْ تَنَازَعَ شَخْصَانِ فِي الْأَذَانِ، قَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مُؤَدِّنًا. وَقَالَ الْآخَرُ: بَلْ أَنَا. وَلَمْ يُفْضَلِ الْجِيرَانُ وَاحِدًا عَلَى الْآخَرِ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ مَزِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ، فَيُقَرَّعُ بَيْنَهُمَا، وَمَا أَكْثَرَ مَا حُلَّتِ الْمَشَاكِلُ وَهُدَّتِ الْخُصُومَاتُ بِالْقُرْعَةِ.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُومَ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١٥)

الْمَعْنَى: اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْغَرِيبَةَ: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ: ﴿يَمْرُؤُومَ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾، وَهَذَا كَقَوْلِ الْمَلَائِكَةِ لَزَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ نَادَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وَالْبَشَارَةُ: إِخْبَارُ الْإِنْسَانِ بِمَا يَسُرُّهُ، وَقَدْ تُطْلَقُ فِي إِخْبَارِهِ بِمَا يَسُوؤُهُ؛ تَوْسَعًا فِي الْكَلَامِ، مِثْلَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. وَقَوْلُهُ: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أَي: بِإِنْسَانٍ خُلِقَ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ، لَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَعْرُوفِ الْمَأْلُوفِ.

وَالْكَلِمَةُ هِيَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَهُ: «كُنْ» فَكَانَ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وَلَيْسَ الْمَعْنَى: أَنَّ عِيسَى نَفْسَهُ كَلِمَةُ اللَّهِ؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

وقوله: ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ هذا اسمٌ باللقب، و﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هذا اسمٌ بالعلمية، وسُمِّيَ: مَسِيحًا؛ لأنه كان لا يَمْسَحُ ذَا عَاهَةٍ إِلَّا أَبْرَأَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّهُ كَانَ يُرَى الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِمَسْحِ يَدِهِ عَلَى حُلِّ الْمَرَضِ.

وقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نُسِبَ إِلَى مَرْيَمَ؛ لأنه لا أَبَ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ لَهُ أَبٌ فَإِنَّهُ يُنْسَبُ إِلَى أَبِيهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقوله: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: ذَا جَاهٍ، وَاجَاهُ هُوَ: الشَّرَفُ وَالْمَكَانَةُ وَالرَّفْعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، بَلْ هُوَ مِنْ أُولَى الْعِزِّ الَّذِينَ هُمْ أَشْرَفُ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣]، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وهو أيضًا وَجِيهٌ فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ الرُّسُلُ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَهُمْ وَجَاهَةٌ فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا يَأْتِي النَّاسُ إِلَى عِيسَى كَمَا يَأْتُونَ إِلَى آخَرِينَ مِنَ الرُّسُلِ، يَطْلُبُونَ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام:

١ - إِبْطَاتُ الْقَوْلِ لِلْمَلَائِكَةِ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ قَوْلًا مَسْمُوعًا مُكُونًا مِنْ حُرُوفٍ، فَإِنَّهُمْ يُوجِّهُونَ الْقَوْلَ إِلَى مَرْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَتَسْمَعُهُ، وَبِحُرُوفٍ مُكُونَةٍ مُرْتَبَةٍ.

٢- مَشْرُوعِيَّةُ الْبَشَارَةِ بِمَا يَسُرُّ، سواء كانت للشَّخْصِ نَفْسِهِ، أو لغيره، بِمَعْنَى: أَنَّكَ تُخْبِرُ أَخَاكَ الَّذِي يُحِبُّ لَكَ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ بِمَا يَسُرُّهُ فِيكَ، أو تُخْبِرُهُ بِمَا يَسُرُّهُ فِي نَفْسِهِ.

٣- جَوَازُ التَّوَكُّلِ فِي الْأَخْبَارِ وَالْبَشَارَةِ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ ذَكَرَتْ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُهَا، فَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٤- أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مَوْلُودًا عَلَى الْمُعْتَادِ، بَحِثْ يَكُونُ مَوْلُودًا بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَلَكِنَّهُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ فَقَطْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، وَالْكَلِمَةُ هَذِهِ هِيَ قَوْلُهُ: «كُنْ»، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَمَرَ شَيْئًا أَمْرًا كَوْنِيًّا فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ، وَلَا يُمَكِّنَ أَنْ يَتَخَلَّفَ.

٥- جَوَازُ تَهْيِئَةِ الْأَسْمِ قَبْلَ الْوِلَادَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

٦- ذِكْرُ اللَّقَبِ قَبْلَ الْأَسْمِ الْعَلَمِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، فَبَدَأَ بِالْوَصْفِ -وَهُوَ اللَّقَبُ- قَبْلَ الْعَلَمِ -وَهُوَ عِيسَى- وَعَلَى هَذَا فَإِذَا أَخْبَرْتَ عَنْ أَحَدِ الْأَئِمَّةِ بِشَيْءٍ تَقُولُ: قَالَ الْإِمَامُ فَلَانٌ كَذَا وَكَذَا. وَيَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: قَالَ فَلَانُ الْإِمَامُ كَذَا وَكَذَا. فَأَنْتَ مُخَيَّرٌ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، لَكِنْ إِذَا كَانَ لَقَبُهُ أَشْهَرَ مِنْ اسْمِهِ قُدِّمَ اللَّقَبُ.

٧- أَنَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ أَبٌ فَإِنَّهُ يُنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وَهَلْ تَكُونُ أُمُّهُ بِمَنْزِلَةِ أَبِيهِ فِي الْمِيرَاثِ وَغَيْرِهِ؟ فِي هَذَا خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالرَّاجِحُ: أَنَّهَا تُنْزَلُ مَنْزِلَةَ أَبِيهِ فِي الْمِيرَاثِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ نَسَبٌ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كَانَتْ نِسْبَتُهُ إِلَى أُمِّهِ تُؤْذِيهِ، وَيَتَأَثَّرُ بِهَا، فَمَا الْجَوَابُ؟

فالجواب: أن يُسمَّى باسم يُنسبُ إلى أبٍ بالوصف، لا بالعين، فمثلاً يُقال: عبدُ الله بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ. و(عبدُ الرَّحْمَنِ) تَصْلُحُ لكلِّ أحدٍ، أو: عبدُ العَزِيزِ بنُ عبدِ الكَرِيمِ. أو ما أشبه ذلك.

٨- فضيلةُ عيسى ابنِ مريمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنَّهُ وَجِيهٌ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الآخِرَةِ، وَمِنْ وَجَاهَتِهِ فِي الآخِرَةِ: أَنَّهُ أَحَدُ الرُّسُلِ الَّذِينَ يُرَاجِعُهُم النَّاسُ فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ.

٩- فضيلةُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لكَوْنِهِ مُقَرَّبًا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَفْضَلِ بَنِي آدَمَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بِمَاذَا يَحْصُلُ التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟

فالجواب: يَحْصُلُ التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِالطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»^(١)، وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْسِيهِ أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً»^(٢).

نَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.



(١) تقدم تخريجه (ص: ٥٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥ / ٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما أخرجه مسلم في الموضع السابق برقم (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤٦)

هذه من آيات عيسى عليه السلام، أنه يكلم الناس وهو في المهد صغير، وهذا خلاف ما جرت به العادة؛ فإن الصبي لا يمكن أن يتكلم في المهد، لكن الله على كل شيء قدير، وهو أنطق كل شيء.

وقوله: ﴿وَكَهْلًا﴾ أي: كبيراً، وكلامه في مهده ككلامه في كهولته، يعني: أنه كلام مفهوم معلوم، ويدل لهذا: ما في سورة مريم لما أشارت إليه، قالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَتْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢١) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَلَدَيْ وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿ [مريم: ٢٩-٣٣]، وهذا كلام عظيم من أفصح الكلام وأبينه، وهو في المهد.

وقوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: وهو من الصالحين، أي: الذين قاموا بحقوق الله، وحقوق عباده.

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١ - تمام قدرة الله تبارك وتعالى، وأنه على كل شيء قدير، ينطق من لا عهد له بالنطق، ويسكت من له عهد بالنطق، وسبق في قصة زكريا أن الله أعطاه آية ألا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا.

٢ - أنها مناسبة للحال؛ فإن زمن عيسى - على ما قالوا - كان زمن تقدم في الطب، والطبيب مهما كان تقدمه لا يمكن أن يعالج صبيًا، ف جاءت هذه

الآية مُعْجِزَةً لَهُؤُلَاءِ الْأَطِبَّاءِ؛ لَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَهَا أَبَدًا.

٣- الثَّنَاءُ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَوْنِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا، وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٧)

قَوْلُ مَرْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ هذا الاستِفْهَامُ لَيْسَ لِلِاشْكَالِ أَوْ لِلشَّكِّ فِي بُشْرَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنْ لِلتَّعَجُّبِ أَنْ يَكُونَ لَهَا وَلَدٌ، وَلَمْ يَمَسْسْهَا بَشَرٌ، أَي: لَمْ يُجَامِعْهَا؛ لِأَنَّ الْمَسَّ يُكْنَى بِهِ عَنِ الْجَمَاعِ، كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦].

﴿قَالَ﴾ أَي: اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، أَي: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ وَلَدًا مِنْ غَيْرِ مَسٍّ بَشَرٍ ﴿إِذَا فَضَى أَمْرًا﴾ أَي: قَدَرَهُ وَقَضَى أَنْ يَكُونَ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾، كَلِمَةً وَاحِدَةً: ﴿كُنْ﴾، فَيَكُونُ مَعَهَا كَانِ هَذَا الْأَمْرُ، وَيَكُونُ حَسَبَ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

ولهذا لما أمر الله القلم أن يكتب قال: رب، وماذا أكتب؟ قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة^(١)، وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، يعني: أنه جل وعلا إذا أمر لا يكرر الأمر، إنما هو أمر واحد يكون به ما أراد سبحانه وتعالى؛ لكمال قدرته وسلطانه.

ففي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

- ١- بيان جواز سؤال الإنسان عن الشيء الذي يستغرب، حتى ولو كان المخبر صادقاً؛ لأن ذلك فيه اطمئنان القلب، وطرد الشك والوساوس.
- ٢- أن الولد لا يأتي إلا بأب؛ لقولها: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾، هذه هي العادة المطردة، ولكن قدرة الله تبارك وتعالى فوق العادة، قال العلماء: والإنسان في هذه المسألة أربعة أقسام:

 - مخلوق بلا أم ولا أب، وهو آدم عليه الصلاة والسلام، خلقه من تراب.
 - ومخلوق من أب بلا أم، وهي زوجته حواء.
 - ومخلوق من أم بلا أب، وهو عيسى عليه الصلاة والسلام.
 - ومخلوق بين أبوين، وهم سائر البشر.

والله تعالى على كل شيء قدير.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في الرضا بالقضاء، رقم (٢١٥٥)، وأحمد (٣١٧/٥) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣- أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، سواء كان جاريًا على وَفْقِ الْعَادَةِ أَوْ مُحَالِفًا، وَالْخَلْقُ هُوَ الْإِبْجَادُ بِالتَّقْدِيرِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالتَّنْظِيمِ.

٤- أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، و﴿أَمْرًا﴾ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ، وَالنَّكْرَةُ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهَا لِلْعُمُومِ، يَعْنِي: أَيُّ أَمْرٍ يَقْضِيهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ، وَالْمُرَادُ بِالْقَضَاءِ هُنَا: الْقَضَاءُ الْكَوْنِيُّ الْقَدَرِيُّ؛ لِأَنَّ الْقَضَاءَ نَوْعَانِ:

■ قَضَاءٌ شَرْعِيٌّ، وَهُوَ: مَا قَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى شَرْعًا مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الَّتِي يُكَلِّفُ بِهَا عِبَادَهُ.

■ وَقَضَاءٌ قَدَرِيٌّ، لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ حِيلَةٌ، وَهُوَ: مَا يَقْضِيهِ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقًا وَتَكْوِينًا.

وَلِكُلِّ مِنْهُمَا شَوَاهِدٌ، فَمِنْ الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ف: (قَضَى) بِمَعْنَى: شَرْعٌ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى: قَدَّرَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمَعْنَى: قَدَّرَ لَكَانَ كُلُّ الْعِبَادِ مُحْلَصِينَ، لَا يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ، لَكِنَّهُ قَضَى، أَي: شَرْعٌ، فَمِنْ الْخَلْقِ مَنْ ذَلَّ وَعَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ اسْتَكْبَرَ.

وَمِنْ الْقَضَاءِ الْقَدَرِيِّ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، ف: (قَضَيْنَا) بِمَعْنَى: قَدَّرْنَا، وَلَيْسَ قَضَاءٌ شَرْعِيًّا؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَقْضِي شَرْعًا أَنْ يُفْسِدَ أَحَدٌ فِي الْأَرْضِ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

ومن ذلك: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على سُلَيْمَانَ ﴿الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ﴾ أي: دَلَّ الْجِنَّ ﴿عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾؛ لِأَنَّ الْجِنَّ يَدْعُونَ أَتَمَّ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، فَأَرَادَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْ يَفْضَحَهُمْ، وَيُبَيِّنَ أَتَمَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، فَمَاتَ سُلَيْمَانُ عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَالْجِنُّ تَعْمَلُ وَتَكْدَحُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَهُمْ لَهُ؛ كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ۖ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧-٣٨]، وَبَقُوا عَلَى هَذَا الْعَذَابِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَيِّتٌ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِحِكْمَتِهِ دَابَّةَ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْأَرَضَةُ الْمَعْرُوفَةُ، فَأَكَلَتْ مِنْسَأَتَهُ، وَهِيَ مَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ (عَصَا)، فَخَرَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾، وَهَذَا قَضَاءُ قَدَرِيٍّ. وَهُنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قَضَوْا أَمْرًا﴾ الظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ، وَأَنَّ الْقَضَاءَ هُنَا هُوَ الْقَضَاءُ الْقَدَرِيُّ.

٥ - مَسْأَلَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْعَقِيدَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾، فِيهَا دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى إِبْطَالِ الْقَوْلِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَنَّهُ يَقُولُ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ وَجْهِهِ إِلَيْهِ الْقَوْلُ، وَبِحُرُوفٍ يَكُونُ مِنْهَا الْكَلَامُ، فَهَذَا يَقُولُ لَهُ: «كُنْ»، وَهِيَ حُرُوفٌ، فَيَكُونُ. وَهَذَا يَتَضَمَّنُ الرَّدَّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَكَلَّمُ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، وَإِنَّمَا كَلَامُهُ هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي فِي نَفْسِهِ. وَهَذَا يَعْنِي نَفْيَ الْكَلَامِ فِي الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا مَا قِيلَ: إِنَّهُ قَالَ، أَوْ تَكَلَّمَ. وَلَوْ فُرِضَ أَنَّهُ نُسِبَ الْقَوْلُ إِلَى هَذَا لَقِيْدَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

فَاعْتَدْ - أَخِي الْمُسْلِمَ - أَنَّ رَبَّكَ يَتَكَلَّمُ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، يَتَكَلَّمُ
بِهَا شَاءَ، وَيَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ، وَيَتَكَلَّمُ كَيْفَ شَاءَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ
مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]،
وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ يَعْنِي: لَوْ كَانَتْ جَمِيعُ الْأَشْجَارِ
فِي الْأَرْضِ أَقْلَامًا ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ يَعْنِي: كَانَ مِدَادًا يُكْتَبُ
مِنْهُ مِثْلَ الْحَبْرِ ﴿مَا نَفِذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، تَعَالَى اللَّهُ.

٦ - أَنَّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ كَوْنًا كَانَ فَوْرًا، بِدَلِيلِ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَيَكُونُ﴾، فَإِنَّهَا دَالَّةٌ
عَلَى التَّرْتِيبِ وَالتَّعْقِيبِ.

وَانْظُرْ - أَخِي الْمُسْلِمَ - قَوْلَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾
[القمر: ٥٠]، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَمَرَ أَمْرًا وَاحِدًا فَقَطْ، وَصَارَ الْمَأْمُورُ فَوْرًا
كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ، تَعَالَى اللَّهُ.

وَانْظُرْ إِلَى الْوَقَائِعِ تَشْهَدُ بِهَذَا، فَالزَّلَازِلُ تَقَعُ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَتُدمَّرُ بِلَحْظَةٍ مَا لَا
تُدمَّرُ الْقَنَابِلُ الْعَظِيمَةُ الثَّقِيلَةُ فِي أَيَّامٍ.

وَانْظُرْ إِلَى مُوسَى لَمَّا ضَرَبَ الْبَحْرَ تَمَيَّزَ الْبَحْرُ فَوْرًا، وَتَفَرَّقَ، وَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ
كَالطُّودِ الْعَظِيمِ، أَيْ: كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ، ثُمَّ الْأَرْضُ الَّتِي هِيَ أَرْضُ الْبَحْرِ الرَّطْبَةُ
صَارَتْ يَابِسَةً فِي الْحَالِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ
دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، فَسُبْحَانَ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الْقَوِيِّ الْقَهَّارِ،
وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (١٨)

قَوْلُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ الْفَاعِلُ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَالْمَعْلُمُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي: الْوَحْيَ الْمُنَزَّلَ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ الْمَكْتُوبَ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يَعْنِي: مَعْرِفَةَ أَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ وَمَقَاصِدِهَا ﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ يَعْنِي: الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ يَعْنِي: الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذه بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِمَرِيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ ابْنَهَا هَذَا سَيِّئًا هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ الْعَظِيمَةُ.

ففي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- إخبار الإنسان بما يسرُّه، ويُسمَّى هذا: بَشَارَةٌ.

٢- فَضِيلَةُ الْعِلْمِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْعِلْمَ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ وَأَجَلِّهَا وَأَعْظَمِهَا أَثَرًا وَتَأْثِيرًا، حَتَّى قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْعِلْمُ لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ لِمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ. قالوا: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، كَيْفَ تَصْلُحُ النِّيَّةُ؟ قَالَ: يَنْوِي رَفَعَ الْجَهْلَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ غَيْرِهِ^(١).

٣- التَّرغِيبُ فِي مَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ وَأَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ، حَتَّى يَكُونَ الْإِنْسَانُ عَلَى طَمَآنِينَةٍ وَاقْتِنَاعٍ تَامٍّ.

٤- الثَّنَاءُ عَلَى هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ: التَّوْرَةِ، وَالْإِنْجِيلِ.

(١) مسائل الإمام أحمد لابن هانئ (١٦٨/٢)، وَيُنْتَظَرُ: الفروع (٣٣٩/٢).

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الْفَائِدَةُ مِنْ تَعْلِيمِ عِيسَى التَّوْرَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْإِنْجِيلُ؟
فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْإِنْجِيلَ مُتَمِّمٌ لِلتَّوْرَةِ، وَالْأَصْلُ هِيَ التَّوْرَةُ، كَمَا قَالَ عِيسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَلَا حُدَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]،
فَالْإِنْجِيلُ مُتَمِّمٌ، وَلَيْسَ مُسْتَقِلًّا.

وَالتَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ قَدْ نُسخَا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالَّذِي نَسَخَهُمَا هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
الَّذِي أَنْزَلَهُمَا، فَلَا يُتَعَبَّدُ لِلَّهِ بِهِمَا بَعْدَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، بَلْ قَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى مَعَ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ شَيْئًا مِنَ التَّوْرَةِ، فغَضِبَ، وَقَالَ: «أَمْتَهُوْكَونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟! لَقَدْ أَتَيْتُ بِهَا بَيضَاءَ نَفْيَةٍ، لَوْ كَانَ أَخِي مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»^(١).

وَيَتَفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: تَحْرِيمُ الرُّجُوعِ إِلَى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ؛ لِأَنَّهُمَا كِتَابَانِ
مَنْسُوخَانِ لَا عَمَلَ عَلَيْهِمَا، وَكُلُّ مَا فِيهِمَا مِنْ خَيْرٍ خَبَرِيٍّ أَوْ حُكْمِيٍّ فِي الْقُرْآنِ
مِثْلُهُ أَوْ خَيْرٌ مِنْهُ، فَلَا يَجُوزُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِمَا، وَلَا قِرَاءَتُهُمَا، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا قَرَأَهُمَا إِنْسَانٌ
مُتَمَكِّنٌ فِي عِلْمِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُوقِنٌ بِإِقَانًا لَا شَكَّ فِيهِ، وَقَرَأَهُمَا؛ لِيَعْرِفَ
مَا فِيهِمَا مِنْ حَقٍّ يَشْهَدُ لَهُ الْقُرْآنُ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ حَقٍّ يَشْهَدُ لِلْقُرْآنِ، وَلِيَعْلَمَ التَّحْرِيفَ
وَالْتَّبْدِيلَ وَالتَّغْيِيرَ الَّتِي وَقَعَتْ مِمَّنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَتْبَاعُ لَهَا، فَهَذَا لَا حَرَجَ عَلَيْهِ أَنْ
يَقْرَأَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ؛ لِيُزِدَّ عَلَى مَنْ يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ مِنْهُمَا، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ
الْعُلَمَاءِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: التَّوْرَةُ الْمَوْجُودَةُ وَالْإِنْجِيلُ الْمَوْجُودُ بَيْنَ أَيْدِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،
هَلْ فِيهِمَا تَغْيِيرٌ، أَوْ تَبْدِيلٌ، أَوْ إِخْفَاءٌ، أَوْ إِضَافَةٌ؟

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٣/ ٣٨٧) مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجوابُ: نَعَمْ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

وكذلك وَقَعَ لِلنَّصَارَى، وَتَحْرِيفُهُمْ وَتَغْيِيرُهُمْ ظَاهِرٌ، حَتَّى قَسَمُوا الْإِنْجِيلَ الَّذِي يَدْعُوهُ مُنْزَلًا عَلَى عِيسَى، وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ هُوَ الْإِنْجِيلُ، لَكِنَّا لَا نَقُولُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي بَيْنَ أَيْدِي النَّصَارَى؛ لِأَنَّهُمْ بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا حَتَّى جَعَلُوهُ أَرْبَعَةَ أَنْجِيلٍ، أَوْ خَمْسَةَ أَنْجِيلٍ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤١﴾

قال عز وجل مُبَشِّرًا بَشَارَةً ثَانِيَةً: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يَعْنِي: وَيُرْسِلُهُ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالرُّسُلُ أَشْرَفُ أَنْوَاعِ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ رُسُلٌ وَأَنْبِيَاءُ وَصِدِّيقُونَ وَشُهَدَاءُ وَصَالِحُونَ، وَأَفْضَلُهُمُ الرُّسُلُ.

وقوله: ﴿إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يَعْنِي: بَنِي يَعْقُوبَ؛ لِأَنَّ إِسْرَائِيلَ لَقَبُ لِيَعْقُوبَ ابْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ.

وقوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هذا تفسيرٌ للرَّسالة، أي: علامةٌ من الله عزَّ وجلَّ تدلُّ على قُدرةِ الله تبارك وتعالى، وعلى صِدْقِ رسالةِ عيسى، والآيةُ في اللُّغة: العلامةُ، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَتُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، يعني: أولم يكن لهم علامةٌ تدلُّ على أنه نزلَ من ربِّ العالمين -يعني: القرآن- أن يَعْلَمَهُ علماءُ بني إسرائيل.

ثمَّ يَبَيِّنُ شيئاً من الآياتِ، قال: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: أخلقُ لكم من الطِّينِ صورةً كهَيْئَةِ الطَّيْرِ، وهي من الطِّينِ، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، يعني: يكونُ طَيْرًا حَقِيقَةً، ولهذا في قِراءةٍ أُخرى: ((فَيَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِ اللَّهِ))^(١)، وهذه قُدرةٌ عظيمةٌ، أن طَيْرًا من طِينٍ يُنْفَخُ، فَتَحِلُّ فِيهِ الرُّوحُ، وَيَتَحَرَّكُ، وَيَطِيرُ، وهذا مِثَالٌ.

مِثَالٌ آخَرُ: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وأضافَ الإِبْرَاءَ إلى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لَأَنَّهُ سَبَّبُ، وإِلَّا فَالْبَارِئُ وَالْمُبْرِئُ هُوَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ.

والأَكْمَهُ هُوَ: الَّذِي لَيْسَ لَهُ عَيْنٌ، وَالْأَبْرَصُ: الَّذِي تَغَيَّرَ جِلْدُهُ بِمَرَضِ الْبَرَصِ.

وقوله: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني: يَرْجِعُ الْمَيِّتُ حَيًّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وفي الآيةِ الثَّانِيَةِ قال اللهُ لَهُ: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، أي: تُخْرِجُ الْمَوْتَى مِنَ الْقُبُورِ بِإِذْنِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، أي: بِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

مِثَالٌ ثَالِثٌ: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، وهذا من جُمْلَةِ رِسَالَتِهِ، وَهُوَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، لَكِنَّ اللَّهَ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ، قَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ

(١) هي قِراءةٌ نَافِع، وَقَرَأَ بَاقِيَ السَّبْعَةِ بِغَيْرِ أَلْفٍ، انْظُرْ: الْكُشْفُ عَنْ وَجْهِ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ (١/ ٣٤٥).

فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٣٦﴾ إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٣٧﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ يقولُه عيسى عليه السلام، يعني: إِنَّ فِي ذَلِكَ الْمَذْكُورِ لَآيَةً لَّكُمْ، أي: علامة لَّكُمْ على أَنَّ عيسى صادق، وعلى قُدرة الله عزَّ وجلَّ أَنْ يَخْلُقَ هذا الإنسانَ من غيرِ أبٍ على خلافِ العادة.

وكذلك إحياء الموتى وإخراجهم من القبور على يد إنسانٍ خلافِ العادة، وإبراء الأكمه والأبرص خلافِ العادة، ولهذا لا أحد - إلى الآن - يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبرِّئَ الأكمه والأبرص إِلَّا الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: فآمنوا؛ لأنَّ هذا أمرٌ واقعٌ، لا يُمكنُ إنكارُه.

نَسألُ الله تعالى أَنْ يُرِينَا من آيَاتِهِ ما تَطْمَئِنُّ به قُلُوبُنَا، وتَطْيِبُ به نَفُوسُنَا، وأنَّ يُوفِّقَنَا لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى؛ إِنَّه على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام:

١ - أَنْ من أعظمِ منَّةِ الله على عباده أَنْ يَتَّخِذَ منهم رُسُولا، ومن المعلوم أنَّه لا رَسُولَ بعدَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، ولكنْ هُنَاكَ وَرَثَةُ يَرِثُونَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - في أُمَّتِهِ تَعْلِيمًا وَتَرْبِيَةً وَدَعْوَةً، وهُمُ الْعُلَمَاءُ، وقد جاءَ في الحديثِ أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ^(١)، والمرادُ بذلك: الْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب في فضل العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء، رقم (٢٢٣)، وأحمد (١٩٦/٥) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بها عِلْمُوا، الْمُحَقِّقُونَ لِإِثْنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فِي عِبَادَتِهِ، وَتَعْلِيمِهِ، وَدَعْوَتِهِ، وَجِهَادِهِ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: الْحُثُّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ؛ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ وَارِثًا لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

٢- أَنَّ رِسَالَةَ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَاصَّةٌ، وَلَيْسَتْ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿إِلَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، وَالْمَقَامُ مَقَامُ بَشَارَةٍ، وَلَوْ كَانَتْ رِسَالَتُهُ تَعْمُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ لُبَشِّرَ بِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ - يَعْنِي: الشَّفَاعَةَ الْعُظْمَى - وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(١).

٣- أَنَّ الرَّسُولَ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ، وَإِلَّا لَمْ تَقُمْ بِهِ الْحُجَّةُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ مَا مِنْ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ^(٢)؛ حَتَّى لَا يَكُونَ لِأَحَدٍ عُدْرٌ.

٤- أَنَّ الْآيَاتِ لَا تَحْصُلُ بِكَسْبِ الْإِنْسَانِ وَعَمَلِهِ، بَلْ هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد، رقم (٥٢١) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا، رقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿مَنْ رَزَقْنَاهُ﴾، وَيَشْهَدُ لِهَذَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا أَلَايْتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

٥- أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ الْحُكْمُ، فَقَدْ يَأْذُنُ فِي شَيْءٍ فِي وَقْتٍ، وَيَمْنَعُهُ فِي وَقْتٍ، فَالصُّورَةُ بِالتَّمْثَالِ مُحَرَّمَةٌ، لِعَيْنِ فَاعِلِهَا، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ^(١)، لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ مَصْلَحَةُ التَّصْوِيرِ فِي زَمَنِ عِيسَى رَابِيَةً عَلَى مَفْسَدَتِهِ أُبِيحَ لَهُ أَنْ يُصَوِّرَ صُورًا تِمْنَالِيَّةً، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾.

٦- تَمَامُ قُدْرَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنْفُخُ فِي هَذَا التَّمْثَالِ مِنَ الطِّينِ، وَيَكُونُ طَيْرًا حَيًّا يَتَحَرَّكُ وَيَطِيرُ.

٧- أَنَّ جَمِيعَ الْأَسْبَابِ لَا تَسْتَقِلُّ بِالتَّأْثِيرِ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾، وَإِلَّا فَعِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا الْفِعْلَ، لَكِنْ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

٨- أَنَّ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ لَا عِلَاجَ لَهَا فِيمَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَبْرَأْتُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْبَشَرُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبْرِئَهُمَا بِمَا اكْتَسَبَهُ مِنْ عِلْمِ الطَّبِّ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ آيَةً لِعِيسَى.

٩- الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ عَلَى إِثْبَاتِ الْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِقَوْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فَالْقَادِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى فِي الدُّنْيَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَائِهِمْ فِي الْآخِرَةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب مهر البغي، رقم (٥٣٤٧) من حديث أبي جحيفة

١٠- أَنْ اللَّهَ قَدْ يُطْلِعُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ عَلَى مَا يَخْفَى مِنْ أَفْعَالِ الْآخَرِينَ؛ لِقَوْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

١١- الإشارة إلى فائدة اقْتِصَادِيَّةٍ عَظِيمَةٍ، وهي: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي لَهُ فِيمَا رَزَقَهُ اللَّهُ أَنْ يَأْكُلَ مَا يَحْتَاجُ إِلَى أَكْلِهِ، وَيَدَّخِرَ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَكْلِهِ، وَالْأَيُّسِرْفُ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا تَوَفَّرَ عِنْدَهُ الرِّزْقُ مِنْ طَعَامٍ أَوْ غَيْرِهِ أَسْرَفَ حَتَّى يَنْفَدَ بِسُرْعَةٍ، وَهَذَا غَلَطٌ.

ولهذا أُرْسِدَ يُوسُفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْمَلِكَ الَّذِي رَأَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عَجَافٍ، وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ، قَالَ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿[يوسف: ٤٧-٤٨].

١٢- مِنْهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، حَيْثُ يُعْطِي الرَّسُولَ آيَاتٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ نِعْمَةً عَلَى الرَّسُولِ، وَعَلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ يَقْوَى بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْآيَاتِ، وَالْمُرْسَلِ إِلَيْهِ يَطْمَئِنُّ وَيُصَدِّقُ، وَلَا يَعْتَرِيهِ الشَّكُّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أَي: فَآمِنُوا، فَإِنَّهَا آيَةٌ بَيِّنَةٌ.

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا إِيمَانًا لَا كُفْرَ مَعَهُ، وَيَقِينًا لَا شَكَّ مَعَهُ، وَإِخْلَاصًا لَا شِرْكَ مَعَهُ، وَاتِّبَاعًا لَا ابْتِدَاعَ مَعَهُ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿٥٠﴾

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ جَاءَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ، وَهَذَا لَهُ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ التَّوْرَةُ أَخْبَرَتْ بِهِ، فَجَاءَ تَصْدِيقًا لِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ.
وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ مُصَدِّقٌ بِالتَّوْرَةِ بِأَنَّهَا حَقٌّ.

وَالتَّوْرَةُ هِيَ: الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي: أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعِثَ لِيُحِلَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشْيَاءَ بَظْلَمِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَي: بِعَلَامَةٍ عَلَى صِدْقِي، وَالْآيَةُ هِيَ: الْعَلَامَةُ الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَتْ عِلَامَةٌ عَلَيْهِ، وَمِنْ شَرْطِهَا بِالنِّسْبَةِ لِلرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَلَّا يَتِمَكَّنَ الْبَشَرُ مِنَ الْإِثْيَانِ بِمِثْلِهَا.

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جاءَ بآياتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، منها:

■ أَنَّهُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ.

■ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، بل يُخْرِجُهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وهذا لَا يُمَكِّنُ لِلْبَشَرِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ رَزَقْنَاهُ﴾ إشارةٌ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْقَبُولُ؛ لِأَنَّهُمْ مَرْبُوبُونَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، عِبَادٌ لَهُ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصَدِّقُوا بِمَا أَخْبَرَ بِهِ، وَأَنْ يَمْتَثِلُوا مَا أَمَرَ بِهِ، وَأَنْ يَجْتَنِبُوا مَا نَهَى عَنْهُ، ولهذا أَعْقَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، وَأَتَى بِالْفَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّفْرِيعِ.

فَأَمَرَهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وما أَكْثَرَ ما تَمُرُّ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ: أَنْ يَتَّخِذَ الْإِنْسَانُ وِقَايَةً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَذَلِكَ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ عَلَى عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أي: امْتَثِلُوا أَمْرِي، فلا تُخَالِفُونِي.

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١- أَنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاءَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ السَّابِقَيْنِ.

٢- أَنَّ مِنْ حُسْنِ إِقَامَةِ الدَّلِيلِ: أَنْ يَسْتَدِلَّ الْإِنْسَانُ بِشَيْءٍ يُقَرُّ بِهِ الْحَصْمُ؛ لِيَكُونَ مُلْزَمًا لَهُ، فَإِنَّ أَهْلَ التَّوْرَةِ قَرَأُوهَا، وَعَرَفُوا مَا جَاءَتْ بِهِ عَنْ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَرَأُوا الْإِنْجِيلَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِمَا يُكَذِّبُ التَّوْرَةَ.

٣- جَوَازُ النَّسْخِ، أي: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَنْسَخُ مَا يَشَاءُ، فَيَجْعَلُ الْحَرَامَ حَلَالًا، وَالْحَلَالَ حَرَامًا، وَالوَاجِبَ مُبَاحًا، وَالْمُبَاحَ وَاجِبًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ الْحُكْمُ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ.

ولَئِنْ هَلْ يَنْسَخُ لِمَجَرَّدِ إِرَادَةٍ وَمَشِيئَةٍ، أَوْ يَنْسَخُ لِحِكْمَةٍ اقْتَضَتْ أَنْ يُغَيَّرَ الْحُكْمُ الْأَوَّلُ؟

الجوابُ هو: الثَّانِي، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْسَخُ حُكْمًا إِلَى آخَرٍ إِلَّا لِحِكْمَةٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ، فَتَكُونُ الْحِكْمَةُ فِي الْمَنْسُوخِ، وَفِي النَّاسِخِ، فِي الْمَنْسُوخِ؛ لِأَنَّهُ صَارَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلأُمَّةِ، وَفِي النَّاسِخِ؛ لِأَنَّهُ صَارَ مُنَاسِبًا لِلأُمَّةِ.

٤- أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَ بِالتَّيْسِيرِ وَالتَّسْهِيلِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حَيْثُ أَحَلَّ لَهُمْ بَعْضَ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ.

٥- أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَى بِآيَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ، وَهَكَذَا كُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْعَلُ عَلَى يَدَيْهِ آيَاتٍ يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهَا الْبَشَرُ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ.

أَمَّا كَوْنُهُ حِكْمَةً فَلأنَّهُ يَبْعُدُ أَنْ يُطِيعَ النَّاسُ رَجُلًا يَقُولُ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ. بِدُونِ آيَةٍ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ تَكُونَ الْآيَاتُ مُقَارِنَةً لِلرَّسَالَاتِ.

وَأَمَّا الرَّحْمَةُ فَهِيَ أَنَّ اللَّهَ أَقَامَ الدَّلِيلَ عَلَى صِدْقِ رُسُلِهِ؛ رَحْمَةً بِالْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، حَتَّى يُؤْمِنُوا وَيَتَّبِعُوا، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٦- وَجُوبُ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي كُلِّ مِلَّةٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وَعَرَفَتْ أَهْلِ الْقَارِئُ مَعْنَى التَّقْوَى.

٧- وَجُوبُ طَاعَةِ الرَّسُولِ؛ حيث قال: ﴿وَأَطِيعُوا﴾، وهذا لا شك أنه هو العَرَضُ والمراد من إرسال الرُّسُلِ، أَنْ يَقُومُوا بِالطَّاعَةِ، وَإِلَّا فَمَا فَائِدَةُ الرَّسُولِ إِذَا لَمْ يُطِيعِ الْخَلْقُ؟!

٨- أَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى اللَّهِ يَنْبَغِي أَنْ يَذْكُرَ مَا يَكُونُ مُلْزِمًا بِالطَّاعَةِ؛ حيث قال عِيسَى: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وَالرَّبُّ لَهُ الْحُكْمُ، وَلَهُ الطَّاعَةُ؛ لِأَنَّهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٥١)

هذه الجملة تأكيدٌ لِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِعِيسَى وَمَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ، وَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿فَأَعْبُدُوا﴾ أَي: قُومُوا بِعِبَادَتِهِ، وَذَلِكَ بِالتَّذَلُّلِ لَهُ بِفِعْلٍ مَا أَمَرَ بِهِ تَعَالَى، وَتَرَكِ مَا نَهَى عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿هَذَا﴾ أَي: مَا جِئْتُ بِهِ ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَي: طَرِيقٌ يُوَصِّلُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، مُسْتَقِيمٌ لَيْسَ بِهِ اعْوِجَاجٌ.

ففي هذه الآية الكريمة فوائد، منها:

١- إقرارُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَبُّهُ، وَأَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ لَهُ ثَابِتَةٌ كَمَا ثَبَتَتْ رُبُوبِيَّتُهُ لِغَيْرِهِ.

٢- إبطالُ قولِ النَّصَارَى أَنَّ عِيسَى إِلَهُ، فَإِنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا بَاطِلٌ، يُنْكِرُهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلِهَذَا كَانَ يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِذَا سَأَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿يَعِيسَى

أَبْنِ مَرِيْمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوْنِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَيَقُولُ: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُوْنُ لِي أَنْ أَقُوْلَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوْبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

٣- أَنْ مَنْ أَقَرَّ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لَزِمَهُ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَقَرَّ بِأَنَّ اللَّهَ الْخَالِقَ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرَ لِلْأُمُورِ كُلِّهَا، كَانَ إِقْرَارًا مِنْهُ بِأَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، فَيَعْبُدُهُ.

ولهذا يُقِيْمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْحُجَّةَ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُقِرُّونَ بِالْوَهِيَّةِ، أَي: بِإِنْفِرَادِهِ بِالْأُلُوْهِيَّةِ.

٤- وَجُوبُ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا هُوَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خُلِقَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوْا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِيْنُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وَالْعِبَادَةُ صَلَاحُ الْأَمَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ضَابِطٍ يَضْبِطُ النَّاسَ، وَالرُّجُوعُ فِي ذَلِكَ إِلَى عُقُولِ النَّاسِ يُوجِبُ الْفَوْضَى؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لَهُ عَقْلٌ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْمُنْظَمَ لِلْأَمَّةِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الرُّجُوعُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَبِهَا صَلَاحُ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

٥- أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ هِيَ الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الْمُوَصِّلُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ صِرَاطٌ مُعْوَجٌّ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُعْوَجًّا اِعْوِجَاجًا تَامًّا كَالْكُفْرِ الْأَكْبَرِ، أَوْ مُعْوَجًّا اِعْوِجَاجًا نَاقِصًا كَالْفُسُوقِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أَي: عَلِمَهُ بِحِسِّهِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ تَأَكَّدَ مِنْ كُفْرِهِمْ ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ يَعْنِي: مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ يَنْضَمُّونَ مَعِيَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؟ ﴿قَالَكَ الْخَوَارِثُ﴾ وَهُمْ أَصْحَابُهُ الْخُلُصُ ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾، قَالُوا ذَلِكَ إِقْرَارًا، وَاسْتِعْدَادًا لِمَا سَيُطَلَبُ مِنْهُمْ فِي نُصْرَةِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ أَعْلَنُوا إِيَّاهُمْ، قَالُوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾؛ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ صَادِرٌ عَنْ إِيْمَانٍ وَاقْتِنَاعٍ، ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يَعْنِي: أَشْهَدُ يَا عِيسَى أَنَّا مُسْلِمُونَ، أَي: مُنْقَادُونَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ مَعَ الْإِيْمَانِ، فَجَمَعُوا بَيْنَ الْاسْتِسْلَامِ الْقَلْبِيِّ، وَالْاسْتِسْلَامِ الْبَدَنِيِّ، الْاسْتِسْلَامِ الْبَاطِنِ، وَالْاسْتِسْلَامِ الظَّاهِرِ.

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اسْتَمَرَّ فِي دَعْوَةِ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يُجِدْ شَيْئًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾.

٢ - جَوَازُ الْإِنْتِدَابِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لِقَوْلِ عِيسَى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ.

٣ - أَنَّ بَنِي آدَمَ مُفْتَقِرُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى مُسَاعَدَةِ بَعْضٍ؛ لِقَوْلِ عِيسَى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

٤- الإشارة إلى الإخلاص، وأن يتبغى الإنسان بعمله وجه الله عز وجل؛ لقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

٥- فضيلة الحواريين؛ حيث انتدبوا إلى ما ندبهم إليه نبيهم عيسى عليه السلام، فقال الحواريون: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

٦- جواز قول القائل: آمنت بالله. أو: أنا مؤمن بالله. بدون استثناء، وذلك لأنه خبر عن شيء واقع، والخبر عن شيء واقع لا تدخل فيه المشيئة التي يقصد منها التعليق؛ لأن التعليق إنما يكون في أمر مستقبل، يؤخذ من قولهم: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾.

٧- جواز الإشهاد على الإسلام، يعني: أن يشهد الإنسان على إسلامه، وهذا الإشهاد كالعهد بالالتزام بما يقتضيه هذا الإسلام؛ لقوله عنهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٣)

هذا من تمام قول الحواريين، والمراد بما أنزل: الإنجيل؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٣) من قبل هدى للناس ﴿آل عمران: ٣-٤﴾.

وقولهم: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ المراد بالرسول: عيسى عليه الصلاة والسلام، فـ: (أل) هنا للعهد الذهني، فجمعوا بين الإقرار بالقلب، والعمل بالجوارح، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني: اجعلنا مع الشاهدين بالحق؛ لأن المرء حاله حال من صاحبه.

من فوائد هذه الآية وأحكامها:

١ - فضيلة الحواريين بإعلانهم ما ذكروا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

٢ - الإشارة إلى كمال العمل بالإخلاص والمتابعة، فالإخلاص في قوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ﴾، والمتابعة في قوله: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

٣ - أن تعين الشخص يكون بالإشارة، مثل: هذا. ويكون بالاسم، مثل: محمد. ويكون بالإضافة، مثل: رسول الله. ويكون بـ: (أل) الذهنية، مثل قوله: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

٤ - سؤال العبد ربه أن يكتبه مع الشاهدين؛ فإنَّ ضحبة الأبرار خير وبرٍّ، وضحبة الأشرار شر وقطيعة.

٥ - تصدير الدعاء بالرب، يعني: التوسل إلى الله تعالى برُبوبيته؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه ذكر الرجل يطيل السفر، يمدُّ يديه إلى السماء: يَا رَبِّ. وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، «فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ؟»^(١) فجعل النبي ﷺ التوسل إلى الله برُبوبيته من أسباب إجابة الدعاء.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَمَكْرُوا﴾ أي: المكذَّبونَ لِعِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والمَكْرُ هو: التَّحِيلُ على الغَيْرِ على وَجْهِ الخَدِيعَةِ والحَقَاءِ؛ لِيُوقَعَ بِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُكَذِّبِينَ لِعِيسَى هَمُّوا بِقَتْلِهِ، فَعَدَوْا عَلَيْهِ فِي مَكَانِهِ؛ لِيَقْتُلُوهُ عَلَى وَجْهِ سِرِّيٍّ، فَأَلْقَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَبَّهُهُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ، فَقَتَلُوهُ، وَصَلَبُوهُ، وَقَالُوا: قَتَلْنَا عِيسَى، وَصَلَبْنَاهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، فَصَارَ مَكْرُهُمْ عَائِدًا إِلَيْهِمْ؛ حَيْثُ قُتِلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، وَلَعَلَّهُ زَعِيمُهُمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ أي: مَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ وَخَدَعَهُمْ ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ أي: أَشَدُّهُمْ مَكْرًا.

وَالْمَكْرُ بِالْعَدُوِّ صِفَةٌ كَمَا لَ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ الْمَاكِرِ، وَتَمَكُّنِهِ مِنَ الْخِدَاعِ لِعَدُوِّهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الْحَرْبُ خَدَعَةٌ»^(١).

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١- أَنَّ مَنْ مَكَرَ وَخَادَعَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ خَدَعَهُ اللَّهُ، وَمَكَرَ بِهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠-٥١]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَفَيِّقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الحرب خدعة، رقم (٣٠٢٨) (٣٠٣٠)، ومسلم: كتاب الجهاد، باب جواز الخداع في الحرب، رقم (١٧٤٠) (٧١٣٩) من حديث أبي هريرة وجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن ذلك: تحيُّل بعض النَّاسِ على صَفَقَاتِ الْبَيْعِ الرَّبَوِّيَّةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْحِيلِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُغْنِيهِمْ شَيْئًا، وَلَا يُحِلُّ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، بَلْ لَا يَزِيدُ الْمُحَرَّمَ إِلَّا قُبْحًا؛ لِأَنَّ الْمُتَحَيِّلَ عَلَى الْمُحَرَّمَ فِيهِ شَبَهُ مِنَ الْيَهُودِ، لَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ شُحُومَ الْمَيْتَةِ أَذَابُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ، وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِيهِمْ: «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ، لَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَذَابُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ»^(١).

وَنَهَى -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أُمَّتَهُ أَنْ تَرْتَكِبَ مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلَّ مُحَارِمَ اللَّهِ بِأَذْنَى الْحِيلِ^(٢).

وَوَقَعَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يَتَحَيَّلُونَ عَلَى مُحَارِمِ اللَّهِ بِأَنْوَاعِ الْحِيلِ، فَصَدَقَ فِيهِمْ قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- مُحَذِّرًا أُمَّتَهُ، قَالَ: «لَتَرْكَبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذَوِ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ»، قَالُوا: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «نَعَمْ»^(٣).

فَالْحِيلَةُ عَلَى إِسْقَاطِ الْوَاجِبِ لَا تُسْقِطُ الْوَاجِبَ، وَالْحِيلَةُ عَلَى الْمُحَرَّمَ لَا تَجْعَلُهُ حَلَالًا، فَلْيَحْذَرِ الْمُسْلِمُ مِنْ ارْتِكَابِ الْحِيلِ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْإِجَارَةِ وَالرَّهْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب بيع الميتة والأصنام، رقم (٢٢٣٦)، ومسلم: كتاب

المساقاة، باب تحريم بيع الخمر والميتة، رقم (١٥٨١) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن بطة في إبطال الحيل، (ص: ١١٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه بمعناه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»،

رقم (٧٣٢٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، (٢٦٦٩) من حديث

أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما أخرجه البخاري في الموضع السابق برقم (٧٣١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- إثبات صفة المكر لله عَزَّوَجَلَّ، وهي دليل على كمال صفاته؛ لأنَّ مُقَابَلَةَ الماكر بمكرٍ مثله أو خَيْرٍ منه تدلُّ على القوَّة، وعلى أنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ لا يُجَدَّعُ.

ولكن صفة المكر لله عَزَّوَجَلَّ لا تُقال على سبيل الإِطْلَاق، بمعنى: أنَّه لا يجوزُ أنْ نقولَ: إِنَّ اللهَ ماكرٌ. بل نقولُ: إِنَّ اللهَ ماكرٌ بَمَنْ يَمْكُرُ بِدِينِهِ. أو ما أَشَبَّ ذلك، أو نقولُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ يَكِيدُونَ للإِسلام، وَيَمْكُرُونَ بِأَهْلِهِ، واللهُ خَيْرُ الماكرينَ. ولهذا لا تَجْدُ صِفَةَ المَكْرِ في القرآنِ الكَرِيمِ ولا في السُّنَّةِ إِلَّا مَقْرُونَةً بِمَكْرِ الغَيرِ.

ومثل ذلك: الكَيْدُ، يُثْبِتُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنْ في مُقَابَلَةِ مَنْ يَكِيدُ لَهُ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

وكذلك الخِداغُ، يُثْبِتُ اللهُ في مُقَابَلَةِ مَنْ يُجَدَّعُونَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّ خِداغَهُمْ لَنْ يُغْنِيَ عَنْهُمْ شَيْئًا.

فإِنْ قالَ قَائِلٌ: هل تُثْبِتُونَ الخِيانَةَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَحَاشَاهُ؟

فالجوابُ: لا، لا تُثْبِتُ الخِيانَةَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الخِيانَةَ خِداغٌ في مَوْضِعِ الاِئْتِمَانِ، وهذا صِفَةُ نَقْصٍ، ولهذا قال النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «أَدَّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»^(١).

(١) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، رقم (٣٥٣٥)، والترمذي:

كتاب البيوع، رقم (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

كما أخرجه أبو داود في الموضع السابق، رقم (٣٥٣٤)، وأحمد (٤١٤ / ٣) من حديث رجل

وعلى هذا، فَقَوْلُ بَعْضِ الْعَوَامِّ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْمِئِنَّ عَلَى الْأَمَانَةِ: إِنَّ خُتْبَكَ
فَاللَّهُ يُخَوِّنُ. أَوْ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: خَانَ اللَّهُ مَنْ يُخُونُ. كُلُّ هَذَا حَرَامٌ لَا يَحِلُّ؛ لِأَنَّ الْخِيَانَةَ
صِفَةُ ذَمِيمَةٍ، وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عَنْهَا، حَتَّى فِيمَنْ
خَانَكَ فَلَا تَحْتَنُ.

مِثَالُ ذَلِكَ: رَجُلٌ اقْتَرَضَ مِنْكَ أَلْفَ رِيَالٍ، ثُمَّ أَنْكَرَ، قَالَ: لَمْ أَقْتَرِضْ شَيْئًا.
ثُمَّ عَادَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، وَبَاعَ عَلَيْكَ شَيْئًا بِأَلْفِ رِيَالٍ، فَأَخَذْتَ الْمَبِيعَ، ثُمَّ قُلْتَ:
سَادَّعِي أَنَّنِي أَوْفَيْتُهُ الثَّمَنَ أَلْفَ رِيَالٍ؛ لِأَنَّهُ خَدَعَنِي فِي الْأَوَّلِ. فنَقُولُ: هَذَا حَرَامٌ؛
لِأَنَّ الرَّجُلَ اتَّعَمَّنَكَ، فَأَدَّ الْأَمَانَةَ إِلَيْهِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفُاعِكْ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلَفُونَ ۝﴾

قَوْلُهُ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ يَعْنِي: اذْكُرْ إِذْ قَالَ اللَّهُ: ﴿يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أَيُّ:
قَابِضُكَ إِلَيَّ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ أَلْقَى عَلَيْهِ النَّوْمَ، ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَهُوَ الْآنَ فِي السَّمَاءِ
جِسْمًا وَرُوحًا ﴿وَرَأْفَعُكَ إِلَيَّ﴾؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ جَلَّ وَعَلَا فِي السَّمَاءِ
﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ: مَنْ أَرْجَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَا يَنَالُكَ مِنْهُمْ
شَيْءٌ ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ أَيُّ: تَعَبَّدُوا لِلَّهِ تَعَالَى بِرِسَالَتِكَ كَالْحَوَارِيِّينَ ﴿فَوْقَ الَّذِينَ
كَفَرُوا﴾ فَلَمْ يَتَّبِعُوكَ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ ثُمَّ﴾ بَعْدَ نِهَايَةِ الدُّنْيَا ﴿إِلَى مَرْجِعِكُمْ﴾ أَنْتَ

وَمَنْ آمَنَ بِكَ وَمَنْ خَالَفَكَ ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أَي: أَخْبِرْكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ، وَأَنَّ الصَّوَابَ مَعَ هَؤُلَاءِ، وَالْخَطَأَ فِي هَؤُلَاءِ.

في هذه الآية الكريمة فوائد، منها:

١- مَشْرُوعِيَّةُ قِصِّ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ لِلْعِبْرَةِ وَالْعِظَةِ؛ لِقَوْلِهِ:
﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى﴾؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى -كَمَا قَرَّرْنَاهُ- اذْكُرْ إِذْ قَالَ اللَّهُ.

٢- إِبْثَاتُ الْقَوْلِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ وَيَتَكَلَّمُ وَيُنَادِي، وَقَوْلُهُ
عَزَّجَلَّ مِنْ صِفَاتِهِ، وَصِفَاتُهُ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، وَعَلَيْهِ فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُشِيتَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
يَتَكَلَّمُ وَيَقُولُ وَيُنَادِي بِكَلَامٍ حَقِيقِيٍّ مَسْمُوعٍ بِحُرُوفٍ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى الْقَوْلِ فِي
اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْقُرْآنُ.

وقد ضَلَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَتَكَلَّمُ، وَإِنَّمَا يَخْلُقُ كَلَامًا يُعَبِّرُ عَمَّا فِي
نَفْسِهِ، وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ نَفْسُهُ يَتَكَلَّمُ فَهَذَا مُحَالٌ. وَهَذَا عَيْنُ الضَّلَالِ، أَنْ يَحْكُمَ
الْإِنْسَانُ عَلَى رَبِّهِ بِعَقْلِهِ فِي أُمُورٍ غَيْبِيَّةٍ، مَوْقِفْنَا فِيهَا التَّسْلِيمُ دُونَ التَّحْرِيفِ، ثُمَّ أَيُّ
عَقْلٍ يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يَتَكَلَّمُ حَقِيقَةً؟! إِنَّ أَيَّ إِنْسَانٍ يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يَتَكَلَّمُ
حَقِيقَةً فَقَدْ بَنَى عَلَى غَيْرِ دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَعَلَى مَنْ ابْتَلَوْا
بِنَفْيِ الْكَلَامِ عَنِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَنْ يَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَهُمُ
الْمَوْتُ، ثُمَّ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخِلَاصَ.

فَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُؤْمِنَ أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ حَقِيقِيٍّ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ
مَسْمُوعٍ غَيْرِ مَخْلُوقٍ؛ لِأَنَّهُ مِنْ صِفَاتِهِ، وَصِفَاتُ الْخَالِقِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ.

٣- إثباتُ علوِّ الله عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي مُؤَفِّيكَ وَرَافِعَكَ إِلَيَّ﴾، وهذا صريحٌ في أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في السَّماءِ.

وإثباتُ علوِّ الله عَزَّجَلَّ بالقرآن والسُّنَّة وإجماع السَّلَفِ والفِطْرة والعقل، كُلُّها اتَّفَقَتْ على إثباتِ علوِّ الله تَعَالَى في السَّماءِ، وأنَّه فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، دُونَ أَنْ يَحْصُرَهُ مَكَانٌ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ.

وقد ضَلَّ مَنْ أَنْكَرَوا علوَّ الله، ضَلُّوا في تَحْرِيفِ نُصُوصِ الْكِتَابِ والسُّنَّةِ الدَّالَّةِ على علوِّ الله، وضَلُّوا في تَعْطِيلِ الله عن هذه الصِّفَةِ الْعَظِيمَةِ، وهي العُلُوُّ، وضَلُّوا في مُخَالَفَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وضَلُّوا في مُخَالَفَةِ الْعَقْلِ الصَّرِيحِ، وضَلُّوا في الْخُرُوجِ عَنْ مُقْتَضَى الْفِطْرة، ما قال قائلٌ: يا الله. إِلَّا وَجَدَ مِنْ قَلْبِهِ ارْتِفَاعًا إِلَى السَّماءِ، وما رَفَعَ يَدِيهِ إِلَّا وَهُوَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ الله تَعَالَى في السَّماءِ.

فَنَصِيحَتِي لَهُؤُلَاءِ: أَنْ يَتُوبُوا إِلَى الله عَزَّجَلَّ، وَأَنْ يَتَأَمَّلُوا وَيَتَدَبَّرُوا ما قَالُوهُ مِنْ الضَّلَالِ الْعَظِيمِ، وَأَنْ يَرْجِعُوا إِلَى ما دَلَّتْ عَلَيْهِ هذه الأدِلَّةُ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَى أَصُولِهَا: الْكِتَابِ، والسُّنَّةِ، وإجماع السَّلَفِ، والعقلِ، والفِطْرة. قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَهُمُ الْمَوْتُ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْخَلَّاصَ.

ولا أدري عن هؤلاءِ إذا قالوا: إِنَّا لَا نُثْبِتُ أَنَّ اللهَ في السَّماءِ، فأينَ الله؟! أيقولون في كُلِّ مَكَانٍ؟ أم يقولون: إِنَّه لَيْسَ فَوْقَ، وَلَا تَحْتُ، وَلَا يَمِينُ، وَلَا شِمَالُ، وَلَا مُبَايَنًا، وَلَا مُتَّصِلًا، وَلَا مُحَايِثًا؟ وَكُلُّ ذَلِكَ ضَلَالٌ.

ويا سُبْحَانَ الله! كيف نقولُ: إِنَّ اللهَ عَزَّجَلَّ في كُلِّ مَكَانٍ؟! فعلى هذا الأَمَكِنَةُ تَحْصُرُهُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَتَعَدَّدَ أَوْ يَتَجَزَّأَ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ عِنْدَ إِنْسَانٍ في حُجْرَتِهِ، وَعِنْدَ الْمُصَلِّينَ

فِي مَسْجِدِهِمْ، وَعِنْدَ أَهْلِ السُّوقِ فِي مُتَجَرِّهِمْ، وَفِي السُّفُنِ فِي الْبِحَارِ، وَفِي الطَّيَّارَاتِ فِي الْأَجْوَاءِ، وَفِي السَّيَّارَاتِ فِي الْبَرِّ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا؟! اللَّهُ أَكْبَرُ، أَنْ يَنْتَهِيَ عَقْلُ الْإِنْسَانُ إِلَى هَذَا!

ثُمَّ نَقُولُ: يَلْزَمُ عَلَى قَوْلِهِمْ هَذَا الْقَوْلِ الْبَاطِلِ الْمُنْكَرِ الْعَظِيمِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَمَاكِينِ الْقَدِرَةِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَأِنْ قَالُوا: لَا فِي مَكَانٍ. فَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَا يُوجَدُ؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ عَيْنٍ مَوْجُودَةٍ إِلَّا وَهِيَ فِي مَكَانٍ، فَإِذَا لَمْ تَكُنْ فَوْقَ، وَلَا تَحْتَ، وَلَا يَمِينُ، وَلَا شِمَالُ، وَلَا أَمَامَ، وَلَا خَلْفَ، فَأَيْنَ تَكُونُ؟!

وَلَكِنَّا نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ لَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا فَوْقَ الْكَائِنَاتِ عَدَمٌ، لَا شَيْءَ فِيهِ، حَتَّى نَقُولَ: إِنَّهُ يُحِيطُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَوْ أَثْبَتْنَا عُلُوَّهُ.

فَأَكْرَرُ نُصْحِي لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ فِي مَكَانٍ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. نَصِيحَةً مُخْلِصٍ، أَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ، وَأَنْ يَرْجِعُوا إِلَى الرُّشْدِ قَبْلَ أَنْ يَنْفَجَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

٤ - فَضِيلَةُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حَيْثُ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَطَهَّرَهُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَسَلِمَ مِنْ أَذْيَتِهِمْ، وَسَلِمَ مِنْ قَتْلِهِمُ الَّذِي زَعَمُوهُ.

٥ - أَنَّ أَتْبَاعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وَلَكِنْ يَرُدُّ عَلَيْنَا أَنَّ النَّصَارَى لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَدْ غُلِبُوا عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وَهُمْ الْآنَ

لَا يَكُونُونَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، بَلْ لَهُمْ أَندَادٌ وَأَضْدَادٌ، ثُمَّ إِنَّ الظُّهُورَ وَالْعُلُوَّ لِلَّذِينَ الْإِسْلَامِيَّ، وَأَهْلُهُ هُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ.

وَالْجَوَابُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى الْمَوْجُودِينَ الْآنَ لَمْ يَتَّبِعُوا عِيسَى، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ حَقًّا؛ لِأَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَشَرُهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَانْكُرُوا رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ، وَمَضْمُونُ هَذَا: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا عِيسَى، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

وَأْتَلِ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴿أَي: الرَّسُولُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى، لَمَّا جَاءَهُمْ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، فَهَلِ الَّذِينَ رَدُّوا بَشَارَتَهُ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِمَا بَشَّرَ بِهِ، هَلْ يَكُونُونَ مُتَّبِعِينَ لَهُ؟

الْجَوَابُ: لَنْ يَكُونُوا مُتَّبِعِينَ لَهُ، بَلْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، كَمَا يُرَوَى عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ رَأَى مَعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَحِيفَةً مِنَ التَّوْرَةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ كَانَ أَخِي مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»^(١).

وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- جَاءَ بِهَذَا الْكِتَابِ مُصَدِّقًا لِكُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

وعلى هذا فيكون هؤلاء النصارى لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام حقاً، ويكون اليهود الذين أنكروا نبوة عيسى لم يؤمنوا بموسى عليه السلام حقاً، وإذا كانوا مؤمنين به لزمهم أن يصدقوا عيسى، ثم يصدقوا -أي: اليهود والنصارى- محمداً ﷺ.

وانتقل قول الله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، فقال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحداً، وكلُّ الرُّسل من بعد نوح عليه السلام، وذلك لأنَّ مَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ وَاحِدٍ فَقَدْ كَذَّبَ الرُّسُلَ كُلَّهُمْ؛ لأنَّ الرِّسَالَةَ وَاحِدَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَتَكْذِيبُ بَعْضِهَا تَكْذِيبٌ بِجَمِيعِهَا.

وانتقل قول الله عزَّوجلَّ في سورة النساء في الذين يؤمنون ببعض الرُّسل، ويكفرون ببعض، قال الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥١].

وحينئذ يزول الإشكال حيث يقول قائل: كيف يتعهد الله أن يجعل النصارى فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، مع أن المسلمين هم الذين لهم العلو؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؟ فنقول: إنَّ النصارى الذين كذبوا محمداً -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم- لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام، بل هم كافرون به.

٦- إثبات يوم القيامة، وهو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين من قبورهم، يقومون حفاة لا نعال عليهم، عراة لا كسوة عليهم، غرلاً غير محتونين، كما قال عزَّوجلَّ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ويُقام في ذلك اليوم الأَشْهَادُ، ويُقام العَدْلُ، ولهذا سُمِّيَ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

والإيمان بذلك أحد أركان الإيمان الستة، كما قال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لجبريل عليه السلام حين سأله عن الإيمان، قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(١).

٧- إثبات علم الله الواسع، وأنه لا يخفى عليه شيء؛ لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، ولا يمكن أن ينبههم بذلك إلا عن علم جلّ وعلا.

٩- أن مرجعنا إلى الله عز وجل، وهذه فائدة عظيمة، فلنعدّ لهذا المرجع جواباً منجياً عاصماً من عذاب الله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (٦) فأما من أوفى كُتُبِهِ، بِمِيقَاتِهِ (٧) فسوف يحاسب حساباً يسيراً (٨) وينقلب إلى أهله مسروراً (٩) وأما من أوفى كُتُبَهُ، ورآه ظهرو (١٠) فسوف يدعوا ثوراً (١١) ويصلي سعيراً ﴿[الانشقاق: ٦-١٢]، وتأمل قوله: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾، فإنَّ الفاء تدلُّ على الترتيب والتعقيب، وأن ملاقة الله عز وجل قريبة.

فإذا كان الإنسان كادحاً إلى الله كدحاً وملاقية فعلية أن يكدح الكدح الذي يرضي الله عز وجل؛ لأنه ملاقيه، وسينبئه بما عمل، فليستعد لهذه الملاقاة.

جعل الله أيامنا وأيامكم أسعدها يوم نلقاه عز وجل، ووفّقنا لما فيه الخير والصّلاح في الدّين والدّنيا والآخرة؛ إنّه على كلّ شيء قدير.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَالَ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِلتَّصَدِيقِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَ الْجَزَاءَ، قَالَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بما يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، فَكَفَرُوا بِاللَّهِ، أَوْ بِمَلَائِكَتِهِ، أَوْ كُتُبِهِ، أَوْ رُسُلِهِ، أَوْ الْيَوْمِ الْآخِرِ، أَوْ الْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ﴿فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: قَوِيًّا مُؤَلِّمًا ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، ففِي الدُّنْيَا بِمَا يَحْصُلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْهَزَائِمِ عَلَى أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، وَكَذَلِكَ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ النِّكَبَاتِ الْآفَاقِيَّةِ أَوْ الْأَرْضِيَّةِ، كَالزَّلَازِلِ، وَالْحُصْبَاءِ، وَمَا أَشْبَهَهَا.

وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَأَشَدُّ وَأَنْكَى، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧].

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾، فَلَا أَحَدَ يَنْصُرُهُمْ مِنَ اللَّهِ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذَابِهِ، وَهَذَا جَزَاءُ الْكَافِرِينَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بما يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ، وَهِيَ الْمُبْنِيَّةُ عَلَى أَمْرَيْنِ: الْإِحْلَاصِ لِلَّهِ، وَالْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: يُعْطِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَافِيًّا، وَالْأَجْرُ هُوَ: الثَّوَابُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَرْءِ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا، وَسَمَاءُ: أَجْرًا؛ لِأَنَّهُ يُعْطَى الْعَامِلُ عَلَى عَمَلِهِ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ المرادُ بهم: الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وذلك بِتَرْكِ أَوَامِرِهِ، وَفِعْلِ نَوَاهِيهِ.

في هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

١ - بيانُ جزاءِ الكافرينَ والمؤمنينَ.

٢ - أَنَّ الْكَافِرِينَ يُعَاقَبُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

٣ - أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَالْمُؤْمِنُ جَزَاؤُهُ جَنَّتُ النَّعِيمِ، وَالْكَافِرُ جَزَاؤُهُ عَذَابُ الْجَحِيمِ، وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

٤ - أَنَّهُ لَا نَاصِرَ لَهُوْلَاءِ الْكُفَّارِ يَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا: قَطْعُ رَجَاءِ أَوْلِيَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْقُبُورَ، وَيَتَقَرَّبُونَ بِعِبَادَتِهِمْ إِلَيْهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ لَنْ تَنْفَعَهُمْ لَا بِجَلْبِ نَفْعٍ، وَلَا بِدَفْعِ ضَرَرٍ، بَلْ لَا تَزِيدُهُمْ إِلَّا ضَرَرًا وَبُعْدًا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

[المائدة: ٧٢].

٥ - أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ لِمَنْ أَرَادَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

٦ - أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ صَالِحًا، وَإِلَّا فَلَا يَنْفَعُ صَاحِبُهُ، وَالْعَمَلُ

الصَّالِحُ مَا كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى أَمْرَيْنِ: الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَالتَّابِعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

فَمَنْ أَشْرَكَ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا فِي الْعِبَادَةِ فَهِيَ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي صُورَتِهَا وَهَيْئَتِهَا، فَمَنْ قَامَ يُصَلِّي رِيَاءً فَصَلَاتُهُ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرَكَهُ»^(١).

وَمَنْ تَصَدَّقَ بِمَالٍ؛ لِيُقَالَ: إِنَّهُ جَوَادٌ. لَمْ يُقَبَلْ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ أَشْرَكَ بِهِ مَعَ اللَّهِ.
وَمَنْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنِ مُنْكَرٍ؛ لِيُقَالَ: إِنَّهُ مُحْتَسِبٌ، أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ، نَاهٍ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَا ثَوَابَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ.

كَذَلِكَ مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ الْعَمَلَ، لَكِنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ، فَلَا ثَوَابَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢)، أَي: مَرْدُودٌ عَلَى صَاحِبِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: لَوْ وَقَّفَ الْإِنْسَانُ بَيْتَهُ عَلَى عَمَلٍ لَيْسَ بِبِرٍّ، فَإِنَّ الْوَقْفَ لَا يَصِحُّ، وَلَا يَنْفُذُ.

وَمِنْ هَذَا: إِذَا وَقَّفَ الْإِنْسَانُ بَيْتَهُ عَلَى بَعْضِ أَوْلَادِهِ دُونَ بَعْضٍ، فَإِنَّ هَذَا جَوْرٌ وَبَاطِلٌ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وَهَذَا الْعَمَلُ -أَي: تَفْضِيلُ بَعْضِ الْأَوْلَادِ عَلَى بَعْضٍ- لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، بَلْ بِالْعَكْسِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ»، وَلَمَّا أُعْطِيَ بِشِيرُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابْنُهُ النُّعْمَانُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب تحريم الرياء، رقم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٥٢٢).

عَطِيَّةٌ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفَعَلْتَ هَذَا بِكُلِّ وَلَدِكَ، أَوْ بِكُلِّ بَنِيكَ؟» قَالَ: لَا. فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ»، فَرَدَّ بَشِيرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذِهِ الصَّدَقَةَ الَّتِي تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى ابْنِهِ النُّعْمَانِ^(١).

٧- كَرَّمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ جَعَلَ ثَوَابَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ أَجْرًا يَسْتَحِقُّهُ الْعَامِلُ كَمَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ الْأَجِيرُ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذِي تَفْضُلُ أَوَّلًا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَالْفَضْلُ لَهُ أَوَّلًا وَآخِرًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَفِي هَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةً اللَّهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ^(٢)

٨- إِبْثَاتُ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، وَلَوْلَا ثُبُوتُ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ لَكَانَ نَفْيُهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَبَثًا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ.

وَمَحَبَّةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَتْ هِيَ إِكْرَامُ الْعَبْدِ، بَلْ إِكْرَامُ الْعَبْدِ مِنْ آثَارِ الْمَحَبَّةِ، وَمَحَبَّةُ اللَّهِ صِفَةُ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهِ جَلَّوَعَلَا، وَهِيَ كَسَائِرِ الصِّفَاتِ، لَا تُمَاتِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

٩- تَحْرِيمُ الظُّلْمِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْهَبَةِ، بَابُ الْإِشْهَادِ فِي الْهَبَةِ، رَقْمُ (٢٥٨٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْهَبَاتِ، بَابُ كِرَاهَةِ تَفْضِيلِ بَعْضِ الْأَوْلَادِ فِي الْهَبَةِ، رَقْمُ (١٣/١٦٢٣) مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) تَقْدِمُ (ص: ٥٨٢).

الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»^(١).

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾

قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَشَارُ إِلَيْهِ: مَا سَبَقَ مِنْ قِصَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَآلِ عِمْرَانَ ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ أَي: نُوحِيهِ إِلَيْكَ بِتِلَاوَةٍ مِنَّا سَمِعَهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ أَلْقَى مَا سَمِعَهُ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

وقَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ بَيَانٌ لِمَا يُتْلَى، وَالْآيَاتُ: جَمْعُ آيَةٍ، وَهِيَ: الْعَلَامَةُ الدَّالَّةُ الْمَعِينَةُ لِمَذْلُولِهَا، ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أَي: مَا فِيهِ التَّذَكُّرُ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

وَالْحَكِيمُ بِمَعْنَى: الْمُحْكَمِ الْمُتَقَنِّ الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، فَهُوَ مُحْكَمٌ مُتَقَنٌّ لَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ، وَلَا تَنَاقُضٌ، وَلَا كَذِبٌ، وَلَا جَوْرٌ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١ - أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ؛ لِأَنَّ التَّلَاوَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِكَلَامٍ.

٢ - أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَوَجْهُ ذَلِكَ: مَا فِيهِ مِنَ الْأَخْبَارِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

الصَّادِقَةُ النَّافِعَةُ، وَالْقِصَصِ الَّتِي فِيهَا الْعِبْرَةُ، وَالْأَحْكَامِ الَّتِي فِيهَا الْعَدْلُ، فَهُوَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقد تحدَّى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى الْخُلُقَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا، بَلْ أَخْبَرَ جَلَّوَعَلَا، فَقَالَ: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، أَي: مُعِينًا وَمُسَاعِدًا، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ﴾ [هود: ١٣]، فَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ

وَاعْلَمْ أَنَّ الْآيَاتِ نَوْعَانِ: كَوْنِيَّةٌ، وَشَرْعِيَّةٌ.

فَأَمَّا الْكَوْنِيَّةُ فَهِيَ مَخْلُوقَاتُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، كَالشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالنُّجُومِ، وَالْجِبَالِ، وَالشَّجَرِ، وَالْدَّوَابِّ، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَإِنَّهُ آيَةٌ عَلَى خَالِقِهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ اللَّهُ، وَفِي هَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

فَوَاعْجَبَا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَخْجَدُهُ الْجَا حِدُ؟
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ^(١)

أَمَّا الْآيَاتُ الشَّرْعِيَّةُ فَهِيَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُصْلِحَةِ لِلْخَلْقِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَأَعْظَمُهَا وَأَشْمَلُهَا وَأَنْفَعُهَا لِلْعِبَادِ: شَرِيعَةُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

(١) البیتان لأبي العتاهية، في ديوانه (ص: ١٢٢).

٣- أَنْ هَذَا الْقُرْآنَ ذِكْرٌ يَتَذَكَّرُ بِهِ مَنْ كَانَ ذَالِبٌ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَتَبْنَا لَهُ إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وهذا من فَوَائِدِ قَوْلِهِ: ﴿وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ﴾.

فإذا رأيتَ من نَفْسِكَ أَنَّكَ تَتَذَكَّرُ بهذا الْقُرْآنِ فاعْلَمْ أَنَّكَ مُوَفَّقٌ، وإذا رأيتَ أَنَّكَ لَا تَتَعِظُ فَاتِهِمْ نَفْسَكَ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ عَلَى الْقَلْبِ السَّلِيمِ.

٤- الثَّنَاءُ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِأَنَّهُ حَكِيمٌ فِي أَخْبَارِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَقَصَصِهِ، وَفِي كُلِّ شَيْءٍ.

ولنا أَنْ نقولَ: الْآيَةُ تَتَضَمَّنُ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ الْحِكْمَةِ وَالْإِتْقَانِ، وَهِيَ: أَنَّهُ حَاكِمٌ مُهَيِّمٌ عَلَى الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، حَاكِمٌ عَلَيْهَا، وَاجِبٌ عَلَى الْأُمَّةِ أَنْ يُحْكِمُوهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى لَا يَأْبَاهُ اللَّفْظُ، وَهُوَ مَعْنَى صَحِيحٌ، فَتَكُونُ الْآيَةُ دَالَّةً عَلَيْهِ، وَعَلَى مَا سَبَقَ مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ.



ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿١٥٨﴾

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ يَعْنِي: حَالُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكَيْفَ وُلِدَ مِنْ غَيْرِ أَبِي، كَمَثَلِ آدَمَ، بَلْ آدَمُ أَعْظَمُ غَرَابَةً مِنْهُ؛ لِأَنَّ آدَمَ وُلِدَ مِنْ غَيْرِ أَبَوَيْنِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ وَالْأَمْرُ هُنَا أَمْرٌ قَدَرِيٌّ ﴿فَيَكُونُ﴾ أَيُّ: فَهُوَ يَكُونُ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - استعمل القياس، وهو: أن يُقاس الشيءُ بنظيره وما يُساويه، وهذا هو العدل والميزان الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، أي: بالعدل.

٢ - بيانُ قدرةِ الله عزَّ وجلَّ، حيث خلق آدمَ من ترابٍ، وفي الآية الأخرى: ﴿مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، وفي الثالثة: ﴿مِنْ صَلْصَلٍ﴾ [الرحمن: ١٤]، وفي الرابعة: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، ولا منفاة؛ لأنَّ أصله التُّرابُ، ثُمَّ صارَ طِينًا، وَلَطُولِ مُدَّتِهِ اسْوَدَّ، فصارَ حمًا مَسْنُونًا، حَتَّى صَلَّبَ، وصارَ صَلْصَلًا كالْفَخَّارِ، فخلق الله منه إنسانًا، ونَفَخَ فيه من رُوحِهِ، وَنَحَرَكَ، وتكلَّم.

ويُقالُ كذلك في عيسى عليه السَّلامُ، نَفَخَ اللهُ تعالى من رُوحِهِ من جبريلَ في فَرْجِهَا، فَتَكُونُ من هذا الهَوَاءِ وَلَدٌ بَدُونِ مَاءٍ رَجُلٍ، وَلَدٌ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

فعيسى عليه السَّلامُ لا يَمْتَنِعُ على قُدْرَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، كما أن آدمَ كذلك، بل آدمُ أَبْلَغُ؛ لأنَّ آدمَ خُلِقَ مِنْ غَيْرِ آبٍ وَلَا أُمٍّ، وعيسى خُلِقَ مِنْ أُمٍّ بِلَا آبٍ.

٣ - إِبْطَاتُ الْقَوْلِ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ، وَأَنَّهُ مَسْمُوعٌ وَبَحْرُوفٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، فَثَبَّتَ اللهُ عزَّ وجلَّ كَلَامًا حَقِيقِيًّا مَسْمُوعًا بِحُرُوفٍ.

٤ - تَمَامُ قُدْرَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ: «كُنْ» كَانَ بَدُونِ تَأْخِرٍ، وَهَكَذَا كُلَّمَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: «كُنْ» فَيَكُونُ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وَيَذُلُّكَ عَلَىٰ هَذَا: أَنَّهُ عِنْدَ الْبَعْثِ مِنَ الْقُبُورِ، زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ
عَلَىٰ سَطْحِ الْأَرْضِ، وَصِيحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.
وَيَتَرْتَّبُ عَلَىٰ هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَلَّا تَسْتَصْعِبَ شَيْئًا عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ
مَرِيضًا مَرَضًا مُزْمِنًا فَلَا يَسْتَصْعِبُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَشْفِيهِ مِنْهُ.

وَلَمَّا بُشِّرَ زَكَرِيَّا بِالْوَلَدِ، وَقَالَ: كَيْفَ يَكُونُ، وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ؟! قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، فَهَذَا الْمَرِيضُ لَا يَسْتَصْعِبُ
وَلَا يَسْتَبْعِدُ أَنْ يَشْفِيَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، بَلْ يَتَذَكَّرُ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ أَوَّلًا، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ الْمَرَضُ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ، ثُمَّ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَرْفَعَهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاشْفِ؛ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ
إِلَّا شِفَاؤُكَ»^(١).



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ٦٠

قَوْلُهُ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ ﴿الْحَقُّ﴾ مُبْتَدَأً، وَ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ خَبَرُهُ،
وَيَحْتَمِلُ أَنَّ ﴿الْحَقُّ﴾ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: هَذَا الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ.
وَالْحَقُّ: ضِدُّ الْبَاطِلِ، وَالْحَقُّ هُوَ: الشَّيْءُ الثَّابِتُ الْمُسْتَقَرُّ الْمُنَاطِقُ لِلْوَاقِعِ.
وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي: لَا مِنْ غَيْرِهِ، فَهُوَ وَحْيِي اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَيْسَ مِنْ كِبَاهَنَةٍ
وَلَا مِنْ سِحْرِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب دعاء العائد للمريض، رقم (٥٦٧٥)، ومسلم: كتاب
السلام، باب استحباب رقية المريض، رقم (٢١٩١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ أي: من الشَّاكِّينَ فيه، والنَّبِيُّ ﷺ لم يُشكَّ بلا شكٍّ؛ فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ غَايَةَ الْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ، لَكِنَّ هَذَا النَّهْيَ؛ لِيُبَيِّنَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ نَبِيَّهٗ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - لم يَطْرَأَ عَلَيْهِ شَكٌّ، وَلَنْ يَطْرَأَ عَلَيْهِ شَكٌّ؛ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾.

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١ - أَنَّهُ لَا يَصْدُرُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، فَلَا يَصْدُرُ مِنْ أَقْوَالِهِ بَاطِلٌ، وَلَا مِنْ أَفْعَالِهِ بَاطِلٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿[الدخان: ٣٨-٣٩]، فَهُوَ حَقٌّ، وَلَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا الْحَقُّ.

٢ - فَضَّلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وَذَلِكَ بِإِضَافَةِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وَهِيَ رُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ تَقْتَضِي الْعِنَايَةَ التَّامَّةَ.

٣ - النَّهْيُ عَنِ الْاِمْتِرَاءِ وَالشَّكِّ فِي الْحَقِّ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ بِدُونِ تَرَدُّدٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١١)

قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ أي: فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾

الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْكَ ﴿فَقُلْ﴾ أَي: لهؤلاء المحاجين ﴿تَعَالَوْا﴾ اتُّوا إلينا ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أَي: لِنَجْتَمِعَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أَي: نتصرَّعْ إلى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْدُّعَاءِ، وَنُبَالِغْ فِي الدُّعَاءِ ﴿فَنَجْعَلَ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أَي: بِأَنْ نَقُولَ: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ.

ففي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- بَيَانُ أَنَّ أَعْدَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَالْإِسْلَامِ يُحَاجُّونَ، وَيُجَادِلُونَ، وَيَأْتُونَ بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ وَالْبَيَانِ وَالْبَلَاغَةِ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ يَمْكُرُونَ، وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.

٢- الدَّعْوَةُ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ، وَهَذَا مِنَ الْإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ.

٣- أَلَّا يُجَادِلَ أَحَدٌ أَوْ يُبَاهِلَ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُجَادِلَ أَمَامَهُ خَصْمٌ قَدْ جَمَعَ لَهُ كُلُّ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ حُجَّةٍ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْآخِرِ عِلْمٌ يَدْفَعُ بِهِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَنْهَزِمُ، وَهَزِيمَةُ الْمُحَقِّ هَزِيمَةُ لِلْحَقِّ، فَالْمَسْأَلَةُ خَطِيرَةٌ.

ولهذا نقول لإخواننا وأبنائنا الَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى دُورِ الْكُفْرِ: لَا تَدْخُلُوا مَعَهُمْ فِي جِدَالٍ فِي عَقِيدَتِهِمْ إِلَّا إِذَا كَانَ لَدَيْكُمْ عِلْمٌ رَاسِخٌ؛ حَتَّى لَا تَفْشَلُوا أَمَامَهُمْ، وَالْفَشْلُ أَمَامَهُمْ لَيْسَ بِالْهَيْبَةِ؛ لِأَنَّهُ يَعْنِي أَنَّ الْحَقَّ قَدْ هُزِمَ.

٤- الدَّعْوَةُ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ، بِأَنْ يَجْتَمِعَ الْمُتَجَادِلُونَ فِي مَكَانٍ، وَيَدْعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، ثُمَّ يَبْتَهِلُوا بِالْدُّعَاءِ أَنْ تَكُونَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ، لَكِنْ هَذَا فِي الْأُمُورِ الْكَبِيرَةِ، كَمَسَائِلِ الْعَقَائِدِ، أَوِ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ مِنْ عِلْمِ الْفِقْهِ.

أَمَّا الصَّغِيرَةُ فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى مُبَاهَلَةٍ، كَمَا لَوْ اخْتَلَفَ شَخْصَانِ فِي وُجُوبِ التَّسْمِيَةِ فِي الْوُضُوءِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: لَا تَحِبُّ. وَقَالَ الثَّانِي: تَحِبُّ. فَهَذَا لَا نَحْتَاجُ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ يَسِيرَةٌ مِنَ الْأُمُورِ الْعَمَلِيَّةِ، لَكِنَّ الْمَسَائِلَ الْكِبَارَ نَعْمَ، تُشْرَعُ فِيهَا الْمُبَاهَلَةُ.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢)

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الْمَشَارُ إِلَيْهِ: مَا سَبَقَ مِنْ طَلَبِ الْمُبَاهَلَةِ، أَوْ مَا سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ سِيرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ يَعْنِي: الثَّابِتَ الْمُطَابِقَ لِلْوَاقِعِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ بَاطِلٌ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ أَي: مَا إِلَهٌ يُعْبَدُ حَقًّا ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ عَزَّجَلَّ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ يَعْنِي: ذَا الْعِزَّةِ، وَهِيَ: الْعَلْبَةُ وَالْقَهْرُ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ أَي: ذُو الْحِكْمَةِ، وَهِيَ: وَضْعُ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا، فَهُوَ بِمَعْنَى: الْمُحْكِمِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى: الْحَاكِمِ، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى عِبَادِهِ بِحُكْمِهِ الْقَدَرِيِّ، وَبِحُكْمِهِ الشَّرْعِيِّ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١ - تَأْكِيدُ الْخَبَرِ الْمُهِمِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾، فَإِنَّ الْجُمْلَةَ هُنَا مُؤَكَّدَةٌ بِمُؤَكِّدَيْنِ، وَهُمَا: (إِنَّ)، وَاللَّامُ.

٢ - حَضَرُ الْحَقِّ فِيهَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَقَصَّه عَلَيْنَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ﴾؛ لِأَنَّ (هُوَ) ضَمِيرُ فَضْلٍ، وَضَمِيرُ الْفَضْلِ يُفِيدُ الْحَضَرَ.

٣- أَنَّ الْقَصَصَ يَكُونُ حَقًّا وَبَاطِلًا، وَقَصَصُ الْقُرْآنِ لَيْسَ فِيهَا بَاطِلٌ بَوَاحٍ مِنْ الْوُجُوهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾.

٤- أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَي: لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَمَا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ فَهُوَ بَاطِلٌ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَتْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَتْ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

٥- الرَّدُّ عَلَى النَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. فَإِنَّ الْإِلَهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ عَزَّوَجَلَّ، وَكَيْفَ يَكُونُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ: إِنَّا نُوحِّدُ اللَّهَ؟! فَاعْتِقَادُهُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى الشَّرِكِ، وَ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

٦- إِبْطَاتُ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ، وَهُمَا: (الْعَزِيزُ) وَ(الْحَكِيمُ).

٧- إِبْطَاتُ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَانِ الْأَسْمَانِ مِنْ صِفَةِ الْعِزَّةِ، وَصِفَةِ الْحِكْمَةِ، وَصِفَةِ الْحُكْمِ أَيْضًا.

٨- وَجُوبُ افْتِنَاعِ الْإِنْسَانِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَلَّا يُشَكَّكَ فِيهَا أَوْ يُشَكَّ؛ لِأَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ حِكْمَةٍ، وَنَحْنُ بَعْقُولُنَا الْقَاصِرَةَ قَدْ لَا نُدْرِكُ هَذِهِ الْحِكْمَةَ، لَكِنْ الْمُؤْمِنُ يَقُولُ: إِنَّ مَجْرَدَ كَوْنِهَا حُكْمًا مِنَ اللَّهِ حِكْمَةٌ.

ولهذا لَمَّا سُئِلَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ الْحَائِضِ: مَا بِهَا تَقْضِي الصَّوْمَ، وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ قَالَتْ: كَانَ يُصَيِّنُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا نُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ^(١). فَجَعَلَتِ الْعِلَّةَ هِيَ الشَّرِيعَةَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض، رقم (٣٣٥).

كذلك أيضًا يَجِبُ أَنْ نَرْضَى بِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى الْكَوْنِيَّةِ، وهي: مَا خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْكَوْنِ، فنَرْضَى بِالْجَدْبِ - وهو عَدَمُ نَبَاتِ الْأَرْضِ - وبِالْفَحْطِ - وهو عَدَمُ نُزُولِ الْمَطَرِ - وبِالْأَمْرَاضِ وبِالزَّلَازِلِ، سواء علينا أو على غَيْرِنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ لَأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَأَنَّ قَضَاءَ اللَّهِ وَقَدَرُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ حِكْمَةٍ، ولهذا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَيَنْتَهُمُ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَضِينَا وَسَلَّمْنَا.

٩- أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمَعَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَزِيزَ مِنَ الْبَشَرِ قَدْ تَأَخَّذَهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، فَيَتَصَرَّفُ تَصَرُّفًا مَشِينًا بَعِيدًا عَنِ الْحِكْمَةِ، فَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ عِزَّتَهُ مَقْرُونَةٌ بِحِكْمَتِهِ، وَأَنَّهُ لَنْ يَفْعَلَ إِلَّا مَا يُطَابِقُ الْحِكْمَةَ مِنْ خَيْرٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، أَوْ شَرٍّ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (١٣)

أَي: إِنْ تَوَلَّى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ دَعَوْتُهُمْ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ، وَأَعْرَضُوا، وَلَمْ يُوَافِقُوا عَلَى هَذَا، وَهُمْ لَا يُوَافِقُونَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَوْ وَافَقُوا لِأَخِذُوا بِاللَّعْنَةِ، إِنْ تَوَلَّوْا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أَي: فَهُمْ مُفْسِدُونَ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِمْ.

ففي هذه الآية فوائد، منها:

١- أَنَّ الْمُتَوَلَّى عَنِ الْمُجَادَلَةِ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا إِظْهَارُ الْحَقِّ مِنَ الْمُفْسِدِينَ؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ أَنْ يَحْضَرَ وَيُجَادَلَ، فَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ وَجَبَ عَلَيْهِ الْأَخْذُ بِهِ، وَإِنْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ وَجَبَ عَلَى خَصْمِهِ أَنْ يُوَافِقَ.

٢- إثباتُ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

٣- أَنَّ هَؤُلَاءِ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، يُفْسِدُونَ الْأَدْيَانَ وَالْأَخْلَاقَ وَالْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَبِكُلِّ مَا تَحْتَمِلُهُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ: (مُفْسِدٌ).

٤- تَهْدِيدُ هَؤُلَاءِ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْمُجَادَلَةِ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ؛ لِقَوْلِهِ عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَقْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آزِبًا مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤)

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابُ﴾ هَذِهِ عَامَّةٌ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ تُسَمَّى: أَهْلَ كِتَابٍ. فَالْيَهُودُ كِتَابُهُمُ التَّوْرَةُ، وَالنَّصَارَى كِتَابُهُمُ الْإِنْجِيلُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَعَالَوْا﴾ هَذَا دُعَاءٌ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحُضُورِ ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

وَبَيِّنْكُمْ ﴿ يَعْنِي: اخْضَرُوا، وَلَنْطَرَحْ هَذِهِ الْكَلِمَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ عَلَى السَّوَاءِ، وَتَفَقَّ عَلَيْهَا، وَهِيَ ثَلَاثُ جُمَلٍ:

الأولى: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لَا نَتَذَلَّلُ وَنَخْضَعُ بِالْعِبَادَةِ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ.

الثانية: ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا﴾ أي: لَا تَكُونْ عِبَادَاتِنَا مَشُوبَةً بِشَرِكٍ، وَهُوَ أَنْ يُرِيدَ الْإِنْسَانُ بِعِبَادَتِهِ غَيْرَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الثالثة: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ نُطِيعُهُمْ فِيمَا أَحَلَّ اللَّهُ، فَيُحَرِّمُونَهُ وَنُحَرِّمُهُ، أَوْ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيُحِلُّونَهُ وَنُحِلُّهُ.

وقوله: ﴿مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مِنْ سِوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ السَّوَاءِ الْمُبْنِيَّةِ عَلَى الْعَدْلِ ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، أي: أَعْلِنُوا لَهُمْ أَنَّكُمْ مُسْلِمُونَ مُتَقَادُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّوَرِيَةِ، يَعْنِي: أَنَّنَا مُسْلِمُونَ، وَأَنْتُمْ غَيْرُ مُسْلِمِينَ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِصَاحِبِهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَذُمَّهُ، يَقُولُ لَهُ: أَنَا لَسْتُ أَجَالِسُ أَهْلَ السُّوءِ. يَعْنِي: وَأَنْتَ تُجَالِسُ أَهْلَ السُّوءِ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- بَيَانُ عَدْلِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهُ مَعَ مُعَارَضِيهِ يَدْعُو إِلَى الْعَدْلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكُتِّبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

٢- أَنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ تُلَقَّبَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِأَهْلِ الْكِتَابِ، لَا ثَنَاءٌ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ إِنْزَامًا لَهُمْ بِقَبُولِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-؛ لِأَنَّ كُتُبَهُمْ

تَشْهَدُ بِصَدَقِ رِسَالَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، فَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ بَشَّرَ بِهِ النَّصَارَى، وَوَصَفَ مُحَمَّدٌ ﷺ مَوْجُودٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٣- وَجُوبُ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾.

٤- تَنْقِيَةُ هَذِهِ الْعِبَادَةِ مِنَ الشَّرِكِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا﴾.

٥- تَنْقِيَتُهَا مِنَ اتِّخَاذِ بَعْضِنَا لِبَعْضٍ أَرْبَابًا، بَلْ يَجِبُ أَنْ نَجْعَلَ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ الرَّبَّ، لَهُ الْحُكْمُ، وَبِيَدِهِ الْأُمْرُ كُلُّهُ.

٦- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ جَادَلَ أَهْلَ الْكُفْرِ، وَأَبُوا أَنْ يَقْبَلُوا الْحَقَّ، أَنْ يُعْلِنَ الْحَقَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وَهَذَا أَقْلُ مَا يَكُونُ، فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُعْلِنَ إِسْلَامَهُ وَلَا يُبَالِي بِأَحَدٍ، لَا سِيَّمَا فِي مَقَامِ الْمَجَادَلَةِ وَالْمُخَاصَمَةِ.

٧- جَوَازُ اسْتِشْهَادِ الْعَدُوِّ عَلَى النَّفْسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مُرَاعِمَةٌ لِلْعَدُوِّ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ

إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥)

هَذَا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يُحَاطَبُ أَهْلَ الْكِتَابِ (الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى) مُنْكَرًا عَلَيْهِمُ

مُحَاجَّتَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حَيْثُ زَعَمَ الْيَهُودُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا، وَالنَّصَارَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ: ﴿لَمْ تُحَاجُّوْا فِي إِبْرَاهِيمَ﴾، فَيَدَّعِي الْيَهُودُ أَنَّهُ يَهُودِيٌّ، وَالنَّصَارَى أَنَّهُ نَصْرَانِيٌّ ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا؟! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هَذَا نَوْعٌ مِنَ الْخَبْلِ وَالْجُنُونِ وَعَدَمِ الْعَقْلِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يَكُونُ السَّابِقُ زَمَنًا تَابِعًا لِمَا جَاءَ مِنْ بَعْدِهِ؟! هَذَا لَا يُمَكِّنُ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

- ١- جَوَازُ مُحَاطَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ لِبَيَانِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يُحَاطَبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ هَؤُلَاءِ أَهْلَ الْكِتَابِ.
- ٢- إِنْكَارُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ادِّعَاءَهُمْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْهُمْ، فَالْيَهُودُ يَقُولُونَ: هُوَ يَهُودِيٌّ. وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ: هُوَ نَصْرَانِيٌّ.
- ٣- بَيَانُ خَبْلِ وَجُنُونِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ لِأَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَى لَا يَدَّعِيهَا أَيُّ إِنْسَانٍ لَهُ عَقْلٌ، أَنَّ رَجُلًا سَابِقًا يَتَّصِفُ بِأَوْصَافٍ كُتِبَ نَازِلَةٌ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُمَكِّنُ، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْعَقْلِ.
- ٤- وَجُوبُ تَوْيِيخٍ مَنْ قَالَ بِالْبَاطِلِ، وَأَنَّهُ لَا يُسْكِتُ عَنْهُ؛ لِأَنَّ السُّكُوتَ عَنِ الْبَاطِلِ قَدْ يَجْعَلُهُ حَقًّا، خُصُوصًا عِنْدَ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿ هَاتَانِ مَثَلَا حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٦)

قَوْلُهُ: ﴿ هَاتَانِ مَثَلَا حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ الْخِطَابُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،
و(ها) لِلتَّنْبِيهِ.

وَالْمُحَاجَّةُ: الْمُجَادَلَةُ وَالْمُخَاصَمَةُ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَخَاصِمِينَ يُرِيدُ أَنْ
تَكُونَ الْحُجَّةُ لَهُ عَلَى صَاحِبِهِ.

وَمُحَاجَّةُ الْيَهُودِ فِي عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكَذَلِكَ مُحَاجَّةُ النَّصَارَى فِي عِيسَى،
فَالْيَهُودُ قَالُوا: إِنَّهُ دَعِيٌّ، وَابْنُ بَغْيٍ. وَاعْتَدَوْا عَلَيْهِ حَسَبَ اعْتِقَادِهِمْ، فَقَتَلُوهُ، وَقَالُوا:
﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٥٧]، يَعْنِي: يَعْزُونَ رَسُولَ اللَّهِ.

وَالنَّصَارَى بِالْعَكْسِ، جَادَلُوا، وَقَالُوا: إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ اللَّهِ. أَوْ: إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ
مَعَ اللَّهِ. فَعَلُوا فِي الْإِفْرَاطِ وَجَادَلُوا.

وَهَذِهِ الْمُجَادَلَةُ فِي أَمْرٍ كَانَ لَهُمْ فِيهِ عِلْمٌ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسِيرُوا عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي
كَانَ عِنْدَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ هَاتَانِ مَثَلَا حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ
فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾، فَإِنَّ هَذَا أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ، أَنْ يُحَاجَّ الْإِنْسَانُ فِي شَيْءٍ لَا عِلْمَ لَهُ
بِهِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ نَصْرَانِيًّا. وَالْيَهُودُ قَالُوا: كَانَ يَهُودِيًّا. وَهَذَا جَهْلٌ
فَاضِحٌ، لَيْسَ فِيهِ عِلْمٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وَالْإِنْكَارُ عَلَيْهِمْ فِي الْحَالَيْنِ: فِي مُجَادَلَتِهِمْ
بِعِلْمٍ، وَفِي مُجَادَلَتِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ. وَالثَّانِي أَعْظَمُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ
بِهِ عِلْمٌ ﴾.

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقد بَيَّنَّ لَكُمْ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ الْعِنَادُ وَالْحَمِيَّةُ وَالْعَصْبِيَّةُ أَوْجَبَتْ لَهُؤُلَاءِ الْمُحَاجَّةَ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - الإنكارُ على المُحَاجَّةِ بالباطل، وأنَّ الواجبَ الرُّجوعُ للحَقِّ أيَّا كان، ومن أيِّ أَحَدٍ أتى به.

٢ - الإنكارُ الأشدُّ والتَّشْنِيعُ البليغُ على مَنْ يُجَادِلُ بغيرِ عِلْمٍ؛ كما قال اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ٨-١٠]، وذلك لأنَّه يكونُ ظالِمًا من وَجْهَيْنِ: المُحَاجَّةُ بالباطل، وَكَوْنُهُ عن غيرِ عِلْمٍ.

٣ - إثباتُ العِلْمِ لله عَزَّجَلَّ؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾، وعِلْمُ اللهِ تعالى واسعٌ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، في المَاضِي والحَاضِرِ والمُسْتَقْبَلِ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِّقَّةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وفي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إِشْهَارُ جَهْلِ هَؤُلَاءِ، وَأَنَّهُ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ مُحَاجَّةَ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ مُحَاجَّةٌ غَالِبَةٌ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُحَاجُّونَ عَنْ عِلْمٍ، وَهَؤُلَاءِ يُحَاجُّونَ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ، وَمَا أَفْطَعَ هَزِيمَةً مَنْ يُحَاجُّ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَمَا أَقْرَبَهَا.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٧)

قَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ كَمَا زَعَمَتِ الْيَهُودُ ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ كَمَا زَعَمَتِ النَّصَارَى ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ أَي: مَاثِلًا عَنْ كُلِّ الْأَدْيَانِ ﴿مُسْلِمًا﴾ أَي: مُتَدِينًا مُتَعَبِّدًا لِلَّهِ تَعَالَى بِالْإِسْلَامِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ لِكَمَالِ تَوْحِيدِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١- إِبْطَالُ قَوْلِ الْيَهُودِ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا. وَإِبْطَالُ قَوْلِ النَّصَارَى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ نَصْرَانِيًّا.

٢- بَرَاءَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ دِينِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ؛ لِأَنَّ دِينَهُمْ بَاطِلٌ؛ إِذْ هُوَ قَدْ نُسِخَ، فَدِينُ الْيَهُودِ مَنْسُوخٌ بِدِينِ النَّصَارَى، وَدِينُ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ مَنْسُوخٌ بِدِينِ الْإِسْلَامِ.

٣- الثَّنَاءُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَوْنِهِ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَقَدْ أَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

٤- الإشارة إلى فضيلة هذه الأمة، وأنها هي المتبعة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام حقيقةً، وذلك في قوله: ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ خَافِئًا مُسْلِمًا﴾، وهذه الأمة هي التي رضي الله لها الإسلام ديناً؛ كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فالحمد لله على نعمته وتوفيقه، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يتوفانا وإخواننا على الإسلام، وأن يلحقنا بالصالحين؛ إنه جواد كريم.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

لَمَّا أَبْطَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْلَ الْيَهُودِ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيٌّ. وَقَوْلَ النَّصَارَى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ نَصْرَانِيٌّ. بَيَّنَّ مَنْ أَوَّلَى النَّاسِ بِهِ ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ يَعْنِي: أَحَقَّهُمْ بِوِلَايَتِهِ وَاتِّبَاعِهِ ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ اللَّامُ هُنَا لِلتَّوَكُّيدِ، وَالَّذِينَ هِيَ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، أَي: أَوْلَاهُمْ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ، أَي: فِي زَمَنِهِ ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وقوله: ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ الْمَشَارُ إِلَيْهِ: مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَأَتَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ بِإِشَارَةِ الْقَرِيبِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يُوحَى إِلَيْهِ.

وَالنَّبِيُّ هُوَ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، نَبَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَوَّلًا، ثُمَّ أَرْسَلَهُ ثَانِيًا، نَبَاهُ اللَّهُ بِالْوَحْيِ حِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْآيَاتِ الْخَمْسَ الْأُولَى مِنْ سُورَةِ ﴿أَقْرَأْ﴾: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي

عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿[العلق: ١-٥]﴾، فصار نبياً، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿يَتَيْنَا أَلْمَذْنِرَ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿[المدثر: ١-٢]﴾، فصار بذلك رَسُولاً.

فمُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ، وكذلك الَّذِينَ آمَنُوا، أَي: بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: يَتَوَلَّى الْمُؤْمِنِينَ عَزَّجَلَّ وَلَايَةً خَاصَّةً، فَيُوفِّقُهُم لِلْخَيْرِ، وَيُعِينُهُمْ عَلَيْهِ، وهذه وَلَايَةٌ خَاصَّةٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَهْمُ الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - شَهَادَةٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ، وكذلك مِنْ قَبْلِهِمُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا إِبْرَاهِيمَ فِي زَمَانِهِ.

٢ - فَضِيلَةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُؤْمِنِينَ.

٣ - أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَوَّلَى بِإِبْرَاهِيمَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوَّلَى النَّاسِ﴾، و﴿أَوَّلَى﴾ اسْمٌ تَفْضِيلِي.

٤ - إِبْثَاتُ النُّبُوَّةِ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وَهُوَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، فَمَنْ أَنْكَرَ نُبُوَّتَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَنْكَرَ كَوْنَهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ فَقَدْ كَفَرَ، فَمَنْ ادَّعَى النُّبُوَّةَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ صَدَّقَ هَذَا الْمُدَّعِي فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

٥- أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَاخِلُونَ فِي كَوْنِهِمْ أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

٦- إِبْثَاتُ وِلَايَةِ اللَّهِ الْخَاصَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

واعْلَمْ أَنَّ وِلَايَةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لَا تُنَالُ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ: الْإِيمَانُ، وَالتَّقْوَى. كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢-٦٣]، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا، وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، بَلْ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، حَتَّى وَإِنْ تَنَسَّكَ ظَاهِرًا.

واعْلَمْ أَنَّ الْوِلَايَةَ لَيْسَتْ -كَمَا زَعَمَ أَهْلُ الضَّلَالِ- أَعْلَى رُتْبَةٍ مِنَ النُّبُوَّةِ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرَزَخٍ فَوْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ (١)

فَزَعَمَ أَنَّ أَعْلَى شَيْءٍ الْوَلِيُّ، ثُمَّ النَّبِيُّ، ثُمَّ الرَّسُولُ، وَالْأَمْرُ بِالْعَكْسِ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِوَصْفِ الْوِلَايَةِ، وَأَصْدَقَ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِمْ وَصْفُ الْوِلَايَةِ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُمْ أئِمَّةُ الْمُتَّقِينَ.

وَأَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِمَامَهُ أَوْ وَلِيَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الرَّسُولِ فَهُوَ كَافِرٌ، فَلْيُعِدِ النَّظَرَ فِي أَمْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُدْفَنَ فِي رَمْسِهِ.

٧- فَضِيلَةُ الْإِيمَانِ، وَأَنَّهَا مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ تُنَالُ بِهَا وِلَايَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) عزاه ابن تيمية في منهاج السنة (٥/ ٣٣٦)، ومجموع الفتاوى (٢/ ٢٢١) إلى ابن عربي.

٨- أَنْ كُلَّ مَنْ كَانَ أَقْوَى إِيمَانًا كَانَ أَصْدَقَ وِلَايَةً، وَذَلِكَ مِنْ قَاعِدَةِ مَعْرُوفَةٍ: «أَنَّ الْحُكْمَ إِذَا عُلِّقَ عَلَى وَصْفٍ ازْدَادَ بَزِيَادَةِ ذَلِكَ الْوَصْفِ، وَنَقَصَ بِنُقْصَانِهِ».

اللَّهُمَّ زِدْنَا مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، وَاجْعَلْنَا مِنْ أَوْلِيَاكَ الْمُتَّقِينَ، وَحِزْبِكَ الْمُفْلِحِينَ، وَجُنْدِكَ الْغَالِبِينَ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا

يَشْعُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾ أَي: أَحَبَّتْ، وَالْوُدُّ: خَالِصُ الْمَحَبَّةِ. وَالطَّائِفَةُ: الْفِرْقَةُ مِنَ النَّاسِ، وَ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أَي: الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى ﴿لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ (لَوْ) بِمَعْنَى: أَنَّ. يَعْنِي: وَدَّتْ أَنْ يُضِلُّوكُمْ.

وَوُدُّهُمْ لَمْ يَنَالُوا بِهِ مُرَادَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا وَدُّوا أَنْ يُضِلَّ الْمُسْلِمُونَ فَسَيَسْعَوْنَ بِكُلِّ سَبَبٍ يُضِلُّ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا السَّبَبُ الَّذِي يَسْعَوْنَ فِيهِ مُحَرَّمٌ وَضَلَالٌ، فَيَكُونُ سَعْيُهُمْ فِي إِضْلَالِ الْمُسْلِمِينَ إِضْلَالًا لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَكْسِبُونَ الْجَوْلَةَ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - بَيَانُ شِدَّةِ عَدَاوَةِ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ هُمْ زُعَمَاءُهُمْ فَهَذَا يَعْنِي: أَنَّ الْجَمِيعَ يَوَدُّونَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النَّاسَ تَبِعُوا لِرُؤَسَائِهِمْ.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى مَوَدَّتِهِمْ أَنْ يُضِلُّوْنَا: الْحَذَرُ مِنْهُمْ، وَأَلَّا نَغْتَرَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ.

٢ - أَنَّ مُتَابَعَةَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ ضَلَالٌ، وَقَدْ أَيْدَ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١).

٣ - أَنَّ مَنْ سَعَى لِإِضْلَالٍ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا أَضَلَّ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ سَوْفَ يَتَّخِذُ جَمِيعَ الْإِجْرَاءَاتِ وَجَمِيعِ السُّبُلِ الَّتِي يَضِلُّ بِهَا غَيْرُهُ، وَهَذِهِ السُّبُلُ وَالْإِجْرَاءَاتُ ضَلَالٌ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَكْسِبُ بِهَا إِثْمًا، فَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَهُوَ ضَالٌّ.

٤ - أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَقَعُ فِي الضَّلَالِ مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ؛ لِأَنَّهُ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿[الكهف: ١٠٣-١٠٥].

٥ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَزِنَ تَصَرُّفَاتِهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَا بِمَا تَهَوَّاهُ نَفْسُهُ؛ لِأَنَّ نَفْسَهُ قَدْ تُزَيِّنُ لَهُ مَا هُوَ ضَلَالٌ عَلَيْهِ، وَشَوْمٌ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠)

قَوْلُهُ: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أَي: بِمَا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أَنَّ فِعْلَكُمْ كُفْرًا، وَأَنَّ مَا كَفَرْتُمْ بِهِ حَقٌّ؛ لِأَنَّ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ وَصْفَهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَصَفًا تَامًّا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ حَقٌّ، وَأَيُّ جَهْلٍ وَضَلَالٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟! لَكِنْ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلْإِنْكَارِ وَالتَّعْجِيبِ، يَعْنِي: اعْجَبْتُ أَتَيْهَا الْإِنْسَانُ مِنْ حَالٍ هَؤُلَاءِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١- تَوْبِيخُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلَى كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

٢- أَنَّ الْكُفْرَ بَعْدَ الْعِلْمِ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

٣- أَنْ شَرِيعَةَ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْقُرْآنُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى حِكْمَتِهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ إِمَّا خَبَرٌ، وَإِمَّا حُكْمٌ، فَالْخَبَرُ كُلُّهُ صِدْقٌ، وَكُلُّهُ نَافِعٌ، وَالْحُكْمُ كُلُّهُ عَدْلٌ وَمَصْلَحَةٌ.

فَالْكُفْرُ بِهِ -مع شُهودِ صِدْقِ الْأَخْبَارِ وَمَنْفَعَتِهَا، وَعَدْلِ الْأَحْكَامِ وَمَصَالِحِهَا- خُلُقٌ ذَمِيمٌ، يَسْتَحِقُّ التَّوْبِيخَ عَلَى مَنْ فَعَلَهُ.

٤- أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ، وَيَذَرُونَهُ، وَيَشْهَدُونَهُ، وَيَشْهَدُونَ بِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ أَصَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

••❦••

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧١)

يقول الله تعالى: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابُ﴾ وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أَي: تَخْلُطُونَهُ بِهِ تَلْبِيسًا وَتَضْلِيلًا، وَالْحَقُّ هُوَ: الصِّدْقُ فِي الْأَخْبَارِ، وَالْعَدْلُ فِي الْأَحْكَامِ. وَالْبَاطِلُ ضِدُّهُ، فَالْكَذِبُ بَاطِلٌ، وَالْجَوْرُ بَاطِلٌ، وَالصِّدْقُ حَقٌّ، وَالْعَدْلُ حَقٌّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي: وَلِمَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، أَي: تَكْتُمُونَ الْحَقَّ الْخَالِصَ الصَّرِيحَ الَّذِي لَمْ يُخْلَطْ بِالْبَاطِلِ، لِمَاذَا؟!

وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلتَّوْبِيخِ، وَجُمْلَةٌ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، يَعْنِي: أَنْتُمْ تَفْعَلُونَ هَذَا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّضْلِيلِ وَالضَّلَالِ، وَهَذَا تَوْبِيخٌ آخَرُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

يُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

- ١ - الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ خَلَطَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَلَبَسَهُ عَلَى النَّاسِ.
- ٢ - أَنْ مَنْ فَعَلَ هَذَا، وَلَبَسَ الْأَحْكَامَ عَلَى النَّاسِ، وَأَلْقَى الشُّبُهَاتِ فِي نُفُوسِهِمْ، فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.
- وَالوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ: أَنْ يَكُونَ صَرِيحًا، يُبَيِّنُ الْحَقَّ حَقًّا، وَيُبَيِّنُ الْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَلَا يَقْلِبُ الْحَقَّ بِصُورَةٍ بَاطِلٍ، أَوِ الْبَاطِلَ بِصُورَةٍ حَقٍّ.
- ٣ - تَوْبِيخُ مَنْ كَتَمَ الْحَقَّ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنْ مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ، فَكَتَمَهُ، أَلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ^(١)، فَلَا يَحِلُّ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكْتُمَ الْحَقَّ مَا دَامَ الدَّاعِي لِبَيَانِهِ وَإِظْهَارِهِ مَوْجُودًا.
- ٤ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ بَيَانُ الْحَقِّ، سَوَاءَ سُئِلُوا عَنْهُ مُبَاشَرَةً، أَوْ دَعَتْ الْحَاجَةُ إِلَى بَيَانِهِ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَقَعُ النَّاسُ فِي أَمْرٍ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا يَسْأَلُونَ، فَيَجِبُ عَلَى الْعَالِمِ أَنْ يُبَيِّنَ الْبَاطِلَ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلْ عَنْهُ، وَيُقَالُ فِي هَذَا: إِنَّهُ سُؤَالٌ بِلِسَانِ الْحَالِ.
- وَيُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّكَ إِذَا رَأَيْتَ أَحَاكَ عَلَى مُنْكَرٍ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تُعْلِمَهُ بِأَنَّهُ مُنْكَرٌ، وَإِذَا رَأَيْتَهُ عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تُنَبِّهَهُ، وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: يَجِبُ عَلَى الْيَقْظَانِ أَنْ يُوقِظَ النَّائِمَ إِذَا ضَاقَ وَقْتُ الصَّلَاةِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُؤَدِّيَ الصَّلَاةَ فِي وَقْتِهَا.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ كِرَاهِيَةِ مَنَعِ الْعِلْمِ، رَقْمُ (٣٦٥٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ، رَقْمُ (٢٦٤٩)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي الْمَقْدِمَةِ، بَابُ مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، رَقْمُ (٢٦١)، وَأَحْمَدُ (٢/ ٢٦٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- أَنْ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ الْحَقَّ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَتَكْفُرُونَ
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فجعلَ مقامَ الدَّمِّ إذا كان الإنسانَ عالِمًا، وأمَّا إذا كان لا يَعْلَمُ
فالواجبُ عليه السُّكُوتُ، حتَّى لو سُئِلَ حَرَمٌ عليه أَنْ يُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ لَأَنَّهُ إِذَا أَفْتَى
بِغَيْرِ عِلْمٍ أَضَرَّ النَّاسَ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْفَعُهُمْ.

ولهذا يَجِبُ الْحَذَرُ مِنَ الْإِفْتَاءِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَجِبُ التَّحْذِيرُ مِمَّنْ عُرِفَ بِالتَّسَاهُلِ
فِي الْإِفْتَاءِ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ بَابِ إِزَالَةِ الْمُنْكَرِ وَدَفْعِهِ.

وَإِذَا لَمْ تَجِدْ إِلَّا مَنْ يُفْتِي بِغَيْرِ عِلْمٍ فَتَمَهَّلْ، وَاسْتَفْتِ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ، وَالْمَسْأَلَةُ
فِي بِلَادِنَا سَهْلَةٌ، فَهَنَّاكَ اتِّصَالَاتُ عَبَرِ الْهَاتِفِ، وَاتِّصَالَاتُ بِالْمُرَاسَلَةِ بِالكِتَابَةِ،
فَالْأَمْرُ مُيسَّرُ الْآنَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

فَلْيَحْذَرْ الْمُسْتَفْتَى مَنْ أَنْ يَسْتَفْتِيَ مَنْ يُفْتِي بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:
إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ^(١). يَعْنِي: هَلْ تَأْخُذُونَهُ عَنْ أَهْلِ
لِلْأَخْذِ مِنْهُ؛ لِعِلْمِهِ وَأَمَانَتِهِ، أَوْ لَا؟

نَسَأَلَ اللَّهُ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الْعِلْمَ النَّافِعَ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَأَنْ يُعِيدَنَا مِنْ مُضِلَّاتِ
الْفِتَنِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



(١) أخرجه مسلم في المقدمة، باب بيان أن الإسناد من الدين، رقم (٢٦) من قول ابن سيرين
رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ
وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢)

قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ﴾ فِرْقَةٌ ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَتْ لِفِرْقَةٍ
أُخْرَى: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ﴾ أَي: أَوَّلُهُ ﴿وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، يَعْنِي: ائْتَمُّوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَوَّلَ النَّهَارِ، وَقُولُوا: هَذَا دِينٌ طَيِّبٌ،
هَذَا دِينٌ حَقٌّ. وَأَظْهِرُوا أَنَّكُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ، فَإِذَا كَانَ فِي آخِرِ النَّهَارِ فَاكْفُرُوا بِهِ، وَقُولُوا:
بَعْدَ أَنْ نَظَرْنَا وَفَكَّرْنَا تَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا الدِّينَ غَيْرُ صَاحِبٍ.

وهذا خِدَاعٌ مِنْهُمْ وَمَكْرٌ، وَالْيَهُودُ مَعْرُوفُونَ بِالْحَيْلِ وَالْمَكْرِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مُحَارِمَ اللَّهِ
بِأَذْنَى الْحَيْلِ»^(١).

وقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّعْلِيلِ، يَعْنِي: لِأَجْلِ أَنْ يَرْجِعُوا.
وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلرَّجَاءِ، أَي: لَعَلَّ هَذَا يَنْفَعُ فِي إِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ. وَكِلَا
الْمَعْنَيْنِ صَاحِبٌ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١ - بَيَانُ خُبْتِ الْيَهُودِ وَخِدَاعِهِمْ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَتَلَاعَبُونَ بِهَا فِي عُقُولِ
النَّاسِ: آمِنُوا، ثُمَّ اكْفُرُوا.

٢- الحَذَرُ والتَّحْذِيرُ من مَكْرِ اليهودِ، وأنَّ المَكْرَ وَصَلَ بهم إلى هذه الحالِ،
أنَّ يُوَصِّيَ بعضُهم بعضًا بأنَّ يُؤْمِنَ بالإِسْلَامِ في أوَّلِ النَّهَارِ، وَيَكْفُرَ في آخِرِهِ، مُدَّعِيًا
أنَّهُ تَامَلَ الإِسْلَامَ، وَوَجَدَ أَنَّهُ ليسَ دينًا صحيحًا.

٣- ثَبَاتُ الْمُؤْمِنِينَ على دِينِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ حَقٌّ، وَأَنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ،
وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُضِلَّ مَنْ يَهْدِي اللَّهُ، وَلَا أَنْ يَهْدِيَ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ.
٤- تَحْرِيمُ الْحَيْلِ على مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَكُلَّمَا عَظُمَ المَحْرَمُ كَانَتْ الحِيلَةُ عليه
أَعْظَمَ.

٥- أَنَّ الْمُتَحِيلِينَ على مَحَارِمِ اللَّهِ من هذه الأُمَّةِ فِيهِمْ شَبَهُ من اليهودِ، ومع الأسَفِ
فَمَا أَكْثَرَ الحَيْلَ على مَحَارِمِ اللَّهِ في بَعْضِ النَّاسِ، وَلَا سِيَّما في المَعَامَلَاتِ، حَيْثُ يَتَحِيلُونَ
على مَحَارِمِ اللَّهِ بِأَنْوَاعٍ من الحَيْلِ، ثُمَّ يُسْمُونَ هذه الحَيْلَ بِأَسْمَاءٍ شَرِيعَةٍ؛ حَتَّى يُلْبِسُوا
على النَّاسِ الأَمْرَ، فَإِذَا تَحَيَّلَ على رَبًّا بِأَنْوَاعٍ من الخِدَاعِ قالَ مَثَلًا: هَذَا بَيْعٌ وَشِرَاءٌ،
وَلَا شَيْءَ فِيهِ. كَقَوْلِ الَّذِينَ قالُوا: ﴿إِنَّمَا أَلْبَيْعٌ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ومن ذلك: مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ اليَوْمَ من أَنَّهُ يَتَّفِقُ هو والتَّاجِرُ على أَنْ يَشْتَرِيَ
التَّاجِرُ لَهُ سِلْعَةً بِخَمْسِينَ أَلْفًا، وَيَبِيعُهَا عليه مُؤَجَّلَةً بِسِتِينَ أَلْفًا، فيقولُ التَّاجِرُ لهذا:
اذْهَبْ إلى المَعْرِضِ الفُلَانِي، واخْتَرِ السَّيَّارَةَ الَّتِي تُرِيدُهَا، وَأَنَا أَشْتَرِيهَا من المَعْرِضِ
بِثَمَنِ نَقْدٍ، وَأَبِيعُهَا عليك بِثَمَنِ مُؤَجَّلٍ أَكْثَرَ، فيذهبُ الرَّجُلُ إلى المَعْرِضِ، وَيَخْتَارُ
السَّيَّارَةَ الَّتِي يُرِيدُهَا، وَيُعْطِيهِ المَعْرِضُ كَشْفًا بِالْقِيَمَةِ، ثُمَّ يَأْتِي إلى التَّاجِرِ، ويقولُ:
تَفَضَّلْ. فيكتبُ التَّاجِرُ شيكًا للمَعْرِضِ بِقِيَمَةِ السَّيَّارَةِ خَمْسِينَ أَلْفًا، ثُمَّ يَبِيعُهَا على
هذا المحتاجِ بِسِتِينَ أَلْفًا مُؤَجَّلَةً.

وهذه حيلةٌ مَكشوفةٌ وَاضحةٌ؛ لأنَّ التَّاجِرَ لم يَشْتَرِ هذه السِّلعةَ إِلَّا من أَجْلِكَ، فأنتَ الَّذي جِئْتَ، وَطَلَبْتَ أَنْ يَشْتَرِيَهَا لك، ولأنَّ التَّاجِرَ زادَ عليك القِيمةَ بسببِ تأخيرِ الوفاءِ، فبدلاً من أنْ يُعْطِيكَ خَمْسِينَ ألفاً نقداً، ويقول: خُذْ خَمْسِينَ ألفاً، واشتَرِ السَّيَّارةَ، وأَقِذْ الخَمْسِينَ عليك بالسَّتِينَ إلى أَجَلٍ. ذَهَبَ يَدُورُ بهذه الحيلةِ، ويقولُ: أنا بَعْتُ عليه سَيَّارةً. فنقولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! هل اشْتَرَيْتَ السَّيَّارةَ من الأَصْل، وَهِيَ عِنْدَكَ لهذا ولغيره، أو ما اشْتَرَيْتَهَا إِلَّا من أَجْلِهِ؟ فسيَقُولُ: ما اشْتَرَيْتَهَا إِلَّا من أَجْلِهِ. فنقولُ: إِذَنْ، هذه حيلةٌ وَاضحةٌ، والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ لا تَخْفَى عليه خافيةٌ.

ولهذا يقولُ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: إِنَّ هَؤُلَاءِ -يَعْنِي: الْمُتَحِيلِينَ عَلَى الْمَحَارِمِ- يُجَادِعُونَ اللَّهَ كَمَا يُجَادِعُونَ الصَّيَّانَ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَتَوْا الْأَمْرَ عَلَى وَجْهِهِ لَكَانَ أَهْوَنَ^(١).

لكن قد يتعلَّلُ بعضُ النَّاسِ، ويقولُ: إِنَّ التَّاجِرَ إِذَا اشْتَرَى السَّيَّارةَ لا يُلْزِمُنِي بها، فلو تَرَجَعْتُ لم يَقُلْ شيئاً. فنقولُ: هذا الكلامُ ليس له معنًى؛ لأنَّ هذا الَّذي جاءَ يَشْتَرِي السَّيَّارةَ، واختارها بِنَفْسِهِ، لا يُمَكِّنُ أَنْ يَرْجِعَ، وما الفائدةُ أَنْ يَذْهَبَ وَيَتَعَبَ وَيُتَعَبَ غَيْرُهُ، ثُمَّ يقولُ: تَرَجَعْتُ؟! هذا إِنْ وُجِدَ فلا يُوجَدُ في الألفِ إِلَّا واحدٌ.

ثُمَّ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لو أَنَّهُ رَجَعَ كُتِبَ فِي الْقَائِمَةِ السَّودَاءِ، بَحِثْ لَا يُعَامِلُهُ التَّاجِرُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَبَداً.

(١) قال ابن حجر في تغليق التعليق (٥/ ٢٦٤): قال وكيع في مصنفه: ثنا سفيان بن عيينة عن أيوب، بهذا.

فَلْيَتَّقِ اللَّهَ عِبَادُ اللَّهِ! وَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ الْمَالَ، بَلِ الدُّنْيَا كُلُّهَا حُلُوهٌ خَصِرَةٌ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَنْهَمَكَ فِيهَا كَانَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ.

والمال -أيها الأخ المسلم- إما أن يفنى في حياتك، فتبقى فقيراً، وإما أن تموت عنه، فتخلّفه لمن بعدك، فلن يُخلّد لك المال، ولن تُخلّد للمال.

فاتّق الله يا أخي! وأجمل في الطلب، ولا تُحاول أن تستعجل الرزق بالمعاصي؛ فإن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فانظر إلى هذا الوعد ممن لا يُخلف الميعاد عزّ وجلّ، أنك إذا اتّقيت الله جعل لك مخرجاً من كلّ ضيق، ورزقك من حيث لا تحتسب، ومن ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه.

نسأل الله تعالى أن يهدينا وإخواننا صراطه المستقيم، وأن يتولانا جميعاً في الدنيا والآخرة؛ إنه على كلّ شيء قدير.



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من بقية قول الطائفة من أهل الكتاب الذين أرادوا أن يُخدعوا المسلمين، فقالوا: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ

ءَامِنُوا وَجِهَ النَّهَارِ وَأَكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ،
 أي: لا تُذعنوا ولا تنقادوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ، وَأَمَّا مَنْ بَقِيَ عَلَى إِيْمَانِهِ فَلَا تَنْقَادُوا
 له.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ ﴿يعني: وَأَنْتُمْ مِمَّا فَعَلْتُمْ مِنَ
 الْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ فَإِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ، فَلَنْ يَضُرَّ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ يُؤَفَّقَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ هَذَا مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، أَي: لِئَلَّا يُؤْتَى
 أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ، وَهُمْ يُخَاطَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿أَوْ يُعَاجِزُكَ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وَقَدْ فَضَّلَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى مَنْ سَبَقَهَا -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- حَيْثُ جَعَلَهَا خَيْرَ أُمَّةٍ
 أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ
 كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أَي: وَاسِعٌ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ، وَكُلُّ صِفَاتِهِ كَامِلَةٌ: الْحَيَاةُ،
 وَالْعِلْمُ، وَالْقُدْرَةُ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصَرُ، وَغَيْرُهَا، كُلُّهَا وَاسِعَةٌ لَا يُحَاطُ بِهَا ﴿عَلِيمٌ﴾ أَي:
 ذُو عِلْمٍ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذُو عِلْمٍ بِالْفَضْلِ، وَأَهْلِهِ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّهُ؟ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:
 ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ
 مَنْ يَشَاءُ﴾، يَعْنِي: مِمَّنْ افْتَضَّتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُخَصَّهُ بِشَيْءٍ، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾
 أَي: صَاحِبُ الْعَطَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُمِثِّلُهُ شَيْءٌ، فَاللَّهُمَّ اخْتَصِنَا بِرَحْمَتِكَ يَا رَبَّ
 الْعَالَمِينَ.

في هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ مِنَ الْحَكَمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١ - بَيَانُ خِدَاعِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنَّهُمْ يَتَظَاهَرُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، ثُمَّ يَكْفُرُونَ فِي آخِرِهِ، كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: نَحْنُ دَخَلْنَا فِي الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ نَظْنُ أَنَّهُ الْحَقُّ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّهُ لَيْسَ بِحَقٍّ، فَرَجَعْنَا إِلَى دِينِنَا.

٢ - أَنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَنَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ هِدَايَتَهُ فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَخْدَعَهُ أَوْ يَضُرَّهُ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَنْ يَضُرَّوكَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(١).

٣ - أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، لَكِنَّ إِيمَانَهُمْ بِهِ لَنْ يَنْفَعَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَا يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ بِهِ؛ إِذْ لَوْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي إِيمَانِهِمْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لَعَمِلُوا لَهُ، وَاتَّبَعُوا مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

٤ - أَنَّ الْفَضْلَ وَالْعَطَاءَ وَالنُّعْمَةَ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ كُلُّهَا بِيَدِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾.

٥ - أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ لَا يَجُزُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كِرَاهِيَةُ كَارِهِ، فَهُوَ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، أَي: يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى أَنْ يُعْطِيَهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَهَلْ هَذَا يَعْنِي أَلَّا نَعْمَلَ الْأَسْبَابَ لِلْحُصُولِ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ؟

فَالْجَوَابُ: لَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ نَعْمَلَ بِالْأَسْبَابِ لِلْحُصُولِ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ حَكِيمٌ، قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ وَرَبَطَهَا بِأَسْبَابِهَا؛ حَتَّى تُعْرَفَ بِذَلِكَ الْحِكْمَةُ، فَلَوْ أَنَّ

(١) أَخْرَجَهُ بَنُحُوهُ التِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ، رَقْمُ (٢٥١٦)، وَأَحْمَدُ (٢٩٣/١).

إِنْسَانًا قَالَ: لَنْ أَسْعَى فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، وَلَنْ أُبِيعَ، وَلَنْ أَشْتَرِيَ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْعَظَانِي. فَنَقُولُ: هَذَا غَلَطٌ، بَلْ اْعْمَلِ السَّبَبَ لِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بِالسَّعْيِ إِلَى الْجُمُعَةِ عِنْدَ النَّدَاءِ، قَالَ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ أَنْ يَتَّقُوا فِي الْمَسْجِدِ، بَلْ قَالَ: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، أَي: اطْلُبُوا الرِّزْقَ فِي جِهَاتِ الْأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا.

٦- سَعَةُ الرَّبِّ عَزَّجَلَّ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَجَمِيعُ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَاسِعَةٌ، أَي: كَامِلَةٌ الْمَعْنَى، لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، حَيَاتُهُ وَاسِعَةٌ، عِلْمُهُ وَاسِعٌ، سَمْعُهُ وَاسِعٌ، بَصَرُهُ وَاسِعٌ، ... إلخ.

٧- إِبْطَاتُ هَذَا الْاسْمِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ: الْوَاسِعُ.

٨- إِبْطَاتُ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾.

وَإِذَا آمَنَ الْإِنْسَانُ بِهَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ: (الوَاسِعِ) وَ(الْعَلِيمِ) خَافَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْ يَرَاهُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَطَمَعَ فِي رَحْمَتِهِ؛ لِسَعَةِ رَحْمَتِهِ عَزَّجَلَّ، فَعَمِلَ صَالِحًا، وَتَجَنَّبَ الْمَعَاصِيَ.

٩- أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِلْمٍ، وَإِيمَانٍ، وَغِنَى، وَبَنِينَ، وَصِحَّةٍ، وَعَقْلٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا تَحْجِدُ النَّاسَ مُتَفَاوِتِينَ تَفَاوُتًا عَظِيمًا فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَلَكِنْ لَنْ يَخْتَصَّ أَحَدٌ بِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُ أَهْلٌ لَذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ مَنْ تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ أَنْ يُخَصَّ بِهِ الرِّحْمَةُ.

١٠- إثبات أن الله عَزَّوَجَلَّ مَوْصُوفٌ بِالْفَضْلِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ،
فمهما بَلَغَ أَهْلُ الْجُودِ وَالكَرَمِ فَلَنْ يَبْلُغُوا فَضْلَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.
أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُؤْتِيَنَا مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِهَدَايَتِهِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ.



يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ
لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ
وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ - وَبِالْأَخْصِ الْيَهُودِ - إِلَى قِسْمَيْنِ:

الأول: قِسْمُ أَمِينٍ، لَوْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ أَدَّاهُ إِلَيْكَ كَامِلًا، وَالْقِنْطَارُ قِيلٌ: إِنَّهُ أَلْفُ
مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مِلْءُ جِلْدِ الثَّوْرِ الصَّغِيرِ مِنَ الذَّهَبِ. وَأَيًّا كَانَ فَهُوَ قَدْرٌ
كَبِيرٌ، وَفِي هَذَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ أَي: يُوصِلُهُ إِلَيْكَ مَتَى
طَلَبْتَهُ.

القِسْمُ الثَّانِي: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ﴾ مِثْقَالٍ وَاحِدٍ ﴿لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾
لِعَدْرِهِ وَخِيَانَتِهِ ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أَي: مَا دُمْتَ عَلَيْهِ مُرَاقِبًا مُلَاحِظًا،
وإِلَّا فَسَيَخُونُكَ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: هذه الخيانة من أهل الكتابِ ﴿يَأْتُهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ﴾ يَعْنُونَ: الْعَرَبَ ﴿سَبِيلٌ﴾، فَتَفْعَلُ بِهِمْ مَا شِئْنَا، وَنَأْخُذُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا شِئْنَا، وَنُخَادِعُهُمْ، لَيْسَ عَلَيْنَا فِيهِمْ سَبِيلٌ؛ لِأَنَّا أَهْلُ الْكِتَابِ، وَهُمْ أَهْلُ جَاهِلِيَّةٍ.

لكن قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: أن هذه المقالة كَذِبٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ، بِدَلِيلٍ: أَنَّ بَعْضَهُمْ تَأَمَّنُهُ عَلَى الْقِنْطَارِ، وَيُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلَى﴾ وهذا حَرْفُ إِضْرَابٍ ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ أي: عَهْدِهِ مع اللَّهِ عَزَّجَلَّ، بَأَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيُؤْمِنَ بِهِ، وَبِرُسُلِهِ ﴿وَأَتَقَى﴾ معاصِيَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سواء من الْأُمِّيِّينَ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ فَوَائِدُ، مِنْهَا:

١- أَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ يَنْقَسِمُونَ إِلَى قِسْمَيْنِ:

■ قِسْمٌ أَمِينٍ، لَوْ تَأَمَّنَهُ عَلَى مَالٍ كَثِيرٍ لَوَجَدَتْهُ أَمِينًا، يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ مَتَى طَلَبْتَهُ.

■ وَقِسْمٌ آخَرَ بِالْعَكْسِ، غَيْرُ أَمِينٍ.

٢- أَنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ نَأْمَنَ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا ظَهَرَتْ لَنَا أَمَانَتُهُ، فَنُودِعَ عِنْدَهُ الشَّيْءَ، وَنَشْتَرِيَ مِنْهُ الشَّيْءَ، وَلِهَذَا اشْتَرَى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ يَهُودِيٍّ فِي الْمَدِينَةِ، اشْتَرَى مِنْهُ طَعَامًا لِأَهْلِهِ، وَرَهْنَهُ دِرْعَهُ^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب ما قيل في درع النبي ﷺ، رقم (٢٩١٦)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب الرهن، رقم (١٦٠٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَيَتَفَرَّعُ عَلَى هَذَا: أَنَّهُ إِذَا وُجِدَ طَيِّبٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَازِقٌ أَمِينٌ حَرِيصٌ عَلَى صَنَعَتِهِ، فَإِنَّا نَأْخُذُ بِقَوْلِهِ، حَتَّىٰ لَوْ قَالَ هَذَا الطَّيِّبُ لِلْمَرِيضِ: إِنَّ صَوْمَ رَمَضَانَ يُؤَثِّرُ عَلَيْكَ. فَإِنَّهُ يُفْطِرُ، وَلَوْ قَالَ: إِنَّ الْقِيَامَ فِي الصَّلَاةِ يُؤَثِّرُ عَلَيْكَ. فَإِنَّهُ يُصَلِّي قَاعِدًا؛ لِأَنَّ الْمَدَارَ كُلَّهُ عَلَى الْأَمَانَةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَهَلِ الْمُشْرِكُ الْوَثْنِيُّ مِثْلُ الْكِتَابِيِّ، إِذَا أَمِنَاهُ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ نَأْخُذُ بِقَوْلِهِ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَأْجَرَ رَجُلًا مُشْرِكًا يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ فِي هِجْرَتِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ^(١)، مَعَ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ خَطِيرَةٌ جِدًّا، فَقَرِيشٌ أَخْرَجَتْ مِئَةَ بَعِيرٍ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمِئَةَ بَعِيرٍ لِلرَّسُولِ ﷺ، لِمَنْ دَلَّاهُمَا عَلَيْهِمَا، لَكِنَّ الرَّجُلَ كَانَ أَمِينًا، فَاسْتَأْجَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ لِيَدُلَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ.

وَعَلَى هَذَا، فَلَوْ وُجِدَ طَيِّبٌ وَثْنِيٌّ مُشْرِكٌ، لَكِنَّهُ أَمِينٌ، وَقَالَ لِلْمَرِيضِ: إِنَّ صَوْمَكَ يَضُرُّكَ. فَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ، وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ: إِنَّ قِيَامَكَ فِي الصَّلَاةِ يَضُرُّكَ. فَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ قَاعِدًا؛ لِأَنَّ الْمَدَارَ كُلَّهُ عَلَى الْأَمَانَةِ.

٣- كَذَبُ أَهْلِ الْكِتَابِ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَكِيلٌ﴾، مَعَ أَنَّ كُتُبَهُمْ تُحَرِّمُ الْعُدْوَانَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ.

٤- بَيَانُ حَالِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ مِنَ الذُّلِّ وَالْإِهَانَةِ وَالْمَهَانَةِ، حَتَّىٰ أَرَادُوا خَلْقَ اللَّهِ مِنَ الْيَهُودِ يَحْتَقِرُونَهُمْ إِلَى هَذَا الْاِحْتِقَارِ، وَيَقُولُونَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب استئجار المشركين عند الضرورة، رقم (٢٢٦٣) من

حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

سَكِيلٌ ﴿١٠٩﴾، وَهُمْ لَوْ قَتَلُوا هِرَّةً لَوَجَدُوا أَنَّ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا مِنْهَا إِنْ كَانُوا يَرَوْنَ ذَلِكَ،
لَكِنَّ الْأُمِّيَّ لَيْسَ عِنْدَهُمْ بَشْيٌ.

ثُمَّ انْقَلَبَتِ الْحَالُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فَصَارَ الْأُمِّيُّونَ بِاتِّبَاعِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - هُمُ السَّادَةُ، وَأَخَذُوا الْجِزْيَةَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

٥ - أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يُبَالُونَ بِالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ، وَلِهَذَا حَرَّفُوا كُتُبَهُمْ، وَحَذَفُوا
مِنْهَا مَا حَذَفُوا؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى
لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرِاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

٦ - أَنَّ افْتِرَاءَ هَؤُلَاءِ الْكِتَابِيِّينَ الْكَذِبَ صَادِرٌ عَنْ عِلْمٍ، لَا عَنْ جَهْلٍ يُعْذَرُونَ
بِهِ، وَهَذَا أَقْبَحُ مَا يَكُونُ، أَنَّ يَفْتَرِيَ الْإِنْسَانُ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ
فِي ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ
بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ كَذَبَ
عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ إِثْمٍ مِنْ كَذِبٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (١٠٨) وَ(١١٠)، وَفِي
كِتَابِ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ النِّيَاحَةِ عَلَى الْمَيِّتِ، رَقْمُ (١٢٩١)، وَمُسْلِمٌ فِي الْمَقْدِمَةِ،
بَابُ تَغْلِيطِ الْكَذِبِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَقْمُ (٢، ٣، ٤) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَالْمَغِيرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ إِثْمٍ مِنْ كَذِبٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (١٠٧) وَ(١٠٩)، وَفِي
كِتَابِ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ مَا ذَكَرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، رَقْمُ (٣٤٦١) مِنْ حَدِيثِ الزُّبَيْرِ وَسَلَمَةَ
وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الزَّهْدِ، بَابُ الثَّبَتِ فِي الْحَدِيثِ، رَقْمُ (٣٠٠٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- أَنْ مَنْ أَوْفَى بِالْعَهْدِ، فَقَامَ بِالْوَجِبِ، وَاتَّقَى الْمَحَارِمَ، فَهُوَ مِنَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

٨- إِبْطَاتُ مَحَبَّةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، أَي: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحِبُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْمَحَبَّةَ، وَقَدْ تَعَدَّدَتِ الْآيَاتُ فِي هَذَا، فَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَالْمَحَبَّةُ لَيْسَتْ هِيَ الثَّوَابُ، كَمَا زَعَمَهُ أَهْلُ التَّحْرِيفِ وَالتَّعْطِيلِ، بَلِ الْمَحَبَّةُ وَصْفٌ قَائِمٌ بِالْمُحِبِّ، مِنْ لَوَازِمِهِ الْإِثَابَةُ، وَهَذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَيُّمَا أَعْظَمَ: الْمَحَبَّةُ، أَمْ الْخُلَّةُ؟

فَالْجَوَابُ: الْخُلَّةُ أَعْظَمُ وَأَبْلَغُ؛ لِأَنَّ الْخُلَّةَ غَايَةُ الْمَحَبَّةِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسَلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا^(١)

ولهذا لَا نَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ ثَبَّتَ لَهُ الْخُلَّةُ إِلَّا رَجُلَيْنِ، هُمَا: إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَّا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وَأَمَّا مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَقَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(٢).

وعليه فَوَصَفْنَا الرَّسُولَ ﷺ بِالْخَلِيلِ أَبْلَغُ مِنْ وَصْفِنَا إِيَّاهُ بِالْحَبِيبِ، وَكَثِيرًا مَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ يَصِفُ النَّبِيَّ ﷺ بِالْحَبِيبِ، فَيَقُولُ: صَلَّ عَلَى

(١) البيت لبشار بن برد، كما في ديوانه (١٣٩/٤)، أو للبحري كما في ديوانه (٧٣٩/٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المسجد على القبور، رقم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْحَبِيبِ. فنقول: يا أخي، لا تقل: الحبيب. ولكن قل: الحليل، أو: صلّ على مُحَمَّدٍ؛ كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ»^(١).

فرَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلِيلُ اللَّهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ خَلِيلُنَا، وهذا أَبْلَغُ مما إذا قلنا: حَبِيبُنَا. فليَتَفَتَّنْ لهذا مَنْ يَنْشُدُ الْحَقِيقَةَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ الْعَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُنَا إِلَى حُبِّكَ، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٧٧)

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: يأخذون به ثَمَنًا قَلِيلًا، والمرادُ به: ما كان من أُمُورِ الدُّنْيَا، كالجَاهِ، والمَالِ، والتَّزْوِيجِ، وما أَشْبَهَ ذَلِكَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، وفي كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٣٦٩)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٠٦) (٤٠٧) من حديث كعب بن عجرة وأبي حميد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٨) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم في الموضع السابق برقم (٤٠٥) من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَهْدُ اللَّهِ وَأَيَّامُهُمْ: مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ عَزَّجَلَّ، وَالتَّصَدِيقِ لِرُسُلِهِ،
فِيحْرِصُونَ عَلَى بَقَائِهِمْ عَلَى الرَّئَاسَةِ، وَعَلَى الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، مَعَ كُفْرِهِمْ
بِاللَّهِ تَعَالَى، يَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

فهؤلاء لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، يَعْنِي: تَكَلِيمَ رَضَا، أَمَّا تَكَلِيمٌ تَوْبِيخٍ فَقَدْ يُكَلِّمُهُمُ
عَزَّجَلَّ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨].
وَكَذَلِكَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَي: نَظَرَ رَضَا، وَأَمَّا النَّظَرُ الْعَامُّ فَإِنَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

وَكَذَلِكَ لَا يُزَكِّيهِمْ، أَي: لَا يُطَهِّرُهُمْ، وَيَنْفِي عَنْهُمْ مَا يَقْدَحُ فِيهِمْ، لَا فِي الدُّنْيَا
وَلَا فِي الْآخِرَةِ، فَهُمْ لَا زَكَاةَ لَهُمْ - أَي: لَا تَرْكَيَةَ لَهُمْ - لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.
قَالَ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي: مُؤْلِمٌ، بَدَلُ مَا تَتَعَمَّوْا بِهِ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا
وَرَفَاهِيَّتِهَا، مَعَ تَكْذِيبِهِمْ لِرُسُلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَإِنَّهُمْ يُجَازَوْنَ بِهَذَا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْمُهِينِ؛
كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ ٤٣ ﴿طَعَامُ الْأَلِيمِ﴾ ٤٤ ﴿كَأَلْمُهْلِ يَغْلَى فِي
الْبُطُونِ﴾ ٤٥ ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ ٤٦ ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ٤٧ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ
رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ٤٨ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٩]،
وَهَذَا إِهَانَةٌ وَذُلٌّ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَمَعَ الْأَلَمِ الْبَدَنِيِّ يَكُونُ الْأَلَمُ الْقَلْبِيُّ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَوَائِدٌ، مِنْهَا:

١ - أَنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيَّامِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ،
أَي: لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ نَصِيبَهُمْ أَخَذُوهُ فِي الدُّنْيَا، فَلَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي
الْآخِرَةِ.

٢- أَنْ مَنْ ابْتَغَى بَطْلَبَ الْعِلْمِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَا نَصِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ؛
لأنَّه اشْتَرَى بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وفي الحديثِ عن النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ
وَجْهُ اللَّهِ، لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَنَالَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَرْخَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»^(١).

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي أَوْلَئِكَ النَّاسِ الَّذِينَ يَدْرُسُونَ فِي الْجَامِعَاتِ
وغيرها، وَيَأْخُذُونَ عَلَى ذَلِكَ مُكَافَأَةً، أَيْدْخُلُونَ فِي هَذَا؟

فالجوابُ: إِنْ كَانُوا دَخَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَالِ فَلَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنْ دَخَلُوا
مِنْ أَجْلِ الْعِلْمِ، لَكِنْ أَخَذُوا الْمَالَ يَسْتَعِينُونَ بِهِ، فَلَهُمْ نَصِيبٌ فِي الْآخِرَةِ، فَيُفَرَّقُ بَيْنَ
مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيَأْخُذَ الْمَالَ، وَمَنْ أَخَذَ الْمَالَ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، فَلِأَوَّلِ
لَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ فِي الْآخِرَةِ، وَالثَّانِي لَهُ نَصِيبٌ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا تَقُولُونَ فِيمَنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي الْجَامِعَاتِ أَوْ غَيْرِهَا لِنَيْلِ الشَّهَادَةِ؟

فالجوابُ: إِذَا كَانَ يُرِيدُ مِنْ نَيْلِ الشَّهَادَةِ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْوِظِيفَةِ -وهي
المالُ- فَقَدْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ قَصْدُهُ أَنْ يَنَالَ الشَّهَادَةَ؛ لِيَتِمَكَّنَ بِهَا مِنْ
نَفْعِ الْخَلْقِ بِالتَّدْرِيسِ، وَتَوَلَّى الْقَضَاءِ، وَتَوَلَّى إِمَامَةَ الصَّلَاةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهَذِهِ
نِيَّةٌ طَيِّبَةٌ، لَا تَمْنَعُهُ مِنْ نَصِيبِ الْآخِرَةِ، وَلَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَلِمَةً جَامِعَةً مَانِعَةً، قَالَ:
«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(٢)، وَهَذَا الْحَدِيثُ حَدِيثٌ عَظِيمٌ،
يَنْبَنِي عَلَيْهِ كُلُّ فِعْلٍ وَقَوْلٍ وَعَقِيدَةٍ لِبَنِي آدَمَ، فَهِيَ عَلَى حَسَبِ النِّيَّةِ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله (٣٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة،

باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٥٢)، وأحمد (٣٣٨/٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة،

باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، رقم (١٩٠٧) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣- أَنْ مَنِ ابْتَغَى الدُّنْيَا بِالذِّينِ فَقَدْ أَتَى كَبِيرَةً مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ فِيهَا وَعِيدٌ، وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَاعِدَةً: «أَنَّ كُلَّ ذَنْبٍ فِيهِ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّهُ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ».

وإذا كان كذلك فَإِنَّ نَصِيحَتِي لِإِخْوَانِي الَّذِينَ لَدَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ النِّيَّاتِ الْبَاطِلَةِ: أَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنْ يُصَحِّحُوا النِّيَّةَ، وَالرَّجُلُ إِذَا تَابَ وَأَصْلَحَ عَمَلُهُ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَهْمَا عَمِلَ مِنَ الْأَعْمَالِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ فِي آخِرِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهَكَمًا ۖ﴾ [١٨] إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ﴾ [٧٠].

٤- إِبْثَاتُ الْكَلَامِ لِلَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾، فَلَمَّا نَفَى تَكْلِيمَهُ هَؤُلَاءِ حَالَ الْغَضَبِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُكَلِّمُ أَوْلِيَائَهُ حَالَ الرِّضَا، وَهُوَ كَذَلِكَ، أَعْنِي: ثُبُوتَ الْكَلَامِ لِلَّهِ، فَهُوَ ثَابِتٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، أَيْ: مَنْ كَلَّمَهُ اللَّهُ، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَهَذِهِ مُحَاوَرَةٌ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمُوسَى يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ كَلَامَ مُوسَى، فَيَرُدُّ عَلَيْهِ.

وعليه فيكون كلام الله عَزَّجَلَّ بحُرُوفٍ مَعْلُومَةٍ لِلْمُخَاطَبِ، وَأَصْوَاتٍ مَسْمُوعَةٍ.

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وَلِذَلِكَ يَجِبُ تَعْظِيمُهُ، وَاحْتِرَامُهُ، حَتَّى إِنْ الرَّجُلُ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ جُنُبٌ، وَلَا يَمَسُّ الْمُصْحَفَ إِلَّا مُتَوَضِّئًا.

وَإِنِّي - بهذه المناسبة - أحثُّ إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْعِنَايَةِ بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَعَلَى الْحِرْصِ عَلَى أَوْلَادِهِمُ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ أَنْ يَحْفَظُوا كَلَامَ اللَّهِ، وَمَا أَحْسَنَ الْاسْتِعَانَةَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ يُدْخِلَهُمْ فِي حَلَقَاتِ تَحْفِيزِ الْقُرْآنِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْمَسَاجِدِ، فَفِيهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَهِيَ مُقَرَّبَةٌ لِحِفْظِ الْقُرْآنِ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا حَفِظَ الْقُرْآنَ فِي الصَّغَرِ لَمْ يَنْسَهُ، كَمَا قِيلَ: الْعِلْمُ فِي الصَّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ.

وَأوصي إِخْوَانِي أَنْ يَقْرَءُوا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِتَدَبُّرٍ وَتَفَكُّرٍ فِي مَعَانِيهِ حَتَّى يَتَنَفَّعُوا بِهِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ بَلَا تَدَبُّرٍ يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَمَعْرِفَةِ الْمَعْنَى، وَإِذَا لَمْ يَعْرِفِ الْمَعْنَى فَكَيْفَ يَمَثِّلُ الْأَمْرَ، فَيَفْعَلُهُ، وَيَعْرِفُ النَّهْيَ، فَيَجْتَنِبُهُ؟! فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

٥ - إِبْثَابُ النَّظَرِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَهُوَ نَوْعَانِ:

الْأَوَّلُ: نَظَرٌ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، فَكُلُّهُمْ لَا يَغِيبُ عَنْهُ عَزَّجَلَّ، يَرَى دَيْبَ النَّمْلِ عَلَى الصَّخْرَةِ السَّودَاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ، كَمَا قِيلَ:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ

وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النَّحْلِ
أَمِنُّ عَلَى بَتْوَبَةٍ تَمُحُو بِهَا مَا كَانَ مِنِّي فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ^(١)

والثاني: نَظَرٌ خَاصٌّ، نَظَرُ رَحْمَةٍ وَرَأْفَةٍ وَتَوْفِيقٍ، وهو الْمَنَفِيُّ في هذه الآية: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾.

٦- إِبْثَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وهو يَوْمُ الْبَعْثِ، وَسُمِّيَ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَقُومُونَ فِيهِ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِأَنَّهُ -أَي: ذَلِكَ الْيَوْمَ- يُقَامُ فِيهِ الْعَدْلُ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وَلِأَنَّهُ يُقَامُ فِيهِ الْأَشْهَادُ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿[غافر: ٥١-٥٢].

٧- أَنَّ الزَّكِّيَّ مَن زَكَّاهُ اللَّهُ، وَلَكِنْ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْعَى بِالْأَسْبَابِ الَّتِي تَزَكُّو بِهَا نَفْسُهُ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿[الشمس: ٩-١٠].

٨- إِبْثَاتُ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا؛ لِقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ عَمَلَنَا جَمِيعًا خَالِصًا لَوَجْهِهِ، مُوَافِقًا لِمَرْضَاتِهِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨)

قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ أي: طائفة ﴿يَلُودُونَ﴾ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ أي: يُمِيلُونَهَا بِالْكِتَابِ حَتَّى إِذَا سَمِعَهَا السَّامِعُ قَالَ: هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ. ولهذا قال: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾، وَلَكِنَّهُمْ يَأْتُونَ بِأَشْيَاءَ مُخَالِفَةٍ لِلْكِتَابِ، وَالَّذِي يَسْمَعُهُ يَقُولُ: هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ. فَيُصَدِّقُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

قال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يَعْنِي: مَعَ لِي أَلْسِنَتِهِمْ ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِدَعْوَاهُمْ الْحَالِيَّةِ الْفِعْلِيَّةِ، وَهِيَ لِي أَلْسِنَتِهِمْ بِالْكِتَابِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، وَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ: إِنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

ولهذا يَحْسُنُ السُّكُوتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾، ثُمَّ تَبَدَّى، فَتَقُولَ: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، وَعَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ثُمَّ تَسْكُتَ، ثُمَّ تَقُولَ: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ حَتَّى لَا يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ مِنْ كَلَامٍ هَوَلاَءِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فِيمَا يَلُودُونَ بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ.

وهذه طائفة أخرى تُخَادِعُ كما خَادَعَتِ الطَّائِفَةُ الأولى بالإيمانِ أَوَّلَ النَّهَارِ،
والْكُفْرِ آخِرَهُ، فهذه تُخَادِعُ بالإِثْنَانِ بكلامٍ يُشَبِّهُ الْقُرْآنَ، فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

ففي هذه الآية فوائد، منها:

١- بَيَانُ كَيْفِ يَتَصَرَّفُ أَهْلُ الْكِتَابِ هذه التَّصَرُّفَاتِ، وَيُحَاوِلُونَ هذه
الْمُحَاوَلَاتِ؛ مِنْ أَجْلِ إِضْلَالِ عِبَادِ اللَّهِ، وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هذه الْفَائِدَةِ: أَنَّ هَؤُلَاءِ طَبِيعَتُهُمْ
الْإِضْلَالُ وَالضَّلَالُ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هذا: أَنَّ نَحَذَرُهُمْ،
وَأَلَّا نَغْتَرَّ بِمَعْسُولِ كَلَامِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَذَبَةُ أَعْدَاءِ.

٢- أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا لَوْمَ عَلَيْهِ إِذَا ظَنَّ الْبَاطِلَ حَقًّا بِمَا لُبَّسَ بِهِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ
بَشَرٌ، فَقَدْ يَنْخَدِعُ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَيَّنَّ، وَيَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ صَدَرَ هذا الْكَلَامُ؟ وَهَلِ
صَدَرَ مِنْ نَاصِحٍ مُخْلِصٍ، أَوْ صَدَرَ مِنْ غَاشٍّ مُرِيدٍ لِلإِيقَاعِ بِعِبَادِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؟

٣- أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يُقَرُّ بِاطِلًا أَبَدًا، وَلَا بُدَّ أَنْ يُبَيِّنَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ
الْكِتَابِ﴾، وَلِهَذَا نَسْتَدِلُّ عَلَى مَا فُعِلَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ مُبَاحٌ، نَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ
بِأَنَّ اللَّهَ سَكَتَ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ حَرَامًا -مَثَلًا- مَا سَكَتَ عَنْهُ، وَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي
مَشَى عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ، قَالَ جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا نَعَزِلُ -يَعْنِي: عَنِ النِّسَاءِ- وَالْقُرْآنُ
يَنْزِلُ^(١). وَمَعْنَى الْعَزْلِ: أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا جَامَعَ زَوْجَتَهُ، وَقَارَبَ الْإِنْزَالَ، نَزَعَ؛ حَتَّى
لَا يَنْزِلَ الْمَاءُ فِي مَكَانِهِ؛ فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا نَعَزِلُ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ. يَعْنِي: وَلَوْ كَانَ حَرَامًا
لَنَهَى عَنْهُ الْقُرْآنُ، وَهَذَا ظَاهِرٌ؛ وَلِهَذَا لَمَّا أَخْفَى قَوْمٌ مَا أَخْفَوْا مِمَّا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب العزل، رقم (٥٢٠٨)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب
حكم العزل، رقم (١٤٤٠) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كَشَفَ اللَّهُ سِتْرَهُمْ، فَقَالَ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]، وهذه قاعدةٌ يَنْتَفِعُ بها طَالِبُ الْعِلْمِ فيما فُعِلَ في عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، واستَدَلَّ بِسُكُوتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عنه على جَوَازِهِ، وبه تَسْقُطُ مُعَارَضَةُ مَنْ يَقُولُ: نَعَمْ، فُعِلَ في عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِنْ هَلْ عَلِمَهُ، فَأَقَرَّهُ؟ فنقول: سواء عَلِمَهُ أَمْ لَمْ يَعْلَمْهُ، لَكِنْ عَلِمَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، ولو كان لا يُرْضِي اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَبَيَّنَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

٤- أَنَّ الْكُتُبَ مُنَزَّلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَكِنْ مِنْهَا مَا هُوَ مُحْفُوظٌ، وَمِنْهَا مَا لَيْسَ بِمُحْفُوظٍ، فَالْقُرْآنُ مُحْفُوظٌ؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، أَمَّا غَيْرُ الْقُرْآنِ فَحَصَلَ فِيهِ التَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ وَالْإِخْفَاءُ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدِّلُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

٥- أَنَّ فَرِيقًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ، وَهَذَا أَشَدُّ قُبْحًا، وَأَكْثَرُ لَوْمًا.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ نَحْذَرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ غَايَةَ الْحَذَرِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، فَقَوْلُهُمْ عَلَيْنَا الْكَذِبُ مِنْ بَابِ أَوَّلَى، لَكِنْ لَا يَعْنِي هَذَا أَنَّنَا لَا نَتَّقُ بِأَيِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، كَمَا سَبَقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعِنَاطٍ يُؤْذِيهِ إِلَيْكَ﴾^(١)، لَكِنْ عَلَيْنَا أَنْ نَحْتَرِزَ، وَأَنْ نَنْتَبِهَ؛ حَتَّى لَا نَخْدِعَ بِهَا يُمُوءَهُ بِهِ هَؤُلَاءِ الْكَاذِبُونَ عَلَى اللَّهِ، الْمُفْتَرُونَ عَلَيْهِ.

فَهْرَسُ الْأَحَادِيثِ

الحديث

الصفحة

- أَبَشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ ٥٨٦
- أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ ٥٢٦
- أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ؟ ٤١٨
- أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ ١٥٦
- أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ٣٦٤
- اتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ ٦٤١
- اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ... التَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ ٧٥
- أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ: عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ٥٧٠، ٤٩١
- أَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا ٥٥٩
- أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ ٦٣١، ٤١٥
- إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنكِحُوهُ ١١٤
- إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاغُوتِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ ٢٢٨
- إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ ٥٠١، ٣٩٢
- أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضَاحِيِّ ٥٤٠
- ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ٥٢٢، ٤٤٠، ٢١٥
- أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى شَخْصٍ قَدِمَ لَهُ بَرٌّ مِنَ الشَّامِ، فَطَلَبَ مِنْهُ ٣٨٨
- اسْتَأْذَنَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ مَخْرَافَهُ صَدَقَةً لِأُمَّهِ ٣٩٣

- الإِسْلَامَ يَهْدِيهِمْ مَا كَانَ قَبْلَهُ ٣٦٥
- اشْتَرَى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ يَهُودِيٍّ فِي الْمَدِينَةِ طَعَامًا لِأَهْلِهِ، وَرَهْنَهُ دِرْعَهُ ٦٧٧، ٤١٤
- اضْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ ١٢٤
- أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَبْطَأَ ٢٨٠، ٢٥٠
- أُعْطِيَتْ حُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ٦١٨
- أَفْطَرْنَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي يَوْمٍ غَيْمٍ، ثُمَّ طَلَعَتِ الشَّمْسُ ٤٤٢
- أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ٦٠٦، ٦٠٠، ٥٧٣
- اقْرُؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقْرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ ٤٥٣
- اكَتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٦٠٩
- اكَتُبُوا هَذِهِ فِي مَكَانٍ كَذَا، مِنْ سُورَةِ كَذَا ٢١٠
- أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ٥٧٥، ٤١٦
- أُمْتَهُوْكُمْ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟! لَقَدْ أَتَيْتُ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً ٦١٤
- أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْتَحَاضَةَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى عَادَتِهَا، ثُمَّ تَغْتَسِلَ، وَتُصَلِّيَ ١٢٥
- أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظَمٍ ٥٩٩
- أُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ، وَنُهِنَا عَنِ الْكَلَامِ ٢١٤
- أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ٩٧
- إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ ٢١٤
- إِنَّ أَحَقَّ الشُّرُوطِ أَنْ تُوفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ ٢٠٨
- إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الدُّرِّيَّ ٤٩٦
- إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ٢٣٤

- إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ٣٣١، ٢٠١
- إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ٦١٧
- إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ٦٨٠، ١٢٥
- إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا ٥٦٢
- إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ١٧٠
- إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمَ ١٩٨
- إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا مُكْرَهَ لَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ ٥٨٢
- إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ ٣٥١
- إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ٢٣٦
- إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ٢٧٩
- إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ٥٤٧، ٣٨٣، ١٥٧
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتِغَاءَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابٍ ٤٠٩
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ فِي رَأْسِهِ وَهُوَ مُحَرَّمٌ ١٣
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ فِي رَأْسِهِ وَهُوَ مُحَرَّمٌ ٤٤٦
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَأْجَرَ رَجُلًا مُشْرِكًا يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ فِي هِجْرَتِهِ ٦٧٨
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِإِعْلَانِ النِّكَاحِ ١٩٩
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ مَنْ رَأَى أَوْيسَ الْقُرْنِيِّ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ ٥٠٧
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ قَاعِدًا، فَصَلَّوْا خَلْفَهُ قِيَامًا ٢١٣
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الظُّهْرِ أَوْ الْعَصْرِ، وَسَلَّمْ مِنْ رَكَعَتَيْنِ ٤٤١
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَأُمِّهِ، فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ ٤٩٩

- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَىٰ بِالشَّاهِدِ وَالْيَمِينِ ٤٠٥، ٤٠٤
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَدْعُ رَكْعَتِي الْفَجْرِ حَضْرًا وَلَا سَفَرًا ٣٧٨
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَىٰ عَنِ إِضَاعَةِ الْمَالِ ٣١٢
- إِنَّ أُمِّي افْتَلَتَتْ نَفْسَهَا، وَأَظْنُهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ لَتَصَدَّقْتُ، أَفَأَتَصَدَّقُ عَنْهَا؟ ٣٩٣
- أَنَّ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةَ وَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِهَا بِلْيَالٍ ١٩٢
- إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ ٩٣
- إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ ٤٤٥، ١٠٧
- إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ٢١٥
- أَنَا سَيِّدٌ وَلَدِ آدَمَ ٥٨٩
- أَنْتَ مِنْهُمْ (حَدِيثُ عُكَاشَةَ) ٥٠٦، ٥٠٠
- إِنَّكَ لَأَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللَّهِ ٥٥٩
- إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ٥٨٩، ٣٤٧، ٢١٢
- إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ٦٨٣، ١٣١
- إِنَّمَا كَانَتْ أَوَّلُ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي النِّسَاءِ ١٤٢
- إِنَّهُ - أَيْ: النَّذْرَ - لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ ٣٣٨، ٣٣٧، ٢٤٢
- إِنَّهُ - أَيْ: النَّذْرَ - لَا يَرُدُّ شَيْئًا ٢٤٣، ٢٤٢
- إِنَّهُ جَبَلٌ مُحِبُّنَا وَنُحْبُهُ ٥٥٩
- إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ ٥٨٤
- إِنَّمَا - أَيْ: الْمُتَعَةَ - حَرَامٌ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ١٥٦
- إِنَّمَا لَا تَحِلُّ لِعَنِي، وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسَبٍ ٣٥٠

- إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ٢٥٤، ٤١٨، ٥٢٥
- إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِثَّةَ مَرَّةٍ ٣٨٦
- أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِثَّةُ صَفٍّ، مِنْهُمْ ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ٢٣٠
- أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟ ٢٧٦، ٢٨٨
- إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَآتَقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ٣٢٧
- أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟ ٣٤٥
- الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ ٤٦، ٥٣، ٨٥، ٣٧١، ٤٧٤، ٤٩٧، ٥٨٥، ٦٣٨
- بِسْمِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ٥٦٥
- تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ ١٣٨
- تَصَدَّقْ رَجُلٌ بِصَدَقَةٍ عَلَى غَنِيٍّ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ ٤٤٢
- تُنْكِحُ الْمَرْأَةُ لِأَزْوَاجِهَا ١١٣
- ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظَرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ٣١٢
- الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ١٣٤
- جَتَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَتَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آتَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ٤٩٦
- حَدِيثُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ ٢١١، ٢٦٥
- حَدِيثُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ دَخَلُوا غَارًا، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ ٥٠٥
- حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٢٧٥
- حَدِيثُ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صِفَةِ الْحَجِّ ٢٨، ٣١، ٣٤
- حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فِي الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ ٢٤٥
- الْحَرْبُ خُدْعَةٌ ٦٢٩

- ٤٦٩ الْحَلَالُ بَيْنَ، وَالْحَرَامُ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ
- ٣٣١ الْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ
- ٣٦١، ٣٥٩ الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ ... مِثْلًا بِمِثْلِ
- ٣٦٥ رَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ
- ١٩٤ الرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ
- ٣٧٩ رَكَعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
- ٢٩٢ سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ
- ٤٢٩ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي
- ٥٩٠، ٥٧٣، ٥٠٩، ٢٧٤ سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ
- ٥٤٤ الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ
- ٢١٢، ٢١٠ شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ
- ٧٢ صَدَقَ عَبْدُ اللَّهِ، هُوَ وَوَلَدُهُ أَحَقُّ مَنْ أَنْفَقَتْ عَلَيْهِ
- ٣٤٠، ٣٣٩، ٣٣٢ الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ
- ٢١٣ صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ
- ٥٥٩ الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا
- ٥٨٦ طَلَبَ عِتْبَانٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَزُورَهُ فِي بَيْتِهِ لِيُصَلِّيَ
- ٥١٠، ٣٤١ عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ
- ٢٣ عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً
- ١٠٧ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبْسِرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ
- ١٠ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبْسِرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ

- فَأَنى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ ٦٢٨، ٤٣٨
- الْفِرْدَوْسُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ٤٩٥
- قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ، لَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَذَابُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ ٦٣٠
- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرِكِ ٨٧، ١٢٦، ٢١٤، ٣١٦، ٣٤٦، ٣٧٦، ٦٤١
- قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي، قَالَ ﷺ: «يَخْزِي عَنْكَ الثُّلُثُ» ٢٧٣
- قَدْ فَعَلْتُ ٤٣٩، ٢١٥، ١٨٧، ١٠٧
- قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ٣٥٥
- قُمْ، وَنَمْ؛ فَإِنْ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ٣١
- قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ٦٨١
- قَوْمُوا، فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا ١١
- كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ عَائِشَةَ أَنْ تَتَرَّرَ، فَيُبَاشِرُهَا، وَهِيَ حَائِضٌ ١٢٤
- كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّفُ رُكْعَتِي الْفَجْرِ حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَقْرَأُ بِأَمِّ الْكِتَابِ؟ ٣٧٩
- كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ صَلَاةَ النَّافِلَةِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ ٢١٨
- كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ٣١٠، ٣٠٩
- كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٢٧٤
- كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ٥٢٣
- كُلُّ شَرِّطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ كَانَ مِثَّةَ شَرِّطٍ ١٧٧
- كُلُّ مُسْكِرٍ حَمْرٌ ٨٨
- كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ٥٩٨
- كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا ٢٢٢

- لَا تَزَكِبُوا مَا آتَيْنَاكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فَتَفْشَوْا فِيهَا ۚ فَتَسْتَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ بِأَدْنَىٰ الْحِيلِ ٦٣٠، ٦٦٩
- لَا تَسْأَلِ الْمَرْأَةَ طَلَاقَ أُخْتِهَا؛ لِتَكْفَأَ مَا فِي صَخْفَتِهَا ١٧٦
- لَا تَفْتَحِ الْكِتَابَ إِلَّا بَعْدَ مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ ٧٨
- لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ ١٢٧
- لَا تُنْكَحِ الْبَكْرُ حَتَّىٰ تُسْتَأْذَنَ، وَلَا الْإِيْمُ حَتَّىٰ تُسْتَأْمَرَ ١١٥، ١٧٥
- لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ، وَلَا وَهُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَانِ ٢١٨
- لَا ضَرَرَ، وَلَا ضَرَارَ ١٨٨، ٤١٠
- لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ ٥٦٣
- لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ ١١٥
- لَا يَجْتَمِعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانٍ ٥١٧
- لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ ١٢٩
- لَا يَشْرَبُ الْخَمْرُ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ٩٢
- لَا يُؤْخَذُ فِي الصَّدَقَةِ هَرِمَةٌ، وَلَا تَيْسٌ، وَلَا ذَاتُ عَوَارٍ ٣٢٧
- لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ٣٢٩
- لَا تُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ١٢٥
- لَتَرْكَبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ ٦٣٠
- لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُصَوِّرِينَ ٦١٩
- لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَىٰ مَنْ يَسِّرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ١٠٤
- لَمْ يُرَخَّصْ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَنْ يُصْمَنَ إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَجِدِ الْهَدْيَ ١٦
- لَمَْوْضِعُ سَوَاطِئِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ٤٩٠، ٤٩٥

- لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ ٥٨٠، ٣٨٠، ٨٧
- اللَّهُمَّ اغْنِنَا ٥٠٦، ٥٠٠، ٢٥٩
- اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ ١١
- اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمْتِكَ ٥٠٤
- اللَّهُمَّ بَعِّلِمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدِّرْكَ عَلَى الْخَلْقِ ٥٠٤
- اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ٣٧٣
- لَوْ أُعْطِيَ النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَا دَعَى رِجَالٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ ٥٥٨
- لَوْ رَاجَعْتِهِ (حَدِيثُ بَرِيرَةَ) ٤٢٨
- لَوْ كَانَ أَخِي مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي ٦٣٦
- لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ ٣٠٦
- لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ ١٠٥
- مَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِذٌ بِمِثْلِهِمَا ٣٦٣
- مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ ٤٨٩، ١٤٢
- مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ ٣٧٠، ٢٣٦
- مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ٣٣٦
- مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتٍ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ ٤٠٥
- مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ ٢٧٧
- مَا كُنْتُ أَرَى الْوَجَعَ بَلَغَ مِنْكَ مَا أَرَى (حَدِيثُ كَعْبٍ) ١٤، ٦
- مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ ٥٥٨
- مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ ٥٥٦

- مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ٢٥٠، ٦١٨
- مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ٢٣٧، ٣٣٠، ٣٣٢
- مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ٤٣٤، ٤٤٦
- الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ ٧٦
- مُرَّ عَبْدُ اللَّهِ، فَلْيُرَاجِعْهَا ١٦٠
- مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ ٩٧
- مَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ٥٠٨
- مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ ٢٩٢، ٣٢٨
- مَنْ أَسْلَمَ فِي شَيْءٍ فَلْيُسْلِمِ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ ٣٦١، ٤٠٠
- مَنْ اقْتَطَعَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٢٨٥، ٤١٩
- مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ ٤٣، ٥٧٠، ٦٦٤
- مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ٦٠٦
- مَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ بِهِ، وَمَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ ٢٣٦
- مَنْ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ ١٥٠
- مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا ٣٥٤
- مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ، فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ٦٦٧
- مَنْ شُبِّرُمَةُ؟ ٣٩٣
- مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ٢١٢
- مَنْ طَلَبَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ٦٨٣
- مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ٥٣٣

- مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ ١١٢، ١١٨، ١٦٨، ٣٧٧، ٥٢٢، ٦٤١
- مَنْ قَاتَلَ؛ لِيَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ٨٧، ٤٨٤
- مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ٦٧٩
- مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ ٣٩٣
- مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ ٤٤٠
- مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ ٢٤٣، ٣٣٧
- مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ، فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلْيَتِمَّ صَوْمَهُ ٤٤١
- مَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ سِوَى ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ٥٤٧
- الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ٧٧
- نَحْنُ أَوْلَى بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ٣٠٥، ٤٨٥
- نَعَمْ، عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالٌ فِيهِ: الْحُجُّ، وَالْعُمْرَةُ ٧
- هَذَا عَيْنُ الرَّبِّ، رُدُّوهُ ٣٦٠
- هَلْ تَحِدُّ رَقَبَةً؟ ٤٤٧
- هَلْ عَلَيْهِ دِينَ؟ ٩٨
- هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ٢٨٧
- هُوَ فِي ضَخْصَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ٢٧٥
- وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ٦٤٧
- وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَنْ يَصْرُوكَ بَشِيءٌ إِلَّا بِشِيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ٦٧٤
- وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجْرَتْ عَلَيْهَا ٧١
- وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ ٥٧٣

- وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَدٌ، وَسَمَّيْتُهُ إِبْرَاهِيمَ ٥٦٩
- وَمَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟! ١٧٨
- يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ١١١
- يَا أَخِي، لَا تَنْسَنَا مِنْ دُعَائِكَ ٥٠٧
- يَا آدَمَ، أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ ٢٣٠
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، تَفْلِحُوا ٥٢١
- يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوَنِي ٦٤٣، ٣٤٥، ٢٨٣، ١٦٩، ١٥٢، ١٢٠
- يَا عَمَّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ ٣٤٣
- يَأْتِي الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ رَبِّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلَيْسَتَعِذُّ بِاللَّهِ، وَلَيْتَنِي ٢٠١
- يُدُّ اللَّهُ مَلَأَى سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً ٥٤٣، ٣١٣
- يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا ٤٤٥، ١٠٧
- يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ ٥٧٢، ٥١٢

فهرسُ الموضوعاتِ والفوائدِ

الموضوع

الصفحة

- ٥..... [١٩٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾
- ٥..... كيف يَبْلُغُ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ؟
- ٧..... وَجْهُ التَّأَكُّدِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾
- ٧..... ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٩٦)
- ٧..... الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
- ٨..... كيف يَصْنَعُ مَنْ عَجَزَ عَنْ إِتِمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ؟
- ٨..... الْمُرَادُ بِالْإِحْصَارِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾
- ٨..... قَاعِدَةٌ: ذِكْرُ حُكْمٍ يَخْتَصُّ بَعْضَ أَفْرَادِ الْعَامِّ لَا يَقْتَضِي تَخْصِيصَ الْعَامِّ بِذَلِكَ
- ٩..... الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ مَبْنِيٌّ عَلَى الْيُسْرِ
- ١٠..... إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُحْصَرُّ الْهَدْيَ لَمْ يَلْزَمْهُ شَيْءٌ
- ١٠..... لَا إِطْعَامَ فِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ عَلَى مَنْ عَجَزَ عَنِ الْعَتَقِ وَالصِّيَامِ
- ١١..... لُزُومُ حَلْقِ الرَّأْسِ أَوْ تَقْصِيرِهِ عَلَى الْمُحْصَرِّ
- ١١..... تَحْرِيمُ حَلْقِ الرَّأْسِ حَالَ الْإِحْرَامِ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ
- ١١..... الْحَلْقُ أَوْ التَّقْصِيرُ فِي النُّسْكِ عِبَادَةٌ، لَا إِطْلَاقٌ مِنْ مَحْظُورٍ
- ١٢..... جَوَازُ انْتِهَاكِ الْمَحْظُورِ لِلْعُدْرِ
- ١٢..... الْقَدْرُ الَّذِي تَثَبَّتْ بِهِ الْفِدْيَةُ فِي حَلْقِ رَأْسِ الْمُحْرِمِ
- ١٣..... التَّصَوُّصَ تَأْتِي عَلَى وَجْهَيْنِ: مُبَيَّنٌ ابْتِدَاءً، وَمُجْمَلٌ يُبَيَّنُ بَعْدَ ذَلِكَ

- ١٣ الْحِكْمَةُ مِنْ وَرُودِ النَّصِّ مُجْمَلًا ثُمَّ يُبَيَّنُ بَعْدَ ذَلِكَ
- ١٤ الْكَفَّارَاتُ فِدَى يَفْدِي بِهَا الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ
- ١٤ الْغَالِبُ فِي الْكَفَّارَاتِ الْمُخَيَّرَةُ الْبِدَاءُ بِذِكْرِ الْأَسْهَلِ، وَفِي الْمَغْلَظَةِ الْبِدَاءُ بِالْأَشَدِّ
- ١٥ وَجُوبُ الْهَدْيِ فِي التَّمَتُّعِ، وَصِفَةُ التَّمَتُّعِ
- ١٥ دَمُ التَّمَتُّعِ دَمُ سُكْرَانٍ، لَا دَمَ جُبْرَانٍ
- ١٥ وَجُوبُ الْهَدْيِ عَلَى الْقَارِنِ
- ١٦ مَتَى يَبْدَأُ صِيَامُ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ لِمَنْ عَدِمَ هَدْيَ التَّمَتُّعِ؟
- ١٧ كُلُّ أَمْرٍ وَرَدَ مُطْلَقًا لَا يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ قَيْدٌ إِلَّا بِدَلِيلٍ
- ١٧ هَلْ لِأَهْلِ مَكَّةَ مُتَعَةٌ؟
- ١٨ الْعَجْزُ عَنِ الْهَدْيِ لَهُ صُورَتَانِ
- ١٨ تَخْصِيصُ أَهْلِ مَكَّةَ بِأَحْكَامٍ دَلِيلٌ عَلَى تَعْظِيمِ مَكَّةَ
- ١٩ جَوَازُ تَرْكِ الْمُحَرَّمِ خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ
- ٢٠ [١٩٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾
- ٢٠ الْمُرَادُ بِأَشْهُرِ الْحَجِّ
- ٢١ وَجُوبُ إِمْتَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ عَلَى مَنْ شَرَعَ فِيهِمَا وَلَوْ كَانَا نَفْلًا
- ٢٢ مِنَ التَّزَوُّدِ بِالتَّقْوَى: التَّنَعُّمُ بِنِعَمِ اللَّهِ شُكْرًا لَهُ وَاسْتِعَانَةً بِهَا عَلَى مَرَضَاتِهِ
- ٢٣ ■ قَوَائِدُ الْآيَةِ (١٩٧)
- ٢٣ لَيْسَ لِلْعُمْرَةِ أَشْهُرٌ مُعَيَّنَةٌ بخلاف الْحَجِّ
- ٢٣ صَرَفُ الْأَمْوَالِ فِي سَدِّ حَاجَةِ النَّاسِ وَإِقَامَةِ الدِّينِ أَوْلَى مِنَ الْعُمْرَةِ فِي رَمَضَانَ
- ٢٣ إِذَا تَرَتَّبَ عَلَى الْعُمْرَةِ فِي رَمَضَانَ أُمُورٌ سَيِّئَةٌ كَانَ تَرْكُهَا أَفْضَلَ

- ٢٤ مَنْ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ قَبْلَ دُخُولِ أَشْهُرِهِ فَهَلْ يَصِحُّ إِحْرَامُهُ؟
- ٢٤ الْأُمُورُ الْمُتَرْتِبَةُ عَلَى الْجَمَاعِ فِي الْحَجِّ.
- ٢٥ تَحْرِيمُ الْفُسُوقِ فِي الْحَجِّ أَشَدُّ مِنْ تَحْرِيمِهِ فِي غَيْرِهِ.
- ٢٥ فِعْلُ الْمَعْصِيَةِ فِي الْإِحْرَامِ مِمَّا يُؤَثِّرُ فِي ثَوَابِ النَّسْكَ.
- ٢٥ سَبَبُ أَمْرِ الْمُحْرَمِ بِتَرْكِ الْجِدَالِ.
- ٢٦ الْفَوَائِدُ الْمَسْلُوكِيَّةُ الْمُتَرْتِبَةُ عَلَى عِلْمِ الْإِنْسَانِ بِعُمُومِ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.
- ٢٦ أَمْرُ الْحَاجِّ بِالتَّزَوُّدِ يَشْمَلُ أَمْرَيْنِ.
- ٢٧ تَقْوَى اللَّهِ دَلِيلٌ عَلَى عَقْلِ الْإِنْسَانِ.
- [١٩٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾
- ٢٧ وَجْهُ نَفْيِ اللَّهِ الْجُنَاحَ عَمَّنْ ابْتَغَى فَضْلًا مِنَ اللَّهِ فِي الْحَجِّ.
- ٢٨ كُلُّ طَاعَةٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ.
- ٢٨ الْمُرَادُ بِالمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَسَبَبُ تَسْمِيَّتِهِ بِذَلِكَ.
- ٢٨ ذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ يَشْمَلُ أُمُورًا.
- ٢٩ الْكَافُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كَمَا هَدَيْنَاكُمْ﴾ لَهَا مَعْنَيَانِ.
- ٢٩ الْعَمَلُ إِذَا اشْتَمَلَتِ الْآيَةُ عَلَى مَعْنَيْنِ صَحِيحَيْنِ، وَلَا مُرْجَحَ لِأَحَدِهِمَا.
- ٢٩ لَا يَتَّبِعُ فَضْلُ الْهَدَايَةِ حَقًّا إِلَّا إِذَا كَانَتْ بَعْدَ الضَّلَالِ.
- ٣٠ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٩٨).
- ٣٠ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَلَقَّى الرِّزْقَ وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِاللَّهِ.
- ٣٠ كَانَتِ الْإِفَاضَةُ مِنْ عَرَافَاتٍ أَمْرًا مَعْلُومًا عِنْدَ النَّاسِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ.

- يَحْرُمُ فِي مُزْدَلِفَةَ مَا يَحْرُمُ فِي جَوْفِ مَكَّةَ..... ٣٢
- الهِدَايَةُ نَوَاعَانِ..... ٣٢
- حُكْمُ تَذْكِيرِ الْإِنْسَانِ النَّائِبِ بِبَاضِيهِ..... ٣٣
- [١٩٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾..... ٣٤
- [٢٠٠-٢٠٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُ مَنَسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾..... ٣٥
- [٢٠٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾..... ٣٦
- الْمُرَادُ بِالْأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ وَالْأَيَّامِ الْمَعْلُومَاتِ..... ٣٦
- حَالُ النَّاسِ حِينَ يُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ..... ٣٧
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٠٣)..... ٣٧
- ذَكَرَ اللَّهُ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ يَتَنَاوَلُ الْأَذْكَارَ، وَالْمَبِيتَ بِمَنَى، وَرَمَى الْجِمَارَ..... ٣٧
- مَنْ غَابَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الْيَوْمِ الثَّانِي عَشَرَ قَبْلَ أَنْ يَتَعَجَّلَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْبَقَاءُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ حَبَسَهُ السَّيْرُ..... ٣٧
- التَّأَخُّرُ فِي مَنَى إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ عَشَرَ أَفْضَلُ..... ٣٨
- يُسْرُ الْحَشْرِ عَلَى اللَّهِ جَلَّوَعَلَا..... ٣٩
- [٢٠٤-٢٠٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾..... ٣٩
- أَقْسَامُ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ..... ٣٩
- الْمَعَاصِي سَبَبٌ لِلْأَوْبَةِ وَالْقَحْطِ وَالْجَدْبِ..... ٤٠
- الْفَرْقُ بَيْنَ «يَشْرِي» وَ«يَشْتَرِي»..... ٤١
- [٢٠٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾..... ٤٢
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٠٨)..... ٤٣

- ٤٣.....تَضْدِيرُ الْخِطَابِ بِدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ دَلِيلٌ عَلَى الْعِنَايَةِ بِمَضْمُونِهِ.....
- ٤٣.....تَحْرِيمُ مُتَابَعَةِ الشَّيْطَانِ وَالتَّشْبُهِ بِأَوْلِيَائِهِ.....
- ٤٤.....[٢٠٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ زَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾.....
- ٤٤.....قِصَّةُ أَعْرَابِيٍّ أَدْرَكَ خَطَأَ قَارِيٍّ خَتَمَ الْآيَةَ بِاسْمَيْنِ لِلَّهِ لَا يَتَنَاسَبَانِ مَعَ مَضْمُونِ الْآيَةِ.....
- ٤٥.....■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٠٩).....
- ٤٥.....كُلُّ زَكَلٍ قَبْلَ قِيَامِ الْبَيِّنَةِ لَا إِثْمَ فِيهِ.....
- ٤٥.....[٢١٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾.....
- ٤٦.....■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١٠).....
- ٤٦.....الْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ فِي كُلِّ فِعْلٍ أَضَافَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ.....
- ٤٨.....[٢١١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَةٍ﴾.....
- ٤٨.....بَنُو إِسْرَائِيلَ أَبْنَاءُ عَمِّ الْعَرَبِ.....
- ٤٩.....■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١١).....
- ٤٩.....كُلُّ آيَةٍ جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَى يَدِ نَبِيٍّ فِيهِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ.....
- ٤٩.....شَرِيعَةُ اللَّهِ وَدِينُهُ مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ عَلَى الْعِبَادِ.....
- ٥٠.....[٢١٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.....
- ٥١.....أَسْبَابُ الرِّزْقِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْحِسِّيَّةِ.....
- ٥٢.....قَدْ يَمْنَعُ اللَّهُ الرِّزْقَ عَنْ عَبْدِهِ، وَهُوَ يَفْعَلُ أَسْبَابَهُ، لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ بِالْغَةِ.....
- ٥٢.....■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١٢).....
- ٥٢.....التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِنْغِمَاسِ فِي الدُّنْيَا.....
- ٥٢.....كُلَّمَا قَوِيَ إِيمَانُ الْعَبْدِ زَادَتْ سُخْرِيَةُ الْكُفَّارِ بِهِ.....

- قَاعِدَةٌ: الْحُكْمُ الْمُعَلَّقُ عَلَى وَصْفٍ يَزْدَادُ بزيادةِ ذَلِكَ الْوَصْفِ، وَيَنْقُصُ بِنَقْصِهِ ٥٢
- مَنْ سَخِرَ مِنْ مُؤْمِنٍ فَقَدْ شَابَهُ الْكُفَّارُ ٥٢
- أَعْظَمُ أَنْوَاعِ السُّخْرِيَةِ: مَا كَانَ بِسَبَبِ تَمَسُّكِ الْمُؤْمِنِ بِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ ٥٣
- لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَغْتَرَّ بِكَافِرٍ ٥٣
- التَّقْوَى سَبَبٌ لِلْعُلُوِّ وَالرَّفْعَةِ ٥٣
- [٢١٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِينَ﴾ ٥٤
- كُلُّ نَبِيٍّ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ يُنَاسِبُ أَحْوَالَ أُمَّتِهِ ٥٥
- أَعْظَمُ الْحَقُوقِ وَأَحَقُّهَا عِبَادَةُ اللَّهِ وَإِفْرَادُهُ بِذَلِكَ ٥٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١٣) ٥٦
- أَحْكَامُ اللَّهِ قِسْمَانِ ٥٧
- مَنْ عَرَضَ شَرِيعَةَ اللَّهِ فليَقْرِئَهَا بِالْبَشَارَةِ وَالْإِنْذَارِ، وَلْيَبْدَأْ بِالْبَشَارَةِ ٥٧
- كُلُّ كِتَابٍ سَبَقَ الْقُرْآنَ قَدْ حَصَلَ فِيهِ التَّبْدِيلُ، وَالتَّغْيِيرُ، وَالْإِحْفَاءُ وَالْإِظْهَارُ ٥٨
- دَلَالَةُ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ إِجْمَاعَ هَذِهِ الْأُمَّةِ حَقٌّ ٥٩
- فُضِيلَةُ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ ٦٠
- اِخْتِلَافُ النَّاسِ فِي الْكِتَابِ سَبَبُهُ الْبَغْيُ وَالْعُدَاوَانُ ٦٠
- خَطَأٌ مَنْ جَعَلَ اِخْتِلَافَ الرَّأْيِ -فِيهِ مَسَاعٌ- سَبَبًا لِلتَّفَرُّقِ ٦٠
- كُلَّمَا كَثُرَتِ الْأُمَّةُ كَثُرَ اِخْتِلَافُ ٦١
- كُلَّمَا قَوِيَ الْإِيمَانُ أَزْدَادَ الْعَبْدُ هُدًى ٦١
- التَّحْذِيرُ مِنْ عُجْبِ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ، وَافْتِحَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ٦١
- إِدْرَاكُ الْحَقِّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ يَحْتَاجُ إِلَى أَمْرَيْنِ ٦٢

[٢١٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا

مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ٦٣

■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١٤) ٦٤

كُلُّ مَنْ قَامَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ فَسُوفَ يُمْتَحَنُ ٦٤

اسْتِبْطَاءُ النَّصْرِ وَانْتِظَارُ الْفَرَجِ لَا يُخِلُّ بِالتَّصَدِيقِ ٦٥

[٢١٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ

وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ٦٥

وَجْهٌ وَصِيَّةُ اللَّهِ بِالْيَتَامَى ٦٦

وَجْهٌ تَسْمِيَةُ الْفَقِيرِ مَسْكِينًا ٦٧

■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١٥) ٦٧

وُجُوبُ الْكَفِّ عَنِ السُّؤَالِ عَمَّا لَمْ يَرِدِ السُّؤَالُ عَنْهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ ٦٨

السُّؤَالُ عَنْ كَيْفِيَّةِ اسْتَوَاءِ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ بِدَعَا ٦٩

مُرَادُ الصَّحَابَةِ مِنْ سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ الْعَمَلُ، لَا مُجَرَّدُ الْعِلْمِ ٧٠

مَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فَلْيَسْأَلْ مَنْ يَرَاهُ أَوْثَقَ فِي عِلْمِهِ وَأَمَانَتِهِ، وَلَا يَسْأَلْ بَعْدَهُ

أَحَدًا ٧١

كَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ سَأَلَ عَالِمًا، ثُمَّ سَمِعَ آخَرَ يَقَرُّ بِالْأَدِلَّةِ خِلَافَ مَا أُفْتِيَ بِهِ؟ ٧١

الِاخْتِيَاظُ لِلدِّينِ أَهَمُّ مِنَ الْإِخْتِيَاظِ لِلدُّنْيَا ٧١

نَصِيحَةُ: مَنْ أَنْفَقَ فليكن عَلَى بَالِهِ نِيَّةُ انْتِغَاءِ وَجْهِ اللَّهِ ٧٢

التَّوْبَةُ عَلَى مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الْإِنْفَاقَ عَلَى غَيْرِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ أَفْضَلُ ٧٢

[٢١٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ ٧٣

- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١٦) ٧٤
- ٧٤ قِتَالُ الْأَعْدَاءِ فَرَضٌ كِفَايَةٌ إِجْمَاعًا، وَقَدْ يَسْقُطُ مَعَ الْعَجْزِ
- ٧٤ يَكُونُ الْقِتَالُ فَرَضَ عَيْنٍ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ.
- ٧٥ وَجُوبُ الْقِيَامِ بِهَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ وَلَوْ كَرِهَتْهُ نَفْسُهُ
- ٧٦ مَنْ أَتَى بِالْعِبَادَةِ مُنْشَرِّحًا بِهَا صَدْرُهُ كَانَ أَعْلَى مِمَّنْ أَتَى بِهَا شَاقَّةً عَلَيْهِ
- ٧٦ قَدْ يَكْرَهُ الْإِنْسَانُ الْأَمْرَ يَكُونُ خَيْرًا لَهُ، وَقَدْ يُحِبُّ الشَّيْءَ يَكُونُ شَرًّا لَهُ
- ٧٧ مَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى مَا تَكْرَهُهُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَلْيَرْتَقِبِ الْخَيْرَ
- ٧٨ [٢١٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَشْهُرِ الْحَرَامِ فَقَالَ فِيهِ﴾
- ٧٨ سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ.
- ٨٠ الْمَوْتُ عَلَى الرَّدَّةِ شَرْطٌ لِحُبُوطِ الْعَمَلِ
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١٧) ٨٠
- ٨٠ حِرْصُ الصَّحَابَةِ عَلَى التَّفَقُّهِ فِي دِينِ اللَّهِ
- ٨٠ تَتَّبِعُ الرُّخْصَ أَمْرٌ مُنْكَرٌ
- ٨١ الْقِتَالُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ
- ٨١ الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ
- ٨٢ الْكُفْرُ بِاللَّهِ أَعْظَمُ مِنَ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
- ٨٢ الصَّدُّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ
- ٨٣ مَنْ حَرَصَ الْكُفَّارَ عَلَى رِدَّةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ: بَذَلَهُمْ رِقَابَهُمْ فِي ذَلِكَ
- ٨٤ يُقْبَلُ إِسْلَامُ الْمُرْتَدِّ مَهْمَا كَانَتْ رِدَّتُهُ
- ٨٤ وَجُوبُ قَتْلِ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ ﷺ وَإِنْ تَابَ

- كُلِّ عَمَلٍ الْكَافِرِ حَابِطٌ، لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ ٨٥
- مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ مُحْلَدٌ فِي النَّارِ أَبَدَ الْأَبْدِينَ ٨٥
- [٢١٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ٨٦
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١٨) ٨٦
- مِيزَانُ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ٨٧
- مَنْ عَمِلَ عَمَلًا فَلْيَحْذَرْ أَنْ يُعْجَبَ بِهِ ٨٧
- [٢١٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ ٨٨
- مَا غَطَّى الْعَقْلَ عَلَى وَجْهِ اللَّذَّةِ وَالطَّرَبِ فَهُوَ الْمُسْكِرُ ٨٨
- سُمِّيَ الْمَيْسِرُ مَيْسِرًا لِتَيْسُرِ الرِّبْحِ فِيهِ ٨٩
- قَاعِدَةٌ: كُلُّ مُعَامَلَةٍ دَارَتْ بَيْنَ الْغُرْمِ وَالْغَنَمِ فَهِيَ مِنَ الْمَيْسِرِ ٩٠
- قِصَّةُ ثُبُيْنِ مَفَاسِدِ الْمُسْكِرِ ٩٠
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١٩) ٩١
- الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ ٩٢
- وَجْهُ اخْتِصَاصِ الْخَمْرِ بِالْعُقُوبَةِ دُونَ الْمَيْسِرِ ٩٢
- عُقُوبَةُ شَارِبِ الْخَمْرِ ٩٢
- هَلْ يُقْتَلُ شَارِبُ الْخَمْرِ إِذَا جُلِدَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلَمْ يُتَّبَعْ؟ ٩٣
- تَعَارُضُ الْمَصْلَحَةِ وَالْمُفْسَدَةِ عَلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ ٩٤
- مَرَّاحُلُ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ٩٥
- الْعِبْرَةُ بِكِبَرِ الْمَآثِمِ، لَا بِكَثْرَتِهَا ٩٦

- ٩٦..... الإنفاق المأمور به ما كان زائداً عن الحاجة
- ٩٧..... من عليه دينٌ فلا يتصدق ولا يحج، إلا أن يكون الدين مؤجلاً
- ٩٩..... ليس في القرآن ما يخفى معناه على كل أحد
- ٩٩..... الحث على تفهم معاني آيات الله الشرعية
- ٩٩..... آيات الله نوعان: شرعية، وكونية
- ١٠٠..... التفكير في آيات الله من الأمور المحبوبة إلى الله تبارك وتعالى
- ١٠١..... [٢٢٠] قول الله تعالى: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي﴾
- ١٠٢..... الفائدة من عدم ذكر المفضل عليه في قوله تعالى: ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾
- ١٠٢..... ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٢٠)
- ١٠٣..... نقص نعيم الدنيا، وصفاء نعيم الآخرة
- ١٠٤..... التأسي بالصحاب في السؤال عما يُشكل في أمور الدين والدنيا
- ١٠٥..... كلما كان الإنسان قاصراً وأشدَّ حاجةً كانت العناية به أولى وأجدَر
- ١٠٥..... جواز مخالطة اليتامى فيما لا بد من الاختلاط فيه
- ١٠٦..... أنواع الشرية
- ١٠٦..... الفائدة من التعبير بالأخوة في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَخَاطَبُوهُمْ فَاخْوَنُكُمْ﴾
- ١٠٧..... انتفاء العسر والمشقة في الإسلام
- ١٠٨..... الفائدة من افتران اسمي الله: «العزیز» و«الحکیم»
- ١٠٨..... أثر إيمان العبد بحكمة الله في الرضا بشرعه وقدره
- ١٠٩..... [٢٢١] قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾
- ١٠٩..... الشرك في الآية يشمل الشرك في الربوبية وفي الألوهية

- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٢١) ١١١
- بُطْلَانُ نِكَاحِ الْمُشْرِكَةِ ١١٢
- حُكْمُ نِكَاحِ نِسَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا اعْتَقَدَتْ اللَّهُ شَرِيكًا ١١٢
- جَوَازُ نِكَاحِ الْعَاصِيَةِ الْفَاسِقَةِ ١١٣
- كُلَّمَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ أَقْوَى إِيمَانًا، وَأَكْثَرَ عَمَلًا لِلصَّالِحَاتِ، كَانَتْ أَوْلَى أَنْ تُنْكَحَ ١١٤
- لَا بَأْسَ بِاعْجَابِ الْمُسْلِمِ بِمَا عَلَيْهِ الْمُشْرِكُ فِي أَمْرِ تَقْتِضِيهِ الْفِطْرَةُ مَا لَمْ يُؤَدَّ إِلَى حُبِّهِ . ١١٤
- النِّكَاحُ بِلَا وَلِيٍّ فَاسِدٌ ١١٤
- وَلِيُّ الْمَرْأَةِ فِي النِّكَاحِ ١١٥
- نَصِيحَةُ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ ١١٦
- إِذَا رَضِيَتِ الْمَرْأَةُ بِمَنْ لَا يُرْضَى فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ فَهَلْ تُزَوِّجُ؟ ١١٧
- نِكَاحُ الْمُشْرِكِ لِلْمُؤْمِنَةِ بَاطِلٌ ١١٨
- جَوَازُ الزَّوْاجِ بِالرَّجُلِ الْفَاسِقِ ١١٨
- الْعَامِلُ الْمُسْلِمُ أَوْلَى مِنَ الْكَافِرِ ١١٨
- دَعْوَةُ الْكُفَّارِ إِلَى النَّارِ تَكُونُ بِأَقْوَاهِمَ، وَبِأَفْعَالِهِمْ ١١٩
- مَنْ ادَّعَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ الْيَوْمَ عَلَى دِينٍ صَحِيحٍ مَرْضِيٍّ عِنْدَ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ ١١٩
- لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى نَفْسِهِ فِي سُلُوكِ طَرِيقِ الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ ١٢٠
- كُلَّمَا تَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ فِي آيَاتِ اللَّهِ زِدَادَ تَذَكُّرًا وَاتِّعَازًا ١٢١
- [٢٢٢-٢٢٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾ ١٢١
- دَمُ الْحَيْضِ أَذَى لِلرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ١٢١
- كَلِمَةُ «الْمَحِيضِ» فِي الْآيَةِ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ ١٢٢

- ١٢٣ من تَقْدِيمِ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ فِي أَمْرِ النِّكَاحِ: أَنْ يَخْرِصَ عَلَى الْجَمَاعِ بِإِنْزَالِ
- ١٢٣ ■ فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (٢٢٢-٢٢٣)
- ١٢٤ جَوَازُ الْاسْتِمْتَاعِ بِالْحَائِضِ عَلَى كُلِّ وَجْهِ، إِلَّا الْوُطْءَ فِي الْفَرْجِ
- ١٢٤ لَا يَجُوزُ جَمَاعُ الْحَائِضِ حَتَّى تَطْهُرَ مِنَ الْحَيْضِ، وَتَغْتَسِلَ
- ١٢٥ جَوَازُ جَمَاعِ الْمَرْأَةِ الْمُسْتَحَاضَةِ
- ١٢٥ النَّصُوصُ الْوَارِدَةُ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ عَلَى نَوْعَيْنِ
- ١٢٦ تَحْرِيمُ وَطْءِ الْمَرْأَةِ فِي الدُّبْرِ
- ١٢٦ شُرُوطُ التَّوْبَةِ خَمْسَةٌ
- ١٢٧ زَمَنُ قَبُولِ التَّوْبَةِ
- ١٢٨ جَوَازُ جَمَاعِ الْمَرْأَةِ عَلَى أَيِّ حَالٍ إِذَا كَانَ فِي فَرْجِهَا
- ١٢٩ [٢٢٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾
- ١٢٩ هَذِهِ الْآيَةُ لَهَا مَعْنِيَانِ
- ١٣٠ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٢٤)
- ١٣٠ مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، وَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَفْعَلِ الْخَيْرَ
- ١٣١ [٢٢٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾
- ١٣١ الْمُواخَذَةُ فِي الْيَمِينِ تَشْمَلُ الْعُقُوبَةَ وَالْكَفَّارَةَ
- ١٣١ كُلُّ يَمِينٍ لَمْ يَقْصِدْهُ الْإِنْسَانُ بِقَلْبِهِ فَإِنَّهُ لَعَوٌ
- ١٣٢ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٢٥)
- ١٣٢ لِلْقَلْبِ قَوْلٌ وَعَمَلٌ
- ١٣٣ [٢٢٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾

- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٢٦) ١٣٣
- وُجُوبُ الْمَعَاشِرَةِ بِالْمَعْرُوفِ عَلَى كُلِّ زَوْجَيْنِ ١٣٣
- حِمَايَةُ حَقِّ الزَّوْجَةِ إِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ أَلَّا يُجَامِعَ زَوْجَتَهُ ١٣٣
- كَرَاهَةُ الْإِيلَاءِ ١٣٤
- هَلْ يَجُوزُ لِلزَّوْجِ أَنْ يَدَعَ جَمَاعَ زَوْجَتِهِ مَدَّةً أَقَلَّ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ١٣٤
- [٢٢٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ١٣٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٢٧) ١٣٥
- الْأَصْلُ فِي الطَّلَاقِ الْكَرَاهَةُ، وَقَدْ تَعَلَّقَ بِهِ بَقِيَّةُ الْأَحْكَامِ التَّكْلِفِيَّةِ ١٣٥
- التَّحْذِيرُ مِنَ التَّسْرُعِ فِي الطَّلَاقِ ١٣٦
- السَّمْعُ الْمُضَافُ إِلَى اللَّهِ عَلَى قِسْمَيْنِ ١٣٦
- [٢٢٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَرِيبُصَتْ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ ١٣٧
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٢٨) ١٣٨
- عِدَّةُ الْمَرْأَةِ الْمُطَلَّقَةِ ١٣٨
- الْحِكْمَةُ مِنْ نَهْيِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَكْتُمَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي رَحِمِهَا ١٣٩
- يُقْبَلُ قَوْلُ الْمَرْأَةِ فِي انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا ١٣٩
- لِلْإِنْسَانِ أَرْبَعُ أَمَاكِنَ يَمُرُّ بِهَا ١٤٠
- الْمُطَلَّقَةُ الرَّجْعِيَّةُ فِي حُكْمِ الزَّوْجَاتِ ١٤٠
- وُجُوبُ إِرَادَةِ الْإِصْلَاحِ حِينَ مُرَاجَعَةِ الرَّجُلِ زَوْجَتَهُ ١٤٠
- هَلْ تَصِحُّ الرَّجْعَةُ إِذَا أَرَادَ الزَّوْجُ الْإِضْرَارَ بِالزَّوْجَةِ؟ ١٤١
- لَا يَحِلُّ لِلْمُطَلَّقَةِ رَجْعِيًّا الزَّوْاجُ فِي الْعِدَّةِ ١٤١

- المُعْتَبَرُ فِي حُقُوقِ الزَّوْجَيْنِ عِنْدَ التَّرَاع: مَا تَعَارَفَهُ النَّاسُ ١٤١
- تَنْبِيهُ حَوْلَ مَنْ جَعَلَ الْحِجَابَ وَمَنَعَ الْاِخْتِلَاطَ مِنْ بَابِ الْعَادَاتِ ١٤٢
- ضَلَالُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُسَاوِيَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ١٤٣
- التَّنْبِيهُ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ فِي أَقْدَارِهِ ١٤٤
- [٢٢٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُكُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُكُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ ١٤٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٢٩) ١٤٦
- لَا رَجْعَةَ إِلَّا فِي الطَّلَاقَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ ١٤٦
- هَلْ يُشْتَرَطُ وَقُوعُ الرَّجْعَةِ بَيْنَ كُلِّ طَلَقَتَيْنِ؟ ١٤٦
- يَنْبَغِي لِمَنْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ وَلَمْ يُرَاجِعْهَا أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهَا بِمَا يَجْبُرُ قَلْبَهَا ١٤٨
- تَحْرِيمُ إِجْبَارِ الْمَرْأَةِ عَلَى بَذْلِ الْمَهْرِ مِنْ أَجْلِ الطَّلَاقِ ١٤٨
- جَوَازُ الْخُلْعِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ إِذَا خِيفَ عَدَمُ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ ١٤٨
- جَوَازُ طَلَبِ الطَّلَاقِ لِحُلْلِ فِي دِينِ الزَّوْجِ أَوْ خُلُقِهِ ١٤٩
- لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَطْلُبَ الطَّلَاقَ مِنْ زَوْجِهَا بِدُونِ سَبَبٍ ١٥٠
- حُكْمُ الْخُلْعِ بِأَكْثَرِ مِنَ الْمَهْرِ ١٥٠
- لَا رَجْعَةَ فِي الْفِرَاقِ الَّذِي تَبَذَّلَ فِيهِ الْمَرْأَةُ عِوَضًا ١٥١
- عِنَايَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِالْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ لِلْعِبَادِ ١٥١
- [٢٣٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ ١٥٣
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٣٠) ١٥٣
- تَحْرِيمُ الْمَرْأَةِ عَلَى مَنْ طَلَّقَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ١٥٣
- الْحُكْمُ فِيهَا إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ أَكْثَرَ مِنْ طَلْقَةٍ بِدُونِ رَجْعَةٍ بَيْنَهَا ١٥٤

- لا تحل المطلقة ثلاثاً للزوج الأول حتى تتزوج غيره بعقد صحيح ويجامعها ١٥٥
- حكم زواج الرجل الغريب بنية الطلاق ١٥٦
- الحلع ليس بطلاق ١٥٨
- تنبيه من يكتب الحلع بين زوجين ألا يذكر لفظ الطلاق ١٥٩
- التنبيه على تسمية الوصي وكيلًا في بعض الوصايا ١٦٠
- إطلاق اسم الرجعة على العقد الجديد ١٦٠
- هل يقع طلاق الحائض؟ ١٦١
- تنبيه على الفتوى في طلاق الزوجة الحائض بعد سنوات من الطلاق ١٦١
- لا بد في الرجعة أن يظن كل من الزوجين أن يقيا حدود الله ١٦٢
- وجوب الحرص على إقامة حدود الله في الأمور الزوجية ١٦٢
- إذا تزوجت المرأة بعد طلاقها، ثم رجعت إلى زوجها الأول، رجعت بما بقي من
عدد الطلاق، إلا أن يكون الطلاق ثلاثاً ١٦٣
- ما ترك الله أمرًا نحتاج بيبانه إلا أبانه ١٦٤
- لا ينتفع بمعرفة معاني القرآن إلا أهل العلم ١٦٤
- التوصية بتفهم معاني القرآن الكريم ١٦٤
- [٢٣١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ ١٦٥
- يراد بالحكمة في القرآن: السنة، وأسرار التشريع وحكمه ١٦٦
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٣١) ١٦٧
- الحديث الفاصل الذي به تنتهي رجعة الرجل إلى زوجته ١٦٧

- لا يجوزُ للزوجين بعدَ المُفارقةِ أن يُحدِّثا بما جرى بينهما ١٦٨
- مَنْ راجَعَ زَوْجَتَهُ ضَرَارًا فهو مُعتَدٍ، ولا تَصِحُّ رَجْعَتُهُ ١٦٨
- قد يَسْعَى الإنسانُ لِنَفْسِهِ في الشَّرِّ من حيثُ لا يَشْعُرُ ١٦٩
- هل كُلُّ ظُلْمٍ يَظْلِمُهُ الإنسانُ نَفْسَهُ يكونُ من اتِّخَاذِ آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا؟ ١٦٩
- وَجُوبُ تَذَكُّرِ الإنسانِ نِعْمَةً اللَّهِ عليه ١٧٠
- أكْبَرُ النِّعَمِ: ما أَنْزَلَ اللَّهُ علينا من الكِتَابِ والحِكْمَةِ ١٧٠
- تَخْصِيصُ الشَّيْءِ بِالذِّكْرِ يَدُلُّ على شَرَفِهِ ١٧٠
- ثُبُوتُ عُلُوِّ اللَّهِ تعالى الذَّاتِي والمَعْنَوِيِّ ١٧١
- وَجْهٌ إِطْلَاقِ اسمِ الكِتَابِ على القُرْآنِ ١٧٢
- كُلُّ ما شَرَعَهُ اللَّهُ في كِتَابِهِ مَبْنِيٌّ على الحِكْمَةِ ١٧٢
- [٢٣٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ ١٧٣
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٣٢) ١٧٤
- تَحْرِيمُ مَنَعَ المِراةِ أَنْ تَرْجِعَ إلى زَوْجِها بعدَ انْتِهاءِ العِدَّةِ ١٧٤
- لا رَجْعَةَ بعدَ انْتِهاءِ العِدَّةِ إِلَّا بِعَقْدٍ ١٧٤
- لَفْظُ النِّكاحِ في القُرْآنِ يُرادُ به العَقْدُ إِلَّا في مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ١٧٤
- اشْتِراطُ الوَلِيِّ في عَقْدِ النِّكاحِ ١٧٤
- اشْتِراطُ رِضا الزَّوْجِينِ في عَقْدِ النِّكاحِ ١٧٥
- المَرْجِعُ في المَهْرِ إلى الزَّوْجِينِ دونَ غَيْرِهما ١٧٦
- لا يَحِلُّ للوَلِيِّ أَنْ يَتَحَكَّمَ في المَهْرِ ١٧٦

- ١٧٦ وَجُوبِ الْوَفَاءِ بِشُرُوطِ الزَّوْاجِ
- ١٧٧ الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ مَوَاعِظُ
- ١٧٧ الْحَثُّ عَلَى تَذَكُّرِ الْيَوْمِ الْآخِرِ عِنْدَ تَرْكِ الْوَاجِبِ أَوْ فِعْلِ الْمَحْرَمِ
- ١٧٨ شِدَّةُ خَوْفِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ
- ١٧٩ التَّحْذِيرُ مِنْ عَدَمِ الْإِتِّعَازِ بِالْأُمُورِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي يُجْرِيهَا اللَّهُ
- ١٧٩ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ
- ١٨٠ التَّنْبِيهُ عَلَى لَفْظٍ: انْتَقَلَ إِلَى مَثْوَاهِ الْآخِرِ
- ١٨١ تَفَاوُتِ النَّاسِ فِي الزَّكَاةِ وَالطَّهَارَةِ
- ١٨١ الْأَصْلُ فِي بَنِي آدَمَ: الْجَهْلُ، وَعَدَمُ الْعِلْمِ
- ١٨٢ [٢٣٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾
- ١٨٢ كَلِمَةُ (الْأَوْلَادِ) تَشْمَلُ الذَّكَورَ وَالْإِنَاثَ
- ١٨٢ كُلُّ تَوْقِيتٍ فِي الشَّرِيعَةِ بِالْأَشْهُرِ فَيُعْتَبَرُ بِالْهِلَالِ
- ١٨٤ وَجُوبُ النَّفَقَةِ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ يَرِثُ قَرِيبَهُ
- ١٨٥ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٣٣)
- ١٨٥ أَكْمَلُ الرِّضَاعِ مَا اسْتَوْعَبَ الْحَوْلَيْنِ
- ١٨٥ وَجُوبُ رِضَاعِ الْأُمِّ لَوَلَدِهَا فِي الْحَوْلَيْنِ مَا اخْتَجَّ إِلَى ذَلِكَ
- ١٨٥ الْحِكْمَةُ فِي كَوْنِ الْأُمِّ هِيَ الَّتِي تُرْضَعُ الْوَلَدُ
- ١٨٦ وَجُوبُ نَفَقَةِ الْأُمِّ الْمُرْضِعِ عَلَى أَبِي الْمَوْلُودِ
- ١٨٦ الْعُرْفُ مَرَجِعٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي الْأَحْكَامِ
- ١٨٦ كُلُّ مَا أَتَى فِي النُّصُوصِ مُطْلَقًا فَإِنَّهُ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى الْعُرْفِ

- كُلُّ أَمْرٍ لَا يُطِيقُهُ الْإِنْسَانُ يَسْقُطُ عَنْهُ ١٨٧
- الْفَرْقُ بَيْنَ الضَّرَرِ وَالضَّرَارِ ١٨٨
- مُضَارَاةُ الْقَرِيبِ لِقَرِيبِهِ أَشَدُّ مِنْ مُضَارَاةِ الْبَعِيدِ ١٨٨
- جَوَازُ الْاسْتِرْضَاعِ لِلْمَوْلُودِ مَا لَمْ تَطْلُبْ أُمُّهُ إِرْضَاعَهُ ١٨٩
- جَوَازُ أَخْذِ الْأَجْرَةِ مُقَابِلِ الْإِرْضَاعِ ١٨٩
- جَوَازُ تَأْجِيرِ الْأَعْيَانِ إِذَا كَانَتْ تُؤْخَذُ شَيْئًا فَشَيْئًا ١٨٩
- [٢٣٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ ١٩٠
- الْجَمْعُ بَيْنَ النَّصُوصِ الَّتِي تَنْسُبُ الْوَفَاةَ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى مَلَكِ الْمَوْتِ، وَإِلَى الْمَلَائِكَةِ ١٩٠
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٣٤) ١٩١
- تَبَدُّلُ عِدَّةِ الْوَفَاةِ مِنْ مَوْتِ الزَّوْجِ، لَا مِنْ حِينَ الْعِلْمِ بِوَفَاتِهِ ١٩١
- وُجُوبُ الْعِدَّةِ عَلَى الْمُتَوَقِّ عَنْهَا زَوْجُهَا وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا ١٩١
- وُجُوبُ عِدَّةِ الْوَفَاةِ عَلَى كُلِّ زَوْجَاتِ الرَّجُلِ ١٩١
- عِدَّةُ الْحَامِلِ إِذَا تُوَقِّ عَنْهَا زَوْجُهَا وَضَعُ الْحَمْلِ ١٩٢
- وُجُوبُ بَقَاءِ الْمُتَوَقِّ عَنْهَا زَوْجُهَا فِي الْبَيْتِ مَدَّةَ الْعِدَّةِ ١٩٢
- أَحْكَامُ الْمَرَأَةِ الْمُتَوَقِّ عَنْهَا زَوْجُهَا ١٩٣
- تَخْفِيفُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي عِدَّةِ الْوَفَاةِ ١٩٣
- لَا تَحْتَاجُ الْمُتَوَقِّ عَنْهَا زَوْجُهَا - إِذَا فَرَعَتْ الْعِدَّةَ - إِلَى أَنْ تَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ ١٩٤
- وُجُوبُ رِعَايَةِ النِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ ١٩٤
- النَّهْيُ عَنْ خُرُوجِ الْإِنْسَانِ عَنِ الْمَعْرُوفِ شَرْعًا وَعُرْفًا ١٩٥
- ثَمَرَةُ عِلْمِ الْإِنْسَانِ بِعُمُومِ عِلْمِ اللَّهِ ١٩٥

- [٢٣٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ ١٩٥
- حُكْمُ خُطْبَةِ النِّسَاءِ الْمُعْتَدَاتِ ١٩٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٣٥) ١٩٧
- حُكْمُ خُطْبَةِ الْمُعْتَدَةِ مِنْ طَلَاقٍ أَوْ فسخ ١٩٧
- كُلُّ أَمْرٍ أَكَنَّهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ لَا يُؤَاخَذُ عَلَيْهِ ١٩٨
- حُكْمُ كِتْمَانِ النِّكَاحِ وَعَدَمِ إِعْلَانِهِ ١٩٩
- أَهَمِّيَّةُ كِتَابَةِ الطَّلَاقِ ٢٠٠
- مَا الْحِيلَةُ فِيهَا إِذَا وَسَّوسَ الشَّيْطَانُ بِهَا لَا يَرْضَى اللَّهُ؟ ٢٠١
- وُجُوبُ مَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ ٢٠٢
- [٢٣٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ٢٠٣
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٣٦) ٢٠٤
- جَوَازُ تَطْلِيقِ الْمَرْأَةِ قَبْلَ الدُّخُولِ وَتَسْمِيَةِ الصَّدَاقِ ٢٠٤
- لَا بَأْسَ أَنْ يَتَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ بِدُونِ تَقْدِيرِ مَهْرٍ ٢٠٤
- وُجُوبُ الْمُتَعَةِ عَلَى مَنْ طَلَّقَ قَبْلَ الدُّخُولِ وَفَرَضِ الْمَهْرِ ٢٠٤
- الْمُعْتَبَرُ فِي مُتَعَةِ الطَّلَاقِ حَالُ الزَّوْجِ ٢٠٤
- [٢٣٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ ٢٠٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٣٧) ٢٠٦
- الْوَاجِبُ عَلَى مَنْ طَلَّقَ قَبْلَ الدُّخُولِ وَقَدْ سَمِيَ الصَّدَاقِ ٢٠٦
- لِلزَّوْجَةِ أَنْ تَعْفُوَ عَنِ الْمَهْرِ ٢٠٧

- المراد بالذي بيده عُقْدَةُ النِّكَاحِ ٢٠٧
- لا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يُطَلَّقَ زَوْجَةٌ غَيْرُهُ ٢٠٨
- متى يَكُونُ الْعَفْوُ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَأَفْضَلَ ؟ ٢٠٨
- لا يَنْبَغِي لِلْمُتَصَاحِبِينَ أَنْ يَنْسِيََا الْفَضْلَ بَيْنَهُمَا ٢٠٩
- [٢٣٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ ٢١٠
- تَرْتِيبُ الْآيَاتِ تَوْقِيفِيٌّ، لَيْسَ لِلْعَقْلِ فِيهِ مَجَالٌ ٢١٠
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٣٨) ٢١٠
- عِظَمُ شَأْنِ الصَّلَاةِ ٢١١
- إِذَا ذُكِرَ الْخَاصُّ بَعْدَ الْعَامِّ، وَهُوَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي الْعَامِّ، فَهَلْ يَكُونُ ذِكْرُ مَرَّتَيْنِ ؟ ٢١١
- الْمُحَافَظَةُ عَلَى الْعَصْرِ مَعَ الْفَجْرِ مِنْ أَسْبَابِ رُؤْيَةِ اللَّهِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ ٢١٢
- وُجُوبُ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ ٢١٣
- يَنْبَغِي لِلْمُصَلِّي أَنْ يَشْعُرَ أَنَّهُ قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ٢١٤
- وُجُوبُ السُّكُوتِ عَنِ كَلَامِ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ ٢١٤
- الْكَلَامُ نِسْيَانًا أَوْ جَهْلًا لَا يُبْطِلُ الصَّلَاةَ ٢١٥
- [٢٣٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ ٢١٧
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٣٩) ٢١٧
- جَوَازُ الصَّلَاةِ حَالَ الْهَرُوبِ مِنَ الْعَدُوِّ ٢١٧
- سُقُوطُ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ فِي حَالِ الْخَوْفِ ٢١٧
- الْوَقْتُ أَوَّلَى شُرُوطِ الصَّلَاةِ أَنْ يُحَافَظَ عَلَيْهِ ٢١٧
- جَوَازُ الصَّلَاةِ عَلَى الرَّاحِلَةِ عِنْدَ الْخَوْفِ ٢١٨

- ٢١٨ جَوَازُ صَلَاةِ النَّافِلَةِ عَلَى السَّيَّارَةِ فِي السَّفَرِ
- ٢١٩ الْحُكْمُ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وَجُودًا وَعَدَمًا
- ٢١٩ الصَّلَاةُ نَوْعٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ
- ٢١٩ الذِّكْرُ النَّافِعُ هُوَ ذِكْرُ الْقَلْبِ
- ٢١٩ أَهَمِّيَّةُ تَذَكُّرِ الْعَبْدِ نِعْمَةً اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ
- ٢١٩ فَضْلُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ بِتَعْلِيمِهِمْ مَا لَا يَعْلَمُونَ
- ٢٢٠ الْحَثُّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَسُؤَالِ اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ
- [٢٤٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَأَزْوَاجِهِمْ﴾
- ٢٢٠
- ٢٢١ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٤٠)
- ٢٢١ نَسْخُ الْوَصِيَّةِ بِتَمْكِينِ الزَّوْجَةِ مِنَ السُّكْنَى فِي الْبَيْتِ بَعْدَ الْوَفَاةِ
- ٢٢١ ثُبُوتُ النَّسْخِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ
- ٢٢٢ شُرُوطُ النَّسْخِ
- ٢٢٢ كُلُّ مَنْ لَهُ الْحَقُّ فَهُوَ بِالْخِيَارِ بَيْنَ أَخْذِهِ وَتَرْكِهِ
- ٢٢٣ عَلَى الْمَرْأَةِ أَلَّا تَخْرُجَ عَنِ الْمَعْرُوفِ فِيمَا تَفْعَلُ بِنَفْسِهَا
- ٢٢٣ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ
- ٢٢٤ كُلُّ حُكْمٍ يُعَارِضُ حُكْمَ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ
- ٢٢٤ حُكْمُ الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ
- [٢٤١-٢٤٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتْعَةً بِالْمَعْرُوفِ﴾
- ٢٢٥ الْعَقْلُ نَوْعَانِ

- فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (٢٤١-٢٤٢) ٢٢٦
- حُكْمُ الْمَتَاعِ لِلْمُطْلَقَاتِ ٢٢٦
- الْمَعْرِفَةُ بِآيَاتِ اللَّهِ دَلِيلٌ عَلَى الْعَقْلِ ٢٢٦
- [٢٤٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ ٢٢٧
- شُكْرُ اللَّهِ هُوَ الْقِيَامُ بِطَاعَتِهِ ٢٢٧
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٤٣) ٢٢٨
- يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَلَّا يُعَلِّقَ قَلْبَهُ بِأَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ ٢٢٩
- أَكْثَرُ بَنِي آدَمَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ٢٣٠
- [٢٤٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَنِّتُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٢٣١
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٤٤) ٢٣٢
- مَرَاتِبُ دَعْوَةِ الْكُفَّارِ ٢٣٢
- لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَخُوضُوا الْحَرْبَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ قُوَّةٌ ٢٣٢
- قِصَّةُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَتْنِهِ مِنْ مَرَضِهِ ٢٣٣
- هَلْ يُكْتَبُ أَنْ يُرْمَى الْمَرِيضُ؟ ٢٣٣
- الْعَاقِلُ مَنْ لَاحَظَ صَدَأَ الْقَلْبِ قَبْلَ صَدَأِ الْجَوَارِحِ ٢٣٤
- [٢٤٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ ٢٣٥
- بَذْلُ الْمَالِ وَالْبَدَنِ وَالْجَاهِ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي إِقْرَاضِ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا ٢٣٥
- الْقَرْضُ الْحَسَنُ مَا جَمَعَ أَمْرَيْنِ ٢٣٦
- الصَّدَقَةُ لَا تَنْقُصُ الْمَالَ، وَإِنْ نَقَصَتْهُ عَدَدًا زَادَتْهُ بَرَكَةً ٢٣٧
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٤٥) ٢٣٧

- ٢٣٨ لا رَبًّا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ
- ٢٣٨ لا رَبًّا بَيْنَ الْعَبْدِ وَسَيِّدِهِ
- ٢٣٩ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي تَرْجَعُونَ﴾ يَشْمَلُ مَعْنَيْنِ
- ٢٣٩ قَاعِدَةٌ: إِذَا احْتَمَلَتِ الْآيَةُ مَعْنَيْنِ، وَلَا مُنَافَاةً، وَجَبَ حَمْلُهَا عَلَيْهِمَا
- ٢٣٩ قِصَّةُ النَّضْرَانِيِّ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَ عَالَمًا مُسْلِمًا
- ٢٤٠ [٢٤٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى أَلْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾
- ٢٤١ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَخَوَانِ مِنْ أُمِّ وَأَبِ
- ٢٤٢ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٤٦)
- ٢٤٢ لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِاتِّزَامِ مَا لَمْ يُلْزِمَهُ اللَّهُ بِهِ
- ٢٤٢ حُكْمُ النَّذْرِ
- ٢٤٢ قُلْ مَنْ نَذَرَ إِلَّا نَذِمَ
- ٢٤٣ التَّحْذِيرُ مِنْ تَرْكِ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ إِذَا كَانَ فِي مُقَابَلَةِ نِعْمَةٍ
- ٢٤٣ لَا بُدَّ فِي الْجِهَادِ مِنْ قِيَادَةٍ
- ٢٤٤ إِنْخِبَارُ الْإِنْسَانِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ مِنْ إِخْلَاصٍ لَا يُعَدُّ رِيَاءً
- ٢٤٤ التَّحْذِيرُ مِنَ الْاِغْتِرَارِ بِالنَّفْسِ
- ٢٤٥ نَهْيُ الْإِنْسَانِ أَنْ يُذَلَّ نَفْسُهُ، فَيَتَعَرَّضَ لِمَا لَا يُمَكِّنُهُ الْقِيَامُ بِهِ
- ٢٤٥ مَنْ نَذَرَ وَلَمْ يَفِ فَهُوَ ظَالِمٌ
- ٢٤٥ الظُّلْمُ عَلَى قِسْمَيْنِ
- [٢٤٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ
- ٢٤٦ مَلِكًا﴾

- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٤٧) ٢٤٨
- لا يُنَالُ الْمُلْكُ بِالْوَرَاثَةِ ٢٤٨
- كَلِمًا كَانَ لِلْمَلِكِ مَرْيَّةٌ تَوَطَّدَ مُلْكُهُ ٢٤٨
- شُمُولُ اسْمِ اللَّهِ (الْوَاسِعِ) لَجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ٢٤٩
- [٢٤٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ ٢٤٩
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٤٨) ٢٥٠
- بَلَادَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ٢٥٠
- [٢٤٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ ٢٥١
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٤٩) ٢٥٣
- ابْتِلَاءُ اللَّهِ لِلْعِبَادِ لِيَعْلَمَ الصَّابِرَ مِنْ غَيْرِ الصَّابِرِ ٢٥٣
- لَا يُبَاحُ الْمَحْظُورُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ إِلَّا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ ٢٥٣
- مَنْ اضْطَرَّ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ فَهَلْ لَهُ أَنْ يَشْبَعَ؟ ٢٥٣
- قَدْ يَرُدُّ عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنَ الْخَوَاطِرِ مَا يَشُكُّ مَعَهُ فِي النَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ ٢٥٤
- مَنْ آمَنَ بِلِقَاءِ اللَّهِ أَعَانَهُ ذَلِكَ عَلَى الْعَزْمِ وَالتَّصْمِيمِ فِيمَا يُرْضِي اللَّهَ ٢٥٤
- قَدْ يُطْلَقُ الظَّنُّ وَيُرَادُ بِهِ الْيَقِينُ ٢٥٤
- الْعِبْرَةُ بِنَصْرِ اللَّهِ، لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ ٢٥٤
- مَعِيَّةُ اللَّهِ عَلَى قِسْمَيْنِ ٢٥٥
- مَعِيَّةُ اللَّهِ لَا تُتَنَافَى أَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ٢٥٦

- [٢٥٠-٢٥١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ ٢٥٦
- أَتَرُ دَفَعَ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضٍ فِي مَنَعِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ٢٥٧
- فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (٢٥١-٢٥٠) ٢٥٨
- مَنْ لَجَأَ إِلَى رَبِّهِ، وَعَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَأَجَابَ دُعَاءَهُ ٢٥٨
- لَا صَبْرَ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ ٢٥٨
- الدُّعَاءُ الْمَشْرُوعُ عِنْدَ مُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ ٢٥٨
- مِنْ طُرُقِ إِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ: اسْتِجَابَةُ دُعَاءٍ مَن دَعَاهُ ٢٥٩
- التَّأَكُّيدُ عَلَى قَتْلِ قَائِدِ الْعَدُوِّ فِي الْحَرْبِ ٢٦٠
- هَلِ اللَّهُ عَزَّجَلَ مَشِئَةً فِي فِعْلِ الْعَبْدِ؟ ٢٦٠
- حِكْمَةُ اللَّهِ فِي تَسْلِيَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ٢٦٢
- فَضْلُ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَضْلُ دُنْيَوِيٍّ وَأُخْرَوِيٍّ، وَعَلَى الْكَافِرِينَ فَضْلُ دُنْيَوِيٍّ ٢٦٢
- [٢٥٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ٢٦٢
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٥٢) ٢٦٣
- وَجْهٌ إِضَافَةٌ تِلَاوَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ ٢٦٣
- [٢٥٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ٢٦٤
- أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَتَرْتِيبُهُمْ فِي الْفَضْلِ ٢٦٤
- الْفَائِدَةُ مِنْ اخْتِلَافِ الضَّمَائِرِ فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ ٢٦٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٥٣) ٢٦٦
- كَلَامُ اللَّهِ مَسْمُوعٌ بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ ٢٦٧

- ٢٦٧ الفرقُ بين المُنَادَاةِ والمُنَاجَاةِ
- ٢٦٧ ذَكَرُ مَذْهَبِ طَائِفَتَيْنِ مُبْتَدِعَتَيْنِ فِي كَلَامِ اللَّهِ
- ٢٦٨ مَذْهَبُ الْجَزِيرَةِ فِي أَعْمَالِ الْعَبْدِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ
- ٢٦٨ أَعْمَالُ الْعَبْدِ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ لَا يَسْتَقِلُّ عَنْهَا
- ٢٦٨ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْتَقِيمَ أُمَّةٌ أَوْ تَقُومَ مِلَّةٌ بِمَذْهَبِ الْجَزِيرَةِ فِي أَعْمَالِ الْعَبْدِ
- ٢٦٩ الْاِخْتِلَافُ فِي الدِّينِ يُؤَدِّي إِلَى الْمَقَاتِلَةِ
- ٢٦٩ الْوَاجِبُ عَلَى النَّاسِ إِذَا رَأَوْا اخْتِلَافَ الْأُمَّةِ
- ٢٦٩ فِعْلُ الْعَبْدِ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَيَبَيِّنُ ذَلِكَ
- ٢٧٠ إِرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى قِسْمَيْنِ
- ٢٧١ [٢٥٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾
- ٢٧١ الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ يَشْمَلُ إِنْفَاقَ الْمَالِ وَالْعِلْمِ
- ٢٧٢ فَوَائِدُ ضَمِيرِ الْفَصْلِ
- ٢٧٢ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٥٤)
- ٢٧٢ تَصْدِيرُ الْخِطَابِ بِنِدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا بَعْدَهُ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ وَمُقْتَضِيَاتِهِ
- ٢٧٣ جَوَازُ اسْتِعْمَالِ الْأَسْمِ الْمَشْتَرَكِ فِي مَعْنِيهِ
- ٢٧٣ مَنْ صَدَقَ اعْتِمَادُهُ عَلَى اللَّهِ فِي الرِّزْقِ صَارَتْ الْأَسْبَابُ وَسَائِلَ
- ٢٧٣ لَا مِنَّةَ لِلْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ إِذَا أَنْفَقَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ
- ٢٧٤ إِنْجَاءُ الْإِنْفَاقِ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
- ٢٧٥ الشَّفَاعَةُ نَوْعَانِ
- ٢٧٦ [٢٥٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

- ٢٧٦ أعظم آية في كتاب الله
- ٢٧٧ خصائص آية الكرسي
- ٢٧٩ كمال حياة الله من جهة الابتداء، والانتهاء، والصفات
- ٢٧٩ معنى اسم الله: القيوم
- ٢٨٠ قاعدة: تقديم ما حقه التأخير يُفيد الحصر
- ٢٨١ العرش أعظم وأكبر من الكرسي
- ٢٨٢ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٥٥)
- ٢٨٢ إخلال كثير من الناس بتوحيد الألوهية
- ٢٨٢ وجوب رجوع العبد إلى ربه في جميع أموره
- ٢٨٣ ثبوت الصفات السلبية لله عز وجل
- ٢٨٣ نفى الصفة عن الله دليل على ثبوت كمال ضدها له
- ٢٨٤ نقص مُلك غير الله شمولاً وتصرُّفاً
- ٢٨٤ عدد السموات والأرضين
- ٢٨٦ أثر الإيمان بعلم الله في اتباع أمره واجتناب منه
- ٢٨٦ وجوب الكف عن الكلام في ذات الله تعالى وصفاته وخلوقاته بغير علم
- ٢٨٨ الوصية بقراءة آية الكرسي
- ٢٨٩ [٢٥٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾
- ٢٨٩ مَنْ تَأَمَّلَ مَحَاسِنَ الْإِسْلَامِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ مَخْتَارًا
- ٢٨٩ تَنْبِيْهُ عَلَى فَهْمٍ خَطَأٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾
- ٢٩٠ الطَّاغُوتُ: كُلُّ مَا خَالَفَ حُكْمَ اللَّهِ

- ٢٩٠ النُّكْتَةُ فِي تَقْدِيمِ الْكُفْرِ عَلَى الْإِيمَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ
- ٢٩١ زِيَادَةُ الْهَمْزَةِ وَالسَّيْنِ فِي الْفِعْلِ قَدْ يُرَادُ بِهَا الْمُبَالَغَةُ
- ٢٩١ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٥٦)
- ٢٩١ الْإِسْلَامُ دِينٌ يَقْبَلُهُ كُلُّ ذِي فِطْرَةٍ سَلِيمَةٍ
- ٢٩١ مَنْ التَّبَسَّ عَلَى الرَّشْدِ بِالْغَيِّ بَعْدَ تَبَيُّنِهِ كَانَ أَضَلَّ مِنَ الْأَنْعَامِ
- ٢٩٢ هَلْ يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ مَعَ الْكُفْرِ فِي الرَّجُلِ؟
- ٢٩٣ أَسْمَاءُ اللَّهِ وَالرُّسُولِ ﷺ وَالْقُرْآنِ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ
- ٢٩٣ إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا
- ٢٩٤ [٢٥٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
- ٢٩٤ وَلايَةُ اللَّهِ نُوْعَانِ
- ٢٩٥ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٥٧)
- ٢٩٥ الْإِيمَانُ سَبَبٌ لِلْعِلْمِ وَالِاسْتِقَامَةِ
- ٢٩٥ النُّكْتَةُ فِي جَمْعِ الظُّلُمَاتِ وَإِفْرَادِ النُّورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ
- ٢٩٥ النُّكْتَةُ فِي جَمْعِ أَوْلِيَاءِ الْكُفَّارِ وَإِفْرَادِ وَلِيِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ
- ٢٩٦ [٢٥٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾
- ٢٩٧ أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ: مُحَمَّدٌ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ
- ٢٩٧ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى: إِنْشَاءُ الْحَيَاةِ فِي مَنْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا
- ٢٩٨ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٥٨)
- ٢٩٨ جِدَالُ أَهْلِ الْكُفْرِ لِلرُّسُلِ وَإِيْدَاؤُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
- ٢٩٨ لِلنُّعْمَةِ أَثَرٌ فِي طُغْيَانِ الْعَبْدِ حَتَّى يَتَجَاوَزَ حَدَّهُ

- تَأْكُدُ الشَّجَاعَةَ وَالْحَزَمَ فِي مَقَامِ الْمُنَاطَرَةِ ٢٩٩
- وَصِيَّةٌ فِي طُرُقِ الْجِدَالِ وَالْمُحَاجَّةِ ٢٩٩
- التَّنْظِيرُ فِي دَعْوَى أَنَّ الشَّمْسَ ثَابِتَةٌ، وَأَنَّ الْحَرَكَةَ لِلْأَرْضِ ٢٩٩
- الظُّلْمُ مَانِعٌ مِنَ التَّوْفِيقِ لِلهُدَى ٣٠٠
- مَنْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ أَهْلٌ لِلْهِدَايَةِ هَدَاهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَمْ يَهْدِهِ ٣٠٠
- [٢٥٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ ٣٠٠
- تَوَجُّهِهُ تَرَدُّدِ الرَّجُلِ الَّذِي مَاتَ مِئَةَ عَامٍ حِينَ قَالَ: ﴿لَيْثُتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ٣٠١
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٥٩) ٣٠٢
- لَا يُلَامُ الْإِنْسَانُ إِذَا اسْتَغْرَبَ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ لَهُ الْبَيِّنَةُ ٣٠٢
- صِحَّةُ وَصْفِ الْأَرْضِ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ٣٠٢
- مِنَّةُ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ حِينَ يُرِيهِ مَا يَزِدُّهُ بِهِ إِيمَانُهُ وَيَقِينُهُ ٣٠٢
- سُرْعَةُ مَرِّ الزَّمَنِ عَلَى الْمَوْتَى ٣٠٣
- الْعَصَبُ هِيَ الرِّبَاطُ بَيْنَ الْمَفَاصِلِ ٣٠٣
- الْحَثُّ عَلَى تَمَرِّينِ الْأَعْضَاءِ عَلَى الْعَمَلِ ٣٠٤
- اللَّحْمُ كِسْوَةٌ لِلْبَدَنِ ٣٠٤
- [٢٦٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ٣٠٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦٠) ٣٠٦
- لَا حَرَجَ أَنْ يَطْلُبَ الْإِنْسَانُ مِنْ رَبِّهِ أَمْرًا يَزِدُّهُ بِهِ يَقِينُهُ ٣٠٦
- لِلْقَلْبِ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ فِي الْيَقِينِ وَالطَّمَأْنِينَةِ ٣٠٧
- حَوَادِثُ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ٣٠٨

- فَهْمُ الْبَهَائِمِ وَالطُّيُورِ لِلدَّعْوَةِ وَالنَّدَاءِ ٣٠٨
- [٢٦١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ٣٠٩
- فَوَائِدُ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ٣٠٩
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦١) ٣١٠
- مَنْ أَنْفَقَ مَا لَيْسَ لَهُ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ ٣١٠
- فَضَّلَ اللَّهُ لَا حَدَّ لَهُ ٣١٠
- [٢٦٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَذَى﴾ ٣١١
- وَجُوبُ الْإِخْلَاصِ وَالْمَتَابَعَةِ وَتَرْكِ الْمَنِّ وَالْأَذَى عِنْدَ النَّفَقَةِ ٣١١
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦٢) ٣١١
- بُطْلَانُ الْإِنْفَاقِ بِالْمَنِّ ٣١١
- تَحْرِيمُ الْمَنِّ وَالْأَذَى ٣١٢
- مَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ مَنْ وَلَا أَذَى فَقَدْ أَمِنَ ٣١٢
- [٢٦٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾ ٣١٣
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦٣) ٣١٣
- مَنْ لَمْ يَتِمَكَّنْ مِنَ الْإِنْفَاقِ فَلْيُقِلْ مَعْرُوفًا ٣١٣
- تَبْقَى الصَّدَقَةُ صَدَقَةً وَإِنْ تَبِعَهَا أَذَى ٣١٣
- [٢٦٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ ٣١٤
- الْمَقْصُودُ مِنْ تَصْدِيرِ الْأَمْرِ بِنَدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ٣١٥
- الرِّيَاءُ يُبْطِلُ الصَّدَقَةَ قَبْلَ وَقُوعِهَا، وَالْمَنُّ وَالْأَذَى يُبْطِلُهَا بَعْدَ وَقُوعِهَا ٣١٥

- ٣١٥ مَثَلُ الْمُنْفِقِ رِيَاءٌ.....
- ٣١٦ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦٤)
- ٣١٦ عَمَلُ الْمُرَائِي لَا يَنْفَعُهُ، وَلَا يَسْلَمُ مِنَ الْإِثْمِ.....
- ٣١٧ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ حَقًّا لَمْ يَقَعْ مِنْهُ رِيَاءٌ.....
- ٣١٨ [٢٦٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾
- ٣١٩ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦٥)
- ٣١٩ تَشَنَّى الْمَعَانِي وَالْأَحْوَالِ فِي الْقُرْآنِ، وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ.....
- ٣١٩ مَنْ أَنْفَقَ فَلْيُثَبِّتْ نَفْسَهُ بِالْخَلْفِ الْعَاجِلِ وَالثَّوَابِ الْآجِلِ.....
- ٣٢٠ كُلَّمَا كَانَ الْبُسْتَانُ مُرْتَفِعًا كَانَ أَكْثَرُ لِإِنْتاجِهِ وَنَمَائِهِ.....
- ٣٢١ [٢٦٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾
- ٣٢١ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦٦)
- ٣٢٢ التَّأَكُّيدُ عَلَى اسْتِعْمَالِ صِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ الْمُقَرَّرَةِ عِنْدَ الْإِقْنَاعِ.....
- مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ حَسْرَةً: أَنْ تَزُولَ الدُّنْيَا عَنِ الْعَبْدِ بَعْدَ زَهْرَتِهَا وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا
- ٣٢٢ حِيلَةً.....
- ٣٢٢ كُلَّمَا بَانَ لِلْعَبْدِ الْآيَاتُ بِالتَّفَكُّرِ أَزْدَادَ عَقْلًا وَفَهْمًا.....
- ٣٢٢ الْحُثُّ عَلَى التَّفَكُّيرِ الْمُبْنِيِّ عَلَى آيَاتِ اللَّهِ، لَا عَلَى أَفْكَارٍ مُنْحَرِفَةٍ.....
- ٣٢٢ الْوُجُوهُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي تَحْدَى اللَّهُ بِهَا الْبَشَرَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ الْقُرْآنِ.....
- ٣٢٣ [٢٦٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾
- ٣٢٣ وَجْهُ تَسْمِيَةِ أَمْوَالِ التَّجَارَةِ بِعُرُوضِ التَّجَارَةِ.....
- ٣٢٤ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦٧)

- وَجُوبُ الزَّكَاةِ فِي عُرُوضِ التِّجَارَةِ، وَهِيَ تَقْضِي عَلَى غَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الزَّكَاةِ ٣٢٤
- مِقْدَارُ زَكَاةِ عُرُوضِ التِّجَارَةِ، وَكَيْفِيَّةُ تَقْدِيرِهَا ٣٢٥
- لَا يُشْتَرَطُ مُضِيُّ الْحَوْلِ فِي زَكَاةِ مَا اشْتَرِيَ لِلتِّجَارَةِ ٣٢٦
- كَيْفَ يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ إِذَا اكْتَسَبَ مَالًا حَرَامًا، وَلَمْ يَعْرِفْ صَاحِبَهُ؟ ٣٢٦
- زَكَاةُ الْحَارِجِ مِنَ الْأَرْضِ ٣٢٧
- تَحْرِيمُ إخراجِ الرَّدِيِّ فِي الزَّكَاةِ بَدَلًا عَنِ الطَّيِّبِ أَوْ الْوَسْطِ ٣٢٧
- دَلَالَةُ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعَامِلَ النَّاسَ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوهُ بِهِ ٣٢٨
- [٢٦٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ٣٣٠
- مِنْ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لِبَنِي آدَمَ: تَخْوِيفُهُ بِالْفَقْرِ كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يُنْفِقَ ٣٣٠
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦٨) ٣٣١
- لَمَّةُ الشَّيْطَانِ بِابْنِ آدَمَ ٣٣١
- مَنْ أَحْسَسَ عِنْدَ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةً مِنَ الْفَقْرِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ هَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ ٣٣١
- بَرَكَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَا نِهَايَةَ لَهَا ٣٣٢
- [٢٦٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ ٣٣٣
- لَا يُؤْتِي اللَّهُ الْحِكْمَةَ إِلَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لَهَا ٣٣٣
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦٩) ٣٣٤
- لَا يَتَذَكَّرُ بِالْقُرْآنِ إِلَّا أَصْحَابُ الْعُقُولِ ٣٣٤
- مَنْ أَرَادَ الْحِكْمَةَ فَلْيَسْأَلِ اللَّهَ وَحْدَهُ ٣٣٥
- [٢٧٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ ٣٣٥

- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٧٠) ٣٣٦
- الْقِيَامُ بِالْوَاجِبِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ التَّطَوُّعِ ٣٣٦
- حُكْمُ النَّذْرِ، وَوُجُوبُ الْوَفَاءِ بِهِ إِذَا كَانَ فِي طَاعَةٍ ٣٣٧
- نَصِيحَةُ لِمَنْ يَنْذُرُ لِيَحْصُلَ عَلَى مَطْلُوبٍ أَوْ يَنْجُوَ مِنْ مَكْرُوهٍ ٣٣٨
- [٢٧١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ ٣٣٩
- وَجْهُ كَوْنِ صَدَقَةِ السِّرِّ أَفْضَلَ ٣٣٩
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٧١) ٣٤٠
- تَتَفَاضَلُ الْأَعْمَالُ بِحَسَبِ أَعْيَانِهَا وَأَوْصَافِهَا ٣٤٠
- إِخْفَاءُ الصَّدَقَاتِ أَفْضَلُ إِلَّا أَنْ تَرْتَبَّ عَلَى إِظْهَارِهَا مَصْلَحَةٌ أَكْبَرُ ٣٤٠
- الصَّدَقَاتُ تُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ ٣٤٠
- وَجْهُ خَتْمِ هَذِهِ الْآيَةِ بِاسْمِ اللَّهِ (الْخَيْرِ) ٣٤١
- مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِجَمِيعِ أَحْوَالِهِ اعْتَمَدَ عَلَيْهِ، وَرَضِيَ بِمَا قَدَّرَ ٣٤١
- [٢٧٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ... ٣٤٢
- كُلُّ آيَةٍ عُلِّقَ الْحُكْمُ فِيهَا عَلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ فَهُوَ مُبْنِيٌّ عَلَى حِكْمَتِهِ عَزَّوَجَلَّ ٣٤٢
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٧٢) ٣٤٣
- يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ سُؤَالِ اللَّهِ الْهِدَايَةَ ٣٤٤
- الْمُتَصَدِّقُ مُرَاءَةٌ مِنْ أَوَّلِ مَنْ تُسْعَرُ بِهِ النَّارُ ٣٤٦
- ثُبُوتُ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ ٣٤٦
- إِثْبَاتُ رُؤْيَا اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ ٣٤٧
- أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ: الْعَصْرُ، ثُمَّ الْفَجْرُ ٣٤٧

- الظُّلْمُ عَلَى نَوْعَيْنِ ٣٤٨
- [٢٧٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ٣٤٨
- أَعْلَى النَّاسِ اسْتِحْقَاقًا لِلصَّدَقَةِ: مَنْ اتَّصَفَ بِسِتِّ صِفَاتٍ ٣٤٨
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٧٣) ٣٤٩
- الْحُثُّ عَلَى تَحْرِى أَحَقُّ النَّاسِ بِالنَّفَقَةِ ٣٤٩
- مَنْ يَسْتَطِيعُ التَّكْسِبَ لَيْسَ أَهْلًا لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهِ ٣٥٠
- السَّفَرُ سَبَبٌ لِلْكَسْبِ وَالْغِنَى ٣٥٠
- انْجِبَاسُ الْإِنْسَانِ فِي الْبَلَدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ ٣٥٠
- مَنْ تَفَرَّغَ لِلْعِلْمِ أَوْ الْجِهَادِ كَانَ جَدِيرًا بِالْمَعُونَةِ ٣٥١
- اخْتِلَافُ النَّاسِ فِي الْفِرَاسَةِ ٣٥١
- يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَظْهَرَ مَظْهَرُ الْغِنَى فِي لِبَاسِهِ وَهَيْئَتِهِ ٣٥١
- [٢٧٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْإِهْكَارِ سِرًّا
- وَعَلَانِيَةً﴾ ٣٥٢
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٧٤) ٣٥٤
- أَنْوَاعُ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ الْوُجُوبِ ٣٥٤
- مُقْتَضَى الرُّبُوبِيَّةِ الْخَاصَّةِ: تَوْفِيقُ الْعَبْدِ لِلْقِيَامِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ٣٥٥
- وَجْهُ تَقْدِيمِ الْخَوْفِ عَلَى الْحُزْنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ٣٥٥
- [٢٧٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
- يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ٣٥٦
- وَجْهُ التَّعْبِيرِ بِالْأَكْلِ عَنْ اكْتِسَابِ الرِّبَا ٣٥٦

- لأهل العلم قولان في معنى قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ٣٥٦
- فوائد الآية (٢٧٥) ٣٥٨
- لم يرد في أيِّ ذنبٍ دون الشركِ مثل ما وردَ في الربا من الوعيد ٣٥٨
- الأموال التي يجري فيها الربا ٣٥٩
- العلة في جريان الربا في الأموال الربويّة ٣٥٩
- لا أثر للجودة في جواز المفاضلة في الأموال الربويّة ٣٦٠
- أكل الربا يُنتلّ بالجشع والطَّمع ٣٦٢
- إثبات صرّع الشيطان للإنسان ٣٦٢
- كيف يحمي العبد نفسه من الشيطان؟ ٣٦٢
- بطلان القياس المخالف للنص ٣٦٣
- من تاب غفر له ما سلف ٣٦٤
- لا يلزم الإنسان أن يخرج ما اكتسبه بالربا بعد التوبة ٣٦٥
- إذا تاب أخذ الربا فهل يسقط عن دافع الربا مبلغ الربا؟ ٣٦٥
- إذا أُعطي الإنسان الربا من مصرفٍ كافرٍ فهل يأخذه؟ ٣٦٦
- من عاد إلى الربا بعد أن تبين تحرّمه فهو من أصحاب النار ٣٦٧
- ذكر الله تعالى تأييد عذاب النار في ثلاث آيات ٣٦٨
- [٢٧٦] قول الله تعالى: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ﴾ ٣٦٨
- حق الربا يكون حسياً ومعنوياً ٣٦٨
- فوائد الآية (٢٧٦) ٣٦٩

- ٣٦٩ مَنِ ابْتَغَى الشَّيْءَ عَلَى وَجْهِ مُحَرَّمٍ عُوقِبَ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ
- ٣٧١ ثُبُوتُ مَحَبَّةِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ، وَخَطَأُ مَنْ أَوْلَاهَا
- [٢٧٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا
- ٣٧١ الزَّكَاةَ﴾
- ٣٧٢ أَرْكَانُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ثَلَاثَةٌ
- ٣٧٢ غَلَطُ مَنْ قَسَمَ التَّوْحِيدَ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ
- ٣٧٢ آيَةٌ جَمَعَتْ أَنْوَاعَ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةَ
- ٣٧٣ أَشْرَفُ الْمَلَائِكَةِ
- ٣٧٣ كَيْفِيَّةُ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ
- ٣٧٣ أَشْرَفُ الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ
- ٣٧٤ أَوَّلُ الرُّسُلِ وَآخِرُهُمْ وَأَوَّلُ الْعِزِّ مِنْهُمْ
- ٣٧٤ وَجْهُ تَسْمِيَةِ الْيَوْمِ الْآخِرِ بِهَذَا الْاسْمِ
- ٣٧٤ كَيْفِيَّةُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ
- ٣٧٥ قَدْ يَقَعُ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى فِي الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ الْآيَةِ وَالْإِعْتِبَارِ
- ٣٧٥ لَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ أُمُورٍ
- ٣٧٦ لَا تَكُونُ الْأَعْمَالُ صَالِحَةً إِلَّا إِذَا تَضَمَّنَتْ شَيْئِينَ
- ٣٧٨ كُفْرُ تَارِكِ الصَّلَاةِ
- ٣٧٨ ذِكْرُ السُّنَنِ الرَّوَاطِبِ، وَفَائِدَتُهَا
- ٣٧٩ خَصَائِصُ سُنَّةِ الْفَجْرِ
- ٣٨٠ الْأَمْوَالُ الزَّكَوِيَّةُ

- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٧٧) ٣٨١
- [٢٧٩-٢٧٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ ٣٨٢
- وَصِيَّةُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِمَنْ سَمِعَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ٣٨٢
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٧٨) ٣٨٣
- تَصْدِيرُ الْخِطَابِ بِالنِّدَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَهَمِّيَّةِ مَوْضُوعِهِ ٣٨٣
- الْإِخْلَالُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَتَرْكِ الرَّبَا يُنَافِي كَمَالَ الْإِيمَانِ ٣٨٤
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٧٩) ٣٨٤
- مَنْ لَمْ يَتْرُكِ الرَّبَا فَهُوَ مُحَارِبٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ٣٨٤
- لَا يَلْزَمُ فِي التَّوْبَةِ مِنَ الرَّبَا أَنْ يَرُدَّ التَّائِبُ شَيْئًا مِمَّا أَخَذَ ٣٨٤
- سَبَبُ الرَّبَا هُوَ الظُّلْمُ ٣٨٥
- حَالُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا حَلَّ الدِّينُ وَلَيْسَ عِنْدَ الْمَدِينِ وَفَاءٌ لَهُ ٣٨٥
- عِظَمُ حَبْسِ الْمَدِينِ الْمُعْسِرِ ٣٨٥
- [٢٨٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ كَاتِ ذُو عُسْرِ فَنظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ ٣٨٦
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٨٠) ٣٨٧
- وُجُوبُ إِمْهَالِ الْمُعْسِرِ حَتَّى يُغْنِيَهُ اللَّهُ ٣٨٧
- تَحْرِيمُ مُطَالَبَةِ الْمُعْسِرِ وَحَبْسِهِ ٣٨٧
- جَوَازُ شِرَاءِ السِّلْعَةِ بِمَوْجَلٍ إِلَى الْمَيْسَرَةِ ٣٨٨
- فَضِيلَةُ إِعْفَاءِ الْفَقِيرِ مِنَ الدِّينِ ٣٨٨
- إِبْرَاءُ الْمُعْسِرِ لَيْسَ بِوَاجِبٍ ٣٨٩

- التَّنبِيْهُ عَلَى مَا أَلْغَزَ بِهِ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ: شَيْءٌ مَّسْنُونٌ صَارَ أَفْضَلَ مِنْ وَاجِبٍ ٣٨٩
- نَعْيُ اللَّهِ لِلْجُهَّالِ عَلَى جَهْلِهِمْ، وَالْحَثُّ عَلَى الْعِلْمِ ٣٨٩
- [٢٨١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ ٣٩٠
- مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ آيَاتِ الرَّبَا ٣٩٠
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٨١) ٣٩١
- الْفَرْقُ بَيْنَ الْبَالِغِ وَغَيْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٣٩١
- وُصُولُ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ إِلَى الْمَيِّتِ ٣٩٢
- أَفْضَلُ مَا يُحَسِّنُ بِهِ إِلَى الْمَرْءِ بَعْدَ مَوْتِهِ الدُّعَاءُ لَهُ ٣٩٢
- التَّنبِيْهُ عَلَى حِرْصِ النَّاسِ عَلَى إِهْدَاءِ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ إِلَى الْأَمْوَاتِ ٣٩٢
- [٢٨٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكْتَسِبُوهُ﴾ ٣٩٤
- أَطْوَلُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَأَقْصَرُ آيَةٍ ٣٩٤
- تَقْدِيرُ الْآيَاتِ وَتَحْدِيدُهَا وَتَرْتِيبُهَا كُلُّهُ تَوْقِيفِيٌّ ٣٩٤
- السَّبَبُ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى الْمَدِينِ - دُونَ الدَّائِنِ - أَنْ يُعْمَلَ عَلَى الْكَاتِبِ الدَّيْنِ ٣٩٥
- سَمَّى اللَّهُ نِسْيَانَ الشَّهَادَةِ ضَلَالًا ٣٩٧
- كُلُّ حَرْفٍ زَائِدٍ فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ لِلتَّوَكُّيدِ ٣٩٧
- قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ لَهُ مَعْنَيَانِ ٣٩٨
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٨٢) ٣٩٩
- عِنَايَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالذُّيُونِ ٣٩٩
- يَجُوزُ الْبَيْعُ إِلَى أَجَلٍ، سِوَاءِ أَكَانَ الْمُوَجَّلُ الْمُبَاعَ أَمْ ثَمَنَهُ ٤٠٠

- ٤٠٠ لا يَصِحُّ تَأْجِيلُ الدِّينِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْأَجَلُ مُسَمًّى
- ٤٠١ هل تَجِبُ كِتَابَةُ الدِّينِ الْمُؤَجَّلِ بِأَجَلِهِ؟
- ٤٠١ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَاتِبُ الْعَقْدِ مِنْ غَيْرِ الْمُتَعَاقِدِينَ
- ٤٠١ شُرُوطُ الْكَاتِبِ بَيْنَ الْمُتَعَاقِدِينَ
- ٤٠٢ مَنْ كَتَبَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَلْيَعْدِلْ، وَلْيُيَسِّرْ لِلْجَاهِلِ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ
- ٤٠٣ وَجُوبُ إِقْرَارِ الْمَدِينِ بِمَا عَلَيْهِ كُلُّهُ
- ٤٠٣ إِقَامَةُ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى السُّفَهَاءِ وَالضُّعَفَاءِ
- ٤٠٤ اشْتِرَاطُ الْإِسْلَامِ وَالْبُلُوغِ فِي الشَّاهِدِ
- ٤٠٥ لِمَاذَا لَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ الْوَاحِدَةِ مَعَ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ؟
- ٤٠٥ الرَّدُّ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ
- كَيْفَ نُوَفِّقُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَنْ بَعْضَ النِّسَاءِ فِيهَا مِنَ النَّبَاهَةِ وَالْحِفْظِ وَالْعَقْلِ مَا
- ٤٠٦ هُوَ أَكْمَلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الرِّجَالِ؟
- ٤٠٦ تُقْبَلُ شَهَادَةُ الْإِنْسَانِ إِذَا نَسِيَهَا، ثُمَّ ذَكَرَهَا
- ٤٠٦ وَجُوبُ حُضُورِ الشَّاهِدِ إِذَا دُعِيَ لِتَحْمُلِ الشَّهَادَةِ أَوْ أَدَائِهَا
- ٤٠٧ إِذَا لَمْ يُدْعَ الشَّاهِدُ فَهَلْ يَلْزَمُهُ أَنْ يَشْهَدَ؟
- ٤٠٨ فَوَائِدُ الْكِتَابَةِ وَالْإِشْهَادِ فِي الْبَيْعِ
- ٤٠٨ حُكْمُ الْإِشْهَادِ عِنْدَ الْبَيْعِ
- ٤٠٩ تَحْرِيمُ مُضَارَّةِ الْكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ وَمُضَارَّتِهِمَا لِلْمُتَعَاقِدِينَ
- ٤١٠ الْفَرْقُ بَيْنَ الضَّرَرِ وَالضَّرَارِ
- ٤١٠ مُضَارَّةُ الْإِنْسَانِ غَيْرِهِ فَسَقٌ

- ٤١١ مِنْهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ بِتَعْلِيمِهِمْ مَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ
- ٤١١ أَدَوَاتُ الْعِلْمِ ثَلَاثَةٌ
- ٤١٢ [٢٨٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً﴾
- ٤١٣ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٨٣)
- ٤١٣ تَوْثِيقَةُ الْحَقِّ تَكُونُ بِالرَّهْنِ، وَبِالْكِتَابَةِ، وَبِالشَّهَادَةِ
- ٤١٤ لَا حَرَجَ أَنْ يَكُونَ الرَّهْنُ فِي الْحَضَرِ كَمَا يَكُونُ فِي السَّفَرِ
- ٤١٤ هَلْ يُشْتَرَطُ لِلزُّومِ الرَّهْنِ قَبْضُ الْمَرْهُونِ؟
- ٤١٥ هَلْ تَجُوزُ خِيَانَةُ الْحَائِنِ مُجَازَاةً لَهُ؟
- ٤١٥ تَحْرِيمُ كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ
- ٤١٦ مَدَارُ الْأَعْمَالِ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ
- ٤١٦ [٢٨٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
- ٤١٧ يُعْرَفُ مَعْنَى الْكَلِمَةِ بِنَفْسِهَا أَوْ بِذِكْرِ مَا يُقَابِلُهَا
- ٤١٧ هَلْ يَلْزَمُ مِنَ الْمُحَاسَبَةِ الْمُؤَاخَذَةُ وَالْمُعَاقَبَةُ؟
- ٤١٩ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٨٤)
- ٤١٩ تَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأخِيرُ يُفِيدُ الْاِخْتِصَاصَ وَالْحَضَرَ
- ٤١٩ عَلِمَ اللَّهُ بِمَا يُخْفِي الْعَبْدُ وَمَا يُبْدِيهِ، وَأَثَرُ ذَلِكَ عَلَى سُلُوكِ الْعَبْدِ
- ٤٢٠ لَا تَسْتَحْسِرُ فِي شَيْءٍ تَطْلُبُهُ مِنْ اللَّهِ بِدُونِ اعْتِدَاءٍ، وَلَوْ كَانَ بَعِيدًا أَوْ عَظِيمًا
- ٤٢٠ [٢٨٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾
- ٤٢١ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ كِلَاهُمَا أُنْزِلَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ
- ٤٢١ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ

- ٤٢١ كَيْفِيَّةُ الْإِيْمَانِ بِالْكِتَابِ وَالرُّسُلِ
- ٤٢٣ الْمَغْفِرَةُ تَشْمَلُ سِتْرَ الذَّنْبِ، وَالتَّجَاوُزَ عَنْهُ
- ٤٢٤ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٨٥)
- ٤٢٤ الْحِكْمَةُ فِي إِضَافَةِ الْمُتَزَلِّ إِلَى رَبِّ الرِّسُولِ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ
- ٤٢٤ مِنْ الرُّبُوبِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِالْعَبْدِ: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ عِلْمًا بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ
- ٤٢٥ وَقُوعُ التَّخْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالْإِخْفَاءِ فِي كُتُبِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْيَوْمَ
- مِنْ التَّائِسِيِّ بِالنَّبِيِّ ﷺ: أَنْ نَقُولَ: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَأَلَّا نَسْأَلَ
- ٤٢٧ عَنْ الْحِكْمَةِ
- ٤٢٨ التَّنْبِيهِ عَلَى سُؤَالِ بَعْضِ النَّاسِ: هَلِ الْأَمْرُ لِلِاسْتِحْبَابِ، أَوْ لِلْجُوبِ؟
- ٤٣٠ مَنْ دَعَا اللَّهَ فَلْيَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ بِرُبُوبِيَّتِهِ
- [٢٨٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
- ٤٣١ أَكَسَبَتْ﴾
- ٤٣٢ الْفَرْقُ بَيْنَ النُّسْيَانِ وَالْحَطِّ
- ٤٣٢ أَمْثَلُهُ عَلَى الْأَصَارِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَنَا
- ٤٣٣ الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ
- ٤٣٤ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٨٦)
- ٤٣٤ رَحْمَةُ اللَّهِ بِعِبَادِهِ حَيْثُ لَمْ يُكَلِّفْهُمْ مَا لَيْسَ بِوُسْعِهِمْ
- ٤٣٥ كَيْفِيَّةُ صَلَاةِ الْعَاجِزِ عَنِ الْقِيَامِ
- ٤٣٥ الْوَاجِبُ عَلَى الْعَاجِزِ عَنِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ
- ٤٣٦ كَيْفِيَّةُ إِخْرَاجِ زَكَاةِ عُرُوضِ التَّجَارَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْإِنْسَانِ ثَقُودٌ

- قاعدة: «لا واجب مع العجز» ٤٣٦
- سبب التّعير بالكسب في الخير، وبالاكتساب في الإثم ٤٣٧
- من آداب الدّعاء: تصديده بالاسم الكريم: (الرّب) ٤٣٨
- ارتفاع الإثم مع الجهل والنسيان دون القضاء في الواجبات، وأمثلة على ذلك ٤٣٩
- إذا أفطر الصائم يظنّ الشمس غابت صحّ صومه، إلا إن كان هذا قبل الغروب ٤٤١
- بزمن كثير ٤٤١
- من أعطى زكاة ماله من يظنه فقيراً، فبان غنياً، أجزأته ٤٤٢
- كيف يصنع الإنسان إذا غلب على ظنه أن أخذ الزكاة ليس من أهلها؟ ٤٤٣
- قطع الشجر حلالاً للمحرم، حراماً داخل الحرم ٤٤٤
- أحوال المحرم بالنسبة لحلق رأسه ٤٤٤
- حكم حلق بعض الرأس للمحرم ٤٤٦
- من علم بالحكم، وجهل العقوبة، لم تسقط عنه ٤٤٧
- لا إطعام في كفارة القتل على من عجز عن العتق والصيام ٤٤٨
- وصية لطلب العلم: أن يكون مأخذهم الأوّل والآخِر هو الكتاب والسنة ٤٤٨
- إذا وقع الشيء خطأ، ثم تبين الخطأ، لم ترتب عليه أحكامه، وأمثلة على ذلك ٤٤٨
- تحريم الأكل من الذبيحة إذا لم يسم الله عليها جهلاً أو نسياناً ٤٤٩
- لا فرق بين النّاسي والجاهل وغيرهما في حقوق العباد ٤٥٠
- يستثنى من سقوط العقوبة في حق الله بالخطأ أو النسيان: كفارة القتل ٤٥٠
- ولاية الله تعالى نوعان ٤٥٢
- النصر على الكافرين يكون بالقول والفعل ٤٥٣

- سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ ٤٥٤
- الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، لَا تَتَّبِعُ مَا قَبْلَهَا، وَلَا مَا بَعْدَهَا ٤٥٤
- [١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الْعَمَّ﴾ ٤٥٤
- الْحُرُوفُ الْهَجَائِيَّةُ أَوَائِلُ السُّورِ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى، لَكِنْ لَهَا مَغْزَى ٤٥٤
- [٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ٤٥٥
- مَعْنَى اسْمِي اللَّهِ (الْحَيِّ) وَ(الْقَيُّومِ) ٤٥٥
- فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (١-٢) ٤٥٥
- [٣-٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ٤٥٦
- سَبَبُ تَسْمِيَةِ الْقُرْآنِ بِالْكِتَابِ ٤٥٧
- تَصْدِيقُ الْقُرْآنِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لَهُ وَجْهَانِ ٤٥٧
- مَحْوَرُ الْكُفْرِ يَدُورُ عَلَى أَمْرَيْنِ ٤٥٨
- كُلُّ شَرِيعَةٍ شَرَعَهَا اللَّهُ فَهِيَ مُطَابِقَةٌ لِلْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ ٤٥٩
- شِدَّةُ الْعَذَابِ تَكُونُ فِي نَوْعِهِ وَطُولِهِ ٤٥٩
- فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (٣-٤) ٤٥٩
- إِنْزَالُ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَدُلُّ عَلَى أَمْرَيْنِ ٤٥٩
- عُلُوُّ اللَّهِ تَعَالَى يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ ٤٥٩
- الدَّلَالَةُ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلٍ مَنْ زَعَمَ أَنَّ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا مَحْدُوفًا ٤٦٠
- تَحْرِيفُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْمَوْجُودَيْنِ الْآنَ ٤٦١
- الْعَمَلُ بِشَرِيعَةٍ مِنْ قَبْلُنَا ٤٦١
- لَا يَسْتَقِلُّ الْعَقْلُ بِعِلْمٍ مَا يَنْفَعُ وَيُضُرُّ ٤٦١

- [٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ ٤٦٣
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٥) ٤٦٣
- التَّحْذِيرُ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ ٤٦٣
- وَجْهُ الْبَدْءِ بِالْأَرْضِ قَبْلَ السَّمَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ٤٦٣
- [٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ٤٦٤
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٦) ٤٦٤
- تَحْرِيمُ تَغْيِيرِ الْإِنْسَانِ بِصُورَتِهِ ٤٦٤
- تَكَرَّرُ ذِكْرِ تَوْحِيدِ الْأُلُوْهِيَّةِ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ دَلِيلُ أَهْمِيَّتِهِ ٤٦٥
- [٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ٤٦٦
- فَائِدَةُ تَقْدِيمِ ذِكْرِ الْآيَاتِ الْمُحْكِمَاتِ عَلَى الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ ٤٦٦
- النَّاسُ بِاعْتِبَارِ الْمُتَشَابِهِ فِي الْقُرْآنِ قِسْمَانِ ٤٦٧
- المرادُ بِالْفِتْنَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: صَدُّ النَّاسِ عَنْ دِينِهِمْ ٤٦٧
- الِاخْتِلَافُ فِي مَوْضِعِ الْوَقْفِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ٤٦٧
- لَا يَتَّعِظُ بِالْقُرْآنِ إِلَّا مَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ رَاجِحٍ رَاشِدٍ ٤٦٨
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٧) ٤٦٨
- الْقُرْآنُ عَلَى قِسْمَيْنِ: مُحْكَمٍ، وَمُتَشَابِهٍ ٤٦٨
- الْحِكْمَةُ فِي جَعْلِ بَعْضِ الْقُرْآنِ مُتَشَابِهًا ٤٦٩
- التَّشَابُهُ يَكُونُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ٤٦٩
- وُجُوبُ رَدِّ الْمُتَشَابِهِ مِنَ النُّصُوصِ إِلَى الْمُحْكَمِ ٤٦٩

- الْجَمْعُ بَيْنَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ٤٦٩
- الْجَمْعُ بَيْنَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ٤٧٠
- مَا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَنَاقَضَ ٤٧٠
- مَنْ لَمْ يَتَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ ٤٧١
- [٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ ٤٧١
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٨) ٤٧٢
- أَهَمِّيَّةُ سُؤَالِ اللَّهِ الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ ٤٧٢
- أَعْظَمُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ: هِدَايَتُهُ لِلْإِسْلَامِ ٤٧٢
- التَّأَكِيدُ عَلَى اخْتِيَارِ الْأَسْمِ الْمُنَاسِبِ عِنْدَ التَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ ٤٧٢
- [٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ٤٧٣
- إِخْلَافُ الْوَعْدِ يَكُونُ لِكُذِّبِ الْوَاعِدِ أَوْ عَجْزِهِ ٤٧٣
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٩) ٤٧٣
- [١٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ ٤٧٤
- الْوَلَدُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَشْمَلُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ٤٧٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٠) ٤٧٦
- تَبَكُّيْتُ أَهْلَ النَّارِ حِينَ يَطْلُبُونَ الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا أَوْ تَخْفِيفَ الْعَذَابِ ٤٧٧
- [١١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كَذَابٍ مَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ٤٧٨
- أَلْ فِرْعَوْنَ هُمْ أَتْبَاعُهُ عَلَى دِينِهِ ٤٧٨

- ٤٧٨ جَحْدُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ لِلْحَقِّ مَعَ عِلْمِهِمْ بِهِ
- ٤٧٩ وَجْهُ تَسْمِيَةِ الْعَذَابِ بِالْعِقَابِ
- ٤٧٩ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١١)
- ٤٨٠ فِي ذِكْرِ مَا جَرَى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ حِكْمَتَانِ
- ٤٨١ دَلَالَةُ الْآيَةِ عَلَى إِبْثَابِ الْقِيَّاسِ
- ٤٨١ [١٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُقْلُبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾
- ٤٨٢ وَجْهُ أَمْرِ اللَّهِ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ
- ٤٨٢ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٢)
- ٤٨٢ الْحُثُّ عَلَى اعْتِرَازِ الْمُسْلِمِ بِدِينِهِ، وَاسْتِشْعَارِهِ الْغَلْبَةَ عَلَى أَعْدَائِهِ
- ٤٨٢ التَّأَكُّيدُ عَلَى فِعْلِ كُلِّ مَا يُرْهَبُ الْعَدُوَّ وَيُذْلَهُ
- فَائِدَةٌ فِي بَيَانِ وَجْهِ رَدِّ اللَّهِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ
- ٤٨٢ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾
- ٤٨٣ لَا عِزَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَّا إِذَا قَامُوا بِأَمْرِ اللَّهِ
- ٤٨٣ [١٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّعْتَانِ﴾
- ٤٨٤ تَأْيِيدُ اللَّهِ بِنَصْرِهِ مَنْ شَاءَ تَابِعٌ لِحُكْمَتِهِ
- ٤٨٥ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٣)
- ٤٨٥ النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ، وَلَا بِقُوَّةِ الْعُدَدِ
- ٤٨٧ شُرُوطُ التَّمَكُّينِ فِي الْأَرْضِ
- ٤٨٧ الْحُثُّ عَلَى الْاِعْتِبَارِ وَالتَّبَصُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ
- ٤٨٨ [١٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾

- ٤٨٩ وَجْهُ الْبِدَاءِ بِالنِّسَاءِ، وَذِكْرُ الْبَيْنِ دُونَ الْبَنَاتِ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ
- ٤٩٠ سُمِّيَتِ الدُّنْيَا بِهَذَا لِسَبَبَيْنِ
- ٤٩١ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٤)
- ٤٩٣ [١٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْتَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ﴾
- ٤٩٣ أَجْمَعَ مَا قِيلَ فِي مَعْنَى التَّقْوَى
- ٤٩٤ طُهِرَتْ نِسَاءُ الْجَنَّةِ مِنْ أَمْرَيْنِ
- ٤٩٥ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٥)
- ٤٩٥ تَقْدِيمُ الْحَبْرِ عَلَى الْمُبْتَدَأِ يُدُلُّ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ
- ٤٩٦ تَنْوَعُ الْجَنَّاتُ فِي الْآخِرَةِ
- ٤٩٦ قَنَاعَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ
- ٤٩٧ أَنَهَارُ الْجَنَّةِ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ
- ٤٩٧ [١٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا مَعَاكُمْ فَأَغْفِرْ لَنَا دُؤُنَا﴾
- ٤٩٨ الْإِيمَانُ مِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ
- ٤٩٨ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٦)
- ٤٩٨ التَّوَسُّلُ نَوْعَانِ: مُحَرَّمٌ، وَجَائِزٌ
- ٤٩٩ تَحْرِيمُ التَّوَسُّلِ بِذَاتِ النَّبِيِّ ﷺ
- ٥٠٠ جَوَازُ التَّوَسُّلِ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ
- ٥٠٣ مِنَ التَّوَسُّلِ الْمَمْنُوعِ: التَّوَسُّلُ بِجَاهِ النَّبِيِّ ﷺ
- ٥٠٣ أَنْوَاعُ التَّوَسُّلِ الْجَائِزِ
- ٥٠٤ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي: التَّوَسُّلُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ

- ٥٠٤ الثَّالِثُ والرَّابِعُ: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِكُلِّ صِفَاتِهِ أَوْ إِحْدَاهَا.
- ٥٠٥ الْخَامِسُ: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِأَفْعَالِهِ.
- ٥٠٥ السَّادِسُ: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِالْإِيمَانِ.
- ٥٠٥ السَّابِعُ: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.
- ٥٠٥ الثَّامِنُ: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِذِكْرِ حَالِ الدَّاعِي.
- ٥٠٦ التَّاسِعُ: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِدُعَاءٍ مَنْ تُرْجَى إِجَابَتُهُ.
- ٥٠٦ لَا يُشْرَعُ طَلَبُ الْإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَدْعُو لَهُ.
- ٥٠٨ [١٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الْمُكْرِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.
- ٥٠٨ أَقْسَامُ الصَّبْرِ الثَّلَاثَةُ.
- ٥١٠ أَقْسَامُ النَّاسِ مَعَ الْمُصِيبَةِ.
- ٥١١ شُكْرُ اللَّهِ عَلَى الْمُصِيبَةِ يَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ.
- ٥١٣ [١٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾.
- ٥١٣ كُلُّ مَنْ دَعَا أَحَدًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ مَلَكًا أَوْ نَبِيًّا فَقَدْ أَشْرَكَ.
- ٥١٤ أُولُو الْعِلْمِ يَدْخُلُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ.
- ٥١٥ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي تَقْدِيرِهِ الْكُفْرَ بِهِ.
- ٥١٥ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِ إِبْلِيسَ.
- ٥١٦ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي تَقْدِيرِ الْأَمْرَاضِ.
- ٥١٦ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي تَقْدِيرِ الْجَذْبِ وَالْقَحْطِ.
- ٥١٦ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي تَحْرِيمِ الزِّنَا.
- ٥١٦ فَائِدَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ فِي وَصْفِ اللَّهِ تَعَالَى.

- [١٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ٥١٧
- دُخُولُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ فِي الْإِسْلَامِ بِمَعْنَاهُ الْعَامُّ ٥١٧
- تَحْرِيمُ اجْتِمَاعِ دِينَيْنِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ٥١٧
- الْإِسْلَامُ بِمَعْنَاهُ الْخَاصُّ هُوَ شَرِيعَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ ٥١٨
- مَا كَانَ كُفْرُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَّا بَغْيًا وَعُدْوَانًا وَحَسَدًا ٥١٩
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٩) ٥١٩
- كُلُّ دِينٍ سِوَى الْإِسْلَامِ فَهُوَ دِينٌ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ ٥١٩
- مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى الْيَوْمَ عَلَى دِينٍ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ ٥٢٠
- وُجُوبُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَشُرْكِهِمْ ٥٢١
- لَا تَعَارُضُ بَيْنَ وَجُوبِ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالِانْتِفَاعِ بِعُلُومِهِمْ ٥٢١
- مَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ عَلَى غَيْرِ الشَّرْعِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ ٥٢٢
- تَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لِأَهْلِ الْبِدْعِ بِدَعْوِهِمْ ٥٢٣
- الْأَصْلُ فِي الْعِبَادَاتِ الْمَنْعُ، فَلَا يُتَعَبَّدُ لِلَّهِ إِلَّا بِشَرْعِهِ ٥٢٤
- اخْتِلَافُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْحَقِّ كَانَ عَنْ عِلْمٍ ٥٢٥
- كَيْفِيَّةُ مُحَاسَبَةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ ٥٢٥
- الْحَثُّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِالتَّوْبَةِ ٥٢٦
- [٢٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ ٥٢٧
- وَجْهُ تَسْمِيَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ٥٢٧
- وَجْهُ تَسْمِيَةِ الْجَاهِلِ بِالْأُمِّيِّ ٥٢٧
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٠) ٥٢٨

- لا بَأْسَ لِلْعَالِمِ - دون غَيْرِهِ - أن يُجَادِلَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ ٥٢٨
- يَفُوتُ الرَّجُلَ مِنَ الْإِهْتِدَاءِ بِقَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ ٥٢٩
- [٢١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ﴾ ٥٣٠
- آيَاتُ اللَّهِ نَوْعَانِ: كَوْنِيَّةٌ، وَشَرْعِيَّةٌ ٥٣٠
- الْمُرَادُ مِنَ الْقَيْدِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ٥٣٠
- كُلُّ مَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ فَهُوَ عَدْلٌ ٥٣١
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١) ٥٣١
- كُلُّ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ قُتِلَ بِغَيْرِ حَقٍّ ٥٣١
- عَذَابُ أَهْلِ النَّارِ مُؤَلَّمٌ لَا يَتَأَقْلَمُونَ عَلَيْهِ أَبَدًا ٥٣٢
- وَجْهُ التَّعْبِيرِ بِالْبَشَارَةِ فِي مَقَامِ الْعَذَابِ مَعَ أَنَّهَا تَكُونُ فِيمَا يَسُرُّ ٥٣٢
- دِفَاعُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَنْ أَوْلِيَائِهِ ٥٣٣
- [٢٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ... ٥٣٣
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٢) ٥٣٤
- لَا عَمَلٌ يُبْطِلُ الْأَعْمَالَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا الْكُفْرُ ٥٣٤
- يُحَاسِبُ الْكَافِرُ عَلَى كُلِّ نِعَمٍ اللَّهُ عَلَيْهِ ٥٣٤
- [٢٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ
- لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ ٥٣٥
- أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْيَهُودُ ٥٣٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٣) ٥٣٦
- التَّعْبِيرُ بِلَفْظِ ﴿يُدْعَوْنَ﴾ يَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ الدَّاعِينَ لَهُمْ ٥٣٦

- [٢٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّكَ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ ٥٣٧
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٤) ٥٣٨
- إِقْرَارُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالْآخِرَةِ وَالْبَعْثِ ٥٣٨
- إِقْرَارُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ ٥٣٩
- التَّحْذِيرُ مِنْ اسْتِحْسَانِ الْعَمَلِ وَهُوَ سَيِّئٌ ٥٣٩
- تَحْذِيرُ الْعَالِمِ مِنْ مُخَالَفَةِ مَا يَعْلَمُهُ، وَأَهْمِيَّةِ اخْتِيَاظِهِ لِنَفْسِهِ أَكْثَرَ ٥٣٩
- [٢٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ٥٤٠
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٥) ٥٤١
- وُقُوعُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ هُوَ مُقْتَضَى حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ٥٤١
- [٢٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ
- مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ ٥٤٢
- نَزْعُ الْمُلْكِ يَكُونُ بِالْمَوْتِ، وَبِاسْتِيلَاءِ غَيْرِهِ عَلَى مُلْكِهِ ٥٤٢
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦) ٥٤٣
- لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَغْتَرَّ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ ٥٤٤
- لَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَسْأَلَ غَيْرَ اللَّهِ ٥٤٤
- يُضَافُ الْخَيْرُ إِلَى اللَّهِ، وَلَا يُضَافُ إِلَيْهِ الشَّرُّ ٥٤٤
- [٢٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ٥٤٥
- إِخْرَاجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ يَشْمَلُ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتَ، وَالْحَيَاةَ إِمَّا حَسِيَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً ٥٤٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٧) ٥٤٦
- رَزَقُ اللَّهِ دَلِيلٌ عَلَى الرِّضَا إِذَا كَانَ الْعَبْدُ مُسْتَقِيمًا، وَإِلَّا فَهُوَ اسْتِدْرَاجٌ ٥٤٧

- [٢٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٤٨
- أَسْبَابُ تَوَلَّى الْكَافِرِينَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ٥٤٨
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٨) ٥٤٩
- تَحْرِيمُ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ٥٤٩
- وُجُوبُ مَوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ ٥٤٩
- عُقُوبَةُ مَنْ اتَّخَذَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ٥٥٠
- جَوَازُ مُدَارَاةِ الْكُفَّارِ عَلَى وَجْهِ لَا يَصِلُ إِلَى الْمَوَالَاةِ ٥٥٠
- مَرْجِعُ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ شَرْعًا وَقَدَرًا، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَبْدِ فِي هَذَا ٥٥٠
- [٢٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ تَحْفَظُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ ٥٥١
- الْأَسْمَاءُ الْمَوْصُولَةُ تُفِيدُ الْعُمُومَ ٥٥١
- دَلَالَةُ نَقْضِ الْعَزَائِمِ، وَصَرْفِ الْهِمَمِ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ٥٥١
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٩) ٥٥٢
- وُجُوبُ مُرَاقَبَةِ اللَّهِ فِيمَا يُضْمِرُهُ الْعَبْدُ ٥٥٢
- لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ إِظْهَارُ مَا الْحِكْمَةُ إِخْفَاؤُهُ، وَلَا إِخْفَاءُ مَا الْحِكْمَةُ إِظْهَارُهُ ٥٥٢
- مَنْ عَلِمَ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَلَنْ يَيْئَسَ مِنْ رَحْمَتِهِ ٥٥٣
- [٣٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَحْدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخْمَصَّرًا﴾ ٥٥٤
- الرَّأْفَةُ: أَشَدُّ الرَّحْمَةِ وَأَلْيَنُهَا ٥٥٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣٠) ٥٥٥
- شِدَّةُ كَرَاهَةِ أَصْحَابِ الشُّوْءِ لِأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٥٥٦
- [٣١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ٥٥٧

- ٥٥٧ تُسَمَّى هَذِهِ الْآيَةُ: آيَةُ الْمِحْنَةِ
- ٥٥٨ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣١).
- ٥٥٨ مِنْ عَلَامَاتِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ: تَحْقِيقُ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ
- ٥٥٨ مَحَبَّةُ اللَّهِ تَتَعَلَّقُ بِالْأَعْمَالِ، وَالْأَزْمَانِ، وَالْأَمَاكِينِ، وَالرِّجَالِ
- ٥٦٠ اتِّبَاعُ النَّبِيِّ ﷺ سَبَبٌ لِلْمَغْفِرَةِ
- ٥٦٠ [٣٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾
- ٥٦٠ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣٢).
- ٥٦٠ الْأَصْلُ فِي الْأَمْرِ: الْوُجُوبُ، خُصُوصًا فِي الْعِبَادَاتِ
- ٥٦٠ [٣٣-٣٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
- ٥٦١ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الْأَبُ الْأَوَّلُ لِلْبَشَرِ، وَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الْأَبُ الثَّانِي لَهُمْ
- ٥٦٣ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣٣).
- ٥٦٣ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣٤).
- ٥٦٤ التَّحْذِيرُ مِنْ أَنْ يُسْمِعَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ أَوْ أَنْ يَعْمَلَ مَا لَا يَرْضَاهُ
- ٥٦٤ [٣٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾
- ٥٦٤ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣٥).
- ٥٦٤ جَوَازُ النَّذْرِ فِي الشَّيْءِ الْمُبْهَمِ
- ٥٦٥ جَوَازُ هِبَةِ الْمَجْهُولِ
- ٥٦٥ مَنْ فَعَلَ طَاعَةً فَلَيْسَ أَلِ اللَّهِ قَبُولَهَا، وَلَا يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ
- ٥٦٥ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَيْكِنْ خَائِفًا رَاجِيًا

- ٥٦٦ ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ بِاسْمِي اللَّهِ: السَّمِيعُ، وَالْعَلِيمُ
- ٥٦٦ [٣٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا وَصَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾
- ٥٦٧ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣٦).
- ٥٦٧ مَنْ لَمْ يَتِمَّ مَقْصُودُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ فَلْيَعْتَذِرْ مِنْ اللَّهِ
- ٥٦٧ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَدْفَعَ كُلَّ تَوْهَمٍ يَرُدُّ عَلَى كَلَامِهِ
- ٥٦٨ دِينُ الْإِسْلَامِ دِينُ الْعَدْلِ، لَا دِينَ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمُخْتَلِفَاتِ
- ٥٦٩ التَّنْبِيهُ عَلَى عَدَمِ تَلَقُّفِ أَيِّ كَلِمَةٍ قَبْلَ تَمْحِصِ مَذْلُولَاتِهَا
- ٥٦٩ وَقْتُ تَسْمِيَةِ الْمَوْلُودِ الْمَشْرُوعُ
- ٥٧٠ مَا اشْتَهَرَ مِنْ حَدِيثٍ: «خَيْرُ الْأَسْمَاءِ مَا مُحَمَّدٌ وَعَبْدٌ» مَوْضُوعٌ مَكْذُوبٌ
- ٥٧٠ تَحْرِيمُ التَّسْمِيَةِ بِالْأَسْمَاءِ الْخَاصَّةِ بِالْكَفَّارِ
- ٥٧١ الْحَثُّ عَلَى تَعْوِيدِ الْأَوْلَادِ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
- ٥٧١ [٣٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَنَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾
- ٥٧٢ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣٧).
- ٥٧٢ مَا أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِالْدُّعَاءِ إِلَّا لِجَبِيهِهِمْ
- ٥٧٢ الْأَوْقَاتُ وَالْأَحْوَالُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا إِجَابَةُ الدُّعَاءِ أُخْرَى
- ٥٧٤ مَنْ ضَيَّعَ حَقَّ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ ضَيَّعَ أَهْلُهُ حَقَّ اللَّهِ فِيهِ
- ٥٧٤ وَجُوبُ كَوْنِ حَضَانَةِ الصَّغِيرِ تَحْتَ صَالِحٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ
- ٥٧٥ كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ لَهَا فَائِدَتَانِ
- ٥٧٥ ضَابِطُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ
- ٥٧٦ ثُبُوتُ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ فِي الْأَمَمِ السَّابِقَةِ، وَفِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَمِثْلَةُ ذَلِكَ

- الكراماتُ في التَّابِعِينَ أَكْثَرُ مِنْهَا فِي الصَّحَابَةِ ٥٧٧
- الْفَرْقُ بَيْنَ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَخَوَارِقِ أَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ ٥٧٧
- التَّنبِيهُ عَلَى كِتَابَةِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي مِحْرَابِ الْمَسَاجِدِ ٥٧٨
- [٣٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ ٥٧٩
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣٨) ٥٨٠
- الْجَمْعُ بَيْنَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ» ٥٨١
- لَا تَنَافُضُ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ ٥٨١
- الشُّكْرُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، فَمَنْ وَفَّقَ إِلَيْهِ فَلْيَشْكُرِ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ ٥٨١
- مَنْ سَأَلَ رَبَّهُ فَلْيَسْأَلْهُ أَفْضَلَ مَا يَكُونُ ٥٨٢
- [٣٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا دُعِيَ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ ٥٨٣
- كُلُّ مَنْ وَصِفَ بِالنُّبُوَّةِ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ نَبِيٌّ رَسُولٌ ٥٨٤
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣٩) ٥٨٥
- مَنْ أَنْكَرَ وَجُودَ الْمَلَائِكَةِ فَهُوَ مُرْتَدٌّ ٥٨٥
- تَجُوزُ مُحَاطَةُ الْمُصَلِّيِّ مَا أُمِنَتْ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ ٥٨٥
- مِنْ هَذِي النَّبِيِّ ﷺ: بَشَارَةُ الْإِنْسَانِ بِمَا يَسُرُّهُ ٥٨٥
- جَوَازُ اتِّخَاذِ الْإِنْسَانِ مُصَلًّى لَهُ فِي بَيْتِهِ ٥٨٦
- مَنْ أُرْسِلَ بِشَيْءٍ فَلْيَحَافِظْ عَلَى الصَّيْغَةِ الَّتِي أُرْسِلَ بِهَا ٥٨٦
- مِنْ مَنَاقِبِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَوَلَّى تَسْمِيَتَهُ ٥٨٦

- أخبرَ الله عن نَفْسِهِ بِأُمُورٍ تَحَارُّ فِيهَا الْعُقُولُ، وَلَا تُنَكِّرُهَا ٥٨٧
- تَحْرِيمُ عَرْضِ النُّصُوصِ عَلَى الْعُقُولِ لِقَبُولِهَا أَوْ رَدِّهَا ٥٨٩
- كَمَالُ الْعِقَّةِ مَنْقَبَةٌ لَا يَنَالُهَا إِلَّا الْخُلَّصُ ٥٨٩
- [٤٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾ ٥٩٢
- سُؤَالُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ سُؤَالَ تَثَبُّتٍ لَا اسْتِنكَارٍ ٥٩٢
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤٠) ٥٩٣
- لَا عَضَاضَةَ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَصِفَ حَالَهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ ٥٩٣
- [٤١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ ٥٩٤
- ذِكْرُ اللَّهِ يَكُونُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْأَرْكَانِ ٥٩٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤١) ٥٩٦
- ثُبُوتُ الْعَمَلِ بِالْقَرَائِنِ ٥٩٦
- الْعَمَلُ بِالْإِشَارَةِ الْمَفْهُومَةِ ٥٩٧
- مَشْرُوعِيَّةُ التَّسْبِيحِ فِي أَوَّلِ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ ٥٩٧
- [٤٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ﴾ ٥٩٧
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤٢) ٥٩٨
- مَنْقَبَةُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٥٩٨
- كَلَامُ الْمَلَائِكَةِ مَسْمُوعٌ مُكُونٌ مِنْ حُرُوفٍ ٥٩٨
- صَحَّةُ إِطْلَاقِ الْعَامِّ، وَيُرَادُّ بِهِ الْخَاصُّ ٥٩٩
- [٤٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ يَمْرَيْمُ اقْنِصِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ٥٩٩
- سَبَبُ التَّعْبِيرِ بِالرَّاكِعِينَ دُونَ الرَّاكِعَاتِ ٦٠٠

- ٦٠٠ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤٣).
- ٦٠٠ الإِقْرَارُ بِالرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ يَسْتَلْزِمُ تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ
- ٦٠٠ ذِكْرُ الْإِنْسَانِ لِعِبَادَةِ غَيْرِهِ سَبَبٌ لِنَشَاطِهِ فِي الْعِبَادَةِ
- ٦٠١ [٤٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾
- ٦٠١ الْغَيْبُ نَوْعَانِ
- ٦٠٢ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤٤).
- ٦٠٢ الْعَمَلُ بِالْقُرْعَةِ جَاءَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ
- ٦٠٢ تَتَعَيَّنُ الْقُرْعَةُ فِي مَوْضِعَيْنِ
- ٦٠٣ [٤٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِكُم مِّنْهُ﴾
- ٦٠٣ الْمُرَادُ بِكَوْنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَلِمَةً مِنَ اللَّهِ
- ٦٠٤ وَجْهٌ تَسْمِيَةٌ عِيسَى بِالْمَسِيحِ
- ٦٠٤ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤٥).
- ٦٠٥ مَشْرُوعِيَّةُ بَشَارَةِ الْإِنْسَانِ بِمَا يَسُرُّ
- ٦٠٥ يُبْدَأُ بِاللَّقَبِ قَبْلَ الْإِسْمِ إِذَا كَانَ اللَّقَبُ أَشْهَرَ
- ٦٠٥ يُنْسَبُ الْإِنْسَانُ إِلَى أُمِّهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ
- ٦٠٥ كَيْفَ يُنْسَبُ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ، وَنُسْبَتُهُ إِلَى أُمِّهِ تُؤْذِيهِ؟
- ٦٠٧ [٤٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾
- ٦٠٧ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤٦).
- ٦٠٧ مِنْ تَمَامِ قُدْرَةِ اللَّهِ: إِنْطَاقٌ مَنْ لَا يَنْطِقُ، وَإِسْكَاتٌ مَنْ يَنْطِقُ
- ٦٠٧ مُنَاسَبَةُ آيَاتِ عِيسَى لَزَمَنِهِ

- [٤٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ ٦٠٨
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤٧) ٦٠٩
- الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ أَبَوَيْنِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ ٦٠٩
- قَضَاءُ اللَّهِ عَلَى نَوْعَيْنِ ٦١٠
- إثْبَاتُ الْقَوْلِ لِلَّهِ بِصَوْتٍ وَحُرُوفٍ ٦١١
- [٤٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ٦١٣
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤٨) ٦١٣
- فَضِيلَةُ الْعِلْمِ، وَعِظْمُ نِعْمَةِ اللَّهِ بِهِ ٦١٣
- التَّرْغِيبُ فِي مَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ وَأَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ ٦١٣
- الْفَائِدَةُ مِنْ تَعْلِيمِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّوْرَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْإِنْجِيلُ ٦١٤
- نَسْخُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ٦١٤
- تَحْرِيمُ الرُّجُوعِ إِلَى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَقِرَاءَتِهِمَا ٦١٤
- تَحْرِيفُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْمَوْجُودَةِ الْآنَ ٦١٤
- [٤٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ٦١٥
- إِسْرَائِيلُ لَقَبُ لِيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ٦١٥
- الآيَاتُ الَّتِي أُوتِيَهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ٦١٦
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤٩) ٦١٧
- مِنْ أَعْظَمِ مَنَنِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ: أَنْ يَتَّخِذَ مِنْهُمْ رَسُولًا ٦١٧
- إِزْتُ أَهْلُ الْعِلْمِ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي أُمَّتِهِ تَعْلِيمًا وَتَرْبِيَةً وَدَعْوَةً ٦١٧
- الْحَثُّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ٦١٨

- ٦١٨ رِسَالَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَاصَّةً، وَلَيْسَتْ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ
- ٦١٨ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ كُلُّ رَسُولٍ بِآيَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ؛ لَتَقُومَ بِذَلِكَ الْحُجَّةُ
- ٦١٨ الْآيَاتُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَا تَحْصُلُ بِكَسْبِ الْإِنْسَانِ وَعَمَلِهِ
- ٦١٩ قَدْ يَأْذُنُ اللَّهُ بَشِيءٍ فِي زَمَنٍ، وَيَمْنَعُهُ فِي زَمَنٍ آخَرَ
- ٦١٩ لَا تَسْتَقِلُّ الْأَسْبَابُ بِالتَّأَثِيرِ
- ٦١٩ لَا عِلَاجَ لِلْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ فِيمَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ
- ٦٢٠ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْكُلَ مَا يَحْتَاجُ، وَيَدَّخِرَ مَا لَا يَحْتَاجُ
- ٦٢٠ الْآيَاتُ نِعْمَةٌ عَلَى الرَّسُولِ، وَعَلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ
- ٦٢١ [٥٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾
- ٦٢١ تَصْدِيقُ عِيسَى لِلتَّوْرَةِ عَلَى وَجْهَيْنِ
- ٦٢١ شَرْطُ آيَاتِ الرُّسُلِ أَلَّا يَسْتَطِيعَ بَشَرٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهَا
- ٦٢٢ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٥٠)
- ٦٢٢ مِنْ حُسْنِ إِقَامَةِ الدَّلِيلِ: الِاسْتِدْلَالُ بِمَا يُقَرِّبُهُ الْحَصْمُ
- ٦٢٣ النَّسْخُ وَاقِعٌ فِي الشَّرْعِ لِحُكْمَةِ اقْتَضَتْ أَنْ يُغَيَّرَ الْحُكْمُ الْأَوَّلُ
- ٦٢٣ شَرِيعَةُ عِيسَى جَاءَتْ بِالتَّيْسِيرِ وَالتَّسْهِيلِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ
- ٦٢٣ مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ عَلَى يَدَيْهِ آيَاتٍ يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهَا الْبَشَرُ
- ٦٢٤ [٥١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾
- ٦٢٤ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٥١)
- ٦٢٤ إِبْطَالُ قَوْلِ النَّصَارَى بِاللَّوْهِيَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
- ٦٢٥ مَنْ أَقَرَّ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لَزِمَهُ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ

- ٦٢٥ صلاح الأُمَّة بعبادة الله
- [٥٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ٦٢٦
- ٦٢٦ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٥٢).
- ٦٢٦ جَوَازُ الْإِنْتِدَابِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لِتَبَيَّنِ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ
- ٦٢٧ جَوَازُ قَوْلِ: «أَنَا مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ» بِدُونِ اسْتِثْنَاءٍ
- ٦٢٧ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُشْهَدَ غَيْرُهُ عَلَى إِسْلَامِهِ
- [٥٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ٦٢٧
- ٦٢٨ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٥٣).
- ٦٢٨ يَتَبَيَّنُ الشَّخْصُ بِالْإِشَارَةِ، وَالْإِسْمِ، وَالْإِضَافَةِ، وَ(أَلِ) الذَّهْنِيَّةِ
- ٦٢٨ مَشْرُوعِيَّةُ سُؤَالِ الْعَبْدِ رَبَّهُ أَنْ يَكُونَ مَعَ الشَّاهِدِينَ
- [٥٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾ ٦٢٩
- ٦٢٩ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٥٤).
- ٦٢٩ كُلُّ مَنْ مَكَرَ وَخَادَعَ اللَّهَ خَدَعَهُ اللَّهُ وَمَكَرَ بِهِ
- ٦٣٠ التَّحِيلُ عَلَى الرَّبِّ لَا يُحِلُّهُ
- ٦٣٠ شَبَهُ الْمُتَحِيلِ عَلَى الْمُحَرَّمِ بِالْيَهُودِ
- ٦٣١ ثُبُوتُ صِفَةِ الْمَكْرِ لِلَّهِ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ صِفَاتِهِ
- ٦٣١ صِفَةُ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالْخِدَاعِ لَا تُقَالُ فِي حَقِّ اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ
- ٦٣١ نَفْيُ صِفَةِ الْخِيَانَةِ عَنِ اللَّهِ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ فِي هَذَا
- [٥٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ٦٣٢
- ٦٣٣ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٥٥).

- ٦٣٣ مَشْرُوعِيَّةُ الْاِعْتِبَارِ وَالِاتِّعَازِ بِقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ
- ٦٣٣ إِبْثَاتُ الْقَوْلِ لِلَّهِ، وَضَلَالُ مَنْ نَفَاهُ عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
- ٦٣٤ عَلُوُّ اللَّهِ ثَابِتٌ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ وَالْفِطْرَةِ وَالْعَقْلِ
- ٦٣٤ ضَلَالُ مَنْ أَنْكَرَ عَلُوَّ اللَّهِ
- ٦٣٦ مَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ وَاحِدٍ فَقَدْ كَذَّبَ الرُّسُلَ كُلَّهُمْ
- ٦٣٧ سُمِّيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهَذَا لثَلَاثَةِ أَوْجُهُ
- ٦٣٨ مَنْ عَلِمَ أَنَّ مَرْجِعَهُ إِلَى اللَّهِ أَعَدَّ جَوَابًا مُنْجِيًّا عَاصِمًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
- [٥٧-٥٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَبُهمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ﴾
- ٦٣٩ □ فَوَائِدُ الْآيَتِينَ (٥٧-٥٦)
- ٦٤٠ فَطُعُ رَجَاءٍ مَنْ يَعْبُدُ الْقَبْرَ يَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ
- ٦٤٠ لَا بُدَّ مِنْ إِيْمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ لِمَنْ أَرَادَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ
- ٦٤٠ لَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ عَمَلُهُ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ
- ٦٤١ مَنْ أَوْقَفَ بَيْتَهُ عَلَى بَعْضِ أَوْلَادِهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ
- ٦٤٣ [٥٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾
- ٦٤٣ □ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٥٨)
- ٦٤٤ الْآيَاتُ نَوْعَانِ: كَوْنِيَّةٌ، وَشَرْعِيَّةٌ
- ٦٤٥ لَا يَتَذَكَّرُ بِالْقُرْآنِ إِلَّا مَنْ كَانَ ذَالِبٌ، وَهُوَ عَلَامَةٌ عَلَى التَّوْفِيقِ
- ٦٤٥ وَصَفُ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ حَكِيمٌ لَهُ مَعْنَيَانِ
- ٦٤٥ [٥٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾

- ٦٤٦ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٥٩).
- ٦٤٦ استِعمالُ القياسِ هو العَدْلُ والمِيزَانُ.
- ٦٤٦ الجَمْعُ بين الآياتِ في مَبْدَأِ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- ٦٤٦ خَلَقَ آدَمَ أَبْلَغُ مِنْ خَلَقِ عِيسَى فِي بَيَانِ قُدْرَةِ اللَّهِ.
- ٦٤٧ لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ عِلْمُ قُدْرَةِ اللَّهِ أَنْ يَسْتَصْعِبَ شَيْئًا عَلَى اللَّهِ.
- ٦٤٧ [٦٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.
- ٦٤٨ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٦٠).
- ٦٤٨ لَا يَصْدُرُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ.
- ٦٤٨ [٦١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا﴾.
- ٦٤٩ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٦١).
- ٦٤٩ لَا يَزَالُ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ وَيَأْتُونَ بِزُخْرَفِ الْقَوْلِ.
- ٦٤٩ لَا يُبَاهِلُ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ، وَإِلَّا كَانَتْ هَزِيمَتُهُ هَزِيمَةً لِلْحَقِّ.
- ٦٤٩ الدَّعْوَةُ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ تَكُونُ فِي الْأُمُورِ الْكَبِيرَةِ.
- ٦٥٠ [٦٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾.
- ٦٥٠ اسْمُ اللَّهِ (الْحَكِيمِ) لَهُ مَعْنَيَانِ.
- ٦٥٠ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٦٢).
- ٦٥١ وَجُوبُ افْتِنَاعِ الْإِنْسَانِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ.
- ٦٥٢ وَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ اسْمَيْ اللَّهِ: الْعَزِيزِ، وَالْحَكِيمِ.
- ٦٥٢ [٦٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.
- ٦٥٣ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٦٣).

- كُلُّ مَنْ تَوَلَّى عَنْ مُجَادَلَةٍ يُقْصِدُ بِهَا إِظْهَارُ الْحَقِّ فَهُوَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٦٥٣
- [٦٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ ٦٥٣
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٦٤) ٦٥٤
- مَنْ عَدَلَ الْإِسْلَامَ: أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْعَدْلِ مَعَ مُعَارَضِيهِ ٦٥٤
- لَا بَأْسَ بِتَلْقِيبِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِأَهْلِ الْكِتَابِ ٦٥٤
- مَنْ جَادَلَ أَهْلَ الْكُفْرِ فَأَبَوْا فليُغْلِنِ الْحَقَّ، وَلَا يُيَالِ ٦٥٥
- [٦٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّوهُ فِي إِزْهِيمٍ﴾ ٦٥٥
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٦٥) ٦٥٦
- ذِكْرُ صُورَةٍ مِنْ خَبَلٍ وَجُنُودِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ٦٥٦
- وُجُوبُ تَوْبِيخٍ مَنْ قَالَ بِالْبَاطِلِ ٦٥٦
- [٦٦] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ٦٥٧
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٦٦) ٦٥٨
- الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ حَاجَّ بِالْبَاطِلِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ عِلْمٍ كَانَ الْإِنْكَارُ أَشَدَّ ٦٥٨
- سَعَةُ عِلْمِ اللَّهِ لِلْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ ٦٥٨
- [٦٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِزْهِيمٌ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ ٦٥٩
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٦٧) ٦٥٩
- بِرَاءَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ دِينِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ٦٥٩
- هَذِهِ الْأُمَّةُ هِيَ الْأُمَّةُ الْمُتَّبِعَةُ لِإِبْرَاهِيمَ حَقِيقَةً ٦٦٠
- [٦٨] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى الْنَّاسِ بِإِزْهِيمٍ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ
- ءَامَنُوا﴾ ٦٦٠

- ٦٦٠ كان النَّبِيُّ ﷺ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا
- ٦٦١ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٦٨).
- ٦٦١ مَنْ أَنْكَرَ بُعْثَةَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ كَوَّنَهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ فَقَدْ كَفَرَ .
- ٦٦٢ لَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى
- ٦٦٢ ضَلَالٌ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْوَلَايَةَ أَعْلَى رُتْبَةٍ مِنَ النُّبُوَّةِ
- ٦٦٢ أَحَقُّ النَّاسِ بِوَصْفِ الْوَلَايَةِ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ
- ٦٦٣ كُلُّ مَنْ كَانَ أَقْوَى إِيْمَانًا كَانَ أَصْدَقَ وَلَايَةٍ
- ٦٦٣ إِذَا عُلِقَ الْحُكْمُ عَلَى وَصْفٍ أَزْدَادَ بَزِيَادَةِ الْوَصْفِ، وَنَقَصَ بِنَقْصَانِهِ
- ٦٦٣ [٦٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾
- ٦٦٣ سَعَى أَهْلُ الْكِتَابِ فِي إِضْلَالِ الْمُسْلِمِينَ يُعَدُّ ضَلَالًا لَهُمْ
- ٦٦٤ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٦٩).
- ٦٦٤ شِدَّةُ عَدَاوَةِ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْهُمْ
- ٦٦٤ مَنْ سَعَى لِإِضْلَالِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا أَضَلَّ نَفْسَهُ
- ٦٦٤ قَدْ يَقَعُ الْإِنْسَانُ فِي الضَّلَالِ مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ
- ٦٦٤ مِيزَانُ تَصَرُّفَاتِ الْعَبْدِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
- ٦٦٥ [٧٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ﴾
- ٦٦٥ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٧٠).
- ٦٦٥ الْكُفْرُ مَعَ الْعِلْمِ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ
- ٦٦٦ عِلْمُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمَعْرِفَتُهُمْ بِالْحَقِّ
- ٦٦٦ [٧١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ

- تَعْلَمُونَ ﴿..... ٦٦٦
- ٦٦٧ ■ فوائد الآية (٧١).
- ٦٦٧ مَنْ خَلَطَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَأَلْقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ شَابَهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
- ٦٦٧ تَحْرِيمُ كَتْمِ الْحَقِّ مَعَ وُجُودِ الدَّاعِي لِبَيَانِهِ وَإِظْهَارِهِ
- ٦٦٧ وَجُوبُ بَيَانِ الْحَقِّ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ مَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى بَيَانِهِ
- ٦٦٧ مَنْ رَأَى أَخَاهُ عَلَى مُنْكَرٍ وَجَبَ عَلَيْهِ إِخْبَارُهُ
- ٦٦٨ مَنْ لَا يَعْلَمُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ
- ٦٦٨ التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِفْتَاءِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
- [٧٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ﴾..... ٦٦٩
- ٦٦٩ ■ فوائد الآية (٧٢).
- ٦٧٠ التَّحْذِيرُ مِنْ مَكْرِ الْيَهُودِ
- ٦٧٠ كُلَّمَا عَظُمَ الْمُحَرَّمُ كَانَتْ الْحِيلَةُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ
- ٦٧٠ مَنْ تَحَايَلَ عَلَى مُحَارِمِ اللَّهِ فَقَدْ شَابَهُ الْيَهُودَ
- ٦٧٠ الْمُرَابَحَةُ لِلْأَمْرِ بِالشَّرِّاءِ حِيلَةٌ عَلَى الرَّبَا
- [٧٤-٧٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾..... ٦٧٢
- ٦٧٤ ■ فوائد الآيتين (٧٤-٧٣)
- ٦٧٤ إِيْمَانُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يَنْفَعُهُمْ
- فَضْلُ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كِرَاهِيَةُ كَارِهِ، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا إِلَّا نَفْعَلِ
- السَّبَب ٦٧٤

- ٦٧٥ سَعَةُ اللَّهِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ
- ٦٧٥ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ بِاسْمِي اللَّهِ: (الوَاسِعُ) وَ(الْعَلِيمُ)
- ٦٧٥ لَا يَخْصُ اللَّهُ أَحَدًا بِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُ أَهْلٌ لِّذَلِكَ
- ٦٧٦ [٧٦-٧٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعِقَاطِ يُودِهِ إِِلَيْكَ﴾ ٦٧٦
- ٦٧٦ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي الْأَمَانَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ
- ٦٧٧ ■ فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (٧٦-٧٥)
- ٦٧٧ لَا بَأْسَ بِأَيْتِمَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا ظَهَرَتْ أَمَانَتُهُمْ
- ٦٧٨ قَبُولُ قَوْلِ الطَّبِيبِ الْكَافِرِ فِي الْعِبَادَاتِ
- ٦٧٩ لَا يُبَالِي أَهْلُ الْكِتَابِ بِالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ
- ٦٨٠ الْحُلَّةُ أَعْظَمُ وَأَبْلَغُ مِنَ الْمَحَبَّةِ
- ٦٨٠ لَمْ تَثْبُتْ حُلَّةُ اللَّهِ لِعَبْدٍ إِلَّا لِرَجُلَيْنِ
- ٦٨٠ وَصَفُ الرَّسُولِ ﷺ بِالْحَلِيلِ أَبْلَغُ مِنْ وَصْفِهِ بِالْحَبِيبِ
- ٦٨١ [٧٧] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ٦٨١
- ٦٨٢ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٧٧)
- ٦٨٣ مَنْ ابْتَغَى بَطْلَبَ الْعِلْمِ الدُّنْيَا فَلَا نَصِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ
- ٦٨٣ أَخْذُ مُكَافَأَةِ الدِّرَاسَةِ هَلْ تَقْدَحُ فِي النِّيَّةِ؟
- ٦٨٣ حُكْمُ طَلَبِ الْعِلْمِ فِي الْجَامِعَاتِ لِئِيلِ الشَّهَادَةِ
- ٦٨٤ مَنْ ابْتَغَى الدُّنْيَا بِالَّذِينَ فَقَدَ أَتَى كَبِيرَةً مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ
- ٦٨٤ نَصِيحَةٌ لِمَنْ لَدَيْهِ نِيَّةٌ بَاطِلَةٌ
- ٦٨٤ نَفْيُ كَلَامِ اللَّهِ لِقَوْمٍ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِهِ لغيرهم

- ٦٨٥ الحثُّ على العناية بكتابِ الله
- ٦٨٥ نظرُ الله على نَوَّعِينَ
- ٦٨٦ وَجْهٌ تَسْمِيَةٌ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بهذا
- ٦٨٦ مَنْ زَكَّاهُ اللهُ فَهُوَ الزَّكِيُّ
- [٧٨] قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ
٦٨٧ الْكِتَابِ﴾
- ٦٨٧ تَنْبِيْهُ عَلَى وَقْفٍ مُسْتَحْسَنٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ
- ٦٨٨ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٧٨).
- ٦٨٨ حِرْصُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى الْإِضْلَالِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ
- ٦٨٨ لَا لَوْمَ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا ظَنَّ الْبَاطِلَ حَقًّا بِمَا لُبَّسَ بِهِ عَلَيْهِ
- ٦٨٨ لَا يُقَرُّ اللهُ بِاطِلًا أَبَدًا مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ
- ٦٨٨ مَا فُعِلَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ انْكَارٍ فَهُوَ مُبَاحٌ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ
- ٦٨٩ جُرْأَةُ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يَقُولُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ
- ٦٩٠ فَهَرَسُ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ
- ٧٠٢ فَهَرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ وَالْفَوَائِدِ